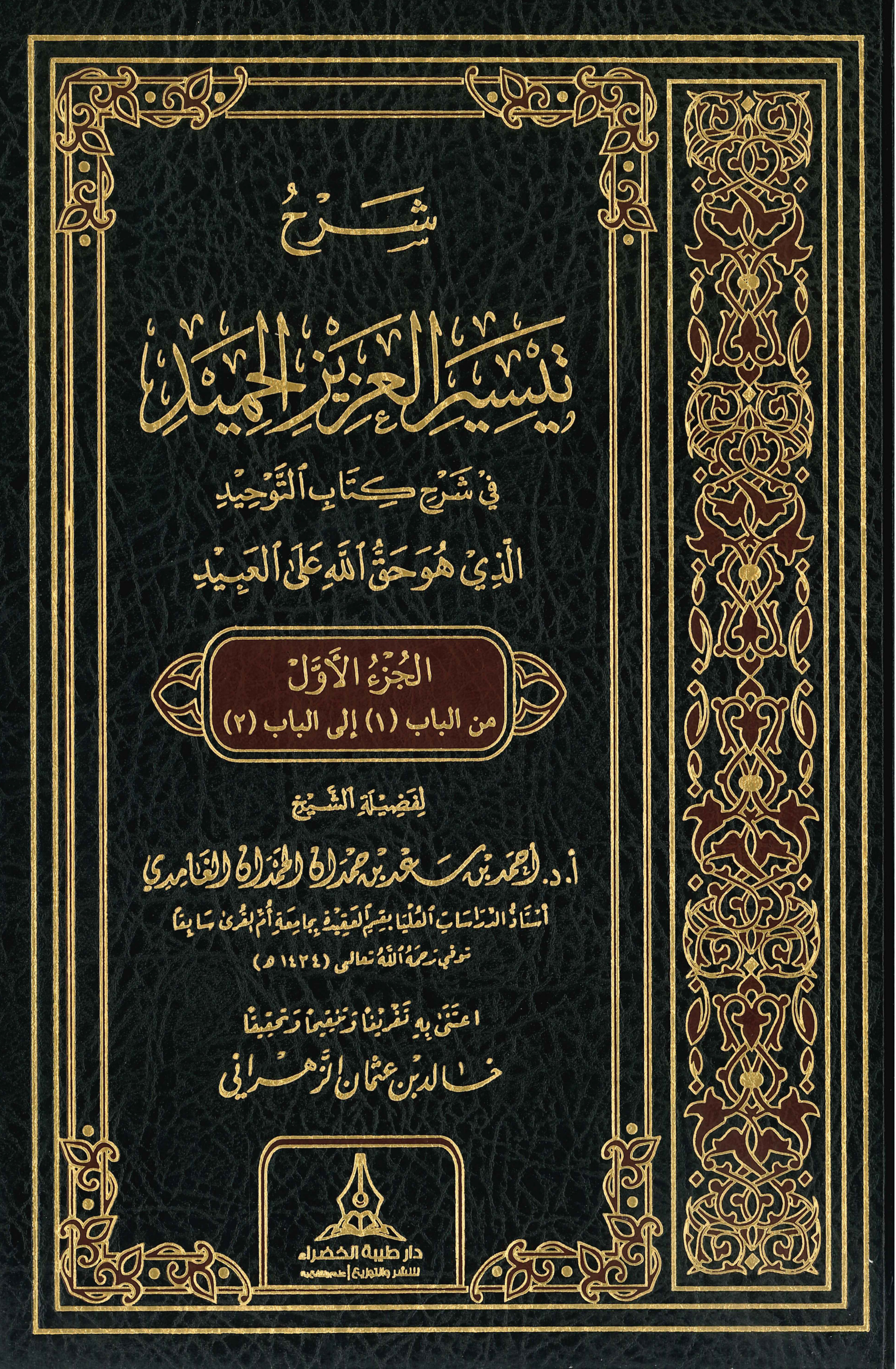
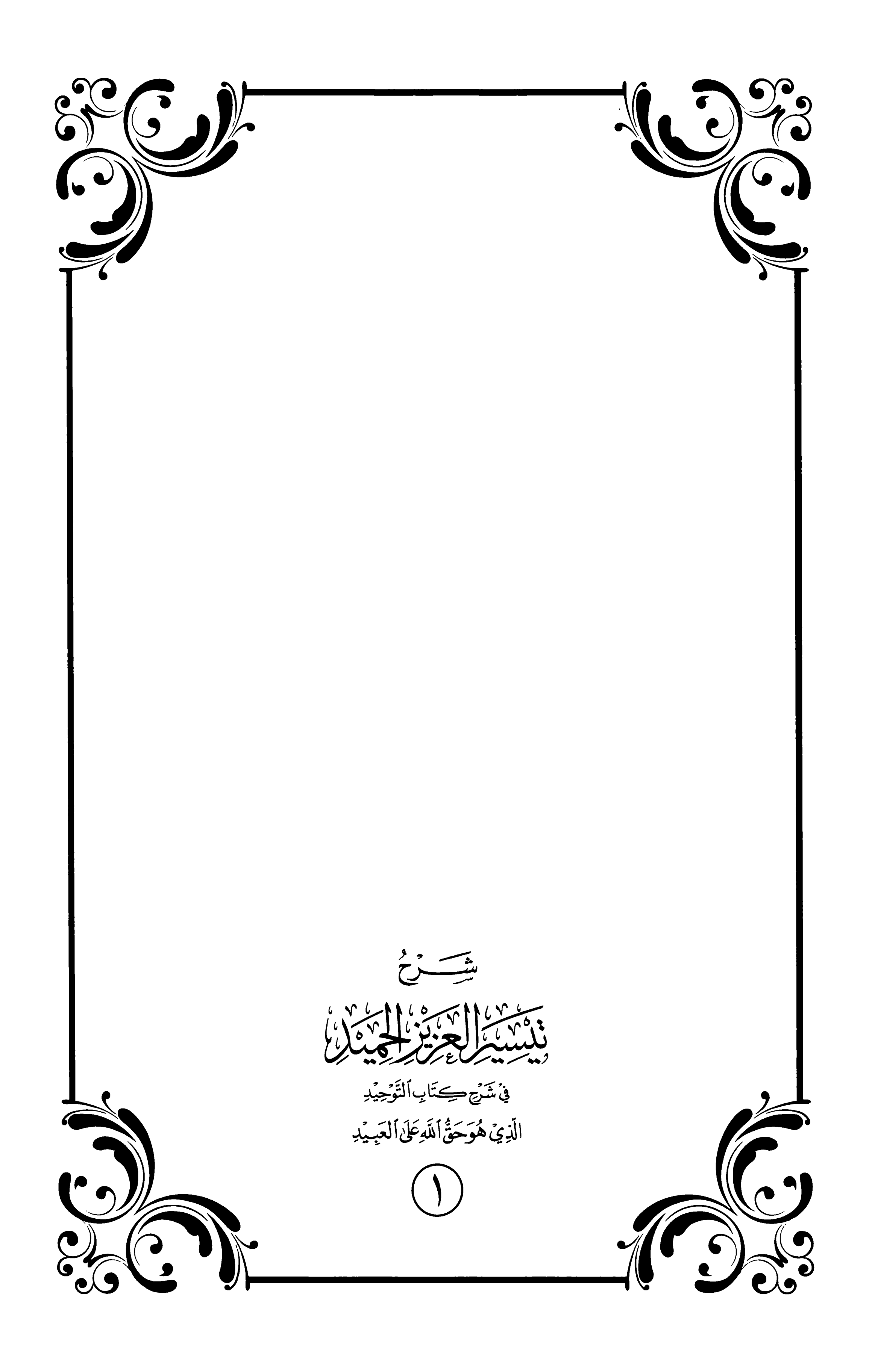

شرح
تيسير العزيز الحميد
في شرح كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد
الجزء الأول
من الباب (١) إلى الباب (٢)
لفضيلة الشيخ
أ.د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي
أستاذ الدراسات العليا بقسم العقيدة بجامعة أم القرى سابقاً
توفي رحمه الله تعالى (١٤٣٤هـ)
اعتنى به تقريظاً وتنقيحاً وتحقيقاً
خالد بن عثمان الزهراني
دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع



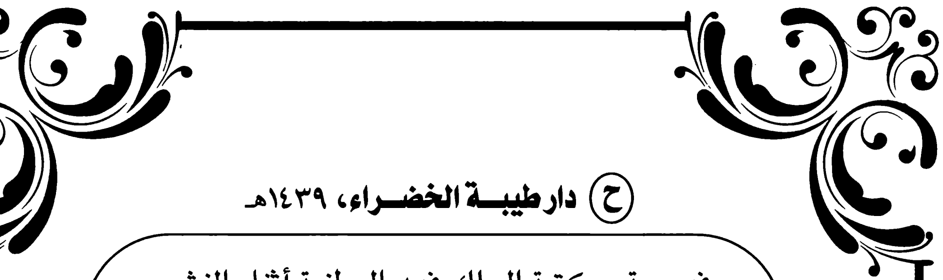
شرح

تيسير العزيز الحميد

في شرح كتاب التوحيد

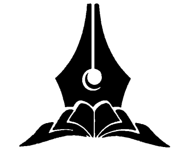
الذي هو حق الله على العبيد

(١)



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغامدي، أحمد بن سعد بن حمدان.
شرح تيسير العزيز الحميد
في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد
أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي
مكة المكرمة، ١٤٣٩هـ
٣٧٩١ ص؛ ١٧×٢٤ سم (١؛١)
ردمك: ٢-١٢-٨٢٥٩-٦٠٣-٩٧٨
١- التوحيد ٢- العقيدة الإسلامية أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٤٠ ٢١٨٢/ ١٤٤٠

رقم الإيداع: ٢١٨٢/ ١٤٤٠
ردمك: ٢-١٢-٨٢٥٩-٦٠٣-٩٧٨



الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

dar.taibagreen123 dar.taiba @dar_tg dar_tg
مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه
yyy.01@hotmail.com | ٠١٢٥٥٦٢٩٨٦ | ٠٥٠٣٥٦٨٧٧١ | ٠٥٥٠٤٢٨٩٩٢



شرح

تيسير العزيز الحميد

في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد

الجزء الأول

من الباب (١) إلى الباب (٢)

لفضيلة الشيخ

أ. د. أحمد بن سعد بن حمدان الحمدان الغامدي

أستاذ الدراسات العليا بقسم العقيدة بجامعة أم القرى سابقاً

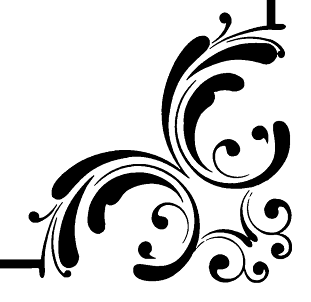
توفي رحمه الله تعالى (١٤٣٤ هـ)

اعتنى به تفريغاً وتنقيحاً وتحقيقاً

خالد بن عثمان الزهراني

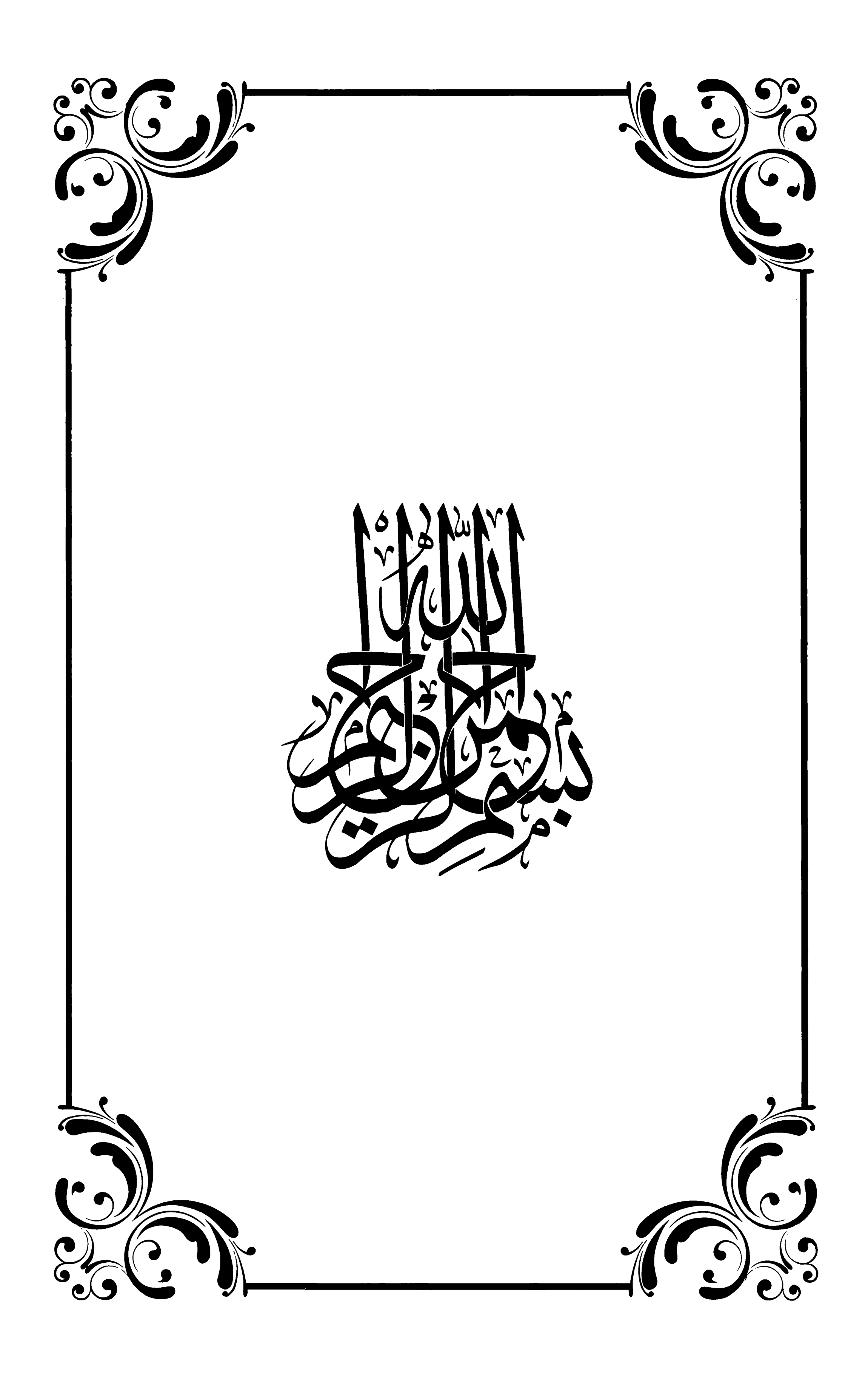


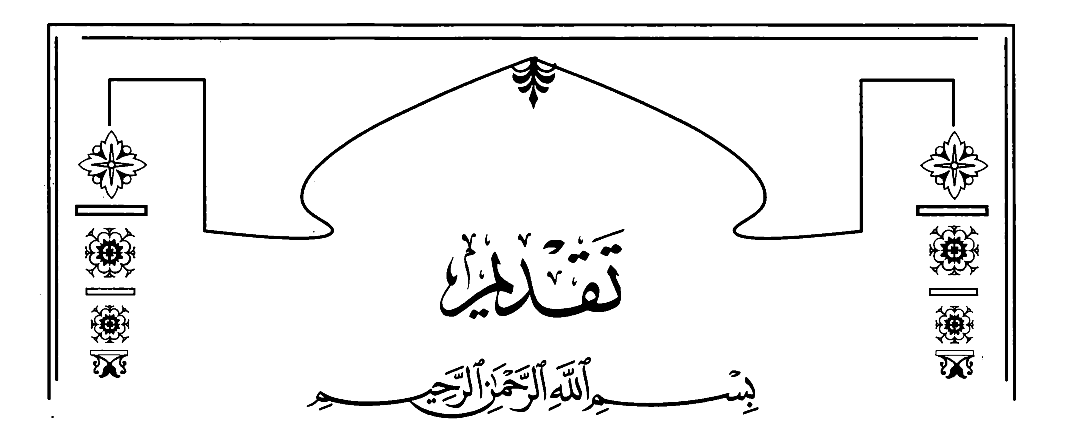




دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع | علم ينتفع به


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله، رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيًا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أما بعد:

فلا يخفى على كل ذي عقل ولب أن أهم المهمات، وأوجب الواجبات، التي كلفنا الله بها؛ توحيده ﷻ فمن أجله أُرسل كل رسول بكتاب، ودعاء كل نبي قومه بخطاب، يردونهم الى الأصل بالبيان الفصل.

ولا زال علماء الحق رحمهم الله في كل زمان ومكان، يسيرون على نهج النبوة، ويُذكرون الناس بهذا التوحيد حتى جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الثواب، وادخله الجنة بغير حساب ولا عذاب، ووضع كتابه النفيس (كتاب التوحيد) سار فيه على نهج الأوائل من العلماء بذكر الآية والحديث، ورد شبهات أتباع إبليس، بالحكمة والبيان والمنهج الأصيل.

وقد كثرت الشروح على كتاب التوحيد، وتعدد وتنوعت، ومن أولها وأنفسها وأغزرها علما، وأكثرها بيانا وحُكما، كتاب حفيد الشيخ الامام محمد، وهو العلامة المجاهد الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ووضع كتابه الموسوم ب(تيسير العزيز الحميد) شرح كتاب التوحيد، فأبدع فيه رحمه الله، وأبان عن علمه الغزير في العلوم والفنون، فأصبح الكتاب مرجعًا أصيلاً لكل من أراد فهم كتاب التوحيد على وجه الخصوص أو مسائل هذا العلم على سبيل العموم، وكتب الله لهذا الشرح القبول، فانتشر في الآفاق،

وأصبح مقصداً لطلاب العلم، وقد مات الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب قبل ان يتم الأبواب الأخيرة منه، فعمد طابع الكتاب الىٰ إكماله بكتاب آخر وهو (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد) فأخذ الأبواب الأخيرة منه وأدرجها في (تيسير العزيز الحميد).

هذا وقد تصدىٰ لشرح (كتاب التيسير) والتعليق عليه شيخنا العلامة فضيلة الشيخ أ.د أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتغمده بواسع رحمته، وقد شرحه الشيخ بشرح ماتع أبان فيه عن مكنون الكتاب، واستخرج الدرر من الأبواب، فبين المسائل الواردة في الكتاب في الفنون المختلفة، سواء في اللغة او في التوحيد أو في الحديث أو في الفقه وغيرها من المسائل التي اشتمل عليها كتاب التيسير.

وكان شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يثني كثيرا علىٰ المؤلف الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب ودعوته التي بارك الله فيها، وتكلم عنها الشيخ بكلام تجده في ثنايا هذا الشرح المبارك، وتكلم عن حفيده صاحب التيسير الشيخ العلامة سليمان بن عبد الله، فذكر من فضله وعلومه الشيء الكثير، فمما ذكر شيخنا أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله رحمه الله عن كتاب التوحيد وعن مؤلفه (وهذا الباب أورد فيه صاحب المتن جزءاً من آية، وحديثاً واحداً. والذي يقرأ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرىٰ دقة في استنباطه، فإنه يصطاد الأدلة اصطياداً)

وقال كذلك (فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سار علىٰ منهج السلف في عقد أبوابه)

وقال عن صحاب التيسير (الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَعَ أَنَّه توفي في سن مبكرة لَكنَّه كان من الجهابذة في الحَديث، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إنَّني برجال الحَديث أعرف منّي برجال الدرعية. أي: بلده التي يعيش فيها، أي: يعرف رجال الحَديث - فلان ما درجته وفلان ما مكانته -مثل ما يعرف من عاصره من الرجال، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ رغم صغر سنه كان متمكناً في الحَديث، وستأتي دقتُه....)

وقد قام فضيلته بشرح التيسير وبسط الكلام فيه في يوم الأحد الموافق للثاني عشر من شهر جمادىٰ الثاني عام ستة عشر وأربعمائة وألف للهجرة النبوية المباركة. ١٢/ ٦/ ١٤١٦، وانتهىٰ هذا التعليق المبارك في الثاني من شهر شعبان عام واحد وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة. ٢/ ٨/ ١٤٢١

وحتىٰ لا اطيل بالمقدمة بما لا يفيد أحب قبل الدخول في الكتاب والنيل من ثمره المستطاب أن أبين أموراً عدة:

أولاً: أن شيخنا العلامة رحمه الله شرح الكتاب علىٰ طبعة المكتب الإسلامي القديمة، وكان للشيخ تعقيبات واستدراكات سواء علىٰ الأخطاء المطبعية أو علىٰ التعليقات العلمية والحديثية للمحقق، وربما لا يجد القارئ في الطبعات المتأخرة للكتاب هذه الأخطاء، فكما ذكرنا أن الشيخ شرح التيسير علىٰ وفق الطبعة القديمة للكتاب.

ثانيـاً: يمتاز شرح الشيخ بعدة ميزات علمية وتربوية ومنهجية:

أما العلمية فقد توسع الشيخ في هذا المجال وخصوصاً في الجانب الحديثي، والجانب العقدي، فهذان الجانبان أوسع الجوانب التي تكلم فيها الشيخ رحمه الله، وفي جانب التفسير أيضاً، وكذلك علىٰ المسائل الأصولية والفقهية واللغوية.

أما جانب الأحاديث فقد أبدع الشيخ في هذا الباب، وأطال الكلام علىٰ كثير من المسائل الحديثية، فلا يكاد يمر أثر أو حديث في الكتاب الا ويعلق عليه، من جهة السند وذلك بذكر رجال الحديث وطرقه والحكم عليه بعد دراسة الحديث.

وفي الجانب العقدي كذلك اطال الشيخ النفس في الكلام علىٰ المسائل العقدية وخصوصاً مسائل توحيد العبادة الذي هو موضوع الكتاب ولبه، فلا يكاد يمر علىٰ مسألة الا ويشبعها بالكلام المؤصل من الكتاب والسنة، ويبين

كـذلك الفـرق التـي خالفـت اهـل السـنة في ذلـك البـاب، وبـين حـال بعـض المفتونين الذين تدثروا بلباس العلماء، فأجازوا للناس الشرك ولبسوا عليهم في دينهم. كذلك نبه الشيخ رحمه الله على بعض الأخطاء الشنيعة في هذا الباب.

وأما الأمور المنهجية فلا يخلوا شرح الشيخ من بيان الطرق المنهجيـة في فهـم النصـوص والتعامـل مع الأدلـة الشرعية، والتعامـل مع مسائل الخـلاف وغيرها من المسائل التي سيتبين ان شاء الله خلال الشرح، بل إن اهتمام الشيخ بالمسـائل المنهجيـة كـان كثيـراً للغايـة ويـبرز ذلـك مـن خـلال تعليقاتـه رحمه الله وتنبيهاته في ذلك.

وأما الجانب التربوي العقدي فهو رأس مال الكتـاب، وثمـره المسـتطاب، فالميـدان الأكـبر الـذي خاضـه شـيخنا رحمه الله هـو التربيـة علـى الايمـان والعقيـدة الصحيحة، فقد بين فيه وأعاد وزاد وأفـاد، وهـذا البـاب -أي التربيـة العقديـة - مل طالبه، وتاه راغبه بسبب كثـرة الكتـب التـي جعلـت العقيـدة والتوحيـد بابـاً نظريـاً ليس للنفس منها نصيب، ولا للقلـب فيهـا رقيـب، وأصبحت بعيـدة كـل البعد الواقع الذي نعيشه، فالشيخ رحمه الله أهتم بهذا الجانب ومـن يتأمـل في تعليقـه على الاحاديث والآيات يرى ذلك بأم عينه.

ثالثـاً: كان عملي في الكتاب: ترقيم الآيات القرآنية وتخـريج الأحاديـث النبويـة، فقد خرجت غالب الأحاديث والآثار الواردة في الشرح وهي أكثر من ألـف موضـع، إلا القليـل ممـا لـم أجده في دواويـن السنة ولا غيرهـا مـن الكتـب، وإن كانـت تلـك المواضع قليلة جداً.

وكما نعلم أن شرح الشيخ كان خطابيـاً، أملى فيه الشيخ على طلابـه المسـائل، ولذلك هو سرد الأحاديث سرداً، فكثيراً ما كان إيراده يخالف لفظ الحـديث الـوارد في الدواوين، فكان تخريج الأحاديث صعبـاً، فإذا كان الاختلاف يسيراً، مثـل زيـادة لفـظ "قـال" أو "ثـم" عدلتـه حتى يوافـق مـا في الـدواوين، وإن كـان أكثـر مـن ذلـك

فلم أتعرض له، ولكن أوردت اللفظ الصحيح في الحاشية، وقلت مثلاً: "أخرجه أبو داود... باختلاف في اللفظ". وإن كان الفرق أكثر من ذلك قلت في الحاشية: لعل الشيخ نقله بالمعنىٰ.

وكذلك تحويل الأسلوب الخطابي إلىٰ الأسلوب الكتابي، **والتدقيق اللغة والنحو والإملاء** وعلامات الترقيم.

وأنبه علىٰ بعض الملاحظات في طريقة الشيخ وشرحه علىٰ الكتاب:

١. شرح الشيخ الكتاب كاملًا تقريبًا إلا بابًا واحدًا فقط علق فيه علىٰ متن كتاب التوحيد بدون شرح التيسير، وذكر المسائل المهمة من التيسير.

٢. غير الشيخ طريقته في الشرح من باب (من الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله فأصبح يعلق علىٰ أهم المسائل التي ذكرها صاحب الشرح بإجمال في بداية الباب وبعد ذلك يعلق علىٰ ما يحتاج الىٰ تعليق.

٣. غالب النقولات عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، نقلها رحمه الله المعنىٰ فذلك تركنا كثيرا من الاحالات لكلام الشيخين لأن الشيخ رحمه الله نقلها بالمعنىٰ، وقد كان الدكتور رحمه الله يستحضر كلام الشيخين ودائم النقل لكلامهما في مجالسه الخاصة والعامة وفي محاضراته، ولذلك وبسب النقل بالمعنىٰ لم نستطع أن نبين موضع الكلام في مؤلفات الشيخين، ولعل أن ييسر في طبعة قادمة محاولة تتبع ذلك في الكتب المطبوعة.

في صباح يوم الأربعاء ٢ من جمادىٰ الأولىٰ من العام ١٤٣٤ هـ بلغني خبر وفاة الشيخ رحمه الله فكان الخبر شديد الوقع، قوي النقع، ولكن لا نقول الىٰ ما يرضي ربنا (إنا لله وإنا اليه راجعون، والشيخ رحمه الله وافته المنية ولم يكمل كتابة المقدمة للشرح، فعمدت الىٰ المقدمات التي كان الشيخ رحمه الله يليقها في بداية دروسه، فجمعتها ونقحتها وقسمتها، وكلها كما ذكرت مأخوذة من كلام الشيخ رحمه الله.

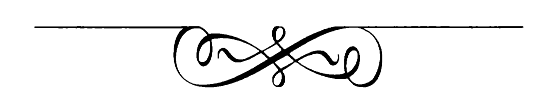
هذا وقد بذلت جهدي في إخراج الكتاب بصورة جيدة، يستفاد منه، فما كان فيه من صواب فبتوفيق الله وفضله، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله، وهو المستعان، وأناشد كل من اطلع على الكتاب أن يخص شارحه بدعواته أن يفغر له ويرحمه ويخص العبد الفقير ومن أعتنى به بدعوتك في ظهر الغيب، وكذلك من رأى في العمل خللاً أو خطأ في إخراج فليبذل لأخيه النصيحة، ويبين لي الصواب فيما رأى.

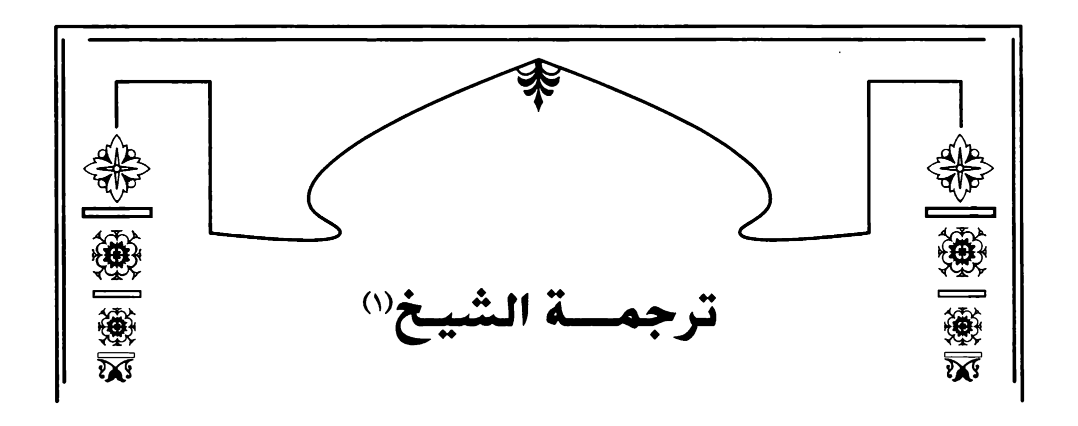
وقبل أن أضع القلم أحب أُسجل شكري لفضيلة الشيخ إبراهيم نجل الشيخ أحمد ﵀ على جهوده في إخراج الكتاب بهذه الحُلة، وأسال الله التوفيق والسداد، وأن يتقبل من الشيخ أحمد جهده وعلمه، ويتقبل منا العمل على إخراج هذا الكتاب، والله أعلم وصلى الله على نبيا محمد.

كتبه

أبو معاذ خالد بن عثمان البيضاني الزهراني

مكة المكرمة حرسها الله





ترجمة الشيخ[1]

هو الشيخ الدكتور أحمد بن سعد حمدان الغامدي. يكني بأبي إبراهيم.

نسبه: يرجع نسبه رحمه الله لقبيلة الغامدي، وهو بطن من الأزد، ولد الشيخ أحمد رحمه الله سنة سبعة وستين وثلاثمائه وألف من الهجرة، في منطقة الباحة جنوب غرب المملكة العربية السعودية.

وأما نشأته: فقد نشأ الشيخ أحمد رحمه الله في بيئة يغلب عليها التدين وقد التقىٰ بعدد من العلماء كان لهم الأثر في شخصيته منهم: الشيخ صالح العشماوي واشتري منه مكتبه زاخرة بالكتب النفيسة وخاصة كتب أئمة أهل السنة والجماعة، لحبه الشديد وتعلقه بالقراءة والاطلاع علىٰ الجديد في أمور الدين والفتوىٰ.

---

(١) وقد اختصرت الترجمة من رسالة (جهود الشيخ أحمد بن سعد الغامدي في تقرير عقيدة السلف والرد علىٰ المخالفين) من إعداد فضيلة الشيخ دعاس جلال سعيد قدوم، وإشراف الدكتور/ عماد الدين عبد الله الشنطي وقد قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات الحصول علىٰ درجة الماجستير العقيدة الإسلامية من كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

ومن تأثر بهم الشيخ أحمد رحمه الله **سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز** رحمه الله فكان له أثر كبير في حياته وتغير مساره العلمي، وكان يلتقي به في مكة المكرمة يتلقى منه العلم والحديث ويبحث معه في بعض المسائل.

ولا شك أن نشأة الشيخ أحمد في أسرة علم ودين؛ قد هيأت له مناخاً مناسباً لطلب العلم، والجد في تحصيله.

وأما طلبه للعلم: فقد درس الشيخ أحمد رحمه الله المرحلة الابتدائية بالظفير التابعة لمنطقة الباحة حالياً، ثم درس المرحلة المتوسطة في معهد المعلمين، ثم المرحلة الثانوية في دار التوحيد بالطائف انتساباً، ثم المرحلة الجامعية حيث تخرج من كلية الشريعة في الجامعة الإسلامية عام ١٣٩٥هـ بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف.

والشيخ رحمه الله عُرف عنه حرصه الشديد على طلب العلم وحضور الدروس العلمية، وخاصة دروس شيخه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وفي عام ١٣٩٨هـ درس في جامعة أم القري فنال شهادة (الماجستير) وكانت رسالته بعنوان (عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية).

وفي عام ١٤٠٢هـ حصل الشيخ رحمه الله على شهادة (الدكتوراه) وعنوان رسالته (تحقيق المجلد الأول من شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) لأبي القاسم اللالكائي.

أما شيوخه فمن أبرز الشيوخ والعلماء الذين أخذ عنهم واستفاد منهم هم:

١) الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله.

٢) الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في التفسير.

٣) الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله في التفسير.

٤) الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله في الفقه والحديث.

٥) الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله في العقيدة.

٦) الشيخ المختار الشنقيطي رحمه الله.

٧) الشيخ الدكتور عبد العظيم الشناوي رحمه الله في اللغة العربية.[(١)]

٨) الشيخ محمد الغزالي في الأديان.[(٢)]

٩) الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله في الحديث.[(٣)]

أما صفاته وأخلاقه فالشيخ أحمد رحمه الله كان يتميز بالأخلاق والعلم والعمل، كما تميز رحمه الله بالدفاع عن السنة والرد على أهل الأهواء والبدعة.

و كانت وفاة الشيخ أحمد بن سعد الغامدي رحمه الله يوم الأربعاء في غرة شهر جماد الأول لعام ١٤٣٤هـ بمكة المكرمة عن عمر ناهز ٦٧ عاماً، مخلفاً وراءه

---

(١) هو: الشيخ عبد العظيم بن علي الشناوي، ولد عام ١٣٩٠هـ، في محافظة الدقهلية بمصر، اختير أستاذاً في الجامعة الإسلامية، وعين عضواً في لجنة المصحف الشريف بمجمع الملك فهد، توفي عام ١٤١٢هـ. انظر: إتمام الأعلام (ص:١٥٩).

(٢) هو: الشيخ محمد الغزالي، ولد في مصر عام ١٩١٧م، من كبار الدعاة ومفكري الإسلام، أطلق عليه أديب الدعوة، منح جائزة الملك فيصل العلمية لخدمة الإسلام، توفي في الرياض عام ١٩٩٦م. انظر: إتمام الأعلام (ص: ٢٦٠).

(٣) هو: الشيخ محمد أمين المصري ولد عام ١٣٣٣هـ في دمشق، ثم رحل إلى مصر فنال إجازة الأزهر من كلية أصول الدين، ثم رحل إلى السعودية، وعمل أستاذاً في جامعة أم القرى، توفي عام ١٣٩٧هـ. انظر: إتمام الأعلام (ص:٢٢١).

إرثًا علميًا، وسيرة عطرة، وأديت الصلاة عليه في المسجد الحرام وشيعه آلاف من العلماء والدعاة وطلاب العلم ومحبيه، ووري جثمانه الطاهر في مقبرة العدل، بشارع الحج، في البلد الحرام نسأل الله أن يسكنه الفردوس الأعلىٰ.

رحم الله الشيخ أحمد الغامدي رحمه واسعة، ورفع درجاته في المهديين، وأخلفه في عقبه في الغابرين.

وقد تبوأ الشيخ أحمد بن سعد الغامدي- رحمه الله- مكانة علمية عالية، وكانت له منزلته الرفيعة، وشخصيته الفذة، حيث جمع رحمه الله بين كثير من الفنون، فبرع في العقيدة، واللغة والحديث، والرد علىٰ أهل البدع ومنهم الشيعة الإثنا عشرية، ويرجع ذلك إلىٰ ما حباه الله به من حفظ وذكاء وحصافة عقل، وما تمتع به من علو همة ودأب ومثابرة في التحصيل.

وقد رثاه المحبون وسطروا في مدحه القصائد والأبيات، وقد آلمهم فراقه، وحزنوا علىٰ وفاته.

يقول عنه الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد، إمام وخطيب المسجد الحرام، وعضو هيئة كبار العلماء: «لقد كان الشيخ أحمد صاحب جهود كبيرة في خدمة العلم، والدعوة وهو رجل فاضل ومحبوب لدىٰ طلابه ومعارفه، وزمالتنا معه قديمة جداً، ومعروف عنه خدمة العقيدة الإسلامية، ونسأل الله أن يعوض المسلمين خيرا إن شاء الله».

يقول الشيخ عبد الله بن عمر الدميجي : «إن المقام لا يتسع لذكر جميع مآثر الشيخ رحمه الله، ويكفيه ما كان يحمله من هم لنصرة دينه، وحماية أمته من غاديات الفتن، ومصائب الزمان التي تحاك من الداخل والخارج،

فنذر نفسه رحمه الله مجاهداً بقلمه ولسانه في الدفاع عن السنة وأهلها، ومن أبرز هذه الجهود محاوراته ومناقشاته وردوده على الرافضة بعد أن عرف حقيقتهم، وأنهم لم يكونوا يبحثون عن الحقيقة بل للتدليس والتلبيس على المسلمين باسم الوحدة واجتماع الكلمة، فحاورهم رحمه الله حتى أفحمهم وأقام عليهم الحجة، فلم يقبلوا الحق مع بيانه وقوة برهانه، وقد دون ذلك في مؤلفاته».

ويقول عنه أيضا الداعية فضيلة الشيخ الدكتور سعيد بن مسفر القحطاني: «الشيخ أحمد من أعلام الدعوة الإسلامية، ومن العلماء المتخصصين، ومن البارزين في علوم العقيدة، حيث أفل نجمه وغاب عن هذه الحياة التي سبق أن أضاءها طيلة حياته بعلمه الغزير وفقهه المعتدل، وأيضا وسطيته وتميزه الذي استقاه من الأصول الصافية والمنابع النقية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ».

مؤلفاته.

لقد ترك الشيخ أحمد رحمه الله إرثا علميًا كبيراً جله في مسائل التوحيد والاعتقاد والرد على الشيعة الاثني عشرية، وبين أيدينا بفضل الله عدد مبارك من التصانيف في عدد من صنوف العلم الشرعي، والوقائع والمستجدات والقضايا المعاصرة، حيث تُرجم عدد من كتبه إلى بعض اللغات العالمية.

١) كتاب عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية.

٢) تحقيق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي.

٣) تحقيق كتاب الكرامات لأبي القاسم اللالكائي.

٤) كتاب فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها.

٥) كتاب بعنوان " المجتمع الإسلامي من خلال سورة الفاتحة ".

٦) كتاب بعنوان " أثر العقيدة الإسلامية في تضامن ووحدة الأمة الإسلامية ".

٧) بحث بعنوان " الترف المادي والفكري وأثره على المجتمع الإسلامي ".

٨) بحث بعنوان " نقد كتاب الأعلام في صدر الإسلام ".

٩) بحث بعنوان " القناعة بضعف حديث بئر بضاعة ".

١٠) بحث بعنوان " آيات الصفات ".

١١) كتاب " الإسلام الدين الحق ".

١٢) كتاب " الإيمان العملي والعلمي ".

١٣) كتاب " حوار هادئ مع الدكتور القزويني الشيعي الاثنى عشري ".

١٤) كتاب " حوارات عقلية مع الطائفة الاثنى عشرية في الأصول ".

١٥) كتاب " حوارات عقلية مع الطائفة الاثنى عشرية في المصادر ".

١٦) كتـاب " الضـوابط الفقهيـة في التعامـل مـع المخـالف في المسـائل الأصـلية والفرعية".

١٧) كتاب " براءة آل البيت مما نسبته إليهم الروايات ".

١٨) كتاب " التشيع نشأته ومراحل تكوينه ".

١٩) كتاب " تجديد الفقه السياسي في المجتمع الإسلامي ".

٢٠) بحث بعنوان " تصحيح الأحاديث في العصر الحاضر ".

٢١) كتاب " أحاديث استدلت بها الشيعة الاثنىٰ عشرية ".

٢٢) كتاب بعنوان " توحيد العبادة ".

٢٣) بحث بعنوان " حكم أقوال الصحابة في الاعتقاد ".

٢٤) بحث بعنوان " الأمن العقدي ".

٢٥) بحث بعنوان " تفسير الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه ".

٢٦) بحث بعنوان " ظواهر اجتماعية في ألمانيا الغربية ".

وللشيخ رحمه الله تعالىٰ شروح ومحاضرات عديدة في موضوعات مهمة منها:

١) محاضرات في شرح العقيدة الأصفهانية.

٢) محاضرات في كتاب " تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد " للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. رحمه الله[١]

٣) محاضرات في كتاب " المصباح المنير شرح تفسير ابن كثير ".

رحم الله الشيخ أحمد، حيث ترك تراثاً أصيلاً للأمة الإسلامية، ينفعُ كل من اطلع عليه، وأحسب أنه يصدق عليه حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " **إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ** "[٢].

---

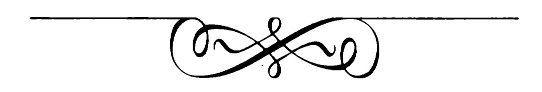
(١) وهو الكتاب الذي نعمل عليه.

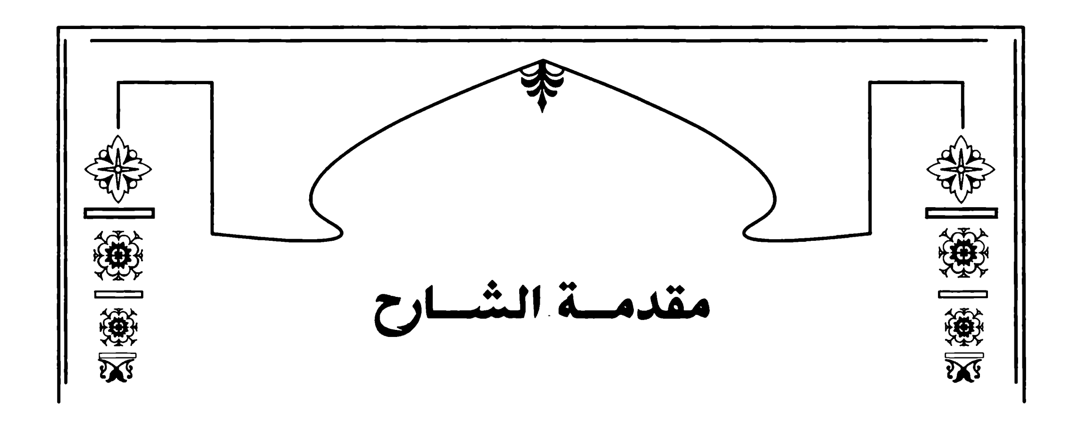
(٢) صحيح مسلم : كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم الحديث ١٦٣٣(٣/ ١٢٥٥).

وقد تقلب الشيخ أحمد الغامدي رحمه الله في مهام متعددة، وأعمال متنوعة عبر مراحل عمره الطويل، ففي عام١٤٠٢هـ اختير للتدريس بالجامعة الإسلامية، قسم العقيدة، واستمر حتىٰ عام ١٤٠٤هـ. وفي عام ١٤٠٤هـ كلف الشيخ رحمه الله عميدًا لشؤون الطلاب بالجامعة الإسلامية، واستمر حتىٰ عام ١٤١٠هـ، وأصبح أستاذًا مشاركًا بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية في عام ١٤١٢هـ.

وفي عام ١٤١٤هـ أصبح الشيخ أستاذ كرسي بقسم الدراسات العليا، بجامعة أم القرىٰ حتىٰ عام ١٤٢٥هـ، وكُلف عضوًا بمجلس الجامعة الإسلامية، وعضو بالمجلس العلمي بجامعة أم القرىٰ، وقام برحلات دعوية، وعلمية إلىٰ عدة دول عربية، وغربية، منها أمريكا وألمانيا، وشارك في بعض المؤتمرات والندوات الدعوية، والجامعية، والإشراف والمناقشة لعشرات الرسائل العلمية بمرحلتي الماجستير، والدكتوراه في عدة جامعات، وتحكيم أبحاث علمية

وكان له لقاء علمي أسبوعي كل يوم أحد بعد العشاء بمنزله بالعزيزية يستضيف فيه العلماء والدعاة، وسمي (ملتقىٰ مكة الثقافي)، ذاع صيته بين اهل العلم والفضل في مكة.





مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ رسوله الأمين، أما بعد:

فهذا هو شرح «تيسير العزيز الحميد»، وقد بدأنا هذا الشرح في يوم الأحد الموافق للثاني عشر من الشهر السادس عام ستة عشر وأربعمائة وألف للهجرة النبوية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وانتهىٰ هذا الشرح في الثاني من شهر شعبان عام واحد وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة.

وموضوع الكتاب هو التوحيد، توحيد الألوهية الذي من أجله خلق الله ﷻ الخلق، ومن أجله أرسلَ الرُسل، ومن أجله أَنزَلَ الكتب، ومن أجله خلق الجنة والنار، ومن أجله يغضب، ومن أجله يرضىٰ، ومن أجله انقسم الناس إلىٰ قسمين: أولياء لله وأعداء لله، سعداء في الدنيا والآخرة وأشقياء في الدنيا والآخرة.

هذا التوحيد الذي هذا شأنه ينبغي أن يهتم المسلم به اهتمامًا عظيمًا، فإن للتوحيد شروطًا، ومؤثرات تجرحه، فالإنسان الذي لا يهتم بهذا الأمر ربما يقع فيما ينقض توحيده، أو ينقصه عن المستوىٰ المطلوب وهو لا يشعر.

والكتاب الذي نتدارسه يشتمل علىٰ كتابين:

الكتاب المتن -كتاب «التوحيد»- للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

والكتاب الشارح للمتن وهو كتاب (تيسير العزيز الحميد) لحفيده سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو كتاب عظيم في بابه، ولعله لم يُؤلف قبله مثله، وإن كان أُلِّف بعده مثله من بعض العلماء، فالسيد محمد حسن صديق القنوجي من علماء الهند ألّف كتاباً بعنوان: (الدين الخالص) في أربعة مجلدات، وضمَّنه كتاب الشيخ بكامله.

فهذا الكتاب كتاب فريد في بابه ومنهجه منهج سلفي صافٍ؛ ولهذا ينبغي أن يحرص المسلم علىٰ الاستفادة منه، لا من المسائل العلمية فقط بل من المنهج الذي سلكه؛ فإن السلف لم يختلفوا عن بقية الطوائف إلا في المنهج، ونتج عن ذلك اختلاف في المسائل، وقد يتفقون في النتيجة، لكن المنهج هو الذي ينبغي أن نحرص عليه، فكيف نفهم كتاب الله؟ كيف نفهم سنة رسول الله ﷺ؟ كيف نؤسس الأحكام الشرعية؟ هذه كلها تقوم علىٰ المنهج، فإذا كان المنهج صافياً سليماً أدىٰ بإذن الله إلىٰ النتائج السليمة، وإذا كان المنهج غير صافٍ وغير سليم لا شك أنه يؤدي إلىٰ نتائج غير سليمة.

وصاحب المتن (كتاب التوحيد) افتتح كتابه بالبسملة، ثم ذكر كتاب التوحيد، وذكر تحته خمس آيات، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام:١٥١].

ثم أورد أثراً عن ابن مسعود رضي الله عنه في فضل الآية الأخيرة، وهي قوله: (من أراد أن ينظر إلىٰ وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام:١٥٣]. ثم أورد حديث معاذ رضي الله عنه المشهور الذي قال فيه: (**كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا معاذ،.....، أتدري ما حق الله علىٰ العباد وحق العباد علىٰ الله...**)[1] إلىٰ آخره. هذا هو الباب الأول، واستنبط منه أربعـًا وعشرين مسألة. هذا نموذج لمنهج صاحب المتن الذي هو (كتاب التوحيد)، فكأن هذا العنوان هو تعريف للكتاب؛ لأنه رحمه الله لم يذكر منهجه في التأليف، إنما اكتفىٰ بهذا العنوان، وأورد بعد ذلك ثلاثة وستين بابـًا، وهي توافق سني عمر نبينا صلى الله عليه وسلم.

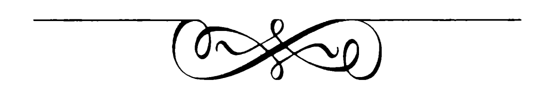
فجاء الشارح رحمه الله وشرح منها ستة وخمسين بابـًا، ثم مات رحمه الله ولم يُكمل الكتاب. فالمطبعة التي طبعت الكتاب أخذت من تكملته (فتح المجيد) الذي هو لابن عم المؤلف، واسمه عبد الرحمن بن حسن، فإنه اختصر كتاب التيسير، فأخذت المطبعة شرحه للأبواب السبعة الأخيرة وضمَّته إلىٰ الكتاب، فأصبح الكتاب مشروحـًا كاملاً.

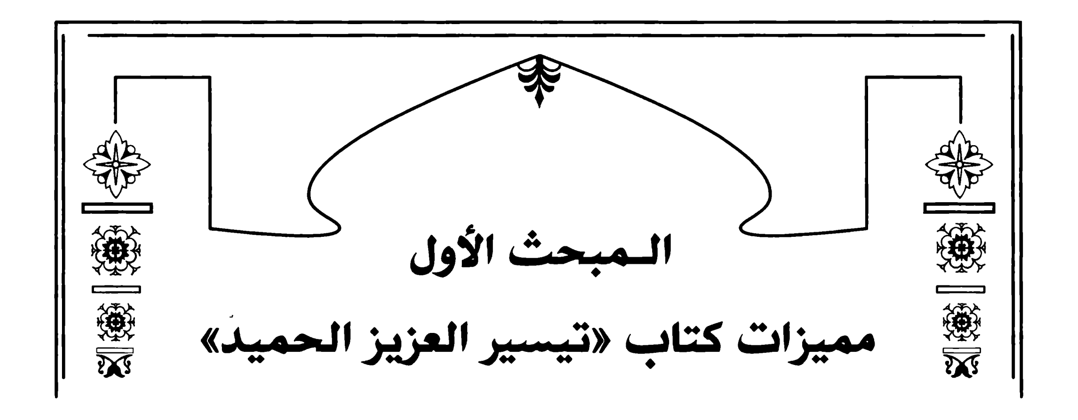
---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك، برقم: (٦٢٦٧)، ص (١٢٠٧)، ومسلم في صحيحه مطولاً، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعـًا، برقم: (٣٠)، (١/ ٥٨).

وسوف نتناول في هذه المقدمة عدة مباحث مهمة كتوطئة لهذا الشرح، وهي:

- المبحث الأول: مميزات الكتاب المشروح: «تيسير العزيز الحميد».
- المبحث الثاني: أهمية التوحيد وتعلُّمه.
- المبحث الثالث: معرفة التوحيد والدعوة إليه.
- المبحث الرابع: القلب والتوحيد.
- المبحث الخامس: ثمار التوحيد.





المبحث الأول
مميزات كتاب «تيسير العزيز الحميد»

هذا الكتاب يتميز بأمور :

الأول : أنه يشتمل علىٰ فوائد علمية كثيرة، وبإذن الله سيكون منهجنا في شرح الكتاب الحرص علىٰ أن تكون هناك فوائد علمية متنوعة، في الحديث، وفي اللغة، وفي التفسير، وفي أصول الفقه، وفي التراجم، وسيكون الشرح ـ بإذن الله ـ شاملاً لعلوم متعددة؛ لأن طالب العلم في حاجة إلىٰ كل علم، وإن كان ينبغي أن يتخصص في علم معين، لكن من المهم أن يكون لديه إلمام ومعرفة بالعلوم الأخرىٰ، فإن العلوم يخدم بعضها بعضاً. فالذي لا يعرف بقية العلوم ربما لا يستطيع أن يتقن العلم الذي يتخصص فيه.

فنحن ـ بإذن الله ـ سنحاول أن يكون في هذا الشرح ليس فقط مسائل علمية، بل إبراز المنهج الذي نتعلم من خلاله أمور الدين؛ فإن معرفة المنهج أساس ينبغي أن يهتم به طالب العلم لتصحيح فهمه.

الثاني: أنه يتحدث عن مسألة التوحيد التي هي المقصد من خلق هذا الإنسان، والكتاب يبين أسباب الضلال الذي وقع فيه كثير من المسلمين، منها: عدم التفريق بين الخالق والمخلوق، وعدم التفريق بين حق الخالق وحق المخلوق، وهذا هو الجهل بالتوحيد، فإن المسلم الذي لا يفرق بين حق الله ﷻ وحق خلقه فيصرف حق الله ﷻ لخلقه، ويتصور في حقه ﷻ أنه مثل خلقه، هذا هو أكبر الضلال الذي يقع فيه الإنسان المسلم، والله ﷻ هو رب

الكون، وخالق الوجود سبحانه وتعالى الأمر كله بيده هو الذي يخلق، وهو الذي يحيي، وهو الذي يميت، وهو الذي يرزق، وهو الذي يعطي، وهو الذي يمنع عز وجل، أما خلقه فليس لهم من هذه الخصائص شيء، فإذا جهل إنسان حق الله عز وجل فصرف حقه للمخلوق فإنه يرتكب أعظم الذنوب الذي هو الشرك به سبحانه وتعالى، والله لا يغفر الشرك ويغفر الذنوب الأخرىٰ التي يكون سببها شهوة النفس، أو ضعف في الإيمان، أو أمثال ذلك.

الثالث: أن كتاب «التيسير» افتتحه المؤلف رحمه الله بمسائل شركية كثيرة واقعة في بلاد المسلمين في وقته، ولا يكاد يخلو منها بلد من بلاد المسلمين، وإن كانت لا توجد في بعض الأماكن، لكن الغالب في العالم الإسلامي أنه مبتلىٰ بهذه المسائل الشركية، والمؤلف رحمه الله قد كتب هذا الكتاب وضمَّنه أكثر المسائل التي يحتاجها المسلم، واستفتحه بهذه الجوانب التي كانت منتشرة في عصره، والتي محيت من هذه البلاد ولله الحمد، لكن بقيت في بعض البلدان من العالم الإسلامي.

وهذه انحرافات وإن كانت منحطة لا يُصغي إليها إلا عقل قد تدنس، وعقل قد فقد تفكيره، فقد تعددت صورها وتنوعت أشكالها، والمسلم مطالب بأن يعرف جميع صور الشركيات، وهذا الكتاب يتحدث عن هذه الجوانب، فقد أورد هذه الأنواع في أول الكتاب، وسيذكر في ضمنِهِ رحمه الله مسائل وأبواب تتعلق بأحوال المسلمين عامة.

الرابع : بيَّن الكتاب نواقض التوحيد؛ فقد عرض الأمور التي تناقض التوحيد، إما نقضا كاملا، وإما نقضا ناقصا بحسب اعتقاد أصحابها.

وسلامة توحيد الإنسان هو المطلب الأول في حياته، لأن خسارة الإنسان في الدنيا إن لم تعوض في الحياة فعند الله عز وجل أجر عظيم، وأما خسارة الإنسان في توحيده فإنها خسارة لا تعوض.

وهذه الأبواب التي أوردها المؤلف أورد فيه الشارح بعض شبهات أصحابها، والتي تؤخذ من بعض الكتب الحديث التي لم يشترط أصحابها صحة ما أوردوه فيها، والمسلم إذا علم أن أحاديث النبي ﷺ قد تعرضت للهجوم من الزنادقة وأعداء الإسلام حيث وضعوا في الأحاديث أحاديث ليست عن رسول الله ﷺ، وهذا يجعل في الأمر خطورة ومسؤولية عظيمة، فإذا لم يتأن، و لم يتثبت في رواية الحديث، فقد يقع في الخطأ، فلا يجوز للمسلم أن يعمد إلىٰ الكتب فيأخذ منها الأحاديث ثم يقول قال رسول الله ﷺ، وقد عُلم أنه ما من كتاب، وإلا وقد وجد فيه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة بحسب تلك الكتب، ما عدا الصحيحين، فإن الله ﷻ قد وضع لهما القبول.

فلا يجوز للمسلم أن يعمد إلىٰ كتاب من تلك الكتب ثم ينسب إلىٰ رسول الله ﷺ ذلك الحديث إلا بعد أن يعلم أنه صح، وعلماء الحديث ولله الحمد قد اعتنوا بها الفن عناية شديدة، عناية فائقة حتىٰ إنه لا يستطيع أحد أن يدخل في حديث رسول الله ﷺ حديثا إلا ويكشفه العلماء، وقد ألفوا لذلك الكتب، فألفوا كتب الرجال التي تبين درجات الرواة من حيث العدالة والضبط، وألفوا في المصطلحات التي تبين لنا كيف نتعامل مع كتب السنة.

الخامس: تحدث الكتاب عن اعمال القلوب؛ فالتوحيد له جانبان:

جانب يتعلق بالأعمال الباطنة، وهي التي تؤثر في الجوارح.

وجانب يؤثر في الأعمال الظاهرة وهي أعمال الجوارح.

والأعمال الباطنة الخاصة بالقلب هي التي تُحرك الإنسان، هي التي تدفع الإنسان أو تمنعه، وأعمال القلب هي أهم الأعمال، فإذا صلح القلب صلحت الجوارح، وإذا فسد القلب كانت الجوارح فاسدة، وسيأتي مزيد كلام في هذا الموضوع المهم في المبحث الخامس: القلب والتوحيد.

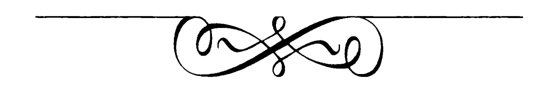
السادس: أن هذا الكتاب إنما يقوم علىٰ مصدرين القرآن والسنة، لا يورد

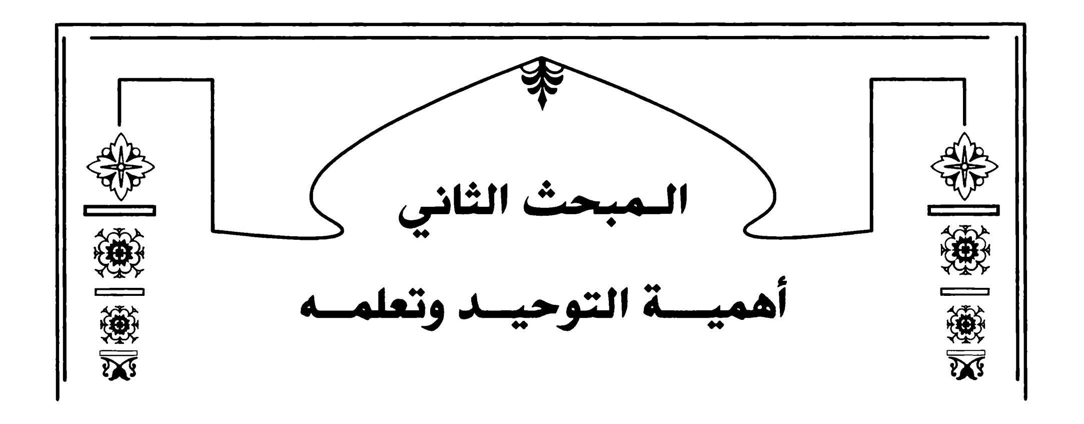
إلا الأثر؛ إما آية أو حديثًا أو أثرًا عن أحد صحابة رسول الله ﷺ، وهذا هو الدين.

فليس الدين بالعقل، العقل قد يدرك الدين، لكن العقل لا يشرع الدين، لو كان العقل يشرع لما انحرف الناس وفيهم العظماء وفيهم العقلاء، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم وهم على ما هم فيه من العقل والإدراك كانوا يعبدون الأحجار والأشجار، لكن إذا لم يجدوا النور الذي يضيء لهم انحرفوا.

فإن العلماء يشبِّهون الوحي مع القلب كالنور مع البصر، فيقولون: إذا لم يكن للقلب نور يهتدي به لم يعرف الطريق؛ كما أن البصر إذا لم يكن له نور يهتدي به لا يعرف الطريق، فلو كان إنسان يعيش في مكان مظلم فيه حفر وأراد أن يمشي في هذا الطريق يسقط في الحفر، وعيناه موجودتان لأنه ليس فيها نور.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، فمن كان عنده نور يستطيع أن يمشي في الظلام، ونحن محتاجون إلى نور، وهذا النور هو الوحي الذي أنزله الله ﷻ، فدراسته ومعرفته والعمل به يكون نوراً يوم القيامة، فمن لم يكن معه نور في الدنيا من هذا الوحي؛ يأتي يوم القيامة وليس له نور، وهو أحوج ما يكون إلى النور، فلا يستطيع أن يصل إلى الصراط الذي جعله الله بين أرض المحشر وبين الجنة وتحته النار. فمن لم يكن له نور سقط في النار، أعاذنا الله وإياكم من النار.





المبحث الثاني

أهمية التوحيد وتعلمه

أهمية التوحيد:

أولاً: التوحيد تكريم للإنسان:

التوحيد هو أعظم مظاهر التكريم لهذا الإنسان، فالله ﷻ قد كرم هذا الإنسان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠].

ولم يقتصر التكريم علىٰ من أسلم، وإن كان التكريم الكامل لا يكون إلا لمن أسلم، فغير المسلمين يشملهم بعض التكريم.

وأول مظهر من مظاهر التكريم العلم، والعلم يتعلمه المسلم والكافر، ولكن العلم الذي ينفع في الآخرة هو العلم الشرعي، وإن كان العلم النافع يشمل علم الدنيا وعلم الآخرة، لكن وإن كان في العلم التكريم للإنسان فلا يتم التكريم إلا بأن يحصل للإنسان أعظم أنواع التكريم وهو عبادة الله، فعبادة الله تكريم، الله ﷻ خلقك، وهو مالك الملك وهو الغني ﷻ، ثم أذن لك أن تتصل به، وأن يكون بينك وبينه صلة، ليس هناك حجاب يمنعك عنه، بل فتح أبوابه، وقال: اتصل بي في أي وقت شئت، اسألني حاجاتك، اعمل ما أمرتك به في الدنيا أكرمك في الدنيا والآخرة.

إذاً هذا الدين تكريم، وبعض الناس يرىٰ في التشريع تضييقا عليه، وهذا من الجهل! أريتم لو أن هناك أبا وعنده أولاد، وقال لبعض أولاده: يا بني سأنظم لك حياتك اليومية، ولم يفعل ذلك لبقية أبناءه، قال: أنتم نظموا لأنفسكم و من أراد أن يتبع ما أمرته أو نظمته لإبني هذا فليفعل، فبعضهم ترك هذا النظام وذهب ينظم لنفسه وهو في سن الطفولة، هل هذا التنظيم لهذا الولد الصغير تكريم أو تضيق؟ لا شك أنه تكريم لهذا الطفل لأنه أعانه وعلمه، فما بالك إذا كان المنظم هو مالك الملك ﷻ هو خالق الكون، كيف تكون حياتك إذا اتبعت نظام الله؟ ستكون أسعد الحياة، وأشرف الحياة، وأفضل الحياة، ولم يقع في البشرية النقص، والخلل، والاضطراب، والفوضىٰ، والعقوبات المعجلة، إلا بسبب تركهم نظام الخالق، وتشريعهم لأنفسهم، وإلا فإن الناس لو اتبعوا نظام الخالق لسعدوا في الدنيا والآخرة، وقد رأينا المجتمع الإسلامي الأول كيف كان سعيدا وهو يطبق نظام الله، وهو يعيشه مع الله، وهو يتبع أوامر الله، كيف كان أسعد المجتمعات، والانسان إذا اتبع نظام الله عاش الحياة السعيدة ولو كان فقيرا، ولو لم يكن له مكانة اجتماعية بين قومه، فإن الاتصال بالخالق هو أعظم الأموال، وأعظم الثراء، وأعظم الغنىٰ أن تتصل بالغني الذي بيده كل شيء كما قال تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨]. إذا توكلت علىٰ الله فإنك تعيش بإذن الله حياة سعيدة.

إذاً هذا التوحيد تكريم، والذي يريد التكريم في الدنيا والآخرة ليس هناك إلا هذا الطريق أن توحد الله، أن تعبد الله، أن تخرج من قلبك كل مخلوق ولا يكون في قلبك إلا تعظيم الخالق.

ثانيًا: التوحيد هو المقصد من الخلق:

لكل مخلوق في هذا الوجود دورا يؤديه في وجوده، الشمس لها دور، والقمر له دور، والماء له دور، والهواء له دور، ليس في الوجود خلق لا دور له، كذلك أعضاء الإنسان ليس في الإنسان جزء لا عمل له، وهذا من أكبر الأدلة على الخالق الحكيم ﷻ.

هذا الإنسان الذي هو أشرف مخلوق على ظهر الأرض، الإنسان الذي من أجله خلق الله ﷻ السماوات والأرض وسخرها كلها له، هذا الإنسان ما عمله؟ الإنسان الذي يعيش في الدنيا منكبا على شهواته خمسين عاما أو ستين عاما ثم يرحل، ولا يعرف المقصد من وجوده، ما أحمق هذا الإنسان!! وما أضيعه وما أشقاه!!! الإنسان لا يحقق قيمته الإنسانية إلا إذا عرف لماذا يعيش.

إذا كان الغرب والشرق اكتشفوا فوائد المادة، واكتشفوا كيف يستخدمون المادة في تحقيق الحياة المادية السعيدة، ولكنهم جهلوا العمل الذي من أجله يعيش هذا الإنسان، فتجدهم يعرفون في المادة بعض الأسرار، لكنهم يجهلون حكمة خلق هذا الإنسان، ولهذا يعيشون في شقاء دائم، ويتحدث علماؤهم وخبراؤهم عما يعانيه الفرد في ذلك المجتمع من الشقاء الذي يكاد يمزق قلوبهم ونفوسهم، فهم يقولون: قد عرفنا كيف نعيش، لكننا لا نعرف لماذا نعيش؟! فليس الحكمة أو ليست السعادة في كيف تأكل وكيف تشرب، وكيف تعيش، لكن السعادة في أن تعرف لماذا تعيش؟

إذاً ما هو دور هذا الإنسان، ما هو عمله؟ هو عبادة الله ﷻ، هو تحقيق التوحيد، أن توحِّد الله في حركتك. القمر حركته واحدة لله، لكنها حركة إجبارية، الشمس حركتها واحدة، الماء حركته واحدة، الهواء حركته واحدة،

كل مخلوق من المخلوقات التي ليس لها اختيار؛ حركتها واحدة، والإنسان يستطيع أن يجعل له حركتين، حركة تتفق مع حركة المخلوقات، فيسبح الله ويعبد الله، فيسعد في الدنيا والآخرة، وحركة يصادم فيها حركة المخلوقات فيتمزق في الدنيا، ويقلق في الدنيا، ويشقىٰ قبل أن يلقىٰ الله ﷻ، فالإنسان الذي يعيش في شهواته من صباحه إلىٰ مسائه، وتشغله أمور الدنيا من صباحه إلىٰ مسائه، ليس عنده وقت لهذا التفكير، ولهذا لا يتلذذ بطعم الإيمان، والإيمان له لذة، ولذته أعظم اللذات، لا تقاربه لذة في الدنيا.

فما أحوجنا إلىٰ إيمان يملأ القلوب ويملأ النفوس، ويملأ البيوت، ويملأ المجتمع، ويجعل الإنسان متصلا بخالق هذا الإنسان الذي هو الله ﷻ، ومثل هذا الكتاب -«تيسير العزيز الحميد»- يعين المسلم علىٰ تحقيق هذا المعنىٰ، ويعينه علىٰ التخلص مما يضاد هذا المعنىٰ، فإن التوحيد ليس مسألة نظرية نتعلمها فقط للمجادلة أو للمغالبة، لا التوحيد حركة قلب وحركة جوارح، وحركة فكر ومشاعر، أن تتصل بخالق هذا الوجود، ألا يكون في قلبك وفكرك إلا الله، فتكون مع الله، في كل حركة تخطوها، بقلبك بجوارحك، بحواسك، بلسانك، يكون الله ﷻ في كل مكان معك، ليس معناه المعية التي يجادل فيها معية مكان أو معية علم، هذه المجادلات ما حدثت إلا عندما ضعف تعظيم الله ﷻ، كما قال الله ﷻ بني إسرائيل: ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الحج:٧٤].

أهمية تعلم التوحيد:

هذا التوحيد عز في الدنيا وسعادة في الآخرة، وباب هذا التكريم هو العلم، فالعلم هو الذي يقودنا ويعرفنا بهذا التكريم، والذي لا يتعلم كيف يعرف؟! كيف تكون موحدا وأنت تجهل التوحيد؟

والذي يظن أنه يعرف التوحيد بدون أن يسمع الآيات والأحاديث التي تتحدث عن التوحيد، ويبقىٰ طوال حياته لا يعرف معنىٰ لا إله إلا الله! هذا إنسان قد ضيع نفسه.

فمسائل التوحيد، وقضاياه لا يستغني عن معرفتها مسلم، والتوحيد إنما يُعرف بالتعلم، وليس هو أمرا فطريا ينشأ الإنسان عليه ثم يبقىٰ في قلبه كما هو، وإن كان الإيمان أصله في القلب، لكن معرفة الله ﷻ المعرفة الحقيقية إنما تكون بالعلم، وهذه المعرفة تأتي إلا عن طريق التعلم، وأما الاعتقاد بأن هناك خالقا مدبرا لهذا الوجود فإنه أمر فطري فطر الناس عليه.

والله ﷻ خلق الخلق من أجل التوحيد، ويميتهم ويبعثهم يوم القيامة من أجل التوحيد، وخلق الجنة والنار من أجل التوحيد، فلابد من معرفة هذا الأمر العظيم الذي خلقت الخليقة من أجله، والله ﷻ جعل يومـًا يحشر الخلق فيه جميعا، فيحاسبهم فيه، فمن جاء بالتوحيد كانت له النجاة يوم القيامة، ومن أخل بالتوحيد.فإنه يكون يوم القيامة معرضا للعقوبة بقدر ما فرط أو جاء به من الخلل في توحيده.

وجوب تعلم التوحيد:

التوحيد أعظم قضية في حياة الإنسان، وينبغي للإنسان أن يهتم به أكثر من جميع القضايا التي تعرض له في حياته، لأنها قضية الوجود، وجود الإنسان، ووجود الكون، الكون كله من أجلها وجد، والكون كله من أجلها يفنىٰ ويخرب، والإنسان منذ خلق الله آدم عليه السلام إلىٰ قيام الساعة من أجلها وجد، وكذلك من أجلها جعل الله اليوم الآخر، يحاسب فيه هذا الإنسان علىٰ موقفه

من هذه القضية، فإن تعلمها وعمل بها سعد سعادة لا نظير لها، وإن أعرض عنها ولم يعمل بها، شقي شقاوة لا نظير لها، إذاً **أي قضية في حياة الإنسان تعادل هذه القضية!؟** ليس للإنسان في وجوده قضية غير هذه القضية، كل اهتمامات الإنسان ينبغي أن تكون تبعا لهذه القضية، هذه القضية الوحيدة ولا نقول الأولىٰ، لأننا لو قلنا الأولىٰ، يعني هناك قضية ثانية، والحقيقة انه ليست هناك قضية ثانية للإنسان، فإذا تصور الإنسان عظم المسألة، وأنها قضية عظيمة، ثم نظر في واقع الناس كم يعطون هذه القضية من أوقاتهم، كم يعطون هذه القضية من تفكيرهم، كم يعطون هذه القضية من اهتماماتهم؟ القليل، وهذا -نعوذ بالله- من الجهل الفادح أن يعطي الإنسان اهتمامات للأمور الأقل، وأمور لو لم توجد ما كان للإنسان في عدمها شقاء، ولكن هذه القضية إن جهلها هذا الإنسان فإنه يفقد كل شيء، لا ينفعه أي شيء في حياته.

فينبغي للإنسان أن يحرص علىٰ ألا يفوت هذه الفرصة، الله أعطاك فرصة واحدة وعمر واحدا لا يتكرر، فإذا مات لم يبق له فرصة أخرىٰ، فينبغي أن نحمد الله أن وفقنا للتوحيد ودلنا علىٰ طريق التوحيد.

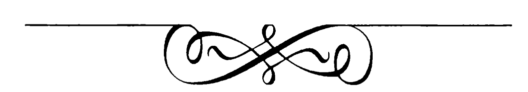
وهذه القضية لا تعرف إلا عن طريق العلم، الأمة الإسلامية أمة العلم، ليست أمة الخرافة، والعلم هو الذي يقوم علىٰ الدليل الصحيح؛ قال الله ﷻ وقال رسوله ﷺ، هذا هو الدين، أما ما يأتي من أقوال أخرىٰ للصحابة ﵃ أو للتابعين أو لأئمة الدين فتأتي مفسرة وشارحة، لا تأتي مؤصلة ومقررة، لأنه لا يملك أحد التشريع مع الله إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام، **وينبغي أن يكون لنا منهج أن لا نقبل من أقوال أهل العلم إلا ما صح عنهم،** لأننا عندما نرجع إلىٰ بعض أقوال العلماء قد نجد تناقضا؛ فإن بعض المتأخرين ممن ليس لهم

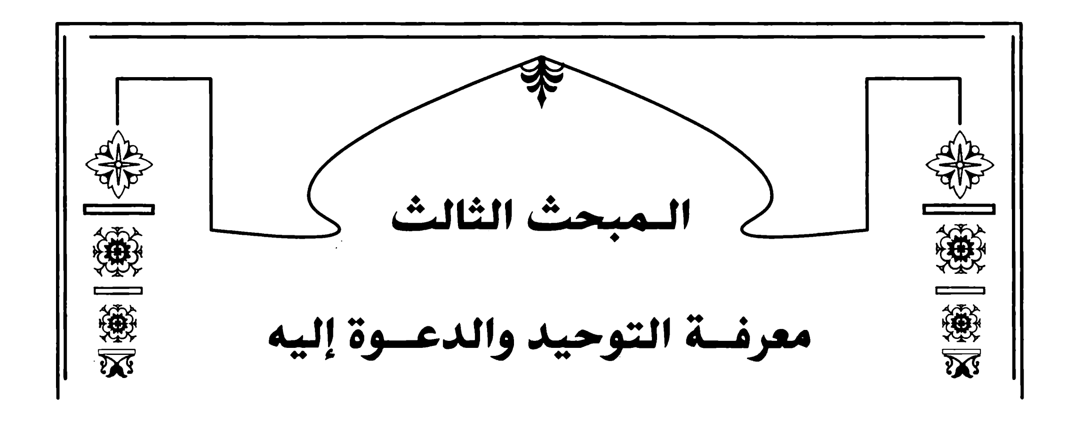
خلاق، أو ليس عندهم دين، أو عندهم عصبية، قد أحدثوا أقوالا لم يقلها الأئمة السابقون، فينبغي أن نحتاط.

فالركيزة الأولىٰ لنا في ديننا: القرآن والسنة، لأن الدين يقوم علىٰ الدليل، والدليل لابد أن يصح وإلا فلا يكون دليلا، والواجب علىٰ طلبة العلم وأهل العلم أن يكونوا هم المصححين لعقائد الناس وتصورات الناس ومفاهيم الناس، لأنه قد دخل في هذا الدين من التصورات والمفاهيم ما ليس له علاقة بهذا الدين، إنما هي خيالات أو من مخلفات الفلسفات الوثنية القديمة، فقد أدخل بعض أهل الكلام والبدع فلسفات الوثنيين أرسطو وغيره ضمن مباحث الاعتقاد، وجعلوها معيارا لدين الله، جعلوها ميزانا لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، وهذا من أشد وأخطر ما وقعت فيه الأمة أو بعض الأمة، ديننا لا يحتاج إلىٰ مذاهب خارجية، ولا إلىٰ مناهج خارجية، نفهم الدين من خلال الدين كما ورد عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين، هذا هو المنهج، أما الفلسفات القديمة ليست أهلا ولا تستحق أن تدرس ولا أن تكون ميزانا لكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

الجيل الأول من جيل المسلمين لم يتربوا علىٰ فلسفة أرسطو ولا علىٰ منطقه ولا علىٰ غيره، تربوا علىٰ الوحي فكان جيلا نقيا صافيا يتكلم بالألفاظ السهلة الميسورة، حتىٰ دخلت فلسفات الكفار في دين الله، فأصبح عند أهل الكلام معقدا، يقول بعض من درس في بعض جامعات المسلمين المتأثرة بهذا المنهج، يقول: بقينا ستة أشهر ندرس نصف صفحة أو صفحة من كتاب، وكلها ألفاظ معقدة، لماذا؟ لأن هذه الألفاظ ليست ألفاظا إسلامية، إنما هي ألفاظ استعيرت من فلسفات أخرىٰ حتىٰ أصبح المنطق هو الأساس في دين

الله، ولا تـرىٰ في كلاهـم إلا كلاما جافا لا تـرىٰ فيـه نـور النبـوة، قـال الله وقـال رسوله، ليس فيه إلا: إن قلتم كذا، قلنا كذا، وإن قالوا كذا يلزم منه كـذا. ولهـذا لم نرىٰ أحدا أسلم علىٰ أيدي المتكلمين! لأنه ليس منهجا أصيلا، فـنحن نريـد إن شـاء الله أن يكـون لنـا مـنهج أصـيل يقـوم علـىٰ الـدليل ونعتقـد ونجـزم أن الأسـلوب القـرآني هـو الأسـلوب الوحيـد في تقريـر الـدين، لا نقـول: إنـه مـن الأساليب، لا. بل هو الأسلوب الوحيد الذي نقـرر بـه الـدين، نفهـم الـدين مـن خـلال القـرآن، مـنهج القـرآن، فهـذا هـو المـنهج الـذي نسـأل الله ﷻ أن يوفقنـا وإياكم لفهمه والعمل به والدعوة إليه.





المبحث الثالث

معرفة التوحيد والدعوة إليه

معرفة كلمة التوحيد:

معرفة لا إله إلا الله شرط في تحقيقها في حياتنا، وشرط في العمل بها، والذي لا يعرف معنىٰ لا إله إلا الله لا يمكن أن يعبد الله، وهذه المشكلة هي مشكلة المسلمين الأولىٰ وهي الجهل بمعنىٰ لا إله إلا الله فيقولها كثير من المسلمين، لكنهم لا يفهمون معناها. وإلا لو فُهم معناها علىٰ ما تدل عليه من معنىٰ لم يحدث في حياتنا خلل ولا وقع في حياتنا انحراف، ولا ضلال، ولكن الجهل بمعناها أدىٰ إلىٰ ما نرىٰ، فلا إله إلا الله قاعدة ينطلق منها المسلم فردا أو جماعة، فإذا أدرك معنىٰ لا إله إلا الله فإن المسلم يعيش في الدنيا سعادة قبل أن يعيشها في الآخرة، لا إله إلا الله في حياة كل فرد، في حياة الرجل في بيته، وفي أسرته، وفي عمله، وفي وظيفته، يقولها الفرد العادي فتحكمه في حياته، ويقولها صاحب السلطان وصاحب الأمر فتحكمه في حياته.

لا إله إلا الله هي الكلمة الأولىٰ التي جاء بها نبينا ﷺ، لا إله إلا الله مكث نبينا ثلاثة عشر عاما في مكة المكرمة يغرس هذا المعنىٰ، فإن لا إله إلا الله شجرة عظيمة، والشجرة تحتاج بقدر عِظمها إلىٰ جذور، فكلما كانت الشجرة صغيرة لا تحتاج إلىٰ جذور كبيرة، لكن إذا كبرت الشجرة احتاجت إلىٰ جذور كبيرة تمسك فروعها، وتمسك أغصانها، لا إله إلا الله شجرة عظيمة ينبغي أن

ترفـرف في حياتنـا، لكـن قبـل أن ترفـرف ينبغـي أن نـدرك معناهـا، وأن نفهـم معناهـا، فـإن لهـا معنىً عظيمـا، ولهـا معنـىً جليلا، ليسـت فقـط قـولا يقـال باللسان، بعض الناس يظن أنها من أقوال الذكر يذكر الله بها، نعـم يـذكر الله بهـا، ولكنهـا كلمـة ذات دلالات في حياتـك الفرديـة، وفي حياتـك الجماعيـة، وفي حياتك الأسرية لا إله إلا الله إذا أدركت معناها فإنك تتذوق طعـم هـذه العقيـدة كما تذوقها أبناء الجيل الأول مـن هـذه الأمـة، ذلـك الجيـل الـذي ضـحىٰ بكـل شيء في سبيلها، كم ضُرب من المسلمين الأوائل، وكم قُتل منهم، وكم أُخذت أموالهم، ولكن لا إله إلا الله عظيمة لا يعدلها مال، ولا تعدلها حياة دنيويـة، بـل أعظم من كل ذلك وأكبر.

إذاً إدراك معناهـا، أمـر ضـروري في حيـاة المسـلم، وهنـاك أربعـة مراحـل لهذه الكلمة: معرفة معناها أولا، ثم العمل بها، ثـم الـدعوة إليهـا، ثـم حراسـتها وحفظها. فكيف يعمل بها من لا يعرف معناها، وكيف يدعو إليها مـن لا يعـرف معناها ولا يعمل بها، وكيف يحرسها من لا يعرف معناها ولا يعمـل بمقتضـاها ولا يدعو الناس إليها، إذاً لابـد لكـل مسـلم مـن هـذه المراحـل، لأن الله ﷻ مـا خلق الناس إلا للقيام بهذه الكلمة، مـا خلـق النـاس ليـأكلوا ويشـربوا فقـط، بـل لـيس هـذا مـن مقاصـد الخلـق، الله يقـول ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦]. والعبادة هي تحقيق معنىً لا إله إلا الله.

إذاً مهما طال الحديث عن هذه الكلمة فإنـه لا يوفيهـا حقهـا، فإنهـا تشـمل جميع حياة الإنسان، الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والعقدية تشملها كلهـا، فلا إله إلا الله راية ترفرف علىٰ حياة الإنسان مـن كـل جوانبهـا، والـذي لا يفهـم منها إلا طرفا واحدا يخل بذلك في حياته، فلابد مـن معرفـة معناهـا، فـلا إلـه إلا الله ترافق الإنسـان في كـل حياتـه، لا تـترك فـردا ولا اختصاصـا إلا وهـي تحكـم

ذلك الفرد وذلك الاختصاص، فما أحوجنا إلىٰ معرفة معناها، ثم العمل بها في حياتنا، ودعوة الناس إليها، ونكون جنودا لحمايتها وحراستها، هذه وظيفة المسلم فإذا قام بها ما أجمل آخرته، فإن الدنيا ستنقضي بشهواتها، وتنقضي ببهرجها، وما أقرب الأجل، كم عاش قبلنا من أجيال، وكم عمر الأرض من أجيال، أين هم؟ رحلوا، إلىٰ أين؟ إلىٰ الدار الآخرة، ونحن في طريقهم ذاهبون، وهذا معنىٰ الحديث: (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)، فالمسلم ينبغي أن يذكر هذه النقطة، هذا المنعطف الأخير، عاش الإنسان فترة طويلة ثم رحل، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

حياة الإنسان قصيرة، إذاً عليك أيها المسلم أن تحرص علىٰ أن تبني آخرتك، وعلىٰ أن تقدم آخرتك فإن الدنيا ستنقضي لا يبقىٰ فيها أحد من المخلوقات ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن:٢٦].

فالمسلم ينبغي أن يحرص أن يتعلم التوحيد وأن يعمل به وأن يدعو إليه وأن يحفظه ويحرسه بقدر استطاعته حتىٰ يلقىٰ الله وهو عنه راض، فإذا كان كذلك، انطلق لسانه عند موته بهذه الكلمة، فقال لا إله إلا الله، ولكن الذي لا يعيشها لا ينطلق لسانه وإن كان يظن أنه قادر، كم من إنسان عند الموت يقال له قل: لا إله إلا الله وهو يعرفها، وهي بلغته ولكن لا يقولها، لأنه لا يعمل بها، فلا يظن الإنسان أنه قادر علىٰ أن يقولها عند موته وهو لم يعمل بها في حياته.

والمسلمون اليوم في حاجة إلىٰ أن يفهموا معنىٰ (لا إله إلا الله) فإنهم قد لحقهم ما لحق الأجيال البشرية الأولىٰ من خطأ في فهمها، وانحراف في إدراك معناها، وهذا هو السبب فيما نراه من مفاسد في بلاد المسلمين، بل السبب الأساس هو جهلهم بمعنىٰ (لا إله إلا الله) والشارح رحمه الله قد أطال النفس

في بيان هذا المعنىٰ في الكتاب، وقد هاجم الطوائف والمجتمعات التي أساءت فهم (لا إله إلا الله) وبين معناها في الشرع، وقد ضممنا إليه بعض أقوال أهل اللغة في اللغة، فهذا هو الأساس الذي يجب علىٰ الأمة الإسلامية أن تُدركه في أولىٰ خطواتها في العودة إلىٰ الله ﷻ، ولن تكون العودة صحيحة ولا سليمة إلا بإدراك هذا المعنىٰ، والإنسان قد يستغرب أو يعجب من طول نفس الشارح في بيان معناها، ولكن لا يعجب، وسنقرأ عليكم بعض أقوال العلماء في أحوال المجتمعات الإسلامية عند ظهور الدعوة، وكذلك عند تأليف الشارح للكتاب رحمه الله، وكذلك في العصر الحاضر فإن أكثر العلماء الذين يتصدرون الفتوىٰ اليوم في بعض بلاد المسلمين ممن يجهل معنىٰ (لا إله إلا الله) فكيف يقوم المجتمع الإسلامي قياماً صحيحاً، ومعنىٰ (لا إله إلا الله) في القلوب غير واضح!!

إن (لا إله إلا الله) تعني خلع جميع ما يُعبد من دون الله، وأن يكون الأمر كله لله، ليس للإنسان من أمره إلا السمع والطاعة أن يقول: سمعنا وأطعنا. فإذا فهم المسلمون معنىٰ (لا إله إلا الله) وأدركوها جيداً أمكن أن تصحح ما في مجتمعاتهم من المفاسد والبدع والانحرافات.

التوحيد عقيدة وعمل:

التوحيد عقيدة وعمل، ليس عقيدة في القلب فقط، بل التوحيد يشمل الدين كله، فلا يُظن أن التوحيد خاص بأعمال القلوب، ولو خالفتها الجوارح، لأن القلب الموحد تنقاد له الجوارح وتكون الجوارح موحدة، ويستدل بتوحيد الجوارح علىٰ توحيد القلب، فإن الدين كله توحيد،ولا بد أن يستقيم الإنسان علىٰ أمر الله ﷻ، فيبذل أعمال قلبه كلها لله، وأعمال جوارحه كلها لله، فإن قامَ قام بالله، وإن قعد قعد بالله، وإن خرج خرج بالله، فالله ﷻ نُصب

عينه في كل حركة، هذا هو التوحيد، ولا يعرف التوحيد إلا إذا عُرِف الموحَد، والموحَد هو الله ﷻ.

ولهذا ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما **أنه قال: العلم علمان، علم في القلب، وعلم في اللسان، فعلم القلب ذلك الذي ينفع الله به عباده، وعلم اللسان حجة الله على خلقه**، فقد يكون الإنسان عليما بالتوحيد في لسانه لكن لا ترى قلبه ينقاد لهذا التوحيد، ولا ترى سلوكه ينقاد لهذا التوحيد، ولا ترى أخلاقه تنقاد لهذا التوحيد، إذاً هذا لم ينتفع بعلمه، فلابد أن يكون القلب موافقا لقول اللسان، وعمل الجوارح، والإنسان مطالب أن يحرص على معرفة الله سبحانه وتعالى، **وكذلك ورد عن بعض التابعين أنه قال**: العلم علمان، علم بالله، وعلم بشرعه، الإنسان قد يعرف شرع الله الحلال والحرام، ولكن لا يعرف الله، لأنه يجترئ على ما عرف من الحلال والحرام لشهوة نفسه، أو إرضاء من يسترضيه، لكن إذا كان العلم في القلب فإنه ينقاد له جوارحه.

الدعوة الى التوحيد:

دعوة الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله هي مسئولية كل مسلم، فإن الله ﷻ إنما خلق الناس لعبادته، وهذا هو المقصد الوحيد، والله ﷻ قد تعهد البشرية بالأنبياء والرسل كلما انحرفت البشرية بعث إليهم رسولاً حتى ختمهم بنبينا محمد ﷺ، ثم انقطعت النبوات والرسالات، وأصبحت مسئولية الأنبياء على أمة محمد ﷺ، وإذا قلنا أمة محمد فكل واحد منا هو من أمة محمد، كل واحد مخاطب بخطاب الله ﷻ، وكل واحد مخاطب بخطاب رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، فجعل مهمة الدعوة مسئولية كل من اتبع النبي ﷺ، وكل مسلم متابع لرسول الله ﷺ، واليوم والبشرية تُعَدُّ بأعداد ضخمة جداً،

فكم منهم يعبد الله!؟ وكم منهم يعرف الإسلام!؟ فإذا مات هؤلاء ولم يعرفوا الإسلام ولم يعرفوا الله ما هي حجتهم يوم القيامة؟ ستكون حجتهم يا رب إنك وكلت الدعوة إلىٰ أمة لم تبلغنا، فكل واحد منا مسئول يوم القيامة عن إبلاغ هذا الدين، وعن إبلاغ رسالة رسول الله ﷺ إلىٰ كل الناس.

فإذا عرفت التوحيد، وعرفت الشرك وجب عليك أن تتحرك بالتوحيد إلىٰ الناس، وأن تتحرك بتحرير الناس من الشرك.

إن الملوم في بعض الانحراف الواقع هو المسلم الذي أدرك الحقيقة كما هي، ونسي التطبيق، فلا يكفي إدراكه للحقيقة، بل لابد أن يتمثلها في حياته، ثم يبلغها للآخرين، والدعوة علىٰ درجات وعلىٰ أنواع شتىٰ: سلوكك دعوة، أخلاقك دعوة، معاملتك دعوة، كل حركاتك دعوة إما أن تدعو إلىٰ الدين، وإما أن تصد الناس عن الدين، كما قال تعالىٰ في بني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤]، فهؤلاء كان بعضهم إذا سُئل عن النبي ﷺ قال: نعم، إنه نبي أو إنه رسول، ولكن الحسد منعهم من اتباعه ﷺ.

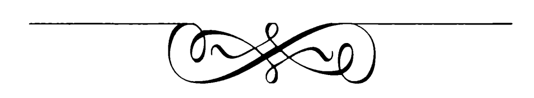
إن تعلمك التوحيد ومعرفتك له يجعلك مسؤول أمام الله ﷻ، فإن الناس إنما خُلقوا لعبادة الله، وكم يعيش اليوم في الأرض من خلق الله لا يعرف الدين، ولا يعرف العبادة، ولا يعرف التوحيد، بل يحارب التوحيد، ويحارب الدين، لأن المسلمين لم يقوموا بدورهم: أولاً هم لم يطبقوا الدين في أنفسهم كما ينبغي، ثم لم يبلغوه لغيرهم.

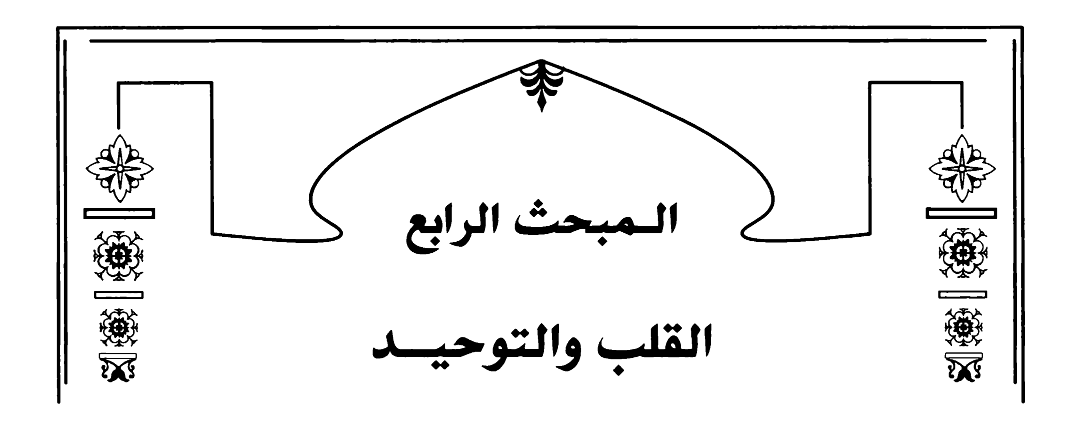
فلا يكفي الإنسان أن يتدين في نفسه، ولا يُعذر يوم القيامة، وقد جعل الله ﷻ النجاح والفوز في الآخرة مرتباً علىٰ قسمين: قسم يخص الإنسان نفسه، وقسم يخص المجتمع، يخص الدين كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى

خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العصر: ١-٢] أقسم الله ﷻ بالزمن الذي خلق فيه الناس، والذي جعله وعاءً لأعمال الناس، أقسم أن كل إنسان خاسر إلا من؟ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [العصر:٣] والإيمان والعمل الصالح يخصك أنت في نفسك فهذا نصف النجاة يوم القيامة، شرطان، ونصفها ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر:٣]، في الدعوة إلىٰ الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإذاً كل واحد منا مربوط فلاحه ونجاحه يوم القيامة بأنه يؤدي دوره في الحياة، ودوره هو أن يعبد الله أولاً ثم يدعو الناس إلىٰ عبادته، فإذاً مسئوليتنا أمام الله ﷻ هي أن نبلغ دينه لعباده ولخلقه.

والناس اليوم وهم يبلُغون أعداد ضخمة جداً، لكن الكثير منهم لا يعرفون هذا الدين، إما أنهم عرفوه من خلال سلوكنا الذي لا يمثل الدين إلا ما رحم الله، أو يعرفونه من خلال تشويه أعداء الإسلام، فإن أعداء الإسلام يشوهون هذا الدين بشتىٰ الطرق بالدعايات الكاذبة، وبتصويره بالتصوير الكاذب وبنشر الدسائس علىٰ هذا الدين، وبتصوير المسلمين تصويراً سيئاً فإذاً الناس لم تبلغهم الدعوة كما ينبغي، والحجة لا تقوم إلا إذا بلغنا الدين بالصورة الصحيحة العملية في سلوكنا، والقولية التي تكون صافية صحيحة من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ.





المبحث الرابع

القلب والتوحيد

التوحيد له جانبان: جانب يتعلق بالأعمال الباطنة، وهي أعمال القلوب، وجانب يتعلق بالأعمال الظاهرة وهي أعمال الجوارح.

والأعمال الباطنة الخاصة بالقلب هي التي تُحرك الإنسان، وهي التي تدفع الإنسان أو تمنعه، وأعمال القلب هي أهم الأعمال، فإذا صلح القلب صلحت الجوارح، وإذا فسد القلب كانت الجوارح فاسدة.

ومن أعمال القلوب أن يكون الحب كله لله، فلا تحب إلا ما يتعلق بالله ﷻ، تحب الله ﷻ الذي خلقك وأوجدك وصورك وخلق الوجود كله من أجلك ﷻ، فإن أطعته في الدنيا أعطاك أعظم مما في هذه الدنيا، وتحب رسول الله ﷺ، وتحب ما جاء به رسول الله ﷺ، وتحب من يعمل بما جاء به رسول الله ﷺ، وتبغض ما يبغضه الله ﷻ، وتبغض ما يبغضه رسول الله ﷺ، وهكذا عمل القلب إذا سكنه التوحيد لا يتحرك إلا لله، ولا يحب إلا ما يحبه الله، ولا يبغض إلا ما يبغضه الله، ولا يعمل إلا ما أذن الله فيه من العمل، هذا هو التوحيد الحقيقي الحب لله ومن أجله، والبغض لله ومن أجله، والفرح لله ومن أجله، والحزن لله ومن أجله، فقلب الموحد ليس فيه فراغ لغير الله ﷻ، فحركة الإنسان الظاهرة مرتبطة بحركته الباطنة.

فإذا فرغ القلب من هذه المعاني كان قلباً هزيلاً، كان قلباً ضعيفاً، كان

قلبًا لا يستحق التكريم؛ لأنه يغضب لغير الله، ويرضىٰ لغير الله، ويفرح لغير الله، ويحزن لغير الله؛ فهو قلب فارغ، ولكن المعاني الجميلة، المعاني الكبيرة إذا سكنت القلوب المؤمنة لا تترك فيها فراغًا لغير الله ﷻ، فهذا هو التوحيد، فالتوحيد يحتاج منا إلىٰ مراقبة، وإلىٰ متابعة، وإلىٰ تربية طويلة، وإلىٰ حراسة، فإن القلب مثله كمثل المزرعة فإن تُركت نبتت فيه النباتات العشوائية، وإن قمت علىٰ قلبك وحرسته فإنه يبقىٰ محفوظًا بإذن الله ﷻ، ولهذا يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فكما أن الإنسان لا يجوز له أن يصرف من المال إلا وفق شرع الله، كذلك لا يجوز له أن يحب إلا وفق شرع الله، ولا يبغض إلا وفق شرع الله، ولا يفرح إلا وفق شرع الله، ولا يحزن إلا وفق شرع الله، هذا هو التوحيد، أن يكون القلب ليس فيه فراغ لغير هذه المعاني الإيمانية.

وقد عالج هذا الكتاب - «تيسير العزيز الحميد»- ما يتعلق بأعمال القلوب، لأن القلب البشري قابل لجميع أنواع الأهواء، وقابل لجميع أنواع العبادات، حتىٰ إنه قابل لأن يعبد الحجر والشجر، وقابل أن يؤمن بالخرافات، ولكنه ليس هذا هو الأصل في قلب الإنسان، الأصل في قلبه التوحيد، ولكنه يقبل؛ فقد قال ﷻ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]، طريق الخير وطريق الشر، والقلب كيف يكون قابلا؟ يكون قابلاً بالتربية، فإذا تربىٰ علىٰ عبادة الأحجار عبدها، والإنسان قد لا يصدق، ولكن عندما نعرف أن الأصنام هي أحجار، وكان زعماء العرب في ذلك الزمان يعبدون الأحجار، وإلىٰ اليوم توجد أحجار تُعبد من دون الله، واشجار تُعبد من دون الله، هذا الإنسان المكرم المحترم يخضع للحجر، ويسجد للحجر بل يعبد البقر!

فالقلب إذا لم يصنه صاحبه فإنه قد يؤدي الإهمال به إلىٰ أن يقبل الواردات الباطلة، فلابد من صيانة القلب وحراسته وتربيته وتمحيصه والقيام عليه كما يذكر ابن القيم رحمه الله: أن النفس كالشريك الخوان إن لم تحاسبه ذهب برأس مالك. يعني النفس البشرية فيها ميل إلىٰ الهوىٰ، ميل إلىٰ الشهوات، ميل إلىٰ المصالح المعجلة، فإذا أنت لم ترعها وتقم علىٰ رعايتها قادتك إلىٰ السوء ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

إذاً الإنسان بحاجة إلىٰ أن يرعىٰ قلبه، ولهذا أخبرنا الله ﷻ عن أبي البشر آدم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه:١١٥]، الإنسان ينسىٰ فإذا مر علىٰ الإنسان فترة من الزمن لم يذكر فيها الحق تسلل إلىٰ قلبه الباطل، والباطل يأتي بالتدرج، ولهذا يذكر ابن الجوزي رحمه الله: أن إبليس لا يأتي بالشر دفعة واحدة، يأتي به علىٰ مراحل. وضرب مثل وهو أن الإنسان من أهل الصف الأول، ولا تفوته تكبيرة إحرام، لا يأتي إبليس ويقول له: أترك الصلاة، لا، بل يشغله عن تكبيرة الإحرام فتفوته، وبعد فترة يشغله عن الصف الأول، وبعد فترة يشغله عن الركعة الأولىٰ، ثم أخيراً لا يلحق الصلاة فيصلي مرة في البيت، ومرة في المسجد، ثم بعد ذلك يصلي الصلوات كلها في البيت، ثم أحياناً تفوته بعض الصلوات، ثم يترك الصلاة. والخلاصة: إن الإنسان إذا لم يقم علىٰ رعاية قلبه فإن عدوه قد عهد وتعهد أن يضله.

خوف القلب من الوقوع في الشرك:

فكل مسلم ينبغي أن يخاف علىٰ قلبه أن يتسلل إليه الهوىٰ، أو يتسلل إليه الشرك الأكبر أو الأصغر، وهذا لابد له من حماية ورعاية واستمرار كل يوم لا بد أن تراجع حساباتك، ليس منا أحد يرضىٰ أن يلبس ملابس تستمر إلىٰ نهاية العام، بل بعد فترة يغسلها، هكذا القلب في حاجة إلىٰ نظافة يومياً، وإلا فإذا

تولدت النباتات الباطلة في القلب غطت الحق، ولهذا ترىٰ أخوين في بيت واحد يؤذن المؤذن ويخرج أحدهما منطلقاً إلىٰ المسجد، والآخر لا يخرج إلىٰ المسجد، وكلاهما أخوان يتمتعان بجميع الصفات المشتركة عينان وأذنان وقلب ولسان، لماذا؟ لأن أحدهما قد تغلب الهوىٰ والباطل علىٰ قلبه، والآخر قلبه حي يقظ سليم وفيه خير يدفعه إلىٰ الحق، فإذا دعاك القلب، فمهمتك أن ترعىٰ كل يوم قلبك، وترعىٰ خواطرك، كلما خطر ببالك خواطر وجاء في قلبك مشاعر فأنت تعرضها علىٰ الحق، هل هذه حق هل ترضي الله هل هذا مما يحبه الله هل هذا يقربني إلىٰ الله؟ أنت تكون حسيب نفسك، كما قال عمر: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا، فاليوم عمل ولا حساب) اليوم لا أحد يحاسبك (وغداً حساب ولا عمل) ولهذا الإنسان إذا مات انتبه ولكن ما ينفع، فالذي لا ينتبه وهو حي لا ينفعه الانتباه بعد الموت.

إذاً نحن في حاجة إلىٰ مراقبة ذلك القلب حتىٰ لا يتسلل إليه الشيطان والهوىٰ والشرك، وإن كان المؤمن ولله الحمد يكون بريئاً من الشرك الأكبر، ولكن هناك مداخل أخرىٰ، كما يذكر ابن القيم رحمه الله، يقول: الإنسان في طريقه سبع عقبات: أولها الشرك، يأتي إبليس يقول: أشرك بالله، إذا ما استطاع انتقل بعد الشرك إلىٰ البدعة، ما استطاع أن يأتي ببدعة انتقل إلىٰ الكبيرة، ما استجاب إلىٰ الكبيرة انتقل إلىٰ الصغيرة، ما استجاب إلىٰ الصغيرة انتقل إلىٰ المكروهات، شغله بالمكروهات، ما استجاب انتقل إلىٰ المباحات، ما استجاب شغله بعيوب الآخرين، فلان فيه وفيه يعني: يريد أن يقوِّم الآخرين وينسىٰ نفسه، وهذا هم ومقصد إبليس أن تنسىٰ نفسك وتشتغل بالآخرين فلان فيه، وفلان قال وفلان عمل، فيشغلك بعيوب الآخرين وتنسىٰ عيبك.

أثر العلم بالتوحيد على قلوب العبيد:

(تيسير العزيز الحميد) هذا الكتاب الذي يتحدث عن التوحيد، والتوحيد هو المقصد الوحيد من خلق هذا الإنسان لأن التوحيد يُراد به العبادة أي أن تعبد الله ﷻ وحده، والقلب في حاجة إلىٰ عناية ورقابة مستمرة، فإن القلب يحتاج إلىٰ غذاء، ويحتاج إلىٰ دواء، وأحياناً يحتاج إلىٰ الدواء أكثر، وأحياناً يحتاج إلىٰ الغذاء أكثر، وذلك بحسب أحوال القلوب وخاصةً في العصر الحاضر، والقلب يُحاط به من كل مكان شهوات وشبهات فإذا لم يعتن الإنسان بقلبه ربما يفقده فلا يحس بمعروف ولا يحس بمنكر فيموت القلب وهو لا يدري، وما منا من أحد إلا وهو يعيد تركيب منزله ونظافة بيته، وترتيب مكتبه كل يوم، لأن حركة الحياة في المنزل تجعل المنزل يتغير شكله، كذلك القلب احتكاك الإنسان بالأحياء، احتكاك الإنسان بالحوادث، مواجهة الإنسان بأمور الحياة الدنيا كل ذلك يصب في قلبك، وربما يصب في القلب أشياء منكرة فيحتاج إلىٰ أن يخلص قلبه منها.

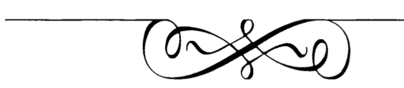
والقلب يحتاج دائما إلىٰ رقابة ليُبعد ما يدخل فيه من الفساد ويصحح ما حدث فيه من تلك الأهواء التي قد تدخل القلب والإنسان لا يدري، فرقابة القلب مهمة كل إنسان، والله ﷻ قد ذكر أنه يوم القيامة لا ينجح إلا من أتىٰ الله بقلب سليم، هذا القلب السليم لا يكون سليما إلا بمتابعة مستمرة ورعاية، فكم يسمع الإنسان في اليوم وكم يرىٰ الإنسان في اليوم، وكم يخطر في باله في اليوم كل ذلك يصب في القلب والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦] فيقول أهل العلم: إن الله ﷻ قد ربط بين السمع والبصر والفؤاد الذي هو القلب، فإن القلب يستقبل ما يصب فيه من السمع من الكلام، ويستقبل ما يصب فيه من النظر وهو البصر، وقد ضربنا

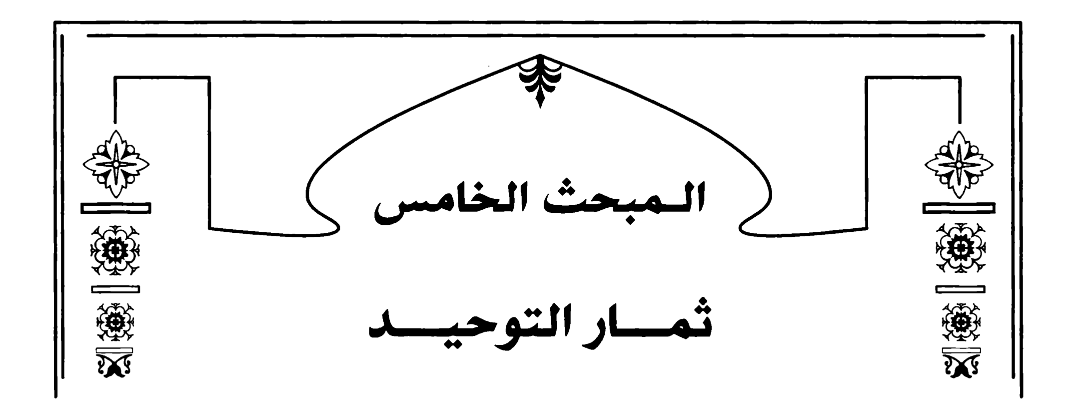
مثالاً لهذا بالحاسب الآلي في العصر الحديث، الحاسب الآلي يخدمك لكنه لا يخدمك إلا إذا خدمته فإذا أدخلت فيه المعلومات تستطيع أن تسترجعها، لكن إذا لم تدخل فيه معلومات لا تستطيع أن تسترجع شيئاً، ثم إذا أدخلت فيه معلومات تتعلق مثلاً بالطب وأردت أن يعطيك معلومات عن الهندسة لا يعطيك، وإذا أعطيته معلومات عن الهندسة وأردت أن يعطيك معلومات عن الطب لا يعطيك، إنما يعطيك ما تدخله فيه.

كذلك القلب إذا أردته أن يوجهك للخير وهو لا يسمع طوال يومه الخير فلا يوجهك القلب، بل يعطيك ما تعطيه ولهذا يكون قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ [الإسراء:٣٦] مترابط، فما أدخلته عن طريق السمع تستحضره في كل لحظة أو في لحظات متعددة، وما أدخلته عن طريق البصر يأتيك في بعض اللحظات، وهكذا فمن أراد أن يكون قلبه موجهاً له إلىٰ الخير فلا يدخل فيه إلا الخير يقرأ القرآن ويسمع القرآن، ويسمع الذكر ويجالس الصالحين ولا يقول إلا خيرا، بذلك يستطيع أو يحصل علىٰ خير من قلبه، لكن القلب الذي لا يدخل فيه إلا معلومات خاطئة أو فاسدة، تكون النتائج فاسدة، حتىٰ الإنسان في حالة ما يصاب بالإغماء أو يصاب بغيبوبة تخرج منه ألفاظ ما تعمدها، كذلك عند الموت عندما يفقد وعيه القلب يخرج ألفاظ ما تعمدها لكن يخرج الألفاظ التي قد سجلها؛ فالإنسان عند الموت إذا حضره الموت فإنه يحضر في ذهنه ما سجل من معلومات، من الناس من يقرأ القرآن، من الناس من يقول لا إله إلا الله لأنه قد أدخلها في قلبه وهي تخرج عندما يستدعيها وعندما لا يشعر، فإذا أدخل في قلبه ما يتعلق بالتجارة عند الموت لا يحضره إلا التجارة، ويُذكر أن رجلاً كان جالساً عند بابه فمرت عليه امرأة فسألته عن حمام بنجاب - والحمامات في السابق مكان الاستحمام

والاغتسال ويُطلق عليه اليوم حمَّام البخار- فقال لها: من هذا الباب، الحمام بالداخل، فأدخلها في بيته، لأنه كان إنسان سيئًا وأقفل عليها الباب، وراودها علىٰ الفاحشة فالمرأة أظهرت الرضا والموافقة لكن قالت: لا يصلح هذه الجلسة إلا بشيء من الحلوىٰ فاذهب وائتنا بحلوىٰ من السوق، فعندما خرج خرجت من المنزل وهربت، فعلق في نفسه صورة هذه المرأة، وأخذ يردد حمَّام بنجاب، وجاءه الموت وهو يردد حمَّام بنجاب، لأن القلب امتلأ من هذه الصورة، يقولون: قل لا إله إلا الله ويقول: أين الطريق إلىٰ حمَّام بنجاب.

وهكذا فبقدر ما تدخل في قلبك من معلومات بقدر ما تأتيك عند الاحتياج، وخاصة في النزع الأخير، والإنسان عندما يفارق الدنيا، فإنه يصاب بذهول؛ لأن هذا أعظم مصيبة تصيب الإنسان، وأعظم ألم وأعظم شدة يعاينها الإنسان عند الموت، عند خروج الروح، لأنها تخرج من كل مكان من جسمه حتىٰ قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في كلام معناه: أنه ما يسره أنها ترىٰ أحداً عند المعاينة يكون نزعه خفيفًا؛ لأنها رأت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعاني شدة من النزع، وهو سيد البشر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعند هذه اللحظة الإنسان يفقد صوابه، فإذا لم يثبته الله عَزَّ وَجَلَّ ولم يكن القلب فيه معاني الخير، فلا يستطيع أن يقول لا إله إلاّ الله، وهناك حوادث كثيرة من هذا النوع، فإذاً نحن عندما نكثر من جلسات الخير ومن سماع الخير ومن قول الخير ومن قراءة الخير، فإن القلب لا يكون فيه إلاّ خير.





المبحث الخامس

ثمـــار التوحيـــد

مسائل التوحيد لا يستغني عنها مسلم ولا يستغني عنها إنسان؛ فإن الله ﷻ واحد، ودينه واحد، وكتابه واحد، ونبيه واحد، فالمسلم مطالب بأن يعرف مسائل التوحيد:

أولاً: ليعيش في هذه الحياة سعيداً فإن القلب إذا اتجه إلىٰ واحد وتعلق بواحد وكان مقصده واحدا عاش مطمئنـًا، ولكن القلب إذا توزعت مقاصده، وتوزعت أهدافه وتعلق بغير الواحد فإنه يعيش قلقا مضطربـًا، فمن ليس في قلبه سوىٰ الله، هذا القلب يعيش مطمئنـًا، يعيش بالسكينة، ويواجه الأحداث بطمأنينة.

ثانيـًا: لينجو يوم القيامة، وليحصل علىٰ وعد الله ﷻ بدخوله الجنة بلا حساب ولا عذاب، فإن الناس يوم القيامة كثير منهم يدخل الجنة علىٰ هذا المعنىٰ، ولكن بعضهم يدخل الجنة بعد أن يمحص في النار إذا نقص توحيده، أو كثرت معاصيه، وقل توحيده، إذاً التوحيد أمر ضروري للإنسان في الدنيا والآخرة.

ثالثـًا: يولِدُ التوحيد في القلب عزة، وقوة، تجعل صاحبها عزيزاً قويـًا؛ لأنه يعلم أن الأمور ليست بيد المخلوق، ومن ذلك ينتج عنه أنه لا يخاف أحداً، ولا يرهب أحداً، ولا يخيفه شيء، وقال ابن عباس رضي الله عنهما (حسبنا الله ونعم الوكيل كلمة قالها إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ عندما

قـال لـه النـاس ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣][1] فهـذه العـزة الإيمانيـة لا تكـون إلا لمـن امتلأ قلبه بتوحيد الله ﷻ، وعـرف أن الملـك كلـه لله، وأن الكـون كلـه بيـد الله، وأن الإنسان إنما هو سبب بيد المسبِّب الذي هو الله ﷻ.

وقد ضرب بعض العلماء نموذجـاً لهـذا، قـال: اشتكت الورقة وعاتبت القلم، قالت: أيها القلم قد سودت بياضي. قال القلم: ليس أنا وإنما هـو الحبر الـذي أدخلـه الكاتـب فيَّ. فعاتبـت الورقـة الحبر، قـال: لسـت أنـا وإنمـا الـذي وضعني في القلم هو الذي جعلني أكتب هذا، ولكنهما الإصبعان اللتـان تكتب بهذا القلم. فعاتبت الإصبعين، قال الأصبعان: ليس أنـا الـذي أكتـب وإنمـا هـي اليد والذراع التي تحركني، فعاتبت اليـد والـذراع. قالـت اليـد: لـيس أنـا ولكنـه الذي كتب بي وهو الإنسان. فعاتبـت الإنسـان، قـال الإنسـان لـيس أنـا ولكننـي أعمـل بحسـب مـا قُـدر علـيَّ في الأزل، والـذي قُـدر هـو في اللـوح المحفـوظ. وهكذا ثم عاتبت اللوح المحفوظ، قـال: لـيس أنـا، ولكـن القلـم الأزلـي الـذي كتب فيَّ هذا، فعاتبت القلم، قال القلم: إنما هو الله الذي أمرني، هذا التسلسل.

فالقلب ينتهي أخيراً إلىٰ مسبِّب الأسـباب، إلـىٰ مالـك الكـون، إلـىٰ الـذي بيده كل شيء ﷻ، فالذي يكون هذا توحيده فـإن يكسبه عـزة، وقـوة تجعلـه في حياتـه حـراً، لا يخـاف أحـداً، ولا يرهـب أحـداً، ولكـن هـذه العـزة ليسـت عـزة مؤذية، وإنما هي عزة مفيدة نافعـة، فـلا يُفهـم مـن هـذا أن الإنسـان يـؤذي غـيره باسم العزة الإيمانية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتـاب تفسـير القـرآن، بـاب ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣] الآية، برقم: (٤٥٦٣).

رابعـًا: الرضىٰ بالأقـدار، فالإنسـان محـاط بقـدر الله منـذ وجـوده إلـىٰ أن يرحل، والقدر يحيط بك من كل مكان، فإذا وحـدت الله بقـدرك، فإنـك ترضـىٰ بالقدر وتصبر عليه؛ لأنك تعلم أن هـذا لـيس مـن فعـل البشر، ولكنـه مـن فعـل خالق البشر. إذاً يكسبك التوحيد رضىٰ بأقدار الله ﷻ.

خامسـًا: الأمـن النفسـي، الأمـن مطلـب لكـل إنسـان، والأمـن للمسـتقبل، ولهذا في قوله تعالىٰ للذين آمنـوا بـالله ﷻ: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة:١١٢]، لا يحزنون علىٰ الماضي، ولا يخـافون مـن المسـتقبل، أي مطمئنـون آمنون؛ لأنهم يعلمون أنه لا يقع إلا ما قدره الله ﷻ.

سادسـًا: تظهـر الفضـائل علـىٰ الفـرد، وتظهـر الفضـائل في المجتمـع؛ لأن الموحد يتلقىٰ من الله ﷻ أوامره ونواهيـه، وبـذلك لا يعمـل إلا مـا أمـره الله بـه وهي فضـائل، ولا يـترك إلا مـا نهىٰ الله عنه وهـي الرذائـل، فيصـبح المجتمـع، وتصـبح الأسـرة، ويصـبح الفـرد كـل ذلـك مصـدر للفضـيلة للفـرد والأسـرة والمجتمع.

سـابعًا: تختفـي الرذائـل؛ لأن الموحـد لا يعمـل الرذيلـة؛ لأنـه يراقـب الله فكل ما همت نفسه بسوء أو معصية تذكر الله ﷻ فـامتنع عـن فعلهـا، ولكـن قـد يعثر وقد يكبو ثم يرجع إلىٰ الله ﷻ، قال تعـالىٰ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف:٢٠١].

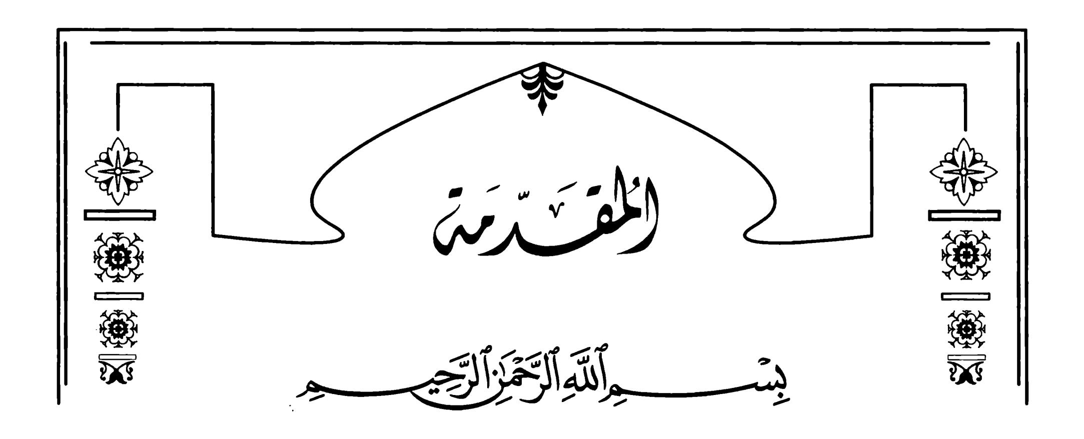
ثامنـًا: يصـبح المجتمـع مجتمعـًا واحـداً موحـداً؛ لأنـه كلـه يتلقـىٰ أمـره مـن واحد، ويعبد واحد، ويتقرب إلىٰ واحد وبذلك تتوحد الأمة؛ لأنها لا يكـون لهـا شركاء، هذا يأمر وهذا ينهىٰ، وهذا يهدد، وهـذا يؤمـل، بـل كلهـم تتجـه قلـوبهم إلىٰ الله، ويتلقـون مـن الله وحـده أمـرهـم وحيـاتهم وديـنهم وتشـريعهم، وبـذلك

يصبح المجتمع مجتمعًا واحداً لا أحزاب متنافرة، ولا جمعيات متعادية، بل كله يصبح موحَّدا؛ لأن التوحيد يقود المجتمع إلىٰ الوحدة العامة.

تاسعًا: هذا المجتمع بهذه العقيدة يصبح قويًا لا يستطيع أحد أن ينتهك حرماته، ولا يتعدىٰ حدوده؛ لأنه مجتمع قوي عزيز، وبهذا يكون مجتمعًا مرهوبًا كما كان في عصر الصحابة رضي الله عنهم.

عاشرًا وأخيراً: تختفي مظاهر الشرك من هذا المجتمع؛ لأن مظاهر الشرك إنما تظهر في المجتمع الذي ينقص توحيده، وينقص علمه بالله عز وجل، فكلما ضعفت آثار النبوة، وآثار الوحي كلما ظهرت فيه مظاهر الشرك ومظاهر المعصية الوثنية، أما المجتمع الموحِّد فلا ترىٰ فيه آثاراً لشرك ولا ترىٰ فيه آثاراً لمعصية عامة، وإن كانت المعصية قد توجد في أفراد، ولكنها لا تكون ظاهره عامة. هذا مجمل ما يُستفاد من التوحيد في الدنيا.





قال المؤلف رحمه الله:

افتتح المصنف رحمه الله كتابه بالبسملة اقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بالحديث: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع» رواه الحافظ عبدالقادر الرهاوي في الأربعين من حديث أبي هريرة مرفوعًا، وأخرجه الخطيب في الجامع بنحوه.



هذه المقدمة فيها سبع مسائل:

المسألة الأولى: الافتتاحية بالبسملة، فإن المسلم يُشرَع له أن يستفتح جميع أعماله بذكر الله عز وجل، وهذا ما صنعه المؤلِّف والشارح في هذا الكتاب، فبدأ كتابه بقوله: (بسم الله الرحمن الرحيم).

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة التي تحُثُّ على أن يبدأ المسلم عمله -أيًا كان- بالبسملة، فجاء في الطعام قوله لعمرَ بن أبي سلمة: "سَمِّ اللهَ، وكُلْ مما

يليك"[١]، وجاء في الحديث أنه قال: "أغلق بابك، واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك، واذكر اسم الله، وأَوْكِ سقاءك، واذكر اسم الله، وخمِّر إناءك، واذكر اسم الله"[٢]، فكأن حركة المسلم ينبغي أن تكون كلها قائمة على الابتداء باسم الله ﷻ.

وكذلك وَرَدَ عنه أنه قال: "إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، فإذا ذكر الله عند الدخول، قال: لا مبيت لكم، فإذا ذكر الله عند العشاء، قال: لا عشاء لكم، فإذا نسي ذكر الله عند الدخول، قال: أدركتم المبيت -للشياطين-، وإذا نسي ذكر الله عند الطعام، قال: أدركتم المبيت والعشاء"[٣]، فاسم الله عظيم يحمي الإنسان من الشياطين ويحرسه، ويبارك له في حياته، فاسم الله يُبدَأ به، ويُشرَع عند كل عمل، ولهذا نرى الأنبياء السابقين يبدؤون أعمالهم بذكر الله ﷻ، قال الله عن نوح: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود:٤١]، فركب السفينة، وأمَر أتباعه أن يركبوها باسم الله ﷻ، وكذلك سليمان عندما بعث برسالته إلى ملكة سبأ، فقالت ملكة سبأ عن رسالة سليمان: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، برقم: (٥٣٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، برقم (٢٠٢٢)، (٣/ ١٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، برقم: (٣٢٨٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ "**إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء**"، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، برقم: (٢٠١٨)، (٣/ ١٥٩٨).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل:٣٠]، وكذلك الكتاب الكريم، فإن أول ما أُنزل في القرآن الكريم هو قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١]، وكذلك ترتيب المصحف في أوله ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة:١].

فالبدء بذكر الله ﷻ في جميع الأعمال أمر مشروع وردَت به الشريعة، فالمسلم يحرص أن يبدأ حياته كلها بذكر الله ﷻ.

المسألة الثانية: في البسملة

إن صاحب المتن -وإن بدأ كتابه ببسم الله- إلا أنه لم يذكر شيئًا غيرها، لا الحمدلة، ولا خُطبة الحاجة، فيقول الشارح: إنه فعل هذا (**اقتداءً بالكتاب العزيز**)، أي بالقرآن، فهل البسملة آية في القرآن؟ وما هي أول آية فيه؟

اختلف العلماء فيه على أربعة أقوال:

القول الأول: إنها آية من كل سورة، وعليه ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعلي وغيرهم من جمهور الصحابة، بل من كل الصحابة؛ لأنهم كتبوا المصحف، ووضعوا البسملة في أوله، فدلَّ على أن هذا إجماعٌ منهم، وقال بقولهم: طاووس، وعطاء بن أبي رباح، والزهري، ومكحول، ومن بعدهم عبد الله بن المبارك. وهذا قولٌ للشافعي رحمه الله، وهو المختار عند الشافعية، ورواية للإمام أحمد رحمه الله ؛ لأن الإمام أحمد له أربعة أقوال، بحسب الأقوال الأربعة الواردة في المسألة.

ويكثر في المذهب الحنبلي أن يَرِدَ للإمام أحمد رحمه الله أقوالٌ كثيرة وآراءٌ متعددة، حتى إن طالب العلم ليتردد أيها يُقدِّم، وسبب ذلك أنه رحمه الله كان يتبع الأدلة، فإذا جاءه دليل، قال به، فإذا جاءه دليل أصحُّ منه، قال به، فكان همُّه اتباع الدليل، فعلينا أن نبحث عن الدليل أولًا، لا عن القول.

ودليلهم في هذه المسألة فعل الصحابة -كما سبق-، والأحاديث، فمنها قول ابن عباس رضي الله عنهما كما في سنن أبي داود، وصحَّحه ابن كثير رحمه الله، قال: "**ما كان يعرف -أي النبي- الفصل بين السور حتىٰ تنزل عليه، أو ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم**"[١]. وحديث أنس في الصحيح أنه قال: (**بينا رسول الله بين أظهُرنا فأغفىٰ إغفاءة -أي نعس-، ثم رفع رأسه مبتسمًا، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: لقد أُنزلَت علي آنفًا سورة، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ...﴾ [الكوثر:١]، إلىٰ آخرها)[٢]. فالبسملة آية من كل سورة، ما عدا سورة براءة بإجماع العلماء، كما أن العلماء مُجمِعون أن البسملة أثناء سورة النمل آية، أو جزء آية من كتاب الله، والاختلاف إنما هو في كونها آية غير هاتين السورتين.

القول الثاني: إنها آية من الفاتحة فقط، وهذا يُعزَىٰ للإمام الشافعي والإمام أحمد رحمهما الله، ودليلهما ما مرَّ من الأدلة.

القول الثالث: إنها ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، ماعدا سورة النمل كما سبق، وهذا يُعزَىٰ إلىٰ بعض العلماء، ومنهم الإمام الشافعي والإمام أحمد، وعليه مذهب الإمام مالك وأحمد رحمهم الله، ولذلك فإن مالكًا وأصحابه يرُون قراءة البسملة في الصلاة مكروهة، ويرُون أن تُبدَأ القراءة في

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه باختلاف يسير، كتاب الصلاة، باب من جهر بالبسملة، برقم: (٧٨٨)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الصلاة، باب الدليل علىٰ أن ما جمعته مصاحف الصحابة كله قرآن، برقم: (٢٣٧٧)، (٢/ ٦٣)، والحاكم في المستدرك بمعناه، كتاب الصلاة، باب التأمين، برقم: (٨٤٨)، (١/ ٣٤٤)، وصححه علىٰ شرط الشيخين، وسكت عليه الذهبي في التخليص، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوىٰ براءة، برقم: (٤٠٠)، (١/ ٣٠٠).

الصلاة بالحمد لله رب العالمين، ولا يرون حتىٰ الاستفتاح قبل الفاتحة، ودليلهم: حديث النبي أنه قال: (قال الله ﷻ قُسِّمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين إلىٰ آخر الحديث -والمراد بالصلاة الفاتحة بدليل بقية الحديث- فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال العبد: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنىٰ عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجَّدني عبدي، وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي، وإذا قال -إلىٰ آخر السورة-، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل)(١)، فقالوا: لم يبدأ الفاتحة بالبسملة، فدلَّ علىٰ أن البسملة ليست آية من الفاتحة.

لكن وردَ حديث أبي سعيد بن المعلىٰ في البخاري أنه قال: (كنت في المسجد أصلي فدعا، فلم أُجبه -لأنه كان في الصلاة-، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، قال: ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، قال: إني لأعلِّمنك سورة هي أعظم سورة من كتاب الله قبل أن تخرج من المسجد، قال فأخذ بيدي ثم عندما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت كذا وكذا، قال: الحمد لله رب العالمين، فاتحة الكتاب هي السبع المثاني الذي أوتيته والقرآن العظيم)(٢)، فقال: (السبع المثاني) أي أنها سبع آيات، وبغير البسملة تكون ست آيات، فدلَّ علىٰ أن البسملة آية من الفاتحة، لكن أصحاب القول الثالث قالوا: إن الفاتحة سبع آيات بدون البسملة؛ لأن قوله تعالىٰ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] آية بمفردها، فلا دلالة في الحديث علىٰ أن البسملة آية منها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، برقم: (٣٩٥)، (١/ ٢٩٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب، برقم: (٥٠٠٦).

فائدة: إن العلماء أخذوا من هذا الحديث وجوب ترك الصلاة النافلة؛ استجابة لرسول الله إذا دعا مَن دعاه من أُمَّته، فلو دعا الرسول أحدًا وهو في النافلة، وجب عليه أن يقطع النافلة، ويجيبه ﷺ.

القول الرابع: قول داود الظاهري رحمه الله، فهو يقول: هي آية بمفردها أول كل سورة، ليس لها علاقة بالسورة، وهذا قريب من القول الأول.

ولهذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله : إن مَن ترك البسملة فصلاته باطلة، ويقابله الإمام مالك رحمه الله بقوله: يُكرَه قراءة البسملة في الصلاة، والإمام أبو حنيفة والإمام أحمد رحمهما الله يريَان أن تُقرأ سرًّا، لكن لو لم يقرأها ليس عليه شيء، هذا اختلاف المذاهب في البسملة، ذكره ابن عبد البر[(١)].

المسألة الثالثة: هي قوله: (وعملًا بالحديث)، واعلم أن الأحاديث التي وردَت في كتب السُّنَن والمسانيد والمجامع ليست كلها صحيحة وصالحة للاستدلال، ولهذا ينبغي للمُستدَل أن يحرص على أن ينتقي الدليل الصحيح، فجميع هذه الأحاديث هنا لم تصح، ولكن كثيرًا من العلماء يتساهلون في رواية أحاديث فضائل الأعمال.

فالحديث الأول قوله: "كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع"[(٢)]، رواه الخطيب في كتاب (الجامع بين أخلاق الراوي وآداب السامع)، الذي أشار إليه الشارح بقوله (الجامع)، وأخرجه عبد القادر الرهاوي -والرهاوي من الرهى، مدينة بين الموصل والشام-، وعاش في

---

(١) في الإنصاف المجموعة المنيرية (٢/ ١٥٤).

(٢) أخرجه الخطيب في كتاب الجامع بين أخلاق الراوي وآداب السامع، برقم: (١٢١٠)، (٢/ ٦٩)، وقال الألباني في إرواء الغليل (١/ ٢٩): ضعيف جدًّا.

أواخر القرن السادس، وتوفي عام ستمائة واثني عشر للهجرة، وقد كان رحمه الله إمامًا عالمًا ثبتًا، وهو آخر من روى الكتاب العظيم في مسائل العقيدة - المسمَّى بشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة- لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي، وهذا الكتاب العظيم جمع عقائد السلف بأسانيدها، وهو متميز في منهجه، وقد طُبع الكتاب في تسعة أجزاء، وهو من أعظم الكتب في هذا المجال.

وهذا الحديث رواه الخطيب وعبد القادر، ولكن كتاب الأربعين لعبد القادر لم يُطبع حتى الآن، ولا أدري هل يوجد مخطوطًا أم لا؟ أما كتاب الخطيب فهو موجود في مجلدين، وله كتاب سمَّاه الأربعين المختلفة الأسانيد والبلاد، جمع فيه من كل بلد حديثًا، وانتقى الحديث الذي يختلف سَنَدُه عن بقية الأحاديث الأخرى، فكل حديث له بلد أخذه منه، عن شيخ من شيوخه، وبسَنَد يختلف عن بقية الأحاديث، وهذا يدل على تبحُّر هذا العالم.

وفي هذا الحديث أحمد بن محمد بن عمران[1]، قال الخطيب البغدادي رحمه الله: كان يُضعف في روايته، ويُطعَن عليه في مذهبه، أي كان مُتَّهَمًا بمذهب سوء، إما الرفض أو الاعتزال، أو ما شابه ذلك، فهذا الحديث ضعيف؛ لأنه لا يصح من هذا الطريق.

المسألة الرابعة: أنه لمْ يبدأ المؤلِّف رحمه الله بما تعارف عليه الناس في العصر الحاضر، وهو ما يُسمَّى بخُطبة الحاجة؛ فخطبة الحاجة، قد ذكر الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة أنه يحسُن أن يُبدَأ بها في أول كل عمل، قال: هذه الخطبة تُسمَّى عند العلماء بخطبة الحاجة، وهي تُشرَع بين يَدَي كل خطبة، سواء كانت خطبة جمعة، أو عيد، أو نكاح، أو درس، أو محاضرة، إلى أن قال:

(١) انظر ميزان الاعتدال (١/ ١٤٧)، لسان الميزان ت أبي غدة (١/ ٦٣٩)

فنحثُّ المحبِّين لسُنَّته، والراغبين في إحيائها، أن يلتزموا هذه الخطبة، التي كادت أن تصبح في خبر كان[١].

فالشيخ الألباني رحمه الله، وهو المحدِّث الذي أحيىٰ به الله عز وجل السُّنَّة في العصر الحاضر، فإن الناس قبل الشيخ الألباني رحمه الله لم يكن يهتم منهم بالتصحيح والتضعيف إلا المتخصصون، لكن الشيخ رحمه الله لكثرة ما نَشَر من الرسائل والمحاضرات واللقاءات؛ نَشَر هذا الوعي، ودرَّس في الجامعة الإسلامية التي فيها من كل العالم الإسلامي، فكان سببًا لنشر طريقته، ولإحياء السُّنَّة، والاهتمام بتصحيح الحديث أو تضعيفه، وهذا من آثاره رحمه الله، لكنه رحمه الله قد يتساهل في بعض الأحاديث، ويصحِّح الضعيف، وهذا منهج لا يُعادَىٰ صاحبه -إذا كان اتَّخذه عن قناعة-، وهذا لا يجرَحُه، أو يُنقِص من مقداره أوقيمته؛ إذ لا يخلو عالِم من خطأ، ولو كان صغيرًا يدرِكه صغار الطلبة، وذلك لحكمة من الله عز وجل، حتىٰ لا يُقدَّس العالِم؛ لأنه ليس في البشر معصوم سوىٰ الأنبياء عليهم السلام. فهذه سُنَّة الله في خلقه، وكما ذكر ابن تيمية رحمه الله : أنه لو كان العالِم لا يُخطِىء، لكان مثل النبي، وذكر أيضًا: أنه ما من عالم مشهور إلا وله قولٌ -أو أقوالٌ- خالَف بها سُنَّةً صحيحة.

فالشيخ رحمه الله في هذا الموطن لم يُصِب، ولهذا سنذكر بيان ذلك من خمسة أوجه:

الوجه الأول: أن الأحاديث لم تصح عن رسول الله.

الوجه الثاني: أن ما وردَ في الصِّحاح من خُطَب رسول الله، ليس فيها هذه الافتتاحية، حتىٰ في خطبة النكاح.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٢٨)

الوجه الثالث: أنه لم يَرِد عن عالم من علماء الحديث القدماء أنه افتتح كتابه بهذه الخطبة، لا البخاري، ولا مسلم، و لا أبي داود، ولا الترمذي، ولا ابن ماجه، ولا النسائي، ولا ابن أبي شيبة، ولا عبد الرزاق، ولا الإمام أحمد، ولا ابن تيمية، ولا ابن القيم رحمهم الله، وهَلُمَّ جَرًّا، فعلماء السلف كلهم مُجمِعون علىٰ عدم الافتتاح بهذه الخطبة، فلو صحَّت بأنها مما يُفتتح به لافتتحوا بها، وأُركِّز علىٰ هذا؛ لأن كثيرًا من الشباب يظن أن مَن لم يفتتح خطبته، أو كتابه، أو محاضرته بهذه الخطبة، فقد خالَف السُّنَّة، فنريد أن نقرر أنه لم يخالِف السُّنَّة.

الوجه الرابع: أنه وردَ عن العلماء أنهم كانوا يفتتحون دروسهم بغير هذه الخطبة.

والوجه الخامس والأخير: أن الشيخ نفسه رحمه الله في كُتُبه المتأخرة، لم يفتتحها بهذه الخطبة.

فخطبة الحاجة ليست مشروعة في البدء، لا في الخُطَب، ولا في المحاضرات، ولا في الزواجات، ولكنها تذكر من باب البركة بذكر الله عز وجل.

فأما الوجه الأول : فالشيخ الألباني رحمه الله له رسالة سمَّاها: (خطبة الحاجة) أَوْرد فيها الحديث عن ستة من الصحابة، بستة أسانيد:

الأول: حديث ابن مسعود.

و الثاني: حديث نُبيط بن شريط، وهذا أحد الصحابة، وإن كان اسمه غريبًا.

و الثالث: حديث جابر.

و الرابع: حديث ابن عباس.

والخامس: حديث عائشة.

والسادس: مُرْسَل عن الزهري.

فجمعها كلها في هذه الرسالة، وجميعها لم تصح، والذي صحَّ ليس في هذا الباب.

الحديث الأول : حديث ابن مسعود رواه عنه أربعة أشخاص: شعبة، والأعمش، وإسرائيل بن يونس، وسفيان الثوري.

شعبة أورده من ثلاث طرق، ومدار الحديث علىٰ أبي إسحق السبيعي، فأَوْرده عن أبي إسحق السبيعي من ثلاث طرق عن شعبة:

الأول: قال فيه: عن أبي إسحق السبيعي عن **أبي عبيدة**[1] -وأبو عبيدة هو ابن عبد الله ابن مسعود، اسمه عامر، تُوفِيَ أبوه وهو صغير، وعمره سبع سنوات، فلم يسمع من أبيه-، عن عبد الله بن مسعود، وهذا أصح حديث في هذا الباب، فعبد الله بن مسعود روَىٰ عنه ابنه أبو عبيدة، وهو لم يسمع منه، فالحديث منقطع ولا يصح؛ إذ لم يسمع الراوي مِمَّن روَىٰ عنه.

الرواية الثانية عن شعبة: قال: عن أبي عبيدة وأبي الأحوص[2]، ثم قال الراوي: وأراه عن أبي الأحوص، ويجزم.

الرواية الثالثة في المسند: قال: عن أبي عبيدة وأبي الأحوص، والحديث عن أبي عبيدة عن أبيه.

فهذه ثلاث روايات اضطربت، هل هو عن أبي الأحوص، أو عن أبي عبيدة، أو عنهما جميعًا؟

---

(١) أخرجه أبو داود (١ : ٣٣١)، والنسائي (١/ ٢٠٨)، والحاكم (٢/ ١٨٢، ١٨٣)، والطيالسي (رقم ٣٣٨)، وأحمد (رقم ٣٧٢٠ و ٤١١٥)، وأبو يعلىٰ في مُسنده، (ق ٢٤٢/ ١)، والطبراني في المعجم الكبير، والبيهقي في سُننه (٧/ ١٤٦)، من طرق عنه.

(٢) أخرجه النسائي (٢/ ٢٩)، والترمذي (٢/ ١٧٨)، والطبراني في الكبير عن الأعمش.

الراوي الثاني: الأعمش، واسمه سليمان بن مهران، مُدلِّس، وهو ثقة، لكن التدليس عيبٌ في الحديث؛ لإنَّه يجرَح الحديث، أي إذا قال المُدلِّس عن فلان، عرفنا أنه لم يسمع منه، ولا نثق فيه، إلا إذا قال حدَّثَنا، لكن لو قال غير المُدلِّس عن فلان، يُقبَل، فالأعمش إذا قال عن فلان، لا يُقبل، إلا إذا صرَّح بالسماع، وقال هنا: عن أبي إسحق عن أبي الأحوص، وترك أبا عبيدة.

الثالث: إسرائيل بن يونس، روَىٰ عن جده أبي إسحق السبيعي، وقال فيه: عن أبي الأحوص وأبي عبيدة[1].

والرابع: سفيان الثوري عن أبي إسحاق، وقال ﷺ : عن أبي عبيدة، وأوقف الحديث علىٰ ابن مسعود، لم يرفعه إلىٰ النبي.

وهذه الروايات أصح الروايات في هذا الباب.

الطريق الثاني: طريق جابر، وفيها عمرو بن شمر، قال العلماء: إنه كذاب.

والطريق الثالث: رواية عائشة، ورُوِيَ عنها مُرْسَلًا، والمُرْسَل لا يصح.

والرابع: طريق الزهري، وهو مُرْسَل.

والخامس: طريق عبد الله بن عباس، وحديث ابن عباس ليس في خطبة الحاجة، إنما جاءت في قصة ضماد، جاء من حديث ابن عباس في قصة ضماد، أنه قَدِم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يُرقِي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل، لعل الله يشفيه علىٰ يَدَي، قال: فلَقِيَهُ، فقال يا محمد، إني أُرقي من هذه الريح، وإن

---

(١) ابن ماجه (١/ ٥٨٤، ٥٨٥)، عن يونس ابن أبي إسحاق والطحاوي (١/ ٤)، والبيهقي (٣/ ٢١٤).

الله يشفي علىٰ يَدَي مَن يشاء، فهل لك؟ فقال رسول الله: "إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد"، فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلمات هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر، فقال: هات يَدَكَ أبايعُك علىٰ الإسلام، قال فبايعه، فقال رسول الله: وعلىٰ قومك؟ قال: وعلىٰ قومي، قال: فبعث رسول الله سَرِيَّة، فمرُّوا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئًا؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مَطْهرة، فقال: رُدُّوها، فإن هؤلاء قوم ضماد[١].

فهذا الحديث كان في مكة، وليس فيه أنه افتتح بعد ذلك بهذه الخطبة، فالأحاديث في هذا الباب لم تصح.

الوجه الثاني: وهو خُطَب النبي: روىٰ مسلم عن جابر أنه ذكر حال النبي في خُطَبه، وأنه كان يقول: "فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهَدْي هَدْي محمد، وشر الأمور مُحدَثاتها، وكل محدَثَة بدعة، وكل بدعة ضلالة"[٢]. في خطب الجمع.

وفي رواية ثانية: قال فيها: كانت خُطَبه يوم الجمعة يحمد الله ويُثني عليه، وكذلك قال: كان رسول الله يخطب الناسَ، يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم: (٨٦٨)، (٢/ ٥٩٣).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، (٢/ ٥٩٢).

ثم يقول: "مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْه فلا هاديَ له، وخير الحديث كتاب الله"(١). فلم يَرِد في الصِّحاح أن الرسول افتتح خُطَبه بهذه الخطبة، فلو كان مما اعتاده في خُطَبه، لكان نُقِل، ولم يُنقل إلا ما ذكرناه من الأحاديث الضعيفة السابقة.

وفي النكاح من المرأة التي وَهَبَت نفسها للنبي، فقال لمن زوجها إياه: "اذهب فقد ملَّكْتُكَها بما معك من القرآن"(٢)، ولم يستفتح بخطبة الحاجة ولا بمثلها.

كذلك في الرسالة التي تقدَّمت، والتي أرسلها إلىٰ هِرَقْل، قال ابن حجر رحمه الله: "وقد جمعت كتب النبي إلىٰ الملوك وغيرهم، فلم يقع في واحد منها البدء بالحمد، بل بالبسملة"(٣)، فهذه السُّنَّة التي نُقلت إلينا عن نبي الله عليه الصلاة والسلام.

الوجه الثالث: لم يَرِد عن أحد من السلف استفتاحه بهذه الخطبة، كلٌّ كان يقول بسم الله الرحمن الرحيم، ولم يَرِد عن عالم من علماء الحديث القدماء أنه افتتح كتابه بهذه الخطبة، لا البخاري، ولا مسلم، ولا أبي داود، ولا الترمذي، ولا ابن ماجه، ولا النسائي، ولا ابن أبي شيبة، ولا عبد الرزاق، ولا الإمام أحمد، ولا ابن تيمية، ولا ابن القيم، ما عدا مسلمًا فقال رحمه الله: "بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمُتَّقين، وصلىٰ الله علىٰ محمد خاتم النبيين، وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين"، رحمهم الله، فعلماء السلف

---

(١) ينظر: الحديث السابق من صحيح مسلم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب النظر إلىٰ المرأة قبل التزويج، برقم (٥١٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، برقم (١٤٢٥)، (٢/ ١٠٤٠).

(٣)فتح الباري لابن حجر (٨/ ٢٢٠).

كلهم مُجمِعون علىٰ عدم الافتتاح بهذه الخطبة، فلا يُظَن ولا يُعقَل أن أئمة السُّنَّة يعرفون أن هذه سُنَّة صحيحة، ثم لا يبدؤون بها كتبهم.

فلو صحَّت بأنها مما يُفتتح به، لافتتحوا بها، وأُركِّز علىٰ هذا؛ لأن كثيرًا من الشباب يظن أن من لم يفتتح خطبته، أو كتابه، أو محاضرته بهذه الخطبة، فقد خالَف السُّنَّة، فنريد أن نقرر أنه لم يخالِف السُّنَّة.

الوجه الرابع: أن العلماء كانوا يبدؤون دروسهم بغير هذه الخطبة، قال ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر حديث ضماد: "وكان الذي عليه شيوخ زماننا الذين أدركناهم وأخذنا عنهم وغيرهم، يفتتحون مجلس التفسير والفقه في الجوامع والمدارس وغيرها، بخطبة أخرىٰ، مثل: الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ محمد خاتم المرسلين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين"(١). هذا ابن تيمية رحمه الله يُبيِّن أن شيوخه الذين عاصرهم لم يكونوا يستفتحون خُطَبهم ولا دروسهم بخطبة الحاجة، فهو لو كان مخالِفًا للسُّنَّة، لنبَّه عليه، لكنه يذكر أمرًا يقرِّره، مما يدل علىٰ أنهم لا يعتقدون أنها صحَّت عن النبي، بل الشيخ الألباني نفسه رحمه الله افتتح بعض كُتُبه المتأخرة بغيرها، ففي ضعيف سُنَن الترمذي قال رحمه الله: "حمدًا وصلاةً وسلامًا علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومَن تبعهم إلىٰ يوم الدين، أما بعد"، فما أدري هل ظهر له أن الخطبة هذه لم تصح، أو رأىٰ شيئًا آخر.

وفي ضعيف سُنَن أبي داود، أَوْرد أول الخطبة، ولم يذكر الآيات القرآنية.

فليس من السُّنَّة أن نبدأ في افتتاح المصنَّفات، وفي الكتب وفي المحاضرات وفي الندوات، بما يسمَّىٰ خطبة الحاجة، لكن مَن افتتح بها من

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٨٧)

حيث إنها ذكر الله ﷻ فهو علىٰ صواب، أما أن يعتقد أنها من السُّنَّة، وأن مَن خالفها فقد خالف السُّنَّة، فذلك غير سديد.

المسألة الخامسة: وهي قوله: (وعملًا بالحديث)، واعلم أن الأحاديث التي وردَت في كتب السُّنَن والمسانيد والمجامع، ليست كلها صحيحة وصالحة للاستدلال، ولهذا ينبغي للمستدَل أن يحرص علىٰ أن ينتقي الدليل الصحيح، فجميع هذه الأحاديث هنا لم تصح، ولكن كثيرًا من العلماء يتساهلون في رواية أحاديث فضائل الأعمال.

فالعلماء إنما يذكرون الأحاديث الضعيفة؛ لأنهم كانوا يَرْوُونَها بالأسانيد، مثل: حدَّثنا فلان حدثنا فلان عن فلان، إلىٰ آخره. فإنهم كانوا يَرْوُون الحديث، لا لأجل الاستشهاد به، وإنما لأجل حفظ الحديث ليُعرَف مخرجه، حتىٰ إذا أراد العلماء أن يعلموا من أين جاء هذا الحديث، يعرفون أن فلانًا هو الذي يتحمل مسؤوليته، لكنهم لم يوردوها للاستشهاد.

ولهذا لا يجوز في كُتُب المسائل العَقَدية والشرعية أن نُورِدها للاستدلال؛ لأنه لا يجوز أن نبني الشرع علىٰ ما لم يصح، فإن الدين عبادة، ولا نعبد الله إلا بما شَرَع.

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سبب جمع العلماء للأحاديث التي أَوْردوها وهي ضعيفة: "وليس يَعِيب طالب الحديث أن يكتب عن الضعفاء والمطعون فيهم، فإن الحُفَّاظ ما زالوا يكتبون الروايات الضعيفة والأحاديث المقلوبة والأسانيد المركبة؛ ليُنكِروا علىٰ واضعيها، وليبيِّنوا حال مَن أخطأ فيها". فهم لم يوردوها للاستشهاد، إنما لمعرفة مخرجها؛ ليردُّوا علىٰ أصحابها، حتىٰ قيل للطبراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من أكثر العلماء جمعًا للأحاديث:

ما هذه الأحاديث؟ قال: "علينا أن نجمع ومن يأتي بعدنا يصحِّح". أي هم الذين عليهم الجمع، فهي مرحلة الجمع، لكن الجوامع قد يكون فيها المقبول وغيره، أمَّا الاستشهاد بالحديث الضعيف في العبادات، فهذا مما يأباه المحقِّقون.

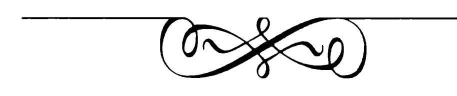
قال الإمام مسلم رحمه الله في مقدمة كتابه التي تُكتب بماء الذهب، عن سبب تأليف الكتاب: (وبعد.. فلولا الذي رأينا من سوء صنيع كثير ممن نَصَب نفسه محدِّثًا، فيما يلزمهم من طرح الأحاديث الضعيفة والروايات المنكرة، وتركهم الاقتصار على الأحاديث الصحيحة المشهورة، مما نقله الثِّقات... إلى أن قال: لما سهل الانتصاب، لَمَا سألت من التميز والتحصيل، ولكن من أجل ما أعلمناك، من نشر القوم الأخبار المُنكَرة بالأسانيد الضعاف المجهولة، وقذفهم بها إلى العوام الذين لا يعرفون عيوبها، خف على قلوبنا إجابتك إلى ما سألت). أي سبب تأليف الكتاب واختيار الصحيح أنه رأى المحدِّثين يؤلِّفون الكُتُب في الحديث، وتُنشر بين العوام، وهم لا يعرفون هل هذا حديث صحيح أم غير صحيح؟.

ثم قال رحمه الله: "واعلم -وفقك الله تعالى- أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها، وثِقات الناقلين لها من المتَّهمين، أن لا يروي منها إلا ما عرف صحة مخارجه والستارة في ناقليه، وأن يتَّقي منها ما كان منها عن أهل التُّهم والمعاندين من أهل البدع".

وقال: "فإذا كان الراوي لها ليس بمَعدَنٍ للصدق والأمانة، ثم أقدَم على الرواية عنه مَن قد عرفه، ولم يبيِّن ما فيه لغيره مِمَّن جهل معرفته، كان آثمًا بفعله ذلك، غاشًّا لعوام المسلمين، إذ لا يؤمَن على بعض مَن سمع تلك

الأخبار أن يستعملها، أو يستعمل بعضها، ولعلَّها -أو أكثرها- أكاذيب لا أصل لها، مع أن الأخبار الصِّحاح من رواية الثِّقات وأهل القناعة أكثر من أن يضطر إلىٰ نقل مَن ليس بثقة ولا مقنع"[1].

ففي هذا الكلام العظيم من هذا الإمام رحمه الله عتاب وتعنيف علىٰ المحدِّثين، الذين رَوُوا الأحاديث، وجمعوا مما صح ولم يصح، حتىٰ أصبحت هذه الأحاديث يُستشهد بها علىٰ عقائد باطلة وأقوال مُنكَرة، بل إن أعداء الإسلام يأخذون بهذه الأحاديث، ويقولون: هذا قول رسولكم، بعضها يناقض العلم، وبعضها يناقض بعضًا. وسببه عدم الدقة في الجمع، وعدم بيان صحة الحديث، والدين لا يقوم إلا علىٰ ما صح من الأحاديث.



(١) انظر مقدمة مسلم لصحيحه.



قال المؤلف رحمه الله:

فإن قلت: هل جمع المصنف بين البسملة والحمدلة لما روى ابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعًا: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع»، وفي رواية لأحمد: «لا يفتتح بذكر الله فهو أبتر وأقطع».



الشرح

هذه رواية أخرى، فالحديث وَرَدَ بثلاثة ألفاظ:

اللفظ الأول: (**كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع**)[1].

واللفظ الثاني: (**كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله، فهو أقطع**)[2].

واللفظ الثالث: (**كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بذكر الله**)[3]، وهو أشمل من الحمد ومن البسملة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود بلفظ: كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم، كتاب الأدب، باب في الهدي في الكلام، برقم: (٤٨٤٠)، وابن ماجة في سننه، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، برقم: (١٨٩٤)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يستحب من الكلام عند الحاجة، برقم: (١٠٢٥٥)، (٩/ ١٨٤)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجمعة، باب ما يستدل به على وجوب التحميد في خطبة الجمعة، برقم: (٥٧٦٨)، (٣/ ٢٩٦)، والدارقطني في سننه، كتاب الصلاة، برقم: (٨٨٣)، (١/ ٤٢٧)، وضعف كونه مرفوعًا، قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٣/ ٣٢٣): "واختلف في وصله، فرجح الدارقطني والنسائي الإرسال"، وضعفه الألباني في تعليقه على أبي داود.

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يستحب من الكلام عند الحاجة، برقم: (١٠٢٥٨)، (٩/ ١٨٥)، والدارقطني في سُننه، كتاب الصلاة، برقم: (٨٨٤)، (١/ ٤٢٨)، والخلاف في وصله وإرساله مبين في الشرح.

اللفظ الأول: ضعيف، واللفظ الثاني وردَ من طريقين: طريق موصول، وطريق مُرْسَل. الموصول فيه قرة بن عبد الرحمن المعافري، وهو ضعيف، قال الإمام أحمد رحمه الله: إنه مُنكَر الحديث جدًّا، وضعَّفه يحيىٰ بن معين[1]، فالموصول من الطريق الثاني ضعيف أيضًا.

والطريق المُرْسَل يُعتبر ضعيفًا؛ لأن المُرْسَل فيه انقطاع من أول السند، وأي حديث مُرْسَل فهو ضعيف، مهما كان صاحبه؛ لأن الإرسال يُسقِط ما بينه وبين النبي، ولا يعلم هل الذي روَىٰ عنه تابعي أو صحابي؟ فلو ثبت أنه صحابي، لكان مقبولًا؛ لأن الصحابة كلهم عُدُول، وليس شرطًا أن نعرف الصحابي، لكن الشرط أن نعرف الذي روَىٰ عنه، فهذا الحديث من هذه الطرق ضعيفٌ، والغريب أن الحديث صحَّحه ابن حبان والحاكم، وحسَّنه ابن الصلاح والنووي، لكن الدارقطني رحمه الله قال: الحديث ضعيف، وكذلك أكَّد الشيخ الألباني في كتابه (إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل) أنه ضعيف.[2]

وهناك علماء في الحديث معروفون بالتساهل، منهم الحاكم، ففي كتابه (المستدرك)، روَىٰ أحاديث موضوعة وضعيفة، حتىٰ قال العلماء: لا يكاد يصفو له من كتاب المستدرك إلا الربع، وأما ثلاثة أرباعه فهو إما ضعيف وإما موضوع، ومنهم ابن حبان، فهو مشهور بالتساهل، يصحح الحديث وهو ضعيف، ويوثق الرواة وهم مجهولون، فلا يُعتمَد علىٰ تصحيح الحاكم وابن حبان.

---

(١) خلاصة تهذيب الكمال (ص: ٣١٦)

(٢) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١/ ٣٠)

وقد علَّق الذهبي علىٰ المستدرك، ولخَّصه، وأقرَّ الحاكم علىٰ بعض الأحاديث، وردَّ بعض الأحاديث، وحتىٰ الذهبي رحمه الله قد تساهل في أحاديث كثيرة من المستدرك.

فالأحاديث هنا لم تصح، وما صح من كتاب الله ومن الأحاديث الأخرىٰ كافٍ في بيان مشروعية البسملة، فقد كان يبدأ كُتُبه بالبسملة، فعندما أرسل كتابه إلىٰ ملك الروم، قال في أوله: (**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ بن عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم، سلامٌ علىٰ من اتَّبع الهدىٰ**)[1]، إلىٰ آخر ما ورد في كتابه، فبدأ الكتاب بالبسملة.

المسألة السادسة: هل يُعمل بالضعيف؟

أولاً: مرَّ الاصطلاح في تقسيم الحديث بمرحلتين: فقبل الترمذي رحمه الله كان التقسيم ثنائيًّا: صحيح وضعيف، لا ثلاثيًّا: صحيح، وحسن، وضعيف، فكان الضعيف يشمل الحسن. وعندما جاء الترمذي رحمه الله وجد أن هناك أمرًا وسطًا بين الصحيح والضعيف، فسمَّاه حَسَنًا، وبعد الترمذي أصبح يُطلَق اصطلاح الحسن علىٰ بعض أنواع الضعيف، فإذا قال العلماء القُدامىٰ: يُعمل بالضعيف في فضائل الأعمال، ما أرادوا به الواهي، وإنما أرادوا به الحسن.

قال ابن تيمية رحمه الله في أنواع الضعيف: "الضعيف نوعان: ضعيف لا يُمتنَع العمل به -وهو يُشبِه الحسن في اصطلاح الترمذي-، وضعيف يُوجَب تركه، وهو الواهي". فلا يُراد بالضعيف الذي يُعمل به الضعيفَ في اصطلاح المتأخرين، فإن الضعيف في اصطلاح المتأخرين لا يجوز أن يؤسَّس به حُكْم،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي الناس، برقم: (٢٩٤١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلىٰ هرقل يدعوه إلىٰ الإسلام، برقم: (١٧٧٣)، (٣/ ١٣٩٣).

كما يقول ابن تيمية رحمه الله : (قول الإمام أحمد إذا جاء الحلال والحرام، شددنا في الأسانيد، وإذا جاء الترغيب والترهيب، تساهلنا في الأسانيد، وكذلك ما عليه علماء الحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ليس معناه إثبات الاستحباب بالحديث الذي لا يُحتج به، فإن الاستحباب حُكْمٌ شرعي، فلا يُثبَت إلا بدليل شرعي، ومَن أخبر عن الله أنه يحب عملًا من الأعمال من غير دليل شرعي، فقد شرَّع من الدين ما لم يأذن به الله، كما لو أثبت الإيجاب والتحريم، ولهذا اختلف العلماء في الاستحباب كما يختلفون في غيره، بل هو أصل الدين، وإنما مُرادهم بذلك، أن العمل مما قد ثبت أنه مما يحبه الله، أو مما يكرهه الله، بنصٍ أو إجماعٍ... إلىٰ أن قال: فالحاصل أن هذا الباب يُروَىٰ ويُعمَل به في الترغيب والترهيب، لا في الاستحباب)[1].

وقال النووي رحمه الله : "فإن الأئمة لا يَرْوُون عن الضعفاء شيئًا يحتجُّون به علىٰ انفراد في الأحكام، فإن هذا الشيء لا يفعله إمام من أئمة المحدِّثين، ولا محقِّق من غيرهم من العلماء، وأما فِعْلُ كثيرين من الفقهاء -أو أكثرهم- ذلك، واعتمادهم عليه، فليس بصواب، بل قبيح جدًّا".

فدور طالب العلم أن يحرص علىٰ الانتقاء، وأن يتعلَّم كيف يستنبط الحكم الشرعي من الدليل الشرعي، وأن لا يكون حاطبَ ليلٍ، كلما وردَ حديث يناسبه في مسألة من المسائل، أخذ به، بل يبحث عن صحة الحديث؛ لأن الأحاديث قد كثُرت وانتشرت، ولا تكاد تَجِد كتابًا من كتب المتقدِّمين والمتأخِّرين إلا وفيه مما لم يصح، لكن منهج كثير من الفقهاء القُدامَىٰ أنهم كانوا إذا وجدوا حديثًا فيه ضعف، ويؤيِّدُه حديث آخر، قبلوه، ولكن هذا ليس منهجًا قويمًا.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٦٥)

المسألة السابعة: وردَ عندنا ثلاث شخصيات، الأولىٰ ذكرناها، وهو عبد القادر الرهاوي، والثاني: الخطيب البغدادي، والثالث: البيهقي، والخطيب الذي ذكره الشارح بأنه أَوْرد الحديث في كتابه (الجامع بين آداب الراوي وأخلاق السامع) له كتب كثيرة، ولعل كتب مصطلح الحديث المتأخرة تقوم علىٰ كتبه رحمه الله، ولكن نحب أن نعرف مشارب العلماء وعقائدهم ومناهجهم؛ لأن التعامل مع كتبهم ينبغي أن يكون عن علم ويقين.

فهنا شخصيتان من شخصيات المحدِّثين، وكلاهما قد تأثر بمنهج المتكلِّمين في العقيدة، أحدهما الخطيب البغدادي، والثاني البيهقي رحمهما الله، أما الخطيب، فعقيدته توافق عقيدة السلف، لكن ابن الجوزي رحمه الله في كتابه المنتظم عاب عليه -مع أن ابن الجوزي من الـمُؤَوِّلين-، واتَّهمه بأنه وافق الأشاعرة، وقال: إن الخطيب قد مال مع الأشاعرة، ونحن نعجب كما قال الذهبي رحمه الله : "فإن الخطيب في معتقده أحسن حالًا من ابن الجوزي"، ولهذا نقل الذهبي عقيدة الخطيب في غاية الجودة، وهي أسطر قليلة، لكنها مركَّزة، وكأنها من أسلوب ابن تيمية رحمه الله، قال الذهبي: "يقول البغدادي: أما الكلام في الصفات، فإن ما رُوِيَ منها في السُّنَن الصِّحاح، فمذهب السلف فيها هو إثباتها وإجراؤها علىٰ ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قومٌ، أي أَوَّلُوها، فأبطلوا ما أثبته الله، وحقَّقها قومٌ -أي بالغوا- من المثبِّتين، فخرجوا في ذلك إلىٰ دربٍ من التشبيه والتكييف، والقصد من هذا هو سلوك الطريق المتوسطة بين الأمرين، ودين الله بين الغالي فيه والمقصِر عنه".

والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرعُ الكلام في الذات، ويُحتذَىٰ في ذلك حَذْوَه ومثالَه، فإذا كان معلومًا أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود، لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات إنما هو إثبات صفات،

لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا لله يد وسمع وبصر، فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه، ولا نقول إن معنىٰ اليد القدرة، ولا إن معنىٰ السمع والبصر العلم، ولا نقول إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار.

فالخطيب في معتقده ليس كما ذكر ابن الجوزي، بل ابن الجوزي إنما طَعَن عليه؛ لأن الخطيب كان حنبليًّا، ولعله كان له صداقات مع بعض الأشاعرة، فضايقه الحنابلة، فانتقل إلىٰ مذهب الشافعي، فشددوا عليه الخناق.

والخطيب البغدادي إذا ذكر بعض العلماء من الحنابلة لا يكاد يُنصِفُه، يقول ابن الجوزي: فعندما ذُكِر الإمام أحمد قال الخطيب: سيد المحدِّثين، وعندما ذُكِر الشافعي قال: تاج الفقهاء، أي أن الإمام أحمد ليس فقيهًا -باستنباط ابن الجوزي من كلام الخطيب-، فكأنه يرىٰ أن الخطيب أخذ موقفًا من الحنابلة، وينبغي أن نعلم أنه كثيرًا ما يقع بين العلماء الخلافُ، ولكن لا ينبغي أن نأخذ كلام عالِم في عالِم؛ بل نكِلُ أمرهم إلىٰ الله ﷻ، فنأخذ من علمهم، وأما الخلاف بينهم، فالله هو الذي يحكم بينهم يوم القيامة.

أما البيهقي فهو معاصِرٌ للخطيب، وهو مشهور، وله كتب كثيرة، من أشهرها كتاب السُّنَن الكبرىٰ، وفيه قرابة من عشرين ألف حديث بالسند في الأحكام الشرعية، وله ثلاثة كتب، كل كتاب طُبع في سبعة مجلدات:

الأول: (شُعب الإيمان)، وقد حذا فيه حذوَ شيخه الحليمي، وهو أشعري المذهب.

والثاني: كتاب (دلائل النبوة)، وهو سبعة مجلدات، أَوْرد فيه ما يتعلق بالآثار النبوية، وفيه الصحيح والضعيف.

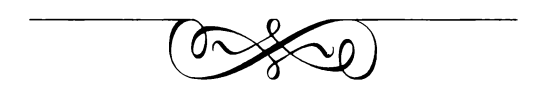
والثالث: فيما يتعلق بالآثار والسُّنَن، وهو أيَّد فيه مذهب الشافعي.

والرابع: طُبع في مجلدين، في الأسماء والصفات.

والبيهقي له ثلاثة مواقف في العقيدة، الموقف العام: يقرر مذهب السلف من حيث الجملة، لكن يخالِف في التطبيق، فقد وافق السلف في تقرير بعض الصفات، وهي الوجه واليدان والعينان، وكذلك الرؤية، ولكنها -على مذهب الأشاعرة- هي الرؤية العلمية، لا البصرية.

والمذهب الثاني: التفويض، ففوَّض في الاستواء والنزول والمجيء.

والمذهب الثالث: التأويل، أوَّل بقية الصفات، وسار على منهج المتكلِّمين في توحيد الربوبية، يقول: إن توحيد الربوبية ليس قطعيًّا بل نظري، أي لابد من النظر، فهذا ما يتعلق بعقيدة البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكما سبق أن كثيرًا من المحدِّثين تأثَّرُوا بالتأويل؛ ولهذا ينبغي أن نعرف مَشْرَب كل عالم؛ حتى لا نأخذ منه إلا ما كان صحيحًا، لذا فقضايا الاعتقاد لا تُؤخَذ من كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكنه عالم جليل في الحديث، وفيما يتعلق بالأسانيد، و كان عالمًا جليلًا ثِقةً زاهدًا.



قال المؤلف رحمه الله:

قيل: المراد الافتتاح بما يدل على المقصود من حمد الله والثناء عليه؛ لأن الحمد متعين[1]؛ لأن القدر الذي يجمع ذلك هو ذكر الله وقد حصل بالبسملة. وأيضا فليس في الحديث ما يدل على أنه تتعين كتابتها مع النطق بها، فقد يكون المصنف نطق بذلك في نفسه.

واتفق العلماء على أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف قدره الكوفيون فعلاً مقدمًا والتقدير أبدأ، وقدره البصريون اسمًا مقدمًا والتقدير ابتدائي كائن أو مستقر. قال: فالجار والمجرور في موضع نصب على الأول وعلى الثاني في موضع رفع. وذكر ابن كثير أن القولين متقاربان وكلٌ قد ورد به القرآن.



الشرح

قوله: **(قيل: المراد الافتتاح بما يدل على المقصود...)**، هذه تكملة لكلام الشارح رحمه الله على من يتعقَّب المؤلِّف، فإن صاحب كتاب التوحيد لم يبدأ كتابه إلا بالبسملة، فكأن هناك من يعترض: هلَّا جمع بين البسملة والحمدلة لما وردَ من أحاديث؟

قال الشارح: **(فقد يكون المصنف نطق بذلك في نفسه)** أي الحمدلة، لكن سبق بيان أن الأحاديث التي وردَت في الأمر بالبسملة أو الحمدلة في هذا الباب، لم تصح من هذا الطريق، وإن كان وردَ في أحاديث أخرى، وفي مناسبات أخرى، الحثُّ على البدء بالبسملة.

---

(١) لعل صواب العبارة: لا أن الحمد متعين، والله -سبحانه- أعلم.

ثم انتقل رحمه الله إلى الإعراب، فقال: (**واتفق العلماء على أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف**)، ومعرفة الإعراب تُعيَّن على معرفة المعنى، والعرب في لغتها لها أساليب، فهي تحذف بعض الكلمات التي يدل عليها السياق، كما قال ابن مالك في ألفيته:

وحذف ما يُعلمُ جائزٌ كما … تقول زيدٌ بعد مَن عندكما

أي أن العرب يُجيزون الحذف، وجاء بمثال، فإنه لو قال شخص: من عندكما في البيت؟ تقول: زيد. فهي كلمة مفردة، والذي ينبغي أن يقال: زيد عندنا، فحذف ما يُعلم.

وهكذا البسملة هنا، رُكْن الجملة محذوف فيها، فإن العرب في كلامها، تبدأ الكلام إما بأسماء وإما بأفعال، فقط، لا تبدأ بالحروف، إلا للضرورة أو للحاجة، مثال ذلك: لو قال شخص: بيَدِي القوية، ليس لها معنى، لكنه لو قال: بيدي القوية أعمل، فإنه يُفهم مُرادَه. والبسملة ليس فيها رُكْنَا الجملة، وهما في الجمل الفعلية الفعل والفاعل، وفي الجمل الاسمية المبتدأ والخبر، وليس في البسملة الفعل ولا الفاعل، ولا المبتدأ ولا الخبر.

هنا الجار والمجرور متعلِّق بمحذوف، اختلف البصريون والكوفيون في تقديره، فهناك مدرستان: البصرية والكوفية، وهما مذهبان في اللغة، فإن الفنون الإسلامية والعربية فيها مذاهب تختلف، فالفقه فيه مذاهب، والتفسير فيه مذاهب، والحديث في تدوينه وأصوله ومناهجه مذاهب، وكذلك اللغة فيها مذاهب، فاللغة فيها ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: مذهب البصريين، أو المدرسة البصرية، والبصرية نسبةً إلى البصرة، وهي مدينة عربية إسلامية، أنشأها عمر بن الخطاب في العام السابع عشر، وأسكنها قبائل من العرب، فهي حُجَّةٌ في معرفة اللغة، فإذا

اختلف النُحَاة في هذه المدينة، رجعوا إلىٰ أصحابها؛ لأنهم عرب أقحاح.

المذهب الثاني : الكوفية، نسبةً إلىٰ الكوفة، وهي مدينة أُنشئت بعد البصرة بعامين كذلك، وأُسكن فيها قبائل من العرب.

والمدرسة البصرية رئيسها سيبويه، تلميذ الخليل بن أحمد، عمرو بن عثمان، الفارسي الأصل، ولكنه بصري النشأة، وزعيم المدرسة الكوفية علي بن حمزة الكسائي، وهو من القُرَّاء السبعة المشهورين، والمدرسة البصرية لها منهج في تقعيد النحو، فلا تعمل قاعدة إلا إذا كان لديها شواهد كثيرة، تستنبط منها قاعدة، أما المدرسة الكوفية فكل بيت وكل مثال من كلام العرب تجعل له قاعدة، وقد اختلف البصريون والكوفيون فيما يقارب مائة وخمس عشرة مسألة، كان النصيب الأوفر في الصحة في هذا الخلاف للبصريين، حيث كان مذهبهم في أكثر من مائة مسألة هو الراجح، فهاتان المدرستان نشأتا في وقت واحد.

وسيبويه والكسائي كلاهما نبغا في النحو، فسيبويه أخطأ في مجلس حماد بن زيد في كلمة في العربية، فاستَحْيَىٰ، ثم عَكَف علىٰ العربية، وتتبَّع العرب، حتىٰ أصبح إمامًا في العربية، وأما الكسائي فكان يسير يومًا في الطريق، فدخل علىٰ بيت من بيوت العرب، وقد تعب، فقال: عييتُ، فقالوا: لحنتَ، قال: ماذا أقول؟ قالوا: تقول أعييتُ، أي تعبت، أما عييتُ فمعناها عجزت عن الكلام، فكان سببًا لطلبه العلم، فاختفىٰ عن الناس قرابة أربعين يومًا، ثم ذهب في الأسفار، حتىٰ أصبح عَلَمًا من أعلام النحو.

وذاع صيت الكسائي لموقف حصل له؛ فقد وقعت بين سيبويه والكسائي

مناظرة[(١)]، كان الحق فيها مع سيبويه، لكن الكسائي بحيلته غَلَبَه، وتلك المناظرة مشهورة بالمسألة **الزنبورية في النحو**، فإن سيبويه سافر إلىٰ بغداد، ووصل إلىٰ يحيىٰ بن خالد البرمكي، وزير الرشيد، وقال: أريد أن أجتمع مع الكسائي، فقال: لا تفعل فإن الكسائي إمام البلد والناس معه، فقال: لابد، فاجتمعا، فأراد الكسائي أن يحرجه فقال له: أجبني عن مسألة وهي: ظننت أن الزنبور أشد لسعة من العقرب، فإذا هو هي أو فإذا هو إياها؟ قال: فإذا هو هي، قال: لحنت، والحق: فإذا هو إياها، قال: لحنت.

فأدخل بعض الأعراب من الباب، وكان قد أعطاهم بعض الجُعْل، فدخل الأعراب، فقال: الحق مع من؟ قالوا: مع الكسائي، قال سيبويه: انطقوها! فلم ينطقوها، ما استطاعوا أن ينطقوها؛ لأنهم لو نطقوها، لنطقوها كما قال سيبويه، فخرج سيبويه من هذا المجلس، ثم مات رَحِمَهُ اللَّهُ كمدًا وقهرًا؛ لأنه عرف أن الحق معه، لكنه غُلِب بالحيلة.

الشاهد هنا أن الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ استشهد بكلام الكوفيين والبصريين علىٰ الكلمة المحذوفة، البصريون قالوا: اسم، وهو قوله: (كائن) أو (ابتدائي)، ابتدائي بسم الله، فهو اسم. وقال الكوفيون: فعل، وهو: أبدأ بسم الله، فهذان القولان للبصريين والكوفيين في البسملة.

المذهب الثالث: البغداديون -ويمثِّلهم الزمخشري- سيأتي قولهم إن شاء الله.

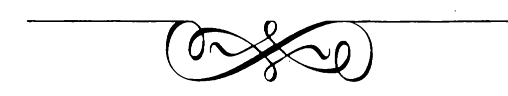
فيقول الشارح: (**واتفق العلماء**)، أي علماء النحو، (**علىٰ أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف قدَّره الكوفيون فعلًا مقدَّمًا**)، أي أبدأ بسم الله،

---

(١)الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين (٢/ ٥٧٦)

(والتقدير أبدأ، وقدَّره البصريون اسمًا مقدَّمًا، والتقدير ابتدائي كائن أو مستقر)، فهذان هما القولان. (قال فالجار والمجرور في موضع نصب على الأول)، إذا قلت: أبدأ بسم الله، فيكون في موضع مفعول به، أي في موضع نصب، وإذا كنت قَدَّرته اسمًا، يكون في موضع رفع على المبتدأ، لكن لابد أن تقدِّر خبرًا، فتقول: ابتدائي بسم الله كائن، فابتدائي وكائن، مبتدأ وخبر، والبسملة متعلقة بهما.

ثم قال ابن كثير رحمه الله : (وبكل منهما ورد القرآن الكريم)، فأما على مذهب الكوفيين، فقد ورد قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق:١]، تقدم الفعل على اسم الله عز وجل، وأما على مذهب البصريين، فقول نوح: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١]، هذا شاهد لقول البصريين، فمجراها ومرساها واقعة، إما مبتدأ وإما خبرًا.



قال المؤلف رحمه الله:

أما من قدره باسم تقديره باسم الله ابتدائي فلقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١]، ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً نحو أبدأ باسم الله أو ابتدأت باسم الله فلقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١]، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لابد له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل وتصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سميته قبله إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءةً أو وضوءً أو صلاةً، فالمشروع ذكر اسم الله تعالىٰ في ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانةً علىٰ الإتمام والتقبل.

الشرح

هذه الأمثلة ضربها شواهد لقول الكوفيين والبصريين، ثم قال: (وذلك بحسب الفعل الذي سميته قبله، إن كان قيامًا أو قعودًا أو أكلًا أو شربًا)، فتقول: آكل بسم الله، أشرب بسم الله، أقوم بسم الله، هذا هو المعنىٰ، وإن لم تنطقه، وستأتي فوائد عدم نطقه، فهذا التقدير بحسب الفعل؛ لأن البسملة تصلح لجميع الأفعال، ثم قال رحمه الله : (فالمشروع ذكر اسم الله تعالىٰ في ذلك كله؛ تبرُّكًا وتيمنًا واستعانةً علىٰ الإتمام والتقبُّل).

فوائد البسملة: أولًا: الإنسان عندما يبدأ في هذا العمل، سواءٌ كان عملًا مباحًا، أم عملًا واجبًا، أم عملًا مستحبًّا، فإنه يستعين بالله عز وجل علىٰ إتمام هذا العمل، فذِكْره لاسم الله في أول فعله، استعانةً به سبحانه وتعالى.

ثانيًا: طلب البركة: فإن اسم الله عظيم ومُبارَك، فإذا ذُكِر علىٰ أمر، بارك الله فيه لصاحبه، إن كان طعامًا أو شرابًا أو أكلًا أو لبسًا أو بناءً، فهذا هو مما يرغب الإنسان فيه، وهو أن يبارك الله له في عمله.

ثالثًا: وهو معنىٰ لطيف، وهو الإشعار بالاستئذان، فإن الكون كله لله ﷻ، فكونك تستمتع بمِلك الله، لابد أن يكون بإذن المالك، ولهذا لا يقول الكافر بسم الله؛ لأنه ليس له إذن من الله أن يستمتع بنعمه، مثل اللص إذا دخل في المزرعة، فإنه يدخلها خِفيةً، لا يدخلها علانيةً، لكن المؤذِنُون له يدخلها علانيةً، علىٰ بصر صاحب المزرعة؛ لأنه قد أذن له بالدخول.

فالمسلم يأكل بإذن من الذي خلقه ﷻ، فكأنه يقول: أنا آكل الطعام بإذن من المالك، وأشرب الشراب بإذن من المالك، وألبس اللباس بإذن من المالك، فالمسلم يذكر الله عند كل عمل، ولكن لا يذكره عند المحرَّمات، لا يقول عند الفاحشة بسم الله، ولا إذا شرب شرابًا محرمًا بسم الله، ولا عند المعصية؛ لأنه غير مأذون له فيها، إنما يليق أن يذكُر البسملة عند المباحات، فكأنه يقول إنني أستأذن، أو قد أذن لي المالك بالتمتُّع في ملكه، فأنا أستمتع بإذنه.

رابعًا: استشعار مَعِيَّة الله ﷻ، فالله يقول عن المؤمنين: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، عند كل حدث، وعند كل حركة، وعند كل قول، يذكر الله ﷻ.

خامسًا: وهو أيضًا معنىٰ لطيف، الحماية من الشيطان، وقد وردَ في الحديث أن رجلًا من الصحابة كان رَدِيف النبي، فعَثَرَت الدابة، فقال الراكب: تَعِسَ الشيطان، فقال: **"لا تقل ذلك، فإن الشيطان يتعاظم حتىٰ يصير مثل البيت، ولكن قل بسم الله، فإنه يصغر حتىٰ يكون مثل الذباب"**[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه بزيادة، كتاب الأدب، برقم: (٤٩٨٢)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا عثرت به دابته، برقم: (١٠٣١٢)، (٩/ ٢٠٥)، =

معنىٰ هذا الحديث أن ذكرك لله يُذيب الشيطان ويُضعِفه، لكن إن ذكرت الشيطان، استعظم، وهنا لطيفة نضرب لها مثالًا في العصر الحاضر: الدول تضع علىٰ الطائرات والسفن أعلامها؛ حتىٰ لا يجرأ أحد أن يعتدي عليها، فكلما كانت الدولة أقوىٰ، كان الناس يرهبون أن يقتربوا مما رُفع عليه علمُها، فبسم الله عَلَمٌ لله، وهذا يخوِّف الشيطان ويرهِبه، فإذا ذَكَر الله، أخافَ الشيطان، فقد رفع العلم الذي هو لمالك الملك ﷻ، فبهذا يندحِر الشيطان، كما في الحديث "**فإنه يصغر حتىٰ يكون مثل الذباب**".

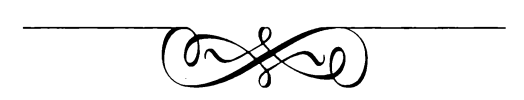
وقد جاءت أحاديث كثيرة تحث علىٰ البدء بالبسملة، في المبيت، وفي الطعام، وفي الشراب، منها ما مرَّ: "**إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله، قال الشيطان: فاتكم المبيت، فإذا ذكر الله علىٰ طعامه، قال: فاتكم المبيت والطعام -أو العشاء-، فإذا دخل، ولم يذكر اسم الله، قال: أدركتم المبيت، فإذا أكل العشاء، ولم يذكر اسم الله، قال: أدركتم العشاء والمبيت**"[1]، نحن لا نعلم الغيب، ولا نسمع هذا الكلام ولا هذا الحوار، لكن سيد البشر بما شاء الله أن يكشف له من بعض المغيبات، يسمع هذا الحوار، يسمع هذا الحوار ويرىٰ هذا الكلام، فمَن يرضَىٰ أن يشاركه الشيطان في مبيته وعشائه؟.

وقد وردَ أنه ﷺ كان أمامه مائدة، فأقبل غلام، كأنه يُدفَع، فمدَّ يَدَهُ في الإناء، فأخذ النبي بيَدِهِ، ثم أقبل أعرابي آخر، كأنه يُدفَع، فمدَّ يَدَهُ، ولم يذكُر اسم الله، فأخذ الرسول بيَدِهِ، فقال: "**إن الشيطان يستحِل الطعام أن لا يذكر**

= والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٣٠٩٢)، (٣٨/ ١٨٢)، والحاكم في المستدرك، برقم: (٧٨٧٣)، (٤/ ٤٣٠)، قال: وهذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه عليه الذهبي، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ سنن أبي داود.

(١) سبق تخريجه.

اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحِل بها، فأخذتُ بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحِل به، فأخذتُ بيده، والذي نفسي بيده، إن يده في يدي مع يدهما"[(١)]، فلا نرىٰ إبليس ولا نحسُّه، ولكنه حقيقة قائمة، واسم الله يحمينا ويحرسنا ويبارك لنا به في رزقنا، ونُؤجَر علىٰ ذلك.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، برقم (٢٠١٧)، (٣/ ١٥٩٧).

قال المؤلف رحمه الله:

وقدره الزمخشري فعلاً مؤخراً، أي باسم الله أقرأ أو أتلو؛ لأن الذي يتلوه مقروء، وكل فاعل يبدأ في فعله باسم الله كان مُضْمِراً ما تُجْعَل التسمية مبدأ له كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل فقال بسم الله كان المعنىٰ بسم الله أحل وبسم الله أرتحل، وهذا أولىٰ من أن يضمر أبدأ، لعدم ما يطابقه ويدل عليه أو ابتدائي لزيادة الإضمار فيه، وإنما قُدر المحذوف متأخراً وقدم المعمول لأنه أهم وأدل علىٰ الاختصاص وأَدخل في التعظيم وأوفق للوجود، فإن اسم الله تعالىٰ مقدم علىٰ القراءة، كيف وقد جُعل آلة لها من حيث إن الفعل لا يعتد به شرعًا ما لم يُصدر باسمه تعالىٰ.

وأما ظهور فعل القراءة في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١]؛ فلأن الأهم ثمة القراءة؛ ولذا قُدم الفعل فيها علىٰ متعلقه بخلاف البسملة، فإن الأهم فيها الإبتداء. قاله البيضاوي، وهذا القول أحسن الاقوال، وأظنه اختيار شيخ الإسلام، وقد ألم به ابن كثير إلا انه جعل المحذوف مقدراً قبل البسملة.

الشَّرح

قوله: (وقدَّره الزمخشري)، الزمخشري هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المتوفىٰ عام ٥٣٨ هجري، زعيم الاعتزال، وله كتاب اسمه (الكشاف في تفسير القرآن الكريم)، قد جعله مَيْدانًا لترجيح وتأييد عقائد المعتزلة، ولكنه في اللغة إمامٌ، ولو لم يكُن معتزليًّا، وكان من أهل السُّنَّة، لبلغ شأنًا كبيرًا؛ لِمَا له من حظ وافر في العربية، وهو من رُوَّاد المدرسة البغدادية، المدرسة التي انتُخِبَت من النحو، والتي غلب منهجها في النحو، وأصبحت هي المدرسة الغالبة. و قد جاور بيت الله فترةً من الزمن، وسُمِّي جار الله؛ لأنه

جاوَر بيت الله ﷻ. والزمخشري قد قُطعت رجله، ويذكر عن نفسه سبب قطعها: أنه كان له طائر صغير يلعب به، وقد ربط قدمه -أو رجله- بحبل، فدخل الطائر في جُحْره، فسَحَبَه، حتىٰ قطع رجله وهو صغير، فغضبت أمه، فقالت: قطع الله رجلك كما قطعت رجله، وصادفت ساعة استجابة، قال: فسقط بعد فترة عن دابَّته، وسُحبَت رجله، حتىٰ وقع فيها الجرح، ثم تآكلت، فقطعها الأطباء، وهذا سبب دعاء أمه عليه.

والزمخشري قال فيه الذهبي: "وكان داعية إلىٰ الاعتزال والله يسامحه"[1]، أي حَشَا (الكشاف) بعقائد المعتزلة، وعند موته تمثَّل بأبيات شعرية، وقال لأهله ضعوها علىٰ قبري، وهذه الأبيات قد أَوْردها هو عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]، فيقول في أبياته الشعرية:

يا مَن يرىٰ مَدَّ البعوضِ جناحِها ... في ظلمةِ الليلِ البهيمِ الأليلِ
ويرىٰ عروقَ نياطِها في نحرِها ... والمخِ في تلك العظامِ النَّحَلِ
اغفر لعبدٍ تاب من فرطاتِه ... ما كان منه في الزمانِ الأولِ

فهذه الأبيات الرقيقة كان يناجي بها الله ﷻ، وليس كل صاحب بدعة يتعمَّد الابتداع، فإن بعض المبتدعة يظن أنه ينصر الدين والإسلام ببدعته، والزمخشري كتب في أول كتابه الكشاف: الحمد لله الذي خلق القرآن، فقال له طلابه: إذًا الناس لا يقرؤون الكتاب، فكتب: الحمد لله الذي جعل القرآن؛ لأن الجعل عنده بمعنىٰ الخلق، ثم بعد ذلك غيَّر الأتباع، فكتب: الحمد لله الذي أنزل القرآن. **قاله شيخنا حماد الأنصاري.**

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٥٦).

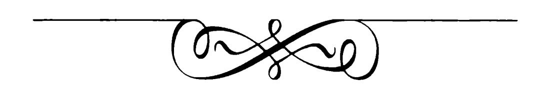
فهو يظن ببدعته أنه يقوِّي الإسلام وعقائده، ولم يكن يتعمَّد، ولهذا إنما نبيِّن بدع- أو أخطاء- الذين ماتوا، وأما دخولهم الجنة أو النار، فليس مما نقرِّره، بل من حق ربهم -ﷻ-، فإن الجنة والنار لا نملكهما، لكن الذي يخطئ في عقيدة أو في شريعة، ويخطئ في مسألة، يُبيَّن خطؤه، أما هو فقد أفضىٰ إلىٰ ربه ﷻ، والله حَسِيبُه.

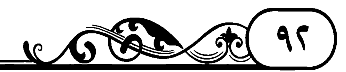
فالشارح يذكر المذهب الثالث من مذاهب التقدير في الحذف، وهو مذهب الزمخشري، فيقول: (**وقدَّره الزمخشري فعلًا مؤخرًا**)، وهذا هو الصحيح، وفيه الأدب مع الله؛ لأنك إذا قلت: أبدأ بسم الله، قدَّمت فعلك علىٰ اسم الله، وكذلك إذا قلت: ابتدائي بسم الله، فالصحيح أن يُقدَّر المحذوف بعد اسم الله: بسم الله أقرأ، بسم الله آكل، بسم الله أشرب، فيكون المقدَّر بعد الجار والمجرور، فيبقىٰ اسم الله في الصدر، وهذا هو الرأي الصحيح كما سيذكره الشارح بعد، يقول: (**كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل، فقال بسم الله، كان المعنىٰ بسم الله أحل وبسم الله أرتحل، وهذا أولىٰ من أن يُضمِر أبدأ، لعدم ما يطابقه ويدل عليه، أو ابتدائي لزيادة الإضمار فيه، وإنما قُدِّر المحذوف متأخِّرًا، وقُدِّم المعمول؛ لأنه أهم وأدل علىٰ الاختصاص...**) إلىٰ آخر ما قال في كلامه.

ويقول: (**وأما ظهور فعل القراءة في قوله:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى﴾ [العلق:١])، أي في أول آية أنزلها الله ﷻ كان المقصود من الرسول ﷺ أن يبدأ القراءة، لكن هنا، الغرض البدءُ باسم الله، فاختلف الغرض؛ ولهذا كان الأولىٰ والأرجح أن يُقدَّر فعلًا متأخرًا، ثم هناك ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى﴾ [العلق:١]، أي: يا محمد هذا الكلام مُنزَّل عليك، والتكليف الذي كُلِّفْتَ به، ليس من شأنك، وليس من أمرك، أنت مأمور أن تبلِّغ، فالرسول يقول: بسم الله، هذا الكلام ليس باسمي، بل بسم الله؛ ولهذا القرآن اُفتتِح بقوله: (**بسم الله**)، أي ليس مني، إنما هذا بسم الله الذي أنزله.

والبيضاوي ﵀ لخَّص كتاب الزمخشري (الكشاف) في تفسيره المشهور بـ(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، وهو ممن عاش في القرن السابع، وهو أشعري المذهب، وقد انتخب وصحَّح الاعتزال، لكن على مذهب الماتُريديَّة صِنْوُ الأشعرية، إلا في مسائل قليلة.

فالبيضاوي يرجِّح مذهب الزمخشري الذي لخَّص كتابه، والشارح ﵀ يرجِّح ما اختاره البيضاوي، ويُذكَر عن شيخِ الإسلام ﵀ أن هذا هو رأيه، ولكن لم أستطع -مع طول البحث- أن أهتدي إلى مكان قول شيخ الإسلام في هذه المسألة.







وذكر ابن القيم لحذف العامل في بسم الله فوائد عديدة منها:

أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوىٰ ذكر الله تعالىٰ، فلو ذكرت الفعل وهو لا يستغني عن فاعله كان ذلك مناقضاً للمقصود، فكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنىٰ ليكون المبدوء به اسم الله، كما تقول في الصلاة الله أكبر ومعناه من كل شيء، ولكن لا تقول هذا القدر ليكون اللفظ مطابقاً لمقصود الجنان، وهو أن لا يكون في القلب إلا ذكر الله وحده، فكما تجرد ذكره في قلب المصلي تجرد ذكره في لسانه.

ومنها: أن الفعل إذا حُذف صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة وليس فعل أولىٰ بها من فعل، فكان الحذف أعم من الذكر، فأي فعل ذكرته كان المحذوف أعم منه.



ابن القيم رحمه الله له لفتات جميلة وعبارات لطيفة، منها هذه اللفتة هنا، فقد ذكر ثلاث فوائد في كتابه (بدائع الفوائد)[1]:

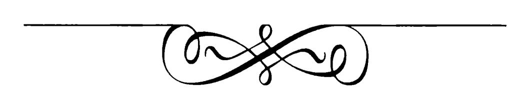
الفائدة الأولىٰ: أنه أراد ألا يكون في قلبك في البداية إلا ذكر الله، فلو قلت: آكل بسم الله، أو بسم الله آكل...، لأصبح في ذهنك وقلبك شيئان، الأكل وبسم الله، والله أراد ألا يكون في قلبك إلا ذكره عز وجل، وضرب مثالًا بقوله: (الله أكبر)، فالله أكبر تقولها ويقتضي أن تقول من كذا، لكن لما كان المراد ألا يكون في

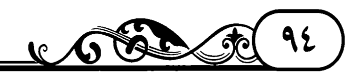
(١)بدائع الفوائد ت العمران (١/ ٤٣)

قلبك سوىٰ الله، حُذف الشطر الثاني، فتقول: الله أكبر، ولا يبقىٰ في ذهنك وفي قلبك إلا الله ﷻ، فهذه هي الفائدة الأولىٰ في هذا الكلام.

والفائدة الثانية: أنه يصلُح الابتداء بها في كل فعل؛ لأنه لو ذُكِرَ مع اسم الله بعض الأفعال، لما صح البدء بها، إلا في الفعل الذي ذُكر فيه، لكن لمَّا لم يُذكر الفعل، كانت صالحة لأن يُبدأ بها في جميع الأفعال، وفي جميع الأقوال.

والفائدة الثالثة: أن الحذف أبلغ؛ لأن المتكلِّم يدَّعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق؛ لأن المشاهدة والحال دالة علىٰ أن هذا -وكل فعل- إنما هو باسمه تبارك وتعالى، ورؤيته وما في نيَّته من العمل، فإنه يكفي في عدم ذكره؛ لأنه يشاهد ما سيعمله، ويعرف ما سيعمله، فكأنه يقول: لا حاجة لذكر ما سأعمله؛ لأنه معلوم ومُشاهد عندي.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الله علم على الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ذكر سيبويه أنه أعرف المعارف، ويقال إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢٢-٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له.

واختلفوا هل هو اسم جامد أو مشتق على قولين أصحهما أنه مشتق، قال ابن جرير: فإنه على ما روي لنا عن ابن عباس قال: الله: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. وذكر سيبويه عن الخليل أن أصله إله مثل فِعال فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة، قال سيبويه مثل الناس أصله أناس. وقال الكسائي والفراء أصله الإله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية.

الشَرح

انتقل الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ من الإعراب إلى شرح المعنى، وأول اسم في البسملة، هو اسم الله جَلَّ وَعَلَا، وهو عَلَم على ذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو يأتي موصوفًا، ولا يأتي صفة، ولم يجرُأ أحد من البشر أن يتسمَّى باسم الله جَلَّ وَعَلَا، فإنهم سمُّوا أنفسهم: العزيز، والرحمن، والرحيم، لكن لم يجرأ بشر أن يسمِّي نفسه الله؛ لأن هذا اسمٌ مقدَّسٌ.

وهنا جاء بالآيات الكريمة التي في أولها اسم الجلالة، وهي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٢]، فجاء ببقية الأسماء الأخرى -التي هي

أسماء الله- صفات الله سبحانه وتعالى، وهكذا فإن العَلَم يتبعه الأسماء الأخرىٰ صفاتٍ له، فالله عَلَم، وما بعده يَرِد صفات له سبحانه وتعالى.

قال: (**ذكر سيبويه أنه أعرف المعارف**)، يقال: إن سيبويه رُؤِيَ في المنام، فقيل له: ماذا فعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقيل بماذا؟ فقال: لأنني قلت: إن اسم الله أعرف المعارف، فعظَّم اسم الله، ولم يقل إن اسم الله معرفة، بل قال: إن اسم الله أعرف المعارف، فإذا كان في الأرض معارف، فالله -عز وجل- هو أعرفها، وسيبويه من علماء النحو، وهو تلميذ الخليل بن أحمد، وهو الذي ألَّف في النحو كتابًا أُطلِق عليه اسم (الكتاب)، وهو الكتاب الوحيد الذي بدأ كاملًا في الفن الذي كان بدأ على يد سيبويه، فإنه أعجوبة الدهر، فإنه بدأ كاملًا ناضجًا بقواعده وأمثاله، ومن الغرائب أن يُبدَأ الفن في بدايته مُكتمِلًا، فجميع الفنون عندما تبدأ تكون ناقصة، فتُكمَل على مَرِّ الزمان، إلا كتاب سيبويه، وهذا من توفيق الله لصاحبه رحمه الله.

ثم قال الشارح رحمه الله: (**اختلفوا هل هو اسم جامد أو مشتق**)، الأسماء علىٰ قسمين: إما جامدة، وإما مُشتَقَّة.

الجامد: هو الذي ليس له معنىٰ آخر، مثال ذلك: حجر، وسكين، ودرهم، وقَدُوم، هذه كلها جامدة، ليس لها معنىٰ إلا ما وُضِعَت له، فإذا قلنا: إن اسم الله جامد، فلا يكون له معنىٰ، وإذا قلنا إنه مشتق، يكون له معنىٰ، فاختلف العلماء، هل هو اسم مُرتَجل -أي ليس مشتقًا ولا منقولًا من اسم آخر-، أم مشتق من مادة أخرىٰ؟ انقسم العلماء إلىٰ قسمين:

القول الأول: إنه **جامد**. وبه قال الإمام الشافعي، والخطابي، وإمام الحرمين الجويني، والغزالي، والسهيلي، والرازي، وابن العربي، وأبو حيان، والسمين الحلبي تلميذ أبي حيان رحمهم الله، وهو أحد قولي سيبويه، وسيأتي سبب قولهم هذا.

والقول **الثاني**: إنـه **مشتق**. واختـاره الشـارح، ولهـذا أَوْرد قـول ابـن جريـر، وشاهدًا من قول ابـن عبـاس ﵄، قـال: (**الله ذو الإلوهيـة والعبوديـة علىٰ خلقـه أجمعين**)، وهـذا الأثـر عـن ابـن عبـاس، رواه ابـن جريـر في تفسيره، وهـو أثـر ضعيف؛ لأن فيه علتين:

العِلَّة الأولىٰ: أحد رواته هو بشر بن عمارة، قال الدارقطني: متروك، وقـال النسائي: ضعيف.(١)

والثانية: الخلاف في سماع الضحاك، فإن الراوي من التابعين هو الضحاك بـن مـزاحم، واختلفـوا في سـماعه مـن ابـن عبـاس ﵄، فـالأثر فيـه اختـلاف في اتصاله، فإذا كان الأثر مُنقطِعًا؛ فإنه لا يصلح دليلًا.

قـال الشـارح: (**وذكـر سـيبويه عـن الخليـل أن أصـله إلـه مثـل فِعـال**)، فعـل ومفعل وفعيل، هذه أوزان من أوزان التصريف، يُعرَف بها أصل الكلمـة، وأول من وضعها هو الخليل بن أحمد، حتىٰ إن ابنه دخل عليه وهـو يـردد كلمـات: فعيل مفاعل فعول... إلىٰ آخره، فخرج ابنه وهو صغير يقول: إن أبـي قـد جُـنَّ، فقال أبوه:

لـو كنـتَ تعلـمُ مـا أقـولُ، عـذرتَني   أو كنـتُ أجهـلُ مـا تقـولَ، عـذلتُكَ

لكـن جهلـتَ مقـالتي، فعذلتَنـي   وعلمـتُ أنـكَ جاهـلٌ، فعذرتـُكَ

يقـول عـن ابنـه أنـه لا يـدري مـاذا يفعـل، ويقـال: إن بعـض الأعـراب كـان جالسًا عند بعض النُحاة، وهـم يتكلمـون في أصـل الكلمـات: فعـال أو مفعـل أو فعول أو فعيل، فقال الأعرابي:

---

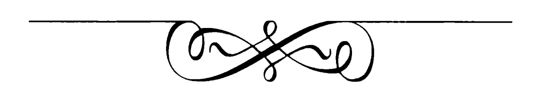
(١) انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٤/ ١٣٧)

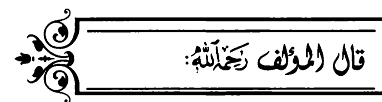
مـا زال أخـذُهم في النحـو يعجبُنـي حتـىٰ تعـاطوا كـلامَ الـزنجِ والـرومِ
بـمفعـل فعـل لا طـاب مـن كَلَـمٍ كـأنـه زجـلُ الـغـربانِ والبـومِ

جاؤوا بكلام لا يعرفه الأعرابي، فظنه مثل كلام الغربان والبوم، أي أنه كلام أعجمي، مع أن هذه القواعد وضعها الخليل رحمه الله ؛ لمعرفة أصول الكلام.

وهو رحمه الله وضع علم العَرُوض في الشعر، وهي قواعد لمعرفة صحيح الشعر من سَقِيمه، وقبل أن يموت، أراد أن يضع قواعد لعلم الحساب، وكان داخلًا إلىٰ المسجد، يفكر في هذه المسألة، فضرب برأسه في سارية المسجد، فمات رحمه الله، ولو وُفِّق وعاش، لعله وضع قواعد للحساب تكون شبيهة بقواعد علم العَروض، فالخليل بن أحمد رحمه الله وضع هذه القاعدة (إله علىٰ وزن فعال).

نعود إلىٰ مسألتنا، ونقول: ذكر سيبويه أن أصله إله علىٰ وزن فعال، فأُدخِلَت الألف واللام بدلًا من الهمزة، أي حذفنا الهمزة من إله، فبقي اللام والهاء، وأدخلنا الألف واللام، وأُدغِمَت اللام في مثلها؛ فأصبحت (الله)، والكسائي والفراء يقولان: (أصله الإله)، حذفت الهمزة، وأدغمنا اللام الأولىٰ في اللام الثانية؛ فأصبحت (الله)، كما سيأتي من كلام الكسائي.




قال المؤلف رحمه الله:

وعلى هذا فالصحيح: أنه مشتق من أله الرجل إذا تعبد، كما قرأ ابن عباس: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧] أي: عبادتك.

وأصله: الإله أي المعبود، فحُذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام التي للتعريف فأدغمت إحداهما في الأخرى فصارتا في اللفظ لامًا واحدة مشددة وفخمت تعظيمًا فقيل الله.

قال ابن القيم: القول الصحيح أن الله أصله الإله؛ كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى، قال: وزعم السهيلي وشيخه أبو بكر بن العربي أن اسم الله غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق، ولا ريب أنه إن أُريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية، كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة والقديم لا مادة له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله تعالى، ثم الجواب عن الجميع أنا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى لا أنها متولدة منه تولد الفرع من أصله. وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعًا ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة.

الشرح

قوله: (**وعلىٰ هذا فالصحيح**)، هنا ابن القيم والشارح رحمهما الله يرجِّحان أن أصل هذه الكلمة من الإله، أي المعبود، كما في قراءة ابن عباس: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧]، هذا في قصة فرعون عندما دعاه موسىٰ عليه السلام، فامتنع، ثم حدث بينهما خلاف، وأسلم الناس علىٰ يَدِ موسىٰ، قال أتباع فرعون وحاشيته: هل تترك موسىٰ؛ فيفسد عليك عبادة الناس لك؟ فمعنىٰ ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي وعبادتك، أي يذرك وعبادة الناس لك، فإن الناس يعبدونك، فإذا لم تسارع بالقضاء عليه، فإنهم يوشكون أن لا يعبدوك، وليس المعنىٰ: عبادتك أنت لله، لأنه كان يُعبَد، ولم يكن يَعبُد.

فإله في اللغة: المعبود، كما قال رؤبة بن الحجاج:

لله دَرُّ الغانيات المده سبَّحْنَ واسترجَعْنَ من تألُّهِ

أي من عبادتي، يقول إن الغانيات المده، أي اللاتي يمدَحْنَ، ومن غرائب اللغة أن يقول: مدهه بالهاء مثل مدحه، فقوله: لله در الغانياتِ المده أي المادحات، سبَّحْنَ واسترجَعْنَ من تألُّهٍ: عندما رأَيْنَ الشخص ترك المعاصي، وترك الأغاني والفساد والمجون، قُلْنَ: إنا لله وإنا إليه راجعون، وسبحان الله، أي سبَّحْنَ الله واسترجَعْنَ، عندما رأيْنَه يعبد الله عز وجل.

قوله: (**قال ابن القيم: القول الصحيح أن الله أصله الإله، كما هو قول سيبويه**)، بعد أن انتهىٰ من إيراد قول الذين قالوا بالاشتقاق، أراد أن يرُدَّ علىٰ الذين قالوا بغير الاشتقاق، وهم -كما سبق-: الشافعي، والرازي، والسهيلي، وابن العربي، والخطابي، وجمهور العلماء رحمهم الله، وشُبْهتهم أنهم يقولون: أننا لو

قلنا إنه مشتق، يقتضي أن المادة اللغوية التي اشتُق منها كانت قبل الاسم؛ لأن المادة التي اشتُق منها اسم أو فعل تكون سابقة، فكأنَّا نقول: إن اسم الله حادث، ولم يكن من قبل موجودًا، فكان الله موجودًا ولا اسم له، وهذا خطير جدًّا، وهذا مُراد الذين منعوا الاشتقاق، وليس مُرادهم أنه ليس لكلمة الله أو لكلمة إله معنًى.

فابن القيم رحمه الله يقول: ليس هذا هو المُراد بالاشتقاق، هذا مُراد النحويين بمعنى الاشتقاق، وليس هذا مُرادنا، مُرادنا هو أن (إله) أو (الله) لها معنى في اللغة، مثل الأسماء المشتقة؛ لأنه وردَ (إله) في لغة العرب بمعنى معبود، وبمعنى محبوب، وبمعنى مرتفع، يقول: (**وزعم السهيلي وشيخه أبو بكر بن العربي: أن اسم الله غير مشتق**).

ابن العربي: عالم معروف، هو صاحب كتاب (أحكام القرآن)، وهو من أشبيليا من الأندلس، تُوُفِّيَ عام ٥٤٣ هجري، وهو شيخ ابن حزم، وكان ابن حزم يعظِّمه، والسهيلي صاحب (الروض الأنف) في شرح السيرة، فكلاهما يقولان: إن اسم الله غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه -تعالى- قديم، والقديم لا مادة له، فكيف نقول إن اسم الله القديم -الذي هو قبل اللغات وقبل وجود الخلق- مشتق؟ هذا خطير في المعنى.

فابن القيم رحمه الله يقول: (**ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مُستمَد من أصل آخر، فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى، ولا ألَمَّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له -تعالى- وهي الإلهية، كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة والقديم لا مادة له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء، فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله تعالى، ثم الجواب عن الجميع، أنَّا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية**

لمصادرها)، أَوْرد هذه الأسماء (العليم والقدير)؛ لأن المتكلِّمين الأشاعرة - وابن العربي والسهيلي منهم- يقولون: إن لله سبع صفات، ويُثبِتون المعنىٰ لها، منها السميع والبصير؛ لأن إثبات الصفات أي أنها تدل علىٰ معنىٰ، فما كان جواب لكم عن هذه الأسماء، هو جوابنا عن قولنا إن اسم الله مشتق.

ثم يقول -وهو الرد الثالث-: (**إنَّا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها)**، أي تلتقي مع المصادر في معناها، كأَلَه يأْلَه أو يأْلِه من العبادة، وأَلَه يأْلِه من الحب، وأَلَه يأْلِه من الارتفاع، فكلها لها معانٍ في اللغة، فإله بمعنىٰ معبود، كما مرَّ في قول قوم فرعون، أو في قول الشاعر رؤبة بن الحجاج، فهذا مُرادنا، وليس مُرادنا أنها مشتقة من مصادرها.

قوله: (**وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه، أصلًا وفرعًا)**، ذكر ابن القيم رحمه الله هنا مسألة يُنازَع فيها، وهي أن النُّحاة لم يريدوا بلفظ الاشتقاق أن أحد اللفظين تولَّد من الآخر، لكنه رحمه الله لا يَسْلَم له هذا الكلام؛ لأن جميع النحاة قالوا بأن الاشتقاق يُراد به أن الاسم الذي اشتُقَّ قد أُخِذَ من لفظ آخر.

يقول الصميري -وهو من علماء القرن الرابع-: اعلم أن المصادر أصول لأفعال، والأفعال مشتقة منها، هذا مذهب البصريين، والدليل علىٰ ذلك من وجوه: أحدها: أن المصدر اسم، والأسماء قبل الأفعال؛ لأنها تقع من الأسماء، فلما كانت الأسماء قبل الأفعال، وكان المصدر اسم، وَجَبَ أن يكون قبل الفعل، وإذا صحَّ أن المصدر قبل الفعل، صحَّ أنه أصل الفعل، ثم قال: فلما اجتمع النحويون علىٰ تسميته مصدرًا، وَجَبَ أن يكون مُشبَّهًا بما هو معلوم في اللغة، وهو أن يكون موضعًا لفعل يصدر عنه.

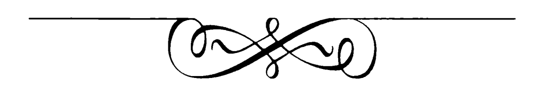
وقال القنوجي: أجمع أهل اللغة -إلا مَن شذَّ منهم- أن للغة العرب قياسًا، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأن اسم الجِن من الاجتنان، وأن الجيم والنون تدُلَّان -أبدًا- علىٰ الستر، وأن الإنس من الظهور،

والاشتقاق أَخْذُ صيغةٍ من أخرىٰ، مع اتفاقهما معنًىٰ ومادةً أصليةً.[(١)]

وقال الجرجاني: نَزْعُ لفظٍ من آخر، بشرط مناسبتهما معنىً وتركيبًا[(٢)]، أي هذا هو الاشتقاق.

وقال التهانوي: المشتق فَرْعٌ مأخوذ من لفظ آخر، ولو كان أصلًا في الوَضْع، غير مأخوذ من غيره، لم يكن مشتقًّا.[(٣)]

هذا كلام علماء اللغة[(٤)]، ومَفَادُهُ أن الاشتقاق يُراد به أَخْذُ اسمٍ من فعل، أو فعل من مصدر -وهو الاسم-، وعلىٰ كلا المذهبين -البصري والكوفي-، الاشتقاق يدل علىٰ أن الكلمة أُخِذَت من مادة أخرىٰ، ولكنَّا إذا قلنا إن اسم الله مشتق، ليس مُرادنا أن اسم الله ﷻ مُحدَث، بل المُراد أنه يُلاقي المادة التي يرجع إليها، وهي الألف واللام والهاء (إله)، أو (أَلَه) أو (أَلِه)، كلاهما جائزان في اللغة، ولكن ابن القيم رحمه الله لا يَسلم له قوله إن النحويين لم يريدوا بالاشتقاق أن للكلمة مادة، فالنحويون أرادوا بالاشتقاق أن الاسم له مادة أُخِذ منها، وهذا هو المعنىٰ اللغوي للاشتقاق أيضًا، فاشتُق بمعنىٰ أُخِذَ، فهو شُقَّ من شيء، والله أعلم.



(١) البلغة الىٰ أصول اللغة (ص: ١١٤)

(٢) التعريفات (ص: ٢٧)

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ٢٠٧)

(٤) انظر: المفتاح في الصرف (ص٦٢ ط مؤسسة الرسالة)، وللفائدة راجع (الخصائص ٢/ ١٣٤)

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وذكر ابن القيم لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية، ثم قال: وأما خصائصه المعنوية فقد قال فيها أعلم الخلق به ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وكيف تحصى خصائص اسم مسماه كل كمال على الإطلاق، وكل مدح، وكل حمد، وكل ثناء، وكل مجد، وكل جلال، وكل إكرام، وكل عز، وكل جمال، وكل خير، وإحسان، وجود، وبر، وفضل، فله ومنه.



الشَّرح

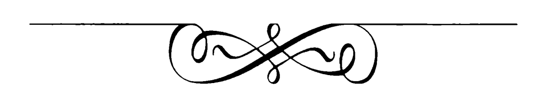
قوله: (وذكر ابن القيم لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية)، فابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستَطْرِد في فضائل هذا الاسم الكريم، الذي يدل على ذات ربنا جَلَّ وَعَلَا، فالاسم هو اللفظ الدال على ذاتٍ أو معنًى، فهنا اسم الله يدل على ذات الله جَلَّ وَعَلَا.

فيقول: خصائص هذا الاسم كثيرة، ولهذا قال نبينا: "لا أُحصِي ثناءً عليك"، وهذا حديث أخرجه مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: افتقدَتْ النبي ليلةً، فخرجَتْ إلى المسجد تلتَمِسْهُ، فوجدَتْهُ ساجدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقالت: صلَّى الله عليك يا رسول الله! إني لفي شأنٌ، وإنَّك لفي شأنٌ آخر!، كانت تظن أنه ذهب إلى بعض أزواجه، ثم قالت: سمعتُهُ يقول: (أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك)[1]، فهذا كان يقوله في السجود، فيعترف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه لا يستطيع أن يُحصِي ثناءً على الله جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم: (٤٨٦)، (١/ ٣٥٢).

ثم يقول ابن القيم: كيف يستطيع هـو أو غيـره أن يُحصِـي الثنـاء علىٰ الله ﷻ، والله ﷻ هو الخالق الكامل ﷻ، الـذي هـو لـه المجد ولـه الجـلال ولـه العـز، وكل فضل وكل خير وكـل جمـال وكـل جـلال، هـو لله ﷻ، فمَـن يسـتطيع مـن البشر أن يُحصِي الثناء علىٰ الله ﷻ!



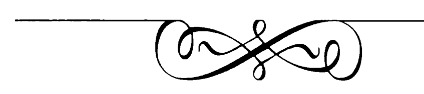
قال المؤلف رحمه الله:

فما ذُكر هذا الاسم في قليل إلا كثره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند هم وغم إلا فرجه، ولا عند ضيق إلا وسعه، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل إلا أناله العز، ولا فقير إلا أصاره غنياً، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضره، ولا شريد إلا آواه، فهو الاسم الذي تكشف به الكربات، وتستنزل به البركات والدعوات، وتقال به العثرات، وتستدفع به السيئات، وتستجلب به الحسنات.



قوله: (فما ذُكر هذا الاسم في قليل إلا كثره...)، هذه من بركات اسم الله عز وجل، أنه ما من مسلم يذكر الله عز وجل عند كرب، إلا ويُفرَج عليه -بإذن الله-، ولا عند ضيق، إلا وَسِعَه، ولا عند حاجة، إلا وتُقضىٰ بإذن الله عز وجل، فهذا بعض خصائص هذا الاسم.

قوله: (ولا مُستوحِش إلا آنسه...)، هذه كلها مما يحصُل عليه المسلم، فلا يذكره مُستَوْحِشٌ إلا آنسَه الله عز وجل، ولا مغلوب إلا أيَّده، هذه كلها ثمرات وبركات هذا الاسم، ولكن ليس من معناه أن مَن ذكر الله عز وجل، أو دعاه، أو لجأ إليه، أنه يعطيه ما سأل، فقد يدفع الله به أعظم مما سأل، وقد يدَّخِر الله له عنده أعظم مما طلب، لكنه لا يُضيِّع اللهُ عز وجل دعاءَه سبحانه وتعالى، وكذلك يُصبِّر الله عز وجل مَن يتصبَّر في البلاء، وعند الحاجة، فإذا تعلق بالله أعانه وثبته ووفقه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو الاسم الذي به قامت السموات والأرض، وبه أُنزلت الكتب، وبه أُرسلت الرسل، وبه شُرعت الشرائع، وبه قامت الحدود، وبه شُرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة إلىٰ السعداء والأشقياء، وبه حقت الحاقة ووقعت الواقعة، وبه وضعت الموازين القسط، ونُصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عُبد رب العالمين وحُمد، وبحقه بُعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر، ويوم البعث والنشور، وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالاة والمعاداة، وبه سعد من عرفه وقام بحقه، وبه شقي من جهله وترك حقه، فهو سر الخلق والأمر وبه قاما وثبتا وإليه انتهيا، فالخلق والأمر به وإليه ولأجله، فما وُجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئًا منه منتهيًا إليه، وذلك موجبه ومقتضاه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران:١٩١] إلىٰ آخر كلامه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرْح

قوله: (وهو الاسم الذي به قامت السموات والأرض...)، إلىٰ آخر ما نقل عن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهذا من جميل أسلوبه، فقد كان له أسلوب تربوي، وأسلوب رقيق وبديع، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن فضائل اسم الله عَزَّ وَجَلَّ، وما يحصل عليه الذي يذكُر الله، سواء أكان ذَكَرَه باسمه أو بالتسبيح أو بالتهليل أو بالدعاء، فيقول: هذا الاسم به قامت السماوات والأرض، ومن أجله شُرِّعت الشرائع، ومن أجله قام الجهاد، ومن أجله يحدُث الولاء والبراء بين الناس، فإن الولاء والبراء في الله عَزَّ وَجَلَّ أن توالي من تواليه لله، وتتبرأ مِمَّن تتبرأ منه لله، وله الأمر والخَلْق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الأمر هو قوله، والخَلْق هو فعله عَزَّ وَجَلَّ، فهو يُنسَب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما من خير إلا يُنسَب إلىٰ الله، وما من حاجة إلا تُرفع إلىٰ الله، وما من أمر من أمور الدنيا والآخرة إلا والله عَزَّ وَجَلَّ هو صاحبه، وهو الذي يكشفه، وهو الذي يرفعه عن صاحبه إن كان شرًّا، أو يعطيه إن كان خيرًا.

قال المؤلف رحمه الله:

(الرحمن الرحيم) قال ابن كثير: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم. قال ابن عباس: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أوسع رحمة، وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سُئل أعطى والرحيم إذا لم يُسأل يغضب.

قلت: كأن فيه إشارة إلى معنى كلام ابن عباس، لأن رحمته تعالى تغلب غضبه، وعلى هذا فالرحمن أوسع معنى من الرحيم؛ كما يدل عليه زيادة البناء.



الشَّرح

قوله: (الرحمن الرحيم)، اسمان -أو صفتان- مشتقان من الرحمة، وقد تحدَّث العلماء عن هذين الاسمين، هل هما من باب الترادف؟ بأن يكون معنى الرحمن هو نفسه معنى الرحيم -باعتبار أنهما اشتُقا من الرحمة-، أم أن لكل منهما معنى آخر غير الذي يدل عليه الوصف الآخر؟

اعلم: أن الترادف في اللغة قال به بعض علماء اللغة، ولكنه قول مرجوح، فليس في لغة العرب كلمتان تدلان على معنى واحد، فإذا وردَ لفظان ظاهرهما يدل على معنى واحد، فإن هذا ليس كما يفهمه بعض الناس، بل لكل اسم معنى يختلف عن معنى الآخر، وإن اتفقا على معنى مشترك، فقد يتفقان على معنى مشترك بنسبة كبيرة تصل إلى٨٠ ٪، لكنهما لا يتطابقان، ولهذا يُخطئ مَن يظن أن معنى الرحمن هو نفسه معنى الرحيم.

ونضرب أمثلة على ذلك فمثلًا: جلس، وقعد، كثير من الناس لا يفرِّق بين اللفظين، ويظن أنهما بمعنى واحد، وليس كذلك، فالقعود يُطلق على مَن

كان واقفًا، ثم قعد، أي فعل القعود بعد القيام، والجلوس يُفعَل إذا كان الإنسان مضطجعًا أو ساجدًا، فجلس، ولهذا يقال: جلسة الاستراحة، وجلسة التشهد، ولا يقال قعدة الاستراحة؛ لأنها حدثت بعد السجود، فالجلوس والقعود يشتركان في معنى، لكن ينفرد كل واحد منهما بمعنى آخر، فهيئة الجلوس والقعود يشترك فيها لفظ الجلوس ولفظ القعود، لكن القعود يحدث بعد قيام، والجلوس يحدث بعد اضطجاع أو سجود، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٩٥]، فالمجاهدون واقفون على أقدامهم، وهؤلاء كانوا معهم في الوقوف لكنهم قعدوا، فسمَّاهم الله قاعدين.

كذلك: اقْدِم، وهَلُمَّ، وتعالَ، فكلمة "اقدم" تدل على طلب القرب، لكن "تعال" تدل طلب القرب وعلى الارتفاع، من العلو، ولهذا وردَ في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ [آل عمران:٦١]، كأن المشركين في القاع، هابطين في مكان مُنحَدِر، ورسول الله في القمة، فيقول: تعالوا ارتفعوا، ليس معناه فقط أقبلوا، بل أقبلوا مع الارتفاع، فإنني أعلى منكم.

فليس في اللغة ترادف، فالرحمن والرحيم كلاهما مشتقان من الرحمة، لكن لكلٍّ منهما معنى يختلف عن صاحبه، فما هو هذا المعنى؟

أَوْرد الشارح ﷺ خمسة أقوال:

القول الأول: قول ابن كثير ﷺ، يقول: إنهما (**اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم**)[1]، رحمن على وزن عطشان

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ١٢٤)

وغضبان، يسمِّيه علماء النحو بالمبالغة؛ للكثرة، ورحيم على وزن فعيل، كذلك يدل على الكثرة، فابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يدخل في التفاصيل.

وكلمة المبالغة يستخدمها البيانيون لمعنيين: معنى صحيح ومعنى باطل، والمبالغة الزيادة، تقول: بالغت في الوصف، أي زِدْت فيه، أي أنت تبالغ في شيء أكثر من حقيقته، وهذا كذب، لا يكون في كلام الله، ولا يجوز إطلاقه على أسماء الله، أما إذا أراد بها الكثرة، فهو معنى صحيح، وهنا أراد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكثرة، وليس معناه الزيادة في المعنى، فلا نقول أن شيئًا من أسماء الله فيه مبالغة بمعنى أكثر من حقيقته، ولهذا ينبغي أن نحترس من الألفاظ، أحيانًا لا تكون الألفاظ دقيقة، فإذا قلنا إن هذا الوصف على وجه المبالغة، فإنَّا لا نريد به أنه أكثر من حقيقته، بل إنما نريد الكثرة.

والقول الثاني: قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: **(هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر)**[1]، هذا القول من ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لم يصح، فإنه أَثَر موضوع؛ لهذا يقول

---

(١) موضوع رواه البيهقي في الأسماء والصفات ص٧١، وهو مسلسَلٌ بالكذابين، فقد رواه محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. قال السيوطي في (الإتقان) (٢/ ٢٤٢) وأوهى طرقه -يعني: تفسير ابن عباس- طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فإذا انضمّ إلى ذلك رواية محمد بن مروان السُّدِّي الصغير؛ فهي سلسلة الكذب، وانظر: تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة (١/ ٢٦)، وروى البيهقي في الجامع لشعب الإيمان (٥/ ٢٩٩)، عن مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعًا، (فإذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم؛ قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: عبدي دعاني باسمين رقيقين؛ أحدهما أرقّ من الآخر، فالرحيم أرق من الرحمن، وكلاهما رقيقان)، قال البيهقي: وقوله: (رقيقان)؛ قيل: هذا تصحيف وقع في الأصل، وإنما هما: (رفيقان)، والرفيق من أسماء الله تعالى، قال محققه عبد العلي حامد: (إسناده ضعيف، وفيه جهالة، ومقاتل بن سليمان متهم، والضحاك لم يسمع من ابن عباس).

ابن حجر رحمه الله : هذه السلسلة -السَّنَد الذي وردَ به هذا الأثـر- سـمَّاها بسلسـلة الكذب، ولهـذا لـم يُـورِده الطـبري رحمه الله في التفسير؛ لعلمـه بأنـه موضـوع، لكـن الذي أَوْرده هو البيهقي في كتاب الأسماء والصفات، ومَن كانت ثقافتـه وعلمـه يقـوم علىٰ الكتـب فقـط، فإنـه يقـرأ مـا هـبَّ ودبَّ، وقـد يظـن بعـض الآثـار والأحاديث صحيحًا فيعتمده، فهذا القول غير سليم.

القول الثالـث: قـول عبـد الله بـن المبـارك رحمه الله : (**الـرحمن إذا سُئل أعطىٰ، والرحيم إذا لـم يُسأل يغضـب**)، وهـذا لـيس تفسيرًا، هـذا مـن اللـوازم، أي مـن لـوازم الاسـم، أو مـن لـوازم الصـفة؛ وبعـض السـلف يفسـر الكـلام بلوازمـه لا بمعناه اللغوي.

وعبد الله بن المبارك رحمه الله عالم جليل، مشـهور بـالعلم والجهـاد والصـلاح والعطاء، فإنه كـان يقـوم علىٰ كثيـر مـن الطلبـة، وكـان يتَّجِـر وينفـق علىٰ طلبـة العلـم؛ لـيُعفَّهم حتـىٰ يتفرغـوا للعلـم، حتـىٰ إن فُضـيل بـن عيـاض رحمه الله وهـو صديقه، لامَهُ علىٰ التجارة، أي أنت تدعونا إلىٰ الزهد وإلىٰ التخفف مـن الـدنيا وأنت تتاجر، فقال ابـن المبـارك رحمه الله : (لـولا أنـت وأمثالـك مـا تـاجرت)، كـان يقول: هؤلاء قد تفرَّغوا للعلم، ولـم أرَ شـيئًا أفضـل بعـد النبـوة مـن العلـم؛ لأن العلم به تحيىٰ القلوب، وهؤلاء إذا تُركوا احتاجوا.

حتىٰ إن بعض التلاميذ من طلبته تخلَّف عنه في بعض الأسفار، فسأل عنه، فقالوا: عليه دَيْن، وقد أُودَع السجن، فبحث عـن غَريمـه، فقـال لـه: عليـه ألـف، فأعطاه، وقال: أقسمت عليك بالله أن لا تخبر بهـذا مـا دُمْـت حيًّـا، فـذهب إلىٰ السجن، فأخرجه صـاحب المـال، فلحق بالشيخ، فقـال لـه: أيـن كنـت؟ قـال: كنت في السجن، قال لماذا؟ قال: كان عليَّ دَيْـن، قـال: مَـن قضـاه عنـك؟ قـال: شخص لا أعرفه.

وكان رحمه الله في بعض أسفاره في الحج، ومعه مجموعة من الناس، ووصلوا إلىٰ قرية رأوا فيها بنتًا تأخذ طائرًا ميتًا، فاتَّبعها، فطرق الباب فسألها: لم أخذت هذا الطائر؟ قالت: لقد حلَّت لنا المَيْتَة منذ ثلاثة أيام، فدعا بوكيله علىٰ المال، فقال كم عندك؟ قال: ألف دينار، قال: أبقِ لنا عشرين دينارًا وأعطها الباقي، فهذا والله خير من حَجِّنا، ورجع ولم يحج.

وكان رحمه الله صاحب تفكير سليم، ونظر سليم، وعطاء الله عز وجل لا ينقطع، وهو الذي بعث بالقصيدة المشهورة إلىٰ الفضيل بن عياض، وكان الفضيل عابدًا مشهورًا بالعبادة، فكان يتنقل ما بين مكة والمدينة للعبادة، فبعث إليه بقصيدة مشهورة يبلغه بأن الجهاد في سبيل الله، والقيام بأعباء الدعوة، والعمل لما فيه مصلحة الأمة، خيرٌ من العبادة الشخصية، فقال في القصيدة:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرْتَنَا ... لعلمت أنك في العبادة تلعبُ
مَن كان يُخضِّب خدَّه بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضَّبُ
أو كان يُتعِب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحةِ تتعبُ
أنتم لكم ريح العبير، وريحنا ... رهج السنابك والغبار الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ
لا يستوي وغبار خيل الله في ... أنف امرئ ودخان نارٍ تلهبُ
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميتٍ لا يكذبُ

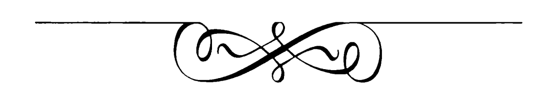
فلما بلغت القصيدةُ الفضيلَ في مكة، بَكَىٰ، وقال: لقد صدق أخي ونصح.

فابن المبارك رحمه الله عَلَم من أعلام الدعوة والجهاد، وعَلَم من أعلام محبة الخير، فهذا قوله: (**أن الرحمن إذا سُئل أعطىٰ، والرحيم إذا لم يُسئل يغضب**)، فهذه من صفات الله عز وجل، إن الله يُحب أن يُسأَل، بخلاف المخلوق؛ فإن

المخلوق إذا سألته ربما يغضب، وربما ينفُر منك، لكن الله كلما تسأله يحبك، ولهذا يقال: كلما خِفْتُ من الله؛ اقتربتُ منه، وكلما خِفْتُ من الناس، ابتعدت عنهم، فتعاملك مع الله ﷻ ينبغي أن يكون وِفق مُراده ومرضاته ﷻ.

قال الشارح ﵀ : هذا القول موافق لكلام ابن عباس.

قوله: (كما يدل عليه زيادة البناء)، هذه قاعدة في العربية، أن زيادة المبنىٰ تدل علىٰ زيادة المعنىٰ، لكن ليس هذا علىٰ إطلاقه، وسيأتي شرح أكثر لهذا الكلام.



قال المؤلف رحمه الله:

وقال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالىٰ، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]، ونحوه قال بعض السلف، ويشكل عليه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣]، وقوله ﷺ في الحديث: «رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما».

فالصواب ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ ما قاله ابن القيم: إن الرحمن دال علىٰ الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال علىٰ تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال علىٰ أن الرحمة صفته، والثاني دال علىٰ أنه يرحم خلقه برحمته. وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧]، ولم يجئ قط رحمن بهم، فعُلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته.

الشرح

قوله: (وقال أبو علي الفارسي)، أبو علي الفارسي من علماء اللغة، وهو من المدرسة البغدادية المتأخرة التي انتقت من المدارس السابقة.

فمعنىٰ قوله، أن الرحمن صفة ذاتٍ -كما سيأتي من قول ابن القيم-، والرحيم صفة فعل، أي أن الرحمن صفة لازمة لله ﷻ، والرحيم صفة فعل لله سبحانه وتعالى، ولهذا يقول: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣]، قال: (يُشكِل عليه)، أي لأنه خصَّ وصف

الرحيم بالمؤمنين، لكن وردَ في القرآن أن الله بالناس جميعًا رحيم، فكيف يُذكر أن معنىٰ الرحيم خاص بالمؤمنين، والقرآن صرّح بأن رحمة الله ﷻ أوسع من رحمة المؤمنين، وتشمل المؤمنين وغير المؤمنين؟ وهذا يدل علىٰ عدم سلامة قول الفارسي رحمه الله.

والحديث الذي أَوْرده الفارسي قبل قول ابن القيم وهو: (**رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما**)[١]، ليس فيه معنىٰ زائد، فإذا كان رحمن الدنيا ورحمن الآخرة، فليس فيه فرق زائد عن الآخر، ولكن الحديث موضوع لا يصح، فلا يُعتمد عليه.

القول الخامس: من الأقوال في تفسير (الرحمن الرحيم)، لابن القيم رحمه الله يقول: (**إن الرحمن دال علىٰ الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال علىٰ تعلقها بالمرحوم**)، أي: أن الرحمن صفة ذاتٍ لله ﷻ، والرحيم صفة فعل، فالله سبحانه وتعالى لم يذكر في القرآن أن الله رحمن بالناس، وإنما وَرَدَ رحيم بالناس، فدل علىٰ أن صفة الرحمة -التي هي بمعنىٰ فعيل- وصفٌ لفعل الله، ورحمن تدل علىٰ الوصف الذاتي لله ﷻ.

لكن أحد العلماء المعاصرين وهو محمد عبده[٢]، صاحب المدرسة العقلية، وله أحيانًا كلام جميل، -وليس بالضرورة إذا كان المرء صاحب فكر منحرف، أن يكون كل ما يقوله باطلًا-، وله هنا كلام جميل، ونصُ قوله: (إن صيغة فعلان، تدل علىٰ وصف فعلي، فيه معنىٰ المبالغة كفعال، وهو في

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، برقم: (١٩٥٠)، (١/ ٧٠٤)، وصححه، ولكن لم يوافقه الذهبي في التلخيص، قال: "الحكم ليس بثقة"، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب معاذ بن جبل، برقم: (١٧٠٨٠)، (٢٠/ ١٥٤).

(٢) انظر الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٢)

استعمال اللغة للصفات العارضة، كعطشان وغرفان وغضبان، وأما صيغة فعيل، فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة، كالأخلاق والسجايا في الناس، كعليم وحكيم وحليم وجميل، والقرآن لا يخرج عن أسلوب العرب البليغ في الحكاية عن صفات الله ﷻ، التي تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين، فلفظ الرحمن يدل على مَن تصدُر عنه آثار الرحمة بالفعل، وهي إصابة النعم والإحسان، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة.(١)

هذا عكس كلام ابن القيم، يقول: فعلان في لغة العرب تدل على الشيء الطارئ، مثلًا تقول: فلان غضبان، وهو ليس غضبان طوال حياته، ولكن الغضب فعل طارئ عليه، وابن القيم رحمه الله جاء بهذا المثال: غضبان وعطشان، لكنه من وجه آخر، فغضبان تدل على معنيين: على حدوث الفعل، وعلى كثرته، فابن القيم لَحَظَ الكثرة، فقال: فعلان تدل على الكثرة، مثل غضبان تدل على الغضب الكثير، وعطشان على العطش الكثير، فقال: الرحمن صفة ذاتٍ، رحمته كثيرة، وهذه الرحمة الكثيرة صفة ذاتٍ يرحم بها المؤمنين، فكلا المعنيين متقاربان، لكن محمد عبده يرى أن الرحمن صفة فعل، والرحيم صفة ذات، لكل منهما وجه في اختياره للفظ في هذا المجال، وليس هناك إشكال، فكلاهما تدلان على رحمة الله ﷻ.

لكن عندما نقرأ في كلام الله ﷻ، نجد أنه ذكر اسم الرحمن مع الاستواء في سبعة مواضع، ولم يذكر اسم الرحيم، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، في هذا ملحظ دقيق وهو: أن الرحمن يدل على العظمة مع الرحمة،

---

(١)تفسير المنار (١/ ٣٩)

والرحيم تدل على الصفة في حق الناس، كاللين والوُد، فالرحمن الذي يدل على عظمة الله مع رحمته يليق بالاستواء على العرش، فالله يقول يا عبادي أنا على عرشي أراقبكم، ولكنني رحيم، فإذا عرف المسلم أن ربه رحيم لا يفزع ولا يضطرب ولا يخاف، فذكر في آيات الاستواء الرحمن على العرش استوى، لم يقل الله استوى على العرش؛ لأنه أراد ﷻ أن يكون هناك معنى يلحظه المسلم؛ لأن جميع كلام الله له معنى، وكل لفظ يُختار في موطن يدل على معنى، ولهذا يقول العلماء: إن جميع الآيات التي خُتمت بها الصفات الإلهية لها دلالتها التي ينبغي ملاحظتها عند التفسير.

مثلًا: ذكر الأصمعي رحمه الله : كان هناك شخص يقرأ القرآن في مسجد، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨] (والله غفور رحيم) قال أعرابي: أعد ما قرأت. فقرأ الآية: (والله غفور رحيم)، قال: هذا ليس قرآنًا، قال: بلى هذا قرآن، فذهبوا للمصحف، وإذا فيه: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨﴾ [المائدة:٣٨]، قال: نعم، عزَّ فحكَم؛ لأن الله لو أراد أن يرحم ويغفر؛ ما أمر بقطع اليد، فلا يناسب أن يأتي بعد الأمر بالقطع (والله غفور رحيم)، فلمجيء أسماء الله وصفاته في كل موطن معنى يلحظه أهل العلم.

فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ٥﴾ [طه:٥] لا بد أنه يعطي في القلب معنى، وهو عظمة الله ورحمته سبحانه وتعالى، فإذا علم الإنسان أن الله مُطَّلع عليه لا تَخفى عليه خافية، كما قال ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾ [ق:١٦]، ثم يرى في نفسه التقصير والأخطاء الكثيرة، فلو قال الله ﷻ الجبار على العرش استوى، لانخلعت القلوب ولخاف الإنسان، لكن الله قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

ولهذا صارت أول آية في كتاب الله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة:١]، معناه: أن هذا القرآن كله -وما فيه من أحكام وتشريع- بسم الرحمن الرحيم، وهذا مطلع جميل يأنس به القلب إذا ذكره.

ورحمة الله ﷻ ظاهرة في الكون ترعىٰ الإنسان منذ وجوده في بطن أمه، والله يرعاه، ورحمته ترافقه، فهو سبحانه وتعالى يمدُّه بالغذاء، ويمدُّه بالحياة، ويجهِّزه للخروج إلىٰ هذا الوجود بجميع الأجهزة، فرحمة الله ترافقه وهو في بطن أمه، يأتيه طعامه ويأتيه غذاؤه من الحبل السُّرِّي -حبل موصول بين الرحم والجهاز الهضمي-، لا يحتاج إلىٰ مضغ، ولا إلىٰ طحن، ولا إلىٰ هضم، طعام جاهز من الله ﷻ، فإذا خرج، قَلَبَ الله ذلك الدم إلىٰ لبن سائغ إلىٰ خزَّانتين علىٰ صدر أمه، وهذا اللبن يأتي من خلال الدم، وإذا به يصبح في طعمه وفي رائحته وفي ذوقه ولونه شيئًا آخر، ولو خرج الدم من ثدي أمه ما ارتضعه، لكن الله قَلَبَه إلىٰ لبن، وهكذا ترافق رحمة الله هذا الإنسان منذ وجوده فيظن أنه يكسب رزقه، لا.. والله هو الذي يرزقه، وبعد أن يكبر قد فُتح له الكون كله، وقد جُهِّز له من طعام وشراب ولحوم وألبان، فرحمة الله ترافق هذا الإنسان طيلة حياته.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ثم قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ [الأعراف:١٥٦]، فخصصها، وإلا فإن رحمة الله أوسع، فالكون كله في رحمة الله سبحانه وتعالى، وقد جاء في الحديث: **"إن الله جعل الرحمة مائة جزء"**، وفي رواية: **"إن لله مائة رحمة"**، وفي رواية: **"إن الله خلق مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل جزءًا واحدًا يتراحم بها الناس علىٰ الأرض إلىٰ يوم القيامة، حتىٰ إن الدابة**

لترفع حافرها عن وليدها لئلا تصيبه"[١]، كل هذه الرحمة التي في حياة الناس، وما نشهده من رحمة الأمهات في الإنسان، وفي الحيوان، وفي الطائر، كلها جزء من رحمة الله، ويوم القيامة يعيد الله ذلك الجزء إلىٰ التسعة والتسعين، فيرحم بها الخلائق.

فربنا ﷻ رحمن رحيم، فينبغي للمسلم أن يحرص أن يكون رحيمًا، ربه الذي خلقه وأوجده وأعطاه وهو غني عنه، يرحمه، فمن باب أَوْلَىٰ أن يرحم إخوانه، ويرحم المحتاج، وقد جاءت الأحاديث تدل علىٰ أن من لا يَرحم؛ لا يُرحم[٢].

وقد كان نبينا سيد الرحماء، **كان عنده الأقرع بن حابس، فجاءه الحسن والحسين فقبلهما، فقال الأقرع بن حابس: يا رسول الله أتُقبِّلون أبناءكم؟ قال: نعم، قال: والله إن لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ واحدًا منهم، قال: ماذا أصنع بك إذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك**[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، بلفظ **"جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتىٰ ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه"**، كتاب الادب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، برقم: (٦٠٠٠). ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، برقم: (٢٧٥٢)، (٤/ ٢١٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، برقم: (٥٩٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته الصبيان والعيال، برقم: (٢٣١٨)، (٤/ ١٨٠٨)، وقد روىٰ الحديث أيضًا الإمام أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في المعجم الكبير، وأبو يعلىٰ في مسنده.

(٣) انظر: نفس الباب من صحيح البخاري، برقم: (٥٩٩٨) ومن صحيح مسلم، برقم: (٢٣١٧)، (٤/ ١٨٠٨).

وكذلك كان على المنبر يخطب يوم الجمعة، فجاء أحد أبناء بناته، فنظر إليه، وإذا عليه ثوب جديد، ويمشي، ويعثر، فنزل عن المنبر، وأخذ الغلام، ورفعه على المنبر، فكان سيد الرحماء.

وجاءت امرأة إلى عائشة -رضي الله عنها- ومعها بنتان، فأعطتها عائشة ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة من بناتها تمرة وبقيت تمرة، فأكملت إحدى البنات التمرة فأخذت الأم التمرة، فقسمتها قسمين، فأعطت لكل واحدة منهما نصفًا، فعجبت عائشة، فعندما جاء رسول الله أخبرته، فقال: **"إن الله قد أوجب لها بها الجنة، وأعتقها بها من النار"**(١).

المسلم يجب أن يكون رحيمًا مع إخوانه، ومع أهله، ومع أصدقائه، بل حتى مع الحيوانات، فقد وردت أحاديث تدل على أن الرحمة للحيوانات لها أجر عظيم، ومن ذلك أن امرأة بغيًا -امرأة زانية- من بني إسرائيل، كانت تسير في طريق، فعطشَتْ، فنزلَتْ إلى البئر، فشربَتْ، فمرَّ بها كلب يأكل الثَرَى؛ من شدة العطش، فنزلَتْ إلى البئر، فملأت خُفَّها، فطلعَتْ، فسقَتْ الكلب، قال: **"فشكر الله لها فغفر لها"**، فقال الصحابة: يا رسول الله أئن لنا في البهائم لأجرًا؟ قال: **"في كلِّ كبد رطبة أجرٌ"**(٢)، ثم ذكر المقابل وقال: **"رأيت امرأة في النار بسبب هرة حبستها حتى ماتت جوعًا، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها**

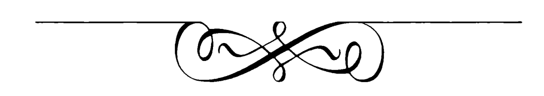
---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر و الصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، برقم: (٢٦٣٠)، (٤/ ٢٠٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، برقم: (٢٣٦٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها، برقم: (٢٢٤٤)، (٤/ ١٧٦١).

تأكل من خشاش الأرض"[١].

ينبغي أن يكون الإنسان رحيمًا مع أهله، رحيمًا مع أولاده، رحيمًا مع إخوانه، رحيمًا مع المسلمين، وأن لا يكون قاسيًا ولا عنيفًا، حتىٰ في تربية الأولاد، يُذكَر أن أحد الناس أخطأ عليه ابنه، فغضب عليه، فربط يديه بحبل، ووضعه في غرفة من الظهر إلىٰ بعد المغرب، فعندما جاءه وإذا بيديه قد انحبس فيهما الدم، فذهب به إلىٰ المستشفىٰ، فقرروا قطع يَدِيْ ابنه، فليست هذه تربية، لابد أن تكون التربية مع الرحمة، فالطفل في حاجة إلىٰ الرحمة، والضرب ليس مقصدًا أساسيًّا، الضرب إشعار أو إهانة، وليس الهدف هو الضرب، كذلك الشخص مع زوجته، بعض الناس يفزع إلىٰ الضرب الشديد، أو الطلاق، والله قد جعل سبع مراحل لعلاج المرأة إذا أخطأت، فيتخطَّىٰ السبع المراحل، ثم يقفز إلىٰ المرحلة الأخيرة.



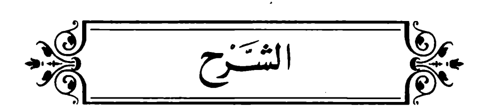
(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما باختلاف الألفاظ، البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، برقم: (٣٤٨٢)، ومسلم في كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، برقم: (٢٢٤٢)، (٤/ ١٧٦٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والرحمن الرحيم نعتان لله تعالىٰ، واعتُرض بورود اسم الرحمن غير تابع لاسم قبله، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] فهو علم فكيف ينعت به؟ والجواب ما قاله ابن القيم: إن أسماء الرب تعالىٰ هي أسماء ونعوت؛ فإنها دالة علىٰ صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالىٰ ووصفه تعالىٰ لا ينافي اسميته، فمن حيث هو صفة جرىٰ تابعًا لاسم الله تعالىٰ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورد الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصًا به سبحانه حسن مجيئه مفرداً غير تابع كمجيء اسم الله، وهذا لا ينافي دلالته علىٰ صفة الرحمة، كاسم الله فانه دال علىٰ صفة الألوهية، فلم يجئ قط تابعًا لغيره بل متبوعًا، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة.

قلت: قوله عن اسم الله ولم يجئ قط تابعًا لغيره، بل لقد جاء في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم:١، ٢]،علىٰ قراءة الجر، وجواب ذلك من كلامه المتقدم، فيقال فيه ما قاله في اسم الرحمن.



قول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ : (الرحمن الرحيم نعتان)، وعلماء اللغة يستخدمون: لفظ نعت وصفة لمعنىٰ واحد، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الذي ذكر هنا أنهما نعتان، هو نفسه فرَّق بين النعت والصفة، وإن كان البصريون يسمُّون بالصفة، والكوفيون يسمَّون بالنعت، فالمعنىٰ متقارب، لكن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يفرِّق بين النعت

والصفة، في كتابه (مدارج السالكين)(١) بثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن النعت يدل على التجدد، ولهذا استواء الله على العرش يسمَّىٰ نعتًا -علىٰ حسب قاعدته-، ولا يسمَّىٰ صفةً، ويقول: الصفة هي الشيء الملازم لصاحبه، لا ينفك عنه، أما النعت فينفك عنه، وكأنه يريد أن يقول أن النعت أعمُّ من الوصف، فلا يقال في يَدِ الله ووجه الله نعت، بل يقال صفة، لكن الاستواء يجوز أن يقال فيه نعت.

فهنا ذكر أنهما نعتان -ولا مُشاحَّة في الاصطلاح-.

فيقول: (**الرحمن والرحيم نعتان لله** -ﷻ-)، قال: واعتُرِضَ علىٰ تسميته نعتًا؛ لأن النعت يأتي تابعًا، فتقول مثلًا: محمد الطويل، محمد القصير، ولا يأتي أساسًا، فكيف يكون الرحمن نعتًا، وهو لم يأت وصفًا، بل جاء عَلَمًا؟ كما جاء: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، فالرحمن لم يأت بعد اسم الله، فهو عَلَم وليس صفةً، مثل العزيز الرحيم الحكيم القدير؛ لأن كل هذه تأتي بعد اسم الله ﷻ؛ لأنها صفات، فكيف يقال في الرحمن إنه صفة مع أنه يأتي بمفرده، مثل اسم الله ﷻ؟

قوله: (**ولمَّا كان هذا الاسم مُختصًّا به -سبحانه-، حَسُن مجيئه مفردًا غير تابع، كمجيء اسم الله...**)، الشارح رحمه الله ينقل عن ابن القيم قوله: إن أسماء الله ﷻ هي أسماء، وهي كذلك نعوت وصفات، فتأتي أحيانًا اسمًا عَلَمًا، وتأتي أحيانًا وصفًا، فليس فيه إشكال، فأسماء الله غير اسم "الله"، تأتي نعوتًا وتأتي صفات، فهي علىٰ ثلاثة أقسام:

(١) انظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٣٢٤)

القسم الأول: اسم يأتي عَلَمًا ولا يأتي صفة، وهو اسم الله ﷻ.

القسم الثاني: اسم يأتي نعتًا وعَلَمًا، وهو الرحمن فقط.

القسم الثالث: بقية الأسماء تأتي صفات، ولا تأتي أعلامًا، لكنها بحكم أنها تتعلق بربنا ﷻ، فكل اسم منها يحمل العَلَمية في ذاته، لكن لا يأتي إلا تابعًا، فيأتي اسم الله، ويأتي بعده الوصف، مثل الرحيم والعليم والحكيم سبحانه وتعالى، هذا كلام ابن القيم، وسيعترض عليه الشارح رحمه الله.

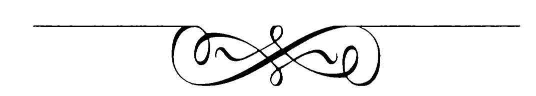
قوله: (**قلت: قوله عن اسم الله ولم يجئ قط تابعًا لغيره**)، هنا الشارح رحمه الله يعترض على قول ابن القيم، بأن اسم الله لم يأت تابعًا، إنما يأتي دائمًا متبوعًا، فجاء بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم:١]، ولكن لا يَسلم له هذا الاعتراض؛ فإن فيه قراءتين ﴿ٱللَّهُ﴾ بالرفع، على قصد أن يكون خبرًا لمبتدإٍ محذوف تقديره هو، فيقال: هو الله، و﴿ٱللَّهِ﴾ بالجر، والعلماء قالوا فيه ثلاثة إعرابات:

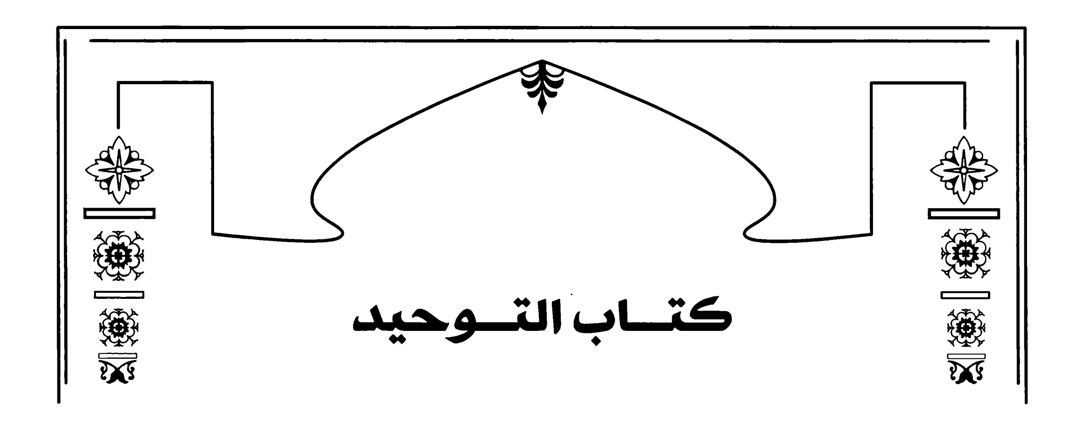
الأول: على تقديم الصفة على الموصوف، كما لو قلت: جاء الطويل عمرو، أو جاء الكريم عمرو، فالكريم صفة لا يأتي مُستقِلًّا، لأنك لو قلت: جاء الكريم، فلا أحد يعرف الموصوف بالكرم، لكن لما قلت عمرو، عُرِفَ من هو الموصوف بالكرم، فعمرو هو العَلَم، والكريم صفة مقدَّمة، فهنا تُعرَب (اللهِ) موصوف متأخر، و(العزيز الحميد) صفتان متقدمتان، فعلى هذا يكون الإعراب هنا: أن العزيز الحميد صفتان تقدمتا على الموصوف، وهذا جائز في لغة العرب.

والإعراب الثاني: أن يكون بَدَلًا، فيكون (اللهِ) بدلًا من العزيز الذي سبق.

الثالث: أن يكون عطف بيان.

لكن الصحيح أنه بدل، أو أنه من باب تقديم الموصوف علىٰ الصفة، فاعتراض الشارح علىٰ ابن القيم رحمه الله لا يَسلم له، بل دائمًا لا يأتي اسم الله إلا متبوعًا، وهنا تأخَّر لغرض، كما قلنا إنه لا تُقدَّم صفة، ولا يؤتىٰ باسم من أسماء الله في موطن، إلا لغرض، فقوله تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم:١]، فكأن الله عز وجل يقول إن صراطي أنا عزيز حميد، مَن اتَّبعه يكون عزيزًا، كما قال في آية أخرىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وإنني حميد؛ من اتبع صراطي يُحمد في الدنيا والآخرة، فالمعنىٰ الذي في العزيز الحميد، أو تقديمهما علىٰ الموصوف، جِيءَ لغرض، وقلنا: كل آية، وكل لفظ في كتاب الله، وكل اسم، لابد أن يكون في تقديمه أو تأخيره دلالة علىٰ المعنىٰ الذي أراده الله عز وجل، فكأنه -والله أعلم- أراد أن يخبر أن صراطه مَن سَلَكَه يكون عزيزًا حميدًا في الدنيا والآخرة، ثم جاء باسمه عز وجل: ﴿ٱللَّهِ﴾ الذي يُبيِّن مَن هو العزيز الحميد.





كتاب التوحيد

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الكتاب: مصدر كتب يكتب كتابًا وكتابة وكتبًا، ومدار المادة علىٰ الجمع ومنه تَكَتَّبَ بنو فلان إذا اجتمعوا، والكتيبة لجماعة الخيل، والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحروف، وسمي الكتاب كتابًا لجمعه ما وضع له، ذكره غير واحد.

والتوحيد: مصدر وحّد يوحّد توحيداً، أي جعله واحداً، وسُمي دين الاسلام توحيداً؛ لأن مبناه علىٰ أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له. وإلىٰ هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله، وهي متلازمة كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتىٰ بنوع منها ولم يأت بالآخر فما ذاك إلا أنه لم يأت به علىٰ وجه الكمال المطلوب.



الشَّرح

الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ في بداية كتاب التوحيد أكثر من البحوث النحوية واللغوية، فهو التزم بشرح جميع مفردات كتاب التوحيد، فالمؤلِّف قال: (كتاب

التوحيد)، الكتاب في اللغة يدل على الاجتماع، ولهذا إذا جمعت الحروف في مكان واحد تسمَّىٰ كتابة؛ لأنك جمعت أشياء متقاربة، والكتاب يشمل صفحات كثيرة، وكلامًا قد جُمع فسُمِّيَ كتابًا، والعرب تقول: تَكَتَّب بنو فلان، أي اجتمعوا، ولهذا يقال في الخيل إذا اجتمعت كتيبة، وفي العصر الحاضر يقال: كتيبة الخيالة، كتيبة المدفعية، كتيبة المخابرات، تُطلق علىٰ فرق كثيرة في الجيش.

هذا هو اشتقاق الكلمة، واللغة العربية من مميزاتها الاشتقاق، الأسماء لها اشتقاقات، والأفعال لها اشتقاقات، وقد سبق أن الاشتقاق عند البصريين من الاسم، وعند الكوفيين من الفعل، وكلٌّ مُجمِع علىٰ أن الكلمات مشتقة، ولهذا يقول الخليل بن أحمد ﵀، وهو أول من جمع كلام العرب في مصنف: مفردات اللغة العربية تبلغ اثني عشر ألف ألف كلمة، أي أكثر من اثني عشر مليون كلمة، هذا علىٰ إحصائه هو ﵀، وإلا قد أُحصيَت بعده، حتىٰ قيل: إن اللغة العربية تشتمل علىٰ سبعين مليون مُفرَدة، وهذا لا يوجد في جميع اللغات، فاللغة الإنجليزية التي هي أكبر اللغات؛ بحكم أن أهلها الآن لهم الغلبة، ولها دور في الصناعات الحديثة والكشوفات، وأنها مُستخدَمة كثيرًا، لم تتعدَّ سبعة ملايين كلمة، والعربية مثلها عشر مرات، لكن هناك ألفاظ كثيرة مهجورة؛ لأن أقصىٰ ما يُستعمَل في جميع اللغات في الحياة اليومية ألفا كلمة فقط، ولا يستخدم في اليوم أكثر من ألفي كلمة، لا في الخطابات، ولا في المؤلفات؛ فالكلام العربي إذا لم يُستخدَم؛ يصبح كأنه مهجور، فلهذا العرب تشتق، ومن صفات اللغة العربية أنها لغة الاشتقاق ولغة النحت، يُؤخَذ منها ألفاظ جديدة، فهي في كل عصر قادرة علىٰ أن تعطي الناس حاجتهم من الألفاظ التي تدل علىٰ المعاني الطارئة.

قوله: (**والتوحيد: مصدر وحَّد يوحِّد توحيدًا**)، تحدث رَحِمَهُ اللهُ عن اشتقاق التوحيد، والتوحيد مشتق من كلمة وَحُدَ أو وَحِدَ، وبعض معاجم اللغة اهتم ببيان الاشتقاق، كابن الفارس في كتابه (معجم مقاييس اللغة)، يأتي بأصل الكلمة، ويقول: أصل الكلمة كذا تدل على كذا، وجميع الكلام الذي يخرج منها لا يخرج عما ذكره في أصلها.

فوَحُدَ يدل على الشيء الذي ليس له نظير، فيقال فلان واحد زمانه، أو فلان واحد قبيلته، فلان واحد فنِّه، أي ليس له نظير، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واحد، أي ليس له نظير ولا شبيه، لكن كلمة أحد أبلغ من واحد، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]، أي أحد ليس له ثانٍ، لكن واحد يتبعه اثنان وثلاثة إلى آخر العدد، فأحد جاءت في وصف نفي المشاركة المطلقة، فليس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحد يشاركه، فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]. ولذلك اختارها بلال عندما كان يُعذَّب، قال: أحدٌ أحد، أي هذا غاية الوحدة، ليس في الذهن ولا في الوجود ما يماثله عَزَّ وَجَلَّ، فالتوحيد مشتق من الوحدة، وهو الانفراد وعدم النظير.

والتوحيد إذا أُطلِق في الإسلام يُراد به توحيد الألوهية، (توحيد العبادة) وقد جاءت الأحاديث الدالة على أن التوحيد إذا أُطلق يراد به عبادة الله، فحديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: "**بُني الإسلامُ على خمسٍ**"[1] جاء بثلاث روايات:

الرواية الأولى: "**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**".

---

(١) الروايات الثلاثة في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإيمان، برقم: (١٦)، (١/ ٤٥).

والرواية الثانية: **"على أن يُعبد الله، ويُكفر بما دونه"**.

والرواية الثالثة: **"على أن يُوحد الله"**.(١)

فمعنى لا إله إلا الله، ومعنى العبادة، ومعنى التوحيد، واحد، فالتوحيد إذا أُطلق يراد به توحيد العبادة، أي عبادة الله ﷻ، وكذلك حديث معاذ: **"إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)**(٢)، وفي رواية: **"إلى أن يوحدوا الله"**.

لكن عندما طرَأَت في الأمة عقائد منحرفة ومذاهب ضالة، سمُّوا أنفسهم بالموحدين، أو أهل التوحيد، فاضطر علماء السلف أن يردُّوا عليهم، فأول مَن ألَّف كتابًا في التوحيد هو ابن خزيمة رحمه الله، فسمَّاه كتاب التوحيد، وقد حصره في التوحيد العلمي، أي توحيد الأسماء والصفات والقدر ونحو ذلك، لكن التوحيد الذي هو بمعنى توحيد العبادة، لم يؤلَّف فيه إلا في زمن متأخر.

فالتوحيد تزعمه كلُّ طائفة، فطائفة الجَهَمية المنسوبة إلى جهم بن صفوان، المقتول عام مائة وثمانية وعشرين على عقيدته الباطلة، فنفوا أسماء الله وصفاته، وسمُّوها توحيدًا، فجاءت بعده المعتزلة، فخففت، فأثبتت الأسماء وأوَّلت الصفات جميعها، وسمُّوا عملهم توحيدًا، ثم جاءت بعدها الأشعرية، فأثبتوا الأسماء وبعض الصفات، ونفت بعض الصفات، وسمُّوا عملهم توحيدًا، ثم جاءت الصوفية، فلم يفرِّقوا بين الخالق والمخلوق، وسمُّوا هذا توحيدًا، وكل هذه اصطلاحات باطلة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ٤/ ٣٧٨، ح٧٣٧٢.

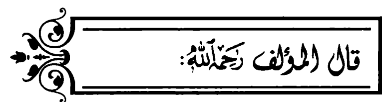
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه باختلاف يسير، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم: (١٣٩٥)، ومسلم في صحيحه مطولًا، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، برقم: (١٩)، (١/ ٥٠).

فالتوحيد هو ما وردَ في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ، سواء كان توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد العبادة، أو توحيد الأسماء والصفات، فهذا هو اصطلاح الفرق.

فالشارح رحمه الله أراد بالتوحيد أنواع التوحيد الثلاثة، لكنه لم يتحدَّث عن توحيد الربوبية؛ لأنه فطري -كما سيأتي-، فالتوحيد يُطلق في الشرع ويراد به العبادة، وإذا جاء في الحديث ذِكْر التوحيد فالمراد به العبادة؛ ولهذا قال بعض الصحابة إن الرسول لبَّىٰ بالتوحيد، أي قال: "لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك" فوحد الله.

وأول مَن اعتنىٰ بهذا التوحيد وبيانه، هو ابن تيميه وتلميذه -رحمهما الله تعالىٰ-، ثم بعدهما تتابعت المصنَّفات، فصنَّف ابن رجب رسالة صغيرة اسمها التوحيد، وكذلك المقريزي له رسالة صغيرة سمَّاها تجريد التوحيد، وكذلك الشوكاني له رسالة في التوحيد، ردَّ فيها علىٰ الصنعاني، بعد أن كان الصنعاني مُتَّبِعًا لمنهج الدعوة في إثبات التوحيد، ثم حدث عنده بعض الخلل، وأخطأ في هذا الجانب، بعد أن كان مُقِرًّا به، فنقد قوله، وقال: إن مَن استغاث بغير الله من الأولياء والصالحين ليس مُشركًا، فردَّ عليه الشوكاني في رسالته المذكورة، وقال: لو كانت قريش بعد أن قالت لا إله إلا الله بقيت علىٰ شركها، لحاربها رسول الله، ولم يقبل منها لا إله إلا الله، إذا بقيت علىٰ أنها تعبد الأصنام وتدعو غير الله، لكن لا إله إلا الله لها معنىٰ، وهو أنه لا معبود بحق إلا الله عز وجل.

ثم جاء محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فألَّف كتاب التوحيد؛ ليردَّ به علىٰ الانحرافات التي كانت في عصره.



وإن شئت قلت: التوحيد نوعان:

توحيد في المعرفة والإثبات وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

وتوحيد في الطلب والقصد وهو توحيد الإلهية والعبادة. ذكره شيخ الإسلام وابن القيم، وذكر معناه غيرهما.

النوع الأول: توحيد الربوبية والمُلك، وهو الإقرار بأن الله تعالىٰ رب كل شيء، ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر علىٰ ما يشاء، ليس له في ذلك شريك ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر.



قوله: (وإن شئت قلت التوحيد نوعان)، هنا ينقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ عن التوحيد قولهما: إن التوحيد ينقسم إلىٰ قسمين، ومرة قسَّموه إلىٰ ثلاثة أقسام، فإذا لُوحِظ فيه فعل العبد، وتعلُّقه بالعبد، فهو قسمان: توحيد المعرفة والإثبات -أي من العبد-، وتوحيد القصد والطلب -أي من العبد-، لكن إذا نُظر إلىٰ حق الله، فيُقسَّم إلىٰ ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، نسبةً إلىٰ الرب جَلَّ وَعَلَا، وتوحيد الإلوهية، نسبةً إلىٰ الإله، وتوحيد الأسماء والصفات، نسبةً إلىٰ أسماء الله وصفاته، فالتقسيم إن كان ثنائيًّا أو ثلاثيًّا لكلٍّ منهما مَلحَظ، فكلا التقسيمين صحيح.

وأول مَن قسم التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام هو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنه وجد أن الناس في عصره -وخاصةً أصحاب الطوائف والفرق المخالِفة-

فهموا أن معنىٰ لا إله إلا الله هو لا خالق إلا الله، فقال شيخ الإسلام: هذا فَهم خاطئ، والله هو الخالق الواحد ﷻ، لكن ليس هذا معنىٰ لا إله إلا الله، فإن العرب كانت تعرف أن الله هو الخالق، فكيف يأمرهم النبي بأن يقولوا: لا خالق إلا الله؟ لابد أن تكون الدعوة إلىٰ أمر لم يعرفوه، أو عرفوه ونقضوه، فسبب التقسيم هو الرد علىٰ الذين انحرفوا في توحيد الإلوهية، فإن جميع المتكلِّمين لا تجد لهم عناية بتوحيد العبادة، وكل كلامهم في جميع كتبهم مُنصَبٌّ علىٰ إثبات توحيد الربوبية. ولهذا يقول ابن تيمية رحمه الله : ليس هذا هو التوحيد الذي يقع فيه الخلاف بين الرسل والأمم، الخلاف وقع في عبادة الله، في توحيد الإلهية، أما توحيد الربوبية فهو فطري -كما سيأتي-.

والقدماء عرفوا معنىٰ الإله ومعنىٰ الرب في اللغة، ولم يخلطوا بينهما، وسيأتي -إن شاء الله- قول سبعة عشر عالِمًا من علماء اللغة وعلماء التفسير، ابتداءً من القرن الرابع، وانتهاءً بالقرن الثامن، فسَّروا لا إله إلا الله: بلا معبود إلا الله، لكن المتكلِّمين هم الذين انفردوا بهذا الفَهم الخاطئ، وكان سببًا لضلال كثير من الناس، حتىٰ ظنوا أنه يمكن للإنسان أن يكون مشركًا، وأن يكون موحِّدًا، فيعترف بأنه لا إله إلا الله، ولكنه يدعو غير الله، وينذر لغير الله، ويستغيث بغير الله، وهذا لا يجتمع.

قوله: (**النوع الأول: توحيد الربوبية والمُلك**)، أول قسم من التوحيد -بالتقسيم الثلاثي-:

توحيد الربوبية: نسبةً إلىٰ الرب الخالق، هذا التوحيد توحيد فطري، أي أن النفس البشرية تعرف الله الخالق بدلالات كثيرة، فقد وردَ في القرآن ما يدل علىٰ ذلك، وجاء في السُّنَّة ما يدل علىٰ ذلك، ووردَ في حياة الإنسان ما يدل علىٰ ذلك، ووردَ في دراسة علماء الأديان المعاصرين ما يدل علىٰ ذلك.

أما من كتاب الله فقال ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]، فالله يقول لنبيه أقِم وجهك، أي استقم، وجهك: المراد به الوجهة والاتجاه، ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، أي خلق عليها جميع الناس، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، قد يقول قائل: كيف لا تبديل لخلق الله ونحن نرىٰ اليوم الكفار والمشركين بدَّلوا؟ الجواب: لا تبديل للفطرة، فالفطرة في القلب موجودة، لكنها غُطِّيَت، فعندما تدعو الكافر، وتمسح عن فطرته ما رَانَ عليها من الشرك، تظهر الفطرة، وينشرح صدره، ويُسلِم، فالفطرة موجودة لا تُبدَّل، ولكنها تُحرَّف وتُغطَّىٰ، لهذا جاء في الحديث: **"كلُّ مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه)**[1]، إنما ذكر الأديان الباطلة، ولم يذكر الإسلام؛ لأن الفطرة هي الدين، وقد أجمع علماء السلف، مجاهد وعكرمة والحسن البصري وسعيد بن جبير وابن حنبل والبخاري -رحم الله الجميع-، أن معنىٰ الفطرة هو الدين، لكن ليس معناها أن تعرف اسم الله، بل الفطرة ما يوجد في القلب من معرفة للخالق، وقصد للخضوع له والتوجه إليه، هذا موجود، وإن كان يحدث في المجتمعات البشرية مسح وتغطية لهذه الفطرة، لكن ما من قلب إلا وفيه إحساس بالخالق، وإحساس بالافتقار إليه.

وكذلك العلماء المعاصرون -علماء الأديان- عملوا دراسة للمجتمعات البشرية، من أمريكا في الغرب إلىٰ استراليا في الشرق، ولم يجدوا مجتمعًا لا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم: (١٣٨٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنىٰ كل مولود يولد علىٰ الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم: (٢٦٥٨)، (٤/ ٢٠٤٧).

يعرف الله، ولا يعرف الخالق، وإن كان يسمِّيه بغير اسمه، لكن كل مجتمع لديه دين، ويعرف أن هناك خالقًا، حتىٰ عباد البقر، الذين عبدوا البقر، وخضعوا للبقرة، أو تبرَّكوا بها، يعرفون أن هناك خالقًا، لكن يقولون كما قالت قريش: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

فالفطرة معرفة الله الخالق، ما من إنسان إلا ولديه فطرة، لهذا قال - تعالىٰ - في آية الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، الآية تقرر أن الله أخذ الميثاق علىٰ كل إنسان، لكن لم يقل ألست إلهكم، بل قال ألست بربكم؛ لأن الإله سيأتي له رسل يبيِّنون توحيد العبادة، والله لا يحاسب عليه يوم القيامة، ولا يعاقب مَن لم يأته أنبياء، لكن توحيد الربوبية في القلب موجود، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة، أن الله أخرج الناس في الأزل من ظهر آدم، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله قال: إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان -أي بعرفة-، قال: فأخرجهم من صلبه كالذَّر، فنثرهم بين يديه عز وجل، ثم قال ألست بربكم؟ قالوا بلىٰ، ثم أعادهم إلىٰ ظهر آدم(١)، فما من إنسان يوجد إلا ولديه هذه الفطرة.

من علامات الفطرة، أن الطفل إذا بلغ سن الرُّشد وسن الكلام، يبدأ يسأل أسئلة كثيرة، يقول: من خلق الشمس؟ من خلقنا؟ لماذا الشمس تغرب؟ لماذا الشمس مُعلَّقة؟ يسأل أسئلة كثيرة ليس لها جواب، إلا أن تقول: الله، فهذا السن المبكر قبل أن يفسد الطفل، يوجد في ذهنه وقلبه توجُّه إلىٰ مَن خلقه،

---

(١) مسند الإمام أحمد: (١/ ٢٧٢)، وانظر: السنة لابن أبي عاصم: (١/ ٨٩)، الأسماء والصفات للبيهقي: (ص ٣٠٦، ٣٢٧)

فلهذا يبحث، ومَن يُسلِم من الكفار يقول إنني كنت أحس بشيء مفقود في حياتي، وعندما أسلمتُ، عرفتُ أن هذا هو الشيء الذي كنت أشعر بأنه مفقود.

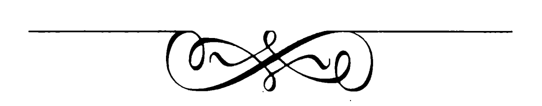
فتوحيد الربوبية توحيد فطري، فلم يأت نبي يدعو الناس إلىٰ أن الله هو الذي خلقهم، إنما الأنبياء جاؤوا يدعوون الناس إلىٰ أن يعبدوا الذي خلقهم، فقريش تعترف بأن الله هو الخالق، وأنه هو الرازق، وأن الأمر كله بيده، وأنه يخرج الحي من الميت، فكيف يأتي النبي يقول: قولوا لا خالق إلا الله، ولا محيي إلا الله، ولا مميت إلا الله!

فتوحيد الربوبية قاعدة في قلب كل إنسان، ولهذا أقرب الناس إلىٰ الناس هم الدعاة إلىٰ الله؛ لأنك تدعو الإنسان وفي فطرته ما يتفق مع دعوتك، والشيوعي يدعو إلىٰ شيء يخالف الفطرة، وكذلك المـُلحد والفاسق يدعوان إلىٰ أمر يخالف الفطرة، فأقرب الناس إلي الفطرة أو إلىٰ قلوب الناس، مَن يدعونهم إلىٰ الله؛ لأنهم يدعونهم إلىٰ شيء له أصل في قلوبهم، لكنهم أشركوا غيره في عبادة الله، والخضوع له، وإفراده بالطاعة، وإفراده بالحب، وإفراده بالذل، هذا هو الذي انحرفت فيه الفطرة، فجاءت الأنبياء لتصحيحه، وإلا لم يأت نبي يقول إن الله هو الذي خلقكم، والذي يُوجَد اليوم من لَوْثَة الشيوعية طارئ، وهم يعلمون أن الله ربهم، وقد ذُكِر أنه قبل ستين عامًا في بداية الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، أن بنت ستالين هربت من بيت أبيها إلىٰ أوروبا، وتقول: لا أستطيع أن أعيش في بيت لا يُذكر فيه الله، وأبوها زعيم الشيوعية، ولمـَّا كان الشيوعيون يحاربون الفطرة سقطوا وتفتتوا؛ لأن الفطرة لا تُغالَب ولا تُحارَب، فكل مجتمع يحارب الفطرة، لابد أن يندثر ويتفكك ويُبتلَىٰ، لكن لمْ يحدث هذا في المجتمعات الغربية؛ لأنهم لم يغالبوا الفطرة بكاملها، فهناك -حيث الشيوعيون- كان الشرك والظلم، لكن إن وجد الشرك والعدل، لربما حفظ العدلُ المجتمعَ، وأخَّر انحطاطَه.

فمن يحارب الفطرة يندثر ويُغلَب، ففي الشرق حارب الشيوعيون الفطرة التي في القلوب، فلم يستطيعوا الثبات، فانتهوا إلىٰ التمزُّق شر مُمَزَّق، ففي الفطرة توحيد الربوبية، وليست القلوب خالية من ذكر الله، لكن التربية تُفسِد، كما في الحديث: "**فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه**"(١)، فالتربية لها دور، فمَن نشأ في بيئة منحرفة ينحرف، ولهذا نرىٰ الابن في المجتمعات البشرية اليوم ينشأ علىٰ عقيدة أهله، إن كان شيوعيًّا، وإن كان نصرانيًّا، أو يهوديًّا.

يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين: (إن الغريزة الدينية: مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتىٰ أشدها همجية، وأقربها إلىٰ الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنىٰ الإلهي وبما فوق الطبيعة، هو إحدىٰ النزعات العالمية الخالدة للإنسانية)، ويقول: (إن هذه الغريزة الدينية لا تُخفَىٰ، بل لا تَضعُف، ولا تَذبُل، إلا في فترات الإسراف في الحضارة، وعند عدد قليل جدًّا من الأفراد)(٢).

ويقول هنري برجسون: (لقد وُجِدَت وتُوجَد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم تُوجَد قط جماعة بغير ديانة)(٣).



---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الدين لدراز ص٨٢ – ٨٣.

(٣) المصدر السابق ص٨٣.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية؛ لأن الله تعالىٰ حكىٰ عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١]، **وقال تعالىٰ:** ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف:٨٧]، **وقال تعالىٰ:** ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [العنكبوت:٦٣]، **وقال تعالىٰ:** ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢]، **فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين.**

الشَّرح

الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن تحدَّث عن توحيد الربوبية، وذكر معناه، عقَّبه بقوله: (**وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام**)، وكما تقدَّم أن سبب تقسيم التوحيد إلىٰ الأقسام الثلاثة -مع أن التوحيد واحد-، أن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عاصر مذاهب وطوائف إسلامية أخطأت في فهم التوحيد الذي جاءت به الرُّسُل، فاقتضىٰ ذلك أن يذكر معنىٰ التوحيد في الكتاب والسُّنَّة، وهذا الاصطلاح جاء بعد استقراء، وهكذا ما من عالم من علماء الأمة يقول قولًا يُبيِّن فيه حقًّا، أو يبطل باطلًا، إلا ويصبح قضية متداولة، ويصبح قولًا مقبولًا، فلو استقرأنا التاريخ من بداية علماء الأمة، لرأينا أن كل عالم له أقوال أصبحت قواعد

ثابتة، فعلماء الحديث اصطلاحاتهم أصبحت قواعد ثابتة، وعلماء التفسير أصبحت أقوالهم قواعد ثابتة، وعلماء الفقه، وعلماء الأصول.

فابن تيمية رحمه الله قسَّم هذا التقسيم؛ لبيان حق وإبطال باطل، فأصبح قاعدة لأهل السُّنَّة والجماعة، من خلاله يحاجُّون أصحاب البدع، ومن خلاله يردُّون على الطوائف المنحرفة، فإن هناك علماء كثيرين من علماء الطوائف المختلفة فسَّروا لا إله إلا الله، بأنه لا خالق إلا الله، وسارت عليه طوائف كثيرة، ودُوِّن في الكتب، وأصبح هذا مفهوم لا إله إلا الله عند كثير من الناس، وهذا قول باطل لغةً وشرعًا، فابن تيمية رحمه الله يبيِّن أن معنى لا إله إلا الله ليس هو توحيد الربوبية، وليس معناه لا خالق إلا الله، بل له معنى آخر، وقسَّم هذا التقسيم، فبدأ الشارح رحمه الله بذكر توحيد الربوبية؛ ليبيِّن القاعدة التي يقوم عليها بقية التوحيد، وهذه القاعدة فطرية في القلوب، لم تُوجَد أمة تنكِر هذا التوحيد، بل جميع الأمم تعترف أنه لا خالق إلا الله، ولم تحدث لَوْثَة الإلحاد المنظم إلا في العصر الحاضر، بسبب اليهود الذين كرهتهم البشرية، وطردتهم من محافلها ومن منتدياتها؛ لأنهم قوم حاقدون أعداء للإنسانية، فوضعوا هذه المذاهب الباطلة، التي ترفضها الفطرة، وقد رأينا في الأعوام القريبة أن الإلحاد نُبذ من المجتمعات البشرية، كفكرة عامة أو مذهب رسمي، وإن بقي فُلُوله وأفراده في نفوس مريضة كثيرة، لكنه كمذهب عام أو كقضية يقوم عليها مجتمع، رُفِض؛ لأنه يصادم الفطرة، والفطرة أغلب.

ففي الفطرة إيمان بالله عز وجل، فقريش تؤمن بالله، وتعلم أن الله هو الخالق الرازق، وأنه هو المحيي المميت، وأنه بيده الأمر كله، والقرآن الكريم يثبت ذلك، قد يظن بعض الناس أنه ليس هناك من يخالِف في هذه القضية، بل الحق أنه وُجِد خلاف، كما ستأتي نصوص لعلماء معاصرين، مِمَّن لهم مكانتهم

العلمية في بلادهم، أنكروا أن تكون قريش تعرف ربوبية الله معرفة حقة، وقالوا: الرسول دعاهم إلىٰ أن يعرفوا الله، وهذا كذب يَرُدُّه القرآن والسُّنَّة، ويَرُدُّه واقع التاريخ البشري، فالله ﷻ قال لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس:٣١]، ولو كان هناك مَن يقول غير الله، لعُرِف، ولكن القرآن يجزم بأنه لن تجد أحدًا منهم يقول غير الله، فقريش تعرف أن الله هو الذي يحيي، وهو الذي يميت، وهو الذي يرزق، وهو الذي بيده الأمر كله، فهذه القضية ليست مجهولة، لا في مجتمع قريش الجاهلي ولا في المجتمعات الجاهلية علىٰ مدار التاريخ البشري، ليس هناك مجتمع يعتقد أنه ليس هناك إله، أو لا يعرف الله، وإن كان يعرفه بغير اسمه.

وسبق أن بعض العلماء المعاصرين من علماء الأديان قاموا باستقراء للمجتمعات البشرية اليوم، فلم يجدوا مجتمعًا لا يعرف الله، والقرآن قد تحدَّث عن هذه القضية، وقال ﷻ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف:٨٧].

فهذه الآيات تتحدث عن واقع معرفة قريش لله، أنه الخالق، الرازق، هو الذي يجيب المضطر ﷻ، فهذه كلها قضية ثابتة.

قال الشارح: (**فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده، ولم يكونوا بذلك مسلمين**)، أما قول علماء الكلام في هذه المسألة فمتناقض؛ فمفسروهم اعترفوا بهذا، ولكنهم عندما يفسرون القرآن الكريم يذكرون كلامًا، وعندما يقررون العقيدة يذكرون قولًا يناقضه.

يقول الرازي -وهو من أشهر علماء المتكلِّمين- في تفسير هذه الآية: فسيقولون إنه الله ﷻ، وهذا يدل علىٰ أن المخاطَبين بهذا الكلام كانوا يعرفون

الله، ويقرُّون به، وهم الذين قالوا في عبادتهم للأصنام إنها تقربنا إلى الله زُلْفَىٰ(١).

والقرطبي -وهو أخف من الرازي، لكنه ممن سار على منهج المتكلِّمين في قضايا العقيدة- يقول: فسيقولون الله؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله، ثم قال: أو فسيقولون: هو الله، إن فكروا وأنصفوا، والحق أنهم لا يحتاجون تفكيرًا، فهم يعرفونه بدون تفكير، أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم، والفاء هنا جاءت عاطفة، أي لم يترددوا في أن يقولوا هو الله ﷻ(٢).

وقال أبو السعود: فسيقولون بلا تلَعْثُم ولا تأخير: الله، إذ لا مجال للمكابرة؛ لغاية وضوحه.(٣)

ويعترف بعض علماء الكلام بأن قضية الربوبية قضية فطرية، ونحن نرُدُّ بكلام بعض علماء الكلام على البعض الآخر.

قال الشهرستاني: إن جميع المتكلِّمين انتهوا إلى الحيرة وإلى الاضطراب في عقائدهم، وإن منهج اليقين ومنهج تثبيت الإيمان هو القرآن والسُّنَّة، مَن طلبه في غيرهما؛ ضلَّ وانحرف، واضطربت عقيدته، ويقول في آخر كتبه، واسمه: (نهاية الإقدام في علم الكلام): فإن الفطرة السليمة الإنسانية شَهِدت -بضرورة فطرتها وبداهة فكرتها- على صانع حكيم عالم قدير، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]،

---

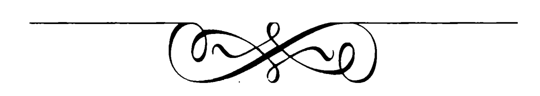
(١) تفسير الرازي (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير)(١٧/ ٢٤٧)

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٣٥)

(٣) تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤/ ١٤١)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ ﴾ [الزخرف:٩]، وإن هم غفلوا عن هذه الفطرة في حال السرَّاء، فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضرَّاء، ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [لقمان:٣٢]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٦٧]، ولهذا لم يَرِد التكليف بمعرفة وجود الصانع، وإنما وَرَدَ بمعرفة التوحيد، ونفي الشرك، كما قال ﷺ: **"أُمرتُ أن أقاتل الناس، حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله"**[١]، فمحل النزاع بين الرُّسُل والخَلْق هو التوحيد، ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ [غافر:١٢][٢].

هذا كلام زعيم من زعماء الكلام في آخر كتاب من كتبه، يقرر الحقيقة التي خالفها جميع المتكلِّمين، وبسبب خلافهم فيها؛ انحرفوا في العقيدة، **وهذا الخلاف في توحيد الربوبية كان بوابة انحراف العقائد** -وسيأتي إن شاء الله بيان ذلك-، فانحرافهم في هذه القضية كان سببًا لانحرافهم في عقيدة الأسماء والصفات، ولو لم ينحرفوا في هذا الباب؛ لاستقامت عقائدهم، وعلماء الإسلام يقررون هذه القضية؛ حتىٰ يردُّوا علىٰ مَن انحرف من المنحرفين.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة، برقم: (٣٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله...، برقم: (٢٠)، (١/ ٥١).

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام (ص: ٤٢) انظر درء تعارض العقل والنقل (٣/ ١٢٩)

قال المؤلف رحمه الله:

بل قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف:١٠٦].
قال مجاهد في الآية: إيمانهم بالله قولهم إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك، عبادتهم غيره. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وعن ابن عباس وعطاء والضحاك نحو ذلك.

فتبين أن الكفار يعرفون الله ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره، وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعًا من العبادات، كالحج والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار ونحو ذلك.

ويدّعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران:٦٧].



قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف:١٠٦]، يبيِّن أن قريشًا لديها إيمان، لكنه إيمان مخلوط بشرك، والشرك إذا خالط الإيمان، أفسده، أي لا يبقي له أثرًا، ولا يُفيد صاحبه، ولا ينفعه هذا الاعتراف، إلا إذا كان اعترافًا حقيقيًّا، ثم طرأ عليه شرك، ثم تاب منه، أما إذا كان مشركًا بالله عز وجل فإنه لا ينفعه في الآخرة، والله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، وحتى لو عرفوا أن الله الخالق، وأن الله الرازق، فالشرك إذا خُلط بالإيمان، فإنه يفسده.

قال الشارح رحمه الله : (فتبيَّن أن الكفار يعرفون الله، ويعرفون ربوبيته ومُلكه وقهره، وكانوا مع ذلك يعبدونه، ويخلصون له أنواعًا من العبادات).

كلمة (يخلِصُون) فيها شيء من المبالغة؛ لأن قريشًا كانوا لا يعرفون الله

حق المعرفة، حتىٰ ندَّعي أنهم مخلصون، لكنهم كانوا يعبدون الله ويعرفونه، فيحُجُّـون، وينـذِرُون، ويطوفـون بالبيـت، ويـدعون الله وقـت الاضـطرار، ويتصـدَّقون، وسيأتي في حـديث القسـامة أنهـم كـانوا يعظِّمـون الله، ويعظِّمـون القسـم بـه ﷻ، فهـذا كـان عنـدهم معروفًـا، لكـن الإخـلاص أمـر لا يعرفـه إلا أصحاب التوحيد.

قوله: (ويدَّعون أنهم علىٰ ملة إبراهيم، فأنزل الله تعالىٰ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران:٦٧]).

الآيـة أنزلهـا الله ﷻ ردًّا علـىٰ اليهـود والنصـارىٰ في الأصـل، فقـال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧]، فالأصل هو الردُّ علىٰ اليهود والنصارىٰ، ثم أعقبها بالرَدِّ علىٰ المشركين.

فاليهود زعموا أنهم علىٰ مِلَّة إبراهيم، والنصارىٰ زعموا أنهم علىٰ مِلَّة إبراهيم، وقريش زعمت أنها علىٰ مِلَّة إبراهيم، والآية تـرُدُّ علـيهم جميعًـا؛ لأن إبـراهيم كـان وجـوده قبـل موسـىٰ وعيسـىٰ وداود وسـليمان -علـيهم الصـلاة والسلام-، وجميع هذه الديانات جاءت بعده، فكل طائفة تدَّعي أنهـا علـىٰ مِلَّة إبـراهيم، وإبـراهيم أبـو الأنبيـاء، وهـو إمـام الموحِّـدين، وقـد خلَّـد الله ذِكْـره في القرآن الكريم، بل الأسرة بكاملها تسمَّىٰ أسرة التوحيد: الأب والابن والأم، فخلَّد الله ذِكْر هذا البيت الكريم الطاهر للبشرية إلىٰ قيام السـاعة، فإبراهيم هـو الذي حطَّم الأصنام، وهو الذي بنَىٰ الكعبة.

وهذا ردٌّ علىٰ المستشرقين الذين يزعمون أن محمدًا كسر جميع الأصنام، ما عدا الصنم الكبير وهو الكعبة، وهذا باطل؛ ولهذا جعل الله الذي بنَىٰ الكعبة

هو الذي كسر الأصنام، فليست الكعبة صنمًا، هذه نقطة التقاء لقلوب الأمة الإسلامية إلىٰ قيام الساعة، وليس هناك مَن يعبد الكعبة، ولا مَن يقصدها بالدعاء، ولا مَن يخشع لها، إنما يقصد بالاستقبال والقلوب التوجُّه إلىٰ الله ﷻ، نطوف حول الكعبة، وقلوبنا معلَّقة بالسماء، لا نطوف حول الكعبة، ونعتقد فيها ما يعتقده الجاهليون في أصنامهم.

فإبراهيم إمام الموحِّدين، وابنه إسماعيل الذي قال الله فيه عندما قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]، قال: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات:١٠٢]، فاستسلم لله ﷻ: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات:١٠٣]، جاء بالسكين وأضجَعَه؛ ليذبحه، ثم رفع الله عنه الذبح، وهذا الذبح الآن في مِنَىٰ علىٰ سُنَّة إبراهيم وابنه إسماعيل -عليهما السلام- إلىٰ قيام الساعة.

وجاء بامرأته هاجر فوضعها في مكان الكعبة مع ابنها الصغير الوليد، ثم تركها وغادرها، فلحقته هاجر، تقول: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا؟ آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا الله، ولهذا التوحيد واليقين بالله؛ ذِكْر أهله مخلَّدًا إلىٰ قيام الساعة، ونحن نسعىٰ اليوم في المكان الذي سَعَت فيه هاجر، وتسعىٰ الأمة الإسلامية إلىٰ قيام الساعة.

فإبراهيم إمام الموحِّدين، وكل طائفة تدَّعي أنها من أتباعه، وأنها مِمَّن يُحيي دينه، ويُحيي عقيدته، فالله قال: إن إبراهيم ليس يهوديًّا وليس نصرانيًّا وليس مشركًا، ولكنه حنيفٌ مسلمٌ، حنيفٌ أي مائل عن الشرك، ومسلم أي مستسلم لله ﷻ، فهذه الآية تردُّ علىٰ مَن اعتقد أن إبراهيم كان علىٰ عقائد اليهود أو النصارىٰ أو المشركين.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب، وبعضهم يؤمن بالقدر، كما قال زهير:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم.

وقال عنترة:

يا عبل أين من المنية مهرب   إن كان ربي في السماء قضاها

ومثل هذا يوجد في أشعارهم فوجب علىٰ كل من عقل عن الله تعالىٰ أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم وسبي نسائهم وإباحة أموالهم، مع هذا الإقرار والمعرفة، وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنىٰ لا اله إلا الله.

النوع الثاني: توحيد الأسماء والصفات.


الشَّرح

يقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب)، وهذا قليل، فالقضايا التي جاء القرآن يقررها ثلاث: قضية الألوهية، وقضية البَعْث، وقضية النُّبُوَّة، والقرآن الكريم يركِّز علىٰ هذه القضايا الثلاث، وقريش كانت تُنكِر أن هناك بعثًا وحسابًا، وما أَوْرَده عن أفراد منهم لا ينقض القضية العامة، فإن هذا من قول زهير، ولكن جمهور الناس ينكرون أن هناك يومًا آخر.

وفي ديوان زهير يقول قبل هذا البيت:

فلا تكتُمَنَّ اللهَ ما في نفوسِكم   ليخفَىٰ، ومهما يكتمُ اللهَ يعلمُ

يؤخِّر فيوضع في كتاب فيدَّخر   ليوم الحساب أو يعجِّل فينقمُ

أي أن يُعجِّل الحساب فينتقم من صاحبه، لكنه يقول إن الإنسان عمله مؤخَّر ليوم الحساب، ومعرفة يوم الحساب لا تُعرف إلا عن طريق الأنبياء، ولا شك أن هناك بقايا لدين إبراهيم، لكنه في أفراد قليلين في مكة.

وقول عنترة: (**يا عبل أين من المنيَّة مهربُ إن كان ربي في السماء قضاها**)، وقصة عنترة مع عبلة وحبه لها، مشهورة معروفة، وكل شعره على هذه المرأة، وديوانه كله على هذا النمط، لكن شعره يؤخَذ منه المعاني اللغوية؛ فلهذا ليس هناك حرج من استشهاد العلماء بأشعار الجاهليين، وإن كان في الغزل؛ لأنهم عرب أقحاح، يفسِّر كلامُهم وأشعارُهم كتابَ الله ﷻ.

وهذه (عبل) اسمها عبلة بالتاء المربوطة، و هذا يسمَّىٰ في اللغة العربية ترخيمًا، وقد جاء الترخيم في الحديث الصحيح في قصة عائشة -رضي الله عنها-، ذكرت: أن الرسول جاء إلىٰ غرفتها، ثم وضع رداءه ونعله عند قدميه -أي فرش رداءه-، ثم نام، وبعد قليل قام فذهب إلىٰ البقيع، فخرج وفتح الباب -أي بخِفْية-، ثم أَوْصَد الباب، فظنَّت عائشة أنه ذهب إلىٰ إحدىٰ زوجاته، فأخذت ملابسها، ثم ذهبت وراءه، حتىٰ وصلت إلىٰ البقيع، فوقف النبي عند البقيع، وأخذ يدعو لأهل البقيع، وعندما انتهىٰ، رجع، فرجعَتْ قبله، فأسرع المشي، فأسرعَتْ، فجاء، وهي نائمة تَلْهَث، فاستغرب، فقال لها: "**يا عائش حشيا رابية**"، أي ما لي أراك تلهثين، فأخبرته بالقضية، فنهدها -أو ضربها في صدرها-، وقال: "**أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله**"[1].

والشاهد قوله: يا عائش، ولم يأت بالتاء المربوطة، وهذا هو الترخيم في اللغة العربية، يُحذف بعض أفراد الكلمة من أواخرها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، برقم: (٩٧٤)، (٢/ ٦٦٩).

فهو هنا يقرر أن عنترة يعترف بأن الله ﷻ قد قضى أمورًا، وأن الإنسان لا يستطيع أن يغادر أو يهرب عن أجله الذي أجله الله له.

قال رحمه الله : **(ومثل هذا يوجد في أشعارهم، فوجب على كل من عقل عن الله تعالى، أن ينظر).**

وهنا الشاهد، وهذا زُبدة الكلام، ولذا أَوْرَد كلامه كله، فيقول: **(فكل عاقل ينبغي أن ينظر، ويبحث عن السبب الذي أوجب سفكه دمائهم وسبي نسائهم وإباحة أموالهم، مع هذا الإقرار والمعرفة)**، فلم يزَل يقاتلهم، ويستبيح دماءهم وأموالهم، وهم يعترفون أن الله ربهم وخالقهم؛ لأنهم أشركوا مع الله غيره، ولم يُفرِدوا الله بالعبادة، وعبدوا مع الله غيره، إما الأصنام، وإما الملائكة، وإما بعض الرسل، كما وردَ عن أصحاب الديانات السابقة، فيقول: **(وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنى لا اله إلا الله)** فهذا مُجمَل الكلام عن توحيد الربوبية.

قوله: **(النوع الثاني: توحيد الأسماء والصفات)**، هذا التوحيد الذي هو التوحيد الثاني، توحيد الأسماء والصفات، أَوْرَده الشارح ليكمِّل القسمة الثلاثية.

وتوحيد الأسماء والصفات من أَجَلِّ أنواع التوحيد، فإنه يتعلق بذات الله ﷻ، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العُلَى، والمسلم محتاج إلى معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه، فإن لله أسماء وصفات، وكلما ازدادت معرفة المرء بأسماء الله؛ ازداد في قلبه تعظيم الله -ﷻ-، ومعرفة أسماء الله وصفاته لها طريقان:

الطريق الأول: طريق الوحي، الذي هو القرآن والسُّنَّة، فالقرآن وحي الله بلفظه ومعناه، وأما السُّنَّة فهي وحي الله بالمعنى، والقرآن الكريم مملوء بذكر

أسماء الله ﷻ، ولكن القرآن عرض أسماء الله ﷻ على ثلاث صور:

الصورة الأولى: أنه أنزل بعض السور تتحدث عن أسماء الله بمفردها، وهي سورة الإخلاص، فإن قريشًا قالت للنبي: يا محمد أنسب لنا ربك، فأنزل الله هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤][1]، فعرَّف الله ﷻ من خلال هذه الأسماء الدالة على صفاتها.

الصورة الثانية: أن تأتي آيات مستقلة، وهي قليلة، كآية الكرسي والآيات في آخر سورة الحشر.

الصورة الثالثة: أن تجيء تعقيبًا على ذكر أفعاله ﷻ، أو ذكر تشريعاته، فتأتي في أعقاب التشريع، مثلًا: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨﴾، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٨﴾، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦﴾، فكلها جاءت لبيان حكمة الله، وبيان أسمائه وصفاته بعد كل تشريع، أو بعد ذكر كل خلق أو فعل من أفعاله ﷻ، ولم تأت تُفصِّل هذا التفصيل الذي في كتب العقائد؛ لأن الله أراد أن يعرفها العبد من خلال أفعاله ﷻ، أو من خلال تشريعاته، فالطريق الأول لمعرفة أسماء الله وصفاته، هو طريق الوحي.

والطريق الثاني: طريق النظر في مظاهر الكون، -كما يقول العلماء- الصِنعة تدل على الصانع، فإذا جئت إلى باب وقد نجَّره نجارٌ، تعرف أن هذا

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٣، رقم ٢١٢٥٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٢٤٥)، والترمذي (٥/ ٤٥١، رقم ٣٣٦٤)، والحاكم (٢/ ٥٨٩، رقم ٣٩٨٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ١١٣، رقم ١٠١)

النجار عنده خبرة بطبيعة الخشب، وبالمقاسات، وعنده خشب صنع منه هذا الباب، وعنده ما يركبه فيه من مفصلات وغيرها، فالباب يدلك علىٰ بعض صفات الصانع، الذي هو النجار، ولله المثل الأعلىٰ، فهذا الكون المُحكَم المُتقَن يدل علىٰ أن الذي خلقه حكيم، وما نراه في الكون من العلم الذي لدىٰ الإنسان، يدل علىٰ أن الله -سبحانه- عالمٌ، وما نراه من الرحمة في حياة المخلوقات الحية، يدلنا علىٰ أن الله ﷻ رحيمٌ، وما نراه من الرزق المستمر للأحياء الذي تدره السماء والأرض ليلًا ونهارًا، يدلنا علىٰ أن الله ﷻ رزاقٌ، **والطريق الثاني يُكمِل الطريق الأول، لا يُكمله بل يؤكِّده**؛ لأنه ما من اسم أو صفة لله نحتاج أن نعرفها إلا وقد وردَت في كتاب الله، أو في سُنَّة رسول الله ﷺ.

ثم ننتقل إلىٰ معاني الأسماء، الأسماء: جمع اسم، والاسم لغةً: ما أبانَ عن مسمًّىٰ، أو ما أبانَ عن مفرد، عينًا كان أو معنىٰ.

فمثلًا: جبل، هذا اسم عَيْن مُشاهدَة، واسم المعنىٰ كمثل البغض، الحب، الكره، فالاسم هو الذي يُعرف به العَيْن القائمة المحسوسة، أو المعنىٰ.

لكن في الاصطلاح يقول علماء النحو: ما دلَّ علىٰ معنًىٰ في نفسه، من غير تعرُّض فىٰ بِنيته لزمان، وعلماء اللغة يقسِّمون الكلمات إلىٰ ثلاثة أقسام: اسم، وفعل، وحرف، قالوا: الاسم يدل علىٰ معنىٰ في نفسه بدون دلالة علىٰ الحدث، والفعل يدل علىٰ معنىٰ وحدث، مثلًا: أكل، دل علىٰ الأكل وعلىٰ أنه كان في الماضي، ففيه معنيان، والحرف لا يدل علىٰ معنىٰ، لا في نفسه ولا علىٰ حدث، لكنه يدل علىٰ معنىٰ في غيره، والاسم مشتق، لكنه من أي شيء اشتق؟ فيه قولان:

فالبصريون قالوا: مشتق من السُّمُو، الذي هو العُلُو والارتفاع؛ لأن الاسم يُبِين عن مسمَّاه، ويظهره.

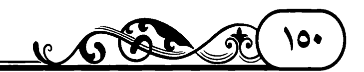
وقول الكوفيين: إنه مشتق من الوَسَم، الذي هو العلامة، ولكن هذا الاشتقاق ليس منطبقًا، فمن حيث المعنىٰ صحيح، لكن من حيث الاشتقاق اللغوي ليس صحيحًا.

وثمرة الخلاف أن مَن قال إن الاسم مشتق من السُّمُو، يقول بأن أسماء الله أزلية وليست حادثة، ومَن قال إنه مشتق من العلامة، -وهم المعتزلة- يقول بأن أسماء الله -تعالىٰ- حادثة، وقولهم هذا قد يكون أشد من قولهم بخلق القرآن؛ لأنهم زعموا أن الله كان ولا اسم له ﷻ، ثم عندما خلق الخَلْق، فهم الذين سمُّوا الله -نستغفر الله ونتوب إليه-، والله ﷻ له الأسماء الحسنىٰ، وأسماؤه أزلية، وخَلْق الله لم يتوقف، فإن الخالق يخلق بدون انقطاع ﷻ، فالاسم مشتق من السُّمُو؛ لأنه يدل علىٰ المعنىٰ ويرفعه، وهذا هو قول أهل السُّنَّة.

وأسماء الله كلها حُسنىٰ كما قال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، والحُسنىٰ مفرد، مؤنث أحسن، والأسماء جمع تكسير، ويجوز وصف الجمع بالمفرد في جمع التكسير، يقال: جبال كبيرة، ولا يقال كبيرات، ويقال: أوانٍ نظيفة، و لا يقال نظيفات، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم:١٨].

وأسماء الله كلها حُسنىٰ، في غاية الكمال، وفي غاية الجمال، وليس فيها نقص، والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، فالأسماء هي لله وحده.

وأما مبحث المتكلِّمين، هل الاسم هو المسمَّىٰ أو غير المسمَّىٰ؟ فهذا ردٌّ علىٰ المعتزلة، الذين زعموا أن أسماء الله غيره؛ لأنهم يعتقدون أن أسماء الله مُحدَثة.



وهنا مسألة: هل أسماء الله محصورة؟

وَرَدَ الحديث: "**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنة**"[1]، هذا الحديث وَرَدَ في الصِّحاح، فهل هذا الحديث يدل علىٰ حصر الأسماء، أم أن لله أسماء أخرىٰ؟

الجمهور علىٰ أن الحديث لا يحصر أسماء الله، وضربوا لذلك أمثلة، قالوا: إن قول الشخص: "عندي مائة درهم أعدَدْتُها للنفقة"، لا يدل علىٰ أنه ليس عنده دراهم أخرىٰ، إنما يدل علىٰ أن هذه الدراهم أعدَّها للنفقة، ولو قال القائل: عندي مائة درهم أعدَدْتُها للنفقة، فكلمة (أعدَدْتُها للنفقة) جملة تأتي صفةً للمائة الدرهم.

فالجمهور يقولون في قوله: "**مَن أحصاها دخل الجنة**": هذا وَصْفٌ للتسعة والتسعين، وليس كلامًا منقطعًا، فهذا كلام الجمهور أن الحديث لا يدل علىٰ حصر الأسماء، ونقل النووي رحمه الله الاتفاق علىٰ هذا، وتجاهل خلاف ابن حزم، وبعض العلماء لا يرىٰ خلاف ابن حزم مُعتبرًا، لكن هذا قول فيه حَيْدَة، فإن ابن حزم من علماء الأمة، وقد يخالِف، ويكون خلافه قويًّا، وخلافه هنا قوي.

واستشهدوا بحديث ابن مسعود أنه قال: "**أنه ما أصاب عبدًا هَمٌّ ولا حزنٌ، فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أَمَتك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيْتَ به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب المكاتب، برقم: (٢٧٣٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالىٰ وفضل من أحصاها، برقم: (٢٦٧٧)، (٤/ ٢٠٦٢)

استأثرْتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي، ونور صدري، وذهاب همي، وجلاء حزني، إلا أذهبَ الله همَّه وغمَّه، وأبدله مكانه فرحًا أو فرجًا)[1]، وهذا الحديث رواه ابن حبان وأحمد في المسند والحاكم، لكن هذا الحديث فيه علتان، رغم تصحيح بعض العلماء له، فقد وردَ تصحيحه عن ابن القيم وابن تيمية رحمهما الله، كما أشار إليه الشيخ الألباني رحمه الله، والشيخ الألباني بالغ في تصحيحه، وسبقه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله.

العلة الأولىٰ: رجل ضعيف، اسمه أبو سلمة الجهني، قال الذهبي رحمه الله : إنه مجهول. والشيخ الألباني بحث، وحاول أن يذكر أن هذا الشخص ليس مجهولًا، بل هو من رجال مسلم. ولو قبلنا ذلك، تبقىٰ العلة الثانية، وهي أن راوي الحديث هو عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، تُوُفِيَ أبوه وعمره ست سنوات، كما قلنا في حديث خطبة الحاجة، عن أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن مسعود، أنه مات أبوه وعمره ست سنوات، فمَن كان عمره ست سنوات لا يكون أهلًا لتحمُّل الحديث، لأن هذا السن ليس سن إدراك وتعقُّل، فهذا الحديث فيه هاتان العلتان.

لكنَّا نريد أن يكون الكلام مُنصَبًّا علىٰ ألفاظ الحديث، فالحديث يحتمل الحصر وعدم الحصر؛ لأن الحديث وَرَدَ فيه صيغة مؤكدة، كما في البخاري:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم: (٣٧١٢)، (٦/ ٢٤٧)، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، برقم: (١٩٢٩)، (١/ ٦٩٦). وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية، برقم: (٩٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٠٣٥٢)، (١٠/ ٢١٠)، وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه من أبيه"، ولم يوافقه الذهبي، وقال في التلخيص: "وأبو سلمة لا يدرىٰ من هو، وليس له رواية في الكتب الستة".

"إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا)[1] وهذا تأكيد، فرأي ابن حزم قوي مُعتَبر، لولا أن الجمهور على خلافه؛ لأنه خالَف من خلال دراسة ألفاظ الحديث.

وقوله: "مَن أحصاها دخل الجنة"، اختلف العلماء في معناه على ثلاثة أقوال: منهم مَن قال: مَن عدَّها وحفظ ألفاظها، ومنهم مَن قال: مَن عرف معناها ودلالاتها، ومنهم مَن قال: مَن عَبَدَ الله بها، وابن القيم قال: جميعها تؤدي معنًى واحدًا، فجعل الإحصاء ثلاث مراتب -على حسب الأقوال-، قال: القول الأول، المرتبة الأولى أنه مَن عدَّها وحفظها، ثم عَرَف معناها ودلالاتها، ثم عَبَدَ الله بها، فإن لكل اسم عبودية، فإذا قرأ الإنسان قوله: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر:٢٣]، يَذِلّ له ﷻ، ويخضع له، ولا يستكبر، وقد قال العلماء: الكِبْر في حق الله كمال، وفي حق ابن آدم نقص، وإذا قرأ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة:١]، فإن قلبه يطمئن ويأنس، ثم كذلك هو يكون رحيمًا بخلقه.

فلكلِّ اسمٍ عبوديةٌ تخصُّه، بعضها خاص بالدعاء والتعبُّد، وبعضها خاص بالسلوك، فهذا معنى الحديث، أن مَن أحصاها: أي مَن عَبَدَ اللهَ بها.

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله أن الدعاء على نوعين: دعاء ثناء وحمد، كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥]، هذا ثناء على الله ﷻ، ودعاء عبادة، فتقول: يا رحمن ارحمني، يا رزاق ارزقني، يا هادي اهدني، فتتعبَّد الله دعاءً وعبادةً، هذا معنى مَن أحصاها، أي مَن قام بحقها بعد معرفتها.

---

(١) سبق تخريجه.

فهذا ما يتعلَّق بالأسماء، وأما الصفات: فلابن حزم خلاف فيها أيضًا، يقول: لا يجوز أن يُطلق على أسماء الله صفات، لكنه وَرَدَ في الصحيح عن عائشة -رضي الله عنها-: أن النبي أرسل سَرِيَّة، وأمَّر عليها شخصًا، وكان هذا الشخص يقرأ لهم في الصلاة، يختم قراءته بسورة الإخلاص، فعندما رجعوا، أخبروا النبي بذلك، فقال: سَلُوه لِمَ يفعل ذلك؟ فقال: إنها صفة الرحمن، وإنني أحبها، فقال عليه الصلاة والسلام: أخبروه أن الله يحبه، أو أن حبه أدخله الجنة.[1]

فذكر الصحابي أنها صفة الرحمن، وأقرَّه النبي على هذا الاسم وهذا الإطلاق، فإطلاق الصفات على أسماء الله جائز.

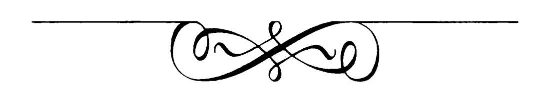
وأسماء الله لها جانبان: جانب الدلالة على الذات الإلهية، وجانب الدلالة على المعنى الاشتقاقي، فالرحمن تدل بالمطابقة على الله، وعلى الوصف بالرحمة، فإذا قلت الرحمن، دلَّت على الأمرين: على إثبات الذات الإلهية، وعلى إثبات الوصف الاشتقاقي من الاسم، فلكلٍّ اسم لله معنى يدل عليه، ابتداءً من الاسم الأعظم، أو الاسم العَلَم الذي هو الله، إلى بقية الأسماء الأخرى، فليس لله اسم جامد لا معنى له، بل كل اسم يدل على صفة، فالله يدل على الألوهية، الرحمن على الرحمة، والرحيم على الرحمة، والعزيز على العزة، وهكذا، فصفات الله عز وجل هي المعنى الذي يُؤخَذ من الأسماء، لكنها تأتي تبعًا لاسم الله، أو اسم الرحمن كما سبق.

---

(١) ولفظ كما رواه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣) من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فلما رجعوا؛ ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: (سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟)، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: (أخبروه أن الله يحبه).

والصفات أوسع دائرة من الأسماء، وهناك باب ثالث، وهو باب الإخبار، فالصفات: نحو إثبات الكلام لله، لكن لا تقول المتكلِّم، وفي الإخبار تقول: الله موجود، لكن لا تقول يا موجود، فباب الإخبار أوسع من باب الصفات، والصفات أوسع من باب الأسماء.

وثمرة هذا التوحيد أن تتعبَّد الله بأسمائه وصفاته؛ فإن الإنسان كلما عرف بعض صفات خالقه؛ زاد إيمانه وتعظيمه، وهذا أمر معروف محسوس في حياة البشر، أنه كلما عرف صفات بعض الأشياء؛ زاد عنده قيمتها، ولله المثل الأعلى، فكلما عرف اسمًا من أسماء الله أو صفةً من صفاته؛ زاد تعظيمه لله ﷻ، وعبوديته له، من خوف ورجاء وخشية وخشوع، أما في العصر الحاضر، فقد أصبح هذا التوحيد مَيْدانًا للجدل والمناقشات والمناظرات، مع أن الغرض منه أن تعرف الله، وأن تتقرب إليه ﷻ بأسمائه وصفاته، كما قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، فالمقصد من معرفتها الدعاء، الذي هو دعاء المسألة ودعاء العبادة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم وعلىٰ كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير رؤوف رحيم، علىٰ العرش استوىٰ وعلىٰ الملك احتوىٰ، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، إلىٰ غير ذلك من الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، وهذا أيضًا لا يكفي في حصول الإسلام بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية والإلهية.



وأما قول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ : **(وهو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم)**، هذا تعريف ببعض أسماء الله وصفاته **(وعلىٰ كل شيء قدير)**، وقد سبق قول الشارح، **(وأنه علىٰ ما يشاء قدير)**، ولكن العبارة الصحيحة: **(علىٰ كل شيء قدير)**، وإن كان لتلك العبارة وجه من الصحة.

قوله: **(وأنه الحي القيوم)**، الحي: اسم من أسماء الله، ويتضمَّن صفة، فالحياة الكاملة لله عَزَّ وَجَلَّ التي لم يسبقها عدم، ولا يلحقها عدم، أما حياة الإنسان فناقصة، سُبقت بالعدم، ويلحقها العدم بعد الحياة، والقيُّوم: معناه الذي يقوم علىٰ خلقه، بحفظهم ورعايتهم وكلاءتهم، وهذا القيام علىٰ الخَلْق بالحفظ والرعاية والرزق والإحياء والإماتة والإعزاز والإذلال، ليس إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، فهي من صفات الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: **(الذي لا تأخذه سنة ولا نوم)**، عرض القرآن لأسماء الله وصفاته عَرْضًا موجَبًا، ليس عَرْضًا سلبيًّا، يسلُك مَسلَك الإثبات لا النفي، ولا يأتي في القرآن وصف بالسلب إلا قليلًا، فكل الأسماء التي تأتي في القرآن إثبات، مثل:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمـران:٢]، ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١-٢]، بخلاف منهج المتكلِّمين، فإن المتكلِّمين في عقيدتهم يقولون: إن الله ليس عرضًا ولا جسمًا ولا جوهرًا، وليس كذا وليس كذا...، هذا كله ليس مدحًا، حتىٰ قال بعض العلماء: لو قال شخص للمَلِك أنت لست حدَّادًا ولا زبَّالًا ولا كنَّاسًا، إلىٰ غير ذلك؛ لعاقَبَه، لكن المدح يكون في إثبات صفات الكمال: الله العزيز القهار الجبار المتكبر، هذه كلها صفات كمال.

قوله: (له المشيئة النافذة)، إذا شاء الله أمرًا كان، كما يقول الناس: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

قوله: (وأنه سميع بصير)، فإذا عرفت أن الله سميع بصير، يراك في كل مكان، ويسمع صوتك وكلامك، ويرىٰ فعلك، فهنا تُحقِّق عبوديته، بأن تنزجِر عن المعاصي، وأن تقوم بالطاعات؛ لأن الله -سبحانه- لا يخفَىٰ عليه خافية.

قوله: (رؤوف رحيم)، فالله مع ذلك لا يُعاجِل الناس بالعقوبة، فإنه رؤوف بهم، يؤخر عقابهم؛ لعلهم يتوبون وينزجرون.

قوله: (علىٰ العرش استوىٰ)، ﷻ، فاستواء الله علىٰ العرش ليس كاستواء المخلوق، فهو استواء خالق علىٰ مخلوق، والعرش وما دونه في قبضة الله، والله هو الذي يمسك العرش ﷻ، أما الإنسان فإنه إذا استوىٰ علىٰ شيء يكون محتاجًا إليه، (وعلىٰ الملك احتوىٰ) وهذا تكملة لكلامه السابق.

قوله: (القدوس)، هو الذي يُمدَح بالفضائل والمحاسن، والقدُّوس كذلك هو الطاهر، قدَّسه تقديسًا، أي برَّأه أو طهَّره.

وقوله: (السلام)، أي: السالم من جميع العيوب، ولهذا في شعار المسلم

السلام مع إخوانه، فيقول السلام عليكم، لكن مع الكفار لا يقول السلام عليكم، بل يقول السلام علىٰ مَن اتَّبع الهدىٰ؛ لأنك لا تُسالم أعداء الله، وإنما تُسالم أولياء الله، أما الكافر فليس له إلا الجهاد، أو الجزية، أو الإسلام.

قوله: (**المؤمن**)، الذي أمَّنه الخلق من أن يظلمهم ﷻ.

(**المهيمن**)، الذي بيده الأمر كله، وليس لأحد من الخلق معه تصريف أو تدبير، (**العزيز**)، الذي لا يُغالَب.

(**الجبار**)، هو الذي يُصلِح، أو هو الذي يجبر الكسير، ويجبر الضعيف، ومنهم مَن قال: يجبِر الناس علىٰ الأعمال، لكن هذا قول خلاف الحقيقة.

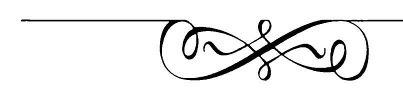
قوله: (**المتكبر**)، الله متكبِّر عن كل سوء، وعن كل نقص، وعن كل ما يُخِلُّ به ﷻ، (**سبحان الله عما يشركون، إلىٰ غير ذلك من الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ**)، هذا موجز كلام الشارح رحمه الله.

قوله: (**وهذا أيضًا لا يكفي في حصول الإسلام**)، أي: هذا التوحيد مَن أقرَّ به واعترف به، لا يصبح مسلمًا بمجرد ذلك؛ لأن التوحيد الأول والتوحيد الثاني كلاهما يندرج تحت توحيد المعرفة والإثبات، فمعرفة الله وإثباته لا يكفيان للإنسان أن يكون مسلمًا، فلابد من شيء آخر، فيقول: (**لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبيه والإلهية**)، كلمة (لازم) من اللزوم، وهو نوع من أنواع دلالات الألفاظ، فإن اللفظ يدل علىٰ المعنىٰ: إما بالمطابقة، وإما بالتضمُّن، وإما باللزوم، فالمطابقة والتضمن من داخل اللفظ، لكن اللزوم من خارجه، فمثلًا: لو قلنا الرحمن، فهو يدل علىٰ قضيتين: علىٰ إثبات الله، أي الإشارة إلىٰ الذات الإلهية، وعلىٰ الصفة التي هي الرحمة، لو قلت: الله السميع العليم، فالسميع العليم: تدل علىٰ السمع والعلم بالمطابقة، وعلىٰ

الله كذلك، وتدل على الحياة باللزوم، لكن ليست الحياة جزءًا من المعنى، لكنه ما دام يسمع ويبصر ﷻ لابد أن يكون حيًّا، وهكذا في كلام الناس، لو قلت: فلان يسمع، عرف السامع أن فلانًا حي، لكنه ليس من نفس اللفظ، إنما باللزوم، هذا يسمَّى دلالة لزوم.

والدلالات ثلاثة أنواع: إما دلالة **عقلية**، أو دلالة **طبيعية**، أو دلالة **لفظية**، وكلامنا في الدلالة اللفظية، أما العقلية فهي كما لو مرَّ إنسان من طريق، فوجد أثر سيارة أمامه، فعرف بعقله أن سيارة مرَّت من هنا، والدلالة الطبيعية: فكما لو أن إنسانًا وُجِدَت عنده حرارة مرتفعة، تقول: هذا الإنسان مريض، فهذه طبيعة ليس لها علة معروفة، وإن كان الأطباء يقولون: مَن عنده حرارة مرتفعة فهو مريض، فهم يشرحون أو يبيِّنون النتائج لا الأسباب.

يقول الشارح رحمه الله : إن توحيد الأسماء والصفات يلزم منه توحيد الربوبية والعبادة، وهذا صحيح، أي لا يكون شخص موحِّدًا أو معترفًا بتوحيد الأسماء والصفات إلا إذا أعطاها حقها، فحق الأسماء أن تعبُد الله، وأن تُعظِّم الله، وأن تُطيع الله ﷻ، وإلا لم تكن موحِّدًا كما ينبغي.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والكفار يقرون بجنس هذا النوع، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك إما جهلاً وإما عناداً، كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد:٣٠].

قال الحافظ ابن كثير: والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن، قال الشاعر: وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق. وقال الآخر: ألا قضب الرحمن ربي يمينها. وهما جاهليان.

وقال زهير: =

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم



الشَّرح

قول الحافظ ابن كثير: (**والظاهر أن إنكارهم هذا...**)، ثم ذكر بيتين لشاعرين من الشعراء الجاهليين، لم أقف على اسم هذين الشاعرين[1]، فيكون هذا شاهدًا لا يُعرف صاحبه.

قوله: (**قال الشاعر: وما يشأ الرحمن يُعقَد ويُطلَق**)، أي إذا شاء الله شيئًا يُعقَد -أي يكون-، وإذا شاء أن يُطلَق -أي لا يكون- فإنه كذلك، فلا يقع إلا بمشيئة الله، الوجودُ والعدمُ.

---

(١) والبيت الأول: "وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق"، للشاعر الجاهلي سلامة بن جندل، فإنه موجود في ديوانه، وصدره: "عجلتم علينا حجتين عليكم"، وأما البيت الثاني فلم أقف على قائله.

قوله: (**وقال الآخر: ألا قضب**)، أي قطع (**الرحمن ربي يمينها**)[١]، هذا دعاء على امرأة، إما امرأته وإما غيرها، وهما جاهليان.

وقول زهير:

(فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم)

فهذا يتضمن الاعتراف باليوم الآخر، والله أعلم بتحقق ذلك عنده.

---

(١) وصدر البيت: "ألا ضربت تلك الفتاة هجينها؛ ألا قضب...".

قال المؤلف رحمه الله:

قلت: ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة، ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ﷺ ذلك، كما ردوا عليه توحيد الإلهية فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:٥]، لا سيما السور المكية مملوءة بهذا التوحيد.



قوله: (**قلت: ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة**)، أي: في أسماء الله وصفاته.

لكننا نقول: حتمًا إن قريشًا لم تكن تعرف الله المعرفة الصحيحة، لا تعرف أسماء الله، ولا تعرف تعظيم الله، ولا تعرف تقدير الله ﷻ، فإنها تعرف الله معرفة إجمالية، **لكن لِمَ لمْ يبدأ الرسول بهذا التوحيد؟** بدأ بتوحيد العبادة، وقريش حتمًا لم تكن تعرف الله كما ينبغي، ولم تعرف أسماءه ولا صفاته؛ لأن البداية في الاستسلام والقبول، يأتي بعدها التصحيح، فكيف يصحح لأُناس لم يستسلموا لله، ولم ينقادوا له؟ فأولًا: جاءت الأنبياء لدعوة الناس إلى توحيد العبادة، تقول لهم: ادخلوا في دين الله، اعبدوا الله، وأطيعوه، واخضعوا له، وتُبيِّن لهم أن الذل لله، والخشوع والخشية لله، ثم يأتي بعد ذلك التصحيح، وإلا فقريش لم تكن تعرف الله المعرفة الصحيحة، هي تعرف أن الله الخالق الرازق المحيي المميت، لكن أن الله الرحمن الرحيم العزيز الغفور الرؤوف، على العرش استوى، كل هذا لا تعرفه، ولم يبدأ الرسول معهم بهذا التوحيد، إنما بدأ معهم بتوحيد العبادة.

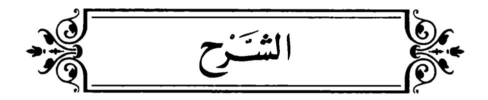
وهذا يعني أننا لا ينبغي أن نتوسع في دلالة هذا التوحيد، وننسى التوحيد الأساسي الذي هو توحيد العبادة، فهذا الكتاب يتحدث عن أسس توحيد العبادة، فالناس في حاجة إلى توحيد العبادة، وما وقع الخلاف بين الرسل

والأمم إلا في هذا التوحيد، أما التوحيد الثاني فيأتي التصحيح تبعًا، ولا شك أنه إذا حدث انحراف في هذا التوحيد فلا بد أن يُصحَّح، لكن لا ينبغي أن يكون هو محور الحديث، محور اللقاءات، محور الندوات، محور المحاضرات، لا.. هذا يصحَّح بعد الاستسلام لله، بعد القَبول، بعد الانقياد، ولهذا الرسول لم يبدأ بهذا التوحيد، إنما بدأ بقوله: اعبدوا الله، قولوا لا إله إلا الله، أي لا معبود إلا الله، فهذه هي بداية التصحيح، وفي جميع الأديان السماوية أكثر ما يقع الانحراف في توحيد العبادة، فالناس لو استسلموا لله وخضعوا له وانقادوا له؛ فإنه بعد ذلك يأتي تصحيح توحيد الأسماء والصفات، أما أن تصحِّح لأُناس أصلًا لم ينقادوا لله؛ فأنت تتحدث في وادٍ، والناس في وادٍ، لكن إذا وجدت مَن انحرف عن هذا التوحيد، فلا بأس بالتصحيح، لكن لا ينبغي أن يكون هو محور اللقاءات، ومحور الحديث؛ لأن هذا جانب نظري، فيه أشياء قد لا يستطيع العقل أن يتصورها تمامًا، فيُطلب منه الإيمان الإجمالي، أما التفصيلي فيكون فقط لطلاب العلم، أو الذين لديهم قدرة على التلقِّي، أما الناس يُقبَل منهم التوحيد الإجمالي، فالدخول في التفصيلات ربما بعض الناس -لقلة علمه- لا يتحمل.

فينبغي أن نركز على توحيد العبادة، وأن نبتعد عن الشرك، فالخضوع لله، والخشوع لله، والذل لله، والخوف من الله، والحب في الله، والبغض يكون في الله، والنذر، والذبح، والتشريع، كل حياة الإنسان، كل حركة في الإنسان، ينبغي أن تكون وِفْق تشريع الله ﷻ، وِفْق أمر الله ونهيه، هذه تأتي بالتدرُّج، كما فعل الأنبياء، فإن الأنبياء كانوا يصحِّحون هذه بالتدرُّج، لم يبدؤوها في دعواتهم، فالبداية كانت بتوحيد العبادة، ولهذا قالت قريش: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص:٥]، أنكروا هذا التوحيد، وهذا التوحيد هو الأساس، هو القاعدة التي يقوم عليها الإسلام، فينبغي أن نحرص على بيان هذا التوحيد.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

النوع الثالث: توحيد الإلهية، المبني على إخلاص التأله لله تعالى من المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والدعاء لله وحده، وينبني على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له، ولا يجعل فيها شيئًا لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما.



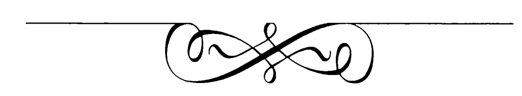
الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ بدأ يشرح معنى توحيد الإلهية أو الألوهية، وكلاهما جائز من حيث اللغة، وسبق بيان أن مَن قسم التوحيد قسمين، فبحسب تعلُّقه بالعبد، وهو توحيد المعرفة أي معرفة العبد، وتوحيد القصد أي قصد العبد، وهو توحيد العبادة، أما إذا قُسِم بحسب تعلُّقه بالله عَزَّ وَجَلَّ، فيُشتق له من اسم الله صفةٌ، فيقال توحيد الربوبية، فهذا نسبةً إلى الرب، وتوحيد الأسماء والصفات، أي أسماء الله وصفاته، وتوحيد الألوهية أو الإلهية أي مشتق من إله. فالشارح رَحِمَهُ اللَّهُ ارتضى أن يسلك في عرض التوحيد الأقسام الثلاثة.

توحيد الإلهية يقوم على إخلاص التألُّه لله عَزَّ وَجَلَّ، فإن الإخلاص هو مراقبة الله في العمل، وألا يكون في القلب أثناء العمل إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا صلَّى، صلَّى لله، وإذا صام، صام لله، وإذا تصدق، تصدق لله، وإذا علَّم، علَّم لله، فليس في قلبه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، هذا هو الإخلاص، فإذا وقع من الإنسان بعض النقص في هذه المعاني؛ نقص من توحيده بحسبها، فهنا لابد أن يُخلِص التألُّه، والتألُّه هو التعبُّد -كما سبق في شرح اسم الله عَزَّ وَجَلَّ-.

ومن أنواع التألُّه قال: (المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة،

والرهبة، والدعاء لله وحده)، وستأتي إن شاء الله، ثم قال: (وينبني على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده)، فإن العبادات منها ما هو ظاهر، كالصلاة والصيام والحج، ومنها ما هو أصل في القلوب، كالحب والبغض والتوكل والاستعانة والاستغاثة، هذه من أعمال القلوب، وتسمَّىٰ عبادات باطنة، أي لا يطَّلع عليها إلا الله ﷻ، وإن كان الظاهر هو ترجُمانها ودليلها، فما في القلب يدل عليه حركة الإنسان، فيستحيل أن يكون الإنسان مُتقيًّا لله، ثم يقع في المحظورات، ويستحيل أن يكون القلب ليس فيه إيمان، ويكف عن المعاصي، فالتقوىٰ الظاهرية في السلوك مصدرها القلب، فإذا صلح القلب؛ صلحت الجوارح.

هذا التوحيد لا يجوز أن يُصرف منه شيء لغير الله، حتىٰ لأفضل المخلوقات، فإن أفضل المخلوقات الملائكة والأنبياء، فإذا كان الملائكة والأنبياء لا يستحقون شيئًا من هذا التوحيد، فما عَدَاهم من المخلوقات من باب الأَوْلىٰ، فلا لمَلِك مقرَّب، ولا لنبي مُرسَل، لا يستحق أحد أن يُعبَد، ولا أن يُعظَّم، ولا أن يُخشَع له، ولا أن يُخاف منه، ولا أن يُحَب، وأن يُستعان به، لا يستحق أحد هذا الأمر، إلا الله ﷻ، فهذا معنىٰ النفي في قول الشارح رحمه الله: (لا يجعل فيها شيئًا لغيره -أي لغير الله- لا لملك مقرَّب، ولا لنبي مرسَل، فضلًا عن غيرهما)، هذا هو معنىٰ الإخلاص لله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود:٨٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨](١)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٩](٢)، وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، وهو معنىٰ قول لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة؛ ولأجل هذا التوحيد، خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلىٰ مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار.



الشرح

الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ وُفِّق في عرض الآيات، فقد قدَّم آية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، اقتداءً بالقرآن الكريم، فإن القرآن افتُتِح بسورة

---

(١) سورة الفرقان: (٥٨).

(٢) سورة الحجر: (٩٩).

الفاتحة، التي شُرعت في الصلوات، تُقرأ في كل ركعة، أي قرابة ثلاثين مرة ما بين نافلة وفريضة، نركعها في اليوم والليلة، تُقرأ في كل ركعة، وقد قدَّمها الله ﷻ في القرآن، مع أنها من قصار السور، ثم تلتها سورة البقرة وآل عمران والنساء، إلىٰ آخر السور الطوال.

فكأن سورة الفاتحة -والله أعلم- اشتملت علىٰ الدين كله، فجاء القرآن شارحًا لها، ولهذا تُقرأ في كل ركعة، ويجوز أن تقرأ بعدها بأي سورة، وهي تُغني عن غيرها، ولا يُغني غيرها عنها؛ ولهذا يحسُن لكل مسلم أن يعرف المعنىٰ الإجمالي لهذه السورة؛ لأنه يقرأها في كل ركعة، ولابد من حكمة في تشريعها في كل ركعة، ولكن لطول الإِلْف للمسلم أن يقرأها؛ ربما يخفَىٰ ما فيها من المعاني العظيمة والمقاصد الجليلة، علىٰ مَن لم يهتم بالبحث عنها.

وقد قال الرازي لبعض تلاميذه: إن فيها أكثر من عشرة آلاف مسألة، وهذا استنباط العلماء، ولهذا رأينا ابن القيم رحمه الله يشرح كتاب الهروي الذي عنوانه: (منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين)، فذكر الهروي مائة درجة للعبادة يتدرج العابد فيها، فشرحها ابن القيم في ثلاثة مجلدات.

فهذه السورة يحسن أن نستعرض بعض معانيها:

أولًا: هي أعظم سورة في كتاب الله، فقد جاء في الحديث عن أبي سعيد بن المُعلىٰ قال: **"بينا أنا في المسجد، إذا أخذ النبي بيدي فقال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، فذهب النبي ليخرج من المسجد، فذكَّرتُهُ، فقال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته)**[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **"بينما جبريل قاعد عند النبي، سمع**

(١) سبق تخريجه.

نقيضًا من فوقه -أي صوتًا من السماء-، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فُتِح اليوم، لمْ يُفتَح قط إلا اليوم، فنزل منه مَلَكٌ، فقال: هذا ملك نزل إلىٰ الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلَّم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما، إلا أعطيته)[1]، وفضلها كثير وردَ فيه أحاديث كثيرة.

وأما الفاتحة فهي سورة عظيمة، سورة مؤسِّسة وحافظة، مؤسِّسة للعقيدة، وحافظة من الانحراف في العقيدة أو الدين جميعًا، افتُتِحَت السورة بقوله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، ولم يقل أحمد الله، الألف واللام للاستغراق، فالله يقول: أيها الإنسان الحمد كله لله، سواء حمدته أو لم تحمده، فأنت إنما تذكر أن الحمد لله.

وهذا لأن العرب كانت تفتتح مجالسها وأنديتها بالثناء علىٰ الكُبراء والعظماء، فأراد ﷻ أن يصرف هذه العادة، وأن يُفتتَح الذِكْر واللقاءات وكتاب الله وكلامه، بأن الحمد والثناء كله لله، لا يستحقه أحد غيره ﷻ إلا تبعًا، ولهذا شُرِّع لنا في كل موطن أن نحمد الله، بعد الطعام نحمد الله، في الصباح نحمد الله، في المساء نحمد الله، فالحمد كله لله ﷻ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢] وهذان اسمان عظيمان، الأول اسم الألوهية، والثاني اسم الربوبية، فيثبتان توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية لله ﷻ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ الرب في اللغة: المُصلِح والسيِّد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث علىٰ قراءة الآيتين من آخر البقرة، برقم: (٨٠٦)، (١/ ٥٥٤).

والمالِك، والمـُصلح للكون كله، فلا يصلحه إلا الله ﷻ، فهو الذي يرعىٰ الإنسان، فيرزقه ويحفظه، وجميع المخلوقات في حفظ الله ورعايته ﷻ، والعالَمون: جمع، ولم تكن العرب تعرف أن هناك عوالم إلا عالَمًا واحدًا، لكن لمَّا جاء الجمع، عرفوا أن لله عوالم أخرىٰ، منها ما نعرفه، ومنها ما لا نعرفه، فالحمد لله رب العالمين.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ وقد سبق تفسير هذين الوصفين، وأنهما يدلان علىٰ رحمة الله ﷻ.

ثم قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ وهذا بيان الجزاء، الدين هنا بمعنىٰ الجزاء والحساب، فيُذكِّر -تعالىٰ- في كل ركعة باليوم الآخر، فالله مالِكه، إذا رأىٰ بعض الناس مَن يملك في الدنيا من البشر، يظنه يملك في الآخرة، فقد يصرف له بعض حركته، فيقول الله: الآخرة ملك لله، وهذا الابتداء بهذه الأوصاف، يعلمنا الأدب في الدعاء، فإن هذا كله تعظيم لله ﷻ، فنبدأ دعاءنا بتعظيمه ﷻ.

ثم جاء: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وقد تضمَّنت الفعلين: فعل العبد وفعل الرب، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فعل العبد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فعل الرب؛ لأن العون من الله ﷻ، وتقديم فعل العبد علىٰ فعل الرب؛ لأن العبد يبدأ بالحركة والعمل، ثم يستعين، لا تبدأ عملك بالاستعانة مع الكسل، تحرك، ثم اطلب العون من الله ﷻ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والعبادة: اسم جامع لكل حركة الإنسان، كما جاء عن ابن تيمية رحمه الله يقول: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كل حركة في الإنسان تسمَّىٰ عبادة، فإما أن يعبد الله بها، وإما أن يعبد غيره ﷻ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

فالمسلم لا يعلِّق قلبه إلا بالله، وجميع الآيات التي ستأتي تقرر معنىٰ العبادة والاستعانة، والتوكُّل، والإنابة، فالإنابة والعبادة والطاعة كلها لله ﷻ، والعون يُطلب من الله ﷻ.

ثم قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ أول دعاء في كتاب الله طلب الهداية، ولهذا المسلم يقدِّر معنىٰ الهداية؛ فإن الهداية أمرها عظيم، إذا هُدِيَ، وفِّقَ لكل خير، وصفه الله ﷻ بأنه ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فقلبك معلَّق بفئة مُختارة، بفئة متميزة، هم الذين أنعم الله عليهم، ففي كل ركعة تقول: يا رب اهدني صراط الذين أنعمت عليهم.

والذين أنعم الله عليهم أربعة أنواع: الأنبياء، والصدِّيقون، والشهداء، والصالحون، فلا يليق بك أن تقول يا رب اهدني طريقهم، وأنت لا تعرفهم، ولا تعرف صفاتهم، ولا أخلاقهم، ولا سلوكهم، فلابد أن تعرف مَن هم الذين هداهم الله؟ ما سلوكهم وأخلاقهم؟ ولابد أن يكون سلوكك وأخلاقك بحسب سلوك وأخلاق الذين أنعم الله عليهم، حتىٰ في تسمية أولادك وبناتك، هم قدوتك.

ثم تقول: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ ﴾ وهذه حماية، وفيه إعجاز عجيب، كأن الله يخبرنا أن اليهود والنصارىٰ فتنة للمسلمين إلىٰ قيام الساعة، فلابد في كل ركعة أن تتعوَّذ من طريقهم، وقدَّم الله اليهود؛ لأنهم هم القيادات في الشر لكل عصر، ثم يأتي النصارىٰ تبعًا لهم، وهذا ما يُشاهد في جميع الأجيال البشرية، وفي الأحقاب التاريخية، أن اليهود هم الذين يتسبَّبون في الفساد في كل عصر، فأنت في كل ركعة تقول: يا رب أبعدني عن طريق المغضوب عليهم، وعن طريق الضالين، وهذا حماية للمجتمع، فلا يقلِّدهم المسلم في أخلاقهم، ولا في سلوكهم، ولا في تشريعهم، ولا في شيء من حياتهم، فإنه مُطالَب أن يتميَّز

عنهم، وأن يكون متميِّزًا في أخلاقه، وسلوكه، وبيته، ومجتمعه، فلا يليق به في كل ركعة أن يقول يا رب اهدني طريق الذين أنعمت عليهم، وابعدني عن طريق المغضوب عليهم والضالين، ثم إذا خرج من بيت الله، إذا هو يسلُك طريقهم، ويسلُك أخلاقهم، ويسلُك معاملاتهم، فهو إذًا ليس صادقًا في هذه الدعوة.

والمسلم مُطالَب أن يحذر، ويسأل الله أن يبعده عن طريق المغضوب عليهم والضالين، لو أدرك المسلمون هذا المعنىٰ، ما وقع في حياتهم متابعة المشركين، أو متابعة الكفار من اليهود والنصارىٰ، ولم يذكر الله المشركين هنا؛ لأن الشرك أمره مكشوف، ولكن فتنة أصحاب الكتاب فتنة للأمة الإسلامية إلىٰ قيام الساعة، حتىٰ إنه جاء في الحديث: **"لو دخلوا جحر ضَبٍّ تبعتموهم"**[1]، فهذه السورة تؤسِّس وتحمي، فإذا فُهمَت هذه السورة بمعانيها التي هي أوسع مما تقدَّم، فإنها بإذن الله تحمي المجتمع، وتُؤَصِّل في نفسه العقيدة، وتبيِّن في حياته حق الله عليه، مع ما يلتزمه في كل ركعة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وتقديم الضمير هنا للحصر أي لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك يا الله، فهذه الآية الكريمة جاء بعدها آيات أخرىٰ تؤكِّد معناها وتبينه.

ثم ذكر الشارح رحمه الله قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] نفس معنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، عملك قدِّمه، ثم توكل علىٰ الله عز وجل، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود:١٢٣]، ثم

---

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي "لتتبعن سنن من كان قبلكم"، برقم: (٧٣٢٠). وصحيح مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارىٰ، برقم: (٢٦٦٩)، (٤/ ٢٠٥٤).

لابد أن تشعر وتستشعر الرقابة التي هي معنى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة:٤]، فالله ليس غافلًا، يرى ويسمع، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، فإذا استشعر المسلم قرب الله ورقابته له؛ فإنه يبتعد عما حرَّم سبحانه وتعالى.

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، فهو نفس المعنى السابق ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:١٢٩] قدَّم التوكُّل؛ لأن الموطن يستدعيه، فإنه في موطن مُفارَقة، وموطن ابتعاد عن الشرك الذي وقعوا فيه، فابتدأ قوله يكفيني الله عز وجل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [التوبة:١٢٩] أي لا معبود إلا هو سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]، ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [مريم:٦٥] يدل على أن الله سبحانه وتعالى على عرشه، فإذا كان هو رب السماوات ورب الأرض وما بينهما، فليس في داخل الكون، بل هو على عرشه، لا كما يقول أصحاب الوحدة وأصحاب الاتحاد.

ثم قال حكاية عن شعيب: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود:٨٨]، قدَّم التوكُّل أيضًا؛ لأنه في موطن مفارقة لقومه الذين كذَّبوه، ولم يتَّبعوه.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، لم يذكر اسم الله هنا؛ حتى يثير في القلب المعنى الذي من أجله يتوكل على الله، إن توكلت على مخلوق، فإنه يموت، تلتفت يمينًا وشمالًا فلا ترى إلا أمواتًا، منهم مَن مات، ومنهم مَن هو في طريق الموت، فكيف تعتمد وتضع حاجتك وتنزِلها بمَن يموت؟ انزِلها بالذي لا يموت، هو الله عز وجل، فهنا ذَكَر الوصف الذي من أجله تعتمد على الله، وتتوكل عليه.

ثم قال: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر:٩٩]، واليقين في القرآن يأتي لمعانٍ، فالمعنىٰ هنا: حتىٰ يأتيك الموت؛ لأن اليقين هو أحد درجات العلم، بل أعلىٰ درجات العلم، والموت هو غاية في الصحة والوقوع، والصحيح هو ما طابق الواقع والحقيقة، والموت هو أصدق الحوادث في حياتنا، فإنه يقين عند كل الناس.

والمعرفة علىٰ خمس درجات:

الدرجة الأولىٰ: الوَهْم، وهو ما كان أحد جانبين من الحكم مرجوحًا من مقابله، فيسمَّىٰ تصوُّر ذلك الجانب المرجوح وهمًا، بأن يكون الجانب المتصوَّر دون الخمسين في المائة.

الدرجة الثانية: الشك، وهو منتصف العلم، أي يشك الإنسان في أمرين، فيستوي النفي والإثبات، بأن لا يكون أحدهما راجحًا علىٰ الآخر.

الدرجة الثالثة: الظن، وهو أعلىٰ من الشك، أن يكون الجانب المتصوَّر راجحًا علىٰ ضده.

الدرجة الرابعة: علم اليقين.

الدرجة الخامسة: عين اليقين: هو قمة العلم الذي ليس بعده علم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ١-٧]، فعين اليقين في العلم أقوىٰ من علم اليقين.

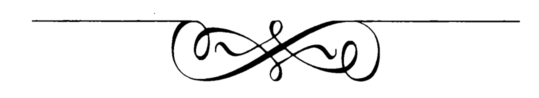
فبعض الصوفية جعلوا هذه الآية: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر:٩٩] دليلًا علىٰ سقوط التكليف عن أوليائهم، وعن الأقطاب والأبدال والأغواث، كما يسمُّونهم؛ لأنهم قالوا: إن الله يقول: اعبد الله حتىٰ تصل إلىٰ

المعرفة، فإذا وصلت إلىٰ المعرفة، سقط عنك التكليف، ولهذا يوجد منهم أشخاص كثيرون لا يصلُّون؛ لأنهم يزعمون أنهم وصلوا النهاية، فنحن نقول لهم: هل وصل نبينا هذه الدرجة؟ فإن قالوا: نعم، فنقول: فقد عبد الله حتىٰ مات، وإن قالوا: لا، جعلوا أولياءهم أفضل من نبينا.

ثم نأتي إلىٰ كتاب الله فنجد فيه أن اليقين جاء علىٰ عدة معانٍ، أشهرها معنيان: العلم والموت، فهنا في هذه الآية نقول: إن المعنىٰ فيها الموت، فلو كان اليقين هنا هو العلم، فالكفار وصلوا هذه الدرجة، وقد دخلوا جهنم؛ لأن الله قال عن الكفار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤)﴾ [المدثر: ٤٢-٤٤]، ذكر الله ﷻ الحقَّين: حقه وحق البشر، فالتفريط في حق الله والتفريط في حق البشر من أسباب دخول النار، فإنهم لا يعرفون أسماء الذين دخلوا الجنة، وإنما رأوا أن مَن كان يصلي، وعليه علامات الصلاة، دخل الجنة، فقالوا: نحن لم نكن من هذه الفئة التي نرىٰ عليها آثار الصلاة وقامت بحق الله، ولم نكن من هذه الفئة التي قامت بحق العباد، فكلاهما دخل الجنة، ثم قالوا: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥)﴾ [المدثر:٤٥]، الكلام الذي ليس فيه ضوابط، والأعمال التي ليس لها ضوابط، خَوْضٌ يستحق صاحبه العقاب، ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)﴾ [المدثر: ٤٦-٤٧]، فلو كان اليقين درجة علمية عالية، لكان أهل النار قد وصلوا هذه الدرجة، وكان مَن وصل هذه الدرجة دخل النار، فاليقين في الآية ليس معناه العلم، إنما معناه الموت الذي هو نهاية كل حي، فالكفار يقولون: كنا علىٰ هذه الصفات حتىٰ جاءنا الموت، فاليقين في قوله تعالىٰ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ [الحجر:٩٩] هو الموت، أي لازم طاعة الله وعبادة الله حتىٰ تخرج من الدنيا.

وهكذا كان نبينا مُديمًا للعبادة والطاعة حتىٰ خرج من هذه الدنيا، فالله يقول: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ ﴾ وهذا أمر له، ولنا أن نستمر ونلازم طاعة الله، حتىٰ نخرج من الدنيا، فالآيات جميعها تقرر توحيد العبادة، الذي هو معنىٰ إياك نعبد وإياك نستعين.

قوله: (**هذا التوحيد هو أول الدين وآخره**)؛ لأن الإنسان أول ما يُؤمَر به من الدين أن يقول لا إله إلا الله، وهو توحيد العبادة، ثم إذا كان قوله في آخر حياته لا إله إلا الله دخل الجنة، فقد جاء الحديث، قوله: (**"لقنوا موتاكم لا إله إلا الله"**[1]، وذكر: **"فإن مَن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)**[2]، فالتوحيد هو أول الدين وآخره، أول ما يُؤمَر به العبد، وآخر ما يُخرَج به من الدنيا، فإن كان هو آخر ما خرج به من الدنيا؛ دخل الجنة، وإذا لم يكن آخر حياته؛ فإنه مُعرَّض لعقاب الله سبحانه وتعالى.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب تلقين الموتىٰ لاإله إلا الله، برقم (٩١٦)، (٢/ ٦٣١).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب في التلقين، برقم: (٣١١٦)، وأحمد في مسنده، بلفظ "وجبت له الجنة"، برقم: (٢٢٠٣٤)، (٣٦/ ٣٦٣)، والحاكم في المستدرك، كتاب الجنائز، برقم: (١٣٠٠)، (١/ ٤٩٧)، وصححه، وسكت عليه الذهبي في التخليص.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]، فهذا أول أمر في القرآن . وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي﴾ [الأعراف:٥٩]، فهذه دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك، وقال هود لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٦٥]، وقال صالح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٧٣]، وقال شعيب لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٨٥]، وقال ابراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف:٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

الشرح

هنا ذكر الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]، وهذا أول أمر في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، الربوبية ليس فيها خلاف، إنما الخلاف في العبادة، أمرهم أن يعبدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]، "لعل" في اللغة العربية معناها الترجّي، أي الشخص يرجو أن يقع ما يذكره بعدها، وهو

التقوىٰ هنا، فإذا كانت (لعل) في فعل الله، فإنها واجبة الوقوع، فإذا ذكر -ﷻ- لعل في أفعاله، فإنه لابد أن يقع ما ذكره -سبحانه-، هذا كما قال سيبويه ؒ: لعل في حق الله واجبة الوقوع، فعبادته -سبحانه- تحقِّق التقوىٰ.

أوْرد الشارح ؒ هذه الآية، وما بعدها من الآيات، عن الأنبياء؛ لتدل علىٰ أنهم دعوا إلىٰ توحيد العبادة، فذكر عن نوح، أنه قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، وعن هود، قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥]، وعن شعيب، قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف:٨٥]، وعن صالح، قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف:٧٣].

وكذلك إبراهيم، عندما حاجَّ قومه، ففي أوائل هذه القصة، ذكر موقف إبراهيم مع قومه، وهو موقف المناظرة، لا موقف النظر، ففرَّق بين المناظرة والنظر، أي أنه لم يكن في موطن يبحث عن الله، إنما كان يناظر قومه، فهو أراد أن يتدرَّج في أخذهم إلىٰ التوحيد، فبدأ بذكر الكوكب، ثم القمر، ثم الشمس، ثم أخيرًا قال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي﴾ [الأنعام:٧٩]، ولم يحدد اسم الله، إنما قال: أنا وجهت وجهي إلىٰ الذي خلق هذا الكون وربه، فلابد أن نعرف من هو الذي خلق الكون؟ ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩]، أي لست منكم، وهذا فراق بيني وبينكم، فجميع الأنبياء افتتحوا دعواتهم بالدعوة إلىٰ عبادة الله ﷻ.

ثم ذكر الآيات في هذا المعنىٰ، وفيها أنه لم يرسل الله رسولًا إلا ودعا قومه إلىٰ عبادة الله، وهذا تحقيق قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]، اللام في "لِيَعۡبُدُونِ" اضطرب فيها المفسرون

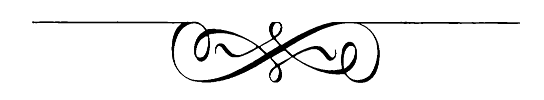
اضطرابًا كثيرًا، ولهذا جميع مفسري المتكلِّمين قد أخطؤوا في معرفة اللام، واللام تأتي لمعنيين: المعنىٰ الأول للتعليل، فالله يقول: خلقتكم للعبادة، هنا فعلان: فعل الله، وفعل الناس، فالله يقول أنا خلقتكم، وهذا فعل الله، (ليعبدون)، أي لتفعلوا أنتم الفعل الثاني، ولكن الناس قد يعبدون، وقد لا يعبدون، وليس حتمًا أن يعبدوني، فهذه اللام لام التعليل، لام كي، أي كي يفعلوا كذا.

لكن جميع علماء التفسير من المتكلِّمين يقولون: اللام هنا لام العاقبة، بمعنىٰ أنه لابد أن تقع العبادة، لكن كيف تقع؟ ونحن نرىٰ كثيرًا من الناس لا يعبدون الله؟ قالوا: لابد أن نُؤَوِّل، إما أن نقول: وما خلقت السعداء إلا ليعبدوني، أو ما خلقت المؤمنين إلا ليعبدوني، أو أن تكون العبادة بمعنىٰ المعرفة، أو بمعنىٰ الخضوع، وجميع مَن في الكون خاضع لله، وهذا خطأ منهم، وعدم تمييز بين اللامين، هذه اللام واللام في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، اللام في هذه الآية لام العاقبة، أي لابد أن يكون موسىٰ عدوًّا لهم وحَزَنًا، لكن لام التعليل يقولها الإنسان في أفعال كثيرة، وقد لا يتحقق ما يقول، كما لو قال إنسان: بنيت الدار لأسكنها، وقد لا يسكنها، خِطْتُّ الثوب للَبْسِهِ، وقد لا يلبسه. فاللام في "ليعبدون" لام التعليل، وهذا التفريق من علماء أهل السُّنَّة والجماعة بين اللامين، حلَّ الإشكالات الكثيرة التي وقع فيها المتكلِّمون، من الاختلافات في معنىٰ العبادة المقصود بالخَلْق، وهذا كله لعدم التمييز بين معاني الكلمات والحروف في كتاب الله ﷻ.

وأوْرد المؤلف رحمه الله آيةً تحتاج إلىٰ بيان، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف:٤٥]،

المفسِّرون وقفوا أمام هذه الآية، كيف يسأل مَن أرسله الله قبله، وهم ليسوا أحياءً؟! فاختلفوا، منهم مَن قال: أراد ﷻ منه أن يسألهم عندما عَرَجَ به إلىٰ السماء، فإنه قابَلَ الأنبياء، هذا معنًىٰ، **والمعنىٰ الثاني**: اسأَلْ أتباعَ الأنبياء، **والمعنىٰ الثالث**: قُدِّرَ فيه محذوفٌ، وهو: واسأَلْنَا عمَّن أرسلْنَا قبلك، يعني اسألْ اللهَ، وهذه المعاني الثلاثة ذكَرَها المفسِّرون، ولكن هناك معنًىٰ رابع، وهو أنه لم يُرِد الله ﷻ من نبيه أن يسأل؛ لأن الرسول لا يشُكُّ، وإنما هذا من باب تقرير الحقيقة، مثاله: لو جاء طالب إلىٰ مدير المدرسة، وأراد أن يُعفَىٰ من الغياب، فقال المدير: اسألْ جميع الطلاب هل أحد منهم أعفَيْنَاه من الغياب؟ هذا الكلام يجعل الطالب يتأكد من صحة الكلام، ولن يسأل، هذا مثال فيما يتعلق بالبشر، ولله المثلُ الأعلىٰ، ونبينا ﷺ كان في قمة اليقين، فلَمْ يسأل، لكن هذا من باب تقرير الحقيقة، وإلا فلو أراد رسول الله أن يسأل، لأحيَىٰ اللهُ له الأنبياء؛ ليسألَهم، لكن الرسول لَمْ يقع في خُلْدِهِ، ولا في ذهنِهِ، أن يسأل؛ ليقينِهِ التام بأن الحقيقة هي ما قرَّرَهُ القرآن الكريم، فهذه هي معاني الآية عند المفسِّرين.

والشارح رَحِمَهُ اللهُ يُورِد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، في كل مسألة، وهذا هو منهج العلماء، وهو تقرير المسائل بأدلتها، وكأنه ذَكَر: عندنا دليل تقرير توحيد العبادة، هل هذا التوحيد حدث فيه خلاف؟ وهل جاء الأنبياء بغير هذا التوحيد؟ فذكرَ الآيات، ثم ذكرَ الأحاديث.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ: ما يقول لكم ؟ قال: يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم.

وقال النبي ﷺ لمعاذ: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» وفي رواية: «أن يوحدوا الله».

وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك في الله، كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسوله ﷺ من معاني الكتاب والحكمة.



الشَّرح

حديث هرقل حديث جميل وعظيم، وقد أوْرده البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوائل صحيحِهِ[1]، وقد سأل هرقل أبا سفيان أحدَ عشرَ سؤالًا، فذكر البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن أبي سفيان، أنه قال: كنتُ في الشام في رَكْبٍ من قريش، فجاء رسول هرقل، فأخذَنَا إليه، ثم أدخلنا عليه، وحولَهُ عظماءُ الروم، فقال لتُرجُمانه: اسألْهم أيُّكُم أقربُ نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلتُ أنا، قال: ادْنُ مني، ثم اجعلْ أصحابَه وراء ظهره، ثم قلْ لهم إني سائِلُه، فإن صدقَ فصدِّقُوه، وإن كذبَ فكذِّبُوه -يعني جاءَ به في المقدمة، وجعلَ أصحابَه وراءه، بحيثُ لا يراهم و هم يرونه، فهذا غاية التوثيق، أي أراد أن يتوثَقَ من صحةِ ما يقوله أبو سفيان-، فقال هرقل: ما نَسَبَهُ فيكم؟ قال: هو فينا ذو نَسَب، قال: هل قال هذا القول أحدٌ قبلَه؟ قال: لا، قال: هل كان في آبائه من مَلِكٍ؟ قال: لا، قال: أشرافُ الناس اتَّبَعُوه أم ضعفاؤهم؟ قال: ضعفاؤهم،

(١) انظر القصة بطولها في صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب (٦)، رقم الحديث: (٧).

قال: هل يزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون، قال: هـل يرتـدُّ أحـدٌ منهم عـن دينه؛ سخطةً له، بعد أن يدخلَ فيه؟ قال: لا، قال: فهـل يغـدُر؟ قـال: لا، ونحـن في مُدَّةٍ -لأن هذا السؤال كـان في صُلحِ الحديبية- لا نـدري مـا هـو صـانعٌ بها، قال: والله مـا استطعت أن أدخـلَ كلمـةً إلا هـذه الكلمـة -أراد أن يشكِّكَ فيـه، لكن ما استطاع أن يشكِّكَ في نبينا ﷺ- قال: هـل يكـذِب؟ قـال: لا، قـال: هـل قـاتَلْتُمُوه؟ قـال: نعـم، قـال: فكيـف كـان قتـالُكم إيَّاه؟ قـال: سِـجَالٌ، يَـديلُ منَّـا ونَديلُ، قـال: بمـاذا يـأمرُكم؟ -وهـذا مَوْطِنِ الشـاهد-، قـال: يقـول اعبـدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرُنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

ثم أراد أن يبيِّنَ لأبي سفيان الأجوبةَ عن هذه الأسـئلة، فقـال: سـألتُك عـن نَسَبِهِ، فقلـتَ: إنـه فيكم ذو نسب، وكـذلك الأنبيـاء، تُبعَـثُ في أنسـاب قومهـا، وسألتُك: هل قال هذا القـول أحـدٌ قبلـه؟ فقلـتَ: لا، فقلـتُ: لـو قـال أحـدٌ هـذا القول قبلَه، لقلتُ: رجلٌ يَأْتَسِي بمَن كان قبله، ثم سألتُك: هل كـان في آبائـه مِنْ مَلِكٍ؟ -وفي رواية مَنْ مَلَكَ-، أي هـل كـان أحـدُ آبائـه مَلِكًـا، ثـم أخـذَ المـُلْكَ منه؟ فقلتَ: لا، فقلتُ: لو كـان في آبائـه أحـدٌ مَلَـكَ، لقلـتُ: رجـل يطلـب مُلْـكَ آبائـه، ثـم سـألتُك: أشـراف النـاس اتَّبعـوه أم ضـعفاؤهم؟ فقلـتَ: ضـعفاؤهم، وكذلك أتباعُ الأنبياء، ثم سألتُك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلتَ: بل يزيـدون، وكذلك الإيمان، حتىٰ يتمَّ، ثم سألتُك: أيرتدُّ أحدٌ منهم عـن دينـه؛ سـخطةً لـه؟ فقلـتَ: لا، وكـذلك الإيمـان إذا خالطَـتْ بشاشـتُهُ القلـوبَ، ثـم سـألتُك: هـل يكذب؟ فقلتَ: لا، فقلتُ: ما كان ليَذِرَ الكذبَ علىٰ الناس، ثـم يـذهب يكـذب علىٰ الله، ثم سألتُك: هل يغدر؟ فقلتَ: لا، وكذلك الأنبياءُ لا تغدر، ثم سـألتُك عـن الحـربِ بينكم وبينـه، فقلـتَ: سِـجَالٌ، وكـذلك الأنبيـاء تُبتلَـىٰ، ثـم تكـون العاقبـةُ لهـا، وسـألتُك: بمـا يـأمركم؟ فقلـتَ: يقـول: اعبـدوا الله وحـده،

ولا تشركوا به شيئًا، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فإن كان ما تقول حقًّا، فسَيَمْلِكُ موضعَ قدمي هاتينِ، وقد كنتُ أعلم أنه خارجٌ، ولَمْ أكنْ أظنُّ أنه سيخرجُ فيكم، ولو كنتُ أستطيعُ أن ألقَاهُ، أو أتوصلَ إليهِ؛ لتَجَشَّمْتُ لقاءَهُ، ولغَسَلْتُ عن قدميهِ -يقول هذا ملكُ الروم-، قال: فجِيءَ بالكتاب الذي أُرسلَ إليه -الكتاب الذي ذهب به دحية-، ثم في آخر الحديث، قال: فحدثَ اللَّغَطُ بينهم، قال: فأخرَجُونا، فقال أبو سفيان: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، وإنه ليخافَهُ مَلِكُ بني الأصفر، ثم قال: ما زلتُ موقِنًا أنه سيظهر، منذ ذلك الوقت.

وقوله: (أَمِرَ) هنا بمعنىٰ كَثُرَ، فهنا شاهدٌ لغوي، لقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ [الإسراء:١٦]، أي أكْثَرنا مترفيها.

ففي آخر هذا الحديث، أن الرسول دعاهم إلىٰ عبادة الله، قال: اعبدوا الله، فجميع الأنبياء -ونبينا ﷺ منهم- دعوا إلىٰ عبادة الله.

الحديث الثاني: حديث معاذ بن جبل، عندما أرسله الرسول إلىٰ اليمن، فإنه بعثَهُ في السنة العاشرة أو التاسعة، فقال: **(إنك تأتي قومًا أهلَ كتابٍ، فليكُنْ أولُ ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)**، وفي رواية: **(إلىٰ أن يوحِّدوا الله)**[1]، وفي رواية: **(إلىٰ عبادة الله)**، فأول ما يُدعَىٰ الناس إليه، عبادة الله، وتوحيده.

قوله: (وهذا التوحيد هو أول واجب علىٰ المكلَّف)، هذا يدل علىٰ أن الشارح رحمه الله قد أُعطِيَ علمًا، وإحاطةً بكثير من العلوم، فإن أوْرد الأحاديث، فكأنه محدِّث، وإن تحدَّث عن التفسير، فكأنه مفسِّر، وهنا يُورِد كلام المتكلِّمين.

---

(١) سبق تخريج هذه الروايات.

وهذا الكلام الذي ذكَرَه الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ **هو بوابة الانحراف في العقيدة عند المتكلِّمين**؛ لأنه لو لم تكن هذه البداية، لما حدث خلافٌ بين المتكلِّمين وأهل السُّنَّة والجماعة، ولابد من ذِكْر مقدمةٍ؛ حتى نؤصِّلَ في الأذهان أولًا المعنى الصحيح، ثم نذكُر الانحرافات في هذه القضية.

ما هو أول واجب على المكلَّف؟ فالكافر إذا أراد أن يُسلِم، بماذا يُؤمَر؟ والصبي إذا بلغَ سِنَّ التكليف، بماذا يُؤمَر؟ هنا وقع الخلاف بين منهج أهل السُّنَّة، ومنهج المتكلِّمين.

أول واجب على المكلَّف -كما سبق من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية-، هو التوحيد، والتوحيد مرتبتان: المرتبة الأولى: معرفة الله، والمرتبة الثانية: عبادة الله، فهل يُدعَى الإنسانَ إلى المرتبة الأولى، أم إلى الثانية، أم إلى كلتيهما؟ المرتبة الأولى فطريةٌ في القلوب، لا يوجد قلب بشري لا يعرفها، ولا يوجد مجتمع بشري لا يعرفها، والقرآن الكريم يؤكِّد هذا المعنى، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠]، هذا أمرٌ لنبينا، ولكل إنسان، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ ﴾ [الروم:٣٠]، وتفسير الدين هنا -بإجماع علماء السلف- هو الإسلام، والاستسلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد وردَ هذا التفسير عن ابن زيد، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، ورواه الطبري، والقرطبي، وابن كثير رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وعلماء الأمة قرَّرُوا هذا المعنى، فالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ قال في صحيحه: بابٌ، لا تبديلَ لخَلْق الله لدين الله، والفطرة الإسلام، هذه أول آية تتحدث عن هذا المعنى.

وهذا تفسير السلف لهذا المعنى: قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا التفسير: وهو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل، قد أجمعوا في قول

الله ﷻ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾: فطرة الله الإسلام.[١] القرآن والسُّنَّة جاءا بتقرير هذا المعنىٰ، وفي الحديث قال ﷺ: (**كل مولود يُولَد علىٰ الفطرة، فأبواهُ يُهوِّدانُه، أو يُنصِّرانُه، أو يُمجِّسانُه**)[٢]، فما ذَكَر الإسلام؛ لأن الإسلام هو الفطرة، لكن ذَكَر التغيير إلىٰ دين آخر غير الإسلام، وكذلك قال ﷺ: (**قال الله ﷻ: إني خلقت عبادي حنفاء -كلهم-، وإنهم جاءتهم الشياطين، فاجْتَالتْهُم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحلَلْتُ لهم**)[٣]. فالقرآن والسُّنَّة وإجماع العلماء، يدل علىٰ أن القلب فيه فطرة، ربما لا يتذكر الإنسان المسلم هذا المعنىٰ في نفسه، ويظن أن هذه المعاني إنما عَرَفَها من الوراثة، نعم، في القلب معرفةٌ وقصدٌ وتذلُّلٌ لمالِكِ الكون ﷻ، وليس هناك قلب ليس فيه معرفة، لكن قد تُغطَّىٰ، وقد تُحجَب، ولا يُمكن أن تُغيَّر ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]، هذه فطرة في القلوب.

وكذلك آية الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]، فالآية تقرِّر أن الله ربهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

فتوحيد المعرفة قد أُخِذَ عليهم في الأزل، وجاءت الأحاديث تؤكِّد هذا المعنىٰ، وهذا قول جمهور السلف: قال ابن الأنباري رحمه الله: مذهب أهل

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٨/ ٧٢)

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم: (٢٨٦٥)، (٤/ ٢١٩٧).

الحديث، وكبراء أهل العلم، في هذه الآية: أن الله أخرج ذرية آدم من صُلْبِه، وأصلاب أولاده، وهم في صور الذَّرِّ، فأخذ عليهم الميثاق، أنه خالقهم وربهم، فاعترفوا بذلك.(١)

وهنا مسألتان:

المسألة الأولىٰ: الفطرة التي أجمع السلف عليها، فقد خالَف فيها ابن عبد البر -حافظ المغرب، وإمام أهل السُّنَّة والجماعة في عصره-، فقال: الفطرة ليست هي المعرفة، وإنما هي خُلُوُّ القلب من كل شيء، و إنما القلب قابل للمعرفة، وقد ردَّ عليه ابن تيمية رحمه الله، فقال: إن الله مَدَحَ الفطرة، وضرب مثالًا، فقال: الأرض التي ليس فيها مسجد ولا كنيسة، لا تُمدَح ولا تُذَم، لكن إذا وضعنا فيها مسجدًا؛ مُدحَت، إذا وضعنا فيها كنيسةً؛ ذُمَّت، فلو كان القلب خاليًا وقابلًا للإيمان والمعرفة؛ ما مدَحَه الله عز وجل، وما معنىٰ الزمْ الفطرةَ علىٰ هذا القول؟ الزمْ البقاءَ علىٰ الخُلُوِّ، ليس في قلبك إيمان ولا كفر؟ هذا لا يكون أبدًا.

المسألة الثانية: أن الميثاق الذي أجمع عليه السلف، خالَفهم فيه ابن تيمية رحمه الله، وقال: إن الله لم يأخذْ الميثاق علىٰ الناس في الأزل، والآية لا تدل عليه، ووافقَه ابن القيم، وابن كثير رحمهما الله.

ونستخلص من هذا لطيفةً علميةً، و هي: أن العالم الكبير قد يخطئ في مسألة يدركها صغار الطلبة؛ رحمةً بالأمة، حتىٰ لا يُقدَّس إنسان، إذا كان هذا العملاق المجدِّد يخالِف السلف في مسألة من مسائل العقيدة؛ اجتهادًا منه، لم يخالِفْهم رحمه الله محبةً في الخلافِ، أو جهلًا، ولكنه درس الآية، وذَكَر في كل فقرة

(١) انظر الروح (ص: ١٦٣)

من فقراتها ما يدل على مذهبه.

قال: يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، فلم يقلْ: من آدم، والحديث يقول من آدم، فهو لم يصحِّحْ الأحاديث، مع أنها صحَّت من طرق عدة، ثم قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقلْ من ظهره، فاستشهد بفقرات الآية، وبألفاظ الآية، على إخراج الناس دون الميثاق، يقول: قد أُخْرِجوا، لكن لم يُؤخَذ عليهم ميثاق، والشيخ الألباني ردَّ على ابن القيم وابن كثير، ولم يتعرَّضْ لابن تيمية رحمه الله، مع أن القول قول ابن تيمية، وتابعَه ابن القيم وابن كثير، فالشاهد: أن هذا يدلنا على أن الإنسان -مهما بلغ من العلم- فإنه يقع في الخطأ، حتى لا يُقدَّس إنسان، فإن الإنسان مُعرَّض للصواب والخطأ.

هذه أقوال سلف الأمة في أن الفطرة هي الإسلام في القلوب، وتؤيدُها شهادة الواقع، فنرى أن الآيات تقرِّر أن قريشًا كانوا يعرفون الله، كما دلَّ عليه قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، والآيات القرآنية الكثيرة، كذلك الواقع اليوم، كما قلنا، إن جماعة من الدارسين المتخصصين درسوا المجتمعات البشرية، ولم يجدوا مجتمعًا لا يعرف الله.

فالمعرفة في القلوب فطرية، وليست نظرية كما يقول علماء الكلام، فلا تحتاج إلى أن تؤسَّس من الخارج، وإنما الحاجة إلى شيء آخر غير المعرفة.

وكذلك الإحساس المبكِّر، كما قلنا إن الطفل في سِنِّ الكلام، يبدأ يسأل أسئلة كثيرة، ليس لها جواب، إلا أن تقول: الله، مَن خلق الشمس؟ مَن خلق القمر؟ تقول الله، فإحساس الطفل الداخلي يرشِدُهُ إلى معرفة أن هذه الحوادث لها محدِث، ولها خالق، حتى يبدأ يتقبل العقائد، فتأتي الأسرة، فتفسِد عقيدتَه، وتوجِّهه وجهةً أخرى.

وما هو موقف المتكلِّمين من هذه المعرفة؟ قالوا: إن الله غير معروف، فإذا أراد الإنسان أن يُسلِم، لابد له أن ينظر.

واعلم: أن دين الإسلام يقوم علىٰ قاعدتين أساسيتين، لابد من تحقيقهما؛ ليكمُل للإنسان دينُه، ويكمُل للإنسان عملُه، وليرقَىٰ الإنسان في درجات الكمال البشري، وتِلكُما القاعدتان: **قاعدة العلم**، و **قاعدة الإرادة**.

وكل منهما لا ينفصل عن الآخر، والله ﷻ قد بيَّن مكانة هاتين القاعدتين، وذكر أن كمال الإنسان في وجودهما، ونقص الإنسان في فقدهما، أو فقد إحداهما، والمسلم كل يوم يُذَّكر بهذه الحقيقة عشرات المرات، وإن لم تَرِد بهذا الاسم في الذكرىٰ، وذلك في سورة الفاتحة، فقد ذكر ﷻ هاتين القاعدتين، في ثلاثة نماذج:

النموذج الأول: نموذج المُنعَم عليه، وقد توفرت فيه القاعدتان، **النموذج الثاني**: الذي توفرت فيه القاعدة الأولىٰ دون الثانية، هو اليهود، ثم **النموذج الثالث**: الذي توفرت فيه القاعدة الثانية دون الأولىٰ، هو النصارىٰ، فالصنف الأول توفرت فيه القاعدتان، قال ﷻ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] المغضوب عليهم: هم اليهود، قال الله فيهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، أي: عرفوا الحق وعرفوا النبي، وهذا علم، ولكنهم لم يتَّبعوه، فتركوا القاعدة الثانية، فلم تنفعهم القاعدة الأولىٰ.

والضالون هم النصارىٰ، عبدوا الله علىٰ جهل، أي كانت عندهم إرادة، ولم يكن عندهم علم، فسمَّاهم الله ضالين، كما قال ﷻ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد:٢٧]، أي كانت لهم إرادة بدون علم، فانحرفوا

وضلُّوا عن جادة الصواب، فلا يكمُل الإنسان، ولا يصل إلىٰ الكمال البشري، إلا بهاتين القاعدتين: العلم والإرادة، فإذا لم يكن عند الإنسان علم، وكان عنده إرادة؛ انحرف، وإذا كان عنده إرادة، ولم يكن عنده علم؛ انحرف، ولهذا يقول بعض السلف: مَن فسد من علمائنا، ففيه شبه باليهود؛ لأنهم علموا ولم يعملوا، ومَن فسد من عبادنا، ففيه شبه بالنصارىٰ؛ لأنهم عملوا بدون علم.

ولو طبَّقنا هاتين القاعدتين علىٰ جميع الطوائف المنحرفة عن الإسلام، لوجدنا أن انحرافهم كان بسبب فقدان هاتين القاعدتين، أو فقدان إحداهما، و بهما يتمُّ التوحيد؛ ولهذا من أسماء التوحيد، توحيد القصد والإرادة، فلا بد أن يسبقه توحيد العلم، كما قال ﷻ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [محمد:١٩]، قال البخاري رحمه الله : فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، أي اعلم أولًا، ثم ليكن لك إرادة تابعة للعلم؛ لأن الإرادة هي مبدأ العمل، فالذي لا إرادة له لا عمل له.

قال الشارح رحمه الله : (**وهذا التوحيد هو أول واجب علىٰ المكلَّف، لا النظر، ولا القصد إلىٰ النظر، ولا الشك في الله، كما هي أقوال لمن لم يَدْرِ ما بعث الله به رسوله من معاني الكتاب والحكمة**)، سبق ذكر أن هناك مرتبتين: مرتبة معرفة الله ﷻ، ومرتبة العبادة، وأن معرفة الله ﷻ ثابتة في القلوب بأنواع الأدلة.

فإجماع السلف انعقد علىٰ أن القلوب فيها فطرة الإسلام، لكن ليس هذا هو الإسلام الشرعي؛ لأن الإسلام لا يُعرَف إلا عن طريق الأنبياء، لكن جميع القلوب فيها مَيْلٌ وقصدٌ إلىٰ الخضوع لخالق الكون، ولهذا نجد أن كثيرًا من المجتمعات البشرية تعبد بعض مظاهر الطبيعة؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يبقىٰ بدون عبادة، وقلنا إن بعض الدارسين في العصر الحاضر -وهذا قد عُنيَت به بعض المعاجم المعاصرة وأشهرها معجم الدروس للقرن العشرين- قال:

إن حاسة التديُّن لا تخفُت من القلوب، حتىٰ في أشد أحوال المجتمعات البشرية همجية، ولا تخفُت من القلوب إلا في فترات الإسراف في الترف، وإلا فلا يوجد مجتمع لا يعرف الخالق، ولا يوجد فرد ليس في قلبه توجُّه إلىٰ الخضوع للخالق.

ولهذا لم يأت أحدٌ من الأنبياء يعرِّف الناس بأن هناك ربًّا، حتىٰ علماء النصارىٰ، قد ذَكَر لوثر -وهو من المجدِّدين في النصرانية في القرن السابع عشر-: أن الناموس -أي الفطرة- في القلوب موجودة، فلو لم يكن في القلب ناموس؛ لمكث الأنبياء سنوات حتىٰ يعرِّفوا الناس بأن هناك خالقًا، ولهذا لم نجد نبيًّا عرَّف الناس بالخالق، إنما جاء يدعوهم إلىٰ عبادة الخالق، فالخالق مستقر بالقلوب، والتصديق به فطرة في القلوب، قد يطرأ عليها فساد عارض، ولا نجد مجتمعًا تَواطَأ علىٰ إنكار الخالق، وإنما يوجد أفراد وأحزاب ذات مصالح فقط.

ثم تأتي المرتبة الثانية: وهي عبادة الخالق، تحدث عنها القرآن وبيَّنها، فذكَرَ ﷻ: أنه لم يخلق الناس إلا لعبادته، والعبادة هي طاعة الله، والتذلُّل لله، والخضوع والمحبة، كما قال ابن القيم رحمه الله: العبادة ذات شُعَب ثلاث: كمال الطاعة، وكمال الذُّل، وكمال الحب، فإذا أحببت شيئًا، وذلَلْتَ له، وأطعته، كنت عبدًا له، لكن قد تطيع إنسانًا ولا تكون عبدًا له؛ لأنك لم تَذِل له، ولم تحبه المحبة التي لا تكون إلا لله ﷻ، فإذا توفر في العمل هذه الشعب الثلاث؛ كان الإنسان عبدًا حقيقيًّا، وبحسب نقصها؛ نقصت عبادته لله سبحانه وتعالى، فالله دعا الناس إلىٰ عبادته، وذكَر أنه لم يخلق الناس إلا لعبادته، وجميع الأنبياء جاؤوا بهذه الحقيقة، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، فنوح لم يأت ليقول لقومه إن لكم خالقًا، بل

قال: اعبدوا الخالق، فالخالق فطرة في القلب، ثم جاء بعده هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا﴾ [الأعراف:٦٥]، ثم جاء صالح إلىٰ ثمود، قال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا﴾ [الأعراف:٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا﴾ [الأعراف:٨٥].

فجميع الأنبياء بدؤوا دعواتهم بالدعوة إلىٰ عبادة الله، ولم يبدأوها بتعريف الناس بأن هناك خالقًا؛ لأن المجتمعات البشرية تعرف الخالق، لكن يحدث فيها انحراف في العبادة، وسيأتي في أنواع الشرك أن الإنسان يظن أن الله ﷻ لا يقرِّبه؛ لأنه عاصٍ، فيحتاج إلىٰ مَن يقرِّبه إلىٰ الله، وهذا قياس خاطئ، فهذا قد يكون في واقع البشر، ولكن الله ﷻ غير البشر، فالله يقبل من الإنسان أن يدعوه مباشرةً بدون واسطة.

كذلك نبينا يقول: (أُمرتُ أن أدعو الناس إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)[1]، فدعا الناس أول ما دعاهم إلىٰ هذه الحقيقة، وعندما أرسل معاذًا إلىٰ اليمن، قال: (إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله إلا الله)[2]. فهذا منهج الأنبياء جميعًا.

---

(١) جاء بلفظ: "أمرت أن أقاتل الناس، حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عَصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم علىٰ الله"، ينظر مثلًا: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فإن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فخلُّوا سبيلهم، برقم: (٢٥)، وصحيح مسلم، كتاب، باب الأمر بقتال الناس، حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله...، برقم: (٢٠)، (١/ ٥١)، وأما اللفظ الذي أوْرَده الشيخ، فلم أطَّلِع عليه، فكأنه نقله بالمعنىٰ، والله أعلم.

(٢) سبق تخريجه.

وكان نبينا ﷺ إذا بعث أحدًا للقتال -كما جاء في حديث بريدة- قال له: (**اغزُ بسم الله، قاتِل مَن كفر بالله، اغزُ، ولا تغلُ، ولا تمثِّلْ، ولا تقتلْ وليدًا**)، ثم قال: (**وإذا لقيْتَ عدوك من المشركين، فادعهم إلىٰ ثلاث خصال -أو قال خِلال-، فأيَّتُهُن ما أجابوك، فاقبلْ منهم، وكُف عنهم، ادعُهم إلىٰ الإسلام**)[1]، كل الجهاد الذي كان في عهد الصحابة، ومَن بعدهم، إنما وقع بعدما دعوا الناس إلىٰ الإسلام، وإلىٰ الشهادتين.

وقد أكَّد العلماء هذه الحقيقة، قال ابن المنذر رحمه الله : أجمع كل مَن أحفظ عنه من أهل العلم، علىٰ أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأَبْرأَ إلىٰ الله من كل دين يخالِف دين الإسلام، وهو بالغٌ صحيحُ العقل، أنه مسلمٌ، وهذا الإجماع ذَكَره ابن حزم[2]، وابن تيمية رحمه الله في عشرات المواطن في كتبه، وكذا غيرهم.

فهذه هي المرتبة الثانية، وهي أن السلف قد أجمعوا علىٰ أن الناس إنما يُدعَوْن إلىٰ عبادة الله، هذه قاعدة لا بد من إدراكها قبل أن نستعرض كلام المتكلِّمين في هذه المسالة، فإنهم قد خالفوا السلف، وذكروا غير هذه الحقيقة، ويطلق اصطلاح "**المتكلِّمين**" علىٰ طائفتين، وهما: **المـُعتزِلة والأشاعِرة**.

قالوا: أول ما يجب علىٰ العبد هو المعرفة، أي معرفة الله، علىٰ اختلاف فيما بينهم، وقد ذكر الباجوري -وهو من علماء الأزهر، المتوفَّىٰ قبل قرابة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، بلفظ الجمع في أوله، كتاب الجهاد والسِّيَر، باب تأمير الإمام الأمراء علىٰ البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، برقم: (١٧٣١)، (٣/ ١٣٥٦).

(٢)مراتب الإجماع (ص: ١٧٧)

ستين عامًا تقريبًا- اثني عشرَ قولًا في أول واجب على المكلَّف، خمسةٌ منها للمتكلِّمين، وواحدٌ منها للمعتزلة، وثلاثةٌ منها لم يذكُر أصحابها، وثلاثةٌ منها مترادفة، وهي للسلف، ولم يذكر أنها للسلف، وسنذكرها جميعًا،وسنبدأ بأقوال المتكلِّمين وهي خمسة:

القول الأول: اعتقاد وجوب النظر، أي يجب على الإنسان أن يعتقد بقلبه، أنه يجب عليه أن ينظر.

ثم بعد هذا، مرحلةٌ أعلى -وهو **القول الثاني**-، وهي: أنه يجب على الإنسان القصد إلى النظر، أي التوجُّه، وهذا قال به الجويني، وهو من المتأخِّرين، وسيأتي ترتيب المتأخِّرين في هذه المسألة.

القول الثالث: أول النظر.

القول الرابع: النظر.

القول الخامس: المعرفة.

القول السادس -للمعتزلي أبي هاشم الجبائي- يقول: الشك.

القول السابع: التقليد.

القول الثامن: وظيفة الوقت، يعني أنت إذا أردت أن تُسلِم وقت الصلاة، فتصلِّي أولًا، قبل النظر والمعرفة.

القول التاسع: الإيمان.

القول العاشر: الإسلام.

القول الحادي عشر: الشهادتان.

القول الثاني عشر: المعرفة أو التقليد، أيهما فعلت فهو جائز.

هـذه اثنـا عشـر قـولًا، خمسـةٌ منهـا للمتكلِّـمين، وهنـاك أربعـةُ أقـوال ذَكَـر أصحابها.

أول قول منها قـول الأشـعري، وهـو محمـد بـن إسـماعيل الأشـعري ﷺ، قولـه أول قـول ظهـر في الأشـعرية، يقـول: أول واجـب علىٰ الإنسـان المعرفـة، وهذه أوسع دائـرة، والأشـعري تـوفي عـام ثـلاث مائـة وأربعـة وعشـرين، وجـاء بعده أبو إسحق الإسفاريني ﷺ، فقال -وقد ضيَّق المسألة-: أول واجب علىٰ العبد النظر.

ثم جاء بعـده البـاقلاني ﷺ المتـوفَّىٰ عـام أربعمائـة وخمسـين، فقـال: أول واجب علىٰ العبد: أول النظر، ثم جاء بعد الباقلاني الجـويني ﷺ، فقـال -وقـد ضيَّق المسـألة-: أول مـا يجـب علىٰ العبـد: القصـد إلىٰ النظـر، بـدأت البدعـة واسعة، ثم ضاقت حتىٰ أصبحت في القصد إلىٰ النظر.

هذه بعض أقوال المتكلِّمين أن أول واجب علىٰ الإنسان هو النظر؛ ولهـذا يتهكَّم أبو مظفر السـمعاني ﷺ يقـول: أرأيـت إذا جـاء الجـيش الإسـلامي إلىٰ مدينة من المدن، أراد أن يفتحها، فقال أصحابها: دعونا ننظر، أنتم تقولـون أول واجب علينا النظر، فإن وصلنا بالنظر إلىٰ الإسلام؛ أسلمنا، وإن وصـلنا بـالنظر إلىٰ غيـر الإسـلام؛ لـم نسـلم، كـم نعطـيهم مهلـة؟ شـهرًا أو شـهرين أو ثلاثـة أو سنة؟ قد يموت وهو ينظر، ولا ينتهي إلىٰ نتيجة، ثـم يقـول: هـل فعـل الصـحابة مثل هذا؟ ثم هل أحد مـن الكفـار قـال: دعونـا ننظـر هـل هنـاك إلـه؟ أبـدًا، ففـي جميع الحروب الإسلامية والجهاد الإسلامي، لم يقف مجتمع، ولا مدينـة مـن المدن، ولا شـعب مـن الشـعوب، أمـام المـَد الإسـلامي ليقـول مَـن هـو الله، لا عُبَّاد النار في الفرس، ولا النصارىٰ في الروم، ولا غيرهم، ولا في أفريقيـا، ولا في الهند، ولا في السَّنْد، لم يوجد مجتمع وقف أمـام الـدعوة الإسـلامية، بـل كـانوا

يتفاوضون معهم، إما على القتال، أو على الجزية، أو على الدخول في الإسلام.

فدعوَىٰ أن أول واجب على الإنسان النظر، أو جزء النظر، أو أول النظر، كل هذه دعاوَىٰ غير سليمة.

هذا المدخل إلى الإيمان بالله -ﷻ- عند المتكلِّمين، كان سببًا لفتح بوابة الانحراف العقدي؛ فإن المتكلِّمين لم يكتفوا بالنظر في الرسائل الكونية، أو النفسية، بل استحدثوا منهجًا جديدًا.

فقد ذَكَر الإيجي -من علماء الأشاعرة- أن معرفة الخالق تتحقق من خلال أحد طريقين: إما النظر من خلال الجوهر، وإما من خلال العَرَض، وقد زعموا أن جميع ذرات الوجود وخلايا الأجسام أصلها واحد، و إنما تختلف باختلاف الأعراض أي الصفات، هذه الأعراض تختلف من حال إلى حال، الألوان والسكون والحركة، وهي تقوم بالأجسام التي هي مجموعة من الأجزاء، وذلك يدل على أن الأجسام مادية، وقد قَرَّروا أن الجزء لا يتجزأ، أي يصل إلى درجةٍ لا ينقسم.

فزعموا أن الكون كله مركب من جزء لا يتجزَّأ، أي لا ينتهي إلى جزء، أو إلى طاقة، أو إلى إشعاع، وهذا خطأ، فإن العلم الحاضر فجَّر الذرة، اي الذرة أحالها إلى طاقة، فبطلت نظرياتهم من أساسها، والآن الأطباء يقولون إن الطعام نفسه الذي هو عبارة عن أجسام، ينقلب إلى طاقة، هذه الحركة طاقة، الإنسان يأكل طعامًا -مثلًا- مائتين جرام، ثم يتحول نصفها، أو أكثر، أو أقل، إلى طاقة.

فالأجسام نفسها تتحول إلى طاقة، فالجوهر الذي أقاموا عليه أساس المعرفة، ثبت في العصر الحاضر أنه ليس له حقيقة؛ لأنهم يقولون إن الجوهر

يتجزأ إلىٰ أجزاء صغيرة، ولكن هذا الجزء لا ينتهي، لابد أن يبقىٰ أجزاء صغيرة؛ لأن الكون مركب منها، لو قلنا بانتهائه لكان هذا إشكالًا، بأن الجوهر أو الأجزاء التي تتركب منها الموجودات، ليست قابلة للأعراض باستمرار، وهم يقولون الجوهر يقبل العَرَض باستمرار، لكن هنا ينتهي الجوهر، تحطمت الذرة، وهي جزيئات صغيرة.

فاصطلاحاتهم هذه -الجوهر والعَرَض-، مَنْ مِن المسلمين يعرفها لو لم يدرسها؟ فكيف نقول: إنه يجب علىٰ كل مسلم أن يعرف أن الكون مكوَّن من جواهر وأعراض؟ وقالوا: لابد من معرفة أن الجواهر حادثة، وأن كل حادث لابد له من محدِث، ودلَّ العلم الحاضر علىٰ أن الجوهر يفنَىٰ، وأن العَرَض الذي يزعمون أنه يحلُّ بالجوهر، ليس له حقيقة في واقع الموجودات، وإنما هذه أوهام، كما قال العلماء.

فأثبتوا أولًا أن هناك شيئًا اسمه جوهر، وأثبتوا أن هناك شيئًا اسمه عَرَض، فليس في الوجود جسم بدون عَرَض، والأعراض عندهم: اللون والرائحة والحركة والسكون، لا يوجد جسم ليس فيه لون، ولا يوجد جسم ليس فيه حركة، أو فيه سكون أصلًا، فالتفريق بين الجوهر والعَرَض تفريق يحتاج إلىٰ إقناع.

وقد ترتب علىٰ هذا المنهج ما يلي:

أولًا: استحدثوا هذا الاصطلاح، ولو كُلِّفَ الناس بأن يؤمنوا بالله عن طريق هذا المنهج؛ لما عرف الناس ربهم.

ثانيًا: ترتب عليه أنهم خالفوا الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة، فإنه قد ثبت بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة، أن أول واجب علىٰ العبد، هو الشهادتان.

ثالثًا: ترتب عليه تأويل، أو ردُّ كل نص، لم يتفق مع منهجهم، فكل نص في القرآن أو في السُّنَّة إذا جاء يختلف مع منهجهم، ردُّوه أو أوَّلوه، ولهذا يردُّون أحاديث الآحاد، وإن كانت في البخاري ومسلم، ويستشهدون بأحاديث -لم توجد حتىٰ في كتب الموضوعات- إذا وافقت معتقدهم، فقد أوْرد البيجوري في كتابه شرح جوهرة التوحيد -وهو يُثبِت لله الكلام- أن الرسول قال: (**القرآن كلام الله، مَن قال مخلوق، فقد كفر**)، هذا لا يوجد حتىٰ في كتب الموضوعات، فيتركون الأحاديث الصحيحة، ويستشهدون بالأحاديث التي لم تَرِد حتىٰ في كتب الأحاديث الضعيفة، ولا في كتب الموضوعات.

رابعًا: خطأهم في صفات الله ﷻ؛ لأنهم يقولون إن الجوهر يُثبَت حدوثه بالعَرَض. والعَرَض هو: اللون، أو الحركة، والسكون، فإثبات الجوهر، أو حدوث الجوهر، إنما هو بإثبات حركته، أو سكونه، أو لونه، و هذا يقتضي أنه لا يُثبَت لله استواء ولا نزول ولا مجيء؛ لأن هذه عندهم أعراض، وبها أثبتوا الخالق، فلو أثبتوها لله؛ لشابَه الخالقُ المخلوقَ، ولهذا فإنهم أوَّلوها، وقالوا: إن الله لا ينزل، ولا يجيء، ولا يستوي، ولا يغضب، ولا يرضىٰ، ولا يضحك، كل هذه الصفات أوَّلوها؛ لأنها عندهم أعراض، فلو قالوا بإثباتها لله؛ لبطل دليل إثباتهم لله.

فهذه بوابة انحرافهم في التوحيد للأسماء والصفات، وإلا فلو قالوا بما قالت به الأمة، وبما جاء في الكتاب والسُّنَّة، ما احتاجوا إلىٰ هذه اللوازم الباطلة، وما احتاجوا إلىٰ تأويل كلام الله ﷻ، أو كلام رسوله ﷺ.

خامسًا: أحدثوا أصولًا كثيرة، ردُّوا بها ما ثبت بالدليل القاطع، منها: أنهم يقولون إن ما لا يخلو من الحوادث، فهو حادث، يعني أي شيء في الوجود يكون فيه حادث، فلا بد أن يكون مخلوقًا، لهذا قالوا: إن الله لا يتكلم،

لو تكلم الله بكلام لحلَّ فيه الحادث، ولكان محدَثًا. وهذا قول باطل؛ فإن الله يتكلم بما شاء، وكما شاء، ومتىٰ شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن ليس لله مثل، ولهذا في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، و"ليس كمثله شيء" ثلاث كلمات، ولكنها قاعدة عظيمة، ليس كمثله: وعلماء اللغة يقولون: إن الكاف زائدة، وهذا خطأ، فالكاف ليست زائدة، بل هذه الكاف في موطنها من أجمل المواطن، ولهذا العرب إذا أرادوا أن يبالغوا في نفي الفعل عن شخص، يقولون: يا فلان، مثلك لا يفعل هذا، ولم يريدوا به مثله، وإنما أرادوه هو، لكن هذا من الأساليب العربية القوية في النفي والإثبات.

ومن العلماء مَن قال: ليس كمثله، أي كصفته؛ لأن مثل تأتي بمعنىٰ الصفة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ﴾ [النحل:٦٠]، أي: الصفة العليا، فالآية تنفي أن يكون في المخلوق، مَن يكون صفته كصفة الخالق، أو تنفي عنه النِّد والمثل.

ونقول: إن الله يستوي استواءً يليق بجلاله، ويجيء مجيئًا يليق بجلاله، وإذا كان استواء المخلوق استواءُ محتاجٍ علىٰ محتاج، فاستواء الخالق علىٰ العرش استواءُ غني علىٰ فقير، وعلىٰ مخلوق، فالله هو الذي يمسك السموات والأرض، وليس العرش هو الذي يمسك الله جَلَّ وَعَلَا، بل استواء الخالق ليس كاستواء المخلوق، ونحن نثبت ما أثبته القرآن والسُّنَّة، لا نشبِّه، ولا نمثِّل صفات الله بصفات المخلوق، ولا ننفيها؛ لأن اللغة العربية قد استعملها الإنسان قبل نزول القرآن، والإنسان استعمل اللغة في أشيائه الخاصة التي يتعامل بها، فيستحيل أن تأتي كلمة ليس فيها معنىٰ يتعلق بالمخلوق؛ لأن هذه المعاني تكلموا بها في حق المخلوق، فقالوا للمخلوق: فرِح، وضحِك، ونزَل، وجاء، واستوَىٰ، وعندما أوَّل المتكلِّمون الاستواء بالاستيلاء، لم يصيبوا؛ لأن

الاستيلاء يُطلَق على فعل المخلوق، فلا يخلو لفظ من اشتراك، إلا أن اللفظ القرآني أجمل الألفاظ، وأشرفها، وأفضلها، وأبعدها عن جميع المحاذير، فنحن نثبت في جانب، وننفي في جانب، فنثبت صفات الله، مع نفي التمثيل والتكييف.

لهذا لما قال مالك ﵀ : الاستواء معلوم، والكَيْف مجهول، وضع لأهل السُّنَّة والجماعة قاعدة جميلة، وهي كل لفظ -فعلًا كان أو اسمًا- له جانبان: جانب المعنى، وجانب الكيف، جانب المعنى نثبته، وإلا لو كان المعنى غير معروف عندنا، لكان جميع القرآن غير معروف، لكن إذا قال الله إنه عالم، نعرف معنى العلم في لغتنا، لكن علم المخلوق حادث، وعلم الخالق أزلي ليس حادثًا، فلو لم نعرف معنى العلم؛ ما استطعنا أن نعرف صفات الله -ﷻ-، كذلك إذا قال الله: إن الله يغضب، وإنه يرضى، فلها معانٍ، فالمعنى معروف، والكيف معروف في حق البشر؛ لأنك أنت تعرف المخلوق بصفاته وذاته، فالمعنى والكيف معروفان عندك، لكن في حق الخالق تعرف الصفة، ولا تعرف الكيف؛ لأن ذات الله عندنا غير معروفة، والله قد وضع قاعدة: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١].

فجميع المحاذير في مذهب أهل السُّنَّة والجماعة منتفية، لهذا عندما يقول أهل الكلام: لو قلنا إن الله يتكلم؛ للَزِمَ من ذلك أن يكون الله له أسنان، وله لسان، وله رئتان، -نستغفر الله من ذلك-، نقول لهم: وجدت في العلم الحاضر في الصناعات البشرية، أجهزة تتكلم بدون هذه اللوازم، التليفون، التليفزيون، الراديو، كلها تخرج منها أصوات، بدون رئتين، ولا أسنان، ولا لسان، فإذا كان هذا من صنع البشر، فكيف بخالق البشر ﷻ؟

فصفات الله صفات كمال، ونحن نثبتها، مع اعتقاد الكمال والعظمة في

الخالق ﷻ، ومع نفي التمثيل ونفي التكييف، ولا نعطِّل اللفظ عن المعنىٰ؛ لأنه لو كان القرآن ألفاظًا بدون معنىً، لكان مثل اللغات الأجنبية، مثل اللغة الإنجليزية، أو اللغة الفارسية، أو اللغة الفرنسية، لو خُوطِب بها العرب، لكننا خُوطِبنا بقرآن نعرف معناه، أما الكيف فلا يدرك أحد حقيقته، ولهذا جميع السلف يفوِّضون الكيف، ولا يفوِّضون المعنىٰ، فإذا جاءت كلمة في معتقد أحد علماء السلف بتفويض المعنىٰ، فإن المراد به تفويض الكيف، لا تفويض المعنىٰ، فإن المعنىٰ معلوم.

وقد وردَت أقوال في عقيدة ابن قدامة أنه يفوِّض المعنىٰ، لكن العلماء قالوا: لم يَرِد به تفويض المعنىٰ علىٰ منهج المتكلِّمين، وكذلك وردَ في بعض الأقوال عن الإمام أحمد رحمه الله أنه فوَّض المعنىٰ، ولكن كلامه جميعه يدل علىٰ أن التفويض ليس في المعنىٰ، ولكنه في الكيفية.

سادسًا: كان هذا سببًا لتكفير المسلمين، أو لتأثيمهم، كما يظهر ذلك من خلال أقوالهم في إيمان المقلِّد، وهما ستة أقوال:

القول الأول: أن الذي لا ينظر، أو لم يكن عن طريق النظر، فإن إيمانه كفر، فبهذه القاعدة يكفر جميع المسلمين، من الصحابة إلىٰ قيام الساعة، وهذه قال بها السنوسي الذي عاش في القرن التاسع في كتابه (أم البراهين الكبرىٰ)، فذَكَر أن الذي لا يؤمن بالله عن طريق النظر، فهو كافر -نعوذ بالله-.

القول الثاني: أن الذي لا يؤمن عن طريق النظر، فإنه عاصٍ،سواء كان قادرًا علىٰ النظر، أو غير قادر.

القول الثالث: أن الذي يؤمن بدون النظر، وعنده قدرة علىٰ النظر، فإنه عاصٍ، وإذا لم يكن عنده قدرة، فليس عاصيًا.

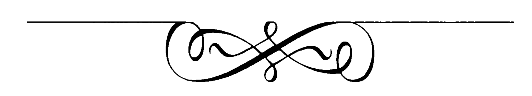
القول الرابع: أن إيمانه صحيح، لكن ترك الأَوْلَىٰ.

القول الخامس: أن مَن قلَّد القرآن والسُّنَّة، فإن إيمانه مقبول، لكن إذا قلَّد غير الكتاب والسُّنَّة، فإن إيمانه مردود.

القول السادس: تحريم النظر، أي النظر محرَّمٌ، ولم يذكر قول السلف؛ لأن السلف لم يحرِّموا النظر، فالقرآن كله مملوء بالحث علىٰ النظر في ملكوت الله؛ لزيادة الإيمان، لا لتأسيسه. وعندنا فرق بين الزيادة والتأسيس، فنحن نقول: المعرفة في القلب فطرية، لكن القرآن حث علىٰ النظر؛ ليزداد الإنسان إيمانًا، فإن الكون كله يدل علىٰ عظمة الخالق ﷻ، فالكون فيه من عجائب الصنع، وعجائب الحكمة، وعجائب الخلق، ما يبهر العقول، وما يجعل القلب يخشع أمام الخالق ﷻ، ولهذا قال -تعالىٰ- في المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال:٢]؛ لأنهم يعرفون الخالق بعظمته ﷻ، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، أي الذين عرفوه، وعرفوا ما في هذا الكون من دقة الصنع وعظمة الخلق، فالكون كله يدل علىٰ صفات الله ﷻ، من الحكمة والعلم والرحمة، وغيرها من الصفات، ففي الكون دلالة علىٰ الخالق، لكن ليست القلوب خالية من هذه المعرفة، إنما هي تحتاج إلىٰ زيادة، أو إلىٰ جلاء، أو تصفية، لا إلىٰ تأسيس.

فهذا هو المراد بقول الشارح رحمه الله: **(أن أول واجب علىٰ العبد، هو التوحيد -أي الشهادتان-، لا النظر، ولا القصد إلىٰ النظر، ولا الشك، كما هي أقوال من لم يَدْرِ ما أنزل الله علىٰ رسوله)**. هذا ملخص لما يتعلق بالمتكلِّمين، واعتقادهم، ومناهجهم في المعرفة، وتسبب عنها من النتائج واللوازم ما كانت الأُمَّة غنية عنه، فإن القرآن والسُّنَّة وإجماع الأمة، قد بيَّن أن المعرفة فطرية، وأن المناهج التي استُحدثَت، لا تتفق مع فطرة الإنسان.

ولهذا يقول ابن رشد في كتابه (مناهج الأدلة)، -وهو فيلسوف، لكنه رأىٰ من هذه المناهج صعوبة-: لو أن الله كلَّف الناس بهذا المنهج، ما عرفه أحد، فهذه كلها تخالِف الفطرة، وتخالِف القرآن والسُّنَّة وإجماع الأمة، ومنهج السلف هو علىٰ خلاف ذلك.



قال المؤلف رحمه الله:

فهو أول واجب وآخر واجب، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا. كما قال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» حديث صحيح، وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» [متفق عليه]، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال بحيث إن كل سورة في القرآن فيها الدلالة علىٰ هذا التوحيد، ويسمىٰ هذا النوع توحيد الإلهية؛ لأنه مبني علىٰ إخلاص التأله، وهو أشد المحبة لله وحده، وذلك يستلزم إخلاص العبادة، وتوحيد العبادة لذلك، وتوحيد الإرادة؛ لأنه مبني علىٰ إرادة وجه الله بالأعمال، وتوحيد القصد؛ لأنه مبني علىٰ إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده، وتوحيد العمل؛ لأنه مبني علىٰ إخلاص العمل لله وحده.



الشرح

قوله: (فهو أول واجب وآخر واجب)، الشارح رحمه الله يعقِّب علىٰ قوله السابق، بأن التوحيد -الذي هو الشهادتان- أول واجب علىٰ الإنسان، وآخر واجب، هو أول واجب؛ لأن لدخول الإسلام لابد من الشهادتين، وآخر واجب؛ لأن الإنسان إذا قال عند الموت لا إله إلا الله دخل الجنة، وهناك أحاديث كثيرة في هذه المسألة، فيمن قال لا إله إلا الله، وسيأتي -إن شاء الله زيادة- إيضاح، لكن الحديث الذي أوْرده الشارح رحمه الله هنا، وذكر أنه صحيح، لا يُسلم له، فإن الحديث فيه شخصان ضُعِّفا: الأول: صالح بن أبي عريب، وهو مجهول الحال، قال ابن القطان: لا يُعرَف، لكن ابن حبان وثَّقه، وابن حبان معروف بالتساهل.

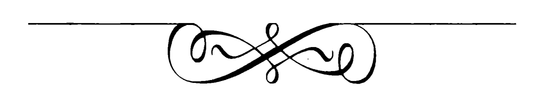
والثاني: عبد الحميد بن جعفر الراوي عن ابن أبي عريب، اختلف العلماء فيه، هل هو مضعَّف أوموثَّق، **فأعلىٰ درجات الحديث أنه حسن**، أما أن يكون صحيحًا، فهذا لا يُسلم للشارح، ولعله اعتمد علىٰ بعض المحدِّثين في تصحيحه، وأما الحديث الذي ذكره بعد، فهو في الصحيحين، كما ذكره الشارح رحمه الله.

قوله: (وتوحيد العبادة)، (وتوحيد الإرادة)، (وتوحيد القصد)، (وتوحيد العمل)، هذه كلها أسماء متقاربة لتوحيد العبادة، وهو ذكر خمسة أسماء:

الأول: توحيد الإلهية. الثاني: توحيد العبادة. والثالث: توحيد الإرادة.

والرابع: توحيد القصد. والخامس: توحيد العمل.

هذه كلها بمعنىٰ واحد، تُطلَق علىٰ توحيد العبادة، وتوحيد الإلهية، قلنا إنه يسمَّىٰ بحسب نسبته، فإذا نُسِب إلىٰ المخلوق، يُسمَّىٰ توحيد العبادة، وإذا نُسِب إلىٰ الله سبحانه وتعالى، يُسمَّىٰ توحيد الإلهية أو الإلوهية، فهذه كلها أسماء لمُسمَّىٰ واحد، وهو العمل؛ لأن الإسلام ذو شقين: علم وعمل، فما في القلب يسمَّىٰ علمًا، وما علىٰ الجوارح والظاهر يسمَّىٰ عملًا. والقلب له عمل أيضًا، كما أن اللسان له عمل، لكن العلم محله وموطنه القلب، فهذه الأسماء كلها تدل علىٰ مسمَّىٰ واحد، وهو الخضوع لله، والطاعة له، والمحبة له، وتعظيمه سبحانه وتعالى، وهو توحيد العبادة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر:٢]، وقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢﴾ [الزمر: ١١-١٢]، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:١٤، ١٥]، إلى قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩] إلى قوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ ...﴾ [الزمر:٣٨] الآية.

الشرح

الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ نقل آيات من سورة الزمر، وهذه السورة، سورة التوحيد، كلها تتحدث عن التوحيد، وتُبطِل الشرك، وتضرب لذلك الأمثال، وتنهى رسوله وأمَّته عن الشرك، ثم خُتمت في آخرها، بأن ذكرت مصير الموحِّدين، ومصير الكافرين.

فأول آية ذكرها الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ هي: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر:٢]؛ لأن قريشًا كانت تعبد الله، لكن لم تكن تخلص له الدين، فكانت تحج، وكانت تطوف، وكانت تنذر، وكانت تعمل كثيرًا من أعمال العبادات، لكنها كانت تشرك مع الله غيره، فهذا أمْر للرسول ولأمَّته بالعبادة مع الإخلاص، أي أن يعبدوا الله، وألا يشركوا به شيئًا.

وقوله ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢﴾ [الزمر: ١١-١٢]، فهذا أمر له بأن يخبِر عن حاله ﷺ، فهذا حاله وحال أتباعه، وهو

أنهـم موحِّـدون، وقولـه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر:١٢]، لا يعنـي ذلك أنه لم يكن قبلهم مسلمون، فإن البشرية من آدم، إلىٰ بعثة محمد، كان فيها مسلمون، ولكن المراد أن أول المسلمين من الأمة المحمدية، هو محمد.

قولـه تعـالىٰ: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر:١٤، ١٥]، قوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [الزمر:١٥]، هذا أمر بمعنىٰ التهديد، وليس المراد منه الإيجاب؛ فإن الأمر في القرآن يأتي لأغراض شتَّىٰ، فيأتي للتهديد، كما هو هنا، ويأتي للتعجيز، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ [الإسراء:٥٠]، ويأتي للإباحة، كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]، فالمعنىٰ أن الذي يذهب إلىٰ بيته عقب صلاة الجمعة، ليس عليه حرج، فصيغة الأمر ليست دائمًا للوجوب، إنما هي بحسب السياق، فالسياق يدل علىٰ المراد بالأمر، هل هو للوجوب، أو للتعجيز، أو للاستفهام، أو للتوبيخ، أو للإباحة؟ فهنا للتهديد، أي سترون العقاب، وسترون جزاءكم، فليس معناه أنه يأمرهم بعبادة غيره ﷻ، وإنما يهددهم بذلك.

قولـه تعـالىٰ ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩]، والقـرآن الكـريم يتَّخـذ الأساليب المختلفة في توضيح الحقائق الدينية، فبعضها يكون بالأمر المباشر، وبعضها يكون بضرب الأمثال، وبعضها يكون عن طريق القصة، وهذه كلها من وسائل التربية والتعليم القرآنية.

فهنا يضرب المثل ليبيِّن حقيقة المشرك وحقيقة الموحِّد، فالمشرك الذي تعلق قلبه بغير الله، فإنه يعيش في حالة فزع، وحالة قلق، لا يدري من يُرضِي، أيُرضِي هذا الإله، أو يُرضِي هذا الإله؟ فهو يعيش في حالة قلق واضطراب،

لكن الموحِّد قلبه مجموع، وقلبه موحَّد متجِه إلىٰ واحد، فهذا المثال يبيِّن فيه ﷻ حال المشرك الذي يعيش في حالة قلق واضطراب.

فيقول: أرأيت لو أن هناك شخصًا مملوكًا لأشخاص متشاكسين، المتشاكسون بمعنىٰ أن أخلاقهم شَكِسَة، وشَكِسُ الخلق، إما بمعنىٰ السوء، أو بمعنىٰ الاختلاف، فلو كان هناك مجموعة أشخاص أخلاقهم سيئة، وهم مشتركون في عبد واحد، فهذا العبد كيف يعيش؟ لأن هذا يقول اذهب، وهذا يقول ارجع، هذا يقول اجلس، وهذا يقول قم، فإنه يعيش في حالة مضطربة، وهكذا الذي يصرف عبادته لغير الله، دائمًا يعيش في قلق واضطراب، يريد أن يرضِي هذا، أو يأخذ هذا، أو يجمع هذا، فقلبه موزَّع مشتَّت، لكن قلب الموحِّد قلب مطمئن، ليس له إلا مالك واحد، إن أمره بأن يقوم، ليس هناك مَن يعارضه، وإن أمره أن يذهب، ليس هناك أحد يمنعه، فالموحِّد قلبه يعيش في طمأنينة، ويعيش في رضًىٰ، ويعيش في حالة نفسية مستقرة، بخلاف المشرك الذي قد توزَّع قلبه علىٰ أرباب مختلفين.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ...﴾ [الزمر:٣٨]، يأمر الله -تعالىٰ- رسوله أن يخبرهم بهذه الحقيقة، أي أرأيتم ما تدعون من دون الله -سواء كانوا من الأصنام أو من الملائكة أو من غيرهم- إذا أراد الله -سبحانه- بي خيرًا، أو أراد بي شرًّا، هل يستطيع أحد منهم أن يمنع الخير أو يمنع الشر؟ فهذا تقرير لتوحيد العبادة عن طريق توحيد الربوبية، فإذا كان المُلْك كله لله، والتصرف كله لله، والفعل في الكون كله لله، لم تُصرف العبادة لغير الله؟ والذي اتُّخِذَ إلهًا من دون الله، لا يملك أن يمنع الخير أو الشر، ولا يأتي بالخير ولا بالشر، فلماذا يُعبَد؟ ولماذا يُطاع ويُخضَع له؟.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إلـىٰ قولـه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾، إلـىٰ قولـه: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزمـر:٥٤]، إلـىٰ قولـه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمـر: ٦٤-٦٦] إلىٰ آخر السورة.

فكـل هـذه السـور في الـدعاء إلـىٰ هـذا التوحيـد والأمـر بـه، والجـواب عـن الشبهات والمعارضات، وذكر ما أعد الله لأهله من النعيم المقيم، ومـا أعـد لمـن خالفه من العذاب الأليم، وكل سورة في القرآن، بل كل آية في القـرآن فهـي داعيـة إلىٰ هـذا التوحيـد، شـاهدة بـه متضـمنة لـه؛ لأن القـرآن إمـا خبـر عـن الله تعـالىٰ وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الصفات، فـذاك مسـتلزم لهذا متضمن له.

وإما دعاء إلىٰ عبادته وحده لا شـريك لـه، وخلـع مـا يُعبـد مـن دونـه، أو أمـر بأنواع من العبادات، ونهـي عـن المخالفـات، فهـذا هـو توحيـد الإلهيـة والعبـادة، وهو مستلزم للنوعين الأولين، متضمن لهما أيضـا، وإمـا خبـر عـن إكرامـه لأهـل توحيده وطاعته، وما فعـل بهـم في الـدنيا، ومـا يكـرمهم بـه في الآخـرة، فهـو جـزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الـدنيا مـن النكـال، ومـا يحـل بهم في العقبىٰ من الوبال، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

الشَّرح

قال سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ...﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤]، قريش لم تكن تعبد الآلهة لأنها ترزق أو تحيي أو تميت، ولكن أرادوا منها الوساطة بينهم وبين الله ﷻ، فنفَىٰ الله عنها مُلْك الشفاعة، ويقول الشفاعة كلها لله، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يشفع إلا لِمَن ارتضَىٰ، فلا شافع قادر علىٰ أن يشفع في أمر، ما أراده الله ﷻ.

وقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٤] وقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦]، هذا تهديد لرسول الله، أنه لو أشرك؛ لحَبِطَ عملُه، وحاشاه من الشرك، فإذا كان سيد البشر المصطفىٰ المختار، الذي هو في قمة البشرية، لو وقع منه شرك؛ لعاقبه الله، فغيره من باب أَوْلَىٰ.

فمع اعتقادنا أن رسول الله أبعد الناس عن الشرك، فهو المصطفىٰ المختار، وهو سيد البشر، وهو أعرف الناس بالله ﷻ، فلم يقع منه شرك، لكن الله خالق الوجود، ورب الكون يبيِّن أن رسوله لو وقع منه شرك؛ لعُوقِبَ، فما بالكم بغيره من البشر!

قوله: (**فكل هذه السور في الدعاء إلىٰ هذا التوحيد، والأمر به**)، الشارح ؒ ذَكَر أن سورة الزمر كلها في التوحيد، ثم قال ليس فقط هذه السورة، بل كل القرآن في التوحيد، فذَكَر أن القرآن فيه أربعة أنواع، وكلها في التوحيد:

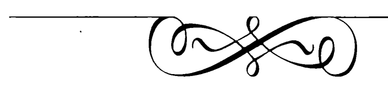
النوع الأول: حديث القرآن عن الخالق ﷻ، وعن أسمائه، وعن صفاته، وعن أفعاله، فهذا توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

الثاني: حديث القرآن عن حق الله على الناس، وهو الأمر والنهي، إما أمر للناس بالعبادة، أو نهي لهم عن الشرك، فهذا هو توحيد العبادة.

الثالث: حديث القرآن عن الذين وحَّدوا الله، ماذا فعل الله بهم في الدنيا؟ فقد تحدَّث القرآن عن الأمم الماضية، وعن الأنبياء والمرسلين، وكيف نصر الله المؤمنين، وماذا جعل لهم في الآخرة من جزاء النعيم؟.

الرابع: حديث القرآن عن مَن خالَف هذا التوحيد، وهم المشركون، وبماذا عاقبهم الله به في الدنيا من أنواع العقوبات، وماذا أعدَّ لهم في الآخرة من أنواع العقوبات؟.

فالقرآن كله في التوحيد، والتوحيد هو محور القرآن، هو المقصد الذي جاء القرآن من أجله، فهو إما إخبار، أو أمر، إخبار عن الله وعن أسمائه وصفاته وعن الجزاء، وأمر بعبادته وطاعته، فالقرآن كله -بجميع سوره وآياته- في التوحيد، في تقريره، وبيان نتائجه، وما أعدَّه الله للصالحين يوم القيامة من نعيم، وما أعدَّه للمشركين من أنواع العقوبات.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه، كما قال النبي ﷺ: «بُني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت» رواه البخاري ومسلم. فأخبر أن دين الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة وهي الأعمال، فدل على أن الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له، بفعل المأمور، وترك المحظور، والإخلاص في ذلك لله.

وقد تضمن ذلك جميع أنواع العبادة فيجب إخلاصها لله تعالى، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في شيء فليس بمسلم. فمنها المحبة، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله فهو مشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]. إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٧].



قوله: (التوحيد)، أشار به إلى توحيد العبادة، قال: (هو حقيقة دين الإسلام، الذي لا يقبل الله من أحد سواه، كما قال النبي: بُني الإسلام على خمس)، والعلماء مختلفون في المراد بهذه اللفظة، فقد يفهم البعض منها أن الإسلام محصور في هذه الخمس، ولكن الحقيقة، أن الحديث أراد أن يبيِّن أصول الإسلام وأركانه، فليس الإسلام الأركان الخمسة فقط، بل الإسلام أوسع دلالة، لكن هذه أركانه، مَن لم يأت بها؛ لم ينفعه الإسلام، فالبناء هنا للدلالة على أهمية هذه الأركان.

فأولها الشهادتان، والشهادة هي بوابة الإسلام، مَن لم يدخل بها للإسلام؛

لا ينفعه عمله، فلو قال: أشهد أنه لا رب إلا الله، لا يكفيه، ولا يدخل به في الإسلام، فلابد أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، فشهادته أن لا إله إلا الله يجعله ملزَمًا بأن لا يعبد غيره ﷻ، ولهذا قريش لم تقلها عندما دُعيَت إليها، وصبرت على الحرب؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الأرض فيها آلهة غير الله، كما قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]. فلم يقولوا لا إله إلا الله؛ لأن ليس المراد منها تلفُّظها فقط، بل المراد منها الالتزام بمدلولها، فهي عَقْد بين العبد وربه، فإذا قالها، لزمه جميع حقوقها، وجميع شروطها، وجميع مستلزماتها، فهذه هي القاعدة الكبرى في الإسلام، مَن أراد أن يسلِم يقولها، وهي أول ما يؤمر به العبد، إذا أراد الإسلام، وأول ما يؤمر به الصبي إذا بلغ، فهذا هو الإسلام. (**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**)[1]، والشهادتان متلازمتان، الشهادة بالرسالة، والشهادة بالألوهية.

ثم ذكر بعد ذلك إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لِمَن استطاع إليه سبيلًا، هذه أركان الإسلام، فمَن لم يأت بها، فلا حظَّ له في الإسلام، ومَن أتى ببعضها، فإن إسلامه ينقص بحسبه، ولهذا اختلف العلماء فيمَن لم يأت بالأعمال بعد الشهادتين، هل يكون كافرًا أم لا؟ فمنهم مَن كفَّر بالصلاة فقط، ومنهم مَن كفَّر بالصلاة والزكاة، ومنهم مَن كفَّر بالأركان الخمسة، ومنهم مَن قال لا يكفُر، ولكنه يُقتَل حدًّا، إذا لم يصل، فإنه يؤمر بالصلاة، فإذا لم يصل بعد الشهادتين، فإنه يُقتل حدًّا، ومنهم مَن قال برِدَّتِهِ، ولكن ابن تيمية رحمه الله يقول: هذا كلام نظري، فيستحيل أن الإنسان يشهد أن لا إله إلا الله، مُقِرًّا بقلبه بهذه الحقيقة، ثم يؤمَر بالصلاة، ويُحضَر السيف، ويُقال له: إما أن تصلي، وإما أن نقتُلك! ولهذا لا يُعرف في التاريخ كله، أن أحدًا قال

(١) سبق تخريجه.

الشهادتين، ثم امتنع عن الصلاة، فأُحضِر إلىٰ الحاكم، فأُمِر بالصلاة، وامتنع، فجيء بالسيف؛ ليُقتَل به، فامتنع. قال: هذا الكلام كله نظري، فليس كل ما يقال في الفقه يكون له واقع تطبيقي، إنما هذا افتراض؛ لبيان حُكْم المسألة، لا لبيان الواقع، فإنه لم يحدث أن أحدًا قال الشهادتين، ثم امتنع عن الصلاة، حتىٰ سُجِن، أو قُتِل.

لازال الشارح رحمه الله يعرِض طرَفًا من توحيد الألوهية، حيث تقدَّم كلامه في عَرْض أقسام التوحيد، ثم ختم كلامه بالحديث عن توحيد الألوهية، وسيذكر اثني عشر نوعًا من أنواع العبادة، وقدَّم الأنواع التي تخُص القلوب، فإن أعمال القلب هي القاعدة للتوحيد، والقلب هو ملك الجوارح، إن صلح؛ صلحت بقية الجوارح، وإن فسد؛ فسدت. فقدَّم الشارح رحمه الله أربعة أنواع من أنواع العبادة، هي كالقاعدة الأساسية للتوحيد، وهي: **المحبة، والتوكل، والاستغاثة، والاستعانة**. وهذه هي أعمال القلب التي يقوم عليها بقية التوحيد، وقدَّم المحبة؛ لأنها أصل عظيم في الدين، وهي القاعدة الكبرىٰ التي يقوم عليها التوحيد، فمن لا محبةَ له، لا توحيدَ له، وإن نقصت المحبة من القلب؛ نقص التوحيد بحسبه.

والمحبة هي أساس الدين، والمحبة أي محبة الله عز وجل، وربنا تبارك وتعالى يُحَبُّ لذاته، فإنه أصل كل جلال، وأصل كل جمال، ومنه وإليه يرجع الأمر، خلق الكون كله، سماءه وأرضه، وهواءه وماءه، وإنْسَه، وجِنَّه، والأمر كله بيده، والقلب إذا لم يمتلئ بمحبة الخالق، فإنه لا يعبده العبادة الصحيحة، ولهذا فإن المشركين إنما أشركوا في المحبة، ومن ثَمَّ انحرفوا في جميع أنواع التوحيد، كما قال سبحانه وتعالى في الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ...﴾ [البقرة:١٦٥]، إلىٰ آخر ما ذُكِر من الآيات في هذا الباب.

فالمشركون أشركوا في المحبة، ومن ثَمَّ دعوا غير الله، وخضعوا لغير الله، وخشعوا لغير الله، وصرفوا العبادة لغير الله، فهم أشركوا مع الله أولًا في المحبة، كما قال ﷻ عنهم وهم في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، فقال المفسرون والعلماء: لم يكونوا يسوُّون ءآلهتم برب العالمين في الخالقية، ولا في الرازقية، وإنما كانوا يسوُّون شركاءهم بالله ﷻ في المحبة، والآية الكريمة تدل على ذلك: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾، فذكر أن اتخاذهم غير الله أندادًا، ثم فسرها: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾، قال المفسِّرون: معنى يحبونهم كحب الله، إما أن يكونوا ساووهم في محبتهم لله ﷻ، بأن أحبُّوا الله وشركاءهم سواءً، هذا قول، والقول الثاني: أنهم يحبونهم كمحبة المؤمنين لله.

فالقول الأول يثبت لهم المحبة، والقول الثاني لا يثبت لهم المحبة، أي إن المشركين يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون اللهَ ﷻ، وابن تيمية رحمه الله يرجِّح القول الأول، أي أنهم يساوونهم في المحبة، لا أنهم لا يحبون الله ﷻ، فقال: لو كانوا لا يحبون الله -سبحانه- ما كان لهم ذِكْر في الآية، والآية ذكرت أنهم يحبونهم كحب الله، أي كحبهم لله ﷻ، وهذا هو الشرك؛ لأن معناه إشراك قضيتين، وجمعهما في قضية واحدة، فالتقاء الطرفين في أمر، يكون شركًا، وهو ما عَنَتْهُ الآية في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾، فالحب الذي صرفه المشركون لله ﷻ محبة عبادة، ومحبة خضوع، ومحبة شرك، لا محبة طبيعة.

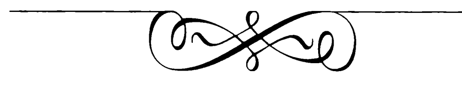
ولهذا يقول العلماء: المحبة على قسمين:

القسم الأول: محبة عامة، وهي التي ليس فيها شرك، فلا يُسمَّى صاحبها مشركًا، وهي أنواع: كمحبة الطعام، ومحبة الشراب، ومحبة الزوجة، ومحبة

المال، هذه محبة طبيعية، ومحبة مخالَطة، قد يخالِط الإنسان إنسانًا آخر، فيحبه للمخالطة.

القسم الثاني: المحبة الشرعية، وهي التي يكون فيها خضوع وتذلُّل وطاعة، فإذا أحببت إنسانًا، ثم خضعت له، وأطعته، وأنت في هذه الطاعة متذلِّل له، تكون مُحبًّا له محبة شركية، هذه المحبة الشركية هي التي ذمَّ الله أصحابها، فمَن أحب غير الله ﷻ هذه المحبة، وصرفها له، فقد أشرك، والمحبة في هذا النوع لا تُصرَف إلا لله ﷻ، والمحبة لله ﷻ ولرسوله، أساس الدين، وبها تذوق حلاوة الإيمان، كما قال ﷺ: **(ثلاث مَن كُنَّ فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه من مما سواهما)**[1]، فالإيمان له في القلوب حلاوة ولذة، لا تعدِلها حلاوة، وهذه المحبة تقتضي الطاعة، وتقتضي الخضوع والتذلُّل؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:٣١]، فالمتابعة والطاعة، علامة المحبة، فالذي يزعُم المحبة، ولا يطيع الله، ولا يتابع الرسول، يكون كاذبًا في محبَّتِه، فالمحبة الشرعية تقتضي كمال الذُّل، مع كمال الطاعة، وكمال المتابعة، فمَن لم يكن فيه هذه الصفات الثلاث، فإن محبته مغشوشة، ودعواه المحبة كاذبة.

فمحبة الله ﷻ هي القاعدة الكبرىٰ لهذا الدين؛ ولهذا لا يجوز صرفها، أو صرف شيء منها، لغير الله ﷻ، أما المحبة الطبيعية، فهذه ليس فيها هذا المعنىٰ.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، برقم: (١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال مَن اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم: (٤٣)، (١/ ٦٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها التوكـل، فـلا يتوكـل علىٰ غيـر الله فيمـا لا يقـدر عليـه إلا الله، قـال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة:٢٣]، وقال تعـالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٢٢﴾ [آل عمران:١٢٢]،والتوكـل علىٰ غيـر الله فيمـا يقـدر عليـه شرك أصغر.

ومنها الخوف، فلا يخاف خوف السر إلا من الله، ومعنىٰ خوف السر هـو أن يخاف العبد من غير الله تعالىٰ أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرتـه وإن لـم يباشـره، فهـذا شـرك أكبـر؛ لأنـه اعتقـاد للنفـع والضـر في غيـر الله، قـال الله تعـالىٰ: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ٥١﴾ [النحـل:٥١]، وقـال تعـالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائـدة:٤٤]، وقـال تعـالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧].



الشَّرْح

قولـه: (ومنهـا التوكـل)، التوكـل لـه قاعـدتان، لا يكـون متـوكلًا إلا بحصولهما:

القاعدة الأولىٰ: الثقة.

والقاعدة الثانية: الاعتماد.

فإذا لم تكن واثقًا فيمَن توكلت عليه، لا تكـون متوكلًا، وإذا وثقـت فيـه، ولـم تعتمد عليـه في قضـاء حاجاتـك، لا تكـون أيضًـا متـوكلًا، فالاعتمـاد يسبقه

الثقة، فالإنسان يثق في الله ﷻ وأن الله قادر علىٰ أن يقضي حاجته، وأن يدفع عنه البلاء والمصائب، فالثقة تسبق الاعتماد، فأنت تثق في الله، ثم تعتمد عليه ﷻ، فقد تثق في إنسان، ولا تعتمد عليه، وقد تعتمد علىٰ إنسان، ولا تثق فيه، بحسب ذلك، فالتوكل علىٰ الله ﷻ، لابد أن يكون ثقةً واعتمادًا.

والتوكُّل ليس معناه ترك الأسباب، ولكن هو أن تتَّخِذ الأسباب، وتعتقد أن النتيجة بيد الله ﷻ، وقد قال العلماء: تركُ الأسباب نقصٌ في العقل، والاعتماد عليها نقصٌ في الدين، فإنه ما من شيء في الوجود إلا وقد جعل الله له أسبابًا، فالجوع يُدفَع بالطعام، والعطش يُدفَع بالشراب، والعُرْي يُدفَع بالكساء، وهكذا؛ فالله -سبحانه- جعل الكون كله يقوم علىٰ الأسباب، فعلوم الطب تقوم علىٰ الأسباب، وعلوم الرياضيات تقوم علىٰ الأسباب، هكذا كل الكون، فإن الدارسين للكون لا يعرفون النتائج، إلا إذا كانت الأسباب تؤدي إلىٰ نتائجها، لكن لو لم تكن الأسباب مؤدِّية للنتائج، لكان الإنسان لا يستطيع أن يستفيد من علمه، ولا من تجربته، ولا من خبرته.

ولهذا نرىٰ في حياة الأنبياء، أنهم جميعًا كانوا يباشرون الأسباب، لكنهم لم يكونوا يعتمدون عليها، فنوح عندما أخبره الله بالطوفان، صنع السفينة؛ لأن السفينة سببٌ للنجاة، لكن الله قد يُغرق السفينة، وكذلك نبينا عندما هاجر من مكة إلىٰ المدينة، اتخذ الأسباب، فاختفىٰ في غار ثور، وبَقِيَ فيه ثلاثة أيام، ثم هاجر إلىٰ المدينة، والله ﷻ قادر أن ينقله من مكة إلىٰ المدينة بدون أسباب، كما فعل في الإسراء والمعراج، فأُسْرِيَ به في ليلة واحدة، من مكة إلىٰ بيت المقدس، ثم عُرِجَ به إلىٰ السماء، ولكن الله -سبحانه- أراد أن يكون رسوله مُشرِّعًا.

ومريم عليها السلام عندما كانت في حالة المخاض، أراد الله أن لا ينزل عليها

الرَّطَب إلا بسبب، فقال: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم:٢٥]، مع أنه قادر أن ينزل عليها الرَّطَب بدون سبب، فاتخاذ الأسباب أمر مشروع في الدين، لكن ذلك لا يعني أن السبب لا بد أن يحقق النتيجة، فالنار تحرق، ولكن الله ﷻ أفقدها خاصية الإحراق في قصة إبراهيم، عندما قال الله ﷻ: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء:٦٩]، قال العلماء: لو لم يقل الله ﴿وَسَلَٰمًا﴾، لأهلكته ببَرْدِها، ولو لم يقل الله ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، لبقيت النار بردًا إلىٰ يوم القيامة، لكن الله خصَّص أمرين: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾؛ لأن البرد قد يُهلِك ويقتِل، لكن الله جعل مع البرد سلامًا، ثم قال: ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، وإلا فلو قال للنار بأن تبقىٰ بردًا وسلامًا، لبقيت إلىٰ قيام الساعة، لكن الله خصَّص ذلك الأمر، فمنع الله ﷻ النتيجة مع وجود الأسباب.

وإن إبراهيم قد حصل له أمران، كلاهما قد فقد النتيجة، ولم تحقق الأسباب النتائج: الأول: في قضية النار، والثاني: في قضية ذبح ابنه إسماعيل، فقد تَلَّهُ للجبين، وأخذ السكين وأمرَّها علىٰ عنقه، فلم تقطعه، مع أن السكين تقطع، لكن الله أوقف نتائج السبب.

فالنتائج ليست حَتْمِيَّة، بل الأسباب مَظَنَّة وقوع النتائج؛ ولهذا لا ينبغي الاعتماد علىٰ الأسباب، فإن الأسباب بيد الله ﷻ، فاتخاذ الأسباب أمر مشروع في هذا الدين، ولكن لا يعلق القلب بهذه الأسباب، فتتخذ الأسباب، ثم يعلق القلب بالله ﷻ، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (حسبنا الله ونعم الوكيل، كلمة قالها إبراهيم عندما أُلقِيَ في النار، وقالها محمد عندما قال له الناس ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾

[آل عمران:١٧٣][1]، وكان هذا مع اتخاذ الأسباب، فقد لبس النبي الدرعَ، وخرج بالصحابة للقتال، ولكنه توكل علىٰ الله ﷻ، فالتوكل لا ينبغي أن يُصرَف إلا لله، لا يُصرَف للمخلوق، لكن لو مال القلب إلىٰ المخلوق، فيما يملك فيه بعض الأسباب، لا يكون شركًا أكبر، الشرك الأكبر: أن تعتمد بقلبك علىٰ المخلوق، فيما لا يقدر عليه إلا الله، أما لو مال قلبك إلىٰ مَن يملك المال، أو يملك الجاه، فهذا شرك أصغر، لا يُخرِج من المِلَّة، ولهذا لا يسمَّىٰ صاحبه مشركًا، لكنه نقص في توحيده، وسيأتي في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، أنهم لا يلتفتون إلىٰ الأسباب، ارتقوا أعلىٰ درجة، في الإيمان الذي ينجو به صاحبه يوم القيامة، يكفي لدخول الجنة النسبة الواجبة، ثم يتنافس المؤمنون في الدرجات الأخرىٰ، فأعلىٰ درجة هم الذين ذكرهم الرسول في الحديث أنهم **(لا يتطيَّرون، ولا يسترقُّون، ولا يكتوون، وعلىٰ ربهم يتوكلون)**[2]، فقمة الإيمان أن يعتمد القلب علىٰ الله، وألا يلتفت إلىٰ الأسباب، لكن ليس معنىٰ ذلك ترك الأسباب، فإن الأسباب علىٰ ثلاثة أنواع، أو علىٰ خمسة أنواع، بحسب أحكام الشريعة:

منها ما هو واجب، وهو ما أُمِرْنا به في الدفاع عن النفس، والجهاد في سبيل الله، ونصر الدين، فهذه أسباب واجبة، ومنها ما يكون مستحبًّا، ومنها ما يكون مباحًا، ومنها ما يكون مكروهًا، فالمكروه كالكَيْ، فإنه مكروه، وإن كان جائزًا، ثم المحرَّم، وهو التداوي بالمحرَّم، أو اتخاذ سببٍ محرَّم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، برقم: (٤٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب من لم يرق، برقم: (٥٧٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم: (٢١٨)، (١/ ١٩٨).

فالتوكل لا يجوز أن يصرف لغير الله ﷻ، فالناس إذا علَّقوا قلوبهم بغير الله، فإنهم قد أشركوا مع الله غيره، وهناك ما يسمَّىٰ بالتواكُل، وهو ترك الأسباب، وانتظار النتائج، وهذا تواكل، وهذا ليس من الشرع، بل يُكرَه، فإن الشرع حَثَّ علىٰ اتخاذ الأسباب، وأمَرَ بها، لكن لا يعتمد القلب عليها؛ ولكن الله قد يوقف النتائج ﷻ، فالتوكل الذي يكون شركًا، هو فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، فهذه قاعدة أخرىٰ من قواعد الدين، القاعدة الأولىٰ: المحبة، والثانية: التوكل، وهي التي نقولها في كل صلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥]، أي لا نستعين إلا بك يا الله، في جميع أمورنا، وجميع حاجاتنا.

وقد انقسم الناس في الأسباب إلىٰ ثلاثة أقسام:

قسم بالغ فيها، وهم القدرية، جعلوا الأسباب أمرًا مُحَتَّمًا، فبالغوا في الأسباب.

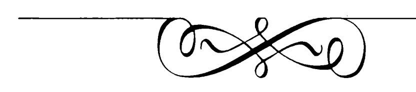
وقسم -وهي الطائفة المقابلة للقدرية- وهم **الجبرية، عطَّلوا الأسباب**، وقالوا: ليس في الحياة شيء اسمه سبب، بل هذه نتائج تقارن أسبابها فقط اتفاقيًّا، وإلا فإن السبب لا يؤدي إلىٰ النتيجة، ولهذا ألغوا باء السببية، وألغوا لام التعليل، وهذه الطائفة تقابل الطائفة الأولىٰ، فالقدرية في طرف، والجبرية في طرف آخر، لكن أهل السُّنَّة والجماعة أثبتوا الأسباب، ولكنهم لم يجعلوها أمرً مُحَتَّمًا، فقالوا: لابد من اتخاذ الأسباب، لكن النتائج قد لا تتحقق، وهي معلَّقة بقدرة الله ﷻ، فهذا هو الوسط.

قوله: (**ومنها الخوف**)، الخوف: كذلك لا يجوز أن يخاف الإنسان إلا من الله، لكنا لا نعبد الله بالخوف فقط، ولا نعبده بالحب فقط، ولا نعبده بالرجاء فقط، قال ابن تيمية رحمه الله: مَن عبد الله بالحب، تَزَنْدَق، ومَن عبد الله بالخوف،

كان حروريًّا، ومَن عبد الله بالرجاء، كان مُرْجِئًا، فنعبد الله بجميع هذه الأنواع، نعبد الله محبةً وخوفًا ورجاءً، أما مَن عبد الله بالحب فقط، فقد يكون زنديقًا؛ لأن الذي يحب الله محبةً ليس فيها تعظيم، يصبح كقضايا الغرام والعشق، كما نراها في كتب الصوفية؛ فإنهم تعاملوا مع الله كما يتعامل المحبُّون من البشر لمحبوباتهم من النساء، فتغزَّلوا في ذات الله ﷻ، وأنشدوا فيه القصائد التي لا تليق بالله ﷻ، فأن يحب الإنسان الله كما يحب الناس بعضهم بعضًا، أو كما يحب الرجال النساء، هذه المحبة محبةُ زندقةٍ، لا محبةُ إيمانٍ، أما المؤمن فإنه يحب الله حبًّا يخالطه التعظيم والهَيْبَة والإجلال، فأنت تحب مالك الكون العظيم ﷻ، فتقف معه موقف العبودية لا موقف الغرام.

فنعبد الله بهذه الأطراف الثلاثة: بالحب، وبالخوف، وبالرجاء. والخوف الذي يكون فيه خضوع، لا يجوز صرفه إلا لله، فلا تخاف إلا من الله، ولهذا يقول ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥]، أي: يخوِّفكم أولياءه، هنا يقدَّر محذوف، وهو ضمير المخاطب (كم) مع ميم الجمع، فإن الحذف أو التقدير من الأساليب العربية، فالعرب تجْتَزِئ بالكلام، فتحذف أحيانًا فعلًا، وأحيانًا اسمًا، وأحيانًا حرفًا، ولكن السياق يدل عليه، فهنا ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾، أي يخوفكُم أولياءه، أي أن الشيطان يخوِّف المؤمنين من الفُسَّاق والكافرين، فهذا معنىٰ ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فهنا الضمير بيَّن لنا المحذوف، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾؛ لأن الشيطان لا يخوِّف أولياءه، هو يُعِينُهم، إنما يخوِّفُنا من أوليائه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]، فهذا الخوف الذي فيه امتناع عن أداء واجب، أو فعل للمحرَّم، هو خوف العبودية، الذي لا يجوز إلا لله ﷻ.

أما الخوف الطبيعي، وهو حركة القلب اللاإرادية، كخوفك من السِّباع، أو غيرها من الدَّوَاب، كما قال -سبحانه- في قصة موسىٰ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١]، فليس هذا من الخوف الذي يكون شركًا؛ لأن هذا خوف طبيعي، فالخوف الطبيعي هو الذي لا يمنعك من واجب، ولا يدفعك إلىٰ حرام، فإنما تخاف خوفًا طبيعيًّا، كما يحدث للإنسان من السِّباع، ومن الأشياء المُخيفة، أما الخوف الذي يستلزم العبودية، والتذلُّل، والطاعة، أو الامتناع عن الطاعة، فهذا يكون خوفًا شركيًّا، يُحرَم علىٰ الإنسان أن يصرفه لغير الله سبحانه وتعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، كمن يدعو الأموات أو غيرهم راجيًا حصول مطلوبه من جهتهم، فهذا شرك أكبر، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة:٢١٨]. وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لا يَرْجُوَّنْ عبدٌ إلا ربه، ومنها الصلاة والركوع والسجود، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ [الكوثر:٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ...﴾ [الحج:٧٧] الآية، ومنها الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، سواء كان طلبًا للشفاعة أو غيرها من المطالب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر:١٣، ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ...﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤] الآية.

الشَّرح

قوله: (ومنها الرجاء)، الرجاء تعلُّق القلب في تحصيل خير، أو دفع شر، فالإنسان إذا كان يترقب خيرًا، فإن هذا يسمَّىٰ رجاءً، فإن ترقب الخير من غير الله، تعلَّق قلبه بغير الله، وإن ترقب دفع الشر من غير الله، كان قلبه متعلِّقًا بغير الله، فالقلب لا ينبغي له أن يرجو إلا الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولا يعْلَق إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن

المُغالاة في الرجاء، قد تؤدي إلىٰ إهمال العمل، وقد ظهرت طائفة، فمالت في جانب الرجاء، وهوَّنَت علىٰ الناس بذلك المعاصي، وكأنها تقول: إن مَن قال لا إله إلا الله، فإنه يكفيه في النجاة من عذاب الله، بل جعلته مؤمنًا، إما بقوله لها، وإما بالتصديق بصحتها، وهم المُرْجِئة، يقولون إن مَن صدق بقلبه، أن هذا الدين حق؛ فهو مؤمن، وإن لم يعمل بالواجبات، ولا يمتنع عن المحرمات، فإنه عندهم مؤمن، فهذه الطائفة قد ألغَت جميع الأوامر والنواهي، وفرَّطَت في حق الله ﷻ في هذا الجانب، وليس معنىٰ قولهم أن مَن صدَّق بوجود الله يكون مؤمنًا، هذا لا تقوله المُرجئة؛ لأن هذا كان في المشركين، ولا يسمُّون مؤمنين.

قوله: (**ومنها الصلاة**)، الصلاة علىٰ ثلاثة أنواع: منها ما هو قيام، ومنها ما هو ركوع، ومنها ما هو سجود، والصلاة بهيئاتها الثلاث، لا يجوز أن تُصرَف لغير الله، فوقوف التذلُّل، خاص بالله ﷻ، والركوع خاص بالله ﷻ، والسجود خاص بالله -سبحانه-. فمَن صرَف بعض هيئات الصلاة لغير الله، فإنه يكون قد أشرك مع الله في بعض أجزاء الصلاة، فهذا المراد من قول الشارح، أن الصلاة لا تُصرَف إلا لله ﷻ.

قوله: (**ومنها الدعاء**)، والدعاء علىٰ نوعين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ولا يجوز صَرْفهما، أو أحدهما، إلا لله ﷻ، ثم ساق آيات كلها في الدعاء:

الآية الأولىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ...﴾ [فاطر:١٣] إلىٰ آخرها، فيها خمس وقفات:

أولاً: قوله ﷻ: ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾، وهذا في غاية التصغير والتحقير لهم، فإن المخلوق الذي لا يملك قطميرًا، -والقطمير هو القشرة

الرقيقة التي تكون بين التمرة والنواة-، هذه القشرة لا يملكها الذين تدعون من دون الله، فما داموا لا يملكون كيف يُدعَوْن؟ ولا يملكها إلا الله ﷻ، فذكر أولًا: أنهم لا يملكون شيئًا كبيرًا، ولا صغيرًا، حتىٰ القطمير، الذي هو أتْفَه الأشياء، ولو وُزِنَ، لعلَّه لا يَزِنُ شيئًا، فكيف تدعون مَن لا يملك ولا قطميرًا؟

والوقفة الثانية: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، وهذا في الأصنام والأوثان الجامدة، فهؤلاء لا يسمعون دعاءكم، سواء دعَوْتُموهم، أو أنتم صامتون، فإنهم ليس لهم سمع ولا بصر، فكيف يُدعَىٰ مَن ليس له سمع ولا بصر؟ لا يُدعَىٰ إلا مَن يسمع الدعاء، والذي يسمع الدعاء هو الله ﷻ؛ لأن السماع علىٰ نوعين: سماع إجابة، وسماع مُجرَّد من الإجابة؛ ولهذا نقول في الصلاة: سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه، معناه أجاب، وإلا فإن الله يسمع، لكن هنا "سمع" بمعنىٰ أجاب، ندعو الله أن يجيب مَن حَمِدَه، فقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، هذه هي الوقفة الثالثة؛ فإن المخلوق أضعف من أن يجيب مَن دعاه، سواء كان صنمًا، أو كان مخلوقًا ميتًا، أو كان حيًّا، فإن الدعاء لا يكون إلا لِمَن يقدر علىٰ أن يجيب، وليس ذلك إلا لله ﷻ.

الوقفة الرابعة: قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، هذا هو الحسرة والندامة، فيوم القيامة يتبرَّؤن مما عملتموه من عبادتكم لهم، من دعائكم لهم، فلا ينفعونكم لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

الوقفة الخامسة: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٤]، الخبير هو الله ﷻ؛ لأن الخبير هو الذي يعلم بواطن الأمور، فإن بواطن الأمور لا يُدركها الإنسان، ولا يُدركها إلا الله ﷻ، فإنه يعرف ويعلم الأشياء التي لا يعلمها

البشر، وهذا منها، فحديث القرآن عن الآخرة، حديث مستفيض، حديث يدُلُّنا علىٰ أن الله يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فالآخرة وما يحدث فيها من تبرُّؤ، وما يحدث فيها من حوار، وما يحدث فيها من كلام بين أهل النار وأهل الجنة، وبين الملائكة والمؤمنين، كل ذلك قد سجَّله القرآن، يقول العلماء: إن عامل الزمن في القرآن مفقود، فعندنا أمس، وعندنا اليوم، وعندنا غد، لكن أمام الله كلها واحدة، الماضي والحاضر والمستقبل؛ ولهذا القرآن يتحدث عما في الآخرة، كأنه قد حدث؛ لأنه لن يكون إلا في علم الله، لهذا قال ﷻ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، وقالوا هذا من علم الغيب، الله يقول: إن هؤلاء الذين تبرَّؤوا من الشرك يوم القيامة، لو رُدُّوا إلىٰ الدنيا -رغم ما عاينوه من عذاب الله، ومن عقوبة المشركين-، لرجعوا إلىٰ ما كانوا عليه، فعامل الزمن في القرآن مفقود، يتكلم عن الدنيا، وعن الآخرة، وعن الماضي، وعن المستقبل، كله في آية واحدة؛ لأنه أمام الله ﷻ مكشوف.

أما المخلوق، فالماضي عنه مستور، والمستقبل عنه محجور، ولا يعيش إلا ساعته، بل حتىٰ في ساعته، محجوب عنه كثير؛ لأن الغيب إما أن يكون زمنيًّا، وإما أن يكون مكانيًّا، فالغيب المكاني، ما كان خارج هذه الأسوار، لا نعرف عنه شيئًا، ولكن الله ﷻ لا يحجبه شيء، ولا يحُول بينه وبين علمه شيء، فهو يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، كله عنده سواء.

فالقرآن يسجِّل هذه المواقف التي ستكون يوم القيامة، بين المشركين ومن أشركوهم مع الله ﷻ.

الآية الثانية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، أول الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾

وهذا إثبات لكلام الله، فالآية تثبت أن الله ﷻ قال، لكن لا نفهم منها أن قول الله كقول المخلوق؛ والذين أنكروا كلام الله، فهموا أن المتكلِّم لابد أن يكون له أسنان، ولسان، ويكون له حنجرة، ويكون له رئتان، فقالوا: ننفي عن الله الكلام، حتىٰ لا يلزم أن يكون الله كذلك، وكيف ينفون ذلك؟ ففي العصر الحاضر، صنع الإنسان المخلوق جهازًا يتكلم بغير لسان، وبغير رئتين، وبغير أسنان، التليفزيون والراديو والتليفون، وهي أجهزة مصنوعة تتكلم بدون هذه اللوازم، فكيف بالذي خلق الإنسان، وخلق جميع الخلق ﷻ؟ فاللوازم باطلة؛ ولهذا كلما مَرَّ الزمن، يؤكد أن مذهب أهل السُّنَّة هو المذهب الصحيح السليم، فإن العقل البشري محدود، فإذا أثبت الله أمرًا، أو أخبرك بأمر، ليس أمامك إلا التسليم؛ لأن عقلك لا يحيط بكل الأمور، فأنت تثبت لله الكلام، لكن لا تدري كيف يتكلم؟ لأن عقلك لا يستطيع أن يكون حَكَمًا في القضايا الغيبية، فهنا مجال العقل التسليم، فإذا أثبت الله أنه يتكلم، أو أنه يجيء يوم القيامة، أو أنه استوىٰ علىٰ عرشه، أو أنه يغضب، أو يرضىٰ، كل هذه الأمور نثبتها، وننفي عنها مشابهة المخلوق، أما تأويلها بمعنىٰ آخر، فهذا خطأ؛ لأن الألفاظ البشرية، استعملها الإنسان كلها سواء، ومهما حاول أن ينْفَكَّ من لوازم الاستعمال البشري، لا يستطيع، فلا يبقىٰ أمامه إلا التسليم لأمر الله ﷻ، مع اعتقاد التَنْزِيه.

فيقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، قريش لا تنكر أن الله ربها، فيقول ﷻ ربكم الذي تعرفون به، قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾، فلا تدعوا من دون الله أحدًا، فإن الله ربكم الذي خلقكم، وأوجدكم، أمركم بألا تدعوا غيره، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، الإجابة من الله ﷻ علىٰ ثلاثة أنواع كما جاء في الحديث: إما أن يعجِّل الله للشخص دعوته، أي يعطيه ما طلب، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة،

فيعطيه بقدرها أجرًا، وإما أن يدفع عنه من البلاء بقدرها، هذا معنى الإجابة، ليس معناه أن يعطي الداعي ما سأل، فالله ﷻ يعامله بحسب ما ينفعه، فإنه ﷻ يعلم، والداعي لا يعلم؛ لأن الله هو الخبير، أي يعلم بواطن الأمور، فقد يؤخِّر الله عنه الإجابة؛ ليكثُر دعاؤه، وليكثُر خضوعه، ولتكثُر عبوديَّته لله -سبحانه-، فلو أعطاه ما سأل، ربما يلحقه منها ضرر، أو ينصرف عن العبادة.

ولهذا يقول بعض العلماء: بعض الناس يسأل الله الغِنَى، ويكون مِمَّن يعمِّر المساجد، لعلَّه لو أُعطِيَ الغِنَى، لتخلَّف عن المساجد، فمن رحمة الله به، أن لا يعطيه ما طلب، لكن يعطيه مقابل دعوته، إما أن يصرف عنه من الشر بحسبه، وإما أن يدَّخرها له يوم القيامة، وإما أن يعطيه ﷻ بها في الدنيا، فالله يتولَّى أمر المؤمنين، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، سواء كان المراد بالعبادة دعاء المسألة، أو دعاء الخضوع، فكلاهما مَن تكبَّر عنه، فإن مصيره إلى جهنم داخرًا، أي صاغرًا حقيرًا، أعاذنا الله من جهنم.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومنها الذبح، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢]، والنسك: الذبح.

ومنها النذر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان:٧].



الشرح

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، الصلاة هي العبادة المعروفة، والنُّسُك هو الذبح، وخُصَّ هذان الأمران؛ لأنهما يمثِّلان العبودية بطرفيها، العبودية الجسمية، والعبودية المالية، والإنسان مُطالَب بأن يعبد الله بجسمه وجوارحه، وأن يعبد الله فيما أعطاه من المال، فهذان نموذجان، وإلا فكل الدين ينبغي أن يكون لله -سبحانه، ﴿وَمَحْيَايَ﴾، يشمل كل حياة الإنسان، فجميع حركته في حياته، لله، ثم مماته، ينبغي أن يكون لله، فما بقيَ من حياته شيء لغير الله، وليس معنىٰ اللام في ﴿لِلَّهِ﴾ المِلكية، فإن الله مالك الملك، الصلاة وغير الصلاة مِلك لله، ولكن معناها أن الله يقول: لا تصرف شيئًا من حياتك إلا لله، حتىٰ الموت ينبغي أن يكون في سبيل الله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢]، فينبغي أن تكون حياة الإنسان كلها وفق شرع الله، لا يخرج منها شيء لغير الله ﷻ، ليس كما تفعل النصارىٰ، تقول: دَعْ ما لله لله، وما لقيصر لقيصر. والمسلم حياته كلها ينبغي أن تكون وفق أمر الله، فإن هذا الدين قد شمل حياة الإنسان، من كل جوانبها، فحركة اللسان، وحركة القلب، وحركة الجوارح، كلها ينبغي أن تكون وفق شرع الله -سبحانه-، وبهذا

يحقق معنىٰ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾، والذبح جزء من العبادة، لا يجوز صرفه لغير الله، قد جاء في الحديث: (لعن الله مَن ذبح لغير الله، لعن الله مَن لعن والديه، لعن الله مَن غير منار الأرض)(١)، واللعن: هو الطرد من رحمة الله ﷻ. فالذبح لا يكون إلا لله ﷻ، والإنسان قد يتساءل: هل يوجد مَن يذبح لغير الله؟ نعم، هذه العبادات التي ذكرها الشارح كلها، وُجَد، ولا يزال يوجد اليوم مَن يصرفها لغير الله.

قوله: (ومنها النَّذْر)، النذر: هو أن يكون الإنسان في حاجة، أو أن يكون وقع في بلاء، فينذِر لله إن تحققت الحاجة، أن يذبح لله، أو أن يتصدق بكذا لله، وإن رفع الله عنه البلاء، يذبح لله، ويقول العلماء إن هذا مكروه؛ لأنه مُتَضَمِّن معنًىٰ لا يليق، وهو أن الله لا يعطيك إلا بعَوَضٍ، فكأنك تقول أعطني وأعطيك، هذا خطأ، فالله ﷻ كريم، تطلب منه الحاجات، لا يحتاج أن نعطيه، فإن هذا العطاء، وهذا الذبح أصلًا لك، وإلا فإن الله غني عن عبادتك، فبعض الناس يظن أن الله مثل المخلوق، أعطني وأعطيك، وهذا خطأ.

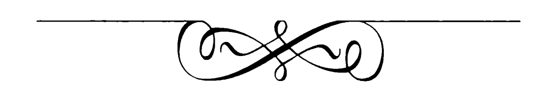
ولهذا قد نهىٰ الشرع عن النَّذْر، وكرهه، قال: (لا يأتي النذر بخير)(٢)، فإن الله بيده الأمر كله، إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل، فلا تعلِّق طلبك بأمر مثل هذا، فاسأل الله من خزائنه، واسأل الله أن يرفع عنك ما نزل بك من البلاء، من غير أن تجعل هناك عَوَضًا، لكن لو جعلت هناك عوضًا، لَزِمَك أن تَفِي به،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله، ولعن فاعله، برقم: (١٩٧٨)، (٣/ ١٥٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ "إنه لا يأتي بخير"، كتاب النذر، باب الأمر بقضاء النذر، برقم: (١٦٣٩)، (٣/ ١٢٦٠)، وفي صحيح البخاري بلفظ "لا يأت ابن آدم النذر بشيء"، كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلىٰ القدر، برقم: (٦٦٠٩).

فلا يجوز أن تَنْذِر إلا لله ﷻ، ولهذا مَن نَذَر لغير الله، -مثلًا قال: إذا شُفِيَ مريضي، فإنني أذبح للولي الفلاني كذا، وإن شَفَىٰ الولي الفلاني مريضي أعطيته كذا، أو إن حملت زوجتي أعطيته كذا، وهذا نَذْر لغير الله-، فقد أشرك في هذا النَّذْر؛ لأنه لا يجوز أن يُصرَف إلا لله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها الطواف فلا يطاف إلا ببيت الله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج:٢٩].

ومنها التوبة فلا يتاب إلا لله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]، **وقال تعالىٰ:** ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

ومنها الاستعاذة فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفلق:١]، **وقال تعالىٰ:** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ [الناس:١].

ومنها الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩].

الشَرح

قوله: (**ومنها الطواف**)، كذلك الطواف من مظاهر العبادة، وقد شَرَعه الله حول بيته فقط، فلا يجوز أن يُطاف إلا حول بيته، لا يُطاف حول الأشخاص، ولا حول القبور، ولا حول المواطن التي فيها أوثان، فالطواف من الشعائر الدينية، التي لا يجوز أن تُصرَف إلا في بيت الله الحرام، وأما ما عداه، فإنها تكون شركًا، أو يكون صاحبها قد تعرَّض لارتكاب المحرَّم الذي يستحق عليه العقاب.

قوله: (**ومنها التوبة، فلا يُتَاب إلا لله**)، وكأن الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلىٰ ما يحدث في بعض الطوائف من المتصوفة، أن الشخص يتوب إلىٰ الشيخ، أو

يتوب إلىٰ الولي، كما تفعل النصارىٰ؛ فإذا أراد الشخص منهم أن يتوب، يذهب إلىٰ القسيس، ويخبره بجميع ذنوبه، فيعطيه صَكَّ الغفران، ويدفع له مقابل ذلك، وهذه في الديانات الأخرىٰ المنحرفة، أما الإسلام، فإن التوبة إلىٰ الله ﷻ، لا إلىٰ المخلوق، فإن الناس كلهم في حاجة إلىٰ التوبة، والتوبة لا تُصرَف إلا إلىٰ الله ﷻ، فالإنسان لا يتوب إلىٰ إنسان مثله، لا شيخ، ولا عالم، ولا كبير، ولا صغير.

قوله: (**ومنها الاستغاثة**)، هناك فرق بين الاستعاذة والاستغاثة، فالاستعاذة: هي طلب عدم وقوع المكروه، قبل وقوعه، والاستغاثة طلب رفع المكروه، بعد وقوعه، وكلاهما جزءَا الدعاء، فالإنسان يستعيذ بالله من أن يقع المكروه، هذا معنىٰ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس:١]، وهناك تشابه كبير بين أول سورة، وبين آخر سورة في كتاب الله، وكلتا السورتين تقرِّران التوحيد بأنواعه الثلاثة، فهذه السورة تقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، والرب -كما سبق-: المالك المُصلِح المُدبِّر الخالق، السيِّد الرازق.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [الناس:٢]، والمَلِك: يتضمَّن معنىٰ أشمل من الخلق، فإن الله خلق، ومَلَك، ولا يملك إلا مَن يخلق، وهو يدل علىٰ الأسماء والصفات؛ فإن المَلِك من أسماء الله ﷻ، ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس:٣]، والإله هو المعبود، ولهذا فرَّق بين كلمة رب، وكلمة إله، فكلمة رب تثبت أن الله هو الخالق المالك، وكلمة إله تثبت أن الله هو المعبود ﷻ، فهذه السورة تقرِّر ما جاء في الفاتحة، فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، ثم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٣، ٤]، فذَكَر المَلِك، لكن ذَكَر

مَلِك الآخرة؛ لأن كثيرًا من الناس، يظن أن بعض مَن يملك في الدنيا، يملك في الآخرة، فيقول: أنه في الدنيا قد يكون مَن يملك، لكن الآخرة خاص بالله ﷻ، وثم توحيد العبادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥]، فهاتان السورتان في أول القرآن، وفي آخره، تقرِّران التوحيد بأنواعه الثلاثة.

هنا يقول الله لرسوله: قُل يا محمد (أعوذ)، أي ألجأ، وأسأل مَن يُعِيذني، ويحميني مما يتوقع من الشر، فهذا هو الاستعاذة، فلا يستعاذ إلا بالله ﷻ، لا يُستَعاذ بغيره ﷻ؛ لأنه لا يقدر علىٰ أن يعيذك مما سيقع، إلا الله ﷻ.

الاستغاثة: لا يُستَغاث بغير الله، ولهذا جاء في الآيات والأحاديث، أنه لا يُغِيث إلا الله ﷻ، ولكن قد يعجب الإنسان أن يجد في العصر الحاضر مِمَّن ينتسبون إلىٰ العلم، مَن يرىٰ أن الاستغاثة بغير الله أمر عادي، وليس فيه شرك، ويظنون أن هذا غُلُو مِمَّن يقولون إن الذي يستغيث بغير الله، مُشرِك، والحقيقة أن هذا الكلام ليس نظريًّا؛ لأنه يوجد من العلماء من يدافع عن الاستغاثة بغير الله، ويقول إن الذي في القبر، إذا دعيناه، يجيبنا؛ لأن الله جعله قادرًا علىٰ أن يجيبك، فنحن نقول: مَن أخبرك؟

فالعالم الذي هو عضو في كبار علماء بعض البلدان الإسلامية، وهو الدجوي (١٣٦٥هـ)، وقد تُوفيَ قبل خمسين عامًا تقريبًا، يقول بعد أن أنكر علىٰ مَن يُكفِّر المُستَغيث بغير الله: (ولا أدري كيف يكفِّرون بالاستغاثة ونحوها، فإن المُستغيث إن كان طالبًا من الله بكرامَة هذا الميت لديه، فالأمر واضح، وإن كان طالبًا من الولي نفسه، فإنما يطلب منه علىٰ اعتقاد أن الله أعطاه قوة روحانية، تشبه قوة الملائكة، فهو يفعل بها بإذن الله، فهل في ذلك تأليه؟)!

ثم قال: (وصفوة القول، أننا نقول: هؤلاء المستغيثون يعتقدون أن الله

أعطىٰ هؤلاء الأولياء مواهب، لم يعطها لغيرهم، وذلك جائز، لا يمكنهم دفعه، وهم يقولون إنهم اعتقدوا فيهم الألوهية، مع أن ذلك لا يقول به أحد)، ثم قال: (فالاستغاثة مبنيَّة عندنا علىٰ أن الأنبياء والأولياء، أحياء في قبورهم كالشهداء، بل أعلىٰ من الشهداء، ويمكنهم أن يدعوا الله -تعالىٰ- للمستغيث بهم، بل يمكنهم أن يعاونوه بأنفسهم، كما تعاون الملائكة بني آدم، وللأرواح تصرُّف كبير في البرزخ).

و يقول: (ولا أدري كيف يكفِّرون بالاستغاثة ونحوها، فإن المستغيث إن كان طالبًا من الله بكرامة هذا الميت لديه، فالأمر واضح).

ونقول: الاستغاثة دعاء، وكم جاء في كتاب الله من ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس:٦٦]، ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن:١٨]، وقد سبقت آيات كثيرة في الدعاء، فكيف يُقال إن هذا الدعاء لغير الله لا يكون كفرًا؟ فإنه قد سأل غير الله، والميت -لو كان حيًّا- لا يستطيع أن ينفعك، فكيف بعد أن يموت؟!

ثم يقول: (فإن المستغيث إن كان طالبًا من الله بكرامة هذا الميت لديه، فالأمر واضح، وإن كان طالبًا من الولي نفسه، فإنما يطلب منه علىٰ اعتقاد أن الله أعطاه قوة روحانية، تشبه قوة الملائكة).

قلت: مَن أخبرك أن الله أعطىٰ الميت قوة روحانية؟ أنت حتىٰ الآن لم تمت، فترىٰ ما بعد الموت! ولم يأت في القرآن والسنة أن الميت يُعطَىٰ قوة روحانية، تشبه قوة الملائكة، ثم الملائكة أنفسهم الذين شبَّهت بهم، هل يُدعَوْن، هل يُستغاث بهم؟ عندما جاء جبريل إلىٰ إبراهيم -عليهما السلام- فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فلم يستغث به في حالة الحاجة، بل استغاث بالله، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، أي الله كافينا.

هذا الكلام منه خطابي، ليس كلامًا علميًّا، فلو كان الميت يُعطَىٰ قوة روحانية، لكان نبينا ورسولنا يُعطَىٰ أقوىٰ الأرواح، ولم نرَ أحدًا من الصحابة جاء إلىٰ القبر، وقال: يا رسول الله أغثني، ويا رسول الله انفعني، وكم تقاتَل الصحابة، وكم وقع بينهم من البلاء والحروب؟ لم يأت أحد منهم إلىٰ القبر، ودعا الرسول أن يعينهم، أو يغيثهم.

ثم يقول: (وصفوة القول، أننا نقول: هؤلاء المستغيثون يعتقدون أن الله أعطىٰ هؤلاء الأولياء مواهب، لم يعطها لغيرهم)، يعتقدون! العقيدة لا تكون إلا بناءً علىٰ دليل، فمَن أخبرهم أن الله أعطىٰ هؤلاء الأولياء مواهب؟ هذا جعل الناس يتعلَّقون بالخرافات، وبالأوهام، ويُدَنِّسُون كرامة الإنسانية، الإنسان بدلًا من أن يرفع رأسه إلىٰ السماء، ويدعو الله الذي بيده الأمر كله، يخضع أمام القبر، ويدعو صاحب القبر الميت، الذي لم يعُد ينفع نفسه هو، فكيف ينفع غيره؟

ثم يقول: (وهم يقولون إنهم اعتقدوا فيهم الإلوهية، مع أن ذلك لا يقول به أحد)، ما هي الإلوهية؟ وهل الدعاء إلا عبادة؟ توحيد الإلوهية بمعنىٰ توحيد العبادة، فمَن دعا غير الله، فقد عبد غير الله، فالدعاء عبادة، فمن صرفها لغير الله، فقد اتخذ من دون الله أندادًا.

ثم قال: (فالاستغاثة مبنيَّة عندنا علىٰ أن الأنبياء والأولياء، أحياء في قبورهم كالشهداء)، الأنبياء -وهم أحياء- لا يُستغاث بهم فيما لا يستطيعه إلا الله، فكيف بعد أن يموتوا، يُستغاث بهم فيما لا يقدر عليه إلا الله؟ كنجاة غريق، أو كشفاء مريض، أو كطلب أن تحمل زوجته، فهذه كلها الأنبياء في حياتهم لا يستطيعونها، فكيف بعد موتهم؟

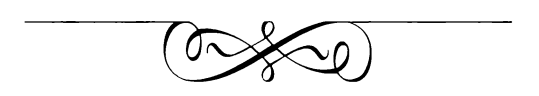
ثم قوله: (أن الأنبياء والأولياء أحياء في قبورهم كالشهداء)، هذه قضية دقيقة مرتبطة بما سبق، وقد مَرَّ معنا قضية العَرَض، وقضية الجوهر، فعند المتكلِّمين، أن العَرَض لا يبقىٰ زمانين، والنبوة عَرَض عندهم، ولهذا وقعت مشكلة كبيرة بين المتكلِّمين وبين أهل السنة في المشرق، في القرن الخامس تقريبًا، فقالوا: أنتم تقولون إن العَرَض لا يبقىٰ زمانين، فرسول الله الآن ليس نبيًّا؛ لأن النبوة عَرَض من الأوصاف؛ لأن العَرَض هو الصفة، والنبوة صفة، فعندما مات الرسول، فقد انتهىٰ هذا العَرَض، قالوا: لا، بل الأنبياء أحياء في قبورهم كحياة الدنيا، التزموا هذا اللازم، حتىٰ لا يقولوا بأنه قد فقد العَرَض، ففقد الصفة، وفقد النبوة.

وهذا كلام مردود، فإن الأنبياء ليسوا أحياء كحياة الدنيا، وإنما حياتهم حياة برزخية أُخرَويَّة، ليس فيها طعام ولا شراب ولا نِكاح، أما مَن يزعُم أن الأنبياء في قبورهم أحياء، كحياة الناس في الدنيا، فهذا قول باطل، لكنهم لمـَّا كانت عندهم الأعراض تفنَىٰ وتزول، التزموا بهذا اللازم، ولهذا أوْرده السبكي في الطبقات، ولم يعقِّب عليه؛ لأنه قال أن ابن فورك عندما سُئِل هل رسول الله نبي الآن؟ فقال لا، فيقال إنه قُتِل بسبب هذا الكلام، لكن نقول إن رسول الله نبي الآن، وإلىٰ قيام الساعة، وبعد قيام الساعة، فلا يفقد هذه الصفة؛ لأننا لا نقول بالأعراض التي يقول بها المتكلِّمون، فهذا كلام لا يقوم علىٰ دليل، فرسولنا رسول ونبي في حياته، وبعد موته ﷺ، وليس المراد أنه لا زال يبلِّغ شيئًا من أمر الدين، وإنما المراد وصفه بالنبوة.

فالشاهد أنه يقول: (فالاستغاثة مبنيَّة عندنا)، عندنا: عند المتصوفة، (علىٰ أن الأنبياء والأولياء أحياء في قبورهم كالشهداء، بل أعلىٰ من الشهداء)، وهذا يقرِّرونه في كتبهم، (ويمكنهم أن يدعو الله -تعالىٰ- للمستغيث بهم، بل يمكنهم أن يعاونوه بأنفسهم)، نسأل الله العافية، هذا الكلام عجيب!

فـإذا توجهـت قلوبنـا، وعلَّقناهـا بـالأموات، نـدعوهم، ونسـتغيث بهـم، ونسـألهم حاجاتنـا، ونعلِّـق آمالنـا وتطلُّعاتنـا بهـم، فمـاذا يبقَـىٰ لله رب الأرض والسماوات ﷻ؟ وهل الدين إلا دعاء؟ لهـذا جاء في الفاتحـة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، فنصف الدين، التعلُّق بـالله، والـدعاء لـه، والاسـتغاثة به، والاستعانة به، ونصفه عبادة، فإن الأفعـال، إما فعـل الله، وإما فعـل العبـد، ففعل العبد هو العبادة، وفعل الله هو العون والمساعدة.

فيوجد اليوم مَن يقـرر أن الاسـتغاثة بغيـر الله، ليسـت شـركًا، وهـذا -نعـوذ بـالله- في غايـة الضـلال، لـيس معـه لا دليـل عقلـي، ولا دليـل نقلـي، فهـذا مـن الأشياء التي لا زالت في الأمة في كثير من بلدان المسلمين إلىٰ اليوم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فمن أشرك بين الله تعالىٰ وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالىٰ من هذه العبادات أو غيرها فهو مشرك، وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة؛ لأن عباد القبور صرفوها للأموات من دون الله تعالىٰ، أو أشركوا بين الله تعالىٰ وبينهم فيها، وإلا فكل نوع من أنواع العبادة من صرفه لغير الله أو شرك بين الله تعالىٰ وبين غيره فيه فهو مشرك، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦].



الشَرح

يقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ : (فمن أشرك بين الله -تعالىٰ- وبين مخلوق، فيما يختص بالخالق -تعالىٰ-)، الإنسان يشرك لأحد أمرين: إما للجهل، وإما لضعف اليقين.

فإن الجهل بأمور الشريعة، تجعل الإنسان يظن ما ليس مشروعًا، مشروعًا، -كما قلنا عن هذا العالم[1] -، لو كان هذا العالم لديه علم شرعي من الكتاب والسُّنَّة، لم يقل هذا الكلام، ولهذا أكثر علماء الكلام لا تجد عندهم أدلة شرعية، وإنما هي افتراضات عقلية، إن قلتم كذا قلنا كذا، وإن قالوا كذا قلنا كذا، وإن قالوا كذا يلزم منه كذا، لكن لو قرأ القرآن قراءة صحيحة؛ لتبيَّن له أن القرآن يتكلم عن الدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، وأنها كلها لله، ولما أجاز ذلك، فالسبب الأول: نقص العلم الشرعي، أو فقده.

والسبب الثاني: هو ضعف اليقين، فيُعلق قلبه بالمخلوق.

---

(١)وهو يوسف الدجوي (أحد أئمة القبورية) (١٣٦٥هـ)

فالإنسان لا يُشرك بالله ﷻ إلا إذا كـان جـاهلًا بـأمور الشـريعة، والثـاني أن يضعُف يقينه بالله ﷻ، يعني ذلك أن الإنسـان لا يفـرِّق بـين خصـائص الخـالق وخصـائص المخلـوق، فخصـائص الخـالق ﷻ خاصـة بـه، لا يسـتحقها المخلوق، وخصائص المخلوق خاصة به، ليست لله ﷻ؛ فهـذه بعـض أسـباب الشرك.

والشارح ﷺ بعد أن أوْرد جملة من أنواع توحيد العبادة، أعقبها بإشـارات إلىٰ ما يُضاد هذه العبادات، وهو الشرك بالله ﷻ.

والشرك هو أعظم الذنوب، وأخطرها علىٰ الإطلاق، فإن الله ﷻ قـد يغفـر ما دون الشرك، وأما الشرك فلا يغفره البتَّة، ومن هنا جاءت حاجة المسـلم إلـىٰ معرفـة الشـرك، وكمـا أن المسـلم مُطالَـب بمعرفـة الخيـر، فإنـه مُطالَـب كـذلك بمعرفة الشر، وقد وردَ عن الصحابي الجليـل حذيفـة بـن اليمـان، صـاحب سـر رسول الله، أنه قال: (**كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسـأله عـن الشر، مخافةً أن يدركني، فقلت: يا رسـول الله، إنا كنا في جاهليـة وشـر، فجـاء الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد هذا الشر مـن خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَـن، قلـت: ومـا دَخَنـه؟ قـال: قـوم يسـتنُّون بغيـر سُـنَّتي، ويهدُون بغير هَدْيِي، قلت: فهل بعد هذا الخير -الذي فيه دَخَن- مـن شـر؟ قـال: نعم دعاة علىٰ أبواب جهنم، مَن أجابهم إليها، قذفوه فيهـا، فقلـت: يـا رسـول الله صفهم لنا، قال: قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسـنتنا، قـال: فمـا تـرىٰ إن أدركنـي ذلك، قال: عليك بجماعة المسلمين، وإمامهم، قـال: فـإن لـم يكـن لهـم جماعـة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض علـىٰ أصـل شـجرة، حتـىٰ**

يأتيك الموت، وأنت على ذلك)[١].

الشاهد: أن الحديث وردَ سؤالًا من حذيفة، فأجابه ﷺ، وهذا من توفيق الله ﷻ أنه يجري على ألسنة بعض الصحابة أمورًا، يحتاجها الناس بعد ذلك، فقد ذكر أن الناس كانوا يسألون الرسول عن الخير، لكن هو كان يسأله عن الشر، وقد وردَ عن عمر، أنه قال: إنما تنقضُّ عُرَىٰ الإسلام، عُروةً عُروةً، إذا عاش في الإسلام مَن لا يعرف الجاهلية، يعني مَن لا يعرف الشر.

ولعل الحكمة في إيراد قصة آدم، في مواضع مختلفة من كتاب الله؛ لينبِّهنا على موقف آدم، وكيف خدعه إبليس؟ وقد أوصاه الله، وأخبره أن إبليس عدوه، لكن خدعه! فآدم لم يعرف الشر، وليس في ذهنه إلا الخير، ولا يتصور أن أحدًا من المخلوقات يجرُؤ على أن يُقسِم بالله كاذبًا، فجاءه إبليس من هذا المدخل، قال ﷻ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف:٢١]، أي حَلَفَ إليهما، فانخدع آدم، والله يذكر هذا؛ ليبيِّن لنا أن المسلم ينبغي أن يحذر عدوه، ولا ينبغي له أن يُخدَع بالباطل، ولابد أن يعرف وسائل الباطل، ومداخله؛ حتىٰ لا يُخدع، كما قال علي: لست خِبًّا، وليس الخِبُّ يخدعني.

ودراستنا في هذا الكتاب لمداخل الشرك، وأسبابه، ووسائله، وأنواعه؛ لنحافظ على التوحيد، فإن مَن لَقِيَ الله بالتوحيد، لو لَقِيَهُ بملء الأرض ذنوبًا، فإن الله وعده بالمغفرة (**يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم: (٣٦٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب لزوم جماعة المسلمين عند ظهور الفتن... برقم: (١٨٤٧)، (٣/ ١٤٧٥).

لقيْتَني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتُكَ بقرابها مغفرة)[١].

فالشرك عظيم، والإنسان قد يقع في الشرك من حيث لا يشعر؛ ولهذا يجب أن نتعلم مداخل الشرك، ووسائله، وأسبابه؛ حتىٰ نحافظ علىٰ التوحيد، الذي لا ينجو الإنسان يوم القيامة إلا به.

والشرك -كما قلنا- يُضاد التوحيد، والله ﷻ أراد من هذا الخلق أن يسير وفق إرادته، والإرادة نوعان: إرادة كونية، وإرادة شرعية، فالكون كله يسير وفق إرادة الله الكونية، بدون اختياره، فالكواكب والنجوم والنباتات والسوائل والمعادن، كل هذه تسير وفق نظام الله الكوني، بدون اختيارها، ولكن الإنسان هو الوحيد -مع الجنِّ طبعًا- الذي أُعْطِيَ الاختيار، إما أن يسير مع الكون في توحيد الله، وفي عبادته، وإما أن يُعاكِس مسير الكون، لكن إن عاكَس مسير الكون، عاش مُمَزَّق النفس، مضطرب القلب، عاش في شقاء عاجل، قبل الشقاء الآجل، فالكون كله يسبِّح لله من أعماق السماوات العُلَىٰ، إلىٰ باطن الأرض السُفلَىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، ولهذا يقول علماء الذرة: إن حركة الذرة دورية، كحركة النجوم، مستمرة كأنها صعود وهبوط، (أي ارتفاع وسجود)، وهذا أمر

(١) أخرجه الترمذي في سُننه، كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار، وما ذكر من رحمة الله لعباده، برقم (٣٥٤٠)، وابن ماجه في سُننه، كتاب الأدب، باب فضل العمل، برقم: (٣٨٢١)، والإمام أحمد في مُسنده، برقم (٢١٤٧٢)، (٣٥/ ٣٧٥)، والحاكم في المُستدرك، كتاب التوبة والإنابة، برقم: (٧٦٨٦)، (٤/ ٣٧٠)، وصحَّحه، ووافقه عليه الذهبي، وهذا اللفظ للترمذي، وفي صحيح مسلم معناه، بلفظ: "**ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة**"، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلىٰ الله تعالىٰ، برقم: (٢٦٨٧)، (٤/ ٢٠٦٨)، وصحَّحه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي.

عجيب، فالكون كله يسبِّح لله، ولهذا فالشرك أمر عظيم؛ لأنه يخالِف إرادة الله الشرعية، وهو أعظم الذنوب، ولا يغفره الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨].

ويقول الشارح رحمه الله إن قُبْح الشرك جاء لأنه أشرك بين الخالق وبين المخلوق، فيما يختص بالخالق، والشرك يأتي قُبْحه من أوجه عِدة، أهمها أربعة أوجه:

الوجه الأول: أنه تنقيص لله ﷻ بصرف خالِص حقِّه، لبعض مخلوقاته.

الوجه الثاني: أن في الشرك تشبيهًا للفقير العاجز بالغني القادر، وإلا فلو لم يكن في القلب تشبيه لهذا المخلوق بالخالق القوي، الغني القادر، الذي لا تخفىٰ عليه خافية، ما عَبَده، لكن ظنُّه أن هذا المخلوق فيه صفات تجعله يُدعىٰ ويُعبَد من دون الله، ولهذا وردَ في كتاب الله آيات كثيرة تبيِّن سعة علم الله، وإحاطة علمه وقدرته بالخلق، حتىٰ لا يلجأ الإنسان إلىٰ المخلوق، فالله ﷻ يبيِّن أن بيده الأمر كله، و أنه علىٰ كل شيء قدير، كما قال ﷻ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٨﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨].

فلا حاجة للإنسان إلىٰ المخلوق، ولا إلىٰ مَن يعبده من دون الله، فالإنسان لا ينبغي أن يصرِف العبادة إلا للغني القادر، وهو الله ﷻ، وأما المخلوق فهو فقير، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، فجميع المخلوقات فقيرة، وكل إنسان فقير، ولو كان ظاهر الغني، ولهذا يتقرَّب كل واحد إلىٰ الآخر؛ لحاجته إليه.

فأعلىٰ إنسان في قمة المجتمع -مهما ظننا أنه غني- فقير إلىٰ إنسان آخر، يخدمه من ينفِّذ طلباته، ويعينه، ويساعده، ويحميه، ويحرسه، ويحقق مطالبه؛ لأنه فقير بالذات، لكن الله -سبحانه- غني، لا يحتاج إلىٰ خلقه، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]، فالإنسان لا ينبغي له أن يعبد مخلوقًا؛ لأن المخلوقات جميعها فقيرة، والله وحده هو الغني.

والوجه الثالث: أنه إخلال بالمقصود من الخلق، فالمقصود من خلق الإنسان، هو عبادة الله، والشرك يناقض المقصود من خلق الإنسان، لأنه إذا عبد مع الله غيره، فقد أخلَّ بما خُلِق من أجله.

والوجه الرابع: أن الشرك إهانة للإنسان، فالإنسان الذي ذكر ربنا -سبحانه- أنه كرَّمه، وخلقه بيديه، وأسجَد له الملائكة، إذا خضع لغير الخالق؛ فإن هذا إهانة، وتحقير له، والله لا يريد للإنسان إلا أن يكون مكرَّمًا، ولهذا يقول العلماء: إن إبليس عندما امتنع عن السجود لآدم، صيَّره الله خادمًا لفُسَّاق ذرية آدم، يسحب هذا للزنا، وهذا للفواحش، وهذا للسرقة، وهذا للقتل، تكبَّر عن أن يسجد لآدم المكرَّم، فأذلَّه الله، وصيَّره خادمًا لفُسَّاق الذرية من آدم، والله ﷻ لا يريد للإنسان أن يُدنِّس كرامته، ولا أن يُعبَد غيره، فلا يذلُّ إلا لله، ولا يرجو إلا الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يستعين إلا بالله، ولا يخشىٰ إلا الله، وبذلك يكون عزيزًا قويًّا كريمًا، أما إذا دعا غير الله، أو عبد غيره، فإن في هذا إذلالًا لكرامة الإنسان.

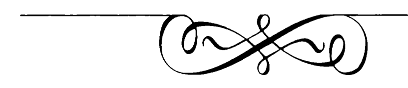
هذه أربعة أوجه، هي أخطر ما في الشرك الذي جعله الله ذنبًا لا يُغفَر، ولهذا أشار الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أن مَن أشرك بين الله -تعالىٰ- وبين مخلوق، فيما يختص بالخالق: (فهو مُشرِك).

ثم قال: (**وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصةً؛ لأن عُبَّاد القبور صرفوها للأموات، من دون الله -تعالىٰ-**)، يشير الشارح رَحِمَهُ الله إلىٰ ما كان في عصره، فإن هذه البلاد كانت مملوءة بالشرك البدائي، الشرك الذي كان في الجاهلية الأولىٰ، فكانت القبور والقِباب في كل مكان، وكانت الأشجار المعظَّمة، والبقاع المعظَّمة، في كل مكان، فقيَّد الله لهذه البلاد المحمدين: الإمام محمد بن عبد الوهاب، والإمام محمد بن سعود رَحِمَهُما الله، فاتفقا، فأثمر هذا الاتفاق، أن طهَّر الله هذه البلاد من هذه المظاهر الشركية، ولم نعد نراها -ولله الحمد- في هذه البلاد، ولا يزال العالم الإسلامي مملوءًا بهذه المظاهر، ومَن رآها يرىٰ عجبًا، لا تكاد تجد مدينة ولا بلدة ولا مكانًا، إلا وفيها قبور تُعظَّم، وتُدعَىٰ، ويُستغاث بأصحابها، ويُتبرَّك بأصحابها، ويُحج إليها، ويُضرَب حولها السرادق في رمضان، وفي غير رمضان، وهذا إذلال للإنسان الذي كرَّمه الله؛ فإنه ترك الحي الذي لا يموت، ولجأ للأموات، والله يقول: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨]، ومع ذلك فقد دنَّس كرامته، وأصبح يعبُد الأموات، ويدعوهم.

ولكن هذه الأنواع التي أشار إليها الشارح، ليست هي كل الشرك، وليست هي كل مظاهر التوحيد التي يقع فيها الشرك، فإن الشرك أنواع، وفي كل جيل، وفي كل زمان أنواع، ففي هذا الزمان قد يُعبَد الأحياء، وقد تُعبَد الأموال، ويُعبَد الإنتاج الصناعي، وتُعبَد المخترعات والكشوفات، وتُعبَد المادة، كما ذكر بعض المعاصرين من الكُتَّاب الغربيين، أن الدولار معبود الغربيين، وأنواع المعبودات كثيرة، بحسب كل عصر، فليس قول الشارح هذا حصرًا لما يُعبَد من دون الله؛ لأنه قد يقع الشرك في صور أخرىٰ كثيرة، ولكن إذا عرفنا أُسُس التوحيد، وأُسُس الشرك، نستطيع أن نعرف بذلك فروعه، وأنواعه، وصوره.

قوله: (وإلا فكل نوع من أنواع العبادة، مَن صرفه لغير الله، أو شرك بين الله -تعالىٰ- وبين غيره فيه، فهو مشرك)، فهنا يشير الشارح رحمه الله إلىٰ أنه لم يذكر هذا، إلا لأنه كان في عصره، وليس هذا إحاطة بكل أنواع التوحيد؛ لهذا جاء بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦].

كلما يُشار إلىٰ العبادة يُشار إلىٰ الشرك، وأحيانًا يُذكَر النهي عن الشرك، وأحيانًا يُذكَر الأمر بالعبادة، وكل أسلوب من هذه الأساليب يدل علىٰ معنىٰ بحسبه، فإذا أمَر الله بالعبادة، فالأمْر بالعبادة نهيٌ عن الشرك، وإذا نهَىٰ عن الشرك، فالنهي عن الشرك أمرٌ بالعبادة، وإذا قَرَنَ بينهما، دلَّ كل لفظ منهما علىٰ ما أوْرده سبحانه وتعالى في كتابه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا الشرك في العبادة هو الذي كفّر الله به المشركين، وأباح به دماءهم وأموالهم ونساءهم، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر، ليس له شريك في ملكه، وإنما كانوا يشركون به في هذه العبادات ونحوها، وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك. فأتاهم النبي ﷺ بالتوحيد الذي هو معنىٰ لا إله إلا الله، الذي مضمونه أن لا يُعبد إلا الله، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص:٥].

الشَّرح

قوله: (وهذا الشرك في العبادة، هو الذي كفَّر الله به المشركين...)، يشير الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ الواقع الذي جاء إليه الإسلام، وأنزل الله فيه القرآن، وهو واقع قريش، فلم تكن قريش تُنكِر الخالق، أو لا تعرف الله، كما جاء في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن قريشًا لم تكن تجهل الخالق، ولم تكن تُنكِر الخالق، فهي تعرف الله، وتؤمن به، وإذا سُئِلوا مَن خلق السماوات والأرض؟ قالوا الله، ومَن خلقكم؟ قالوا الله، فلماذا استباح النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قتالهم، كما قال في الحديث: (أُمِرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، فقد عصموا مني دماءهم، وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم علىٰ الله)[(١)].

---

(١) سبق تخريجه.

فقاتلهم، وهم يعرفون أن الله ربهم وخالقهم، ولم يشركوا في هذا التوحيد؛ لأنهم أشركوا في غيره، وهو توحيد العبادة الذي من أجله خُلقوا، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، لا ليعرفون؛ لأن المعرفة حاصلة في القلوب، وهي فطرية، لا يوجد مجتمع بشري لا يعرف الخالق، لكن الذي حدث هو الشرك في العبادة، ولهذا جاهد الصحابة، وقاتلوا مجتمعات متنوعة، قاتلوا الروم، وهم أصحاب كتاب، وقاتلوا الفرس، وهم عباد النار، وقاتلوا البوذيين، وقاتلوا الهندوس، قاتلوا جميع الطوائف، وكانوا يقولون لهم: اعبدوا الله، قولوا لا إله إلا الله، ولم يوجد مجتمع قال: من هو الله؟ لا عباد الأبقار، ولا عباد النار، ولا اليهود والنصارىٰ، لم يواجه المسلمين أحد يقول من هو الله؟.

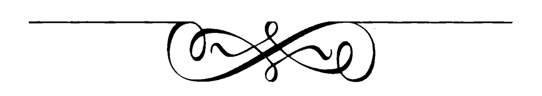
فالشارح رحمه الله يشير إلىٰ أن المشكلة ليست في التصديق بالخالق، وإنما المشكلة في أن الإنسان صرَف حق الله إلىٰ غيره، أو أشرك مع الله غيره، فأباح الله دماءهم، وأموالهم، ونساءهم، ولهذا لمَّا قاتل المسلمون الكفار، استباحوا أموالهم، وأخذوها غنيمة، وأخذوا نساءهم إماءً، هذا كله بسبب شِركهم في العبادة، لا بسبب جهلهم بالخالق، وهذا فيه ردٌّ ضمني علىٰ الذين يزعمون أن الناس كانوا يُدعَوْن إلىٰ توحيد الربوبية: أي إن الله هو الخالق، إنه هو الرازق، إنه هو المحيي، فليس معنىٰ لا إله إلا الله: لا خالق إلا الله، وإلا كيف يأتيهم الرسول يقول: قولوا لا خالق إلا الله، والقرآن يثبت أنهم يعرفون أن الله هو الخالق؟ فكان الخلاف في أنهم أشركوا مع الله غيره، كما سيأتي.

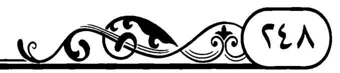
ولهذا كانوا يقولون: (**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملكه، وما مَلَك**)، فهم كانوا يلبُّون لله، لكن جعلوا معه مَن يصرفون له العبادة، من الجِنِّ، أو من الملائكة، أو من الأصنام، أو من الأنبياء، بحسب كل

مجتمع، فهم كانوا يعرفون الله، ويعبدونه، لكن يعبدونه عبادة شِرْكيَّة، ومع ذلك لم يعصِم دماءهم؛ لأنه لا يعصِم دماءهم إلا التوحيد.

وقوله هنا: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص:٥]، و"عُجاب" على وزن "فُعال"، مبالغةً في التعجب، ثم هم جمعوا اسم: (إله) وهو من الأسماء التي من حقها أن لا تُجمَع؛ لأنها اسم لواحدٍ هو الله ﷻ، ولكن الجاهلية الأُولَىٰ جمعت، فاستغربت أن يُدعَوْا إلىٰ ترك الآلهة، و (إله) دخل عليه: "أل" التعريف، فأصبح: (الله)، وهذا الاسم الكريم عَلَم على الله ﷻ، يُدعَىٰ به -سبحانه-، بخلاف الأسماء الأخرىٰ التي دخلت عليها: (أل) كالرحمن والرحيم، فإنه ﷻ لا يُدعَىٰ بها، إلا بتجريدها من: (أل)، فلا تقول يا الرحمن، ولا يا الرحيم، لكن الله أصله إله، دخله (أل) التعريف فأصبح عَلَمًا، ولهذا لا يُقال فيه يا إله، إنما يقال يا الله، فبَقِيَ (أل) التعريف ثابتة؛ لأن الله أعرف المعارف، وليس له اسم مثيل، ولا شبيه، سبحانه وتعالى، فلهذا يُدعَىٰ بـ (يا الله)، لكن كل اسم آخر دخل عليه (أل) التعريف، لا يُنادَىٰ إلا بعد حذفها، فيقال: يا رحمن، يا رحيم.

فكانت لهم: إساف ونائِلة والعُزَّىٰ ومَناة، كل هذه كانت أسماء أصنام، يطلقون عليها آلهة، فقالوا: أجعل الآلهة -كلها- إلهًا واحدًا، إن هذا لشيءٍ عُجاب! ففاجأهم بهذه الدعوة، ولهذا واجهوه، وقاتلوه، وكانت الغلبة لدين الله سبحانه وتعالى.





قال المؤلف رحمه الله:

وكانوا يجعلون من الحرث والأنعام نصيبًا لله، وللآلهة مثل ذلك، فإذا صار شيء من الذي لله إلى الذي للآلهة تركوه لها، وقالوا الله غني، وإذا صار شيء من الذي للآلهة إلى الذي لله تعالى ردوه، وقالوا الله غني والآلهة فقيرة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦]، وهذا بعينه يفعله عباد القبور بل يزيدون على ذلك، فيجعلون للأموات نصيبًا من الأولاد.



الشرح

هذه الآية نقف معها أربع وقفات:

الوقفة الأولى: أن قريشًا انحطَّت في تفكيرها، إلى مستوى لا يليق بكرامة الإنسان، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:١٣٦]، والله الذي خلق، وهو الذي يُشرِّع، وهو الذي يجعل الحلال والحرام، لكن قريشًا اعتدَت على حق الله بصورة مُزرية، بأن تنسِب بعض خلق الله لأصنامها الأموات، والأموات لو كانت آلهة، ما تحتاج أن يُجعَل لها، كان ينبغي هي أن تخلِق، لكن العقل البشري إذا انحطَّ يأتي بالعجائب، فأول وقفة أن العقل الجاهلي قد انحطَّ إلى درجة لا تليق بالإنسان، حيث اعتدَى على حق الخالق ﷻ، وجعل بعض خلقه هِبَةً أو عَطيَّةً لبعض مخلوقاته، وهذا اعتداء لا يليق بكرامة الإنسان، الذي كرَّمه خالقه ومولاه -سبحانه-.

الوقفة الثانية: أنهم في هذه القسمة كانوا جائرين، فقسَّموا لله ﷻ مثل قِسْمَتهم لأصنامهم، وهذا كأنهم يقولون إن الحق مشترك نصفين، حق للأصنام، وحق لله فيما خلق الله، وهذا يدل علىٰ جهلهم بعظمة الله ﷻ، فجعلوا الله في الحق مثل الأصنام، وهذا جهل عظيم بحق الخالق ﷻ.

الوقفة الثالثة: لم يفُوا بهذه القسمة، كانوا إذا زرعوا الزراعة من الحبوب والثمار، فبعد انتهاء الزراعة، وجاء وقت القطف والثمرة، كانوا يأخذون الزرع والثمرة ويقسِّمُونهما إلىٰ قسمين، قسم لله، وقسم للشركاء، وإذا سقط بعض حق الله في حق الشركاء، قالوا: الله غني دعوه في حق الفقير، وإذا سقط من حق الأصنام في حق الله، قالوا: أعيدوه، فحتىٰ في القِسمة، وفي المحافظة عليها، لم يكونوا مُنصِفين، والعجب أنهم كانوا يعرفون أن الأصنام فقيرة، فكيف تُعبَد؟ لكن العقل البشري انحطَّ.

والوقفة الأخيرة: قوله تعالىٰ: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ١٣٦﴾، بِئْس ما يحكمون، هذا دعاءٌ وذمٌّ من الله ﷻ لهذا الفعل القبيح من الإنسان الجاهلي، الذي لا يعرف حق مولاه، فيقول الله: بئس ما يحكمون، وساء ما يحكمون، لأن هذا الحكم لا يدل علىٰ العقل الناضج، بل يدل علىٰ العقل الناقص.

فهذه الآية تبيِّن لنا صورة من صور الجاهلية، التي جاء الإسلام لإبطالها، وإن كانت صورة ساذجة، قد لا تتكرر في كل الأحوال، ولكن هذا وضع المجتمعات التي لم ينلها شيء من المعرفة، والثقافة، والتمدُّن، هذا وضعها، لكن لو تثقَّفت، وتعلَّمت، ثم جهِلَت الدين، كان لها شِرك آخر، فشِرك كل قوم بحسب مستواهم العلمي، ومستواهم الفكري، ومستواهم الثقافي. فالمجتمع الذي يكون فيه الجهل غالبًا، هذا هو وضعهم، ولهذا مَن زار بلدان العالم الإسلامي، يرىٰ هذه النماذج موجودة إلىٰ اليوم، فإن صور هذا الشِّرك قائمة في غالب بلدان العالم الإسلامي، إلا مَن رَحِم الله.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا تبين هذا فاعلم أن الشرك ينقسم ثلاثة أقسام بالنسبة إلىٰ أنـواع التوحيـد، وكل منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقًا، وقد يكون أكبر بالنسبة إلىٰ ما هو أصغر منه، ويكون أصغر بالنسبة إلىٰ ما هو أكبر منه.

القسم الأول: الشرك في الربوبية، وهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنـواع الشـرك، كشـرك فرعـون، إذ قـال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ [الشعراء:٢٣]، ومـن هـذا شـرك الفلاسـفة القـائلين بقـدم العالم وأبديته، وأنه لـم يكـن معـدومًا أصـلاً، بـل لـم يـزل ولا يـزال، والحـوادث بأسرها مستندة عندهم إلىٰ أسباب ووسـائط اقتضـت إيجادهـا يسـمونها العقـول والنفوس.

الشَّرْح

قوله: (**فـاعلم أن الشـرك ينقسـم ثلاثـة أقسـام**)، الشـارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ سـيبدأ في بيـان أنواع الشرك، بحسب أنواع التوحيد، وقلنا إن التوحيد ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسـام، أو إلىٰ قسمين، والشارح ارتضىٰ بالقسـمة الثلاثيـة، ويقـول إن أنـواع الشـرك في أنواع التوحيد، فكل نوع من أنواع التوحيد، يقابله شِركان: شِـرك أكـبر، وشِـرك أصغر، ثم يقول: الشرك الأصغر، يكون أصغر مـن الشـرك الآخـر بحسـبه، أي هـو صِغَر نسبي، وإلا قد يكون أكبر بالنسبة إلىٰ ما دونه، فالشرك علىٰ درجـات، وسـيأتي تقسيمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (**الشرك في الربوبية**)، هذا الشـرك هـو أول أنـواع الشـرك، وهـو شِـرك يخـصُّ توحيـد الربوبيـة، وفي الحقيقـة لا يسـمَّىٰ شـركًا؛ لأن الشـرك يـدل علـىٰ

اشتراك طرفين في شيء، لكن هذا الشرك شرك إلحاد، وشرك إنكار، فهذا حقه أن يسمَّىٰ كفرًا، ولا يسمَّىٰ شركًا؛ لأن الشرك في اللغة مأخوذ من مادة تدل علىٰ اشتراك طرفين في أمر، إما اشترك قضيتين، أو اشتراك لفظين، أو اشتراك مَعنيين، أو اشتراك شخصين، أو اشتراك جماعتين، أو اشتراك مجتمعين، وهنا ليس فيه طرفان، فالذي يدعو مثلًا مع الله غيره، دعا الله ودعا الآخر، فالدعاء واحد، قسَّمه قسمين لطرفين اشتركا في الدعاء: الله، والمخلوق، لكنه هنا كفر إلحاد، وكفر تعطيل، فسمَّاه شرك تعطيل، أي إنكار للخالق سبحانه وتعالى.

ولم يوجد مجتمع يُنكِر الله إلا ما حدث في المجتمع الشيوعي، ولكنه إنما ظهر في العصر الحاضر، لهذا لم يُمثِّل به الشارح، ومثَّل بفرعون وبالفلاسفة؛ لأن الشيوعية لم تحدث في عصره رحمه الله، فإن العام الذي مات فيه -وهو ألف وثمانمائة وثمان عشرة ميلاديًّا-، يساوي ألفًا ومائتين وثلاثة وثلاثين هجريًّا-، هو نفس العام الذي وُلد فيه زعيم الشيوعية ماركس، فهو رحمه الله لم يعاصر الشيوعية، ولم تُطبَّق الشيوعية إلا بعد مائة سنة، أي بعد موته بقرن كامل تقريبًا.

وفرعون هو الشخص الوحيد الذي وردَ في التاريخ أنه أنكر الله، ولكنه في حقيقة نفسه، معترف بالله؛ ولهذا لما جاءه موسىٰ وهارون، فدعاه إلىٰ الله سبحانه وتعالى، قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾، قال موسىٰ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وعن فرعون أنه: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾، يتهكم بموسىٰ، التفت للحاشية، وقال ألا تستمعون؟ قال موسىٰ ﴿رَبُّكُمْ﴾، عمَّم أولًا، لكن لما رآه مُنكِرًا، قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾، فالتفت فرعون إلىٰ حاشيته، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾، قال موسىٰ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، هنا لم يتحمَّل

فرعون، قال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩]، ففرعون واجَه الدعوة، وسأل: وما رب العالمين؟ ولكن الله يقول في موطن آخر: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وقال موسىٰ في موطن آخر: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، فذكر موسىٰ أنك تعلم، وأنني أعلم أنك تعلم، فشِرك فرعون -الذي هو تعطيل- ليس عن قناعة، ولا عن تصديق، وقد سبق معنا أن ابنة ستالين -وهو الزعيم الثاني للشيوعية بعد لينين- هربت من روسيا؛ فرارًا إلىٰ خارجها، وعندما قابلها الصحفيون، قالت: لا أستطيع أن أعيش في بيت لا يُذكر فيه الله، وأبوها زعيم الشيوعية السياسي آنذاك.

والشاهد أنه لا يوجد مجتمع لا يعرف الله، وهذا النوع من أنواع الشرك إنما يحدث لأفراد، والشيوعية إنما طرأت وظهرت، لا لقناعة، وكان زعماؤها من اليهود: ماركس، ولينين، وستالين، وأنجلز، ودوركايم، وفر، الذين عمَّقوا الشيوعية بنظريات مختلفة في الجنس، والاقتصاد، والاجتماع، كل هؤلاء من اليهود الذين كانوا يعيشون محتقِرين في الغرب، فكان فكرهم ردَّ فعل فقط؛ لأن الفطرة البشرية لا تتقبَّل الإلحاد؛ ولهذا انتهت، مع أنها كانت تُحرَس بالحديد والنار، وكانت الدول الشيوعية التي تتمرَّد علىٰ الشيوعية، تدخلها قوات الشيوعية بدباباتها، ومدافعها، وجيوشها؛ لإقرار الشيوعية، ومع ذلك تحطَّمت وانتهت؛ لأنها كانت تحارب الفطرة.

النوع الثاني: شرك الفلاسفة، وقد أثَّرت هذه الفرقة في الأمة الإسلامية أثرًا بالغًا، فما هي الفلسفة، ومَن هم الفلاسفة؟ وما هي عقائدهم؟ وما هي آثار الفلسفة علىٰ الأمة الإسلامية؟ فلابد أن نعرف هذه القضايا.

القضية الأولىٰ: كلمة فيلسوف، ليست كلمة عربية، بل كلمة يونانية، أصلها (فِيلا سُوف): مُحِبُّ الحكمة، وكان يُطلَق -قبل "فيثاغورس"- علىٰ

الفلاسفة الحكماء، ولكل أُمَّة حكماء في دينها، يُطلَق عليهم حكماء، فمشركو الهند كان فيهم حكماء لدينهم، ومشركو الصابِئة فيهم حكماء لدينهم، يسمُّونهم حكماء، يعنون به مَن يعلم الحكمة والعقيدة، ويشرحها، ويقدِّمها للآخرين، فوضع هذا الاصطلاح؛ لأنه ليس كل إنسان حكيمًا، ولكن يصح أن يقال له: (محب للحكمة)، كما يُفرَّق في الإسلام بين طالب علم وعالم، لا يُقال لكل الناس علماء، إنما يُقال فلان عالم، وفلان طالب علم، وطالب علم أوسع دائرة، لكن ليس كل طالب علم يكون عالمـًا، وكذا سمَّاه محب الحكمة، وهذه الفلسفة كانت قبل الإسلام، بما يُقارب ألف عام، أو ثمانمائة عام؛ لأن ابتداءها كان قبل شخص يسمَّىٰ أرسطو، هذا هو الزعيم المـُنَظِّر للفلسفة، لكن كان قبله فيثاغورس، ثم جاء أرسطو، ثم جاء أفلوطين، هؤلاء زعماء الفلسفة قبل الإسلام.

وموضوع الفلسفة: هو دراسة مظاهر الكون؛ للاستدلال بها علىٰ مُوجِد الكون، هل هذا الكون مُحدَث أو قديم؟ الفلاسفة يدرسون مظاهر الكون؛ لينتهوا من ذلك إلىٰ ما بعد الكون، هذه هي الفلسفة التي كانت قبل الإسلام.

وعقائد الفلاسفة عقائد مضحكة، إلىٰ درجة أنهم كانوا يعتقدون أن الكواكب لها أنفس، ولها أرواح، حتىٰ إن أرسطو يقول إن القمر له نفس وله روح، وهذا جهلهم بمظاهر الكون، فهؤلاء كانوا وثنيين، يقول ابن تيمية رحمه الله: قبل أرسطو كان فيهم توحيد، لكن من بعد أرسطو، دخلت فيهم الوثنية.

فعقائد هؤلاء الأشخاص ضالَّة، وسنقرأ بعض النماذج منها:

قالوا -وهم يقسِّمون الآلهة إلىٰ عشرة درجات-: العقل الأول بعده تسعة عقول، ثم كل عقل خَلَق ما بعده؛ لأنهم يقولون: عندنا المخلوقات علىٰ ثلاثة أقسام: معنىٰ محض، وهو العقل، ومعنىٰ مَشُوب بمادة، وهي النفس، ومادة، وهي الجسم، فما يمكن أن العقل يخلق الجسم، فماذا يفعل؟

قالوا: العقل يخلق النفس، التي نصفها معنىٰ، ونصفها مادة، والنفس تخلق ما تحتها، -سبحان الله! هذا كلام مثل كلام الأطفال- لكن هذه كانت عقائد عندهم، يقول ابن تيمية رحمه الله : إنهم يقولون إن العقل الأول، أبدع كل ما سوىٰ الله عندهم، والعقل الثاني، أبدع ما سوىٰ الله والعقل الأول، حتىٰ ينتهي الأمر إلىٰ العاشر الفعَّال المتعلِّق بفَلَك القمر، فيقولون إنه أبدع ما تحت الفَلَك، فهو عندهم المُبدِع لما تحت السماء، من حوادث، وسحاب، وجبال، وحيوان، ونبات، ومعدن[1]، وكلها من خَلْق العقل العاشر، ونفوا عن الله عَزَّ وَجَلَّ الصفات والقدرة والاختيار، ويسمُّون الله العِلَّة التامة، فهم لا يعرفون اسم الله، لكن يقولون هذه عِلَّة، فهو سبب لوجود الكون، ويعتقدون أن الكون أبدي، وليس مُحدَثًا.[2]

ثم قال رحمه الله : (لذلك أن هؤلاء أعظم جهلًا وضلالًا من اليهود، والنصارىٰ، والمجوس، ومشركي العرب، والهند، والترك، وكثير من الصابِئين)[3]، فإن أكثر المشركين يقِرُّون بأن العالم مُحدَث، وأن الله يفعل بمشيئته وقدرته، وكذلك الصابِئة الحُنفاء علىٰ هذا القول، وهو قول أساطين الفلاسفة القدماء، الذين كانوا قبل أرسطو، وإنما ظهر القول بقِدَم العالَم من جهة الفلاسفة المشهورين، أمثال أرسطو وأتباعه، وهو المعلِّم الأول الذي وضع القوانين التي يقِرُّونها من المنطق، والطبيعي، والإلهي، وظهر القول بقِدَم العالَم من الفلاسفة من جهته، فأرسطو هو أول مَن أدخل الوثنية في الفلسفة.

---

(١) انظر: الصفدية ١/ ٨ - ٩.

(٢) انظر: درء التعارض ١/ ٣٣٥، الصفدية ١/ ٨٥.

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية ت سعيداي (ص: ٨٠).

ويقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : إن الفلاسفة هم حكماء اليونان، وكل أُمة من أهل الكتب المُنزَّلة وغيرهم، لهم حكماء بحسب دينهم، كما أن للهند المشركين حكماء، وكما للفرس المجوس حكماء، وكذلك حكماء المسلمين، هم أهل العلم لِما بعث الله به رسوله، وعملوا به، قال مالك: الحكمة معرفة الدين، والعمل به، وقال ابن قتيبة: الحكمة في اللغة هي العلم والعمل، فمَن عَلِم ما أخبرت به الرُّسُل، وعمل به، وصَدَّق بعلم ومعرفة، وعمل بما أُمر به، فسمع وأطاع، فقد أُوتيَ الحكمة، ومَن أُوتيَ الحكمة، فقد أُوتيَ خيرًا كثيرًا، ثم قال: فلمَّا كان هذا أصل الفلسفة، صار هذا مُطلَقًا علىٰ مَن سَلَك سبيل أولئك اليونان، واتَّبعهم في حكمتهم، والذين اتَّبعوهم من المتأخِّرين، صرَّحوا فيها بأشياء، وقرَّبوها إلىٰ المِلَل، وإلا فإذا ذُكرَت علىٰ وجهها، ظهر فيها من الباطل، ما ينفِّر عنها كل عاقل عَرَف دين الرُّسُل، فإن الرُّسُل قد جاؤوا من العلم والبيان والأمور الإلهية، ما يكون في حكمة اليونان معه، مثل نِسبة طب العجائز إلىٰ طب أبي قراط، أو مثل نسبة مُلْحَة الإعراب إلىٰ كتاب سيبويه[1].

يقول رَحِمَهُ اللهُ إن أفكارهم إذا قارنَّاها بما جاء به الرُّسُل، كمثل طب العجائز إذا قارنَّاه بطب أبي قراط، الذي كان من علماء الأطباء في عصره.

هذه الفلسفة التي كانت قبل الإسلام، كان لها منهج، وكان لها أسلوب في معرفة القضايا، ومن منهجها ما يسمَّىٰ بعلم المنطق الذي وضعه أرسطو، فإن أرسطو هو أول من وضع علم المنطق اليوناني، والبشرية كانت لديها علوم ومناهج، لكن هذا أسَّس علم المنطق اليوناني. والفارابي[2] يسمُّونه المعلِّم

---

(١) الصفدية (٢/ ٣٢٥)

(٢) قال الشيخ أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسىٰ (المتوفىٰ: ١٣٢٧هـ)، وهو يصف الفارابي (صَاحب المصنفات الْمَشْهُورَة فِي الْمنطق وَالْحكمَة والموسيقىٰ الَّتِي من ابْتغىٰ الْهدىٰ فِيهَا أضلّهُ الله).

الثاني؛ لأنه هو الذي وضع علم الأغاني، ووضع علم الألفاظ، وعلم الأصوات، فسمُّوه المعلِّم الثاني؛ لأنه كان بارعًا في الموسيقىٰ، وفي الغناء، فالمسلمون قد تأثَّروا بالفلسفة اليونانية، فترجموها في القرن الثالث في عهد المأمون، ترجمها الكِندي، وهو أول فيلسوف أُطلَق عليه هذا اللقب في بلاد المسلمين، ثم جاء بعد الكِندي الفارابي، فتَبَعَه علىٰ منهجه، ثم ظهرت جماعة سرية، تُسمَّىٰ إخوان الصفا(١)، أرادت أن تجمع بين الدين والفلسفة، فكتبوا رسائل، سمُّوها رسائل إخوان الصفا، هذه الرسائل أرادوا أن يجمعوا فيها بين الدين والفلسفة، ولم يستطيعوا أن يظهروا أنفسهم، ويصرِّحُوا بأسمائهم؛ لأن الفلسفة كانت مُحارَبة في وقتهم في القرن الرابع، ثم ظهر ابن سينا، وهو الذي أسَّس ونظَّر للفلسفة، وكذلك علم المنطق، فأصبح بعده المنطق في الأمة الإسلامية معرَّبًا ومقعَّدًا، وأصبحت له مكانته في علم الكلام، وفي غيره، ثم ظهر ابن باجه في الأندلس، وابن الطفيل، وهو الذي جمع بين الفلسفة ووحدة الوجود، ثم ابن رشد الحفيد صاحب كتاب بداية المجتهد، وصاحب كتاب فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من اتصال، وردَّ علىٰ كتاب الغزالي، فالغزالي ألَّف كتابًا سمَّاه تهافُت الفلاسفة، ردَّ فيه علىٰ الفلاسفة، ثم جاء ابن رشد وردَّ علىٰ كتاب الغزالي، وسمَّاه تهافُت التهافُت، وهو يقرِّر الفلسفة، والحاكم في عصره قد ضايقه، ونفاه إلىٰ المغرب، ثم عاد فرجعَّه إلىٰ الأندلس، فهؤلاء مجموعة من الذين يسمُّون بالفلاسفة في بلاد المسلمين، وقد تأثَّروا

---

(١) إخوان الصفا هم: جماعة من الشيعة الإسماعيلية الباطنية، عاشوا بالبصرة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ألَّفوا عدة رسائل يشرحون فيها اعتقادهم الباطني الخبيث، بلغت إحدىٰ وخمسين رسالة، عُرفت برسائل إخوان الصفا، وقد مزجوا في رسائلهم بين الإسلام والفلسفة الوثنية اليونانية، انظر تاريخ الحكماء لابن القفطي ٨٨ -٨٢، المقابسات لابن حيان التوحيد، ص ٤٨ -٤٦، رسالة جامعة الجامعة لإخوان الصفا وخلان الوفاة تحقيق عارف تامر، ص ٥٥٧، الموسوعة العربية الميسرة.٦٦ / ١

بالفلسفة اليونانية.

الفلسفة تأثَّر بها المسلمون، أو ثلاث طوائف من المسلمين، أولهم هؤلاء الفلاسفة، سنقرأ مقاطع من كلام الفيلسوف ابن سينا، نقارنها بكلام فلاسفة اليونان.

من عقائد أرسطو أنه يقول عن العِلَّة الأولىٰ، أو الخالق الأول: حيٌّ بذاته، باقٍ بذاته، عالِمٌ بذاته، أو إنه واجب الوجود بذاته، عَقْلٌ لذاته، عاقِلٌ لذاته، ومعقولٌ لذاته. ويقول ابن سينا: إن واجب الوجود عقل، وعاقل، ومعقول. - نفس الألفاظ التي في الفلسفة، هي نفسها التي عند ابن سينا-، ويقول أرسطو: فلم يصدر عن الواحد من كل وجه إلا واحد، وهو العقل الفعَّال.[1] وقال ابن سينا: إن واجب الوجود بذاته واحد من جميع جهاته، فلا يجوز أن يُصدَر عنه إلا واحد.[2]

نفس كلام الفلاسفة، عرَّبوه، وأصبغوا عليه الأسماء الإسلامية، وإلا فهي عقائد الفلاسفة، وليست من عقائد المسلمين.

ثم يقول ابن سينا عن المنطق: إن علم المنطق هو علم الميزان، وكل علم ما وُزِن بالميزان، لا يكون يقينًا، ففي الحقيقة لا يكون علمًا، فلا مفر من تعلُّم المنطق، أي أن العلم الذي لا يُوزَن بالمنطق، ليس علمًا، حتىٰ القرآن، والسُّنَّة، يعني جميع علوم المسلمين ليس علمًا، وليس يقينًا؛ لأننا ما قِسْناه بالمنطق، هذا -نسأل الله العافية- قولٌ قد يؤدي إلىٰ الكفر.

الطائفة الثانية -من تأثروا بالفلسفة-: **المتصوفة**، فإن بعض الفلاسفة يقول بوحدة الوجود: وهي أن العالَم جسم، وإن الجسم هو النفس الحالَّة فيه،

---

(١) المِلَل والنِّحَل ط المعرفة (٢/ ١١٨)

(٢) النجاة ص ٢٢٨-٢٢٩.

يقول بالاتحاد: الكون قد حلَّت فيه هذه الروح، أو حلَّ فيه هذا الجسم.

الطائفة الثالثة: المتكلِّمون، فقد تأثَّر المتكلمون بالمنطق خاصةً، حتىٰ قال الغزالي في كتابه المُستصفَىٰ، -وهذا كتاب في أصول الفقه، بدأه بذكر المنطق، لكن قبل أن يذكر المنطق، أو قواعد المنطق- يقول: وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول، ولا من مقدِّماته الخاصة، بل مقدمة العلوم كلها، ومَن لا يحيط بها -أي مَن لا يحيط بالمنطق- فلا ثقة بمعلوماته أصلًا[1]. أي لا الشافعي، ولا ابن حنبل، ولا مالك، ولا أبو حنيفة، ولا الثوري، ولا الشعبي، ولا الصحابة، ولا رسول الله، وهذا كلام في غاية الخطورة، هذه من آثار الفلسفة الوثنية الأولىٰ، فإن المنطق هو منهج الفلاسفة في تقرير عقائدهم.

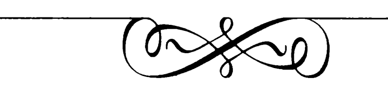
ثم جاء العلماء فنقضوا المنطق، وكان من أول مَن نقض علم المنطق، في القرن الرابع، السيرافي رَحِمَهُ اللهُ، فإنه قد ناظر رجلًا نصرانيًّا، اسمه مَتَّىٰ بن يونس، وأثبت السيرافي أن البشرية لا تحتاج إلىٰ المنطق، وأن المنطق خاص بأمة من الأمم، وليس قاعدة لجميع المعارف، يقول السيرافي: الأمم الأخرىٰ غير اليونان، كيف كانت تعرف القضايا، كيف كانت تعرف العلوم؟ هذا علم اليونان، لكن غير اليونان من الفرس، والرومان، والعرب، والهنود، والصينيين، وغيرهم، كيف كانوا يعرفون العلوم؟ فلو كان العلم لا يُعرَف إلا بقواعد المنطق؛ لكانت البشرية كلها جاهلة، ثم الإسلام قد جاء بعد وجود المنطق، فأغنىٰ الله المسلمين بهذا الدين، بكلام الله كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فدين الله كامل، ودين الله لا يُقرَّر إلا بدينه، والقرآن لا يُقرَّر إلا بالقرآن، والحق لا يُقرَّر إلا بالحق، فهو لا يُقرَّر بالباطل.

---

(١) المستصفىٰ للغزالي الرسالة (١/ ٤٥)

لكن المتكلِّمين قد أدخلوا علوم اليونان في علوم المسلمين، وبخاصة في علم العقيدة، وأفسدوا بها الدين، ومَن قرأ كُتُب المتكلِّمين يرىٰ العجب، حتىٰ علوم الرياضيات، وعلوم الطبيعة، أدخلوها في العقيدة، ومن أشهر الكتب كتاب "المواقف" للإيجي، مَن يقرأه يرىٰ العجب، فتكلم عن الأصوات، وتكلم عن الصور، ومن بحوثه: هل يمكن للإنسان أن يسمع بأذنه الصورة؟ أو هل يمكن أن يرىٰ بعينه اللفظ؟ ودراسة عن الطبيعيات، وعن الأفلاك، وكل هذه تأثَّر بالمنطق؛ لأن دراسة الفلسفة كانت علىٰ ثلاثة أنحاء: **رياضيات، وعلوم طبيعية، وإلهيات**، يعني (ميتافيزيقا) كما يسمُّونها، بمعنىٰ ما وراء الطبيعة، فهذه العلوم الثلاثة أدخلها كلها في كتب العقيدة، فمَن يقرأ كتب عقائد المتكلِّمين يرىٰ العجب، قساوة للقلوب، وبعدًا عن القرآن والسُّنَّة، وإفقاد الثقة في كلام الله، إذا كُنَّا لا نفهم القرآن، ولا نفهم السُّنَّة إلا بمنطق اليونان، فهذا الدين ناقص، ويكمِّله فكر اليونان، ومَن عاش قبل المنطق، لم يعرف الدين! ونرىٰ قواعد المتكلِّمين كلها تقوم علىٰ المنطق اليوناني، تنقسم عندهم المعاني إلىٰ تصديقات، وإلىٰ تصورات، وحدود، وتعريفات، وجعلوا ضوابط للمعرفة، ومقدمات، ونتائج، مَن لم يعرفها ولم يتعلم علىٰ ضوئها، فلا ثقة بعلومه، هذه نتائج الفلسفة التي دخلت علىٰ عقائد المسلمين.

قوله: (**ومن هذا شرك الفلاسفة**)، فأشار الشارح رحمه الله إلىٰ أن عقائد الفلاسفة عقائد تُضَاد توحيد الربوبية، وأن عقائدهم عقائد شِرك التعطيل، أي كفر وإلحاد؛ لأنهم يعتقدون أن الكون قديم، وليس مُحدَثًا، وهذا -نعوذ بالله- غاية الضلال.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومـن هـذا شـرك طائفـة أهـل وحـدة الوجـود، كـابن عربـي، وابـن سـبعين، والعفيف التلمساني، وابن الفارض، ونحوهم من الملاحدة الذين كسوا الإلحاد حليـة الإسـلام، ومزجـوه بشـيء مـن الحـق، حتـىٰ راج أمـرهم علـىٰ خفـافيش البصائر.

الشَّرْح

قوله: (**ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود**)، هـذه الطائفـة مـن بعـض فرق الصوفية، وصل بها الأمر إلىٰ أنهم لا يفرِّقون بين الخالق والمخلوق، وأن المخلوقات هِي الخالقة، فيرُون أن الله قد حلَّ في هذا الكون، فكل شيء في هذا الوجود هو الله، هذا عند أصحاب وحدة الوجود كلهم، وهذه الأسماء التي ذكرها الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ تمثِّل قيادات، أو رؤوس عقيدة وحدة الوجود، وأولهم ابن عربي.

والغريب أننا عندما نقرأ في كلام هؤلاء الذين ذكرهم الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ ومَن كان مثلهم، نجد أن كلهم كانوا في قرن واحد، أي القرن السابع، ابتداءً من أول القرن إلىٰ آخره، وكأن هناك تيَّارًا صوفيًّا متطرِّفًا في هذا العصر.

فابن عربي وُلِد في الأندلس بمرسيا، وزار الحجاز، والشام، والعراق، يقول في كتاب له اسمه: "الفصوص": إنه قد أُوحِيَ إليه به في المنام، أو أعطاه الرسول في المنام، وقال: هذا الفصوص، وأخرجه للناس، وكتاب الفصوص كله شِرك، يقول: إن فرعون عندما قال أنا ربكم الأعلىٰ، فإنه كان يعني أنه وإن كنا كلنا أربابًا، لكن أنا الرب الأعلىٰ، فإني الأعلىٰ بما أُعطيتُه في الظاهر من التحكُّم فيكم، وإلا فكلنا أرباب، ولما عَلِمَت السحرة صدقه فيما قال، لم

ينكروه، وأقرُّوا له بذلك، فقالوا له: فاقضِ ما أنت قاضٍ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، فالدولة لك، أي أنت الرب في الدنيا، أقرُّوه، فصحَّ قوله أنا ربكم الأعلىٰ، وإن كان عين الحق، فالصورة لفرعون، -أي هو عين الحق، عين الله، لكن الصورة الخارجية فرعون-، فقطَّع الأيدي والأرجُل، وصَلَبَ بعين حقٍّ في صورة باطل، ثم أثْنَىٰ علىٰ فرعون بالعلم، وأنه مات طاهرًا مطهَّرًا. هذا من كلام ابن عربي.

ويقول ابن عربي في الفتوحات: وأما النصارىٰ، فإنهم أقرب من جميع الأمم الماضية إلىٰ الحق، دون المحمديين -يعني المسلمين-، وسببه أنهم طلبوا الله ﷻ، فعبدوه في عيسىٰ ابن مريم وروح القدس، ثم قالوا بعدم التجزئة، وقالوا بِقِدَمِه -علىٰ وجوده في مُحدَث عيسىٰ-، وكل هذا تنزيه في تشبيه لا يقول بالجناب الأعلىٰ، هذه نماذج من كلام الشيخ الأكبر عند المتصوفة، وهو ابن عربي، وفي تفسير حديث رسول الله: (**مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثل رجل بَنَىٰ بيتًا، فأحكمه، وأتقنه، إلا موضع لَبِنَة في زاوية، فجئتُ أنا، فكمَّلتُ تلك اللبنة**)[1]، فالرسول يقول إن بناء النبوة، كان بَقِيَ فيه محل لَبِنَة، فجاء الرسول، فاكتمل البناء، وابن عربي يقول: الحقيقة ليست لَبِنَة واحدة، بل لَبِنتين: لَبِنَة فِضة، ولَبِنَة ذهب، اللَبِنَة الفضة خاتَم الأنبياء، واللَبِنَة الذهب خاتَم الأولياء -يعني نفسه-، استدرك علىٰ رسول الله، وجعل نفسه أفضل من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، بلفظ" إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنىٰ بيتًا، فأحسنه، وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلَّا وضعت هذه اللبنة، قال فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين"، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، برقم: (٣٥٣٥)، وكذا أخرجه مسلم في صحيحه بزيادة، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين، برقم: (٢٢٨٦)، (٤/ ١٧٩٠).

رسول الله، فإنه يقول هناك خاتَم للأنبياء، وخاتَم للأولياء، أي لا يوجد بعده وَلِي.

وابن سبعين متوفىٰ عام ستمائة وتسعة وستين في مكة، وهو من إشبيليا من المغرب، قال الذهبي: اشتُهِر عن ابن سبعين أنه قال: لقد تحجَّر ابن آمنة -أي رسول الله- واسعًا، يقول لا نبي بعدي، يعني حجَّر أمرًا واسعًا، ويقول لا نبي بعدي، فقال: النبوة مفتوح بابها.

يقول في وحدة الوجود: رب مالك، وعبد هالك، ووهم حالك، وحق سالك، وأنتم ذلك، اختلط في الإحاطة الزجُّ مع الفرج، واتحد فيه النجم مع الورد، واتفق السطر مع القَرْض، وبالجملة السبت هو يوم الأحد، والموحِّد هو عين الأحد. أي أنت توحِّد، والمُوحَّد هو الله، وكلاكما عين واحدة.

فالشارح رحمه الله **ذكر** منهم ابن عربي، وابن الفارض، والتلمساني، وابن سبعين، وهؤلاء من زعماء شِرك أهل وحدة الوجود، وقد سبق نماذج من أقوال بعضهم.

ومعرفة هذا الشرك أو غيره للمسلم -كما ذكرنا- مطلوب؛ لأن الإنسان إذا كان غافلًا عن معرفة مداخل الشرك، وأسبابه، وصوره؛ ربما يقع فيه، وقلنا إن آدم لمَّا كان لا يعرف الشر، وقع في معصية الله عز وجل، حيث إن آدم لم يكن يتصور أن أحدًا من خلق الله، يجرؤ علىٰ أن يُقسِم بالله كاذبًا، والله قال عن إبليس: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾، أي حَلَف لهما، ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف:٢١].

ولعل السرَّ في طول طفولة ابن آدم، أن يتعلَّم من أبويه التجارب والخبرة، فإن طفولة الإنسان، أطول طفولة في الحيوانات، بل بعض الحيوانات، وبعض

الطيور، منذ تخرج من بطن أمها، أو من البيضة، تصبح قادرة على العيش استقلاليًّا، فأفراخ الدجاج -مثلًا- إذا خرجت من البيضة، تنطلق تلقُط الحَبَّ، تستقل بنفسها، وتقوم على قدميها، كذلك جميع مواليد الحيوانات، بعد ساعة أو ساعات، تقف على أقدامها، لكن طفولة الإنسان تستمر فترة طويلة؛ لأنه سيواجه معركة، سيواجه مسؤولية، ويحتاج إلى أن يتعلم من أبويه في هذه المعركة، ما يُعينه على معرفة مداخل الشر، ولهذا نجد الأطفال أقبل لقبول الأفكار من غيرهم، سواء خيرًا أو شرًّا؛ لأن التجربة عندهم قليلة، ولهذا ينبغي على الآباء أن يحرصوا على رعاية أبنائهم، وألا يتركوهم يخالطون مَن لا يعرفون.

فمعرفة الشر كما قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوَقِّيه ومَن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

فقراءتنا لنماذج من أقوال أهل وحدة الوجود، من باب الاطلاع على هذا الشر؛ لأن كثيرًا من الناس يمجِّدون بعض هؤلاء الأشخاص، فينبغي أن يعرف الإنسان ذلك جيدًا.

ونقرأ بعض المقاطع من أقوال هؤلاء الذين ذكرهم الشارح.

فمن قصائد ابن عربي يقول:

لقد صار قلبي قابلًا كل صورة فمَرْعَى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

يعني لا يفرِّق لا بين كنيسة ومسجد، ولا بين مصحف وتوراة، هذا نموذج من أقواله.

ويقول ابن الفارض، وهو من شعراء أهل وحدة الوجود، وقيل: إن شعره كلحم خنزير في صحن من ذهب، أو في صحن صيني، أي عباراته جميلة، وألفاظه جميلة، لكن في داخل الألفاظ من السُّم الناقع، ومن الإلحاد، والكفر، ما الله به عليم. يقول في قصيدة تسمَّىٰ بالتائية:

وكل الجهات الست نحوي توجهت ... بما ثم من نسك وحج وعمرة

لك صلواتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلت

كلانا مصلٍّ واحد ساجد إلىٰ ... حقيقته بالجمع في كل سجدة

وما كان لي صلىٰ سواي ولم يكن ... صلاتي لغيري في أدا كل ركعة

أي هو عابد ومعبود، يعني لا يفرِّق بين الله والمخلوق، وبين العابد والمعبود.

والتلمساني عندما قالوا له أن كتاب فصوص الحكم لابن عربي فيه شرك، قال: القرآن كله شِرك، وإنما التوحيد في كلامنا.(١)

وقد أوَّل أتباعه هذا الكلام، بأن زعموا أن ظاهر القرآن شِرك، وهذا -نسأل الله العافية- من أقبح الكلام، أي أن الله ﷻ لم يستطع أن يبيِّن الحقيقة، وأن رسوله ﷺ لم يستطع أن يبيِّن الحقيقة، فلا تُؤخَذ الحقيقة من القرآن والسُّنَّة، إنما تُؤخَذ من كلامهم، وهذا من أردأ الأقوال.

وابن الرومي، لم يذكره الشارح، وهو من أسوأ دُعاة أهل وحدة الوجود، واستمعْ إلىٰ قول ابن الرومي في قصيدة ألَّفها في أكثر من خمسة وعشرين ألف بيت، وطُبِعَت في ستة مجلدات، يقول فيها:

---

(١) انظر انظر مجموع الفتاوىٰ (٢\١٢٧)، مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (١/ ١٤٥)

نفسي أيها النور المشرق لا تنأ عني لا تنأ عني
حبي أيها المشهد المتألق لا تنأ عني لا تنأ عني
انظر إلى العمامة أحكمتها فوق رأسي
بل انظر إلى زنار زاردشت حول خصري

زاردشت هذا من دُعاة الأديان القديمة، منهم مَن نَسبَه إلى المجوسية، ومنهم مَن نَسبَه إلى البوذية، فهو من دُعاة العقائد القديمة المنحرفة.

أحمل الزنار وأحمل المخلا لا بل أحمل النور فلا تنأ عني لا تنأ عني
ليس لي سوى معبد واحد مسجدًا كان أو كنيسة أو بيت أصنام

فله معبد واحد، وهو كل معبد يُعبَد فيه، ولو لأصحاب الديانات الباطلة، سواء كان مسجدًا، أو كنيسة، أو بيت أصنام، وهذه القصيدة كلها على هذا النمط، بزعم منها أنه داعية الحب، وداعية تمجيد الإنسان، وهذه نموذج من الشعر المفروط، أو -كما يسميه بعض المحدِّثين- **الإسهال العقلي**، الشعر الذي ليس له نظام، وليس له قانون، وليس له بحور، هكذا مثل كلام الأشخاص الذين فقدوا عقولهم.

وهؤلاء محسوبون على المسلمين، ينظر إليهم الكفار على أنهم من أتباع الدين الإسلامي، فإذا رأوا هذا الكلام، وهذا الغُثاء في هذا الدين، كيف ينظرون إلى الإسلام؟ ينظرون إليه نظرة ازدراء واحتقار؛ لأن الصور التي تُصوَّر عن طريق أفكارهم، وعقائدهم، صور مُزرية، صور غير مقبولة للإنسان العاقل، فالإنسان العاقل إذا تأمل في هذا الباطل الذي باسم الإسلام، يكره الإسلام، ولا يوجد مذهب باطل، أو لا تتصور فكرة سيئة، إلا ولها أتباع وأنصار، قد يقلُّون، وقد يكثرون، والله ﷻ لما ذكر في القرآن الكريم أنواع

الشرك، ذكر فرعون الذي أنكر الرب ﷻ، وذكر النمرود، وذكر مَن زعـم أن الله فقير، وذكر مَن زعم أن الله له ولد، وذكر مَن زعم أن الله لـه بنـات؛ لأن المسـلم الذي يعيش علىٰ الإسلام، قد لا يتصور أن يكون هناك مَن يخالِف هـذا الـدين، فإذا لم يُبيَّن له أنه يوجد شـواذ في البشـرية، وتوجـد طوائـف وأحـزاب، وتوجـد اتجاهات تخالِف دين الله، وتعادِي الله ورسوله، قد يقع في الفساد، من حيـث لا يشعر، أو قد يفاجَأ، ويُصاب بردَّة فعل سيئة، لكن الله ﷻ مـن رحمتـه بنـا، ذكـر في كتابه الكريم جميع مـا نحتاجـه، فمـا مـن صـورة مـن صـور الباطـل، إلا وقـد أشار إليهـا كتـاب الله ﷻ، فـإذا رأىٰ المسـلم هـذه النمـاذج، فإنـه يتشـكل عنـده تصور، يجعله لا يفاجأ إذا رأىٰ مَـن يحـارب الله، أو ينكـره، أو يصـفه بأوصـاف باطلة، فلا يستغرب، فهذه من ثمرات دراسة هذه المذاهب.

هؤلاء جميعًا قال عنهم الشـوكاني رحمه الله : وأمـا ابـن الفـارض، وابـن عربـي، وابن سبعين، والتلمساني، فاعلمْ أنهـم قـد جمعـتهم خَصـلة كفريـة، هـي قـولهم بوحدة الوجـود، مع ما تفرَّق فيهم مـن خِصـال الخـذلان، والـبلايـا المتنوعـة[1]، فالعلماء قد كفروا هؤلاء الأشخاص، لكـن لا زال بعـض النـاس يهـتم بكُتُبهـم، وينشرها، ويتبنَّىٰ عقائدهم، رغم هـذا المـُنكَر الواضـح، الـذي لا يقبلـه عاقـل، ولا يرضاه صاحب دين.

والعجـب أن الشـيخ النـدوي -وهـو مـن الكُتَّـاب المحـدِّثين، والكُتَّـاب الجيـدين، ولـه كتـب جميلـة، لكـن لا يخلـو عـن بعـض الآراء والأفكـار غيـر السديدة- قد ذكر في كتاب رجال في الفكر الإسـلامي ابـن الرومـي، مـع أنـه مـن أهل وحدة الوجود.

---

(١) الصوارم الحداد القاطعة لعلائق أرباب الاتحاد (ص: ٣٧)

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب وأوصافه من غلاة الجهمية والقرامطة.

النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهًا آخر ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته، كشرك النصارىٰ الذين جعلوه ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلىٰ النور، وحوادث الشر إلىٰ الظلمة.

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.



الشرح

قوله: (ومن هذا شرك مَن عطَّل أسماء الرب)، هذا النوع من أنواع هذا الشرك، وهو شرك مَن انتسب إلىٰ الإسلام، ثم عطَّل أسماء الله وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، دخل هذا النوع في شرك الربوبية؛ لأن مَن أنكر أسماء الله وصفاته، فإنه ينتهي إلىٰ أنه ليس هناك رب، فإن الموجودات يتميز بعضها عن بعض بصفاتها، فإن لم تكن لله صفات تميزه عن خلقه، فإنه غير موجود، ولهذا يقول ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إنا لنحكي قول اليهود والنصارىٰ، ولا نستطيع أن نحكي قول الجَهَمية، يعني بقول اليهود أن عزير ابن الله، وبقول النصارىٰ أن عيسىٰ ابن الله، نحكيه، ونذكره للناس، لكن ما تقوله الجَهَمية في الله لا نجرؤ علىٰ أن نقوله؛ لأنهم ينتهون إلىٰ أنه ليس فوق العرش إله، وهذا كقولهم أن الله ليس له فوق، ولا أسفل، ولا يمين، ولا شمال، أي ليس لله وجود يميزه عن خلقه.

فإذا لم تكن لله جهة، والقلب يتجه إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ليدعوه، ويستغفره، ويتوب

إليه، ويستنصره، فإن القلب يُحال على مجهول، لكن الحقيقة أن الله فوق عرشه ﷻ، فليس فوق العرش إلا الخالق، فعندما يُقال: تُنفَى الجهة عن الله، نقول: **الجهة لها معنيان: معنى مخلوق، ومعنى فوق المخلوقات.**

فإن أرادوا أنه ليس فوق العرش أحد، وليس فوق العرش إله، وسمُّوه جهة، نقول هذا اصطلاح باطل، الجهة التي يُنفَى ربنا عنها، ما كان داخل الكون، فالجهات المخلوقة نُنَزِّه الله عنها؛ لأن الله ﷻ له وجود مستقل، بائن عن خلقه ﷻ.

فالذين أنكروا أسماء الله وصفاته في حقيقتهم، أحالونا على معدوم، ولهذا يقول العلماء: لو أن إنسانًا أراد أن يُنكِر الله، وقال ليس داخل الكون، ولا خارج الكون، إله، ثم جاء المتكلِّم وقال: هناك إله، لكن ليس داخل الكون، ولا خارجه، ما كان هناك فرق، كلاهما سواء. فإثبات شيء لا داخل الكون، ولا خارجه، كنفي شيء لا داخل الكون، ولا خارج. وأول من عُرِف عنه إنكار أسماء الله وصفاته، هو الجعد بن درهم، شيخ الجَهم بن صفوان.

الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبد الله القسري في العراق، عام مائة وأربعة وعشرين للهجرة، أي في بداية القرن الثاني، هو أول مَن عُرِف عنه إنكار أسماء الله وصفاته، ثم تبنَّى أفكاره الجهم بن صفوان، الذي قُتل عام مائة وثمانية وعشرين للهجرة، في أول القرن الثاني، بعد أربع سنوات من قتل الجعد بن درهم.

يقول الجهم بن صفوان: لا أصف الله، ولا أسمِّيه باسم يُطلَق على المخلوق، وسمَّاه بقرابة ستة أسماء، سمَّاه: فعَّال، ومُوجِد، وخالِق، ومُحيِي، ومُميت، ورازق، أما بقية الأسماء مثل السميع البصير الرحمن الرحيم، فلا يسمِّيه بها؛ لأنها يسمَّى بها المخلوق.

و نقول له: إن الأسماء التي أثبتوها يسمَّىٰ بها المخلوق، فليس في الوجود ما ليس له اسم، فإذا كان إطلاق الاسم علىٰ الخالق، يؤدي إلىٰ التمثيل أو التشبيه، فلا تسمِّه بشيء، وهذا هو الذي انتهوا إليه، وهم القرامطة الباطنية، الذين زعموا أن الله لا يسمَّىٰ ولا يُوصَف، ولا يُقال إنه موجود، ولا إنه غير موجود، ولا إنه حي، ولا غير حي، انتهوا إلىٰ هذا؛ **لأن البداية الباطلة، تنتهي إلىٰ نهاية باطلة.**

فالجَهَمية أنكروا الأسماء والصفات، **وكذلك القرامطة**، والقرامطة نسبةً إلىٰ حمدان قرمط، وهذا من أول مَن أوْجد فكر الباطنية، أو القرامطة، والقرامطة أهل مذهب شبيه بمذهب الشيوعية الإباحية، ومن أسمائهم: الإباحية، والباطنية، والإسماعيلية، والبابكية، والخرمية، كما ذكر الغزالي في كتاب **فضائح الباطنية**، فإنه ذكر أسماءهم، وأنهم يُطلَق عليهم من الأسماء قرابة العشرة، منها هذه الأسماء.

والقرامطة كان لهم صولة في أوائل القرن الرابع عام ثلاثمائة وسبعة عشر للهجرة، اقتحموا الحرم، واقتحموا الحجاج يوم التروية، وقتلوهم قتلًا ذريعًا، وقتلوا الطائفين، وطلع القرمطي أبو طاهر الجنابي، وجلس علىٰ باب الكعبة، والناس حوله يُقتَّلون، ويُصرعون، ويقول:

أنا بالله وبالله أنا … أخلق الخلق وأفنيهم أنا

ثم قلع الحجر الأسود من الكعبة، وأخذه إلىٰ البحرين، ومكث معه الحجر قرابة عشرين سنة، لم يُرجَع إلا بأمر من الوالي الباطني العبيدي، فإنه كتب له رسالة، وأمَرَه أن يعيده، مما يدل علىٰ أن هناك ارتباطًا بين العبيديين والقرامطة.

فالقرامطة عقيدتهم كعقيدة الجَهَمية، فالجَهَمية نفوا الأسماء والصفات،

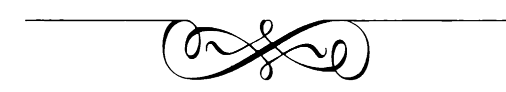
والقرامطة نفوا النفي والإثبات، فهذا نوع من أنـواع الشـرك في توحيـد الربوبيـة، هذا ما يتعلق بالقسم الأول من أقسام الشرك، التي أوْردها الشارح رحمه الله.

قوله: (النوع الثاني: شرك مَن جعل معه إلهًا آخر...)، النوع الثاني من أنـواع الشرك في الربوبية: شرك مَن جعل مع الله إلهًـا آخـر، أي أقـرَّ بـالله سبحانه وتعالى الربوبيـة، وأقـرَّ كـذلك لغيـره معـه، وضـرب الشـارح رحمه الله مـثلًا بـالمجوسـية، والمجـوس أصـحاب ديانـة كانـت قبـل الإسـلام، يعتقـدون أن الكـون فيـه خالقـان: خـالق للنور، وخالق للظلمة، أي خالق للخيـر، وخـالق للشـر، وخـالق الخيـر عنـدهم أقدم من خـالق الشـر، ويسمُّون الأول يـزدان، والثـاني بهرمـان -علىٰ لغـتهم-، ويعظِّمون النار، وتُبنَىٰ لهـا المعابـد، النـار كانـت لا تنطفِـئ في بـلاد المجـوس، كانت مستمرة لها خَدَم، ولها سَـدَنَة. وفي قصـة سـلمان الفارسـي، أنـه قـال: إنـه كـان أبـوه مـن سَـدَنة عبـاد النـار، وكـان يضـعه عنـد المعبـد؛ لِئَلَّا تنطفـئ النـا. فالمجوس اعتقدوا أن هناك إلهين، وأن هناك خالقين، لكـن أحـدهما أقـدم مـن الثاني.

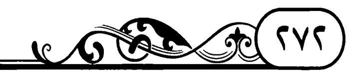
أما الثنوية، فيعتقدون أن هناك خالقين قديمين، وإلهـين قـديمين، كاعتقـاد المجوس، ولهذا أشـار القـرآن الكـريم إلـىٰ أنـه لـو وُجِـدَ هنـاك آلهـة في الكـون؛ لحدث الفساد، ولعَلا بعضهم علىٰ بعض، وهـذا ردٌّ علـىٰ هـذا النـوع مـن أنـواع الشرك.

فقوله رحمه الله إن هذا النوع من الشرك مما يتعلـق بالقسـم الأول، وهـو اعتقـاد أن في الكـون خـالقين، وهـذا شـرك النصـارىٰ، زعمـوا أن عيسـىٰ ابـن الله، أو أن عيسىٰ ثالث ثلاثـة، أو أن عيسـىٰ هـو الله، هـذه طوائـف، كـل طائفـة لهـا مـذهب تعتقده في الله، وفي عيسىٰ، فهذا هو شرك المجوس، الـذين زعمـوا أن في الكـون إلهين، ونسبوا إليهما الخير والشر.

قوله: (مذهب مُشركي الصابئة وغيرهم)، الصابِئة مكانهم في الشام، ولا زال لهذا المذهب بقايا، وبعض الدارسين المحدِّثين قالوا: إن عددهم قد لا يزيد عن خمسة آلاف، وهم الآن في شمال العراق، بهذا الاسم "الصابئة"، أو قريب من هذا الاسم، فالصابئة تعتقد أن الكواكب هي التي تُوجِد الحوادث، وأن كل كوكب له روح، وأن أقرب الكواكب إلينا القمر، وما يحدث في الأرض كله عن طريق القمر، والشرك للكواكب كان موجودًا في العرب، لكن ليس بهذا الاعتقاد، إنما كانوا يعتقدون أن الكواكب تؤثِّر، وقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم، عن زيد بن خالد يقول: (صلَّىٰ بنا رسول الله صلاة الصبح يوم الحديبية، علىٰ إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف، قال: هل تدرون ماذا قال ربنا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما مَن قال: مَطَرُنا بفضل الله ورحمته، فهو مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما مَن قال مَطَرُنا بنوء كذا وكذا، فهو كافر بي، مؤمن بالكوكب)[1]، فهذا الاعتقاد قد يقع فيه بعض الناس، لا باعتقاد أن الكوكب له تصرُّف مع الله، لكن يقع فيه بحكم الوراثة، أو الجهل، فهذه من عقائد الصابئة عُبَّاد الكواكب، وكان أرسطو منهم؛ فإن أرسطو كان يعتقد أن القمر له روح، وله تأثير، فهذا من أنواع العقائد التي أوْردها الشارح رحمه الله في شرك الربوبية.

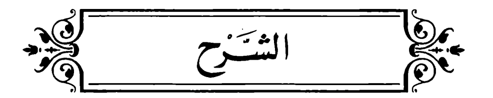


(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام إذا سلم، برقم: (٧٤٦)، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، برقم: (٧١)، (١/ ٨٣).



قال المؤلف رحمه الله:

قلت: ويلتحق به من وجه شرك غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويفرجون الكربات، وينصرون من دعاهم، ويحفظون من التجأ إليهم ولاذ بحماهم، فإن هذه من خصائص الربوبية، كما ذكره بعضهم في هذا النوع.



الشَّرح

قوله: (**قلت: ويلتحق به من وجه شرك غلاة**)، الشارح رحمه الله يُلحَق بهذا النوع بعض المسلمين، الذين يعتقدون أن أرواح الموتى لها تأثير في الخير والشر والنفع والضر؛ ولهذا الاعتقاد يدعون الأرواح، أو يدعون الأموات، وفي العصر الحاضر هناك ما يسمَّى بالروحية الحديثة، فهؤلاء الذين استخدموا الشياطين، وعبثت بهم الشياطين، يزعمون أنه يمكن أن تُستحضَر أرواح الأموات، ولهم طرق كثيرة في التمويه على الناس، والكذب عليهم، و في هذا تعينهم الشياطين.

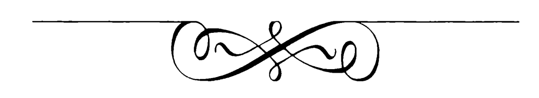
فالأرواح لا سلطان لأحد عليها، وسلطانهم إنما هو على الشياطين، عن طريق السحر، وعن طريق التنويم المغناطيسي -أحيانًا- لبعض الأشخاص الأحياء، فإنهم يأتون ببعض الأشخاص في غرف خاصة، مهيَّأة لهذا الغرض، فيُنوَّم تنويمًا مغناطيسيًّا، حتى يفقد وعيه الإنساني، فيُسأَل عن أي شيء في المدينة، ويخبر بها، ونحن نقول: لعله -والله أعلم- قد دخله جن، فإن الجن تعرف الموجود، فإن الغيب أنواع: غيب زماني، وغيب مكاني، الغيب الزماني الذي قد مضى، لا يُعرَف إلا عن طريق النقل، والجن تعرفه، ما لم يكن قديمًا جدًّا، فتُخبِر بما كان قبل خمسين سنة أو مائة سنة؛ لأن الشياطين تُعمِّر،

والغيب المكاني مثلًا ما يقع الآن في المدن الأخرىٰ، أو في البلدان الأخرىٰ، تعرفه الشياطين عن طريق بعضهم البعض، فهذا لا يسمَّىٰ غيبًا في الحقيقة، بل هذا غيب نسبي، أما الزمن المستقبل، فهذا الذي عِلْمه عند الله -سبحانه-، فهؤلاء الذين يُحضِرون الأرواح في العصر الحاضر، يستخدمون الشياطين، وتخبرهم الشياطين بما كان، وما هو كائن الآن، وهذا ينطلي علىٰ كثير من الناس، حتىٰ إن بعضهم يرىٰ أشباحًا تجلس بجانبه، أو في غرفته بأشكال أبيه أو أمه أو قريب، وهذا كله في المجتمعات التي ليس فيها ذكر الله ﷻ، فكلما ضَعُفَ ذِكْر الله في المجتمع، ظهرت فيه الشياطين، وإذا أُعْلِن ذِكْر الله، تضعُف الشياطين، ولهذا إذا أذَّن المؤذن، فإن الشيطان يفِرُّ، فالأذان من أنواع العلاج، لإخراج الشياطين والجن من البيوت والمجتمع.

فالشاهد: أن الذين يعتقدون أن أرواح الأموات تسمع، وتجيب الداعي، وتعينه، وتنفعه، وتضره، فيه شرك من أمثال شرك هؤلاء الذين ذكرهم الشارح رحمه الله من عباد الكواكب؛ لأن الميت إذا مات فقد انتهىٰ، ولم يعد له عمل أثر، ولو كان الميت أو الروح بعد الموت ينفع ويضر، لكان الصحابة دعوا رسول الله، وكم حدث بينهم من صراعات، ومن حروب، ومن قتال، ومن اختلافات؟ فلو كانت الروح يمكن أن تنفع أو تضر، لكان الصحابة أعرف منَّا بهذا الأمر، فلمَّا لم يفعلوا ذلك، عرفنا أن هذا جهل، يعتقده بعض الناس دينًا، وهو من الباطل، الذي لم يأت به كتاب ولا سُنَّة.

والشارح رحمه الله عبَّر عن هؤلاء بعُبَّاد القبور؛ لأن الذي يذهب إلىٰ القبور، يعيش معها، ويتمسَّح بها، ويُنذِر لها، ويذبح لها، يُسمَّىٰ عابدًا لها، وكم يوجد من هذا النوع في بلاد العالم الإسلامي؟ وأعداء الإسلام حريصون علىٰ تعميق هذا النوع في قلوب الناس، وذكر لنا بعض الإخوة في بعض البلدان الإسلامية،

أن بعـض النصـارىٰ يعلِـن إسـلامه، وبعـد شـهر أو شـهرين، يـذكر أنـه كانـت لـه حاجـة قُضـيَت عنـد القـبر الفـلاني، وتمسَّـح بـه، وتقـرَّب إليـه، ولـم يـدخل في الإسلام حقيقة، إنما أراد أن يخدع الجُهَّال مـن المسـلمين، حتىٰ يجـذبهم إلـىٰ القبور، فهذا النوع يكثر في البلدان الإسلامية، ولهـذا قـلَّ أن تجد بلـدًا إسـلاميًّا ليست فيها قبور تُعبَد من دون الله سبحانه وتعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

القسم الثاني: الشرك في توحيد الأسماء والصفات، وهو أسهل مما قبله، وهو نوعان: أحدهما: تشبيه الخالق بالمخلوق، كمن يقول يد كيدي، وسمع كسمعي، وبصر كبصري، واستواء كاستوائي، وهو شرك المشبهة.

الشَّرح

قوله: (الشرك في توحيد الأسماء والصفات)، هذا القسم الثاني من أقسام الشرك، يتعلق بأسماء الله وصفاته ﷻ، وموقف المسلم من الأسماء والصفات أن يثبتها، وأن يقرَّ بمعناها، لكنه ينفي عنها الكيفية.

وسبق أن قلنا إن الألفاظ في اللغة العربية تنقسم إلىٰ: الفعل، والاسم، والحرف، وإن كل لفظ في اللغة فعلًا أو اسمًا، له جانبان: جانب المعنىٰ، وجانب الكيف، فنحن نثبت في حق بعضنا المعنىٰ والكيف، فإذا قيل: فلان ركب السيارة، عرفت معنىٰ الركوب، وتصورت في ذهنك كيفية الركوب، ولو قيل: صُنع في البلد الفلاني مثلًا: صاروخٌ جديد، كلنا نتصور شكل الصاروخ، ونعرف معنىٰ الصاروخ، ولو قالوا: صاروخ جديد لم تعرفوه من قبل، ما تستطيع أن تفكَّ من ذهنك كيفية الصاروخ عن لفظه؛ لأنك تعرف شكل الصاروخ أساسًا.

لكن في حق الله ﷻ نعرف المعنىٰ، ولا نعرف الكيف؛ لأن ذات الله عندنا غير معروفة، ومعرفة صفات الله وأفعاله ﷻ مرتبطة بذاته، فلما لم نكن نعرف ذات الله، فكذلك كيفية الفعل، وكيفية الصفة، لا نعرفها، لكن نعرف المعنىٰ بلغة العرب، ولو لم نعرف المعنىٰ في اللغة، لما استطعنا أن نعرف الله أصلًا، فإذا قال الله ﷻ (سميع بصير)، عرفنا معنىٰ السمع في حقنا، فلو لم نعرف

معنىٰ السمع في حقنا، لما استطعنا أن نعرف معنىٰ السمع في حق الله، لكن هناك انفكاك بين المعنىٰ والكيف، لا يستطيع الإنسان أن يُخلِي ذهنه من التصور، وهذا مما يُعفَىٰ عنه، لكن الإنسان ينبغي أن يغالِب نفسه، فكل صورة في ذهنك لله، فالله أعظم منها، لكن ينبغي أن نُثبِت المعنىٰ، ولهذا لم يَرِد عن السلف أنهم فوَّضوا المعنىٰ، بل إنما فوَّضوا الكيف؛ لأن كيفية الصفات لا تُعرَف في حق الله ﷻ، هذا المعنىٰ هو الذي يقرِّره قول مالك: الاستواء معلوم -أي في اللغة-، والكيف مجهول، فهناك جانبان، وكلاهما يدل عليه قول مالك ﵀ : الاستواء -أي الاستواء في لغة العرب- معناه معروف، والكيف مجهول.

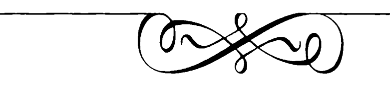
هذه الأسماء والصفات لله ﷻ أخبرنا الله بها؛ لنتقرب إليه بها، ونعبده بها، ونعظِّمه بها، وندعوه بها، لكن قد حدث بين المسلمين انحراف عن هذا، فجعلناها مَيْدانًا للجدال وللنقاش، فاشتغلنا بالجدال فيها، عن التعبُّد بها، والله تعرَّف إلينا بها؛ حتىٰ نعبده، ونعظِّمه ﷻ بها، فالأسماء والصفات تُثبَت بحسب ما أراده الله منها.

فحدث في هذا التوحيد انحرافان: انحراف التعطيل، وانحراف التشبيه، أما المُعَطِّلة -وهم علىٰ درجات-، فمنهم مَن قال: لو أثبتنا لله الصفات، لأدىٰ ذلك إلىٰ أن الله يشابه خلقه، فهؤلاء فرُّوا من تشبيه الله ﷻ، بالإنسان، فشبهوه بالجمادات، ثم فرَّت طائفة أخرىٰ من تشبيه الله بالموجودات، فشبَّهوه بالمعدومات، ثم فرَّت طائفة ثالثة من تشبيهه بالمعدومات، فشبهوه بالمُمتنَعات، قالوا: إن الله ليس موجودًا، ولا غير موجود، لا نقول موجود، ولا نقول غير موجود، فيُقال لهم: هذا هو المُمتنَع الذي لا يمكن أن يوجَد، فهذا فرار من تشبيه الله ﷻ بالإنسان العاقل، إلىٰ التشبيه بالجمادات، والممتنعات، والمستحيلات، أو المعدومات.

أما المشبهة فعلىٰ قسمين، ذكر هنا الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ قسمًا واحدًا، منهم مَن شبَّه الله بالخلق، فقال: (يدٌ كيدي، وسمعٌ كسمعي) وهذه طائفة مُندَثرة، لا أظن أنه بَقِيَ هناك أحد يتبعها، إلا إذا كان في الرافضة؛ لأن أول مَن قال بالتشبيه، أو عُرِف عنه التشبيه، رجلٌ يسمَّىٰ مقاتل بن سليمان، في منتصف القرن الثاني، توفي عام مائة وخمسين من الهجرة، وهذا كان يعيش مع شخص مُعطِّل، وهو الجهم بن صفوان، وكانا في مدينة واحدة، اسمها بلخ -هذه المدينة الآن في شمال أفغانستان-، وكانا في مسجد واحد، ودائمًا المناظرة تؤدي إلىٰ التطرف، كل إنسان لا يقبل الحق الذي مع مناظره، فيشتطُّ به، فكان الجهم مُعطِّلًا ينفي عن الله الأسماء والصفات، وكان مقاتل بن سليمان يقابله، حتىٰ شبَّه الله بخلقه، أي بالغ في الإثبات، والجهم بالغ في النفي، عندما رأىٰ هذا يشبِّه الله بالمخلوقات، فرَّ إلىٰ عدم وصف الله، أو تسميته باسم، كما قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ : جاءنا من المشرق رأيان خبيثان: جَهم المـُعطِّل، ومقاتل المـُشبِّه.

فهذا من تشبيه الخالق بالمخلوق، وإذا أُطلَق المـُشبِّه، فيُراد بهم هؤلاء.

النوع الثاني من التشبيه: تشبيه المخلوق بالخالق، فإذا دعوت المخلوق، شبَّهته بالخالق، وإذا استعنت بالمخلوق، شبَّهته بالخالق، وإذا توكلت علىٰ المخلوق، شبَّهته بالخالق، وإذا أحببت المخلوق، أو خفت منه، شبَّهته بالخالق، فكلا التشبيهين باطل، فهذا هو النوع الأول من أنواع الانحراف في توحيد الأسماء والصفات، وهو تشبيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمخلوقات، أو تشبيه المخلوق بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الثاني: اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الإله الحق، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، قال ابن عباس: يلحدون في أسمائه يشركون، وعنه سموا اللات من الإله والعزىٰ من العزيز.

الشَّرح

قوله: (اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة، من أسماء الإله الحق)، النوع الثاني من الشرك في الأسماء والصفات: أخذ أسماء الله، وإطلاقها علىٰ الأصنام، باشتقا من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للأصنام المعبودة من دونه عَزَّ وَجَلَّ، هذا هو الشرك الثاني الذي كان في الجاهلية، فسمُّوا اللَّات من الله، فاشتقوا من اسم الله اللَّا،ت وأطلقوها علىٰ أصنامهم، وكذلك مَناة من المنَّان، وهكذا كل اسم اشتقوه من اسم الله، فأطلقوه علىٰ معبوداتهم من دون الله، وهذا يسمَّىٰ شركًا في أسماء الله وصفاته، ولهذا يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، والأسماء الحسنىٰ لو كانت كلها تدل علىٰ معنىٰ واحد -كما يقول أصحاب الاعتزال- ما كانت أسماء حُسنىٰ، بل كانت اسمًا واحدًا، فكل اسم له معنىٰ يخصُّه، والمراد بالمعنىٰ هنا الصفة، فالرحمن دلَّ علىٰ الرحمة، والسميع دلَّ علىٰ السمع، والبصير دلَّ علىٰ البصر، أي يُفهم من الاسم معنىٰ زائد علىٰ العَلَميَّة، فهو عَلَم من جهة، ولكنه يتضمَّن صفة من جهة أخرىٰ، فنحن أُمِرنا بأن نُثبِت أسماء الله وصفاته، وأن ندعوه بها في حاجاتنا، فإذا أراد الإنسان أن يدعو الله، قال: يا رحيم ارحمني، أو يا غفور اغفر لي، أو يا رزَّاق ارزقني، فهكذا يدعو الله، بحسب ما يناسب الحاجة التي تعرض له في دعائه.

قال المؤلف رحمه الله:

القسم الثالث: الشرك في توحيد الإلهية والعبادة، قال القرطبي: أصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالىٰ في الإلهية، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالىٰ في الفعل، وهو قول من قال: إن موجوداً ما غير الله تعالىٰ يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهـاً. هذا كلام القرطبي.

وهو نوعان: أحدهما: أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله، ويسأله الشفاعة كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويحبه كما يحب الله، ويخشاه كما يخشىٰ الله، وبالجملة فهو أن يجعل لله نداً يعبده كما يعبد الله، وهذا هو الشرك الأكبر، وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤]، والآيات في النهي عن هذا الشرك وبيان بطلانه كثيرة جداً.

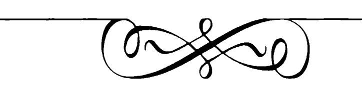


الشرح

قوله: (الشرك في توحيد الإلهية والعبادة)، هذا الشرك هو الذي كان يحدث في الأمم، ويبعث الله من أجله الرسل، وهو الشرك في توحيد العبادة، يقول

القرطبي ﷺ: (**هذا أصل الشرك المحرَّم**)، الشرك كله محرَّم، لكن أراد ﷺ أن هذا الشرك هو الذي كان يقع كثيرًا في الأمم، وأما اعتقاد أن هناك خالقين للوجود، أو أن هناك فاعلين، فهذا قليل جدًّا، ولا يُعرَف إلا في طوائف مُفردَة، لكن الشرك الذي حصل في عامة الأمم، هو إشراك غير الله معه في العبادة، فعبدوا مع الله غيره، فصرفوا له أنواع العبادات من الخشية، والخوف، والمحبة، والدعاء، والاستعانة، والذبح، والنذر، هذه أنواع العبادة التي صرفها الجاهلية لغير الله ﷻ، فهذا هو الشرك الأكبر، وهو أن يُجعَل مع الله إلهٌ، يُدعَىٰ من دونه ﷻ، ويُخاف منه، ويُرجَىٰ، ويُستعان به، ويُتقرَّب إليه بأنواع العبادات، فهذا هو الشرك الذي من أجله بعث الله الرُّسُل.

وتوحيد العبادة -كما قلنا- هو موضوع هذا الكتاب، و كذلك موضوع كل الرسالات، و كل رسول كان يصحِّح ما في أنواع التوحيد الأخرىٰ من الأخطاء، لكن موضوع الرسالة هو توحيد العبادة، في السلوك، والإرادة، والأقوال، والأعمال، والجوارح، وحياة الإنسان التي يعيشها مع إخوانه، أو في مجتمعه، أو بمفرده، كلها ينبغي أن تكون وفق هذا التوحيد، فالشرك فيه هو الخلل الذي يوجَد في كل عالَم، وفي كل عصر، وفي كل جيل، فتصحيحه يتبعه تصحيح بقية أنواع التوحيد.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الثاني: الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، وعدم الإخلاص لله تعالىٰ في العبادة، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب المنزلة والجاه عند الخلق تارة، فلله من عمله نصيب ولغيره منه نصيب. ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ، كالحلف بغير الله، وقول ما شاء الله وشئت، ومالي إلا الله وأنت، وأنا في حسب الله وحسبك، ونحوه. وقد يكون ذلك شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده. هذا حاصل كلام ابن القيم وغيره.

الشَّرح

قوله: (الشرك الأصغر، كيسير الرياء)، هذا هو الشرك الثاني، أو الشرك الأصغر، والفرق بين الأكبر والأصغر، إما أن الأصغر يُعتَبر كبيرة، بمعنىٰ أن مَن لم يَتُبْ منها يُعذَّب في النار، وإما أنه يكون من صغائر الذنوب، بحيث إنه إذا كانت حسناته راجحة علىٰ سيئاته؛ غُفِرَت، ولكن الراجح -والله أعلم- أنه من كبائر الذنوب، وأن مَن مات، ولم يَتُبْ منه، مُعرَّض للعقاب، أما ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فيُفهَم من كلامه، أنه لابد أن يُعاقب، أي هو من الأعمال التي ذكر الله أنها في المشيئة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فكلامه في بعض المواطن، يدل علىٰ أن الشرك الأصغر من الذنوب التي لابد أن يعذَّب صاحبها، فإن كان أكبر؛ خُلِّدَ في النار، وإن كان أصغر؛ يعذَّب بقدر شِركه، ثم يخرج إلىٰ الجنة.

لكن -والله أعلم- أن هذا القول مرجوح، وأنه مثل الكبائر، فإنه يُحبِط العمل الذي يكون فيه، إن بدأ العمل بالرياء، أو بالشرك الأصغر؛ أحبطَه، وإن طَرَأ علىٰ آخره، فإنه يحبط ما دخل عليه، والعلماء أدخلوا في الشرك الأصغر

أربعة أنـواع مـن أعمـال العبـد: الريـاء، وإرادة الإنسـان بعملـه الـدنيا، جاهًـا، أو منصبًا، أو أمثال ذلك، أو عمـل العبـادة مـن أجـل حفـظ الـنفس، أو الأولاد، أو المال، أو نحو ذلك، فالإنسـان قـد يتصـدَّق بمبلـغ مـن المـال؛ لـيُحفَظ ابنـه، أو يُحفَظ بيته، أو كذا، هذا من الشرك، أو أن يُشرِك في اللفـظ، وشـرك اللفـظ أشـار إليه الشارح ﵀ بقوله: (وشرك الألفاظ).

فـالنوع الأول: مـن أعمـال القلـوب، والرابـع مـن أعمـال اللسـان، كقـول الإنسـان مـا شـاء الله وشـئت، أو لـولا فـلان لوقـع كـذا، هـذا شـرك اللفـظ، وإن اعتقد بقلبه أن فلانًا مـن النـاس يشـارك الله في مشيئته، فهـذا يكـون شـركًا أكـبر، وإذا كان بلسانه، ولـم يعتقد بالقلب، فهذا شرك لفظي.

فهـذه أنـواع الشـرك الأصـغر، فمنهـا أن يُرائِـي الإنسـان بعملـه، ويقـول العلماء: إن بدأ العمل مُرائيًا؛ بَطُلَ العمل كله، وإن حدث الرياء في آخر العمـل، فمـنهم مَـن يـرىٰ أنـه يُحبِط العمـل، ومـنهم مَـن قـال: يُفـرَّق، فـإذا كـان الفعـل متجزِّئًا، مثلًا شخص كان يتصدَّق علىٰ فقراء، فكان يعطي كل فقير مـثلًا ريـالًا، ثم عندما دخل بعض الكبراء، بدأ يعطيهم عشـرة عشـرة، أو خمسـين خمسـين، أو مائة مائة، قالوا: هذا طَرَأ عليه الرياء، فالعمل السابق الذي انتهىٰ عمله فيـه - إن شاء الله- ثابت، لكن ما طَرَأ عليه الرياء باطل.

ولو أن إنسانًا صلَّىٰ ركعة، ثم دخل بعض الكبراء، أو بعض الصـالحين، أو بعض العلماء، أو بعض العُبَّاد، فحسَّ بـه، فأطـال في الركعـة الثانيـة؛ ليُمـدَح، أو ليرتفع في عينه، قالوا: ما صلَّاه قبل دخوله، أجره حاصـل، ومـا أشـرك فيـه، هـو باطل، ومنهم مَن قال: الصلاة كلها عمل واحد، فكلها تكـون باطلـة، فالإنسـان لا ينبغي أن يعطي العبد المحتاج الفقير اهتمامًا، فالإنسان فقير مثلـك، لـيس في المخلوقات أحد غني، فإن الغِنَىٰ نسـبي، كـل مخلـوق مـن البشـر، محتـاج إلـىٰ غيره من المخلوقات، ليس فيه مستغنٍ، كَبُر الإنسـان أو صَـغُر، فـإن الإنسـان لا يخدمه، ولا يعينه، ولا يحرسه، ولا يجلب لـه المـال، ولا يهيِّـئ لـه الطعـام، إلا

أُناس مثله، فهو فقير إليهم، وإن ظهر أنه غني، والإنسان قد يكون فقيرًا إلىٰ صغار الناس؛ لأن حاجته تكون عن طريقه، فكيف تصرف العبادة -التي لا تكون إلا للخالق الغني- للفقير المحتاج؟

فالإنسان ينبغي أن يكون لديه إيمان، واستعلاء عن أن يُرائِي أحدًا من خلق الله ﷻ؛ لأن المخلوق هو محتاج فقير، ولهذا قال ﷿: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، فالله غني، وكل الناس فقراء، فلا تعلِّق قلبك بالفقير، بل علِّق قلبك بالغني، فالرياء يكون من قلب مريض، فيه ضعف ونقص، فينبغي للإنسان أن يتذكر عظمة الله ﷻ، وغِناه عن خلقه، وقدرته، وإحاطته بكل شيء، وأن الكون كله بيده، وأن الناس إنما هم أسباب، ولنضرب لكم مثالًا علىٰ التوكُّل في هذا المجال، حتىٰ الإنسان لا يعلِّق قلبه بغير خالقه ﷻ.

يضرب بعض العلماء مثالًا: الورقة البيضاء قالت للقلم الذي سوَّد وجه الورقة: أيها الحبر، أنت سوَّدت وجهي، بعد أن كان أبيض، فأنا أطلب منك أن تكفَّ عن هذا الفعل، فقال: ليس أنا الذي سوَّدت وجهك، وإنما هو القلم الذي أخذني من الدواة، ثم وضعني علىٰ وجهك، فكلمت القلم، فقال القلم: لست أنا، وإنما الأصابع التي أخذتني، ثم وضعتني في الحبر، ثم وضعت علىٰ وجهك هذا المداد، فكلمت الورقة الأصابع، فقالت الأصابع: لست أنا الذي أكتب، إنما هي الكف التي تمسك بي، فاسألي الكف التي تمسكني، ثم كلمت الكف، فقالت الكف: ليست أنا، إنما هو الساعد الذي أنا معلَّق فيه، فاسألي الساعد، فكلمت الساعد، ثم العضد، فقالت اليد بكاملها: أنا في إنسان بكامله، ما أتحرك إلا بإرادته، فكلمت الإنسان، فقال: كلمي العقل، فالعقل هو الذي يجعلني أفعل، فكلمت العقل، فقال عقله: ليس أنا، إنما هو القلب الذي يوجهني، فكلمت القلب، فقال القلب: ليس أنا، وإنما هي الملائكة التي

توجهني، فكلمت الملائكة، فقالت الملائكة: ليس نحن، فإنما نحن أخذنا هذا من اللوح المحفوظ، ثم أخيرًا وصلت إلىٰ الله، هذا هو الطريق الطويل، فالذي يظن أن القلم هو الذي يكتب، يكون مخطئًا.

و مذهب أهل السُّنَّة أن الإنسان فاعل حقيقة، وفعله لا يخرج عن قدرة الله ومشيئته، والذي يظن أن الأصابع هي التي تكتب، يكون مخطئًا، فالبشر أسباب، والمُسبِّب هو الله ﷻ، فإذا عرف الإنسان أن هذه كلها أسباب ووسائل، وأنها إنما تتحرك بقدر الخالق ﷻ، فلا يعلِّق قلبه بالأسباب.

ولهذا قلنا إن إبراهيم عندما جاءه جبريل، وهو في أضيق الظروف، قال: ألك حاجة؟ -لو كان واحد منَّا، لفرح، وقال: أنقذني-، قال: أما إليك فلا، فحاجته هو إلىٰ الله، فإن جبريل، والنمرود، والنار، كل هذا بيد الله، فكان أمر الله أسبق من قول جبريل ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩].

فالمسلم لا ينبغي أن يُعطي المخلوق اهتمامًا، فوجِّه قلبك إلىٰ الخالق ﷻ، أي جرِّد قلبك من جميع البشر، ومن جميع المخلوقات، واربطه بالله ﷻ.

لو أن الناس علَّقوا قلوبهم بهذه الصورة؛ لعاشوا في طمأنينة ورضًا، وعرفوا أن الكون كله لا يحدث فيه شيء إلا بقدر الله ﷻ، فلا يعيش خائفًا، ولا قلقًا، ولا مضطربًا؛ لأن ما كان، لن يُغيَّر، وما لم يُكتَب عند الله، فلن يحدث، ولهذا في حديث ابن عباس: (يا غلام احفظ الله يحفظك)، ثم في آخر الحديث: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك)[1]، فالإنسان لا ينبغي له أن يُعطي اهتمامًا للمخلوق؛

(١) أخرجه الترمذي في سُننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥٩)، برقم: (٢٥١٦)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٦٦٩)، (٤/ ٤١٠)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٢٩٨٨)، (١٢/ ٢٣٨)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب أن القدر خيره وشره من الله تعالىٰ، برقم: (١٩٥)، (١/ ٢١٦)، واللفظ للترمذي، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي ص٥٦٦.

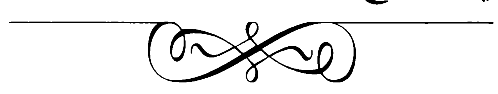
لأن الأمور بيد الله سبحانه وتعالى.

و كذلك من أنواع الشرك الأصغر، أن يقول الإنسان: أتصدَّق ليحدث كذا، وهذا خطأ؛ لأن الله غني عنه، وعن صدقته سبحانه وتعالى، فأنت تصدقْ لله، اعملْ لله، في صدقتك، وفي صلاتك، وفي نذرك، أما أمور الدنيا فستأتي تبعًا؛ لإنه سبحانه وتعالى إن كتب لك منها شيء، جاءك، وإن لم يُكتَب لك منها شيء، لم يأتك، فلا تربط فعلك بفعله سبحانه وتعالى.

وكذا تقول للإنسان افعل يا فلان، أعطني؛ حتىٰ أعطيك، ساعدني؛ حتىٰ أساعدك، لا يجوز هذا في حق الله؛ لأن الله غني، لا يحتاج إلىٰ هذا الفعل، ولهذا فإن ما يتعلق بالفعل؛ لأجل حفظ المال، والولد، وشفاء المريض، هذا من الشرك الأصغر.

ومن ألفاظ الشرك الأصغر شرك القسم بغير الله، فلا يُقسَم إلا بالله، قد جاء في الحديث: (مَن حلف بغير الله، فقد كفر، أو أشرك)[1]، وكذلك لا يقول الإنسان ما شاء الله وشاء فلان، فينبغي أن يُقدِّم مشيئة الله وحده، ويجعل مشيئة العبد بعد مشيئة الرب، فمشيئة الله، هي النافذة، وأما مشيئة الإنسان، فهي تابعة لمشيئة الله سبحانه وتعالى

فهذا النوع الثاني من أنواع الشرك الأصغر.



---

(١) أخرجه أبو داود في سُننه، كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، برقم: (٣٢٥١)، والترمذي في سُننه، كتاب الأيمان والنذور، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله برقم: (١٥٣٥)، وحسَّنه، والإمام أحمد في مُسنده، برقم: (٥٣٧٥)، (٩/ ٢٧٦)، والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، برقم: (١٦٩)، (١/ ١٠٧)، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي في التلخيص.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد استوفى المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بيان جنس العبادة التي يجب إخلاصها لله، بالتنبيه على بعض أنواعها، وبيان ما يضادها من الشرك بالله تعالى، في العبادات والإرادات والألفاظ، كما سيمر بك إن شاء الله تعالى مفصلا في هذا الكتاب. فالله تعالى يرحمه ويرضى عنه.

الشَّرح

قوله: (**وقد استوْفَى المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بيان جنس العبادة**)، هذا هو نهاية تقديم الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الكتاب، فإن الشارح قد لخَّص لنا نُبَذًا قليلة مما سيأتي في الكتاب، وكل مسألة ذكرها الشارح هنا، فستأتي في باب مستقل، وبعد أن انتهينا من تقديم الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الكتاب، ندخل في كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ على مقدمة الكتاب، فإن الكتاب لم يَذكُر له المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ مقدمة، إنما ذكر العنوان، ثم أوْرد بعد ذلك الآيات، والأحاديث، كمنهج علماء السلف، كالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الصحيح، أما مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ فقد انفرد بين المحدِّثين بذِكْر مقدمة لكتابه، وهذا يدلنا على مكانته، وسعة علمه، وتوفيقه رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا المجال؛ فإنه قد تكلم كثيرًا بكلام جميل، على مسائل عدة في الحديث والمحدِّثين، وما ينبغي للمحدِّث من فعله في عَرْض الأحاديث، إذًا فالبخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، -وهؤلاء أعلام المحدِّثين الذين أصبحت كُتُبُهم مرجعًا لأهل السُّنَّة والجماعة في الحديث-، وكذلك الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، وعبد الرزاق، فلم يذكروا في مُصنَّفاتهم مقدمة، وأكثر المحدِّثين على هذا النمط، يذكر العنوان، ثم يُورِد تحته ما أراد من المسائل العلمية، وبعضهم ذكر مقدمة قصيرة، كالحاكم في **المستدرك** رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قلت: هلا أتىٰ المصنف رحمه الله بخطبة تنبئ عن مقصده كما صنع غيره؟ قيل كأنه والله أعلم اكتفىٰ بدلالة الترجمة الأولىٰ علىٰ مقصوده، فإنه صدره بقوله: (كتاب التوحيد) وبالآيات التي ذكرها وما يتبعها، مما يدل علىٰ مقصوده، فكأنه قال قصدت جمع أنواع توحيد الإلهية التي وقع أكثر الناس في الإشراك فيها وهم لا يشعرون، وبيان شيء مما يضاد ذلك من أنواع الشرك، فاكتفىٰ بالتلويح عن التصريح. والألف واللام في التوحيد للعهد الذهني.



الشَرح

قوله: (**فإن قلت: هلَّا أَتَىٰ المُصنِّف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بخطبة تُنبِئ**)، هذا هو الاعتراض الثاني من الاعتراضات التي يمكن أن تَرِد علىٰ صنيع المؤلِّف صاحب المتن، وأجاب عنها، وقد تقدم الاعتراض الأول، وهو أنه بدأ الكتاب بالبسملة، ولم يذكر الحمدلة.

وهنا يقول: قد يقول قائل: إن مُصنِّف كتاب التوحيد، لم يذكر مقدمة يبيِّن فيها منهجه ومقصده من الكتاب، فإن عادة المصنِّفين إذا صنفوا كُتُبًا، أن يبدؤوها بذكر مقدمة، والمقدمة عادةً تشتمل علىٰ عدة قضايا:

القضية الأولىٰ: هدفه ومقصده من تأليف الكتاب.

والقضية الثانية: المنهج الذي سار عليه.

والقضية الثالثة: شرطه في كتابه.

ومصنف كتاب التوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يذكر مقدمة لكتابه، إنما بدأ قوله: (كتاب التوحيد وقول الله -تعالىٰ-)، وهذا ليس جديدًا

في المصنَّفات، فإن كثيرًا من علماء السلف ﷺ لم يذكروا مقدمات في كُتُبُهم، فالبخاري رَحِمَهُ اللهُ ما ذكر مقدمة، لكن عنوان الكتاب يُوحِي بمراده من كتابه، سمَّاه بالجامع الصحيح الـمسنَد من سُنَن رسول الله وأيامه، فعنوان الكتاب يدل علىٰ المَقصد من الكتاب.

فالمصنِّف رَحِمَهُ اللهُ له أُسوة، فمَن عمل مقدمة، فلا شك أنها أفضل؛ لأن المقدمة تدل علىٰ المقصد الذي أراده المصنِّف، وتدل علىٰ المنهج الذي سَلَكَه، وتدل علىٰ الشرط الذي التزمه في كتابه، أما ذِكْر الكتاب بدون هذه المقدمة، فلا شك أنه أقل مما لو بدأ بمقدمة،

قول الماتِن رَحِمَهُ اللهُ : **(كتاب التوحيد)**، التوحيد في اللغة مأخوذ من وحِد أو وحُد، وهو التفرد أو الانفراد، ولهذا تقول العرب: فلان واحد قبيلته، أو واحد فنِّه، أي ليس له نظير ولا مثيل، فأصل التوحيد من هذه المادة، والتوحيد جعل الشيء واحدًا، فتوحيد الله يدل علىٰ أن الإنسان جعل الله واحدًا، لكن ليس كذلك؛ لأن الإنسان لا يملك أن يجعل الله واحدًا، و يقال: اعتقد أن الله واحد، فليست توحيد الله من فعل العبد، لكن هذا يدل علىٰ فعل العبد نفسه، وحَّد الله، أي اعتقد أن الله واحد؛ ولم نجد من القدماء مَن ذكر التعريف الاصطلاحي للتوحيد، إلا أحد علماء القرن السادس، وهو أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ في كتاب الحُجَّة، وهو كتاب مطبوع في مجلدين، ذكر التعريف، لكنه ليس التعريف المطلوب، فإن التوحيد وردَ في الشرع علىٰ غير ما تعارف عليه الناس اليوم، فالتوحيد وردَ في الكتاب والسُّنَّة بمعنىٰ العبادة.

ولهذا يقول تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣]، فالإلوهية هنا بمعنىٰ العبادة، وكذا جاءت الأحاديث، فحديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقول: **(بُني الإسلام علىٰ خمس)**، وذكر الرواة لهذا الحديث ثلاثة ألفاظ، اللفظ الأول: **(شهادة أن**

لا إله إلا الله)، واللفظ الثاني: **(على أن يوحِّد الله)**، واللفظ الثالث: **(على أن يُعبَد الله، ويُكفَر بما دونه)**[1]، وكذلك حديث معاذ: **(إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله إلا الله)**، واللفظ الثاني: **(إلى أن يوحِّدوا الله)**، واللفظ الثالث: **(إلى عبادة الله)**[2]، فهذه الألفاظ الثلاثة كلها بمعنى واحد، فالشهادتان والتوحيد والعبادة كلها بمعنى واحد.

فالتوحيد الذي ورَدَت به الأحاديث، هو توحيد العبادة، لكن حدث بعد ذلك انحراف فيما يتعلَّق بالجانب الاعتقادي في أسماء الله وصفاته، والقدر، والشفاعة، والبعث، والقبر، وعذابه، فاصطلح كثير من العلماء على تسمية هذه الجوانب بالتوحيد، وأول مَن أوْرد التوحيد جزءًا من كتابه، هو البخاري ﵀، وقد أوْرد في آخر كتابه الصحيح كتاب التوحيد، وأول مَن أفرد هذا الموضوع بكتاب، هو ابن خزيمة ﵀ المتوفَّى في أوائل القرن الرابع، ولم يصنِّف أحد في هذا الموضوع، وبهذا العنوان، إلا في القرن الثامن، حيث إن ابن رجب ﵀ ألَّف كتابًا، أو رسالة صغيرة، سمَّاها التوحيد، وبعد ابن رجب، ألَّف المقريزي ﵀ في القرن التاسع رسالة صغيرة، سمَّاها تجريد التوحيد، وبعدهم جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي ندرس شرح كتابه، فألَّف كتاب التوحيد، وبعده جاء الشوكاني، فألَّف رسالة، سمَّاها الدُّر النضيد في شرح كلمة الإخلاص والتوحيد، وله رسالة أخرى كذلك، سمَّاها التوحيد، وفي آخر هذه الرسالة يردُّ على الصنعاني، فإن الصنعاني كان معاصرًا للدعوة في القرن الثاني عشر، وقد اتفق مع علماء الدعوة على ما دعوا إليه، لكنه في آخر حياته رجع، وقال: قد رجِعْت عن النَّظْم الذي قلته في نجد؛ لأنه يقول: كيف

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

نسمِّي المسلم الذي يدعو الأولياء والصالحين عند القبور مشركًا، مع أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؟ فالشوكاني رحمه الله تصدَّىٰ له، وأبطل مزاعمه في آخر هذه الرسالة، وكذلك في رسالة التوحيد، وبيَّن أنه ليست العِبْرة بالنطق بالشهادتين؛ فإن الإنسان قد ينطق بالشهادة، ولكنه ينقِضُها، فالمنافقون جاؤوا بالشهادتين، لكن لم تنفعهم؛ لأنهم لم يلتزموا بها، فردَّ عليه في الدُّر النضيد، ثم جاء بعد هؤلاء في العصر الحاضر، القاسمي رحمه الله فألَّف كتابًا، سمَّاه دلائل التوحيد، وكذلك الشيخ الهراس ألَّف كتابًا، سمَّاه دعوة التوحيد، والشيخ الزنداني له رسالة صغيرة باسم التوحيد، فهذه سلسلة كُتُب في مسائل التوحيد، وبعضها خاص في توحيد العبادة، وبعضها ممزوج من مسائل من توحيد الاعتقاد.

وكل طائفة من الطوائف المنتسِبة إلىٰ الإسلام، تزعُم أنها تحقق التوحيد، فالجَهَمية زعموا أنهم يحقِّقون التوحيد بنفي أسماء الله وصفاته، ثم جاءت المعتزلة، فخفَّفُوا من هذا الانحراف، فأثبتوا الأسماء، ونفُوا الصفات، أو أوَّلوها، وسمُّوا منهجهم، أو عقيدتهم، التوحيد، ثم جاءت الأشاعرة فخفَّفُوا من انحراف المعتزلة، فأثبتوا الأسماء، وكذلك بعض الصفات، فسمُّوا منهجهم، أو ما هم عليه، بالتوحيد، وكذلك الصوفية تزعُم أنها تحقق التوحيد، مع أن غُلاة الصوفية، لا يفرِّقون بين الخالق والمخلوق.

ولكن التوحيد الصحيح، هو الذي يقوم علىٰ كتاب الله، وسُنَّة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو ما تلقَّته الأُمة عن سَلَفها، من الصحابة، والتابعين، وعلماء الإسلام، من بداية القرن الأول إلىٰ اليوم، فالتوحيد تتنازعه طوائف، وكل طائفة تزعُم أنها تحقِّق التوحيد، ولكنها في الحقيقة، ليست مصيبة، ولا نقرُّها علىٰ تلك الدعوة؛ لأنها قد خالَفت الكتاب والسُّنَّة، وهما مصدر التوحيد.

قول الماتِن رحمه الله (**كتاب التوحيد**)، التوحيد: أصلها توحيد بدون (أل)، وهنا يقول الشارح إن (أل) للعهد الذهني، ما هو المراد بهذا الاصطلاح؟

(أل) تأتي في اللغة العربية لثلاثة معانٍ:

المعنىٰ الأول: التعريف، أي تعرِّف النكرة، مثلًا كلمة رجل نكرة، يُطلَق علىٰ كل واحد من الناس، فلو قلت جاء رجل، يحتمل كل واحد أن يكون هو المراد بهذا الاسم، لكن لو قلت الرجل، لخصصت، فأصبح هذا مخصَّصًا معرَّفًا.

والثاني: أن تكون زيادة.

والثالث: أن تكون موصولة.

و (أل) التي تأتي للتعريف علىٰ قسمين، أو علىٰ نوعين: تأتي للعهد، وتأتي للجنس، مثلًا كل واحد منا يُطلَق عليه إنسان، لكن الإنسان يُراد به جنس الإنسان، لا إنسان واحد، إلا إذا جاء في سياق خاص، وأُفرِد في موضوع خاص، فهنا يكون التعريف للعهد، لا للجنس، والعهد علىٰ ثلاثة أنواع:

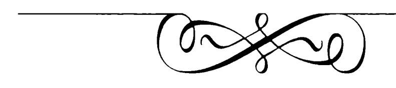
العهد الحضوري: إشارة إلىٰ الحاضر، مثلًا: ذهبت اليوم إلىٰ المدرسة؛ لأن اليوم حاضر.

والعهد الذكري: بأن يكون الاسم سبق ذِكْره، تقول: نزل مطر في مكة، ثم تقول: فنفع الله بالمطر، فالمطر الذي نزل بمكة، وردَ ذِكْره في كلامك السابق، فمعنىٰ نفع الله بالمطر، أي الذي نزل في مكة.

العهد الذهني: ألا يكون قد سبق الكلام عن هذا الاسم، لكنه معروف في الذهن، فلو قلت: ذهبت إلىٰ الجامعة، ما وردَ ذِكْر الجامعة في كلامك قبل هذا، لكنها معروفة في ذهنك، فهذا يسمَّىٰ بالعهد الذهني.

فهنا لم يتقدم ذِكْر التوحيد، فقال الشارح إن: (أل) هنا للعهد الذهني، أي كل مَن كان يعرف معنىٰ التوحيد، فإنه سيعرف المراد من هذا العنوان، وهو التوحيد الذي جاءت به الرُّسُل، والذي دعا الله الناس إليه.

فالعهد هنا العهد الذهني، بأن يكون الاسم معروفًا موجودًا في ذهنك، فلا يحتاج السؤال عنه، بخلاف ما لو قيل لك: جاء الرجل، ولم يسبق له ذِكْر، فتسأل مَن الرجل؟ لأنه ليس في ذهنك شخص اسمه الرجل، فقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (العهد الذهني)، أي أنه لم يتقدم ذِكْر لاسم التوحيد، ولكن معنىٰ التوحيد معروف في ذهن المسلم، وهو الذي خلق الله الناس من أجله.



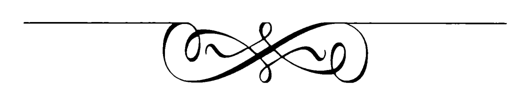


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦] يجوز في قول الله الرفع والجر، وهكذا حكم ما يمر بك من هذا الباب.

الشرح

هنا قال صاحب المتن رَحِمَهُ اللَّهُ : (كتاب التوحيد وقول الله)، ولا يُفهَم معنىٰ الكلام، إلا إذا عُرِف مكانه في الجملة من ناحية الإعراب، فإذا كانت كلمة "قول" معطوفة علىٰ كتاب، تكون مرفوعة، يقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ، إن كلمة قول: لها إعرابان، إما أن تكون مرفوعة، وإما أن تكون مجرورة؛ لأن (كتاب) مرفوع، والتوحيد مجرور، فإن عطفناها علىٰ كتاب، كانت مرفوعة، وإن عطفناها علىٰ التوحيد، كانت مجرورة، والصحيح أنها مرفوعة لكن بحذف، والمحذوف قولك (وفيه)، أي كتاب التوحيد وفيه، لا يستقيم إلا بهذا المعنىٰ، أي أن تقول وفيه قول الله -تعالىٰ-، أي وفي هذا الكتاب، أو تحت هذا الكتاب، ثم أوْرد الآية.





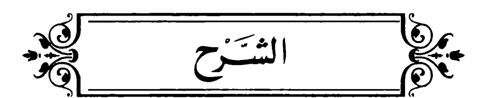
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال شيخ الإسلام: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل، وقال أيضًا: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

قال ابن القيم: ومدارها على خمس عشرة قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية. وبيان ذلك أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح، والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه ومباح، وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

وقال القرطبي: أصل العبادة التذلل والخضوع، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى.

وقال ابن كثير: العبادة في اللغة من الذلة، يقال طريق معبد وغير معبد أي مذلل، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وهكذا ذكر غيرهم من العلماء.



الشَّرح

المصطلحات الشرعية التي جاءت في القرآن والسُّنَّة، لابد أن يُعرَف معناها، والصحابة ما كانوا يحتاجون إلى البحث في المعاني؛ لأنهم يدركون المعنى على السَّلِيقة، يقول ﷻ: إن المَقصد من خلق الناس، هو العبادة، فما هو المراد من العبادة في اللغة والشرع؟

يقول علماء اللغة: أصلها من الذِّلة، أو من الذُّل، ولهذا وردَ في قول الله – تعالى– حكاية عن موسى لفرعون، عندما كان يناظره بقوله ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا

وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨]، قال بعدها: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٢]، عبدت أي ذلَّلْت؛ لأن بني إسرائيل هم أبناء يعقوب، إخوة يوسف عندما جاؤوا إلىٰ مصر، فتناسلوا وتكاثروا، هذا النسل في مصر بقي سنوات طويلة، فكانوا دُخلاء علىٰ المصريين، فاستعبدوهم، وأذلُّوهم، وقهروهم، حتىٰ إن المصري كان يأخذ الإسرائيلي من الشارع، ويضع علىٰ ظهره حزمة الحطب، ويذهب به إلىٰ البيت، ثم يُطلِقه.

فيقول موسىٰ: إن كنت قد ربَيْتَني وأنا واحد، فقد استعْبَدت شعبًا كاملًا، وتلك نعمة تمُنُّها علي، لكن عبَّدت شعبًا كاملًا، فأذلَلْته، ولهذا خرج بنو إسرائيل مع موسىٰ، وأمَرَهم أن يدخلوا القرية التي كتبها الله لهم قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة:٢٢]، رفضوا أن يقاتلوا؛ لأنهم عاشوا في حياة الذل، فما كانوا يتحمَّلون مشقَّات الجهاد، وكانوا يريدون مغانم بدون مغارم، وهذا لا يمكن، سُنَّة الله أن يكون فيه ابتلاء، فهؤلاء تربُّوا علىٰ الذل، فلم يدخلوا، فكتب الله عليهم التيه أربعين سنة؛ عقابًا لهم، فعاشوا في التيه أربعين عامًا، وقد أحاط بهم الضباب من كل مكان، فنشأ جيل من ذريتهم، وبلغ سِنَّ الأربعين، لا يعرفون الذل، هم الذين فتحوا الأرض المقدسة.

فالتعبيد والعبادة في اللغة بمعنىٰ الذل، كما قال طرفة بن العبد، في قصيدته المشهورة:

تباري عتاقًا ناجيات وأتبعت=وظيفًا وظيفًا فوق مور معبد

يصف ناقته، وهي تسابق النُّوق، فيقول: تباري، أي تسابق، عتاقًا، أي إبلًا عتاقًا، أي بيضًا قوية، ناجيات أي مُسرعات، أتبعت: من المتابعة، الوظيف

رأس طرف الرجل، والبهائم والناقة لها يدان ورجلان، تنقل الرجل في مكان اليد أثناء الجري، تضع رجلها مكان يدها، فوق مور معبد: المور هو التراب الذي يضطرب، لكنه مع كثرة الحركة، أصبح معبدًا ثابتًا، أي أصبح مكانًا ثابتًا ليس فيه حركة.

فالتعبيد في اللغة يُطلَق على التذليل، فمعنى عَبَدَ أي ذُلَّ، وهذا لا يكون إلا لله، فلهذا كما قال ابن القيم رحمه الله : العبادة تشتمل على ثلاثة جوانب، وهي: كمال الذل، مع كمال الحب، وكمال الطاعة، فتذِل لله محبةً وطاعةً، فإذا اجتمعت في فعلك هذه الجوانب الثلاثة، فإنه يكون عبادة، فإن صرفتها لغير الله، فقد عبدته، فإن ذَلَلْت لمخلوق محبةً وطاعةً، فقد عبدته، وقد جاء في الحديث: (**تعس عبد الدرهم**)[1]، سمَّاه عبدًا له؛ لأنه يحبه، ويغضب له، ويرضى له، فبلغ في علاقته بالمال، أنه أصبح عبدًا له، فالذل لا يكون إلا لله، والخضوع لا يكون إلا لله، والحب لا يكون إلا لله، والطاعة لا تكون إلا لله، ولهذا مَن أطاع غير الله محبةً وتذلُّلًا، أو صرف بعض هذه الأنواع الثلاثة لغير الله، فإنه يكون قد صرف لغير الله بعض أنواع العبادة، لكن على تفصيل في كل واحدة منها، فالحب كما مَرَّ قد يكون طبيعيًّا، وقد يكون شرعيًّا، وقد يكون محرَّمًا، كذلك الطاعة، فإذا كانت الطاعة تِبعًا لطاعة الله، ورسوله، وليست طاعة مستقلة، فليست عبادة، لكن مَن أطاع غير الله في معصية الله، فحرَّم ما أحلَّ الله، أو أحلَّ ما حرَّم الله، فقد عبده، لهذا قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١]، قال عدي ابن حاتم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، بلفظ "تعس عبد الدينار والدرهم"، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو..، برقم: (٢٨٨٦).

لمَّا سمع الآية: والله يا رسول الله ما عبدناهم، مفهوم العبادة عنده أنها ركوع وسجود، فقال ﷺ: (ألم يكونوا يحِلُّون لكم الحرام فتحِلُّونه، ويحرِّمون الحلال فتحرِّمونه، قال: بلىٰ، قال: فتلك عبادتكم لهم)[١]، وما الدين إلا أوامر ونواهي، فالذي يأخذ أمره من غير الله ورسوله، فقد جعله دينًا، فليس في الوجود دين إلا ما جاء في الكتاب والسُّنَّة، أي ما أمر الله به، أو أمر به رسول الله ﷺ، فالذي يتلقَّىٰ الأمر والنهي من غير الله ورسوله، فقد صرف دينه، أو بعض دينه لغير الله ورسوله.

فالعبادة التي هي المقصد من خلق الناس، هي الطاعة، و سيأتي قول بعض التابعين: ما خلقتهم إلا لآمرهم وأنهاهم، وأول تعريف للعبادة من التعاريف التي أورْدها الشارح رحمه الله، لابن تيمية رحمه الله يقول: العبادة هي طاعة الله، بامتثال ما أمر به علىٰ ألسنة الرُّسُل -عليهم الصلاة والسلام-، وهناك تعريف له هو أجمع وأشمل، يقول: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة[٢]، فلم يبقَ في حياتك شيء بهذا التعريف، إلا قد دخل في العبادة؛ لأن الأحكام خمسة: إما واجب، أو مُستَحب، أو مُباح، أو مكروه، أو محرَّم، أعلاها الواجب، وتحتها المُستحب، ثم المُباح، ثم المكروه، وأدناها المحرَّم، كل أعمال الإنسان لا تخرج عن هذه الخمسة الأحكام التكليفية، فالواجب تفعله، والمُستحب إن فعلته، أُجِرت، وإن تركته، لم تأثم، والمُباح بحسب نيَّتك، قد تأكل الطعام بنية

---

(١) أخرجه البيهقي في السُنن الكبرىٰ، بلفظ: "يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم لهم"، كتاب آداب القاضي، باب إثم من أفتىٰ أو قضىٰ بالجهل، برقم: (٢٠٣٥٠)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٣٩٠٦)، (١٧/ ٩٢).

(٢) العبودية (ص: ٤٤)

التقوي علىٰ عبادة الله، فيكون مُستحبًّا، وقد تأكل الطعام بغير نية، فليس لك فيه أجر، بل العبادة التي قد تفعلها بدون نية ليس لك فيها أجر، فإذا فعل الناس شيئًا، ففعلته معه، بدون نية للتقرُّب إلىٰ الله، فليس لك فيه أجر.

فالمُباح: الحلال هو المباح، ولكن يختلف باختلاف النية، فمثلًا إن فعلت المباح، وأنت تفعله بنية أن الله قد أباحه لك، فهذا لا شك أنه عبادة، وإن فعلته بنية التقرُّب والتقوي والتزوُّد بطاعة الله، فهذا أفضل، كما جاء في الحديث: (**وفي بضع أحدكم صدقة، قال الصحابة: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وِزْر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرًا**)[١].

المكروه: ما إن تركته أُجِرت، وإن فعلته ليس عليك إثم.

فإذا أراد الإنسان أن يعفَّ نفسه، وأن يبتعد عن الحرام، فهذا -بإذن الله- يكون عبادة، والذي يمارس الأعمال اليومية من التجارات والزراعات، كلها تنقلِب في حياته إلىٰ عبادة بالنية، ففحياة المسلم كلها عبادة، ليس العبادة فقط هي الصلاة والزكاة والحج، هذه أركان، فلا ينبغي أن يخرج من حياة الإنسان شيء عن العبادة، التي هي اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة.

فليس هناك إثم إلا في المحرَّم، فحياة الإنسان اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة، فهذا هو التعريف السليم الصحيح، فلم يبقَ في حياة الإنسان، ولا في حركة الإنسان جزء ليس

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع علىٰ كل نوع من المعروف، برقم: (١٠٠٦)، (٢/ ٦٩٧).

داخلًا في العبادة، و هذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢].

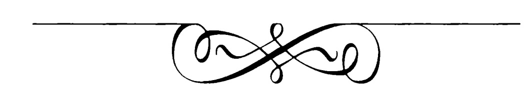
وابن القيم رحمه الله فصَّل أكثر فقال: مدار العبودية علىٰ خمس عشرة قاعدة؛ لأنه قسم أعمال الإنسان إلىٰ ثلاثة أقسام: قَوْليَّة، وقلبيَّة، وجوارح، لكن التقسيم لا يستقيم؛ لأن هناك غير الجوارح، الحواس، السمع، والبصر، لا يسمَّىٰ جارحة، إنما يسمَّىٰ حاسة، فاليد جارحة، والقدم جارحة، فلو قسَّمها أربعة، لكان أنسب، فبهذا لم يخرج شيء من أعضاء الإنسان عن مدار العبادة، فالقلب له عبادات، وهي خمسة أنواع، النوع الأول: الواجب، وهو التوكل، ومحبة الله، واليقين، هذه من أعمال القلوب، وهي واجبة، والمُستحب ما كان متعلِّقًا بأمر من المستحبات، ولم يذكر ابن القيم رحمه الله له نماذج، وعبادات اللسان خمسة أنواع: منها الواجب، والذي هو الشهادتان، والمستحب، كذِكْر الله، وقراءة القرآن، والمحَّرم، كالغيبة والنميمة، فالكف عنهما عبادة، والمكروه، كالكلام فيما لا فائدة فيه، وأما المحرَّم فهو الشك، وعدم الصبر علىٰ البلاء، والمستحب ذَكَر منه رحمه الله الرضىٰ بالقدر، قال: إنه من المستحبات، وليس من الواجبات، فلم يأتِ في القرآن والسُّنَّة الأمر بالرضىٰ بالقدر؛ لأن الإنسان مأمور بالصبر، لكن الرضىٰ درجة عالية، وهو أعلىٰ من الصبر، لكن قد لا ترضىٰ نفسه بالبلاء، وهذا ضعف فيها، ولا يُؤاخَذ عليه، لكن يؤاخذ إذا لم يصبر.

ثم قال رحمه الله : وقد اختلف العلماء هل في الأقوال درجة تسمَّىٰ مُباحة أم لا؟ فقال: بعض العلماء يرىٰ أن هناك مباحات، وبعضهم لا يرىٰ أن هناك مباحات، ورجَّح رحمه الله أن هناك مباحات، كحديث الإنسان مع أهله في البيت، ونحو ذلك؛ كذلك كل جزء من الجوارح، والحواس، تنقسم أعمالها إلىٰ

خمسة أقسام: منها ما يكون واجبًا، ومنها مـا يكـون محرَّمًا، والمسـلم يحـرص في حياتـه أن يعمـل الواجبـات، وأن يجتنَّـب المحرَّمـات، فكـل مسـلم عنـد كـل قول، وعنـد كـل حركـة، وعنـد كـل خـاطرة، ينبغـي أن يعرضـها علـىٰ كتـاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ؛ لأن الإنسان مُحاسَب علىٰ كل عمل من أعمال القلـوب، وعلـىٰ كـل قـول، وعلـىٰ كـل فعـل، إلا إذا لـم يحقِّـق خـواطره، فتبقـىٰ في دائـرة الكتمان التي لا يحاسب عليها العبد.

ثم ذكر الشارح رحمه الله كلام القرطبي رحمه الله في التعريف، وهو التذلُّل، وكـذلك كلام ابن كثير رحمه الله، وكلا قوليهما تعريف العبادة لغةً.

ثم قـال الشـارح: (وفي الشـرع عبـارة عمـا يجمـع كمـال المحبـة والخضـوع والخوف)، هنا ذكر الخوف بدلًا من الذُّل، فهما معنيان متقاربان، فهنـاك محبـة، وخضوع، وذُل، وخوف، وهذه أركان، أو جوانب العبادة، إن توفَّرت في عمـل، يكون ذلك العمل عبادة.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الإنس والجن إلا لعبادته، فهذا هو الحكمة في خلقهم، ولم يُرد منهم ما تريده السادة من عبيدها، من الإعانة لهم بالرزق والإطعام، بل هو الرازق ذو القوة المتين الذي يطعم ولا يطعم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤] الآية.



الشَّرح

كلمة فاطر، صفة للاسم العَلَم المـُتقدِّم في: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾، فلابد أن تكون مجرورة.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (معنى الآية)، التي أوْردها المؤلِّف، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]، أي يعبدونني، هذا هو المـَقصِد، مَن خلق الجن والإنس، وذكر الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (هو الحكمة من خلقهم)، وكل مخلوقات الله لحكمة، وكل تشريعات الله لحكمة، قد نعرفها، وقد لا نعرفها، ولهذا لا يحسُن للمسلم إن لم يعرف الحكمة، أن لا يعمل بالتشريع، فهو إن حرص على معرفة جميع الحِكَم في التشريعات، فكأنه يريد أن يكون علمه كعلم الله عَزَّ وَجَلَّ، ويستحيل ذلك؛ فإن هناك كثيًرا من العبادات لا نعرف منها حِكَمًا، ولكن الله الحكيم ما شرَّعها إلا لحكمة.

يقول بعض العلماء: أرأيت لو كان هناك طبيب في مدينة من المدن، وهذا الطبيب عُرِف بالتجربة، أنه لا يُعطِي علاجًا لمريض إلا ويُشفَى بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ، فذهبت إليه، وأعطاك علاجًا، وقسَّمه على مدار اليوم والليلة، هل تسأله لماذا

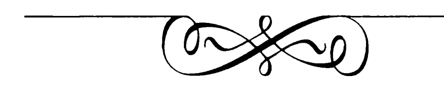
آخُذُه ثلاث مرات، أو أربع مرات، أو لماذا حبَّة واحدة، ولماذا لا آخُذ حبتين؟ لا؛ لأن ثقتك في هذا الطبيب الذي شَهِدت له التجربة، بأنه طبيب ماهر، تجعلك لا تسأله، فهذا فعلك مع مخلوق، فكيف فعلك مع الخالق ﷻ، وهو أحكم الحاكمين؟ فينبغي للمسلم أن يعرف، ويتيَّقن أنه ليس في الوجود خلق، أو فعل، أو تشريع، إلا ولله فيه حكمة، هذا هو اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، وقد يعجب الإنسان أن يجِد بعض الطوائف تُنكِر حكمة الله، فإن الأشاعرة يُنكِرون حكمة الله في الخلق، وفي التشريع، ويقولون: إذا قلنا إن الله خلق هذا لحكمة، جعلنا الله يخلق الأشياء لغرض. أي محذور في ذلك؟ فإن من أسماء الله الحكيم، ونحن قلنا: إن جميع أسماء الله أعلام، لكنه يُلحَظ فيها المعنىٰ الاشتقاقي للاسم، فإذا قلنا الله رحيم يُراد به أن لله رحمة، وإذا قلنا إن الله عليم، علمنا إن لله عِلْمًا، وإذا قلنا إن الله حكيم، فالمعنىٰ أن لله حكمة.

فالأشاعرة، وقبلهم الجَهمية، وابن حزم، ينكرون الحكمة لله -ﷻ، والمُعتزلة أثبتوها، لكن لم يثبتوا لله صفة الحكمة، قالوا: كل خلق الله لحكمة، لكن لا نقول إن لله حكمة، وكلاهما مذهبان خاطئان، أما أهل السُّنَّة والجماعة فيثبتونها، وقد وردَت الآيات الكثيرة تدل علىٰ أن الله حكيم، قال ﷻ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٨].

فيقول: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة:٣٨]، في كل تشريع، فالله حكيم في كل فعل يفعله، فليس هناك خَلْق إلا لحكمة، ولا تشريع إلا وفيه حكمة، فخَلْق الجن والإنس لحكمة، وهو عبادة الله ﷻ، وإن كان الله -سبحانه- لا تنفعه عبادة العابدين، ولا تضرُّه معصية العاصين، ولكن المقصد من خلق الجن

والإنس العبادة، والقرآن مملوء بالتعليل، لكذا أَمَر بكذا، أو نَهَىٰ عن كذا لكذا.

فقوله: (**الحكمة في خلقهم**)، أي أن الله خلقهم لمقصد عظيم، وهو عبادته، وهذه هي الحكمة من خلقهم، لم يخلق الناس لحاجته إليهم، بل هو الغني لذاته ﷻ، والإنسان فقير محتاج، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، فذكر ﷻ أنه قوي، ولا يحتاج إلىٰ مساعدة في الرزق، أو فيما ينفع الناس، فهنا أوْرد المعنىٰ العام للآية القرآنية، وهو الحكمة من خلق الجن والإنس.



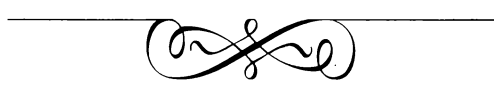
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام؛ لأن معنى الإسلام هو الاستسلام لله المتضمن غاية الانقياد في غاية الذل والخضوع. قال علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الآية: إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي. وقال مجاهد: إلا لآمرهم وأنهاهم. واختاره الزجاج. وشيخ الإسلام قال: ويدل على هذا قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦]، قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى.

الشَّرْح

قوله: (وعبادته هي طاعته، بفعل المأمور، وترك المحظور)، لا زال استطراد الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ عن معنى العبادة، فذكر أن الإسلام -وهو المقصود بخلق الناس- هو الاستسلام لله، المتضمِّن غاية الانقياد، في غاية الذُّل والخضوع، وأوْرد كلامًا لعلي في تفسير الآية، ولمجاهد والزجاج رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ اختار تفسير الزجاج.

والزجاج أحد علماء اللغة في القرن الثالث، وهو على مذهب أهل السُّنَّة، وكان يقول على فراشه: اللهم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ هنا يفسر الآية بقوله: إلا لآمرهم وأنهاهم، أي ليس المقصد من خلقهم، غير الأمر والنهي، الأمر والنهي حق للخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي أَوْجَد، والذي يحيي ويميت، فهو الذي يأمُر وينهَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالمخلوق ليس له حق في هذا الجانب.



قال المؤلف رحمه الله:

وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧]، أي لولا عبادتكم إياه، وقد قال في القرآن في غير موضع: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١]، فقد أمرهم بما خلقوا له، وأرسل الرسل إلى الجن والإنس بذلك، وهذا المعنى هو الذي قصد بالآية قطعًا، وهو الذي يفهمه جماهير المسلمين، ويحتجون بالآية عليه ويقرون أن الله إنما خلقهم ليعبدوه العبادة الشرعية، وهي طاعته وطاعة رسله، لا ليضيعوا حقه الذي خلقهم له، قال: وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]، ثم قد يطاع وقد يعصى، وكذلك ما خلقهم إلا للعبادة ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون، وهو سبحانه لم يقل إنه فعل الأول وهو خلقهم ليفعل بهم كلهم الثاني وهو عبادته، ولكن ذكر الأول ليفعلوا هم الثاني، فيكونوا هم الفاعلين له، فيحصل لهم بفعله سعادتهم، ويحصل ما يحبه ويرضاه منهم ولهم. انتهى

والآية دالة على وجوب اختصاص الخالق تعالى بالعبادة؛ لأنه سبحانه هو ابتدأك بخلقك والإنعام عليك بقدرته ومشيئته ورحمته من غير سبب منك أصلاً، وما فعله بك لا يقدر عليه غيره، ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق أو دفع ضر فهو الذي يأتي بالرزق لا يأتي به غيره، وهو الذي يدفع الضر لا يدفعه غيره.



الشرح

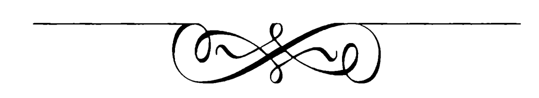
قوله: (والآية دالة على وجوب اختصاص الخالق -تعالى- بالعبادة)، هنا الشارح رحمه الله يشير إلى مسألة لُغوية، وهي اللام في قوله تعالى (ليعبدون): وقد

اختلف المفسِّرون في معنىٰ اللام، واللغة العربية -لسِعَتِها- لا يحيط بها إلا نبي، فاللام وردَ فيها أكثر من ثلاثين معنىٰ، وقد أَلَّف أبو القاسم الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ كتابًا سمَّاه اللامات، أوْرد فيه أربعين معنًىٰ للام، فهذه اللام اختلفت أقوال المفسِّرين في معناها، علىٰ قولين: هل هي لام العاقبة، أو لام الغاية؟ نحن قلنا: عند الأشاعرة ليس في القرآن لام الغاية، كلها للعاقبة، فكيف يفسِّرون معنىٰ (ليعبدون)، ونحن نرىٰ أن من الناس مَن يعبد، ومنهم مَن لا يعبد؟ ولام العاقبة لابد أن يتحقق ما بعدها، لكن إذا قلنا إن اللام هنا لام التعليل -وهي التي يتحقق ما بعدها، وقد لا يتحقق- فلا إشكال؛ إذ هو المقصد من خلق الناس الله عَزَّوَجَلَّ، قد خلقهم، والخلق فعله، لكن العبادة فعلهم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر فعله، وهو الخلق، ثم ذكر فعلهم، وهو العبادة، هذا الفعل الذي من الناس، قد جعله الله عَزَّوَجَلَّ باختيارهم، فأعطاهم الله اختيارًا، فمنهم مَن يعبده، ومنهم مَن لا يعبده، فاللام هنا ليست لام العاقبة، كما جاء في قول الله -تعالىٰ- في قصة فرعون، يقول: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص:٨]، هم التقطوه لتكون العاقبة لهم، وكما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ليس في القرآن في كلام -غير فعل الله- لام التعليل؛ لأنه قال: آل فرعون التقطوه؛ لأنهم جهلة، ولا يدرون عن العواقب، لكن الله عَزَّوَجَلَّ لا يجهل، ولا يعجز، فقال: لا تكون لام العاقبة، إلا في حق مَن يكون جاهلًا، أو عاجزًا، والله ليس عاجزًا، وليس جاهلًا، فاللام هنا (ليعبدون)، لام التعليل، وليست لام العاقبة، أي علَّلَ الله، ولكن اللام هنا ليست لفعل الله، إنما لفعل العبد، وقال أبو العتاهية مثالًا للام العاقبة، ولام التعليل: لِدُوا للموت، وابنوا للخراب، هنا لام العاقبة؛ لأن كل مولود، لابد أن يموت، وكل بناء، لابد أن يخرَب، لكن لو قال الإنسان: خِطِّ الثوب؛ لألبسه، فقد يلبسه، وقد لا يلبسه، بنيْت البيت؛ لأسكنه، قد يسكنه، وقد لا يسكنه، فهنا للتعليل.

فليس شرطًا أن يقع ما وردَ بعد اللام، إلا إذا كانت اللام للعاقبة، والذين أنكروا لام التعليل قالوا: كل اللامات تأتي للعاقبة، ليس في القرآن تعليل، ولا حكمة، ولا سبب، فأنكروا باء السبب، وأنكروا لام التعليل، وهم الأشاعرة، ينكرون الأسباب، وينكرون التعليل، وقالوا في هذه اللام: ليجري عليهم قدر الله، لكن فيه تكلُّف؛ فإن العبادة لا تسمَّىٰ قدرًا، والعبادة من فعل العبد، فمنهج السلف -وهم أهل السُّنَّة والجماعة- هو المنهج الصحيح، والفَهْم الصحيح، في هذه الآية وأمثالها، و في القرآن الكريم كلمات كثيرة تحتاج إلىٰ تحرير للمعنىٰ، مثل الإرادة، والكتابة، والقضاء، والأمر، فقد تأتي أحيانًا للمعنىٰ القدري، الذي لابد أن يكون، وقد تأتي للمعنىٰ الشرعي، الذي لا يكون إلا من بعض الناس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة:١٨٥]، منهم مَن يكمِل العدة، ومنهم مَن لا يكمِلها، منهم مَن يكبِّر الله، ومنهم مَن لا يكبِّر الله، ومنهم مَن يشكر، ومنهم مَن لا يشكر، فاللام ليست هنا لام العاقبة، بل لام التعليل، أي العلة، أو المقصد، أو الحكمة من هذا الفعل، هو هذا الفعل، فهنا اللامات جاءت في التشريع، أي هذا هو حكمة التشريع، لتكبير الله ﷻ، وإكمال العدة، وشكره سبحانه وتعالى علىٰ ما أنعم.

فهذا الموضوع أوْرده الشارح رحمه الله للحديث عن معنىٰ اللام، لهذا يقول: **(وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾** [النساء:٦٤]، الرسول أطاعه بعض الناس، وعصاه بعض الناس، لو كانت اللام لابد أن يتحقق ما بعدها، لما عصاه أحد، فدلَّ علىٰ أن اللام هنا، ليست لام العاقبة التي لابد أن يتحقق ما بعدها، بل هي لام التعليل، أي العلة التي يقدَّر لها كي، أي لكي يكون كذا، والقرآن مملوء بذلك.

ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: لو أردت أن أُورِد عشرة آلاف مثال على حكمة الله لأوردتها، وقد أوْرد كلامًا كثيرًا، وكذلك ارتضى مذهبه ابن الوزير في كتاب العواصم، فإنه كتاب من أحسن ما أُلِّف مِمَّن تأثَّر بمذهب السلف من الزيدية، كالصنعاني، والشوكاني، وابن الوزير، وهو كتاب قيِّم جدًّا، دافَع فيه عن أهل السُّنَّة دفاعًا قويًّا أمام الشيعة، وأثبت أن أهل السُّنَّة هم أصحاب المنهج السليم في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: ٢٠-٢١].



الشرح

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك:٢٠]، هذه آية في سورة الملك، وقد سبقها آيات، منها قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ...﴾ [الملك:١٦-١٧]، إلى آخر الآيات، والخَسْف هو السقوط، فإما أن يُسقِط الأرض بكاملها، أو يُسقِط ما تحت قدمي الإنسان، كما قال -سبحانه- عن قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص:٨١]، أي أسقطها الله في داخل الأرض.

هذا التهديد من الله عَزَّ وَجَلَّ للكفار، يذكرهم بحقيقة قد يغفلون عنها، وهي أن الأرض التي نعيش على ظهرها، ونراها مستقرة، هي معلقة في الفضاء، فلو خسف الله بها -أي أسقطها بكاملها-، فإن الكافر يستحق العقاب، فلو عاقبه الله بأن جعل الأرض المستقرة تسقط، لما امتنعت عليه، ثم يقول: مَن ينصركم، مَن هو جند لكم، أي يعينكم وينصركم إذا فعل الله بكم ذلك؟ لا أحد.

و الآية التي بعدها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك:١٩]، الطائر في الفضاء، لو لم يكن فيه هواء، ما استطاع أن يطير، فوجود الهواء هو الذي يجعل الطائر يسير ويسبح في الفضاء،

فالأرض التي نراها ساكنة، تسبح في الفضاء، والذي يمسكها هـو الله ﷻ، فـالله يُـذكِّر الإنسـان بهـذه النعمـة: أنـك أيهـا الإنسـان تسـتقر علـىٰ أرض معلَّقـة في الفضاء، فلو شاء الله لأسقطها.

ثم قال في الآيتين: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك:٢٠]، و(أم) في اللغة من حروف العطف، فإن حروف العطف تسعة فقط، ستة منها تُشرِك ما بين المعطوف والمعطوف عليه، في الحكم والإعراب، وثلاثة منها تشترك فقط في الإعراب، فالتي تشترك في الحكم والإعراب: الـواو والفاء وثـم وحتىٰ وأو وأم، فهذه تُشرِك ما بين المعطوف والمعطوف عليه، في الحكم، أي حكم ما بعد الحرف، مثل حكم ما قبلها، في المعنىٰ، وكذلك في الإعراب، أما الثلاثـة الأخـرىٰ، وهـي بـل ولا ولكـن، فتشـترك في الإعـراب، ولا تشـرك في الحكم.

و"أم" هنا من الحروف التي تشرك ما بين المعطوف والمعطوف عليه في الإعراب، وهي تأتي علىٰ قسمين: متصلة ومنقطعة، فـإذا كـان مـا قبلهـا متصـلًا بمـا بعـدها، تسـمَّىٰ متصـلة، كقولـه تعـالىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:٦]، فالإنذار وعدمه سواء، وإذا كان ما قبلهـا منقطعًـا عـن مـا بعـدها، فهـي منقطعة، وتسمَّىٰ منفصلة أيضًا.

وهنـا "أم" منقطعـة، بمعنـىٰ بـل، لكـون السياق انتقـل إلـىٰ معنـىٰ جديـد، وبعدها "من"، وهي هنـا اسـم استفهام، والجنـد في: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ [الملك:٢٠]، بمعنىٰ المـُعين والمـُساعد، ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك:٢٠]، وهنـا نَلْحَظ في كلام الله ﷻ معنًىٰ جميلًا، فـالله يقـول: الإنسـان قـد يعصـىٰ الله، وقـد يكفـر، وقـد يجحـد، ولكـن لا تأتيـه العقوبـة سـريعًا؛ لأن الله رحمـن، فتـأخَّر

العقاب لا لأن الإنسان لا يستحق العقاب، ولكن لأن ربنا ﷻ رحمن رحيم، قد يؤجِّل العقاب؛ لعل هذا الإنسان ينزجِر، ولعله يرعوي، ولعله يتوب، ولذا قال: ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الملك:٢٠]، فلا يظن أن عدم مجيء العقاب؛ غفلةً أو إهمالًا، بل إنه إمهال؛ لعله ينزجر، ويتوب، ويرجع إلى الله ﷻ، ثم قال ﷻ: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠﴾ [الملك:٢٠]، "إن" هنا بمعنى ما النافية، أي ما الكافرون إلا في غرور، الغرور هو الانخداع، والجهل، والغفلة، فالإنسان قد ينخدع إذا عاش مُعافًى في بدنه، آمنًا في سِرْبِه، عنده ما يكفيه من طعامه وشرابه، وقد يغترُّ ويغفل، وهذا هو الغرور، الغُرور مصدر، ولكن الغَرور -بالفتح- هو اسم لإبليس، فإبليس يُوصَف بأنه غَرور، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان:٣٣]، هذا اسمه، أو صفته، أما الغُرور -أي المصدر-: هو ما يلتبس به الإنسان، ويحيط به من الأماني الكاذبة، والغفلة، والانخداع بطول العمر، أو بطول العافية، فإن هذا قد يمنعه من الطاعة؛ لأنه لا يرى العقاب سريعًا.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾ [الملك:٢١]، الرزق هو عملية عجيبة، عظيمة، لكن الإنسان قد يغفل عنها، فالإنسان يأكل من الحبوب والثمار، هذه الحبوب والثمار تحمل فيها سر نَمَائها، وسر بقائها، فالحبة الصغيرة يعجز البشر عن صنع مثلها، والبشر يصنعون الحبوب الصناعية من الدقيق، والأرز الصناعي من دقيق الأرز، أو العظام، أو ما شابه ذلك، لكن لو زرعوا قِنطارًا من الحبوب، ما نَبَتَ منها شيء؛ لأنها لا تحمل سر الحياة، هذه الحبوب الصغيرة، تحمل في داخلها سر الحياة، ولهذا الإنسان إذا قَسَم الحبة، أفسدها، لكن الله ﷻ يقسمها، فإذا هي تصبح شجرة نابتة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ [الأنعام:٩٥]، فالزارع ليس عليه إلا أن يقذف بالحَبِّ، فيصير بعد أيام، نباتًا يخرج رؤوسه من تحت التراب، والله -سبحانه- هو الذي رَعَىٰ

الحَبَّة والنَبْتَة في أعماق التراب، يتكوَّن غذاء الإنسان من التراب والماء، كل هذه الثمار، وهذه الحبوب، إنما هي من التراب والماء، والنبتة الصغيرة، أو الثمرة، أو البذرة، إنما تحمل النوع، وإلا فكلها تُخلَق من التراب والماء، ثم ينمو، فتعطي الحبة الواحدة عشرات الحبوب، كم أنبتت الحبة الواحدة، منذ خلقها الله إلىٰ قيام الساعة؟ وكم نتج عنها، وكم أكل منها، وكم رزق الله بها؟

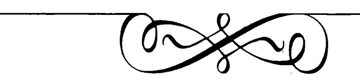
ثم يأتي الماء من أعماق المحيطات والبحار، يحمله الهواء، فيصُبُّه الله علىٰ تلك النَبْتَة، ثم يجعل الله الضوء الذي يعين النبات علىٰ إخراج ثماره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام:٩٩]، وهذا الترتيب البديع، لم يعرفه الإنسان إلا في العصر الحاضر، فالأوراق الخضراء هي مصانع الثمار، لو لم تكن أوراق خضراء، لما طلعت الثمار، والله يخرج الأوراق الخضراء قبل الثمار، ويقول ﷻ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾، من النبات، ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾، أي من الخضر، ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام:٩٩]، فسبحان الذي خلق! ﷻ، ثم ما دور الإنسان في تحصيل الرزق؟ مَن يستطيع أن يخرج النبتة من أعماق التراب، فتتجه بجذورها إلىٰ أعماق التراب، وتتجه بساقها إلىٰ فوق التراب؟ لا يستطيع ذلك أحد من البشر، ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة:٦٤]، والله هو الذي يتولاه ﷻ.

فحركة الرزق حركة عجيبة، حركة عظيمة، لهذا يقول تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك:٢١].

ثم هذه الثمار تُخلَق وتُصنَع، بحسب قدرة الأجهزة الهضمية عند الإنسان، فهناك توافق بين الجهاز الهضمي وبين هذه الحبوب والثمار، فليس

فيها سُمِّيَّات قاتلة، بل تحتوي على أنواع الفيتامينات التي يحتاجها الجسم البشري، والله ﷻ هو الذي صنعها بهذه الصورة، ثم إذا أكلها الإنسان، فهو قادر على الحركة؛ فإن النبات والثمار تعطي الجسم قوةً على الحركة، فتنتقل الثمار -المادة- إلى طاقة في جسم الإنسان، كل هذا لا يرعاه إلا الله ﷻ، لا يستطيع أحد أن يكمل مراحل الرزق، لو أوقف الله الرزق عند مرحلة معينة.

ثم يقول ﷻ: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك:٢١]، لَجُّوا أي دخلوا، والعُتُو هو الاستكبار، والنفور هو الشرود عن الله ﷻ، فالله يُذكِّر المشركين بما يحيط بهم من النعم، من نعمة الاستقرار على ظهر الأرض، ونعمة الطعام، وهذه كلها من الله ﷻ، ومن رحمة الله أنه يُذكِّر الإنسان بهذه الظروف، والحيثيات؛ لعله يرجع ويتوب، ولعله يؤمن به ﷻ، والقرآن الكريم مملوء بأنواع الأساليب التربوية، والإثارة، والتنبيه، وذلك كله طَرَف من رحمة الله ﷻ.



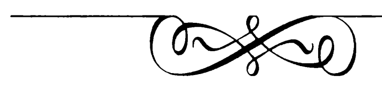
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو سبحانه يُنعم عليك ويُحسن إليك بنفسه، فإن ذلك موجب ما تسمىٰ به ووصف به نفسه، إذ هو الرحمن الرحيم الودود المجيد، وهو قادر بنفسه، وقدرته من لوازم ذاته، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته، لا يحتاج إلىٰ خلقه بوجه من الوجوه بل هو الغني عن العالمين، فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم. فالرب سبحانه غني بنفسه، وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه، واجب له من لوازم ذاته، لا يفتقر في شيء من ذلك إلىٰ غيره.

الشَّرح

قال الشارح: (**وهو سبحانه يُنعِم عليك، ويُحسِن إليك بنفسه، فإن ذلك مُوجِب ما تسمَّىٰ به، ووصف به نفسه، إذ هو الرحمن الرحيم**)، ذكر في هذا المقطع أن الله ﷻ يرزق الإنسان، ويعطيه، لا لحاجة منه إلىٰ الإنسان، فإن العطاء من الله عطاء كرم وجُود، فإن الله كريم، وهو كامل في ذاته وصفاته، فلا يُستكْمَل بالعطاء، بل يعطي من جُوده، لا لحاجة، ولا لغرض، والكريم من البشر ما يُعطِي إلا لحاجة، إما لحاجة أُخَروية؛ يبتغي بذلك وجه الله، وإما لحاجة دُنيوية؛ يبتغي بذلك المدح والثناء، فإن أعطىٰ للآخرة، فإن الله سيعطيه أجر ما قدَّم، وإن عمل من أجل الدنيا، فإنه يخسر الدنيا والآخرة، فالإنسان لا يُعطِي إلا ليُستكْمَل بهذا العطاء، أما ربنا تبارك وتعالى فإنه غني عن عباده، لا يعطيهم لحاجة إليه، بل يعطيهم؛ لأن من صفاته أنه كريم، ولهذا يقول سبحانه وتعالى يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ [الانفطار:٦].

ثم إنه كريم في معاملته في الحسنات والسيئات، لذا فنحن نعمل الحسنة الواحدة، ويعطينا عليها عشر حسنات، وقد يُضاعِفها إلىٰ سبعمائة ضعف، ونهمُّ بالحسنة، ولا نعملها، فيعطينا بها حسنة، ونعمل المعصية، فيكتبها علينا معصية واحدة، وقد يغفرها، فيقول: الله كريم، أعطاك الكثير، فلِمَ تأتي يوم القيامة مُفلِسًا؟ ما الذي غرَّك؟ فليس له عذر أمام الله يوم القيامة، فهو يعطي الناس، لا لحاجته إليهم، هذا معنىٰ: (**مُوجِب ما تسمَّىٰ به**)، فهو رحيم، رحمن، كريم، رزاق، يعطي، لا لحاجة لخلقه، بل يعطيهم لأنه هو الكامل في ذاته، وأسمائه، وصفاته.



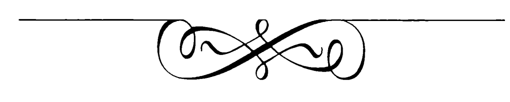
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ففعله وإحسانه وجوده من كماله، لا يفعل شيئًا لحاجة إلىٰ غيره بوجه من الوجوه، بل كل ما يريد فعله، فإنه فعال لما يريد، وهو سبحانه بالغ أمره، فكل ما يطلبه فهو يبلغه وينالـه ويصل إليه وحده، ولا يعينه أحد، ولا يعوقه أحد، لا يحتاج في شيء من أموره إلىٰ معين، وما له من المخلوقين من ظهير، وليس له ولي من الذل، قاله شيخ الإسلام.



الشَّرْح

هذا النص نقله من ابن تيمية[1] رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو تكملة لما تقدَّم، أن الله يعطي، لا لحاجة منه إلىٰ عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكل شيء أراده، يفعله، لا يستطيع أحد أن يمنع فعل الله، وهذا معنىٰ قول المسلم بعد كل صلاة: (اللهم أنتَ السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطِي لما منعت)، هذا اعتقاد المسلم، فإذا أراد الله أن يعطي إنسانًا شيئًا، لا يستطيع بشر أن يمنعه، وإذا مَنَع شيئًا، لا يستطيع بشر أن يعطيه، فالكون كله في قبضة الله، وإرادته، ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما شاء، كان، وما لم يشأْ، لم يكن، وهذا الاعتقاد ينبغي أن يترسَّخ في قلب كل مسلم، أنه لا مانع لما أعطىٰ، ولا مُعطِي لما منع، وأن قدر الله لا يُغيَّر، فما حدث لك اليوم من الصباح إلىٰ المغرب، هو قدر الله، لو أردت أن تُغيِّره، لا تستطيع، فالقلب يطمئن إذا عرف أن كل شيء مُقدَّر، وأن جهده إنما هو أسباب، والنتائج بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٣٨).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقوله ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

قالوا: الطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد، وقد فسره السلف ببعض أفراده، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الطاغوت الشيطان. وقال جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الطواغيت كهان كانت تنزل عليهم الشياطين. رواهما ابن أبي حاتم. وقال مجاهد: الطاغوت الشيطان في صورة الإنسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم. وقال مالك: الطاغوت كل ما عبد من دون الله. قلت: وهو صحيح لكن لا بد فيه من استثناء من لا يرضىٰ بعبادته.



الشرح

قوله -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وموضوع كل رسالة سماوية هو الدعوة إلىٰ عبادة الله، وإلىٰ الخضوع لله جَلَّ وَعَلَا، فكل فرد في هذا الكون له نظام يسير عليه، بدون اختياره، فالشمس لها نظام، والقمر له نظام، والهواء له نظام، والماء له نظام، والمعادن لها نظام، وكل جزء في جسم الإنسان له نظام، عيناه لهما نظام، أُذُناه لهما نظام، قلبه له نظام، رِئَتاه لهما نظام، وهذه كلها تسير وِفْق النظام الربَّاني، بدون اختيارها، لو أردت أن تسمع بعينك، لا تستطيع، لو أردت أن ترىٰ بأذنك، لا تستطيع، لو أردت أن تَضُخَّ الرئتان الدمَ، لا تستطيع، القلب هو الذي يَضُخُّ الدم، والرئتان دورهما الهواء، فكل شيء في الوجود يسير وِفْق نظامه، بطريقة قَسْرِيَّة، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء:٤٤]، فالكون كله

يسبِّح لله، ويطيعه، ويعبده، وكل مخلوق من المخلوقات له عبادة تخصُّه، ما عدا الإنسان، فهو يختار، فإما أن يختار أن يسير مع النظام الكوني في طاعته لله؛ فيعيش سعيدًا في الدنيا، وسعيدًا في الآخرة، أو يُصادِم الكون، فيخالف النظام الذي أنزله الله له؛ فيشقىٰ في الدنيا، ويشقىٰ في الآخرة.

ولهذا يحسُّ الكافر في قلبه الضَّنْكَ، والقلق، والاضطراب؛ لأنه يُعاكِس النظام الكوني، أرأيتم لو كان هناك سَيْل ينحدر من الجبال والأودية العالية، ثم جاء إنسان يقابِل السيل! ما النتيجة؟ يتمزَّق، فالتمزُّق في الإنسان الكافر، تمزُّق القلوب، وتمزُّق النفوس، والاضطراب النفسي، والقلق، والحيرة التي تكاد تقتله؛ ويعيش خائفًا قَلِقًا طوال حياته، حتىٰ إن بعضهم لا ينام، إلا بالحبوب المنومة، وهذا حال كثير من أصحاب الثراء، وأصحاب الجاه، يعيش في خوف وقلق طوال حياته، وما نسمعه من الانتحار في بلدان الغرب والشرق الكافر، إنما هو مما يعانيه الكافر من قلق في القلب، واضطراب في النفس؛ لأنه يصادِم الكون، وهو شذَّ في هذا الكون، ما قيمة هذه الحياة؟ حياة قلق، وعذاب، قبل يوم القيامة.

وإذا أطاع؛ سَعِدَ في الدنيا قبل الآخرة، وعاش مطمئن النفس، هادئ البال، مستقر القلب، ولهذا المسلم يعيش بنفس راضية، وقلب مطمئن؛ لأنه يعيش مع الله، مالك الكون، وخالق الوجود، فله بالله علاقة حسنة، إن مرض، فهو قريب من الله، وإن عُوفِيَ، قريب من الله، وإن جاءه الغنَىٰ، قريب من الله، وإن جاءه الفقر، قريب من الله، فهو في كل أحواله قريب من الله، كما في الحديث: **"عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن**

أصابته سرَّاء؛ شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء؛ صبر، فكان خيرًا له"[1]، كان يقول بعض السلف: (والله إنَّا لفي حالة -أي من الطمأنينة والاستقرار النفسي- لو يعلم عنها الملوك، وأبناء الملوك؛ لجَالَدُونا عليها بالسيوف)؛ لأن الطمأنينة مَطْلَب.

فالله ﷻ خلق الوجود، وجعله يتبع نظامه، إلا الإنسان، كأنه قال: أيها الإنسان أنا أعطيك اختيارًا، وأنا أُكرِّمك، وأُشرِّفك، فإن عرفتَ معنىٰ التكريم؛ أكرمْتُكَ في جنات الخُلد، التي لا انقطاع لها، وإن عصيتني في الدنيا؛ عاقبْتُك بالعقوبات الدُنيوية المـُعجَّلَة، وهي القلق النفسي، والاضطراب العصبي، حتىٰ تموت.

فالحياة السعيدة في طاعة الله، وهذا ما جاءت به الرُّسُل.

وقد أخبر الله ﷻ أنه لم يترك أُمَّة بدون رسالة ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[النحل:٣٦]، ما هو موضوع الرسالة؟ ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، ادخل في طاعة الله، كما قال -سبحانه-: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[البقرة:٢٠٨]، بكل جوانب حياتك، لا تترك شيئًا من حياتك لغير الله، ادخل في طاعة الله بجميع جوانبك، بقلبك، وبصرك، وسمعك، ومالك، وجوارحك، وأولادك، وبما تملكه من الدنيا، ادخل في طاعة الله، اجعل دين الله هو الذي يحكم حياتك، يحكم قلبك، ومشاعرك، وعلاقاتك، ومعاملاتك، هذا هو دين الله، وهذه هي العبادة.

ثم حذَّر مما يُضَاد العبادة، وهو الطاغوت، والخروج عن العبادة، خروج

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، برقم: (٢٩٩٩)، (٤/ ٢٢٩٥).

إلىٰ الطاغوت، وفسَّر الصحابة الطاغوت بتفسيرين، والثالث وردَ عن مالك ابن أنس، وهو أحد أئمة الإسلام، قال عمر: الطاغوت هو الشيطان(١)، وقال جابر: الطاغوت هم الكُهَّان.

وقال مالك: الطاغوت هو كل ما عُبِدَ من دون الله.

فقول عمر: (الطاغوت الشيطان)، صحيح؛ لأن الشيطان سبب في كل معصية من معاصي الله، وقول جابر: (الطاغوت الكُهَّان)، إنما هو نموذج، كما لو سألك شخص: ما هو الخبز؟ فأخذت رغيفًا، وقلت هذا الخبز، فليس المعنىٰ أن الخبز كله هو هذا الرغيف، بل هو فرد من النوع، يقول العلماء: تفسيرات الصحابة والسلف تختلف اختلاف تنوُّع، وليس اختلاف تَضَاد، لا تجد تفسيرًا لآية يُضَاد تفسيرًا آخر، إلا نادرًا، إنما كلها يشملُها اسم واحد.

مثلاً في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]، من الصحابة مَن قال: هو الإسلام، ومنهم مَن قال: هو الرسول وصاحباه، ومنهم مَن قال: هو القرآن، ومنهم مَن قال: فلان من الصحابة، فمن التابعين مَن سُئِل عن الصراط المستقيم، قال: فلان، إما أيوب أو كذا، يعني لأنه علىٰ الصراط المستقيم، هذه التفسيرات كلها صحيحة؛ لأنها أفراد تحت نوع واحد، فالدين يشمل الإسلام، ويشمل القرآن، ويشمل الرسول، ويشمل ما كان عليه الصدِّيق والفاروق رضي الله عنهما، فهذه كلها تفسيرات تنوُّع.

فاختلاف التفسيرَيْن بين عمر وجابر رضي الله عنهما ليس فيه -ولله الحمد- تناقُض ولا تَضَاد، بل كلها إنما هي أفراد تحت نوع واحد، وهذان الأثران عن عمر

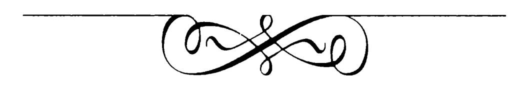
---

(١) جامع البيان ٥/ ١٣١، تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٥.

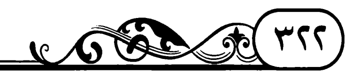
وجابر رضي الله عنهما أوْردَهما البخاري رحمه الله في كتاب التفسير مُعَلَّقَيْن، أي أن إسنادَهما منقطعان، أي ليس إسنادهما متصلين، ولكن العلماء الذين تتبَّعوا المـُعلَّقات، قالوا: جميع ما أوْرده البخاري من المـُعلَّقات بصيغة الجَزْم، فقد أوصله بأسانيد أخرىٰ في غير صحيحه، فلها حكم المـُتَّصل.

قول مالك رحمه الله : كل ما عُبِدَ من دون الله.[1]، هذا اللفظ لابد أن يُقيَّد؛ لأن عيسىٰ عُبِد، والعزيز عُبِد، والملائكة عُبِدَت، فقال الشارح: (**قلت: وهو صحيح، لكن لابد فيه من استثناء مَن لا يُرضَىٰ بعبادته**)، أي كل ما عُبِد من دون الله، وهو راض بالعبادة، لابد أن تُلحَق هذه الفقرة؛ لأنه قد يُعبَد من دون الله، وهو ليس راضيًا بالعبادة، ولا يسمَّىٰ طاغوتًا، فعيسىٰ لا يسمَّىٰ طاغوتًا، والعزيز لا يسمَّىٰ طاغوتًا، والملائكة لا تسمَّىٰ طواغيت.

قوله: (**فطاغوت كل قوم، مَن يتحاكمون إليه**)، الطاغوت في اللغة مُشتَق من الطغيان، ولهذا قال -سبحانه- عن الماء في عهد نوح: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة:١١]، أي زاد عن حَدِّه، فكل شيء يزيد عن حَدِّه يُسمَّىٰ طغيانًا، لهذا يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨﴾ [النازعات: ٣٧-٣٨]، طغىٰ أي تجاوز حَدَّه، فالطغيان في اللغة هو مجاوزة الحد، فإن للإنسان حَدًّا، وهو حد العبودية، فإذا تجاوز حد العبودية؛ ليصبح في درجة الربوبية، فإن هذا يكون طاغوتًا.



(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدُّر المنثور ٢/ ٢٢.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن القيم: الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه علىٰ غير بصيرة من الله،أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله.

الشَّرح

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : **(الطاغوت ما تجاوز به العبد حدَّه، من معبود)**[1]، هذه العبارة فيها نظر؛ لأن المعبود ليس له حق أصلًا أن يُعبَد، لكن المتبوع قد يُتَّبَع في حق، وفي باطل، لكن المعبود كل عمله باطل، فهو متجاوز من البداية، فكل مَن دعا الناس إلىٰ عبادته، فقد تجاوز حدَّه، (من معبود، **أو متبوع، أو مُطاع**).

ثم قسَّمَهم إلىٰ أربعة أقسام:

القسم الأول: (فطاغوت كل قوم، مَن يتحاكمون إليه غير الله ورسوله)، الحكم في حياة الإنسان لله عَزَّ وَجَلَّ، -كما قلنا- الله خَلَقَ الخلق، وجعل لكل مخلوق نظامًا، وخلق الإنسان، وجعل له نظامًا، والمخلوقات غير الإنسان تطيع نظام الله، قسرًا بدون اختيار، والإنسان جعل الله له الاختيار، فإذا جاء أحد من البشر، وقال: أنا الذي أضع نظام الإنسان، يكون طاغوتًا؛ لأنه تجاوز حدَّه، فليس للإنسان حق أن يضع تشريعًا، أو نظامًا للإنسان، هذا حق الله الذي خلقه، وهو يعلم ما الذي يُصلِحه، وما الذي يُفسِده.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٥٠).

مثال ذلك -ولله المثل الأعلىٰ- لو صنعت اليابان جهازًا؛ ليُستخدَم في غرض ما، فهل يحق لأمريكا أن تقول أنا أضع نظام هذا الجهاز، وهي لا تعرف أسرار هذا الجهاز، من تركيبه، وكيفية استخدامه؟ لا؛ لأنه لا يعرفه إلا المُصنِّع الذي صَنَعَه.

ولهذا كم من نظام في البلدان المتقدمة ماديًّا، لم يستطع أن يحقق السعادة للإنسان! -باعترافهم أنفسهم-، فهذا طبيب فرنسي اسمه ألكسيس كاريل، في كتابه: "الإنسان ذلك المجهول"، من أشهر الكتب، ملخص ما فيه: أن الحضارة الغربية -رغم تقدُّمها في جميع الفنون والتخصصات- تجهل حقيقة الإنسان، ولم تستطع أن تتعامل مع الإنسان المعاملة الصحيحة، وقد نتج عن معاملة الحضارة المادية للإنسان، أزمات عقلية، وأمراض نفسية، يعيشها الغرب الآن، ولا تكاد تجد مبنًىٰ خاليًا من مَصَحٍّ نفسي -مثل البقالات عندنا-، كل عمارة فيها خمسة أدوار، عشرة أدوار في ركنها مَصَحٌّ نفسي؛ لأنهم يعانون من الأمراض النفسية، يقول: وعندما أُحصِيَ ما في أمريكا في ذلك الوقت، قبل خمسين عامًا، أو قبل ستين عامًا، يقول: ثبت بالإحصاءات الرسمية عن المستشفيات الحكومية، أن فيها أربعمائة ألف مجنون، وأن فيها أربعمائة ألف طفل معتوهون، ويقول: هذا الإحصاء ليس دقيقًا، ولم يشتمل علىٰ المَصَحَّات الأهلية، إنما هو في المَصَحَّات الرسمية، والمَصَحَّات الأهلية في الغرب أضعاف أضعاف، ففي أمريكا مثلًا ألفان وخمسمائة جامعة أكثرها أهلية، هناك المؤسسات الأهلية أكثر من المؤسسات الحكومية، وهذه إحصاءات رسمية.

هذا مثال لعواقب اعتداء الإنسان علىٰ حق الله ﷻ، فالإنسان جعل من نفسه ربًّا طاغوتًا يُشرِّع للإنسان، فنتج عنه هذه الأمراض العصبية، وهذه

الأزمات العقلية، التي يعاني منها غير المسلمين، فأول طاغوت هو مَن يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، فالحلال ما أحلَّه الله، والحرام ما حرَّمه الله، والحق ما أنزله الله، والباطل ما جعله الله باطلًا، هذه قضية جاء بها كتاب الله، وجاءت بها سُنَّة رسول الله.

وعندما انتشر المسلمون، وقامت دولتهم، لم نرَهم يأخذون التشريعات من فارس، وهي دولة متحضرة ماديًّا، ولا من الروم، وهي دولة متحضرة ماديًّا في عصرهم، بل كانوا يحكمونهم بكتاب الله.

فمَن يحكم الناس بغير شرع الله، يُسمَّىٰ طاغوتًا، فطاغوت كل قوم مَن يتحاكمون إليه غير الله ورسوله.

ودور الإنسان ليس هو التشريع، إنما هو تنفيذ تشريع الله، فدور الفرد المسلم، والمجتمع المسلم تنفيذ الشرع، لا التشريع؛ ولهذا لا يحق لنا أن نُنشِئ مؤسسات تشريعية، الغرب عندهم مؤسستان، تشريعية وتنفيذية، نحن عندنا مؤسسة واحدة تنفيذية، دورنا أن نحقق شرع الله -تعالىٰ-، فهذا المجتمع المسلم ليس فيه أحد يُشرِّع.

أرأيتم لو ترك الله التشريع للإنسان فشَرَّع، مَن سيمسك بزمام الأمور؟ الأقوياء والأغنياء، كما هو الحال في الدول الرأسمالية؛ لأن التشريع يخدم أصحاب الثراء، ولهذا يعيش الفقير طوال حياته فقيرًا، حتىٰ يموت؛ لأن أصحاب الأموال هم أصحاب التشريع، والإنسان لو شرَّع، لا يستطيع أن يَتَبَرَّأ من هَواه، ويتخلَّىٰ عن أغراضه، لكن الله ﷻ ليس له نَسَب بأحد، فتشريعه يشمل الجميع، يحكم الجميع، الغني والفقير، والقوي والضعيف، والرجال والنساء، فالجميع أمام تشريع الله سواء.

فكل مجتمع يتَحاكم إلىٰ غير شرع الله، قد تحاكم إلىٰ الطاغوت، الذي

جاءت الرسل؛ لمحاربته، وإخراج الناس منه، ولهذا يقول تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة:٢٥٦]؛ لأنه لابد أن يُفرَغ القلب من كل ما سوىٰ الله، قبل أن يؤمن بالله؛ لأن الطاغوت نجس، فيُفرَغ القلب من النجس، حتىٰ يضع فيه الإيمان الطاهر، لو أن إنسانًا عنده إناء فيه قذارة، لا يجوز له أن يضع فيه عسلًا، حتىٰ يطهِّره، وينظِّفه، ويطيِّبه، ثم يضع فيه العسل، هكذا القلوب يجب أن تُفرَغ من كل قذر، ثم يوضَع فيها الإيمان بالله، وطاعة الله، ومحبة الله، وتعظيم الله، فأول نوع من أنواع الطواغيت، هو الذي يحكم المجتمع بغير ما أنزل الله.

قوله: (أو يعبدونه من دون الله)، هذا هو النوع الثاني، أي الذي يُعبَد من دون الله، لابد أن يُقيَّد: وهو راضٍ بالعبادة، فالذي يقول للناس: اعبدوني، هو الطاغوت، والعبادة أشمل من قضية الطاعة؛ فإن الإنسان قد يطيع إنسانًا آخر، ولا يحبه، ولا يذِلَّ له، لكن العبادة لها أركان ثلاثة: الحب والذُّل والطاعة، فإذا اجتمعت الثلاث في فعل، تسمَّىٰ عبادة، قد تطيع إنسانًا، ولا تحبه، وقد تحبه، ولا تَذِلُّ له، والله ﷻ لابد أن تَذِلَّ له، وتحبه، وتطيعه، فإن فعلت ذلك، فقد عبدته ﷻ، فلو صَرَفْتَ هذه لغير الله، بأن عبدت قبرًا، أو شيخًا، أو طريقةً، أو صنمًا، أو وَثَنًا، أو مَلِكًا، أو رسولًا، فقد اتَّخَذْتَه طاغوتًا لك، لكن قد لا يُسمَّىٰ هو طاغوتًا، إذا لم يرضَ بهذا الفعل، ويوم القيامة يتبرَّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا، ويتبرَّأ كل معبود مِمَّن عبده، ويقول لم آمرْه بالعبادة، ولم أطلب منه أن يعبدني؛ لأن العبادة حق لله ﷻ.

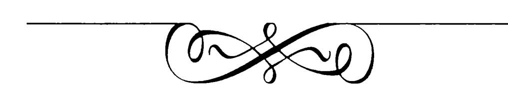
النوع الثالث: قال: (أو يتَّبعونه علىٰ غير بصيرة من الله)، الاتِّباع أقل من العبادة، فالذي يتَّبعه الناس، وهم لا يدرون أهو حق أم باطل؟، إنما يُتَّبَع؛ عصبيةً، أو لأنه من قبيلته، أو لأنه علىٰ مذهبه، أو لأنه من جماعته، أو تعظيمًا،

أو مُعادة لقوم آخرين، أو لسبب آخر، ولكـن لـيس لأنـه يعتقـد أن مـا قالـه حـق، فكل مَن اتُّبِعَ من هذا النوع -أي علىٰ غير بصيرة من الله- فإنه يُسمَّىٰ طاغوتًا.

وكثيرًا ما يوجد هذا في العلماء، وطلبة العلم، والدُّعاة؛ لأنهم هم الذين يُتَّبَعون.

النوع الرابع: في أصحاب السلطان، قال: (**أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله**)، فكل صاحب سلطة تطيعه، ولا تعلم أن طاعته طاعة لله، فأنت قد اتخذته طاغوتًا؛ لأنه ليس للبشر حق في الطاعة، إلا إذا كان مطيعًا لله ﷻ، فطاعته تأتي تبعًا لطاعة الله ورسوله، فإذا كان صاحب السلطة، طاعته تابعة لطاعة الله ورسوله، فإن هذا يكون طاعة دينية، لكن لو أطعته، وأنت لا تدري أطاعته حق أم باطل، فقد اتخذته طاغوتًا، سواء عرفت، أم لم تعرف.

فإن هذه كلها أنواع من أنواع الطواغيت، فيحذَر المسلم أن يعبُد الطاغوت، وقد أُمِر أن يكفر به، أو يتحاكم، أو يتبع، أو يطيع شيئًا، ليس لديه الدليل علىٰ أنه يستحق أن يُطاع، أو يُتَّبَع.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

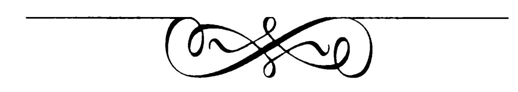
فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلىٰ عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله ﷺ إلىٰ طاعة الطاغوت ومتابعته.



الشَّرح

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : (**فهذه طواغيت العالم، إذا تأمَّلتها، وتأمَّلت أحوال الناس معها، رأيت أكثرهم مِمَّن أعرَض عن عبادة الله، إلىٰ عبادة الطاغوت**)، وهذا حال كثير من الناس في جميع العصور البشرية، أنك لا تكاد تجد عصرًا، خَلا من هذه الأنواع الأربعة، بل في كل عصر تُوجَد هذه الأنواع الأربعة، علىٰ تفاوت فيما بينها، إلا إذا كان المجتمع مجتمعًا إسلاميًّا، فإنها تُضعِف في هذا المجتمع.

ثم قال: (**وعن طاعته، أو متابعة رسوله، إلىٰ طاعة الطاغوت، ومتابعته**)، فالمسلم مُطالَب بأن يعبد الله علىٰ بصيرة، وأن يحذَر أن يَتبع، أو يطيع، أو يتحاكم إلىٰ غير دين الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا هو دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذي أنزله؛ ليُتَّبَع، ويُطاع، ويُفهَم، ويُنشَر، ويُعلَّم، هذه كلها مقاصد من مقاصد إنزال الله كتابه الكريم.



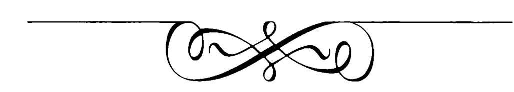
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما معنىٰ الآية فأخبر تعالىٰ أنه بعث في كل أمة، أي في كل طائفة وقرن من الناس، رسولاً بهذه الكلمة ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] أي اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه؛ فلهذا خُلقت الخليقة، وأُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد:٣٦].

الشَّـرْح

هاتان الآيتان مع ما تقدَّم من كلام الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تُبيِّنان أن المقصد من خلق الناس، هو عبادة الله، وأن المقصد من إرسال الرُّسُل، هو الدعوة إلىٰ عبادة الله، واجتناب الطاغوت، فهذان أمران لابد للإنسان أن يعلمهما، كل ما يتعلق بدين الله، لابد أن يتعلمه، ويعمل به، ويدعو إليه، وينشره، وينصره، وكل ما يُعارِض دين الله، لابد أن يعرفه، ثم يتبرأ منه، ويكفر به، وكفرانك به بأن تكرهه، ولا تحبه، وأن تسعىٰ إلىٰ إزالته؛ لأن هذا يُضاد دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكل ما كان مُضادًّا لدين الله، فالمسلم مُطالَب بأن يكون له منه موقف، لا يكفي أن يقبل الحق فقط، فإنه سيأتي من قول الشارح، أن معنىٰ لا إله إلا الله نفيٌّ وإثباتٌ، فلو جاء كافر، فقال: الله ربي. لا نكتفي بهذا، ولو قال: الله معبودي. لا نكتفي بهذا؛ لأن هذا إثبات، وللدخول في الإسلام لابد من نفي وإثبات، فلا نقبل منه، إلا أن يقول لا إله إلا الله، بالنفي والإثبات، فإنه لا يوجد مجتمع يُنكِر أن الله ربُّه، إلا إذا فسدَت الفطرة، وهذا قليل في الناس، لكن الخلاف في العبودية.

فهذا معنى لا إله إلا الله، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، هكذا تجد في الآيات القرآنية النفي والإثبات، لم يأت في القرآن نفي فقط، أو إثبات فقط، بل كلاهما: نفي وإثبات.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذه الآية هي معنىٰ لا إله إلا الله فإنها تضمنت النفي والإثبات كما تضمنته لا إلـه إلا الله، ففـي قولـه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الإثبـات، وفي قولـه: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ النفي فدلت الآية علىٰ أنه لابد في الإسلام من النفي والإثبات، فيثبـت العبـادة لله وحـده وينفـي عبـادة مـا سـواه، وهـو التوحيـد الـذي تضـمنته سـورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ [الكـافرون:١] وهـــو معنـــىٰ قولــــه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

الشَّرح

سبق أن ذكرنـا أن القـرآن الكـريم يـأتي بـالنفي والإثبـات، ولابـد في دخـول الإسـلام واعتنـاق الإيمـان، مـن الجـانبين: التـبرُّؤ مـن الكفـر بجميـع صـوره، والدخول في الإسلام، هذا هو معنىٰ النفي والإثبات، ولهـذا إذا أراد النصـراني أن يُسلِم، لا يُكتفَىٰ بأن يقول: لا إله إلا الله، بل لابـد أن يقـول: وأن عيسىٰ عبـد الله ورسـوله؛ لأن النصـارىٰ يعتقـدون أن عيسـىٰ ابـن الله، وكـذلك اليهـودي إذا جاء ليُسلِم، لا يُكتفَىٰ منه بأن يقول لا إله إلا الله، بل لابـد أن يقـول: وأن عيسـىٰ عبـد الله ورسـوله؛ لأن اليهـود اتَّهمـوا عيسـىٰ بأنـه ابـن غيـر شـرعي، فيُراعَـىٰ في دخول الإسلام هذا الجانب.

أما الجانب الأول فلكل الناس، لكن الناس الآخرون يختلفـون، فـإذا كـان كتابيًّا، فلابد مـن ذكـر مـا يتعلـق بعقيدتـه وبدينـه، فهـذا معنـىٰ النفـي والإثبـات، فالقرآن يذكر في دخول الإيمـان الجـانبين النفـي والإثبـات، الكفـر بالطـاغوت، والإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن القيم: وطريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوىٰ الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا حقيقة لا إله إلا الله انتهىٰ.

ويدخل في الكفر بالطاغوت بغضه وكراهته، وعدم الرضىٰ بعبادته بوجه من الوجوه



الشَّرح

يقول: (والنفي المحض ليس بتوحيد)، أي (لا إله) ليس توحيدًا، وكذا الإثبات بدون النفي ليس توحيدًا، فـ(الله إله)، ليس توحيدًا، بل لابد أن يقترن بكلا الشطرين: لا إله إلا الله، الإيمان بالله، والكفر بالطاغوت.

قوله: (ويدخل في الكفر بالطاغوت بغضه وكراهته)، الطاغوت هو الذي يدعو إلىٰ عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو يُعبَد من دون الله، هناك مرحلتان:

المرحلة الأولىٰ: السعي إلىٰ إزالته، ولهذا شُرِّع الجهاد؛ لأن الطواغيت الذين كانوا يحاربون الله ورسوله، ويحولون بين الناس ودين الله، لا يُكتفَىٰ ببُغضهم، لا يكفي أن نبغضهم، بل لابد أن يسعىٰ المسلمون لإزالتهم؛ حتىٰ يُعبد الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، فإن عجزوا، انتقلوا إلىٰ الكراهية والبُغض؛ لأن المحبة والكُره والرضا والبُغض، من أعمال القلوب، ولا يجوز للإنسان أن يحب إلا ما يحبه الله، ولا أن يكره إلا ما يكرهه الله، فيكون حبُّه وبُغضه دائرًا مع محبة الله وبُغضه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتحب دين الله، وعباد الله، وتحب الصالحين، وتحب كل من انتسب إلىٰ دين الله -سبحانه- من الصالحين والطائعين، ثم تبغض الكفار، وأعداء الله، وتُعاديهم، ولا تواليهم، فهذه أعمال القلوب، لا يُكتفَىٰ بالكُره في

مواجهة الطواغيت التي تحول بين الناس وبين دين الله، بل على المسلمين أن يسعوا إلى تمكين الناس من عبادة الله ﷻ، وليس معنى ذلك إكراه الناس على الدخول في دين الله، إنما المراد إيجاد الفرصة، وإزالة العقبات من طريق الدعوة إلى الله؛ ليستطيع الناس إما أن يعبدوا الله، وإما أن يبقوا على عقائدهم إن كانوا كِتَابِيِّين، أما إن كانوا وَثَنِيِّين، فليس لهم إلا الإسلام، أو القتل.

فالشاهد أن الطاغوت يُكرَه، ويُبغَض، ويسعى المسلمون إلى إزالته؛ لأن هذا يُضاد الله، ويُشاقُّ الله، ويتصادم مع حكمة الله في خلقه، فإن الله خلق الناس لعبادته، فالذي يحول بين الناس وعبادة الله، هو عدوٌّ لله -ﷻ-، يضاد الله في حكمه وأمره، فبقاؤه بقاءٌ للكفر والإلحاد؛ فينبغي للمسلمين أن يحرصوا على إزالة كل من يحول بين الناس وعبادتهم لله ﷻ، وهو المقصد الذي من أجله خُلِقَت الخليقة، وبُعِثَت الرسل، و قد تقدَّم أن هذا هو الحكمة، والمقصد، والهدف من خلق الإنسان، وهذا الكون كله أصلًا وُجِدَ من أجل عبادة الله ﷻ، فأي إنسان، أو أي طائفة، أو أي جهة تمنع الناس من عبادة الله، وتحول بين الناس وعبادة الله، فهذه عقبة في طريق تحقيق المقصد من خلق الإنسان، فالمسلمون الأوائل عندما شُرِّع الجهاد، انتشروا في الأرض، وأزالوا العقبات من طريق تحقيق المقصد من خلق الإنسان، وهو عبادة الله ﷻ، فشُرِّع الجهاد، ورُفِعَت رايته، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ومَن أراد أن يبقى على دينه الكتابي، ويدفع الجزية، يبقَى، لا يُكرَه على الدخول في دين الله، لكن لابد أن تكون الغَلَبَة لدين الله، فلا يكون المسلم ذليلًا مقهورًا يحتاج إلى رحمة أعداء الإسلام، هذا لا يرضاه الله، بل لابد أن يكون دين الله عاليًا، وأن يكون الإنسان قادرًا على أن يطيع الله ويعبده، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعبد الله، ولا يحكم هذا المكانَ، أو هذا المجتمعَ، دينُ الله ولا شريعتُه، فلابد من تحقيق أمره -سبحانه- بإزالة جميع العقبات التي تعترض الدعوة إلى الله ﷻ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ودلت الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وأن أصل دين الأنبياء واحد وهو الإخلاص في العبادة لله، وإن اختلفت شرائعهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] وأنه لابد في الإيمان من العمل رداً على المرجئة.

الشَّرح

قوله: (في إرسال الرُّسُل هو عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه)، هذا تأكيد لما تقدَّم من أن الحكمة من إرسال الرُّسُل، هي عبادة الله ﷻ، ولكنه قال: (هو)، والصحة أن يقال: (هي)؛ لأن المـُتقدِّم مؤنث: وهو: "الحكمة"، ولم يتقدَّم اسم مذكر، فيقال: باعتبار أن الحكمة في إرسال الرُّسُل هي عبادة الله ﷻ، وأن أصل دين الأنبياء واحد، فالعقيدة واحدة لا تتغير، والأخبار التي جاءت بها الرُّسُل واحدة، والتغيُّر في التشريع، فما يكون مباحًا في تشريع من تشريعات الأنبياء، قد يكون محرَّمًا في تشريع آخر، وما كان محرَّمًا في تشريع قد يكون مباحًا في تشريع آخر، فالاختلاف بين دعوات الأنبياء في التشريعات، وليس في أصل العقيدة، فأصل الاعتقاد واحد، الله واحد، والآخرة هي هي، والجنة والنار هي هي، والقَدَر هو هو، وكذا الملائكة والرُّسُل، هذه أصول العقيدة، ولا اختلاف فيها بين دعوة ودعوة، إنما الخلاف في التشريعات التي تتغير، بحسب الظروف والأزمنة، حتى جاء الإسلام فنسخ جميع التشريعات، ولم يبقَ إلا تشريعًا واحدًا، هو تشريع الله ﷻ.

قوله: (لابد في الإيمان من العمل، ردًّا على المُرجِئة)، والمُرجِئة مشتق من الإرجاء، وهو التأخير، وسُمِّيَت المُرجِئة بذلك؛ لأنهم يُرجئون العمل، والناس في الإيمان على خمس طبقات:

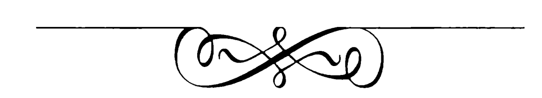
الطائفة الأولى: قالت يكفي في الإيمان المعرفة، بأن تعرف الله، فقال العلماء: إبليس يعرف الله، وليس مؤمنًا، فهذا تعريف ناقص، أو تعريف باطل.

والطائفة الثانية: قالت يكفي في الإيمان التصديق، قال العلماء: الله أثبت التصديق لفرعون، قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وقال الله عن كفار قريش: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام:٣٣]، فالتصديق لا يكفي، وإن زعم هؤلاء أن الإيمان في اللغة هو التصديق، لا يُسلم لهم ذلك.

والطائفة الثالثة: قالت يكفي التصديق، والقول باللسان، وهذا كذلك لا يكفي.

والطائفة الرابعة: قالت القول باللسان يكفي، وهم الكرامية.

والطائفة الخامسة: قالت: أن الإيمان هو القول باللسان، والاعتقاد بالجَنان، والعمل بالأركان، وهو قول السلف، فالأقوال الأربعة الأخرى للمرجئة، والقول الأخير للسلف.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، هكذا ثبت في بعض الأصول لم يذكر الآية بكمالها. قال مجاهد: وقضىٰ يعني وصىٰ. وكذلك قرأ أُبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم.

وروىٰ ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ يعني أمر، وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أن هي المصدرية وهي في محل جر بالباء، والمعنىٰ أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره ممن لا يملك ضراً ولا نفعًا، بل هو إما فقير محتاج إلىٰ رحمة ربه يرجوها كما ترجونها، وإما جماد لا يستجيب لمن دعاه.



الشَّرح

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، هذه الآية هي الآية الثالثة من آيات كتاب المتن، فقد أوْرد المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ خمس آيات، وأوْرد أثرًا وحديثًا، وأراد أن يستشهد بهذه الآية علىٰ عنوان الكتاب الذي ابتدأ به، فإن العبادة في كتاب الله إذا أُطلِقَت، يراد بها توحيد الله ﷻ؛ لأن قريشًا كانت تعبد الله، فلم تكن تجهل هذا المعنىٰ، لكن كانت تشرك مع الله غيره، وقريش كانت تحجُّ، وكانت تنذر، وكانت تطوف، وكانت تقسم بالله، وتعظِّم الله، حتىٰ إن الشرع الإسلامي أبقىٰ حكم القسامة، الذي هو حكم جاهلي، لكنه كان حكمًا، لعلَّه متوارث من الديانات السابقة، فأبقاه الله، وهو خمسون يمينًا بالله، فجميع الآيات القرآنية جاءت لتدعوهم، وتأمرهم بأن يوحِّدوا الله، ولو قلت: زيدٌ قائم، أَثْبَتَّ له القيام، لكن ما نَفَيْتَ عن غيره القيام، ولو قلت: لم يقمْ إلا زيدٌ، نَفَيْتَ القيام عن غيره، وأثبته له، فهكذا الآيات القرآنية تأتي بنفي العبادة

عن غير الله، وإثباتها لله، فهذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وأمثالها في آيات كثيرة على هذا النمط، فالقرآن الكريم يأمر المسلمين، أو يأمر الناس جميعًا أن يعبدوا الله وحده، وهذه الآية هي إحدى آيات الأمر بتوحيد الله -سبحانه-.

(وقضى) في اللغة تأتي بمعانٍ عدة، تأتي بمعنى الأمر، وهو هنا بمعنى الأمر، وتأتي بمعنى الخلق، كما قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢]، وتأتي بمعنى الفراغ من الشيء، كما قال -تعالى- عن يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف:٤١]، وتأتي بمعنى الإرادة: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة:١١٧]، يعني المشيئة، فـ (قضى) لها معانٍ، وإدراك معناها يحل كثيرًا من الإشكالات في كتاب الله ﷻ، التي وقع فيها المتكلِّمون وغيرهم.

فالذي ينبغي أن نعرفه هنا معنيان: المعنى القدري الكوني، والمعنى الشرعي، فالله ﷻ قال في هذه الآية (قضى)، بمعنى أمر، وهو ﷻ أعطى الإنسان قدرة أن يفعل ما أمره به، أو ألا يفعل، فليس كل ما قضاه الله يتم، أما الذين يجهلون هذا المعنى، فيزعمون أن كل ما قضاه الله لابد أن يتم، فكيف فسَّروا هذه الآية، مع أن كثيرًا من الناس لم يعبدوا الله، والله قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؟ قالوا: (قضى)، هنا بمعنى القضاء الكوني، لأن الإنسان يعيش تحت نظام الله، لا يسمع إلا بأُذُنه، ولا يرى إلا بعينه، ولا يأكل إلا بفمه، فهو يعيش تحت القهر الإلهي، وهذا معنى (قضى) عندهم.

لكن الصحيح أن (قضى) تأتي بمعنى أَمَر، والأمر قد يتحقق، وقد لا يتحقق، فهنا في آية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ذكر الشارح رحمه الله أن

بعض الصحابة قرأ بدل قضىٰ (وصَّىٰ)، ونعرف أن في القرآن سبع قراءات متواترة، وأوصلها بعضهم إلىٰ العشر، وجعل الثلاثة صحيحة، وما سوىٰ العشر شاذ، هذه القراءات كانت تيسيرًا من الله ﷻ لقبائل العرب؛ لأن العرب في وقت نزول القرآن، قد استقامت ألسنتها علىٰ أسلوب ونطق معين، فيَسَّر الله ﷻ علىٰ العرب آنذاك، أن يقرؤوا بلغاتهم، لكن لا يتغير المعنىٰ، فكان هذا تيسيرًا من الله ﷻ بتعدُّد القراءات، لكن في عهد عثمان، وَحَّد المصاحف، فكان ينبغي علىٰ المسلمين أن يحرصوا علىٰ أن يتوحَّدوا علىٰ قراءة واحدة؛ لأن القراءات ليست واجبة، وإنما هي رُخصة.

فالقراءات كانت رُخصة، وليست واجبة، فإذا أمكن أن نوحِّد الناس علىٰ قراءة واحدة، هذا مَطلَب، لكن بقاء القراءات يفسِّر لنا بعض المعاني في آيات الله ﷻ، لكن ليس كل ما يُنسَب من القراءات إلىٰ القُرَّاء صحيحًا، ينبغي أن يُحقِّق، وطالب العلم يحرص علىٰ ألا ينسب القول إلا إذا ثبتت صحَّته، هذه النسبة هنا إلىٰ أُبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، لم تصح، وقد أوْرد هذه الآثار الطبري رحمه الله في تفسيره[1]، لكن أسانيدها ضعيفة، فنسبتها إلىٰ الصحابة ليست دقيقة، فسند قراءة أُبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، فيه أبو ثابت، هذا مجهول العَيْن والحال، والمُراد بمجهول العَيْن، أن يكون هناك راوٍ في السَّنَد، لم يروِ عنه إلا شخص واحد، لكن إذا رَوىٰ عنه اثنان، فما فوق، فلا يُقال مجهول العَيْن، هذه قاعدة المحدِّثين، ولا تُقبَل رواية مجهول العَيْن، إلا إذا كان في الصحيحين، فإن أصحاب الصحيحين لم يخرجوا إلا روايات قد وردَ لها طرق مختلفة، فاختاروا وانتقوا أحسنها.

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٤١٣).

ثم مجهول الحال: شخص لم يذكر المحدِّثون عنه، هل هو ضابط وعَدْل أم لا؟ أوْرَدُوا فقـط اسـمه في كُتُـب الرجـال؛ لأن العدالـة تتعلـق بالناحيـة الأخلاقية، والعَدْل بمعنىٰ الصادق، الـذي لا يكـذب، والضَبْط يتعلق بالناحية العلمية، وهو مَن لا يُخطِئ، ولا يَهِم، ولا يكذب، ولا يغير المعنىٰ، فأي مروي عن طريق شخص لا يُذكَر في ترجمته شيء، يُسمَّىٰ مجهول الحال.

فهـذا السـند، أو هـذه الروايـة، أو هـذه القـراءة، التـي نسـبها الشـارح رحمه الله كغيره، وقد نسبها كثير من المفسِّرين، وأولهم الطبري رحمه الله في تفسيره، أوْردها بإسنادها الـذي فيـه أبـو ثابـت، وقـراءة عبـد الله بـن مسعود، كـذلك في سـندها محمد بن عبد الأعلىٰ، وهو مجهول كذلك.

فنسبة القـراءة إلىٰ الصحابة الثلاثـة، لـم تصح، فينبغي أن نحتـاط، وأن نحرِّر، فلا نقبل إلا ما صحَّ -وهذا منهج القدماء-، يوردون ما وجدوه في كتب التفسـير، لكـن لا يـدقِّقون، والشـارح رحمه الله لا يُؤاخَـذ؛ لأن هـذا وردَ في كتـب التفسير كثيرًا.

قوله في أول الكلام: (هكذا ثبت في بعض الأصول)، أراد بأصول الكتاب كتاب التوحيد، فإنه لم يذكر الآية بتمامهـا، يعني فقط ذكر المقطع الأول من الآية، وهو الشاهد الذي يـأمر الله فيـه ألا يُعبَد إلا الله سبحانه وتعالى، لكـن الآيـة لهـا تمـام يتعلق بالوالدين؛ فإن حق الوالدين عظيم، والله -سبحانه تعالىٰ- قد قَرَنَه بحقـه في آيـات كثيـرة، فقـال -تعـالىٰ- هنـا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾، أي أمر ربُّك ألا تعبدوا إلا إياه، العطف يـأتي بمعنـىٰ: وأَمَر ربـك بالوالدين إحسانًا، أي أن تُحسِنوا بالوالدين إحسانًا، فإذا جاء مثل هذا المصدر (إحسانًا)، فهو يفسِّر الفعل المحذوف، فهنا فعل يتعلق بإحسان، فمعناه: وأَمَر ربُّك أن تُحسِـنوا بالوالـدين إحسـانًا، فقـال -تعـالىٰ- في التكملـة: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ

عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، هذه خمس وصايا، مع الرقة العجيبة فيما يتعلق بحقوق الوالدين، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، وحقهما عليه عظيم، والإنسان إذا كَبُر، ولديه الذرية، فإنه يتطلع إلىٰ الأمام، إلىٰ أولاده، وينسىٰ الماضي، فيحتاج إلىٰ مَن يلفته بقوة إلىٰ ماضيه، وهما أبواه، أبواه سبب وجوده، وهما اللذان ربَّياه، ورَعَياه، فإذا تذكَّر حقهما، وما قاما به في صغره، فقد كان طفلًا صغيرًا، فبذلا في تربيته من وقتهما، وعطفهما، ومالهما شيئًا عظيمًا.

لو استرجعنا تاريخ الإنسان وهو طفل، كيف كانت أمه ترعاه، وتحرص علىٰ سلامته! فإذا جاع، قلقت، وإذا مرض، انزعجت، وتمنَّت أن يكون مرضه في جسمها، فلا تنام الليل، ولا تستطيع أن تعينه إلا بالدموع، فتبقىٰ قلقة، حتىٰ يُشفَىٰ من مرضه، فإذا شُفِيَ، فرحت، كأنما حازت الدنيا بكاملها، وتبقىٰ ترعاه بعاطفتها وبرحمتها، حتىٰ إذا أصبَحْتَ أنت رجلًا كبيرًا، وضَعُفَتْ هي، احتاجت إليك كحاجتك إليها سابقًا، أرأيتم الحَبَّة التي تكون أصلًا للشجرة؟ فهي قبل أن تكون أصلًا للشجرة، تكون قوية نَضِرَة، ثم إذا زُرِعَت، وغُرِسَت، وطلع منها الشجرة، ذَبُلَت، حتىٰ تَفْنَىٰ، هكذا أنت أيها الإنسان، أبواك أفنيا عمرهما لك، وربياك وأنت صغير، وسهرا علىٰ رعايتك، وعلىٰ تربيتك، فمن حقهما ألا تنسىٰ حقهما، بعد أن تصبح رجلًا.

واليوم لو دخلنا في بعض البيوت، نرىٰ هناك أُسَرًا ترعىٰ الآباء، وتحترمهم، وتسعىٰ إلىٰ إرضائهم، ولكن هناك بعض البيوت والأُسَر يعيش الأبوان فيها مظلومين، ومقهورين، إن قالا، لا يُسمَع لقولهما، وإن تكلَّما، وُصِفَا بالخَرَف والكِبَر، وإن مَرِضَا، لا يُعالجان، إن دخل الولد البيت، لا يُسلِّم

عليهما، وإن خرج، لا يستأذنهما، وإن طلبا، لا يحقق طلبهما، ويبقىٰ الأبوان ينظران في ابنهما ثمرة فؤادهما، وثمرة جهدهما، وإذا هو يُنكِر حقهما، وهذا - نعوذ بالله- من شقاء الإنسان في الدنيا قبل الآخرة.

فحق الأبوين عظيم، والله قد قَرَنَه بكتابه، حتىٰ لو كانا مُشركَين، وسعد بن أبي وقاص عندما أسلم، سمعت أمه منه أن الله أوصىٰ بالأبوين، فأقسمت ألا تأكل، ولا تشرب، وألا تنام، حتىٰ يكفر بدينه، ثم قالت: تزعُم أن ربك أمرك بطاعة أبويك؟ وأنا أمك آمرك أن تكفر بمحمد، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٤-١٥](١)، أمر الله ﷻ بالبر بهما، وهما مشركان، كافران، يحاربان الدين، ولكن الله ﷻ أمر ببرهما، والترفُّق بهما.

فيجب علىٰ كل مسلم أن يترفَّق بأبويه، حتىٰ لو منعاه من طاعة الله، وآذياه فيما يتعلق بدين الله، يترفق بهما، ويشفق عليهما، ويحرص علىٰ هدايتهما، لعل الله ينقذهما به، بعض الشباب ربما يُطبِّق الولاء والبراء مع أبويه، وهذا جهل بدين الله ﷻ؛ لأن حق الأبوين -حتىٰ لو كانا مشركين- لا يسقط، فإن الله -تعالىٰ- قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾، كيف قَرَن الله الشكر له ولهما! مع أن حق الله أعظم، هو الذي خلق الأبوين والأبناء، لكن هذا؛ لشدة عناية القرآن بحق الأبوين، فحقهما علىٰ العبد كبير، وقد أكدت السُّنَّة -كما سيأتي- هذا الحق، فينبغي لطالب العلم -وهو القدوة في مجتمعه- أن يكون نموذجًا ومثالًا، في رعاية الأبوين، وحقهما.

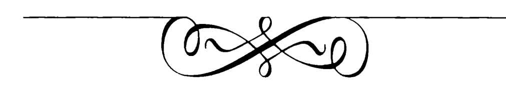
---

(١) أخرج القصة مسلم في صحيحه باختلاف في اللفظ، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، برقم: (١٧٤٨)، (٤/ ١٨٧٦).

قوله: (ورَوَىٰ ابن جرير عن ابن عباس)، أشار الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فسَّر الآية بقوله: وقَضَىٰ، يعني: وأَمَر، ومرَّ معنا أنه قرأ: وصَّىٰ، فتفسيره هنا هو الصحيح.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾، (أن) هنا تفسيرية؛ لأن (أن) قد تأتي تفسيرية، وقد تأتي مخفَّفة من (أنَّ)، وقد تأتي مصدرية، وهي هنا تفسيرية، بمعنىٰ أنه يجوز أن يحل محلها (قال)، فلو قرأنا الآية علىٰ هذا النمط: "وقضىٰ ربك قال لا تعبدوا إلا إياه"، يصح المعنىٰ، و(أن) هذه تُسمَّىٰ تفسيرية، إذا كان ما بعدها مَقُول القَوْل، بأن يتبعها عبارة تدل علىٰ القول، فهنا (أن) الصحيح أنها تفسيرية، وهذا الذي رجَّحه السمين رَحِمَهُ اللَّهُ تلميذ أبي حيان، في كتابه: الدُّر المَصُون، وهو كتاب عظيم، جمع فيه أساليب العربية، وأقوال النحاة في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولخصها بأحسن تلخيص، وقد طُبِع في عشرة مجلدات، فهو كتاب جيد في موضوعه، يفيد في تحقيق بعض المباحث اللغوية والنحوية.

وقد رجَّح أن (أن) هنا تفسيرية، وقال: لأنه يستقيم المعنىٰ إذا وضعنا مكانها (قال)، ثم قال: (والمعنىٰ أن تعبدوه، ولا تعبدوا غيره، مِمَّن لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، بل هو)، أي غير الله عَزَّ وَجَلَّ (إما فقير محتاج إلىٰ رحمة ربه)، يعني مثلنا، إنسان محتاج إلىٰ رحمة الله، وإما أن يكون جمادًا، فصرفك العبادة لإنسان مثلك، وهو محتاج إلىٰ أن يتقرب إلىٰ الله كتقربك، خطأ وضلال وانحراف، وصرف العبادة لأصنام جمادات، كذلك خطأ؛ لأنها لا تنفعك، والذي ينفع هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وقضىٰ أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا كما قضىٰ بعبادته وحده لا شريك له، وعطف حقهما علىٰ حق الله تعالىٰ دليل علىٰ تأكد حقهما، وأنه أوجب الحقوق بعد حق الله. وهذا كثير في القرآن يقرن بين حقه عَزَّ وَجَلَّ وبين حق الوالدين، كقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤] وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣] ولم يخص تعالىٰ نوعًا من أنواع الإحسان ليعم أنواع الإحسان.

وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالأمر ببر الوالدين، والحث علىٰ ذلك، وتحريم عقوقهما، كما في القرآن، ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود قال:(سألت النبي ﷺ أي الأعمال أحب إلىٰ الله؟ قال الصلاة علىٰ وقتها، قلت ثم أي؟ قال بر الوالدين، قلت ثم أي؟ قال الجهاد في سبيل الله، حدثني بهن ولو استزدته لزادني).

وعن أبي بكرة قال: قال رسول ﷺ: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلىٰ يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتىٰ قلنا ليته سكت).[رواه البخاري ومسلم].

الشَّرح

قولـه تعالىٰ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، هذه نماذج من الآيات الكريمة التي تقرُن بين حق الله عَزَّ وَجَلَّ وبين حق الأبوين، جاء بها الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم ساق لنا الأحاديث في هذا المجال.

قوله: (وقد تواترت النصوص)، والتواتُر في اصطلاح المحدِّثين: كثرة الطرق؛ لأن التواتر والآحاد اصطلاحات المحدِّثين، إما مُتَوَاتِر من طرق متعددة الرُّواة ثِقَات، في جميع طبقات السند، وإما أن يكون آحادًا، أي شخص، أو شخصان، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، بحسب اختلاف العلماء في هذا الاصطلاح، فإذا جاء الحديث من طرق كثيرة، فهو مُتواتِر، والإنسان إذا سمع القضية من طرق متعددة، فإنه يكتسب من هذا العلم اليقيني.

نضرب لذلك مثلًا: لو سمع أحد مِنَّا في الصحف والإعلام أن هناك بلدًا اسمه اليابان، لكن لم يره بعينه، ولم يزره، لو أراد هذا الإنسان أن يُكذِّب وجود اليابان، لا يستطيع؛ لأن العلم بهذا علم ضروري، وهو الذي ينتج عن المتواتر، فكثرة سماعه وقراءاته عن هذا البلد، يجعله يصدق، هذا من ثمرات المتواتر، لكن الآحاد، كما لو رَوَىٰ لك واحد حديثًا، وكان ثقة، فأنت تصدقه، لكن لا يقع في قلبك من التصديق، مثل ما يقع في قلبك من التصديق لو رَوَىٰ لك عشرون، أو خمسون، فقوة الأحاديث في إثبات القضايا تتفاوت، لكن لا يعني هذا أن نَرُدَّ منها شيئًا، إذا ثبتت وصحَّت، نقبلها.

ولا شك أن العلماء حريصون علىٰ أن يُبيِّنُوا أن بعض القضايا المتواترة، رَدُّها قد يؤدي إلىٰ الكفر، لكن لو رَدَّ آحادًا، يكون أقل في ميزان النقد.

فهذا من المتواتر، حقوق الآباء تواترت، حتىٰ أصبحت لا يستطيع الإنسان أن ينفَكَّ من قبولها، وتصديقها، واتباعها، فهذا معنىٰ التواتر.

ثم أوْرد الشارح رحمه الله حديث ابن مسعود، -وهو في الصحيح- أنه سأل النبي عن أفضل الأعمال: (**أيُّ العمل أحب إلىٰ الله؟ فقال: الصلاة علىٰ وقتها، فقال: ثم أيٌّ؟** -بالتنوين- **قال: بر الوالدين**)، الأُولىٰ حق الله، والثانية حق

الأبوين، قال: (ثم أيٌّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله)(١)، وهو حق الدين، فهذه الثلاثة من الأعمال الأولىٰ، التي ينبغي للمسلم أن يحرص عليها، والجهاد في سبيل الله علىٰ أنواع: جهاد بالسيف، وجهاد بالكلمة، وجهاد بالقدوة، فإذا كنت نموذجًا صالحًا في مجتمعك، فأنت تجاهد في سبيل الله؛ لأنك تجاهد نفسك علىٰ أن تستقيم علىٰ أمر الله، فتكون نموذجًا صادقًا لدين الله، يُرغِّب الناس في دين الله، لكن إذا كان سلوكك مخالِفًا لما أمر الله؛ لكونك تُرضِي شهوتك، وتُرضِي هواك، فأنت لم تجاهد، بل فرَّطْتَ في هذا الجانب.

فالحديث ذكر ثلاثة أنواع: الأول: الصلاة علىٰ وقتها، أي في أول الوقت، وهنا اللام تأتي بمعنىٰ علىٰ، وتأتي بمعنىٰ في، كلها بمعنىٰ واحد: في وقتها، علىٰ وقتها، لوقتها، فإن حروف الجر تتناوب، لكن لكل حرف معنىٰ يخصُّه، فهنا ذكر الفضل الثاني لبر الوالدين، وهذا لعِظَم حقهما علىٰ أبنائهما.

قوله: (وعن أبي بكرة قال: قال رسول: ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر؟)(٢)، هذا الحديث أيضًا تكلم عن ما يقابل الأعمال الصالحة، وهي الكبائر، وتقسيم الأعمال إلىٰ كبائر وصغائر، وردَت به النصوص الشرعية، من القرآن والسُّنَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، وقال -تعالىٰ- في وصف المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورىٰ:٣٧]، فهذه ثلاث آيات في كتاب الله،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، برقم: (٥٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، برقم: (٨٥)، (١/ ٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، برقم: (٢٦٥٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم: (٨٧)، (١/ ٩٠).

جاءت تذكر أن المعاصي منها كبائر، والأحاديث في هذا كثيرة.

وهذا هو اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، أن المعاصي تنقسم إلىٰ كبائر وصغائر، وخالَف في هذا جمهور الأشاعرة، فإنهم لم يقسموا المعاصي إلىٰ كبائر وصغائر، قالوا: ليس في الذنوب كبيرة وصغيرة، كلها كبائر، وبعضها أكبر من بعض؛ لأنهم نظروا إلىٰ مَن تعصي، قالوا: مَن تعصي؟ تعصي الله، فالكبائر معصية للخالق، والصغائر معصية للخالق، فلا يُنظَر للمعصية، ينظر إلىٰ مَن تعصي، وهذا توجيه في مقابل النص، فالقرآن ذكر الكبائر، فدلَّ علىٰ أن المعاصي تنقسم إلىٰ قسمين: كبائر وصغائر، وكذلك هذا الحديث الذي أخبرهم بأكبر الكبائر، وكذلك حديث أنس أنه قال: قال النبي: (**أكبر الكبائر الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين**)[1]، وهذا في الصحيح، فالأحاديث الصِّحاح أثبتت أن المعاصي تنقسم إلىٰ قسمين: كبائر وصغائر؛ تصديقًا لكتاب الله ﷻ.

ولكن جمهور الأشاعرة: الباقلاني، والإسفراييني، والجويني، وابن فورك، والقشيري، كلهم قالوا: إن المعاصي ليس فيها صغائر وكبائر، وهذه بعض أقوالهم:

يقول ابن فورك: معاصي الله -تعالىٰ- عندنا -أي عند المتكلِّمين الأشاعرة- كلها كبائر، ويقول ابن فورك -وهو شيخ البيهقي-، يقول: المرْضي عندنا أن كل ذنب كبيرة، فهذا منهج جمهورهم[2]، ليس كلهم، هناك مَن خالَف، هذا معنىٰ اصطلاح المحدِّثين، واصطلاح الفقهاء، واصطلاح

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ "**الإشراك بالله**"، كتاب الدِّيَات، باب قول الله تعالىٰ "ومن أحياها"، برقم: (٦٨٧١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم: (٨٨).

(٢) أنظر مقدمة "الزواجر" للهيثمي جـ١ ص ٧ ط. الشعب.

المفسِّرين، واصطلاح النحاة، إذا قال: ذهب إلىٰ هذا جمهور العلماء، أي أكثرهم، وليس معناه كلهم، واختلفوا فيما إذا قيل: عامة العلماء، فقد يُراد بها: الجمهور، وقد يُراد بها: الجميع، بحسب اصطلاح المتكلِّم، أو الكاتب.

وخالَف في هذا عالمان: النووي والغزالي[١]، قالا: المعاصي تنقسم إلىٰ كبائر وصغائر؛ لأن هذا تقسيم القرآن، وتقسيم السُّنَّة، فمَن قرأ القرآن، وقرأ السُّنَّة، وهو خالي الذهن، عرف أن المعاصي فيها كبائر وصغائر، وهذا هو الأصل، أي أن يأتي الإنسان إلىٰ القرآن والسُّنَّة خالي الذهن، ويأخذ منهما المعتقد، لا أن يأتي بعقيدته، ويبحث في القرآن والسُّنَّة ما يقوِّي عقيدته، هذا منهج خاطئ.

فالمعاصي تنقسم إلىٰ قسمين: كبائر وصغائر، والفائدة في هذا التقسيم: أن الكبير، الذي يموت وهو مرتكب لها، فإنه مُتَوَعَّد بالعقاب، يعني يستحق العقاب، قد يغفر الله له، وقد يعاقبه الله، أما الصغائر، فلو مات عليها إنسان وليس مرتكبًا لكبيرة، فإن الله قد وعد بمغفرتها، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، فجعلها سيئات، الصغائر مقابلها الكبائر، فبهذا يُعرَف ثمرة التقسيم.

وللعلماء في تعريف الكبيرة كلام كثير، منهم مَن جعلها محصورة في سبع كبائر، ومنهم مَن قال: إلىٰ السبعين أقرب[٢]، لكن التعريف السليم: أنها كل ذنب خُتِمَ بلعنة، أو غضب، أو نار، بأن وردَ في الآية، أو الحديث، وعيد لصاحبها أنه مطرود من رحمة الله، أو أنه يلحقه غضب من الله، أو عذاب من

---

(١) انظر تهذيب الفروق (هامش) الفروق للقرافي جـ١ ص ١٣٤، ومسلم بشرح النووي جـ٢ ص ٨

(٢) انظر الطبري جـ٥ ص ٤٢، ويرجع إلىٰ ابن كثير جـ١ ص ٢٣٣ وبعدها، في أقوال عن الكبائر وأنواعها، كذلك يرجع إلىٰ مقدمة "الزواجر" للهيثمي، ففيها بحث تفصيلي في هذا الأمر، أي كون الكبائر تنحصر أم لا تنحصر؟ وكذلك "مدارج السالكين" جـ١ ص ٣٢٠ وبعدها.

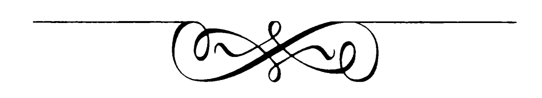
نار، أما الذنب الذي لم يأت على هذا النمط، فيُسمَّىٰ صغيرة، وهذا هو التعريف المرْضي عند أهل السُّنَّة والجماعة[١].

فقوله: (**ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر**)، ثم قال: (**قلنا بلىٰ، قال: الإشراك بالله**)، والإشراك أكبر الكبائر؛ لأن الله لا يغفره، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فعلَّق مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة، ففي الكبائر، مُعلَّقة بالمشيئة، وأما في الصغائر، فقد أخبر الله ﷻ أنه يغفرها، إذا اجتنبت الكبائر.

(**وعقوق الوالدين**)، العَقُّ في اللغة: القطع، فكأنك أنت تقطع صِلَتَك، ورَحِمَك، وبِرَّك، وخيرَك، عن أبويك، فسُمِّيَ عقوقًا، مُشتقًّا من العَقِّ.

قوله (وكان مُتَّكِئًا، فجلس)؛ ليبين أهمية القضية التي سيتكلم عنها، فقال: (**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**)[٢]، فأخذ يكررها، حتىٰ أشفق الصحابة عليه، فقال الصحابة: ليته سكت، إشفاقًا عليه؛ لأنه تَعِبَ من كثرة تردادها، وهذا لعِظَم شأنها.

(**وقول الزور**)، هو كل قول باطل يُتوَصَّل به إلىٰ باطل، فصاحب هذا الفعل قد ارتكب كبيرة، وهو مُتوَعَّد عليها بعقاب الله ﷻ.



(١) انظر إلىٰ: شرح الطحاوية (ص ٣٧١)، وشرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٨٥)، ومجموع الفتاوىٰ (١١/ ٦٥٠). ونيل الأوطار للشوكاني (١٠/ ٢٤٣، وفتح الباري (١٢/ ١٨٤).

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعـن أبـي هريـرة قـال: "قـال رجـل يـا رسـول الله مـن أحـق النـاس بحسـن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قـال أمـك، قـال: ثـم من؟ قال: أبوك". أخرجاه.

وعـن عبـد الله بـن عمـرو قـال: قـال رسـول الله ﷺ: رضـىٰ الـرب في رضـىٰ الوالـدين وسـخطه في سـخط الوالـدين. رواه الترمـذي وصـححه ابـن حبـان والحاكم.

الشَرْح

قوله: (وعن أبي هريرة قال: قال رجل يا رسول الله، من أحق النـاس بحسـن صحابتي؟)[1]، هنا الحديث يعطي الأم ثلاثة أضعاف حق الأب؛ لأن تعب الأم، ومشقتها، وما يلحقها في التربية، أولًا في الحمل، ثم في الوَضْع، ثم في التربية، مشقة عظيمة لا يلحق الأب مثلها، فجعل النبي حق الأم أعظم من حق الأب، فالإنسان ينبغي أن يحرص علىٰ أن يَبِرَّ الأبوين كليهما، لكن يحرص أن يزيد في بِر أمه؛ فإن الأم قلبها رقيق، أضعف من الأب؛ لأن احتماله أقوىٰ منها، فينبغي أن يُحرَص علىٰ رقة قلبها، وأن يُحرَص علىٰ بِرها أشد من الحرص علىٰ بِر الأب، ولا يعني هذا الإهمال، أو ترك بِر الوالد، لكن ينبغي أن يترفق ويتلطف أكثر بأمه؛ لأنها كانت في صغره أشد تلطُّفًا ورحمةً به من الأب.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، برقم: (٥٩٧١)، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأيهما أحق به، برقم: (٢٥٤٨)، (٤/ ١٩٧٤).

قوله: (وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله: رِضَىٰ الرب في رضىٰ الوالدين)[١]، معنىٰ هذا الحديث يتفق مع القرآن والسُّنَّة، لكن الحديث لم يصح؛ فإن مداره علىٰ شخص يُسمَّىٰ عطاء، وعطاء هذا -كما ذكر العلماء- مجهول؛ لأنه لم يروِ عنه إلا ابنه يعلىٰ، وقاعدة المحدِّثين: الذي لا يروي عنه إلا شخص واحد، يُسمَّىٰ مجهول العَيْن.

وقد وردَ الحديث مرفوعًا وموقوفًا، وأوْرد كلا الطريقين الترمذي رحمه الله في سُننه، ثم قال: والموقوف أصح. أما البخاري فقد أوْرده في كتابه الأدب المفرَد، وهذا الكتاب أوْرد فيه الآداب الشرعية، والحقوق الاجتماعية علىٰ المسلم، ولكنه لم يشترط فيه شرط الصحيح، بل يروي فيه الضعيف، وقد افتتح كتابه بحق الوالدين، وأوْرد فيه أكثر من تسعين حديثًا وأثرًا، في أكثر من خمسين بابًا، فهو أشمل كتاب -تقريبًا- استوعب الأحاديث والآثار في حقوق الوالدين، وكذلك البيهقي رحمه الله في كتابه شُعَب الإيمان، قد أوْرد أكثر من مائة حديث وأثر في حقوق الوالدين، فهذان الكتابان اشتملا علىٰ الآثار والأحاديث في حقوق الآباء.

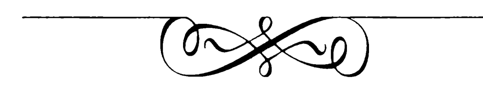
وهذا الحديث وردَ فيه وهمٌ في الأدب المفرد عند البخاري، ولعل هذا الوهم من الناسخ؛ لأن مثله لا يمكن أن يقع من البخاري رحمه الله، فإنه قد نَسَب الحديث إلىٰ عبد الله بن عمر بن الخطاب، والصحيح أنه إنما يُعزَىٰ إلىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص، وهكذا عند ابن حبان، والحاكم، والترمذي،

---

(١) والترمذي والحاكم إنما أخرجا بلفظ الإفراد في "رضىٰ الوالد"، انظر: سُنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء من الفضل في رضىٰ الوالدين، برقم: (١٨٩٩)، المستدرك، كتاب البر والصلة، برقم: (٧٣٢٩)، (٤/ ٢٦٢). وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم، وسكت عليه الذهبي في التلخيص، وصحَّحه الألباني في تعليقه علىٰ سنن الترمذي ص٤٣٤.

وغيرهم، أما في الأدب المفرد عند البخاري فقد ذكر أن الراوي عبد الله بن عمر، وعند غيره ابن عمرو، وهو الصحيح، فإن يعلىٰ بن عطاء من طلاب ومن موالي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

والحديث -رغم ذلك الضعف في سنده- صحَّحه ابن حبان والحاكم، والذهبي أقر الحاكم في التصحيح، ومن المعاصرين الشيخ الألباني، وشعيب الأرناؤوط، في شرح السُّنَّة للبغوي، ومداره علىٰ شخص مجهول، وهو عطاء العامري، وقلنا: هذا الرجل لم يروِ عنه إلا شخص واحد وهو ابنه يعلىٰ، ومع ذلك فقد صحَّحوا الحديث، ولعلهم نظروا إلىٰ أنه يتفق مع الأحاديث الأخرىٰ من حيث المعنىٰ، ولكن السند لم يصح.



قال المؤلف رحمه الله:

وعن أبي أسيد الساعدي قال: بينا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاء رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما. رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

والأحاديث في هذا كثيرة قد أفردها العلماء بالتصنيف، وذكر البخاري منها شطراً صالحًا في كتاب الأدب المفرد.



الشَّرح

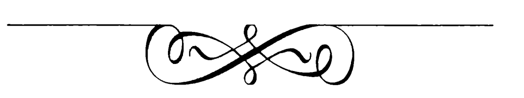
قوله: (**وعن أبي أسيد الساعدي قال: بينا نحن جلوس...**)، وهذا الحديث أيضًا لم يصح من حيث السند؛ فإن في سنده عصمة بن محمد، قال فيه العلماء: إنه متروك، وهذا من أشد أوصاف الجَرْح، أن يقال: كذَّاب أو وضَّاع أو متروك، متروك أي لا يُهتَم بما يروي من أحاديث؛ لأنه ليس ثقة، لكن معنىٰ الحديث سليم، وهو يتحدث عن حقوق الآباء، وهو إقرار لما وردَ في الكتاب والسُّنَّة، فحقهما بعد موتهما الاستغفار، وإنفاذ العهد، وصلة الرحم، وإكرام صديقهما، كلها حقوق، فلا شك أن معنىٰ الحديث مما تؤيِّده النصوص الأخرىٰ، لكن ينظر طالب العلم في كل أثر وحديث إلىٰ السند؛ لأنك ستنسب الكلام إلىٰ رسول الله، فيجب عليه أن يحتاط، فالعلماء وضعوا هذه القواعد، فلا ينبغي لطالب العلم أن يقول: قال رسول الله، إلا إذا صحَّ السند.

لكن العلماء لهم مخرج في الضعيفة، فيقولون: إذا قال شخص يُروَىٰ، أو رُوِيَ، فإنه قد خرج من العهدة؛ لأن كلمة يُروَىٰ هذه تُسمَّىٰ صيغة التمريض،

أي أنه لم يصح، فإذا قال يُروَىٰ، أو رُوِيَ، فإن الإنسان الذي يعرف المصطلح، يعرف الحُكم، لكن الذي لا يعرف المصطلح، لا يعرف الحُكم، فينبغي أن يُنبَّه علىٰ ما لم يصح، وما صحَّ من الآيات والأحاديث، يكفي المسلم في دينه، ولله الحمد، وإنما هذه كلها تؤكِّد معاني ثابتة، ولا تضيف معنىٰ جديدًا، فحقوق الوالدين في حياتهما، وبعد موتهما، حقوق تتعلَّق بالبِر، والاستغفار، والدعاء، وإكرام الصديق، وغير ذلك من أعمال البر، بعض حقوق الآباء علىٰ أبنائهم بعد موتهم.

قوله: (وذكر البخاري منها شطرًا صالحًا في كتاب الأدب المفرد)، قلنا: إن هذا الكتاب (الأدب المفرد) للبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ استوعب الحقوق الاجتماعية كلها -تقريبًا-، واستفتحه بأعظم حق اجتماعي، وهو حق الأبوين، وقد استرسل فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأوْرد أكثر من تسعين حديثًا وأثرًا بالسند، ولكن شرطه فيه ليس كشرطه في الصحيح، فقد يُورِد الحديث الضعيف، فاستفتحه بحديث صحيح، وهو حديث ابن مسعود السابق الذي: (قلت يا رسول الله أي الأعمال خير...)، ثم ثَنَّىٰ بهذا الحديث الموقوف، لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أوْرده مرفوعًا، بل أورده موقوفًا علىٰ عبد الله بن عمر؛ لأن الحديث وردَ من طريقين، ومداره علىٰ نفس الراوي الضعيف، لكن الراوي الذي بعده رفَعَه إلىٰ النبي، والراوي الثاني أوقفه علىٰ الصحابي.

فالبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجَّح الموقوف، وكأنه قال: هذا من كلام الصحابي؛ لأن الموقوف كلام الصحابي، فقال: والموقوف أصح، أصح نسبةً لا سندًا؛ لأن مدار السند كله في الحقيقة علىٰ هذا الرجل المجهول عند المحدِّثين.



قال المؤلف رحمه الله:

قال: وقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قال ابن كثير: يقول الله تعالىٰ لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم الفاسدة وتسويل الشيطان لهم (تعالوا) أي هلموا وأقبلوا، (أتل ما حرم ربكم عليكم) أي أقصص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقًا لا تخرصًا ولا ظنًا بل وحي منه وأمر من عنده، (ألا تشركوا به شيئًا) قال: وكأن في الكلام محذوفًا دل عليه السياق وتقديره وصاكم (أن لا تشركوا به شيئًا) ولهذا قال في آخر الآية (ذلكم وصاكم به)



الشرح

هذه الآيات الثلاث آيات عظيمة، وردَت في سورة عظيمة، وهي سورة الأنعام، وهذه السورة تتحدث عن قضية العقيدة، وتتحدث عن قضايا الانحراف في المجتمع الجاهلي، وهذه الآيات الثلاث قد تقدَّمها عرض لواقع المجتمع الجاهلي، الذي شرَّع من دون الله ﷻ، فإن المجتمع الجاهلي في

مكة كان يُشرِّع تشريعات من عند نفسه، فالله ﷻ ذكر تشريعاته، ثم تساءل مَن هو الذي شرَّع هذا؟، ثم قال أنا أخبركم بالحق، فأول ما ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦]، ثم قال -تعالىٰ- بعد ذلك: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ...﴾ [الأنعام:١٣٨]، ثم قال في الآية بعدها: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ...﴾ [الأنعام:١٣٩]، إلىٰ آخر ما ذكروا، فهذا ذكر تشريعهم، ثم قال تعالىٰ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام:١٤٣]، ثم استمر.

هذا كله نقد للمجتمع الجاهلي الذي شرَّع لنفسه ما لم يأذن به الله؛ فإن الله ﷻ قد جعل لكل المخلوقات مقصدًا من خلقه لهم، وجعل لكل مخلوق نظامًا، فخلق الشمس لمقصد، وهو أن تُعطِي الناس الضوءَ والحرارةَ، وأن تضبط لهم نهارهم من ليلهم، وكذلك القمر خلقه لمقصد، وجعل له نظامًا، فالكون كله جعل الله له مقصدًا ونظامًا، فالمخلوقات الأخرىٰ تسير علىٰ نظامها سيرًا قسريًّا إجباريًّا بدون اختيارها، إلا الإنسان، فالله قد أكرمه، قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، فقد كرَّمك وخيَّرك بين أن تعمل بالنظام الذي أنزله الله لك، أو تخالفه، فإن عملت به، سِرْت مع الكون في طاعة الله، فعشت مطمئن النفس، مرتاح الضمير، وإن اخترت الطريق الثاني، فصادمت الكون الذي يطيع الله، مثل الذي يُقابِل السيل، فمثلًا إذا جاء السيل في وادٍ،

فأراد شخص أن يقابله، لا شك أنه يتمزق، هكذا الذي يقابل طاعة الله، الذي يقابل الكون المطيع لله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، فكل شيء في الوجود يسبِّح بحمد الله، ويعظِّمه، ويطيعه بدون اختياره، فالإنسان الذي أكرمه الله، إذا سار مع الكون، يسعد في الدنيا بسيره مع الكون، ويسعد في الآخرة؛ لأن الذي يسير في طاعة الله، يعيش مطمئن القلب، لكن إن صادم الكون الذي يطيع الله، فإنه يشقَىٰ في الدنيا قبل الآخرة، فيتمزق قلبه، وتضطرب نفسه، وتقلق مشاعره، ويتمزق داخله، لا ظاهره، فالتمزُّق يعيش في داخل الإنسان الذي يقابل طاعة الله، والله أنزل للإنسان نظامًا، هذا حرام، وهذا حلال، وهذا واجب، وهذا ممنوع، وهذا مُباح، وهذا مكروه، وهذا مستحب، ثم مكَّنَه وأَقْدَره علىٰ أن يطبِّق النظام الذي هو طاعة الله، فيسير مع الكون في طاعة الله.

والذي يطَّلع علىٰ أحوال الذين يصادمون الكون، يرىٰ عجبًا، يعيشون بقلوب ممزقة؛ فإن مجتمع الكفار مجتمع ظاهره الرخاء والنعيم، ولكن في داخله الجحيم، باعترافهم هم.

فالجاهلية الأولىٰ شرعوا لأنفسهم، وليس هذا حقًّا لهم؛ لأن التشريع حق لله، ولا يملك بشر أن يجعل للإنسان تشريعًا، فعندما شرَّعت الجاهلية الأولىٰ لأنفسهم؛ ضلُّوا، وانحرفوا، وأشركوا، أشركوا الهَوَىٰ، أو أشركوا بعضهم بعضًا، فاتَّخذوا بعضهم أربابًا من دون الله، وشرَّعوا لهم تشريعات، فهذه السورة تكشف هذا الجانب، وتبين بأن الجاهلية قد انحرفت، فشرَّعت لأنفسها تشريعات، ما أنزل الله بها من سلطان.

فهذا الإنسان لا يُصلِحه إلا تشريع خالقه ﷻ، إن أراد الصلاح في الدنيا، وأراد السعادة في الآخرة، فلا يصل إليها إلا عن طريق تشريع الله، فالله ﷻ بعد أن وبَّخهم علىٰ أن شرَّعوا، وتساءل من الذي يُشرِّع قال: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد،

﴿تَعَالَوۡاْ﴾، (تعالوا) في اللغة يقولها مَن كان في القمة، ينادي مَن هو في القاع، ومَن هو أسفل، ومعنىٰ تعالوا: ارتفعوا؛ لأنكم أنتم في مكان هابط، في سفح الجاهلية، فارتفعوا إلىٰ قمة الإسلام، تعالوا أتلُ عليكم: أخبركم، لستم أنتم الذين تشرِّعون، بل التشريع حق لله.

﴿أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأنعام:١٥١]، فالتحريم حق الله، والتحليل حق الله، والنبي يقول لهم بأمر الله: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ أي ارتفعوا، فإن تعالوا في اللغة العربية أصلها مشتق من طلب العلو، إذا كان الإنسان في وادٍ نازل، أو في مكان منخفض، وأراد شخص أن يطلب منه أن يرتفع، يقول: تعال ارتفع، لكن أصبح الاستعمال يُطلَق علىٰ الإقبال، هَلُمَّ أقبل، لكن يبقىٰ المعنىٰ الثاني مُصاحِبًا للكلمة، فالكلمة وتدل علىٰ الإقبال والارتفاع، فاستعمال الناس اليوم تعال أي أقبل، لكن المعنىٰ لا زالت الكلمة تؤدي معنىٰ غير معنىٰ أقبل، الإقبال أي توجه إلي بوجهك، هذا اسمه إقبال، و أدْبَر أي ذهب، وخلَّف الشخص وراء ظهره، اسمه إدبار، لكن تعالوا أجمل في المعنىٰ من أقبل، في هذا الموطن، وهكذا المؤمن فإنه في القمة وفي العلو، وما عداه فإنه في الهبوط وفي السفول، فإن عزة الإنسان، وكرامة الإنسان، ومعنىٰ الإنسانية، لا يتحقق إلا للمسلم، أما ما سوىٰ الإنسان المسلم، فهو إنسان هابط في اعتقاده، وفي أخلاقه، وفي معاملاته، وفي جميع شؤون حياته، وإن عاش في الدنيا في الظاهر أنه مرتفع، لكن الحقيقة أنه يعيش منخفضًا، يعيش نازلًا، فالآية القرآنية تقول: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾، أي ارتفعوا.

﴿أَتۡلُ﴾، وأتل تأتي بمعنيين، هنا بمعنىٰ أقرأ، و قد تأتي بمعنىٰ الاتباع، والسير وراء الشيء، فالمعنىٰ هنا أتل أي أقرأ، وأُسمعكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأنعام:١٥١]، إذًا التحريم جاء من الرب الذي هم آمنوا به، وليس من

أحد من البشر، فتعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، فإذًا التحريم والتحليل حق الله ﷻ، فلهذا يُدعَوْن لتلاوة المحرَّمات عليهم، وهذه الآية اشتملت، على أربعة حقوق:

حق الله، وحق للفرد، وحقوق للأسرة، وحقوق تتعلق بالمجتمع.

أولها حق الله: وهو عبادة الله ﷻ، وعدم الشرك بها.

والحق الثاني: يتعلق بالفرد، وهو احترامه، وعدم إيذائه.

والحق الثالث: يتعلق بالأبوين، وهو احترامهما، وأداء حقهما، وكذا حقوق الزوجين، وحقوق العيال.

والحق الرابع: يتعلق بالمجتمع، وهو اجتناب الفواحش، وعدم ظلم الفقراء والضعفاء، والوفاء بالحقوق، والعدل في الأحكام، وكذلك الوفاء بالعهود.

فهذه حقوق أربعة: حق الله، وحق الأفراد، وحق الأُسَر، وحق المجتمع. فالآيات الثلاث اشتملت على عشرة حقوق مُوزَّعة على هذه الأصناف.

فهذه السورة عظيمة، وكل كلام الله عظيم، لكن هذه السورة تتحدث عن قضايا العقيدة، وعن انحرافات المشركين في المجتمع الجاهلي الأول، وتعالج هذا الانحراف، وتبين سبيل الله ﷻ، فهي آيات ثلاث اشتملت على عشر من الوصايا، قد اهتمت بها جميع الديانات، بل وردَت في كتاب التوراة، الذي أُنزِل على موسى في أوله، فقد اشتملت على هذه الوصايا العشر، الوصايا التي تتحدث عن حق الفرد، وعن حق الأسرة، وعن حق المجتمع، فإن دين الله ﷻ يشتمل على حقوق عدة، حقه ﷻ في مقدَّم الحقوق ﷻ، ثم يأتي بعد ذلك حقوق خلقه، أفرادًا وجماعات، ويبدأ الحق الأول من الأسرة التي ينتمي إليها الإنسان، ثم ينتهي إلى المجتمع الذي تعتبر الأسرة إحدى حلقاته.

هـذه الآيـات الـثلاث اشـتملت علىٰ عشـر مـن الوصـايا، ابتـدأت في أولهـا بـالنهي عــن الشــرك بــالله ﷻ، وذلــك أمــرٌ بعبادتــه وحــده ﷻ، وثنَّــت بحــق الوالـدين، أي حـق الأسـرة، وهـو الحـق الأول في الأسـرة حقـوق الأبـوين، ثـم ثلَّثت بحقوق الأبناء، وهو النهي عن قتلهم من أجل الفقـر والحاجـة، ثـم رابعًـا النهـي عـن الفـواحش، وهـو مـن حقـوق المجتمـع؛ فـإن الفاحشـة لا تنتشـر في مجتمـع، إلا وقـد أَذِن الله بهلاكـه ودمـاره، ثـم جـاء بعـد ذلـك ذكـر حـق الـنفس البشرية، التي لا يجوز أن تُقتَل، ولا يجوز أن تُؤذَىٰ، ثم بعد ذلك ذكـر ﷻ حـق الضعفاء، والمُتمثِّل في نموذج من الضعفاء، وهم الأيتام، ثـم ذكـر الله ﷻ بعـد ذلـك الأمـر بالوفـاء في الكَيْـل والميزان، ثـم ذكـر الحـق في القـول، ثـم بعـد ذلـك أمـر ﷻ بالوفـاء بـالعهود، وهـي العقـود التـي تُبـرِم الفـرد وفـرد آخـر، أو مـع المجتمـع ومجتمـع آخـر، وأخيـرًا يوصـي ربنـا ﷻ بالاسـتقامة علىٰ سـبيله، والنهـي عـن التفرُّق في دين الله، فما أعظمها من وصايا! وما أجلَّها من آيات كريمات!

هذه الآيات الكريمة، والوصايا العظيمة، ذُكِر بين يَدَيْها نـداء، وهـو قولـه تعـالىٰ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾، وقـد وردَ الأمـر لنبينـا ﷺ في القـرآن الكـريم بقولـه - تعالىٰ- له: (قل)، أكثر من مائتين وأربعين مرة، وهذا يدلنا علىٰ أن هـذا الكـلام ليس من كلام محمد، بل كلام رب محمد، وخالقه ﷻ، يأمر عبده ومُصطفاه، وإلا فلو كان من كلامه، لا يقول لنفسه (قل)، وهذا من بعض الأدلـة التـي تـدل علىٰ أن هذا الكلام هو كلام الله، فالخالق والمالك يأمر عبده أن يقول.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾، سبق أن قلنـا أن (تعـالوا) لهـا معنيـان: المعنىٰ الاشتقاقي، والمعنىٰ الاستعمالي، الاشتقاقي مشتقة مـن العلـو، فكـأن النبـي في القمة، وهؤلاء في السَفْح، أو في القاع، فالذي في القمة يقول لِمَن هـو أسـفل "تعـال"، أي ارتفع، فالرسول يقول: أنا في قمـة الحيـاة الإنسـانية، وأنتم في سَفْحها هـابطون، وهو منحدر الجاهلية، فارتفعوا حتىٰ أُخبركم، وأُزكِّيكم، وأُعلِّمكم.

وأصبحت في المعنىٰ الاستعمالي تُطلَق ويُراد بها الإقبال، و هنا في الآية يُلحَظ فيه الارتفاع والإقبال؛ لأن النبي وكل مؤمن، يعيشون في قمة الحياة الإنسانية، والذين تخلُّوا عن هذا الدين، يعيشون في السَفْح الهابط، وإن كانوا يتمتعون بمتع الدنيا؛ لأن المادة ليست مقياسًا في حياة الإنسان، المقياس هو الجانب الإنساني الأخلاقي، والجانب الاعتقادي، فالذي يعيش في الحياة كالحيوان، ولو مَلَك الدنيا بكاملها، لا قيمة له، لكن العبرة بمَن يُدرِك المقصد من وجوده، فهذا الإدراك والفهم يرفع الإنسان، ويباركه، ويزكِّيه، ويجعله إنسانًا آخر، لكن الذي يتخلَّىٰ عن هذا الدين، يعيش حياة بهيمية.

﴿أَتْلُ﴾، التلاوة تأتي في اللغة بمعنيين:

المعنىٰ الأول: الاتباع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ١-٢]، اتَّبعها، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٢٧]، أي اتَّبِع، لكن هنا ليس بهذا المعنىٰ، هنا بمعنىٰ القراءة، أي أقرأ عليكم لتسمعوا.

ثم قال: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأنعام:١٥١]، (ما) هنا اختلف فيها أصحاب اللغة علىٰ ثلاثة أقوال: هل هي موصولة، أو مصدرية، أو استفهامية؟ علىٰ هذا الترتيب، أقواها أنها موصولة، أي أتلُ (الذي)، و لا تأتي هنا مصدرية؛ لأن (ما) والفعل بعدها يُسبَك منه مصدر، أي تحريم، أتل (تحريم) ربكم، قال المفسرون: لا يُتلَىٰ التحريم، وإنما يُتلَىٰ المُحرَّم؛ لأن التحريم فعل، والمَتلُو أشياء محرَّمة، أقوال أو أفعال، فأصحَّها أن تكون (ما) موصولة، والعائد محذوف، أتل ما حرَّمه؛ لأن الموصول لابد له من عائد يعود إليه.

﴿أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ﴾ [الأنعام:١٥١]، أي ربكم الذي خلقكم، هو الذي يحرِّم، ولستم أنتم.

﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، و(عليكم) هنا اختلف فيها النحاة، هل تعود على أتل، أو تعود على حرَّم؛ لأن هنا فعلين: أتل، وحرَّم، فلابد لكل فعل من مفعول، فالكوفيون يعيدونه إلى الأول -هذه قاعدتهم-، أي أنَّ إن أتى بعد جملة مفعول، يكون -المفعول- لأول الأفعال الواردة فيها، والبصريون يعيدون إلى الأخير، فعلى قول الكوفيين، يكون المتلُو التحريم لجميع الناس، وعلى مذهب البصريين، يكون التحريم مخصوصًا بـ"عليكم أنتم"، ويكون المعنى كالآتي: أتل ما حُرِّم عليكم، فكأن التحريم خاص بهم، لكن المفسِّرين قالوا: إن المعنى: أتل عليكم ما حرَّم ربكم، أي عليكم، وعلى غيركم، وهذه القاعدة لها علاقة في فهم الآيات، أو الأحاديث.

ثم قال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:١٥١]، هناك أشياء جاءت في الآية ليست محرَّمة، ولكن لما كانت هذه الآيات، جاءت تعقِّب على أفعال المشركين، الذين شرَّعوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله، فقد وردَ ذكر التحريم قبل هذه الآية في عشر آيات، ثم ناسب أن يبدأ الوصايا بالتحريم، يقول هذا التحريم ليس حقًّا لكم، بل هو حق الله، فهو الذي يحرِّم، وهو الذي يحلِّل، وتأمل هذه الآيات:

أولها: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١١٩]، فالذي حرَّم هو الله -تعالى-، وفصَّل لكم ما حرَّم عليكم.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام:١٣٨]، والذين حرَّموها هم المشركون.

والآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام:١٣٩]، فهم مستمرون في التحريم، كأن هذا حق لهم، وفي الحقيقة ليس حقًّا لهم.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٤٠]، هم حرَّموا.

الآية الخامسة: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣].

الآية السادسة: قال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٤].

والآية السابعة: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤٥].

والآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا﴾ [الأنعام:١٤٦]، هنا يبين الله أنه هو الذي يحرِّم سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ [الأنعام:١٥٠].

فارتباط الآية بما قبلها وثيق، وهذا يُسمَّىٰ التفسير الموضوعي للقرآن، يعني تُجمَع الآيات التي تتعلق بالمُفرَدة، ثم يُستخلَص المعنىٰ، فهنا ناسب في أول ذكر الوصايا، أن ينزع التحريم من أيديهم، لا يملكون أن يحرِّموا

ولا يحلِّلوا، ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، فالتحريم خاص بالله ﷻ، فالذي يجعل من نفسه في مرتبة التشريع، فقد نازع الله في أمره، فالله الذي خلق، هو الذي يجعل النظام الذي يسير عليه المخلوق، وإذا أراد الإنسان أن يشرِّع للإنسان، فعليه أن يخلق الإنسان، أما إذا كان الله هو الذي خلق -وكانت قريش تعترف بأنه ربها-، فكيف يُعطَىٰ الحق في التشريع لغيره ﷻ؟ هذا تناقض، فالذي يُقِرُّ بالربوبية له وحده ﷻ، فعليه أن يُقِرَّ بالإلوهية كذلك، التي هي الطاعة، ولا يملك البشر أن يجعلوا من أنفسهم مُشرِّعين مُطاعِين فيما يأمرون، ولا يُعصَوْن فيما ينهُون.

فالتشريع حق الله -تعالىٰ-، فصلاح الإنسان أن يسير وفق تشريع الله، وفساده أن ينحرف عن تشريع الله ﷻ، فأول ما يُذكَر في هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، وهنا لابد من تقدير محذوف؛ لأن الآية لم تَسِقْ التحريم فقط، بل ساقت تحريمات وأوامر، ساقت خمسة أشياء محرَّمة، وأربعة أوامر، وتحذيرًا أخيرًا، فليس كل ما ذكر بعد التحريم محرَّمًا، وهذا التقدير يُعرَف من السياق، كما قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: "وكأن في الكلام محذوفًا دلَّ عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم (ألا تشركوا به شيئًا)" ا.هـ. وبهذا التقدير يستقيم المعنىٰ المراد، وينتظم في جميع الوصايا التي في هذه الآيات الكريمات، إذ كل واحدة مُذيلة بقوله تعالىٰ: «ذلكم وصاكم به...».

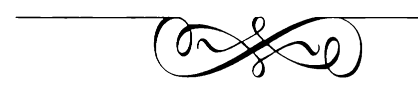
وصَّاكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، الشرك من الإنسان مَذلَّة له؛ لأنه يُشرِك الذي يستحق أن يخضع له، وأن يَذِل له، وأن يعطيه قلبه، وأن يعطيه فكره، وأن يعطيه مشاعره، فالخلق كلهم محتاجون إلىٰ الله ﷻ، فلا يصلح أن يَذِل إلا للمالك، وأن يخضع إلا للمالك، وأن يعطي قلبه إلا للمالك، والمالك هو الله ﷻ، ربهم

الذي خلقهم، فالشرك به مذلة للإنسان، والله لا يرضىٰ له المذلة؛ لأنه قد كرمه كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، فهو ﷻ لم يجعل لأحد من البشر سلطة علىٰ الآخر، إلا في حدود طاعة الله ﷻ، أما خارجها فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فهذا تكريم من الله ﷻ، وقد أسجد الله للإنسان الملائكة، فلا ينبغي أن يسجد لغيره ﷻ.

فالتشريع لله ﷻ وأول ما شرَّع تحريم الشرك، فلا تشركوا به ﷻ، ﴿شَيْـًٔا﴾، "شيئًا" هنا نكرة في سياق النهي، فيشمل كل شيء، سواء كان جمادًا أو إنسانًا، أو حيوانًا، أو نباتًا، أو ملائكة، فأول تحريم، وأول وصاية من الله ﷻ، النهي عن الشرك، والنهي عن الشيء أَمْرٌ بضدِّه، وهذا مراد المؤلِّف من الآيات، فأَمَرَ الله الإنسان بأن لا يشرك به شيئًا، بأن يوحِّده ﷻ، فإن قريشًا كانت تعبد الله، بل كانت تعبد الله وتعبد معه غيره، فكانت قريش واقعة في الشرك، والله أمرهم بأن يوحِّدوه، فالفعل كله لله، الطاعة كلها لله، الحب كله لله، الخوف كله لله، التوكل كله لله، فإن صرف الإنسان بعضها لغير الله، فقد أشرك، والحاصل من قريش، أنها كانت تطوف وتسعىٰ، وكانت تحج، وتقف في مزدلفة وفي عرفة، كانت تعرف الله، وتعبد الله، بل الإسلام أقرَّ بعض أعمال الجاهلية، فإن الجاهلية إذا قُتِل منهم شخص في حي من الأحياء، بدون بيِّنة دالة علىٰ قاتله، كانوا يُدعَوْن إلىٰ أيمان القسامة، أي يَقْسِم خمسون من أولياء هذا المقتول خمسين يمينًا، علىٰ إدِّعائهم دم قتيلهم علىٰ قوم أو قبيلة، أما المـُدَّعَىٰ عليهم بأن القاتل منهم، فيقْسِمون أيضًا خمسين يمينًا، علىٰ أنهم براءُ مما نُسِب إليهم، فلا يكون عليهم شيء حينئذٍ، ولما جاء الإسلام أقرَّها، فكانوا يقْسِمون خمسين يمينًا بالله ﷻ، كما ثبت في البخاري، في كتاب الدِّيَّات، باب القسامة، من حديث سهل بن أبي حثمة، كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، فأقرَّ الإسلام

القسامة، وهذا يدل علىٰ أن قريشًا كانت تعرف الله، وتعبد الله، لكن كانت تشرك مع الله غيره، فالآية نهت عن الشرك، والنهي عن الشرك أمْرٌ بالعبادة، وهذا هو المقصود من إيراد الآية في هذا الموضوع.

ثم وردَ بعد النهي أمر، وهو بر الوالدين، وصَّاكم بأن تحسنوا إلىٰ الوالدين إحسانًا؛ لأن (إحسانًا) مصدر مؤكد لفاعل محذوف تقديره: وأحسنوا، وكما قلنا إن الأبوين هما السبب في وجود الإنسان، فحقهما علىٰ أبنائهما عظيم، فإن الله -تعالىٰ- قد قَرَن حقهما بحقه في كثير من الآيات، ولكن الإنسان إذا شبَّ وكَبُر، اتجه إلىٰ مستقبله، فينسىٰ الماضي، فينسىٰ أصله، وعلىٰ الإنسان مسؤوليات تتعلق بمَن كان سببًا في وجوده، وهما والداه، فيتذكر رعاية الأبوين له في الصغر، وكيف كانا يرعيانه، ويصرفان جهدهما له! ويتذكر الأم -خاصةً الأم-، وما لاقته من المشقة، والعناء، والوَهْن في حمله وتربيته، والعاقُّ هو الذي لا يبر أبويه، وينسىٰ حقهما، ويتجه إلىٰ أولاده -كما سبق-.



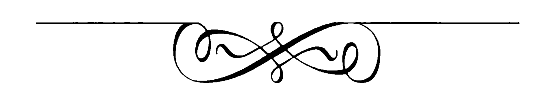
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: ابتدأ تعالىٰ هذه الآيات المحكمات بتحريم الشرك والنهي عنه، فحرم علينا أن نشرك به شيئًا، فشمل ذلك كل مشرك به، وكل مشرك فيه من أنواع العبادة، فإن شيئًا من النكرات فيعم جميع الأشياء، وما أباح تعالىٰ لعباده أن يشركوا به شيئًا؛ فإن ذلك أظلم الظلم وأقبح القبيح، ولفظ الشرك يدل علىٰ أن المشركين كانوا يعبدون الله ولكن يشركون به غيره من الأوثان والصالحين والأصنام، فكانت الدعوة واقعة علىٰ ترك عبادة ما سوىٰ الله وإفراد الله بالعبادة، وكانت لا إله إلا الله متضمنة لهذا المعنىٰ، فدعاهم النبي ﷺ إلىٰ الإقرار بها نطقًا وعملاً واعتقاداً؛ ولهذا إذا سُئلوا عما يقول لهم قالوا: يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم، كما قاله أبو سفيان.



الشَّرْح

في هذا المقطع يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ المعنىٰ السابق، وهو أن قريشًا كانت تعبد الله، وتعبد غيره، وأنهم كانوا يعرفون ماذا يُدعَوْن إليه، كانوا يُدعَوْن إلىٰ ألا يُشركوا بالله شيئًا، فهم يعلمون المقصد من الدعوة، كما قال أبو سفيان، وهو في حديث هرقل الطويل المشهور، رواه الإمام البخاري في صحيحه، في أول كتاب الوحي، وقد مرَّ هذا الحديث، فقد ذكر لهرقل عندما قال: ماذا يأمركم به؟ قال: يقول اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، فهم كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه غيره من الأصنام والأوثان ونحو ذلك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولـه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١] قـال القرطبـي: الإحسـان إلـىٰ الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهما، وامتثال أمرهما وإزالة الرق عنهما وترك السلطنة عليهما و (إحسانا) نُصِب علىٰ المصدرية وناصبه فعل مضمر من لفظه تقديره وأحسنوا بالوالدين إحسانًا.

وقولـــــه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] الإملاق: الفقر، أي لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر فإني رازقكم وإياهم، وكان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر، ذكره القرطبي.

الشرح

قولـه تعـالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]، هذه عادة كانت في الجاهلية، وقد كان للعرب في الجاهلية ثلاث صور حيال أولادهم:

الصورة الأولىٰ: أن المشرك الجاهلي يقتل ولده، إذا كان فقيرًا؛ خشيةَ العَيْلَة والفقر.

الصورة الثانية: إذا كان الأب غنيًّا، ثم رُزِق بأولاد، وخَشِيَ أن تستنزف كثرتُهم ثرواتَه، قتل بعضهم.

الصورة الثالثة: خوف العار، وهذا خاص بالبنات؛ فإن في الجاهلية غاراتٍ تحدث بين القبائل، ولم يكن هناك نظام يحكمهم، ولا دولة ترعاهم، وكانت كل قبيلة تعتمد علىٰ قوتها، وربما تَغِير علىٰ القبيلة الأخرىٰ، ما هناك أنظمة تحكمهم، فكان إذا أغارت قبيلة علىٰ قبيلة، وأخذوا النساء، يبقىٰ العار علىٰ

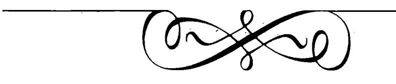
آباء البنات حتىٰ يموتوا، وكانت عندهم حساسية شديدة في قضية العِرْض، فيقتل بناته؛ خوفًا من وقوع الأسر، أو وقوع الخطف، أو السرقة، من القبيلة الأخرىٰ.

قال -تعالىٰ- هنا في الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام:١٥١]، (من) هنا سببية، يعني بسبب إملاق قائم موجود، أي: لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود القائم، و في سورة الإسراء قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء:٣١]، هنا قال: ﴿نَّرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]، وهناك قال: ﴿نَّرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء:٣١]، فأنت أيها الغني صاحب الثروة، الذي أعطاك الله المال، لا تقتل ولدك خشيةَ الفقر، فنحن نرزقه إذا وُلِدَ كما رزقناك، فقدَّم ذكر رزق الأولاد هناك؛ لأن الخوف منهم، ففعل الجاهلية هنا، إما من فقر موجود، أو من خشية فقر غير موجود، والله تكفَّل بأنه يرزق الجميع؛ كما مرَّ في قول إبراهيم في قريش: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ [البقرة:١٢٦]، فدعا إبراهيم لِمَن آمن بالرزق، قال ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة:١٢٦]، فليس في الوجود مَن يرزق غير الله، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ [البقرة:١٢٦].

وبهذا نعرف أن الرزق بيد الرزاق ﷻ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٨]، فلا ينبغي للإنسان أن يعصي الله بسبب الرزق، ويظن أن الله سيتركه ولا يرزقه، فإن الله ﷻ يرزق الإنسان، ويرزق الحيوان، ويرزق الطيور، ويرزق الحشرات، ويرزق الديدان، فهو الذي يرزق ﷻ كل هؤلاء من هذا التراب، ومن هذا الماء، وهذا من عظمة الخالق ﷻ، فجميع الرزق يخرج من التراب، فالأحياء من التراب، جسم الإنسان من التراب، فإنه تغذَّىٰ من النباتات، والنباتات من التراب، وتغذَّىٰ من اللحوم، واللحوم من التراب

والماء، وكل هذه الأحياء والنباتات عبارة عن ماء مع تراب، وإنما تختلف الأنواع باختلاف البذرات، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:٢٢].

فالرزق بيد الله ﷻ، هو الذي يرزق، وهذه كلها أسباب، والإنسان قد يبذل الأسباب، ولا تتحقق النتائج، بل نرىٰ في واقع الناس أن الغنىٰ يقع في أيدي أُناس ربما يكونون -أو كثير منهم- من أغبىٰ البشر، لو قارنَّا الأثرياء، وجلسنا معهم، وسمعنا أسلوب تفكيرهم، نعجب كيف أصبحوا أصحاب ثروة! ونرىٰ كثيرًا من الأذكياء، يعيش فقيرًا طوال حياته، مع أن الذكي يحسب الأموال بالمليمترات، ولا يتصرف إلا بحساب دقيق، لكن الرزق ليس بقوة العقل، الله الذي يرزق، والرزق بيد الخالق سبحانه وتعالى، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ ...﴾ [الأنعام:١٥١] ضمير المتكلم، جَمَعَه؛ لتعظيم نفسه، وكذلك في نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:٩]، ونحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾﴾ [القدر:١]، ومثل هذا الأسلوب يأتي في ذكر نعوت الله -تعالىٰ- الجليلة، وأفعاله العظيمة، وآلائه الجسيمة...، لكن إذا كان المقام في سياق ذِكْر أفعال العبد، التي يتعبَّده الله بها، فإن الضمير والحالة هذه يفرد؛ لأن العبد هنا يوحِّد الله وحده، ويعبد الله وحده؛ حتىٰ لا يقع الاشتباه في العبادة، كما في نحو قوله تعالىٰ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١] قال ابن عطية: نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي، وظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء، وفي التفسير المنسوب إلىٰ أبي علي الطبري من الحنفية، وهو تفسير عظيم (ولا تقربوا الفواحش) أي القبائح. وعن ابن عباس والضحاك والسدي أن من الكفار من كان لا يرىٰ بالزنا بأساً إذا كان سراً، وقيل: الظاهر ما بينك وبين الخلق، والباطن ما بينك وبين الله، انتهىٰ.

الشرح

قوله: (وفي الصحيحين عن ابن مسعود...)، هذا الحديث يدل علىٰ فقه ابن مسعود، وهو الذي سأل في الحديث الماضي: (أي العمل أفضل؟ فقال: الصلاة علىٰ وقتها)[1]، وهنا سأل: (أي الذنب أعظم)[2]، فأجابه بهذا الجواب،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: وسَمَّىٰ النبي الصلاة عملًا، برقم: (٧٥٣٤)، وقد سبق تخريجه بلفظ: "أي العمل أحب إلىٰ الله".

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالىٰ: "فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون"، برقم: (٤٤٧٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، برقم: (٨٦)، (١/ ٩٠).

وهذا يدل علىٰ أن ابن مسعود من فقهاء الصحابة، لذا فهو يسأل عن الأعمال العظيمة، سواء كانت فاضلة، أو كانت سيئة، ولو لم يكن في الصحابة أمثال هذا الصحابي الجليل؛ لخفيَت علينا أشياء كثيرة من الدين، لكن هؤلاء الصحابة، قد أكرمهم الله، بأن جعلهم أصحاب رسوله، ووزراءه، وأصهاره، وأنصاره -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

فذكر هنا أن أعظم الذنوب هو الشرك، ثم ذكر بعد الشرك قتل الولد، ثم ذكر (**أن تزاني حليلة جارك**)، والجار له حقوق عظيمة، وقد جاءت الأحاديث عن جماعة من الصحابة في الصحاح، عن النبي أنه قال: (**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتىٰ ظننت أنه سيورثه**)[1]، فحق الجار عظيم؛ لأنه يرافقك، ويراك في دخولك وخروجك، فإذا لم تكن جارًا أمينًا، فإنه تقع الطامة الكبرىٰ، وقد قال الشاعر الجاهلي:

وأغض طرفي حين تبدو جارتي   حتىٰ يواري جارتي مأواها

هذا خلق عجيب من هذا الشاعر الجاهلي، إذا رأىٰ زوجة جاره، أو ابنته، خرجت، يغض طرفه، ولم يُتبِعها النظر، ونحن أَوْلَىٰ بهذا الخلق الجميل؛ فإن هذا خلقٌ حثَّت عليه الشرائع، وحثَّ عليه الإسلام، فالزنَىٰ بحليلة الجار، من أكبر الذنوب عند الله ﷻ، لذا شدَّدت فيه الأحاديث.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ...﴾ [الأنعام:١٥١]، هذا النهي هو الوصية الرابعة من وصايا الآية، وهو يتعلق بشهوة الإنسان الجنسية، وهي من أعظم الشهوات، وأخطرها، وأشدها في الإنسان، ولهذا فإن الإسلام أحاط هذه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، برقم: (٦٠١٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار، برقم: (٢٦٢٤)، (٤/ ٢٠٢٥).

الشهوة بسياج منيع، فسدَّ منافذ الزنا، وحرَّم النظر، الذي هو من وسائل الوقوع في المحرمات، قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، فإن النظرة يعقبها نظرات، ثم تعقبها الفاحشة، فسدَّ ربنا ﷻ هذا المنفذ، ثم أمر بالحجاب، كما قال -تعالىٰ- لنبيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩]؛ لأن الجمال في الوجه، فإذا كُشِفَ الوجه، وكثرت الوجوه المكشوفة من النساء، كثرت النظرات، ربما يتبعها اللقاءات، ثم يقع المحذور المحرَّم.

وكذلك نهىٰ الرسول عن الخَلْوة، قال النبي: (لا يخلون رجل بامرأة، إلا ومعها ذو محرم)[1]، وحتىٰ نهىٰ عن صوت المرأة الرقيق الليِّن، كما قال ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، يعني لا تتحدث بأسلوب رقيق مع الرجال، إذا احتاجت إلىٰ الكلام.

كذلك أمر الله ألا يظهر منها صوت الحُلِي؛ لأن بعض الناس قد يفتنه صوت الحلي، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، فإن النساء في العصور الماضية، كُنَّ يلبسن خلاخل في الأقدام، من الذهب أو الفضة، فكانت المرأة إذا مشت، يُسمَع صوت الخلخال، فبعض النساء تتعمَّد أن تُظهِر صوت الخلخال، وهذا يثير الشهوة في نفوس بعض الناس، فسدَّ الله منافذ الشهوات، وينبغي لمجتمع المسلمين ألا تُفتَح فيه المنافذ؛ لأن الشهوة الجنسية من أعتىٰ الشهوات، ولو فُتِح المجال لها، فإنها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم، برقم: (١٣٤١)، (٢/ ٩٧٨)، وأخرجه البخاري بلفظ "ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم"، كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء. برقم: (١٨٦١).

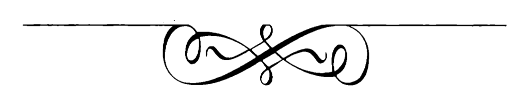
تُدمِّر الفرد، والأسرة، والمجتمع، وينتهي المجتمع علىٰ شر حال، ولذلك أُمِر بالزواج الذي فيه تحقيق هذه الشهوة علىٰ الوجه المشروع.

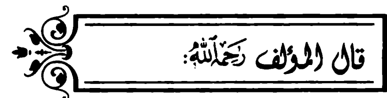
وقد رتَّب الله العقاب الشديد علىٰ هذه المعصية، فأمر بجَلْد الزاني غير المُحصَن -غير المتزوج- مائة جلدة، وأمر برَجْم الزاني المُحصَن -وهو الذي تزوج زواجًا صحيحًا، وَطِئَ فيه-، وهذا كله صيانةً للمجتمع وللفرد، فلو حدث الزنا في مجتمع، فإنه تُدمَّر طاقات الأفراد، وطاقات الأُمة، وتختلط الأنساب، ويعزِف الناس عن الزواج.

كنت قبل عدة سنوات في ألمانيا، فوجدت الصحافة الألمانية تتحدث عن توقع انقراض الألمان؛ لأن الناس لا يُقبِلون علىٰ الزواج، بل يقضون شهواتهم كالحيوانات، والمرأة لا تحب أن تتزوج؛ لأنها لا تريد الحمل والولادة والرضاعة، فإنها لا تعرف في الحياة إلا المتعة الجنسية، وحسبها ذلك، فالزنا إذا فُتِح بابه، فإن النسل البشري ينتهي، والنفس تميل إلىٰ الانطلاق، فإذا كانت النفس ليست مقيدة بقيود الشرع، فإنها تنتهي إلىٰ الدمار، هكذا تشريع الله ﷻ قد حمَىٰ هذه الغريزة، وأمر بأن تُصرَّف بالطرق المشروعة، وحذَّر، ووضع العقوبات الشديدة علىٰ مَن يتعدَّىٰ ويُخالِف، وإن المجتمع الذي ينفلِت، ويصبح الزنا فيه أمرًا ظاهرًا، سرعان ما يُصاب بالأمراض الجنسية الخطيرة، وما نسمعه الآن من الأمراض المعاصرة، التي ابتدأت بالسيلان والزهري، ثم جاء المرض الخطير الآن -مرض الإيدز-، الذي ينتشر في البلدان الغربية، انتشار النار في الهشيم، والآن يُصدَّر إلىٰ بلدان المسلمين بصور شتىٰ، إما عن طريق نساء مُصابات في حملات سياحية، وإما عن طريق بيع الدماء، وإما عن طريق بعض المشروبات، وإما عن طريق السياحة للمسلمين أنفسهم، فإذا سافر الإنسان، ربما يصاب بالمرض، وهو عفيف؛ لأنه مُحاط بالمرض من كل جانب.

فالغرب يسعىٰ الآن إلىٰ تصدير هذا المرض، وكثيرٌ منهم لا يتزوج من بلده، يذهب إلىٰ شرق آسيا، أو البلدان الإسلامية؛ ليتزوج؛ لأنه يعلم أنه لا تكاد تنجو امرأة من هذا المرض المعروف، والزنا هناك قد عمَّ وطمَّ، فإن البنت التي يصل عمرها إلىٰ الثامن عشرة، ولا يُعرَف لها زنا، تُوصَف بأنها معقدة، ومن باب الطُرفة: أُقيم تمثال في أمريكا، وقالوا مَن دخلت من تحته، وهي بنت بِكْر، فإن التمثال يسقط، فدخل من تحته جميع بنات المدارس الثانوية، ولم يسقط، فدلَّ علىٰ أنه ليست هناك عفيفة مُحصَنة، ولكون الزنا شائعًا في غير المسلمين، فإن ما وردَ في إباحة الزواج من الكتابيات مُقيَّد، وليست الإباحة مُطلقة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾، فلابد أن تكون مُحصَنة، ويندُر، بل يستحيل، أن تجد امرأة محصَنة في بلاد الغرب.

فالفاحشة لا تنتشر في قوم، إلا وقد أذن الله بهلاكهم ودمارهم، وما نقرأه من تقارير عن علماء الاجتماع في بلاد الغرب، شيء عجيب، كلهم يَشْكُون من انفلات الشباب، وخطورة الأوضاع، وأن بلدانهم مهددة بالانقراض والدمار؛ لأن شبابهم منهمِكون في الشهوات، فالله حرَّم هذه الشهوة أن تُصرف إلا عن طريق الشرع، الفاحشة اسمها يكفيها قُبحًا وشناعة، هذا الاسم إذا أُطلَق في القرآن والسُّنَّة، يُراد به الزنا، فهذه من المحرمات في الوصايا العشر، التي جاءت بها جميع الرسالات، وهذا هو ما يتعلق بهذه الوصايا من كلام الله سبحانه وتعالى.



وفي الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعًا: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن».



هذا الحديث وردَ في قصة سعد بن عبادة، فعندما نزلت الآية، أن مَن وجد رجلًا مع زوجته، فعليه أن يأتي بأربعة شهداء، قال: يا رسول الله إذا وجدت رجلًا مع أهلي، أنظره حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال: نعم، قال: لا والذي بعثك بالحق، إن كنت، لأعاجله بالسيف، فقال: أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني، ولذلك حرَّم الفواحش، ثم قال: لا أحد أغير من الله.

فالغيرة ينبغي أن تكون وفق شرع الله، بأن تنضبط مع شرع الله، أما التهوُّر، وغلبة الحماس الزائد، لا يجوز إلا في بعض الظروف، والمُلابسات الخطيرة، التي يكون الإنسان فيها؛ لمواجهة الصائل، ومدافعة المُتسلِّط على حريمه.

وقوله في هذا الحديث: (لا أحد أَغْيَر من الله)[1]، يجوز فيه أن تكون (لا) هي النافية للجنس العاملة عمل إن، فتنصب المبتدأ وترفع الخبر، وتكون هي النافية للوحدة، أي التي بمعنى ليس، فترفع المبتدأ وتنصب الخبر، وكلا الإعرابين جائز، في نحو ما جاء في الحديث.

وهذا الحديث وردَ بعدة ألفاظ: (لا أحد أَغْيَر من الله)، و (لا شخص أَغْيَر

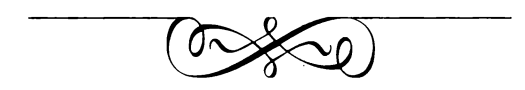
---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب إنما حرم ربي الفواحش، برقم: (٤٦٣٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب غيرة الله وتحريم الفواحش، برقم: (٢٧٦٠)، (٤/ ٢١١٣).

من الله)[١]، و (ولا شيء أَغْيَر من الله)[٢]، وهذه كلها راويات في الصِّحاح، والنبي إنما قال واحدًا منها، والذي يظهر أن رواية (لا أحد) أرجح، وإن كانت راوية (لا شخص) قد لا يلزم منها معنىٰ ممتنع فاسد، وابن حجر[٣] نقل عن ابن بطال قوله: (أجمعت الأمة علىٰ أن الله -تعالىٰ- لا يجوز أن يوصف بأنه شخص؛ لأن التوقف لم يرد به).

ونقل ابن حجر عن ابن بطال قوله: (قال ابن بطال: اختلفت ألفاظ هذا الحديث، فلم يختلف في حديث ابن مسعود أنه بلفظ لا أحد، فظهر أن لفظ شخص جاء موضع أحد، فكأنه من تصرُّف الراوي)[٤].

فهذا الإنسان الذي خلقه الله معصوم الدم، لا يجوز قتله، إلا إذا ارتكب ما يستحق به حكم القتل، فهناك جاء الشرع بإقامة الحد عليه، وقتل النفس البشرية بغير الحق من الكبائر، فكيف لو كانت مؤمنة ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء:٩٣]، هذا جزاء مَن يقتل مؤمنًا متعمدًا، بغير حق شرعي.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي لا شخص أغير من الله، برقم: (٧٤١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللعان، باب وجوب الإحداد في العدة، برقم: (١٤٩٩) (٢/ ١١٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة، برقم: (٥٢٢٢). ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالىٰ وتحريم الفواحش، برقم: (٢٧٦٢)، (٤/ ٢١١٥).

(٣) فتح الباري، كتاب التوحيد باب ٢٠ حديث رقم (٧٤١٦).

(٤) فتح الباري، شرح صحيح البخاري (٦٦٠/ ٦).



وقولـه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١]، قـال ابـن كثير: هذا مما نص تعالىٰ علىٰ النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعـًا: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدىٰ ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

وعن ابن عمرو مرفوعـًا: من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامـًا. رواه البخاري.



قال: (لا يحل دم امرئ مسلم، إلا بإحدىٰ ثلاث، الثَّيِّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المُفارق للجماعة)[1]، واللفظ السابق وردَ بزيادة (يشهد أن لا إله إلا الله)، فالحديث يبين الأشياء التي يُقتَل من أجلها الإنسان، و(الزان) هنا بدون ياء، وهي إحدىٰ روايات مسلم، فإنه وردَ في مسلم روايتان: (الزاني) بالياء، و(الزان) بدون ياء، وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ "المفارق من الدين التارك للجماعة"، كتاب الديات، باب قول الله تعالىٰ: أن النفس بالنفس...، برقم: (٦٨٧٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، برقم (١٦٧٦)، (٣/ ١٣٠٢).

[الرعد:٩]، أصلها المتعالي، وكلاهما جائز، لكن الفصيح أن تأتي بالياء، وهكذا وردَت في البخاري رحمه الله بذكر الياء (الثيب الزاني)، (الثَّيِّب): بمعنىٰ المتزوج، فإذا زنَىٰ فإنه يُقتَل، وهذا حدٌّ عليه.

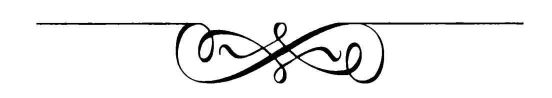
ثم قال: (والنفس بالنفس)، وهنا كلام كثير للعلماء، هل النفس بالنفس علىٰ إطلاقه، بحيث يشمل المسلم والكافر، أو أنه خاص بالمسلم؟ الصحيح أنه خاص بالمسلم؛ لأن الحديث الذي سيأتي يبين أن حكم مَن قتل غير المسلم، العقاب في الآخرة، فـ(النفس بالنفس) مُقيَّد بما إذا قتل إنسانًا مسلمًا، فإنه يُقتَل به.

ثم قال: (التارك لدينه المـُفارق للجماعة)، يعني المـُرتد المـُفارق للجماعة، أي لجماعة المسلمين، فإذا كان المجتمع مسلمًا، وارتدَّ إنسان، فقد فارق الجماعة، في اعتقاده، وفي دينه، وإن كان يعيش بينها، فمَن دخل الدين باختياره -ولا يدخله إلا بإختياره؛ لأنه: (لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (سورة البقرة: ٢٥٦)، وإلا كان منافقًا-، وأراد أن يخرج منه، لا يحقُّ له، بل حكمه حُكم المـُرتد الذي يُقتَل رِدة، فلا يُشفَع له عدم علمه، أو أنه دخل الدين مجاملةً، أو بدون دراسة، أو بدون تأمُّل، بل يُقتَل إن أراد أن يخرج من هذا الدين.

قوله: (عن ابن عمرو)، هو عبد الله بن عمرو بن العاص، وعمرو، وعمر، يفرَّق بينهما بالواو.

فالصحابي الراوي هو عبد الله بن عمرو -بالواو- بن العاص، ومرَّت الأحاديث في رضا الوالدين، أن البخاري في (الأدب المـُفرَد)، أوردَه باسم عبد الله بن عمر، وجاء في المصادر الأخرىٰ ابن عمرو، وبينهما فرق، والصحيح أنه عبد الله بن عمرو، فلعل الخطأ لم يقع من البخاري رحمه الله ؛ لأنه حافظ، ولعله من الرواة الذين نسخوا الكتاب.

وقوله: (مَن قتل مُعاهدًا)، المعاهد أشمل من كلمة الذِّمِّي؛ لأن الذِّمِّي مُعاهِد، وكذلك الذي يدخل في بلاد المسلمين؛ للتجارة أو للعمل، يُعتبَر معاهد، فلا يجوز قتله، ومَن قتله، يشمله العقاب، **(مَن قتل معاهدًا، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليُوجَد من مسيرة أربعين عامًا)**(١)، قال العلماء: لا يُقتَل به شرعًا، المسلم لا يُقتَل بالكافر؛ لأن المسلم لا يكافِئه الكافرُ، وجاء في هذا المعنىٰ حديث: **(المسلمون تتكافَأ دماؤهم، ويسعىٰ بذمَّتهم أدناهم)**(٢)، فهو مُتَوعَّد بجهنم يوم القيامة -نعوذ بالله منها-.



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدًا، برقم: (٣١٦٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سُننه، كتاب الجهاد، باب في السرية ترد علىٰ أهل العسكر، برقم: (٢٧٥١)، والنسائي في سُننه، كتاب القسامة، باب القود بين الأحرار والمماليك في النفس، برقم: (٤٧٣٤)، وابن ماجه في سُننه، كتاب الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، برقم: (٢٦٨٣)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٩٥٩)، (٢/ ٢٦٧)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الجراح، باب فيمَن لا قصاص بينه باختلاف الدينين، برقم: (١٥٩١٠)، (٨/ ٥٣)، والحاكم في المستدرك، كتاب قسم الفيء، برقم: (٢٦٨٠)، (٢/ ١٦٨). وأخرجه أيضًا الطبراني في المعجم الكبير، والدارقطني في سُننه، وأبو يعلىٰ في مسنده، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد الرزاق في المصنف وغيرهم، وأخرج الشيخان آخر الحديث بلفظ: "وذمة المسلمين واحدة يسعىٰ بها أدناهم"، ينظر: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم مَن عاهد ثم غدر، برقم: (٣١٧٩)، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة، برقم: (١٣٧٠)، (٢/ ٩٩٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١]، قال ابن عطية: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلىٰ هذه المحرمات، والوصية الأمر المؤكد المقرر، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ تَرَجٍّ بالإضافة إلينا، أي من سمع هذه الوصية يرجىٰ وقوع أثر العقل بعدها.

قلت: هذا غير صحيح، والصواب أن لعل هنا للتعليل، أي أن الله وصانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه ونعمل بها، كما قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

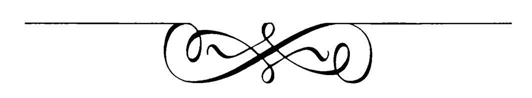
الشرح

قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١]، قال العلماء: إن أول صفة للإنسان، العقل، أي أن يتعقَّل، فإذا عَقِلَ -أي أدرك هذا الإدراك- حرَّك عنده التذكُّر، ثم أخيرًا يتَّقِي ويبتعد، فقالوا: هذا متناسب جدًّا في سياق الآيات الثلاث، فأول شيء العقل، وهو الفَهم، أي فَهم ما أُمِر به، هذا الفَهم ينتج عنه أنه يتذكَّر، أي يتذكَّر المصير في الآخرة، إما الجزاء بالعقاب، وإما بالثواب، فإذا تذكر، دفعه للتقوىٰ، أي للابتعاد عن المحرَّمات، ولفعل المأمورات، فالتعقيب في الآيات الثلاث متناسب غاية التناسب.

قوله: (قلت: هذا غير صحيح)، كلام الشارح تعقيب علىٰ ابن عطية في تفسير "لعل"، وابن عطية له تفسير (المحرر الوجيز)، وهذا التفسير من أحسن التفاسير، لكنه وقع في مناهج المتكلِّمين المؤوِّلين، وابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنه

أحسن من تفسير الزمخشري، الذي قد حشاه بالبدع.(١)

يقول ابن عطيـة رَحِمَهُ اللَّهُ : إن (لعـل) هنـا للترجِّي، فيعقِّـب الشـارح بـأن الأمـر ليس كذلك؛ لأن لعل هنا جاءت للتعليل، ولكنه بمعنىٰ الأمر، أي يـأمركم بـأن تعقلـوا مـا أمـركم الله بـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أمـا علـىٰ قـول ابـن عطيـة فهـو جـارٍ مجـرَىٰ المتكلِّمين، الذين لا يقولون بالتعليل في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



(١) قال ابن تيمية رحمه الله (وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلًا وبحثًا، وأبعد عن البدع، وإن اشتمل علىٰ بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها. الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية (٥/ ٨٥) وقال في مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٦١) (تفسير ابن عطية وأمثاله، أتبع للسُّنَّة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم علىٰ وجهه، لكان أحسن وأجمل).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي تفسير الطبري الحنفي: ذكر أولاً تعقلون، ثم تذكرون، ثم تتقون؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا، فإذا تذكروا خافوا واتقوا المهالك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢]، قال ابن عطية: هذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف وفيه سد الذريعة، ثم استثنىٰ ما يحسن وهو التشمير والسعي في نمائه. قال مجاهد: (التي هي أحسن) التجارة فيه، فمن كان من الناظرين له مال يعيش به فالأحسن إذا ثَمَّر مال اليتيم أن لا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرهما، ومن كان من الناظرين لا مال له ولا ينفق له نظر إلا بأن ينفق علىٰ نفسه من ربح نظره، وإلا دعت الضرورة إلىٰ ترك مال اليتيم دون نظر، فالأحسن أن ينظر ويأكل بالمعروف، قاله ابن زيد.



الشَّرح

قوله: (وفي تفسير الطبري...)، الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ كرر ذِكْر تفسير الطبري الحنفي، وسمَّاه في السابق أبو علي الحنفي الطبري، وجهدت أن أعرف هذا التفسير، وهذا المـُفسِّر، فلم أستطع معرفتهما؛ و كثيرًا ما يَثْنِي عليه في شرحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مما يدل علىٰ أنه ارتضىٰ منهجه، واستفاد منه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢]، انتقل الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ الوصية السادسة، وهي تحريم أكل مال اليتيم، وهذه الوصية تحتاج إلىٰ بَسْط فيما يتعلق بها، فإن الله -تعالىٰ- كثيرًا ما يتحدث عن اليتيم، وليس المـُراد اليتيم فقط، إنما اليتيم نموذج الضعف في المجتمع البشري، وأراد بهذا النموذج أن يبين أن الضعيف يجب أن يُصان

حقه، ويُحترَم، فإذا كان اليتيم نموذجًا واحدًا، فإن في المجتمع ضعفاء كثيرين مثله، وإن لم يُسَمُّوا باسم اليتيم، فهذا نموذج علىٰ حماية حقوق الضعفاء في المجتمع المسلم، وأنه يجب أن تُصان.

فتأتي الآيات الكريمة بالحث علىٰ المحافظة علىٰ حقوق اليتيم، وعدم أكل ماله، وعدم طرده، وعدم إيذائه، وقد أمر في سورة الضحىٰ، وهي من السور المكية: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ [الضحىٰ: ٩ -١٠]، فاليتيم الذي افتقد أبويه، كانت العناية به من الأهمية بمكان؛ لأن الناس عادةً إذا أحسُّوا بضعف الشخص، ولم يكن لهم دين وتقوىٰ، طمعوا في حقوق هذا الضعيف؛ لأنهم لا ينظرون إلا إلىٰ أمور الدنيا.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقد كان الناس في الجاهلية يهضمون حقوق الفقراء والضعفاء، وفي مقدمتهم الأيتام؛ ولهذا عُنِيَ القرآن الكريم بحق اليتيم، بل إن بعثته ونبوته جعلها في يتيم، فاليتيم إذا لم يكن في مجتمع إيمان، يتسابق الناس إلىٰ أكل حقه، ويُظلَم ويُهضَم حقه، ولهذا ذكرت الآية النهي عن قربان حق اليتيم، كما سبق في النهي عن الفواحش: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ [الأنعام:١٥١]، والنهي عن القرب، أبلغ في الزجر والتحذير، من النهي عن الأكل والأخذ، فكأنه قال: أنت مُطالَب بالابتعاد عنها، وتجعل بينك وبينها مسافة، ليست مسافة مادية، لكنها مسافة بحيث لا تقترب منها في التصرف، وإلا فإن أكل مال أي إنسان حرام، سواء كان فقيرًا أو غير فقير، لكن لما كان اليتيم من ليس له أبوان يحميانه، وعادة الناس إذا ضَعُفَ الإيمان، فإنهم لا يهتمُّون بحقوق مَن ليس له ناصر، ومن ليس له حامي، اهتم القرآن بأمره اهتمامًا بالغًا؛ وهذا يعني أن المسلم يحرص علىٰ ألا يأكل حقوق الضعفاء، فإن الإنسان أمام الحقوق له أربعة مواقف:

الموقف الأول: أن يُعطي الإنسان حقه كاملًا، وهذا هو العدل.

والموقف الثاني: أن يعطيه أكثر من حقه، وهذا يُسمَّىٰ إحسانًا.

والموقف الثالث: أن يعطيه حقه ناقصًا، وهذا هو الظلم.

والموقف الرابع: أن يمنعه حقه كاملًا، وهو أظلم، وقد وردَ في القرآن الكريم النهي عن الفعلين الأخيرين، أما الفعل الأول، وهو أكل حق الفقير، كقوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون: ١-٢]، وصف الله هذا الإنسان أنه مُكذِّب بالدين، أي بالجزاء؛ لأنه لو آمن بالجزاء والحساب في اليوم الآخر، ما منع الفقير حقه، ومن صلَّىٰ مع المسلمين، ولو في الصف الأول، إذا منع الفقير من حقه، وأكل حقه، فإنه في حقيقته لا يؤمن بيوم الدين؛ لأن هذه علامة، فإذا رأيت العلامة، عرفت أن هناك وجودًا لما تدل عليه، فهذا وصف من الله ﷻ، يقول فيه لنبيه: أرأيت يا محمد، أي هل علمت، أو هل عرفت الذي يكذِّب بالدين؟ لم يقل الذي لا يصلي، أو لا يصوم، بل ربطه بحقوق عباده، فإن اليتيم لا يُعطَىٰ حقه، إلا مِمَّن يراقب اليوم الآخر.

والذي يُنقِص حق الآخرين، وردَ وصفه في قوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [سورة المطففين: ١-٦]، وهذه السورة نزلت في مكة قبل التشريع، مما يدل علىٰ اهتمام القرآن بحقوق الناس، بل هذه الآيات الثلاث تحدَّثت عن حُرمة دماء الناس، وحُرمة أعراضهم وأموالهم، فحق الناس وحق الآخرين أمره عظيم، وكلما كان الإنسان ضعيفًا، اشتدت الحُرمة، فإن الحرام يكون حرامًا أحيانًا، ويكون أشد حُرمة أحيانًا، وقد جاء في الحديث: **(ثلاثة لا ينظر الله إليهم)**، فذكر منهم:

(أُشيمط زانٍ)، أي كبير في السن يزني، (وملك كذَّاب، وعائل مستكبر)[(١)]، لماذا هذا الوعيد الشديد، والكذب حرام، والزنا حرام، والكِبْر حرام مُطلقًا من جميع الناس؟ ذلك لأن داعي هذه المعاصي في نفوسهم ضعيف، والذي دفعهم إنما هو الإجرام في نفوسهم الداخلية، فإن الفقير الذي ليس له مال لِمَ يتكبَّر؟ ليس عنده مبررات الكِبْر في حياة الناس المتكبِّرين، وكبير السن لِمَ يزني؟ ليس عنده دافع الشهوة العظيم، ومَن كانت له رياسة ومُلك، فلِمَ يكذب، ومِمَّن يخاف؟ وعليه فوجود المعاصي أحيانًا في بعض الأشخاص، تكون أشد حُرمة، وكذلك أكل مال الناس حرام، وأكل مال الفقير أشد حُرمة، ولهذا جاء ذكر صاحب الفقير.

وقد ذكر نبينا قصة عجيبة، تتعلق بهذا الحق، وهم أصحاب الغار، ومنهم الرجل الذي استأجر أُجرَاء، فأخذ الأُجرَاء حقهم، إلا أجيرًا واحدًا، ذهب وترك حقه، فاستثمره ذلك الرجل المؤمن، حتىٰ أصبح له منه وادٍ من الغنم أو البقر، فجاء ذلك الأجير بعد سنوات، قال: يا فلان أدِّ إليَّ حقي، قال: ما تراه أمامك هو حقك، قال: لا تستهزئ بي، قال: لا أستهزئ بك، فأخذ المال، ولم يترك منه شيئًا[(٢)].

وهذا نموذج لمن يحفظ للفقير حقه، ولو لم يطلبه، وأما الذي يمنع الفقير حقه، وهو يطالبه، ويظلمه، وهو يطالبه، فهذا إيمانه بالآخرة ضعيف.

وذكر الشارح ﵀ عن ابن عطية أن ذِكْر (القرب من مال اليتيم)، داخل في

---

(١) أخرجه الطبراني بدون "ملك كذاب" في المعجم الكبير، برقم: (٦١١١)، (٦/ ٢٤٦)، وأخرج مسلم معناه، بلفظ" شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر"، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم الإسبال...، برقم: (١٠٧)، (١/ ١٠٢).

(٢) وهذه القصة بطولها أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا، فترك الأجير أجره، فعمل فيه المستأجر، فزاد... برقم: (٢٢٧٢).

باب سد الذرائع، وهذا باب في الفقه الإسلامي عظيم، فسدُّ الذرائع من أعظم ما وردَ في فقه السُّنَّة، وفقه الكتاب، وتحدَّث عنه العلماء، وأحسن مَن تحدَّث عنه ابن القيم رحمه الله في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين)، و(إعلام) أي إخبار، (الموقِّعِين)، أي المُفتين والقضاة، فإن الذي يُفتي، ويقضي، ويقول هذا حكم الله، إنما يوقع توقيعه نيابةً عن الله، وغرضه من هذا الكتاب: إخبارهم بعِظَم توقيعهم، أي بعِظَم فتواهم، وبعِظَم قضائهم، فذكر رحمه الله في كتابه، تسعة وتسعين مثالًا لباب سد الذرائع؛ لأن هذا الباب ينبغي أن يفقهه كل طالب علم، وكل داعية، بل وكل مسلم؛ لأن الإنسان يعمل أحيانًا عملًا مشروعًا، إما مباحًا، أو واجبًا، أو مستحبًّا، لكن تنتج عنه مفسدة أعظم مما يريد، فهنا يأتي تطبيق هذا الباب، لهذا يقال: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكن العاقل الذي يعرف خير الشرَّيْن، فإن الخير يعرفه كثير من الناس، لكن لو جاء شرَّان، فأيهما أعظم؟ فيرتكب الشخص الأخف، حتىٰ لا يقع فيما هو أعظم منه، وذكر ابن القيم رحمه الله أيضًا في كتابه (إغاثة اللهفان)، في باب الحيل، والشاطبي رحمه الله قد أشار في الموافقات إلىٰ هذا الباب.[1]

ويقال: إن ابن تيمية رحمه الله مرَّ علىٰ جماعة من التَّتَر، والتَّتَر عندما دخلوا إلىٰ بلاد المسلمين، أسلموا إسلامًا صوريًّا، فكانوا يشربون الخمور، ويمارسون الفاحشة، ولكن يزعمون الإسلام، فمرَّ عليهم ابن تيمية رحمه الله مع طلابه، وكان من عادته أنه إذا رأىٰ مُنكَرًا، أن يغيِّره، فلم يتكلم مع هؤلاء الذين مرَّ عليهم، وهم يشربون الخمر، فسأله بعض تلاميذه لِمَ لَمْ تنههم عن

---

(١) تكلم ابن القيم رحمه الله عن هذه القاعدة في مواضع من كتبه منها: إعلام الموقعين٢/ ١٤٢ و٣/ ١٤٧-١٧١، وروضة المحبين ص٩٣، وزاد المعاد٣/ ٨٨، وإغاثة اللهفان١/ ٣٦١-٣٧٦، وتهذيب السُّنن٥/ ١٠٢، والشاطبي في الموافقات (٥/ ١٨٢)

المُنْكَر؟ قال: دعهم في سُكْرهم؛ فإنهم لو صحوا، قتلوا المسلمين، وانتهكوا حرماتهم. فبقاؤهم في سُكْرهم أخف ضررًا، يعني أنه لو نصحهم، فصحوا، وأصبحوا ليسوا سُكَارىٰ، لمارسوا أعمالًا شنيعة، ففعل ابن تيمية هذا من باب سد الذرائع.

قال ابن القيم رحمه الله : ولنقتصر علىٰ هذا العدد من الأمثلة، الموافق لأسماء الله الحسنىٰ التي مَن أحصاها دخل الجنة؛ تفاؤلًا بأنه مَن أحصىٰ هذه الوجوه، وعلم أنها من الدين، وعمل بها، دخل الجنة، ثم قال رحمه الله : حرَّم الله سبَّ آلهة المشركين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨]، وسبُّ الآلهة الأصنام، إضعاف للشرك، وتسفيه أحلامهم، إضعاف للشرك، لكن ينتج عنه أنهم يسبُّون الخالق -عز وجل-؛ لأنهم يريدون أن ينتقموا من السابِّ، عندما سبَّ آلهتهم، فيسبُّوا الله، فسبُّ الآلهة مشروع، ولكن لما كان ينتج عنه مفسدة أعظم، نهىٰ الشرع عن هذا العمل الذي هو مشروع، أو فيه مصلحة؛ لئلا يؤدي إلىٰ سبب أعظم، وهذا سد الذرائع.

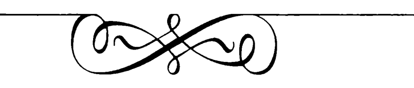
قال رحمه الله، وقد أوْرد نموذجًا فيما يتعلق بالنساء: قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، والمرأة من حقها أن تمشي كما تحب، والمرأة في السابق كانت تأخذ في أقدامها خلخالًا من الفضة أو الذهب، إذا مشت يُسمَع صوته، فكلما ضربت برجلها أكثر، ارتفع صوت الذهب أو الحلي في رجلها، لكن هذا الصوت يثير الفتنة عند بعض الناس، فلما كان صوت الحلي يثير الشهوة المحرمة؛ نُهيَت عن ضربها، فهذا من باب سد الذرائع، فما بالك بكلامها، وبفتنتها العامة، وهي تنزل إلىٰ الأسواق متجرِّدة، أو بملابس كاشفة، أو واصفة، هذا كله أشد حُرمة؛ لأن الله حرَّم الفاحشة، وحرَّم كل باب، أو منفذ يؤدي إليها.

ومن ذلك: ما كان في مكة المكرمة في بداية الدعوة، حيث نهىٰ الله المؤمنين عن مدِّ أيديهم، وعن الدفاع عن أنفسهم، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٧]، ففي مكة نُهوا عن الدفاع عن النفس، وأُمروا بالصبر، مع أن الدفاع عن النفس، والانتقام للرسول، أمر واجب، وقد كان يُؤذَىٰ، ويوضَع علىٰ ظهره السَّلَىٰ، وفي طريقه الشوك، ويُسخَر منه، ويُستهزَأ به، لكن يترتب علىٰ الدفاع مفسدة أعظم، فسدَّ الله -وهو أحكم الحاكمين- هذا الباب، حتىٰ لا ينتج عنه مفسدة أعظم من المصلحة التي أرادوها، لو مَدُّوا أيديهم.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ : وكذلك منع الهدية للوالي والقاضي، قال: والهدية إذا أخذها الوالي أو القاضي من الناس، فإذا حدثت عنده قضية تتعلق بصاحب الهدية، فإنه عندئذٍ لا يستطيع أن يعدل، هذه طبيعة بشرية، فلهذا حُرِّم علىٰ القضاة والولاة أن يأخذوا من الناس الهدايا، حتىٰ لا يؤثِّر ذلك في إقامة العدل بينهم.

إذًا فسدُّ الذريعة باب من مقاصد الشريعة، وهو من الأهمية بمكان -كما ترىٰ-.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، تكلم الشارح عن الناظر، والناظر اصطلاحًا، يُطلَق علىٰ الشخص الذي يقوم بمصلحة الفقير، أو مصلحة اليتيم، ويُشرِف علىٰ ماله، إن كان له مال، فالناظر إذا كان عنده مال، يَحسُن منه أن يتعفف، لكن إن كان محتاجًا، ولا يستطيع أن يقوم برعاية مال اليتيم، إلا إذا أخذ من ماله ما يكفيه وأهله؛ جاز له أن يأخذ منه بقدر رعايته، أو بحسب حاجته.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢]، قال مالك وغيره: هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ، قال ابن عطية: وهو أصح الأقوال وأليقها بهذا الموضع.

قلت: وقد روي نحوه عن زيد بن أسلم، والشعبي، وربيعة، وغيرهم، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦]، فاشترط تعالىٰ للدفع اليهم ثلاثة شروط: الأول ابتلاؤهم وهو اختبارهم وامتحانهم بما يظهر به معرفتهم لمصالح أنفسهم وتدبير أموالهم، والثاني البلوغ، والثالث الرشد.

الشَّرْح

قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢]، المال ماله، وليس لأحد عليه سلطان، ولكن الشرع يدفع المفاسد، ويحرص علىٰ ألا تحدث المفاسد عن طريق السفهاء، وهم الذين ليس لديهم رُشد عقلي، فذكر ﷻ لتسليم اليتيم ماله ثلاثة شروط:

الشرط الأول: هو التربية، وتسمَّىٰ في اصطلاح المعاصرين (التربية الاقتصادية)، يعني يربِّي الولي اليتيم تربية اقتصادية، يعلِّمه كيف يتعامل مع المال؟ وكيف يحفظه؟ وكيف يُنمِّيه؟ وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:٦]، أي درِّبوهم علىٰ استعمال المال، وعلىٰ حفظه؛ لأن الصغير لا يعرف قيمة المال، ولا يعرف كيف يأخذه؟ وكيف يصرفه؟ فإذا لم يُدرَّب التدريب الشرعي، فلعله يُفسِد المال، ويضر المجتمع، والله يقول: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء:٥]، فإن السفيه الذي ليس راشدًا، وليس ناضجًا، فيُفسَد بالمال،

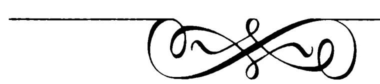
والمال كله مال الله، والله جعله في أيدينا؛ لنقيم به مصالحنا، لا لنفسد به المجتمع، وكم رأينا من أيتام خَلَّف لهم آباؤهم أموالًا، فأحاطت بهم رفقة السوء، فأصبحوا في فترة قصيرة من أفقر الناس؛ لأنهم لم يُبتَلُوا، ولم يُدرَّبوا التدريب المطلوب على حفظ المال، وعلى رعايته، فإذا كانت التربية واجبة مع اليتيم، فابنك من باب أَوْلَىٰ، ينبغي أن تُعلِّم ابنك التربية الاقتصادية وكيف يحافظ على المال؟ وكيف يُنمِّيه؟ وكيف يصرفه؟ وهذا من دقائق التفسير، ومن لطائف الإشارات في كلام الله ﷻ: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:٦].

و هنا قصة لطيفة، وهي: أن رجلًا أعطى ابنه في يوم من الأيام درهمًا، قال: ارمِهِ في البئر، فرَمَاه، وفي اليوم الثاني درهمًا آخر، فرَمَاه، إلى عشرة أيام، ثم أخيرًا طلب منه المال، وأحضر العَصَا، وقال: إن لم تأتِ بالدراهم، فإنني أضربك، قال: أنت قلت أن أرميه! قال: لا أعرف إلا أن تأتي بالمال، فاجتمع الإخوة ونزل بعضهم للبئر، وبحثوا عن الدراهم، فأخرجوها، فعندما جاء بها، قال: ارمِها في البئر، قال: ما أرميها، تعبت في إخراجها، قال: هكذا يا ولدي المال، لا يأتي إلا بالتعب، فأنت في المرة السابقة ما عرفت قيمة الدرهم.

الشرط الثاني: النضج الجسمي، قال -تعالى- هنا: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وفي آية النساء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ [النساء:٦]، وهذا النضج الجسمي، بلوغ النكاح بأن يبلغ ثمانية عشر عامًا، أو عشرين عامًا، أو نحو ذلك، يعني نضج جسميًّا، فالشرط السابق هو النضج التجريبي، أو النضج الاقتصادي، وهذا الشرط النضج الجسمي.

الشرط الثالث: النضج العقلي، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء:٦]، أي النضج العقلي، فإذا بلغ اليتيم نضجه في جسمه وعقله وتجربته، يُسلم له المال؛ لأن هذا المال وسيلة تُستخدَم في الفساد، وتُستخدَم في

الصلاح، فإذا أخذه السفهاء، الذين ليس لديهم خبرة، ولا نضج عقلي، فإنهم يعرِّضونه للفساد، وكذلك غيرهم، فإذا بلغ اليتيم، ونضج النضج المذكور، يُسلم له ماله، ﴿ءَانَسۡتُم﴾، أي عرفتم أو أبصرتم، كما قال -تعالىٰ- عن موسىٰ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ [طه:١٠]، أي أبصرت نارًا، فهنا إما بمعنىٰ الإبصار، أو بمعنىٰ العلم، أي: فإن علمتم منهم رُشدًا، أي نضجًا عقليًّا، يُسلم لهم المال، والمال مالهم، لكنه لا يُسلم لهم إن لم يكونوا أهلًا، لذلك في الفقه الإسلامي باب اسمه باب الحِجْر علىٰ السفيه، ولو كان كبير السِّن، فلو كان هناك إنسان كبير السن، في الستين أو الخمسين، ويستخدم المال في المعاصي، يجب علىٰ القضاء أن يَحْجِر عليه؛ لأن المال مال الله، والإنسان مُستَخْلَف فيه؛ ليعمل فيه بشرع الله، لا ليَفْسَد أو يُفْسِد، فهنا يذكر الله ﷻ أن الواجب علىٰ أولياء الأيتام، أن يتعففوا عن أموالهم، إلا إذا احتاجوا إليها، وألا يدفعوا إليهم الأموال، إلا إذا نضجوا؛ حتىٰ لا يُفسِدوا في المجتمع، وهذه هي الوصية السادسة من وصايا الآيات الثلاث.





قال المؤلف رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام:١٥٢]، قال ابن كثير: يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء كما توعد عليه في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١-٦] وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان.

وقال غيره: القسط العدل، وقد روى الترمذي وغيره بإسناد ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان: إنكم وليتم أمراً هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم. ورُوي عن ابن عباس موقوفًا بإسناد صحيح.

وقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:١٥٢]، قال ابن كثير: أي من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.



الشرح

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام:١٥٢]، هذه هي الوصية السابعة، وهي تتعلق بالمعاملات، ولم تحصِ كل المعاملات؛ لأن هناك أشياء لا تُكال ولا تُوزَن، بل تُقاس بالأطوال، وهو المتر، كما يُسمَّى في العصر الحاضر، فإن المتر مقياس جديد، وهو من المقاييس المستوردة، وكان أصلها في بريطانيا، فانتشر في العالم، وأصبح مقياسًا مُتعارَفًا عليه، فالآيات لم تذكر كل المعاملات المحرَّمة في الكيل والميزان، وإنما ذكرت من كل نوع نموذجًا، فأمرَت بالقسط؛ لأن ذلك حق من حقوق المجتمع، وأشار الشارح رحمه الله

إلىٰ أُمة قد أهلكها الله، بسبب فساد عقيدتهم، وفساد معاملاتهم، وهي أُمة مَدْيَن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأعراف:٨٥]، فهذه أُمة عندما لم تستقم، ولم تلتزم بما أمرها الله به؛ عاقبها الله، كما قال -تعالىٰ- في آخر الآية: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ [الأعراف:٩١]، فعوقبوا بفساد عقيدتهم، وفساد معاملاتهم.

نحن مأمورون بالوفاء في التعامل في الكيل والميزان، وما كان علىٰ مثل ذلك، فالنقص في الأخذ وفي العطاء، ظلم، والمنع ظلم، والعدل أن تعطي الناس حقهم، كما تحب أن يعطوك حقك.

وهذا الحديث الذي ذكره الشارح، قال فيه المـُحقِّق في الحاشية: إنه حديث موضوع، وإن كان معناه صحيحًا، لكن لم يُثبَت له سند مقبول إلىٰ رسول الله.[1]

قوله تعالىٰ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ [الأنعام:١٥٢]، هذا التعقيب أتىٰ بعد الأوامر والنواهي السابقة، المتعلقة بأداء الحقوق، وبالقسط في المعاملات، فإن الإنسان قد لا يستطيع أن يعطي الحقوق كاملة بدون نقص، فالكيل مثلًا قد يسقط منه حَبَّات، فمما يصعب علىٰ صاحب المعاملة أن يعطي الحق فيه بالدقة، فقال الله ﷻ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، يعني: ابذل جهدك، واحرص علىٰ أن تعطي الحق صاحبه، فلو حدث منك تقصير

---

(١) قال الطوسي ت٣١٢ هـ في مختصر الأحكام للطوسي (٥/ ٢٨٤): (هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا، إلا من حديث حسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعف في الحديث، وقد رُوِيَ هذا بإسناد صحيح عن ابن عباس مرفوعًا).

بعد ذلك، فإن الله لا يعاقبك، ولا يكلِّفك فوق طاقتك، وهذه قاعدة عظيمة سواء كانت في الحقوق المالية، أو في قضايا التشريع، أو في مسائل الاجتهاد في فهم النصوص، أو في الاجتهاد في مسائل الدعوة، أو في الاستنباط من أحكام الشرع، فالمسلم مُطالَب بأن يبذل جهده، لكن لو بذل جهده، فأخطأ، يعطيه الله ﷻ أجرًا، فإن أصاب، أعطاه أجرين.

لهذا وردَ عن ابن تيمية ﵀ قوله في بعض الفرق: (لو قلت بقولكم، كفرت، ولكنكم لستم كفارًا عندي، إذا كان هذا مُنتهَىٰ تفكيركم؛ لأن الله لا يحاسبكم علىٰ عقلي، ولكن يحاسبكم علىٰ عقولكم).(١)

لذا ينبغي أن تعذُر أخاك إن أخطأ في فهم، أو في اجتهاد، أو في استنباط، ولا تحمله ما لا يستطيع؛ فإنه مُطالَب بأن يعبد الله بما فهم، بحسب جهده، وقدرته، أما إذا حاسبنا الناس علىٰ أخطائهم، فمَن منَّا لا يُخطِئ؟ مَن مِن علماء المسلمين لم يُخطِئ؟ لأن الإنسان بشر، ومركب من النقص، ولابد أن يُخطِئ، وقد جاء في الحديث: (كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوَّابون)(٢)، وأبونا آدم أخطأ، قال تعالىٰ، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه:١١٥]، فكان خطؤه نسيانًا، لا عمدًا، فالإنسان قد يجتهد في إعطاء الحق،

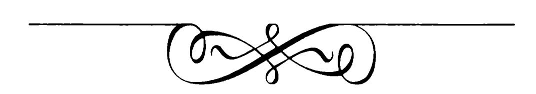
---

(١) انظر شرح الفتوىٰ الحموية تحقيق التويجري (ص: ٣٠٠)

(٢) أخرجه ابن ماجه في سُننه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، برقم: (٤٢٥١)، والترمذي في سُننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، برقم: (٢٤٩٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٣٠٤٩)، (٢٠/ ٣٤٤)، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة، برقم: (٧٦٩٨)، (٤/ ٣٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في معالجة كل ذنب بالتوبة، برقم: (٧١٢٧)، (٥/ ٤٢٠)، والدارمي في سُننه، كتاب الرقاق، باب في التوبة، برقم: (٢٧٦٩)، (٣/ ١٧٩٣)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٢٩٢٢)، (٥/ ٣٠١)، وصحَّحه الحاكم، ولكن الذهبي لم يوافقه في التلخيص، وحسَّنه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي، ص٥٦٣.

أو في معرفته، فيُخطِئ، فعندئذٍ يُعذَر، وينبغي أن تحاسب الناس بما تحب أن يحاسبك الله به يوم القيامة، فلكلنا أخطاء، فإذا أراد إنسان أن يحاسب أخطاء غيره، وأنه لا يقع منه خطأ، فعندئذٍ يزعم لنفسه أنه مُنزَّه عن الخطأ، وعن القصور، وهذا لا يكون من إنسان عاقل.

ودُونك كلام ابن كثير رحمه الله علىٰ هذا المعنىٰ، كما ساقه الشارح **(أي مَن اجتهد في أداء الحق)**، الذي عليه، **(وأخذه)**، أي مَن له عنده، **(فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه)**، يعني أخطأ له، أو عليه، **(وبذل جهده، فلا حرج عليه)**، هذا معنىٰ الآية في هذا الموضوع.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد روى ابن مردويه عن سعيد المسيب مرفوعًا: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:١٥٢] قال: من أوفى على يده في الكيل والميزان والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما لم يؤاخذ، وذلك تأويل وسعها. قال: هذا مرسل غريب. قلت: وفيه رد على القائلين بجواز تكليف ما لا يطاق.

الشرح

قوله: (هذا مُرسَل غريب)، المرُسَل في اصطلاح المحدِّثين، ما يرويه التابعي، وسقط منه الصحابي، وسعيد بن المسيب من خِيار التابعين، ومن خِيار علماء المسلمين، ومِمَّن اشتهر بعلم تأويل الرؤيا، ونذكر نموذجين من تأويله رَحِمَهُ اللَّهُ :

جاءه شخص فقال: رأيتني أَضْجَعْتُ عبد الملك بن مروان -وهذا كان الخليفة في عصره-، فأوتَدْتُ في ظهره أربعة أوتاد، قال ابن المسيب: لستَ أنتَ الذي رأيت هذه الرؤيا، قال: رآها ابن الزبير، قال: نعم، وذلك أن عبد الملك يقتُل ابن الزبير، ويخرج من ظهره أربعة خلفاء، والتأويل كما ترون بعيد عن اللفظ، لكن هذا من فقه تأويل الرؤَى، لا يعرفه كثير من الناس.

وجاءه شخص لا يُولَد له، أي وهو عقيم، فقال: رأيت أنه وقع في حجري بيض، فقال: تزوج من الأعجميات، فإن البيض عجمي، فتزوج عجمية، فأنجب، فهذا نماذج من تأويله رَحِمَهُ اللَّهُ للرؤى، وقلنا هذا فن طريف، لا يعرفه إلا أشخاص مِمَّن لديهم علم في هذا المجال.

فهذا الأثر مَروِي عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو من خِيار التابعين، لكن هذا المرُسَل لا يُقبَل، لأن فيه رجلًا مجهولًا.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢] هذا أمر بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد، قال الحنفي: العدل في القول في حق الولي والعدو لا يتغير بالرضا والغضب، بل يكون على الحق والصدق وإن كان ذا قربى، فلا يميل إلى الحبيب ولا إلى القريب ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

الشَّرح

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢]، هذه هي الوصية الثامنة، فبعد أن انتهى من الوصية المتعلقة بالمعاملات، انتقل إلى الوصية المتعلقة بالأحكام والعبادات، فإن الإنسان يعرض له في حياته مواقف، قد يكون فيها شبيهًا بالقاضي، أو بالحاكم، فيجب عليه أن يعدِل في قوله، فبالعدل قامت السماوات والأرض، والعدل مطلوب من كل مسلم في نفسه، وفي أولاده، وفي زوجته، وفيمَن تحته.

ولهذا نرى القرآن الكريم تكلَّم عن العدل كثيرًا، فقال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء:١١]، وفي قصة النعمان بن البشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عندما قال: أن أباه أعطاه عطية، فطلبت أمه من زوجها بشير أن يذهب إلى النبي ليأخذ شهادته على ذلك، فعندما جاء إلى الرسول، قال: أعندك أبناء غيره؟ قال: نعم، قال: هل أعطيت كل ولدك مثل ذلك؟ قال: لا، قال: اعدلوا بين أبنائكم، وفي

رواية: لا أشهد علىٰ جور[1].

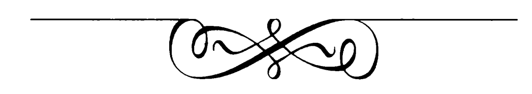
فالعدل مطلوب من الأب مع أولاده، والزوج مع زوجته، أو زوجاته، سواء كان في المعاملة، أو في الكلام، أو في الحُكم، أو في القضاء، فمطلوب من كل مسلم أن يعدل في الفعل والقول والحُكم، وحتىٰ علىٰ نفسه، أو أهله الأقربين، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾ [النساء:١٣٥]، "قوَّامين"، صيغة مبالغة في القسط، هذا أمر للمجتمع أن يكون قائمًا بالعدل في كل أحواله، والآية الأخرىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ ...﴾ [المائدة:٨]، أي لا يدفعكم بُغض شخص علىٰ عدم العدل، فالعدل خُلُق المسلم، فلا ينبغي له أن يميل مع قريبه، أو أن يميل ضد من يخالِف، فالعدل مطلوب من المسلم في الغضب والرضا، مع الولي والبعيد، يعدل في قوله، فلا يقُل إلا حقًّا، حتىٰ لو كان الحق ضد أبيه، أو ضد ابنه، بل حتىٰ لو كان علىٰ نفسه.

فهذه قاعدة عظيمة، لو رعاها المسلمون، ما احتاجوا إلىٰ محاكم، ولا إلىٰ قُضاة، ولا إلىٰ لجان، ولا إلىٰ غير ذلك، لكن لما ضَعُفَت رقابة الله في القلوب؛ وقع الظلم من الناس بينهم وبين الأقرباء، وبين الشركاء، وبين الجيران، ولا تكاد تجد مكانًا إلا وفيه مظالم، ومخالفات للعدل؛ لأن هذا

---

(١) أخرجه باختلاف في اللفظ البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد علىٰ شهادة جور إذا أشهد، برقم: (٢٦٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، برقم: (١٦٢٣)، (٣/ ١٢٤١).

ضَعْفٌ للإيمان، وإلا لو تذكر الإنسان الوقوف بين يدي الله يوم القيامة، وأنه سيأتي وحده، وكل ما ظلم من أجله، فإنه سيتركه في الدنيا، لكن الشيطان يوسوس له، ويُسوِّل له، ويُزيِّن له، حتىٰ إذا جاء المنعطف الأخير في حياته، تذكَّر، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]، فهنا يندم، لكن لا ينفع الندم عندما تنتهي الحياة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام:١٥٢]، قال ابن جرير: يقول وبوصية الله التي وصاكم بها فأوفوا وانقادوا لذلك بأن تطيعوه فيما أمر به ونهاكم عنه، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله، وكذا قال غيره.

قلت: وهو حسن، ولكن الظاهر أن الآية فيما هو أخص كالبيعة والذمة والأمان والنذر ونحو ذلك، وهذه الآية كقوله: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل:٩١]، فهذا هو المقصود بالآية، وإن كانت شاملة لما قالوا بطريق العموم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢]، يقول تعالىٰ هذا وصاكم وأمركم به وأكد عليكم فيه لعلكم تذكرون، أي تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه.



الشرح

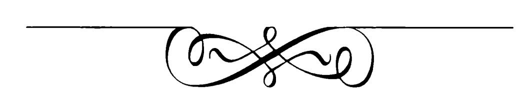
قوله: (قال ابن جرير: يقول: وبوصية الله التي وصاكم...)، الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حصر معنىٰ العهد في اتِّباع الكتاب والسُّنَّة، يعني في تطبيق الدين، لكن الصحيح أن الآية أعمُّ في كل عهد، ويدخل فيه العهد الذي يتعلق بين العبد وربه، في إقامة الدين، والاستقامة عليه في المرتبة الأُولىٰ، فإن الإنسان إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فإن هذا عهد وعقد بينه وبين الله، أن يستقيم علىٰ شرعه، ولهذا فإن قريشًا لم يقولوا الكلمة؛ لأنه ليس الهدف أن تُقال فقط، وكانوا يعلمون أن قول أشهد أن لا إله إلا الله، عقدٌ له لوازم، وله تبعات، وله مسؤوليات، فلم يقولوها، ولو كان الهدف قَوْلها بدون عمل، لما ترددوا، لكن



دخول الإنسان في الدين عقدٌ اختياري بينه وبين الله، وقبل أن يدخل بهذا العقد، لا يُقتَل، وقد تُضرَب عليه الجزية، لكن لو دخل بهذا العقد، ثم أراد أن يخرج منه بالرِّدَّة، يُقتَل؛ لأنه نقض العهد، ونقض العهد يستحق الإنسان أن يُعاقَب بحسبه، فإذا نقض عهده مع الله، وهو أعظم العهود، فإنه يستحق القتل، فإن المرتد يُقتَل بذلك، وليس له حكم آخر غير هذا.

ثم تأتي العقود الأخرىٰ، فبين الزوج وزوجته عهد، وبين أصحاب الأموال والمعاملات عقود، وتسمَّىٰ عهودًا، فالمسلم مُطالَب بالوفاء بالعهد، لكن الله قال: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، فلم يقُل بالعهد؛ لأنه لابد أن يكون العهد مما تقرُّه الشريعة، وليس الإنسان مُطالَبًا بأن يؤدي كل عهد، إلا إذا كانت عهودًا تقرُّها الشريعة؛ لذلك قال: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، فعهد الله كل ما يوافق الشريعة من العقود والعهود.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام:١٥٢]، في كل آية يقول الله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم﴾، فيؤكد علىٰ أن هذه الوصية من الله، وليست كالوصايا التي بين الناس، وصَّاكم أي أمركم، أمركم بالأوامر، ونهاكم عن النواهي، وهذا التعقيب ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، أي تتذكرون ما ينتج عن أعمالكم، والتزامكم أو مخالفتكم، من ثواب وعقاب، ثم تأتي بعد ذلك الوصية الخاتمة الجامعة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، الشرح: قال القرطبي: هذه آية عظيمة عطفها الله علىٰ ما تقدم، فإنه لما نهىٰ وأمر حذر عن اتباع غير سبيله، وأمر فيها باتباع طريقه علىٰ ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف، و(أن) في موضع نصب أي واتلوا (أن هذا صراطي)، عن الفراء والكسائي، قال الفراء: ويجوز أن يكون خفضًا أي وصاكم به وبأن هذا صراطي، قال: والصراط: الطريق الذي هو دين الإسلام، (مستقيمًا) نصب علىٰ الحال، ومعناه مستويًا قويمًا لا اعوجاج فيه، فأمر باتباع طريقه الذي طرقه علىٰ لسان محمد ﷺ، وشرعه، ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلىٰ تلك الطرق أفضت به إلىٰ النار، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣] أي تميل انتهىٰ.

الشرح

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ...﴾ [الأنعام:١٥٣]، هذه الآية العظيمة هي إحدىٰ الوصايا، فبعد أن انتهىٰ في السياق من ذكر الأوامر والنواهي، قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ...﴾، أي: هذا هو طريقي، وديني، فالتزموا به، واستمسكوا به، واحذروا السُّبُل، وهنا أفرَد سبيل الله، وجَمَع السُّبُل؛ لأن سبيل الله واحد، وهو ما يسأل العبدُ اللهَ في كل صلاة أن يهديه إياه، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]، وأول هذا الصراط في الدنيا، وآخره في الجنة، وفي مقدمته رُسُل الله، ومنهم رسولنا، ونحن في طريقهم، لكن الذي يخرج عن الصراط؛ فإنه يضِلُّ، والخروج عن الصراط، قد يكون خروجًا

يُضاد الإيمان، وقد يكون خروجًا يُنقِص الإيمان؛ لهذا ينبغي للمسلم أن يحذر من البدع؛ لأنها خروج عن صراط الله، تُنقِص الإيمان، أما الخروج عن صراط الله إلىٰ أديان أخرىٰ، أو عقائد أخرىٰ، فيحبط الإيمان.

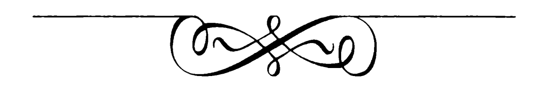
ويضرب العلماء لذلك مثلًا، فيقولون: دين الله ﷻ مثل المطر، فالله أنزل من السماء مطرًا، ليس له لون، وليس له رائحة، وليس له طعم، أي ليس له شيء يؤثِّر فيه، أو يجعله علىٰ صفة أخرىٰ، فجاء البشر إليه، فتقاسموا هذا النهر، منهم مَن أخذ جزءًا منه، ولونه بلون أحمر، ومنهم مَن أخذه ولونه بلون أصفر، وهذا أزرق، وذاك أسود، ومختلف الألوان، وبين هذه الأنهار الصغيرة التي خرجت من النهر الكبير حواجز، فكل فئة تعيش في لون، فئة تعيش في لون أحمر، وفئة في لون أخضر، وفئة في لون أصفر، هذه الفئة تظن أن هذا هو الدين الذي لوَّنته بلون معين، مذهبيًّا أو طائفيًّا، فإذا رأت إنسانًا آخر بلون آخر، طلع عليها من نهر آخر، ورأت لونه آخر، كلهم صاحوا: هذا لونه مُخالِف للوننا، واستنكروه، وظنُّوا أنه مُخالِف، وهو يستنكر ويعجب من هذا اللون الجديد، وهكذا الذين تقاسموا، أو توزَّعوا الإسلام، كل مذهب وكل طائفة لوَّنت الدين بلون معين.

ولو نضرب مثالًا بالمذاهب الفقهية، فلو ذهب حنفي من الشرق إلىٰ الغرب، وقابل حنفيًّا آخر، لاستأنس به، ولم يستوحِش من بعض عباراته، أو أسلوبه في فهم الدين؛ لأن هناك اتفاقًا علىٰ اللون المعين، لكن لو قابل مالكيًّا، وناظره، وتكلم معه في قضايا الفقه، لحدث بينهم خلاف كبير؛ لأن لكل واحد منهما لونًا معينًا، ويظن أن هذا هو الدين، فمَن خالفه، فقد خالَف الدين، وهذا خطأ، فإن دين الله ليس ملونًا بألوان العقول البشرية، ولا ينبغي لنا أن نجعل الدين هو فهم البشر، فإن البشر يُخطِئ ويُصيب، والدين هو الكتاب والسُّنَّة، فينبغي أن نحرص علىٰ الوقوف عند الشرع، كما أَمَر الشارع، وأن لا نلوِّن

الدين بألواننا، ولا بألوان أفكارنا، ولا أفكار رؤسائنا، ولا أفكار مشايخنا، فإن هذا خطأ، ففهم البشر ليس شرعًا، بما في ذلك فَهم الصحابة والتابعين، إلا ما صحَّ عن النبي في الخلفاء الراشدين، فهذا أمر آخر، ولو كان فَهم الصحابة شرعًا، لما اختلفوا، فدلَّ ذلك علىٰ أن الشرع ليس هو فَهم البشر، بل الشرع هو ما قال الله، وقال رسوله، ونستأنس بأقوال العلماء؛ لأن العلماء أَفْهم منَّا وأعرف، ويدخل الصحابة، فالتابعون، فتابِعوهم، في ذلك دخولًا أوليًّا لمكانتهم، وسَبْقِهم في الخيرية، لكن لا نتعصب لشخص بعينه لكونه فلانًا، بل لأن الدليل معه، فنبحث أولًا عن الدليل، لا عن القائل، وبهذا نكون مُتَّبِعِين للدين الحق، لكن إذا كان الاتباع لمذهب معين، أو طريق معين، لا يكون هذا لأن هذا الطريق أو هذا المذهب حق، وإنما لأن الإنسان قد عاش عليه، وأنِسَ به، وتعصَّب له، وهواه معه، فهذا يكون خطأً.

ولهذا ذكر ابن تيمية رحمه الله أنواع المُتَّبِعين، فقسَّمهم إلىٰ أربعة أقسام، وستأتي -إن شاء الله- هذه الأقسام، فذكر منهم مَن يتَّبِع شخصًا هوًىٰ أو عصبيةً، ويُخالِف الحق.

وأذكر عالِمًا من علماء المسلمين من الأقدمين ألَّف كتابًا في الأصول، وقال في بعض فصوله إن الحق مع مُخالِفينا، ولكننا نتَّبِع إمامنا، فهذا ضَعْفٌ عن أن يخالِف المذهب؛ لأنه تعوَّد عليه، وتربَّىٰ عليه، فصعب عليه أن يُخالِف المذهب، وهذا غاية الخطأ، فالمسلم يكون هدفه الدليل، لا يعبد الله بهواه، ولا بعصبيته، بل يكون حرصه علىٰ اتِّباع الدليل، فمَن جاء بالدليل الصحيح، فإنه أَوْلَىٰ أن يُتَّبع، وأن يُؤخَذ رأيه، أو فَتْواه؛ لأن الهدف ليس هو قول شخص، وإنما هو اتباع الحق، أيًّا كان قائله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروىٰ أحمد والنسائي والدارمي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: خط رسول الله ﷺ خطًا بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيمًا، ثم خط خطوطًا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾.

الشَّرْح

قوله: (هذا سبيل الله مستقيمًا...)[1] الحديث، هذا الحديث وردَ عن من الصحابة: الأول ابن مسعود، والثاني -كما ذكر الشارح- النواس بن سمعان، والثالث جابر، وهذا الحديث قد صحَّحه جماعة من العلماء القدماء، كالحاكم والذهبي، وكذلك في العصر الحاضر، قال فيه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث صحيح، بطُرُقِه مع أن جميع أسانيده ضعيفة.[2]

فالحديث الأول فيه عاصم بن أبي النجود، وهو صاحب القراءة المشهورة، وإنما أُخِذَ عليه اضطراب ضعيف في الحديث، وليس ضعفًا، أو نقصًا في عدالته، فالحديث قد صُحِّح بسبب طُرُقه المختلفة، فبعضها يُكمِّل

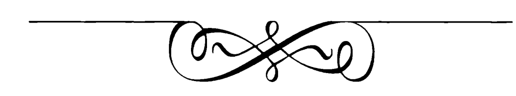
---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٤٤٣٧)، (٧/ ٤٣٦)، والبيهقي في السُّنن الكبرىٰ، كتاب التفسير، سورة الأنعام، برقم: (١١١٠٩)، (١٠/ ٩٥)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنعام، رقم: (٣٣٠١)، (٢/ ٣٧٩)، وقال: صحيح الإسناد، والدارمي في مقدمة سُننه، باب في كراهية أخذ الرأي، برقم: (٢٠٨)، (١/ ٢٨٥).

(٢) انظر ظلال الجنة (١/ ٨) و صحيح سُنن ابن ماجة (١/ ٨٣)

بعضًا، خاصةً وأنها تفسِّر الآية، ولا تُخالِفها، بل تتفق مع الآية الكريمة التي وردَت آنفًا.

وهذا الحديث يذكر نموذجًا من نماذج التربية من النبي، حيث إنه خَطَّ بيده خطًّا، -أي في التراب- طويلًا مستقيمًا، ثم أخرج منه خطوطًا من يمينه وشماله، فقال: هذا سبيل الله المستقيم، ويتفرَّع منه طُرُق، وهي طُرُق أصحاب البدع، فتفريعه من نفس الطريق طُرُقًا أخرىٰ، يعني أن من نفس الدين الحق، خرج أصحاب بدع، فخرجوا ببدعهم، فمعنىٰ الحديث: احذروا، فإنه قد يتفرَّع من هذا الطريق طُرُق تنتمي إلىٰ هذا الدين، لكنها قد خرجت وفارقت، فليحذر المسلم الطرق المختلفة التي تخرج من هذا الطريق، وهي طرق أصحاب البدع التي تُعَد بالعشرات، ولا يكاد يوجد مجتمع إسلامي إلا وفيه من هذه الطرق كثير.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن النواس بن سمعان مرفوعًا قال: ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا وعلىٰ جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة، وعلىٰ الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب، قال: لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي علىٰ رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم، رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم.

الشَّرح

قوله: (وعن النواس بن سمعان مرفوعًا)، هذا الحديث مدارُه علىٰ راوٍ يُسمَّىٰ بقية بن الوليد، وهذا الراوي مُختلَف فيه؛ لأنه يروي عن المجاهيل ويُدَلِّس، والتدليس أنواع، لكن أشهرها أن يروي الراوي الحديث عن شخص قد سمع منه، ما لم يسمعه منه، أو أن يروي عن شخص فيصفه، أو يسمِّيه بما لا يُعرَف به، أو بما لا يُشتهَر به غالبًا، وفي سند هذا الحديث هذا المعنىٰ، والحديث الأول فيه -كما قلنا- عاصم بن أبي النجود، وهذا الثاني فيه بقية، وحديث جابر فيه مجالد بن سعيد، فجميع الطرق لا تخلو من مقال، لكن لمجموعها؛ صحَّح الحديث بعض العلماء، والشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرىٰ أن هذه الطرق كافية لتصحيح الحديث.

ومعنىٰ الحديث هو ما جاء في الآيات السابقة، وهنا يضرب مثالًا من باب وسائل التربية، ووسائل تقريب المعنىٰ، فإنه قال: (**الصراط طريق ممدود، وعلىٰ جنبتيه سوران**)، والسور معروف، سوران تثنية سور، وهذان السوران في

الطريق تتضح بهما المعالم، والإنسان يعرف أن هذا هو الطريق، لكن هذين السورين فيهما أبواب منافذ ومخارج، والمخارج ليست عليها أبواب حديد، إنما عليها أبواب من الستور، الستر يُطلَق علىٰ القماش، يعني أن المخارج مستورة بقماش، يسهل علىٰ الإنسان أن يخرج منه، وفي أول الصراط شخص يقول: أيها الناس ادخلوا الصراط، ولا تَعْوجُّوا، ولا تنحرفوا، فإذا أراد الإنسان أن يخرج، فإن داعي الله الذي في قلبه -الذي هو الإيمان- يقول: لا تفتح هذا الباب، إن فتحته، دخلت منه، فإن خَلْف الأبواب المحرَّمات وداخل الأبواب، ما شرَّعه الله ﷻ، ففي داخل الأبواب ما أباح الله للإنسان كالزواج والبيع والصدق والأمانة، وخارج الصراط الزنا والخمور والربا، فإن فتح الباب، خرج من الصراط، هذا معنىٰ تصوير الحديث بالصراط، فالصراط طريق طويل، أوله في الدنيا، وآخره في الجنة، وفي مقدِّمته رُسُل الله، وإن سار في الطريق، فإنه تتبَّع الرسول، لكن إن دُعِيَ إلىٰ معصية، أو دُعِيَ إلىٰ شُبهة، أو شهوة، فخرج من الصراط، فإنه يتَّبع السبل التي نهاه الله عن اتباعها، وقد يخرج لا إلىٰ معصية، ولكن إلىٰ بدعة، فإن الانحرافات أنواع، **و نستطيع أن نحصرها في ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: معاصٍ يعرف صاحبها أنها معاصٍ، كالذي يرتكب المحرمات من الزنا، وشرب الخمر، والربا، والسرقة، والكذب، والخيانة، والنميمة، كل هذه محرمات، والذي يرتكبها يعرف أنها حرام.

والنوع الثاني: معاصٍ قد يرتكبها الإنسان، وهو لا يعرف أنها حرام، وهي البدع، فالإنسان قد يجتهد في الدين، فيُحدِث بدعة، ويظنها عبادة، و هو لا يدري أنه أخطأ، أو أنه ابتدع.

والنوع الثالث: البدع التي يعرف صاحبها أنه يبتدع، أو يُحدِث تشريعًا، أو أمرًا، ويعلم أنه قد شرَّعه ابتداءً.

فأما النوع الأول، فصاحبه إن تاب، قبل الله توبته، والنوع الثاني، قد يعيش صاحبه طوال حياته، ولا يعرف أنه علىٰ بدعة، والنوع الثالث، صاحبه مُعانِد -نعوذ بالله-، فهو يستحق العقاب ابتداءً، فحديثنا عن الصنف الأوسط، وهو أصحاب البدع والأهواء، فإن الإنسان قد يعيش فترة من الزمن علىٰ بدعة أو انحراف، وهو لا يدري أنه علىٰ بدعة أو انحراف؛ لأنه كما يقول العلماء: البدعة مركبة من حق وباطل، أي لها وجهان، وجه حق ووجه باطل، فالإنسان المسلم لا يرىٰ منها إلا الوجه الحق الإيماني، ولكن لا يدري ما وراء هذا الوجه الحق، فيظن أن كلها علىٰ حق، ويكون مُخطِئًا؛ لأنه ليست هناك بدعة كلها باطل، والمسلم لا يقبل أن يتبع شيئًا باطلًا كله، لكن يخفَىٰ عليه الحق، فيرىٰ الصورة الظاهرة، ويكون الباطل مختفيًا وراء الصورة الظاهرة، فهذه هي البدعة.

ومن كلام ابن تيمية ﵀ أنه ما من مذهب ظهر في الإسلام إلا وفيه حق وباطل، لكن تتفاوت نسبتها في ذلك، فقد تكون نسبة الحق أعلىٰ، أو أقل، وقد يكون العكس، لكن الذي يأتي البدعة تخفَىٰ عليه صورتها الصحيحة؛ لهذا يقول العلماء: ليس الفرق بين العالم والجاهل، أن العالم لا يُخطِئ، لكن الفرق بينهما أن العالم يُخطِئ غفلةً، فإذا جاءت صورة الحق، عَرَفَها، فتبعها، لكن الجاهل يُخطِئ؛ لعدم معرفته بالحق، وحتىٰ لو جاءه الحق، لما عَرَفَه، فيبقىٰ علىٰ باطله؛ لأنه لا يعرف صورة الحق، أما العالِم فإنه قد يُخطِئ، لكن إذا جاءته الصورة الصحيحة للحق، عَرَفَها، فهذا هو الفرق بينهما، فهذه الأحاديث تُحذِّر من الابتداع، والخروج عن الصراط المستقيم، وسيرِدُ كلام الشارح ﵀ في هذا الموضوع.[1]

(١) الكلام الذي ينقله شيخنا - رحمه الله - عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، في الغالب نقل بالمعنىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣] قال: البدع والشبهات، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وعباد القبور، وسائر أهل الملل والأوثان والبدع والضلالات من أهل الشذوذ والأهواء والتعمق في الجدل والخوض في الكلام، فاتباع هذه من اتباع السبل التي تذهب بالإنسان عن الصراط المستقيم إلىٰ موافقة أصحاب الجحيم، كما قال النبي ﷺ: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد، وفي رواية: كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد، حديث صحيح.

الشَّرح

قوله: (وعن مجاهد...)، عرَّف هنا مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ السُّبُل، بأنها البدع والشبهات، وهذا هو الأقرب، لكن الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمَّم علىٰ جميع الديانات، ولا شك أننا مأمورون بأن لا نتبع الديانات الأخرىٰ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥]، لكن مفهوم الآية تُحذِّر مَن علىٰ الصراط، ألا يخرج عنه، وكذلك مفهوم الأحاديث تُحذِّر مَن كان داخل الصراط، ألا يخرج منه، وأشار الشارح هنا إلىٰ (**سائر أهل المِلَل والأوثان والبدع والضلالات، من أهل الشذوذ والأهواء، والتعمُّق في الجدَل، والخوض في الكلام**)، هذه أوصاف الفِرَق التي ظهرت في الأمة الإسلامية، فإن الله ﷻ أنزل الدين صافيًا صحيحًا، ليس فيه بدع، وليس فيه أهواء، ثم حدثت البدع، كيف ظهرت هذه البدع؟ هناك تأريخ لهذه الفِرق، يوضح كيفيه

ظهورها[١]، فأول بدعة ظهرت في الأمة، بدعة الخوارج، وهـذه كانـت في عصر علي، عندما حدث الخلاف بينه وبين معاوية ﭬ، فعنـدما اتفقـا علىٰ الصُّـلح، خرجـت عليـه خارجـة، أو فئـة، أصـبحت تُعـرَف في التـاريخ وفي كتـب المـلَل والنِّحَل (بالخوارج)، فقد خرجوا علىٰ علي، وكفَّرُوه، فقالوا: يـا علـي إنـكَ قـد كفرت بقبولك أن تُحكِّم الرجال في دين الله، فـانعزلوا، وكـانوا اثنـي عشـر ألـف شخص، فقال علي: ما حكَّمْتُ الرجـال في ديـن الله، لكـن القـرآن الكـريم كـلام الله لا يتكلم، لابد أن نوكِّل أشخاصًا؛ ليُحيوا ما أحياه الله.

ويُـروَىٰ أنـه اسـتدعَىٰ رؤسـاءهم، ثـم أحضـر المصـحف، فوضـعه أمامـه، فضربه بيده، وقد كانوا كلهم مُنصتين، فقـال للمصـحف: تكلَّـم، و قـال لـه مـرة ثانيـة: تكلَّـم، فقـال أحـد الحاضـرين: يـا أميـر المـؤمنين المصـحف لا يـتكلم، فقال: كذلك فعلتُ أنا، وكَّلـتُ مَـن يقـرأه، ويقـيم حـدوده، ولابـد مـن الصـلح، لابد أن نوكِّل أشخاصًا؛ ليقيموا حدوده، قال: فرجع بعض الخوارج، ثم أرسـل ابن عباس ﭬ، فناظرهم، فرجـع بعضـهم، وبقـيَ مـنهم قليـل، وهـؤلاء أصـبح مذهبهم التكفيـر بـالكبيرة، أي مَـن ارتكـب كبيـرة، فهـو عنـدهم كـافر في الـدنيا، مُخلَّد في النار، وعلىٰ هذا فقد كفَّروا جماعةً من الصحابة، ومنهم علي.

وهؤلاء الذين خرجوا -خاصةً في عهد علي- كان يقول أحـدهم: يـا علـي، والله إن لـم تـدع تحكـيم الرجـال في ديـن الله، قاتلتـك؛ أبتغـي بـذلك وجـه الله

---

(١) ولشيخنا الشارح د. أحمد אּ رسالة مستقلة في ذلك، بعنوان مراحل ظهور البدع، (أسبابها، وموقف الأمة منها)، د. أحمد بن سعد الغامدي، دار عالم الكتب، الرياض، ط ١، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م، (٧١) صفحة. وهي مأخوذة من مقدمة تحقيقه لكتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، لمؤلفه: هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم.

ورضوانه، وهذا من الشباب المراهقين الذين نشؤوا في الإسلام، وعلي من خِيار الصحابة، لكن حماس الشباب أحيانًا يدفعه للغُلُو في دين الله.

وفي فتنة عثمان، عندما جاء المصريون، وحاصروا المدينة، خرج أبو سعيد الخدري، وهو من خيرة الصحابة، فانبرَىٰ له شاب حَدَث، فقال أبو سعيد: ما الذي جاء بكم من مصر؟ ما أراكم إلا أصحاب فتنة، فانبرَىٰ له الشاب، وقال: جئنا نقاتلكم بهذا -أي بالسيف-، علىٰ إقامة هذا -أي كتاب الله-، قال: يا بُنَي، لقد قاتلنا عليه قبل أن تُولَد، وما أراكم إلا أصحاب فتنة، وقد كان كما قال، فإنهم اقتحموا علىٰ عثمان داره، وقتلوه.

فالشاهد: أن الخوارج كثير منهم ليسوا من الصحابة، إنما نشأوا في الإسلام، وكانوا يعتقدون عقائد باطلة، ويفهمون من دين الله مفاهيم باطلة، فنشأ من هذا الفهم الباطل، عقائد منحرفة.

في هذه الفترة، خرجت طائفة تقابلهم، تَسَمُّوا بالشيعة، الذين غالوا في علي، وكان زعيمهم عبد الله بن سبأ اليهودي، فغالىٰ في علي، حتىٰ وصفه بالألوهية، هاتان الطائفتان كلتاهما خرجتا في عهد علي.

ثم تدرَّجت البدعة، فخرج بعدهم القدرية، في منتصف القرن الأول، وكان أول مَن نشر القدر معبد الجهني، وقد أخذه عن رجل نصراني اسمه سوسن أو سنسويه، ثم بعد القدرية، نشأت طائفة جديدة، وهم المـُرجِئة، قبل نهاية القرن الأول، وهم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، هؤلاء قابلوا الخوارج؛ لأن الخوارج كفَّروا بالمعصية، وهؤلاء قالوا لا يضر مع الإيمان معصية، وكل هذه البدع الأربع كانت في القرن الأول، ولكن لم يحدث في القرن الأول بدع في أسماء الله وصفاته، إنما كان كلها في الأعمال وفي الأحكام.

ثـم في بداية القرن الثاني، ظهر الجعد بن درهم، وهـو أول مَن تكلَّم في أسماء الله وصفاته، فأنكر استواء الله ﷻ، وأن الله تكلَّم، وأن الله اتخذ إبراهيم خليلًا، فقتله خالد بن عبد الله القسري، عام مائة وأربعة وعشرين للهجرة، وقد أخذ عن هذا الرجل، الجهم بن صفوان الذي أصبح رأسًا للطائفة المشهورة، وهم الجَهَمية، فتبنَّىٰ عقائدهم، وقتله سلم بن الأحوذ في خراسان، عام مائة وثمانية وعشرين هجرية، ثم رجع بعده واصل بن عطاء، مؤسِّس عقيدة المعتزلة، وهو الذي قال بأن صاحب الكبيرة، في منزلة بين المنزلتين، ليس مؤمنًا وليس كافرًا، فاعتزل مجلس الحَسن البصري؛ لأنه كان في مجلسه يتلقَّىٰ العلم، ثم عندما أحدث البدعة، عُزِل أو انعزل.

ثم بعده جاء مقاتل بن سليمان، الذي تُنسَب إليه عقائد التشبيه، شبَّه الله بخلقه، تعالىٰ الله عن ذلك، حتىٰ قال أبو حنيفة رحمه الله : جاءنا من المشرق رأيان خبيثان: جهم مُعطِّل، ومقاتل مُشبِّه.[1]

هذه بدع القرن الثاني، ثم جاءت فِرَق أخرىٰ، وبدع جديدة، وظهرت علىٰ يد أبي الحسن الأشعري رحمه الله، فإنه قد ابتدع بدعتين جديدتين، هما: قوله بالكسب، وهو عقيدة جبر متوسطة، ليست كالجبرية الخالصة كالجَهَمية، لكن متوسطة، ثم ابتدع قضية القول، بأن القرآن له جانبان: القرآن النفسي في ذات الله، والقرآن اللفظي، اللفظي مخلوق، كما تقول المعتزلة. ثم في عصره ظهر ابن كرام، وجاء ببدع، منها: أن الإيمان قولٌ باللسان، هذه البدع أصبحت أُسُسًا للطوائف المتأخرة، ولا تكاد تخرج عنها الطوائف المتأخرة، بل كلها قد استقت من هذه البدع، وهذه بدع عَقَدِيَّة.

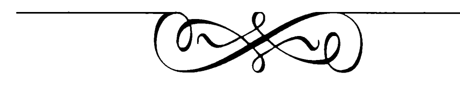
---

(١) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٨١).

ثم جاءت الصوفية بعقائدها المختلفة، من وحدة الوجود والحلول، وغيرها من العقائد الباطلة، فأصبح لها مَنْحَىٰ آخر في السلوك، غير مَنْحَىٰ العقائد.

هذه البدع في ذلك العصر، وفي كل عصر توجد بدع، فعلىٰ المسلم أن يحرص أن لا يقع في بدعة؛ لأن البدعة قد تخفَىٰ صورتها الباطلة علىٰ المسلم.

لكن من الناس مَن وسَّع الدائرة، فصار يُطلَق وصف البدعية علىٰ كل قضية يُخالَف فيها، ولو كان المُخالِف عالِمًا، أو طالب علم، أو إنسانٌ مسلم، وهذا خطأ، فهناك خطأ في الاجتهاد، وخطأ في الفهم، فيقال: لم يُصِبْ في المسألة، وأخطأ في فهمه، ولا نقول عنه مُبتدِعًا، فإنَّا لو طبقنا هذه القاعدة ليُسمَّىٰ كل مَن خالفنا -بأي صورة من الصور- مُبتدعًا، يكون خطأً فادحًا؛ لأن هذا فيه توسيعًا للدائرة، والبدعة ما توسع دائرتها، وما تُلغَىٰ، فالبدعة لها ضوابطها، فليس كل مسألة أو خلاف ظهر في الأمة يُسمَّىٰ بدعة، هذا ما ينبغي أن يحذَره المسلم؛ حتىٰ لا يقع في المحرَّمات، وفي إيذاء المسلمين بوصفهم بما ليس منهم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن مسعود: تعلموا العلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله، ألا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع، وعليكم بالعتيق. رواه الدارمي.

قلت: العتيق هو القديم، يعني ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من الهدىٰ دون ما حدث بعدهم، فالهرب الهرب، والنجاء النجاء، والتمسك بالطريق المستقيم، والسنن القويم، وهو الذي كان عليه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح، قاله القرطبي.

الشَّرح

قوله: (وعليكم بالعتيق)[1]، هذا المعنىٰ دلَّت عليه أحاديث صِحاح، منها حديث: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو ردٌّ)[2]، والعلماء يقولون: إن هذا الحديث، وحديث: (إنما الأعمال بالنيات)[3]، عليهما الدين كله، فحديث الأعمال بالنيات يخصُّ أعمال القلوب، أي الإخلاص، والحديث الآخر يخصُّ أعمال الجوارح، فكل عمل يعمله الإنسان، لم يَرِد في كتاب الله ﷻ، ولا في سُنَّة

---

(١) أخرجه الدارمي في مقدمة سُننه، باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع، برقم: (١٤٤)، (١/ ٢٥١)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٨٨٤٥)، (٩/ ١٨٩)، قال محقق الدارمي حسين سليم أسد: "رجاله ثقات غير أنه منقطع".

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا علىٰ صلح جور، فالصلح مردود، برقم: (٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، برقم: (١٧١٨)، (٣/ ١٣٤٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله، برقم: (١)، ومسلم في صحيحه بلفظ "النية"، كتاب الإمارة، باب قوله إنما الأعمال بالنية، برقم: (١٩٠٧)، (٣/ ١٥١٥).

رسوله، فهو مردود على صاحبه، ففيه قاعدة الاتباع، و في حديث: «إنما الأعمال بالنيات»، قاعدة الإخلاص، فهذان الحديثان قاعدتان عظيمتان، مَن راعاهما في حياته، تستقيم حياته، ويستقيم دينه.

فلو أن المسلم كلما عَرَضَ له أمر، أو جاءته قضية، بحثها من خلال هذين الحديثين، لكان مُوفقًا، مُسددًا، بعيدًا عن مواطن الانحراف والزَّلَل.

قول ابن مسعود: هذا من رواية أبي قلابة، وهو -أي أبو قلابة- لم يسمع من ابن مسعود، لكن يشهد له حديث صحيح، رواه الإمام البخاري في كتاب (العلم) من صحيحه، وهو قوله: (**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقَ عالِمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلُوا، فأفتَوا بغير علم، فضَلُّوا، وأَضَلُّوا**)[1]، هذا معنى أثر ابن مسعود هذا.

فمعنى قول ابن مسعود: الموقوف تشهد له الأحاديث المرفوعة الصحيحة.

قوله: (**قاله القرطبي**)، القرطبي رحمه الله أوْردَ عند تفسيره لهذه الآيات كلامًا طويلًا عن التحذير من البدع والأهواء، وهذا قطعة منها، وكذلك الأثر الذي بعده عن سهل بن عبد الله التستري، قوله: (**وهو الذي كان عليه السلف الصالح**)، يُراد بالسلف أصحاب رسول الله، ومَن كان في القرون الثلاثة، مِمَّن تشهد لهم الأُمة بالتقوى والصلاح والعلم.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، برقم: (١٠٠)، وأخرجه أيضًا مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب رفع العلم، وقبضه، وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، برقم: (٢٦٧٣)، (٤/ ٢٠٥٨).

ومذهب السلف: هو الالتزام بالدليل، سواء كان في العقيدة، أو في الشريعة، فهم لا يحيدون عن الدليل، يحرصون على أن تكون أعمالهم، وأقوالهم، وعقائدهم، تقوم على الدليل، والفِرق بين السلف وغيرهم، وما نتج عن هذا الفِرق في عقائد، ومسائل عَقَدية، ليس في العقائد ذاتها، إنما الخلاف في المنهج، فالسلف لهم منهج في فهم الدين، والخلف الذين هم المتكلِّمون لهم منهج، هذا المنهج نتج عنه اختلاف في العقائد، وإلا فإن الإسلام واحد، والدين واحد، لكن الخَلَف يقوم منهجهم على علوم جاءت من أمم وثنية، أي على علوم دخيلة على الإسلام، وهي علم المنطق والفلسفة، وهذان علمان قديمان ليسا من علوم الإسلام، والله سبحانه وتعالى عندما أنزل القرآن الكريم قد كفانا به، وأغنانا به عن أن نأخذ مناهج من أمم وثنية جاهلية، فلو كان الإسلام لا يُعرَف ولا يُفهَم إلا إذا فهمناه على مناهج الأمم الوثنية الأخرى، لكان هذا الدين ليس صحيحًا، ولكان الرسول وأصحابه على باطل؛ لأنهم لم يعرفوا هذه المناهج الدخيلة، فنحن بين أمرين: إن كان الإسلام يُفهَم من غير هذه العلوم، فلم نأتِ بها؟ وإن كان الإسلام لا يُفهَم إلا بها، فما حال الذين ماتوا قبل أن يعرفوها؟ فإن هذه العلوم لم يعرفها ﷺ، ولا الصحابة، ولا التابعون، ولا علماء الأمة، إنما تُرجِمَت في عهد المأمون، الذي توفي عام مائتين وثمانية عشر هجرية، أي بعد البعثة بقرابة مائتي سنة، فالسابقون كيف كانت عقائدهم، وكيف كانوا يفهمون دين الله؟

فمنهج السلف الذي يقوم على الكتاب والسُّنَّة هو المذهب الصحيح، وكلما تقدَّمت علوم البشر، أثبتت أن مذهب السلف هو الصحيح؛ لأن العلوم البشرية تكشف لنا عن جهل العقل، وأن العقل قد يظن أشياءً تكون وهمًا وتكون باطلة، فالعقل البشري ينبغي أن يكون تابعًا لا متبوعًا، فلكل إنسان عقل يختلف عن عقل صاحبه، فإذا اختلفوا، فمَن يحكم بينهم؟ الوحي؛

وتقول المعتزلة: إذا اختلف العقل والنقل قدَّمنا العقل، مَن مِن البشر عقله كامل حتىٰ نرجع إليه؟ ثم لو كان العقل البشري أهلًا لمعرفة الحق من غير الوحي، ما أنزل الله وحيًا، فلِمَ كان مَن هو في قمة العقل قبل الإسلام جاهلًا، يقتل ابنه أو بنته، ويشرب الخمر، ويعبد الصنم؟ ولِمَ نرىٰ في العصور المتأخرة كثيرًا من عباد الأبقار، وعباد الأحجار، وعباد الأوثان؟

فالعقل لا يستقل بمعرفة، لابد له من وحي؛ لهذا يقول الله ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وهذا النور هو الوحي والقرآن.

فمذهب السلف يقوم علىٰ القرآن والسُّنَّة، وكل أمر حادث لا يقبلونه، وهناك ثلاثة اصطلاحات تُطلَق علىٰ طريقة واحدة: السلف، أهل السُّنَّة والجماعة، أهل الحديث، لكن أدقها أن نقول: منهج أو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة؛ لأن اصطلاح السلف اصطلاح تاريخي، وليس الخلاف بيننا وبين المتأخرين في قضية تاريخية، وإنما في قضية منهج، وأهل الحديث يدل علىٰ تخصص، فلو سمينا المنهج الصحيح بمنهج أهل الحديث، لأخرجنا كثيرًا من المسلمين، من المفسِّرين، والمؤرِّخين، والفقهاء، لكن اسم أهل السُّنَّة والجماعة اسم منهجي، والخلاف بيننا وبين أهل البدع في المنهج، فنفهم دين الله علىٰ غير منهجهم، ويقوم علىٰ اتباع السُّنَّة، وعلىٰ الحرص علىٰ جماعة المسلمين، فمعنىٰ اصطلاح أهل السُّنَّة والجماعة أن يكون الاتباع للسُّنَّة، وأن نحرص علىٰ جماعة الأمة؛ لأن جماعة المسلمين ليس شرطًا أن لا يكون فيها معصية أو بدعة؛ لأن المجتمع من أفراد، والأفراد بشر يخطئون ويصيبون، لكن جمهور الأمة هو الذي يكون عليه الاسم، وإلا فلا يوجد مجتمع بشري ليس فيه معصية وخطأ، وليس فيه انحراف وبدعة، ومن توقع غير هذا، فهو مخطئ.

ولهذا نرىٰ أنه حدث في عهد النبي ﷺ السرقة، والزنا، والقتل، فليس هناك مجتمع يصفو من الأخطاء، وبعض الناس يظن ويحرص ويتحمس إلىٰ درجة إيذاء الآخرين، ليوجد مجتمعًا ليس فيه معصية، هذا هدف ومقصد، لكن لابد أن نلحظ أن الإنسان والبشر فيه ضعف، وعنده قصور، ويستحيل أن تكون أمة ليس فيها أخطاء، وليس فيها معصية، بل جاء الحديث الصحيح: (**لو لم تُذنِبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم**)[1]، فتظهر هنا آثار صفات الله، كالمغفرة للعُصاة، والرحمة للمخطئين، وهكذا، فوجود الخطأ في الجزئيات، ومن بعض الأفراد، لا يعني أن المجتمع ليس علىٰ منهج أهل السُّنَّة والجماعة.

وما أوْرده الشارح رحمه الله من قوله (**علىٰ ما كان عليه السلف**)، أي منهج السلف الصالح، والإنسان قد يتبع المنهج، ويُخطِئ في التطبيق، أو يُخطِئ في النتيجة، كما مرَّ آنفًا، وكما سيأتي من الكلام علىٰ الطبري، وهو من أعلام السلف، ولكن له كلام عجيب في بعض المسائل الدينية، فالإنسان قد يخطئ في بعض المسائل مع أن منهجه سلفي، ومن طبيعة البشر أن يبقىٰ فيه نقص، كما يقول بعض العلماء: إن الإنسان مخلوق من الطين، ومن روح الله، روح وطين، والطين فيه عَفَن، ورائحة، وسيبقىٰ في الإنسان الطين رائحة من أصله، لكن المطلوب منه أن يزكِّي نفسه، وأن يقوِّمها، لكن لا يتوقع أنه لم يحدث منه خطأ، أو معصية، فهذا كما جاء في الحديث: (**كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوَّابون**)[2]. ولهذا نرىٰ القرآن الكريم يذكر لنا ما وقع من خيرة

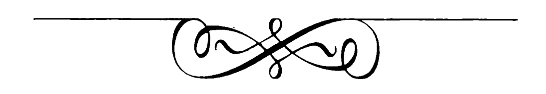
---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب سقوط الذنب بالاستغفار، برقم: (٢٧٤٩)، (٤/ ٢١٠٦).

(٢) سبق تخريجه.

الناس، من بعض الأنبياء، من نبينا آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى عليهم السلام، كل نبي لابد أن تظهر عليه علائم البشرية، وصفات النقص، لكن النقص نسبي، منهم مَن يكون ناقصًا بسيطًا، مثل الأنبياء، فهم من حيث النبوة كاملون، لكن من حيث البشرية قد يخطئون.

فلهذا نحن مأمورون بطلب الكمال في كل ركعة، حيث نقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦]، ونبقى دائمًا في حاجة إلى الدعاء، والاستقامة، والهداية، حتى نموت.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال سهل بن عبدالله: عليكم بالأثر والسنة، فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي ﷺ، والاقتداء به في جميع أحواله، ذموه ونفروا عنه، وتبرؤا منه، وأذلوه وأهانوه.

قلت: رحم الله سهلا ما أصدق فراسته، فلقد كان ذلك وأعظم، وهو أن يُكفّر الإنسان بتجريد التوحيد والمتابعة، والأمر بإخلاص العبادة لله وترك عبادة ما سواه، والأمر بطاعة رسول الله ﷺ، وتحكيمه في الدقيق والجليل.

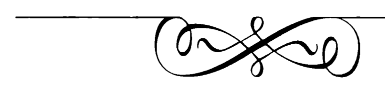
الشَّرح

أشار الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا إلىٰ قول سهل: إن الإنسان المبتدع، أو الإنسان المخطئ، أو الإنسان المنحرف، قد يتَّهم صاحب الاستقامة نفسه بالانحراف، فصاحب البدعة -كما قلنا- لا يعلم أنها بدعة، ويظن أنه ينصر الحق؛ ولهذا ليس كل مَن تسمع عنه، ويبدو لك أنه صاحب بدعة، أو مخطئ، يكون كذلك، بل قد تكون أنت أَوْلَىٰ بهذا الوصف منه، لذا نرىٰ أصحاب البدع يصفون من استقام علىٰ الحق، وعلىٰ الطريق المستقيم، بالبدعة، فكم من علماء المسلمين وُصِف بالبدعة؟

فابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما ظهر، وحارب البدع، وُصِفَ بالبدعة، والإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي لا يخفَىٰ ذكره علىٰ كل مسلم غالبًا، حتىٰ قيل عن كتابه إنه أصح كتاب بعد كتاب الله، وُصِفَ بالبدعة في عصره، وقد مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولم يحضر جنازته إلا ثلاثة أشخاص؛ لأن إدراك الناس لمعاني البدعة يختلف، فقد يظن الإنسان أن فلانًا مبتدع، ويكون المبتدع هو نفسه، والتعجُّل في حكم الآخرين من أمراض الأمة الإسلامية، وقد ينتج بحسن نية، لكنه قد يكون

خطأً؛ فلهذا لا ينبغي للإنسان أن يستعجل في إطلاق الأحكام في وصف الآخرين، فهذا من الصفات المذمومة، ويأثم بهذا الإطلاق؛ لأن عَرْض المسلم محرَّم بالكتاب، والسُّنَّة، وإجماع الأمة.

فالإنسان قد يكون صاحب السُّنَّة، ومستقيمًا على الحق، ولكن يُتَّهم ويؤذىٰ لأسباب كثيرة، منها الحسد، كما سيأتي عن البخاري، فإن البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أُوذِيَ بسبب الحسد، ومن شيخه الذي كان من كبار المحدِّثين.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: ولنذكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزًا، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه، وترجمتهم عنه، بحسب صفاته ومتعلقاته، وحقيقته بشيء واحد وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً لهم إليه، ولا طريق إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة علىٰ الخلق، إلا طريقه الذي نصبه علىٰ ألسن رسله، وجعله موصولاً لعباده إليه، وهو إفراده بالعبودية، وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحد في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحد في طاعته، فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول ﷺ، وهذا معنىٰ قول بعض العارفين: إن السعادة كلها والفلاح كله مجموع في شيئين صدق محبة وحسن معاملة.

وهذا كله مضمون شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأي شيء فسر به الصراط المستقيم فهو داخل في هذين الأصلين، ونكتة ذلك أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا اله إلا الله، والثاني يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله، وهذا هو الهدىٰ ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا آخيتها وقطب رحاها.



الشَّرح

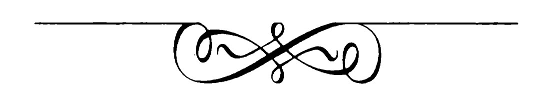
قوله: (آخيتها)، الآخية تُطلَق علىٰ الوتد الذي في الجدار، تُربَط به الدابة، فإذا رُبطت الدابة بهذا الوتد، فإنها تتحرك يمينًا وشمالًا، لكنها مربوطة في وتد، مثل قطب الرَّحىٰ الذي في الوسط، فإن الرَّحىٰ تدور حوله، وهو ثابت مكانه.

أي أراد رَحِمَهُ اللَّهُ أن ملخص هذا الكلام هو هذا، فذكر ثلاثة تعريفات هي:

الأول: قولـه: **(إفـراد الله بالعبوديـة، وإفـراد رسـوله بالطاعـة)**، إفـراد الله بالعبودية، معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وإفـراد رسـوله بالطاعـة، معنـىٰ شـهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ.

والثاني: (صدق محبة، وحسن معاملة)، صدق محبة أي أن يكون قلب المسلم مملوءًا بحبه لله ﷻ، فإن الحب أساس هذا الدين، وأن العبادة تقوم علىٰ كمال الحب، أي حُبك لله يكون قد عمَرَ قلبك، فإذا عمَرَ القلب محبة الله، فإنه إذا أمره بأمر، سارع إلىٰ تنفيذه، وإذا نهاه عن أمر، توقف عن إتيانه؛ لأنه يحب الله ﷻ، وحسن المعاملة يظهر أثر الحب علىٰ جوارحك، ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران:٣١]، فمحبة الله علامتها الاتِّباع، فمَن اتَّبع الرسول في سلوكه، وأخلاقه، ومعاملاته، فإنه يكون صادق المحبة، والذي لا يتبعه، ويزعم أنه يحبه، فمحبته ليست صادقة.

والتعريف الثالث: (معرفة ما بعث الله به رسوله، والقيام به)، المعرفة والعمل، أي العلم والعمل. هذا ملخص التعريفات حول الصراط المستقيم الذي أوْرده ابن القيم رحمه الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وَقَوْلِهِ ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، هكذا أثبت في نسخة بخط شيخنا ولم يذكر الآية. قال ابن كثير: يأمر تعالىٰ عباده بعبادته وحده لا شريك له، فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل علىٰ خلقه في جميع الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته.

قلت: هذا أول أمر في القرآن، وهو الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن الشرك، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]، وتأمل كيف أمر تعالىٰ بعبادته، أي فعلها خالصة له، ولم يخص بذلك نوعًا من أنواع العبادة، لا دعاء، ولا صلاة، ولا غيرهما؛ ليعم جميع أنواع العبادة، ونهىٰ عن الشرك به، ولم يخص أيضًا نوعًا من أنواع العبادة بجواز الشرك فيه.

في هذه الآية واللواتي قبلها دليل علىٰ أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه، وإلا فكان المشركون يعبدون الله ويعبدون غيره، فأُمروا بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وفيهن دليل علىٰ أن التوحيد أول واجب علىٰ المكلف.

الشَّرح

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، هذه هي الآية الخامسة، وآخر الآيات من آيات المتن؛ فإن المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَوْرد في المتن خمس آيات، وأَوْرد أثرًا، وحديثًا، وهي بمعنىٰ الآيات السابقة، تأمُر بتوحيد الله، وتنهَىٰ عن الشرك، فإن التوحيد هو عبادة الله وحده، فلا تعني الآية أن قريشًا لم تكن تعبد الله، بل كانت تعبد الله، لكن تعبد معه غيره، والإسلام جاء

يدعوهم لتوحيد الله بالعبادة، والإخلاص له ﷻ.

قوله: (**قلت: هذا أول أمر في القرآن...**)، أراد رحمه الله أن يبين أن الأمر بالعبادة لم يخصص نوعًا من أنواع العبادة، هذا ردٌّ على الذين يزعمون أنه ليس كل أعمال الإنسان عبادة، كالاستغاثة بالأموات أو دعاء الأموات، فيزعمون أن هذا مما يجوز؛ لأن الميت له روح، وروحه قد تُعطَىٰ من القدرة على إعانة الإنسان، ما لا يتصورها بشر، ونحن نقول: ما الذي أدراكم أن روح الميت تستطيع أن تنفع أو تضر، وأنتم لم تموتوا بعد، ولم تعرفوا ما بعد الحياة؟ فهذا كله تخرُّص وظن وجهل، فالدعاء كله لله، والاستغاثة كلها لله، والله أمرنا بأن نعبده بأمر مُطلَق، لم يخصص بعض العبادات دون بعض، ونهىٰ عن الشرك مطلقًا، ولم يخصص بعض الشرك عن بعض، فهذه كلها أوامر ونواهٍ عامة.

قوله: (**في هذه الآية واللواتي قبلها، دليل علىٰ أن العبادة هي التوحيد**)، يريد رحمه الله أن قريشًا أُمِرَت بالعبادة؛ هذا لا يعني أنهم كانوا لا يعبدون الله، بل كانوا يعبدون الله، ومعه غيره.

وقال: (**وفيهن**)، أي في الآيات، (**دليل علىٰ أن التوحيد أول واجب علىٰ المكلف**)، وقد مرَّ الحديث عن هذه المسألة، ولكن هنا نحتاج إلىٰ تنبيه؛ وذلك أن الطبري رحمه الله قد ذكر عنه ابن حزم، أنه وافق الأشاعرة في هذه المسألة، والطبري عَلَم من أعلام السلف، لكن الإنسان قد يُخطئ، قال ابن حزم: ذهب محمد بن جرير الطبري، والأشعرية كلها، -حاشا السمناني- إلىٰ أنه لا يكون مسلمًا إلا مَن استدل، وإلا فليس مسلمًا، وقال الطبري: مَن بلغ الاحتلام -أي سن الثامنة عشرة، أو الخامسة عشرة، أو الإشعار من الرجال والنساء، أو بلوغ المحيض من النساء-، ولم يعرف الله ﷻ بجميع أسمائه وصفاته من طريق الاستدلال، فهو كافر، حلال الدم والمال.

عندما قرأت كلام ابن حزم هذا، استصعبته، وظننت أن ابن حزم رحمه الله ذكره

بالمعنىٰ، لكن ظهر كتاب جديد للطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ باسم: التبصير بمعالم الدين، أو في معالم الدين، وهو في العقيدة، فوجدت نفس الكلام، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "وإذا كان صحيحًا، ما قلنا بالذي عليه استشهدنا، فواجب أن يكون كل مَن بلغ حد التكليف، من الذكور والإناث، وذلك قبل أن يحتلم الغلام، أو يبلُغ حد الاحتلام، وأن تحيض الجارية، أو تبلغ حد المحيض، فلم يعرف صانعه -(صانعه من الأسماء التي يطلقها المتكلِّمون، ولا بأس به من باب الأخبار؛ لأن باب الأخبار أوسع من باب الأسماء، وباب الأسماء أوسع من باب الصفات)- بأسمائه وصفاته، التي تُدرَك بالأدلة، بعد بلوغه الحد الذي حددت، فهو كافر، حلال الدم والمال".!

إلىٰ أن قال: "وذلك قد يكون في حال بلوغ الصبي سبع سنين أو ثمان سنين، فإذا عُرِضَ له الداعيان اللذان وصفت، في تلك الحال، فهو مُمَهَّل بعد ذلك من الوقت سنين، وربما كان ذلك قدر عشر سنين، وربما كان ثمانية، وربما كان أقل أو أكثر، وأقل ما يكون ست سنين، وفي ذلك قدر من المـَهْل، وفي أقل منه، ما يتذكر منه المتذكر، ويعتبر منه المعتبر، ولن يُهلِك الله -جلَّ ذكره- إلا هالكًا"[1].

ومعنىٰ الكلام أن الطفل إذا بلغ سن البلوغ، ولم يعرف الله بالاستدلال -علىٰ منهج المتكلِّمين، كما هو الظاهر من كلامه- بأن ينظر، حتىٰ يعرف بالاستدلال أن الله خالقه، يكون كافرًا، حلال الدم والمال.

وهذا يخالِف مذهب السلف قاطبةً، فالسلف يقولون: معرفة الله فطرية في القلوب، لا تحتاج إلىٰ تحصيل، مثال ذلك: أن الإنسان عندما يأتي إلىٰ

---

(١) التبصير في معالم الدين للطبري (ص: ١٢٣).

المسجد، فالذي جاء به إلىٰ المسجد هو الصلاة، وقبل الصلاة قام بالوضوء لصلاة المغرب مثلًا، فلا يحتاج إذا وقف في الصلاة أن يستحضر أنه سيصلي صلاة المغرب؛ لأن النية حاصلة من قيامه من بيته إلىٰ هنا، فلا يحتاج إلىٰ التحصيل ثانيًا.

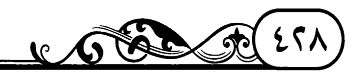
وفي رمضان قد نوىٰ المسلم أن يصومه كله، فتكفيه هذه النية، ولا يحتاج في كل ليلة قبل الفجر أن ينوي مرةً أخرىٰ، وإن كان هذا قد قال به بعض المذاهب، وهذا كما يقول ابن تيمية رحمه الله : من باب تحصيل الحاصل، نية المؤمن في قلبه حاصلة، لا تحتاج إلىٰ استدعاء، وهذا جعل كثيرًا من المُوَسْوِسين، إذا وقف في الصلاة قبل أن يكبِّر، يقول: الله.. الله.. الله.. حتىٰ يصيب النية، ويستحضرها، مع أنه قد خرج من بيته أصلًا لهذا الغرض، ويدل علىٰ ذلك وضوؤه، وتهيؤه، وتوجُّهه للمسجد، فالنية حاصلة.

فمعرفة الله حاصلة في القلوب، ثبت ذلك بالقرآن والسُّنَّة وإجماع العلماء المعاصرين، من علماء الأديان الكفار، يقولون: ما هناك مجتمع لا يعرف الله، ولم تخلُ أُمَّة، أو مجتمع، وذهنها خالٍ من الخالق أبدًا، حتىٰ الشيوعيون -كما سبقت قصة ابنة ستالين، التي هربت من بيت أبيها إلىٰ خارج روسيا في هذا العصر، تقول: إنني لا أستطيع أن أعيش في بيت لا يُذكَر فيه الله، وأبوها زعيم الشيوعية-.[1]

فالفطرة في القلوب موجودة، وفطرة كل إنسان فطرة الإيمان، لكن قد تنحرف، وقد تُفسَد، فهذا الكلام الذي قاله الطبري رحمه الله لو قيل إنه: يُعمِّم حتىٰ

---

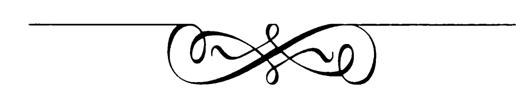
(١) لشيخنا الشارح أ.د أحمد بن سعد بن حمدان رحمه الله كتاب بعنوان فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها الناشر: دار طيبة - الرياض - الطبعة: الأولىٰ - سنة الطبع: ١٤١٥



الشـخص الـذي في بـلاد المسـلمين، وأنـه لابـد أن يستحضـر الأدلـة، ويعـرف الخالق بأسمائه وصفاته عن طريق الاستدلال، فإن لم يفعل، فهـو كـافر حـلال الدم والمال؛ لكان كلامًا تصطَكُّ منه الأسماع، كما يقول ابن حزم.

فنعجب من فهم هذا العالم الجليل ابن جرير الطبري في هـذه القضـية، مـع أنه أعجوبة في الحفظ، حتىٰ قال لطلابه: هل تنشطون إلىٰ كتابة تاريخ في ثلاثـين ألف صفحة؟ فقالوا: والله هذا كثير، وبعد فترة أملَىٰ عليهم التفسير -وتفسيره أكبر التفاسير-، ويقول لطلابه: هـل تنشـطون إلـىٰ كتابـة تفسير في ثلاثـين ألـف صفحة؟

فالإنسان وهو علىٰ منهج السلف قد يُخطئ، وقد يخالِف الحق، لكنه عنـد الله مأجور؛ كما أخبر بذلك النبي ﷺ: (**مَن اجتهـد فأصـاب، فلـه أجـران، ومَـن اجتهد فأخطأ، فله أجـر**)[1]، فالعـالم قـد يُخطـئ، فيُنبَّـه علـىٰ خطئـه، ويُـدعَىٰ لـه بـالمغفرة والرحمـة، ويكـون الله قـد وعـده بـالأجر؛ لأنـه لـم يتعمَّـد الخطـأ، فالشاهد أن هذا تكميل لما مرَّ مـن أن الإنسـان، أو العـالِم، أو طالـب العلـم، أو الداعية قد يقع منه الخطأ، لكن لا ينبغي المسارعة بوصفه بالبدعـة، فـلا يجـوز أن نقول إن الطبري مُبتدِع، هذا فهمه رحمه الله، فليست المسائل كلها بـدعًا، بعضـها يكون خطأً في الفهم، وبعضها يكون خالَف الصواب.



(١) أخرجه الشيخان بلفظ " **إذا حكم الحاكم، فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم، فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر**"، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، برقم: (٧٣٥٢)، صحيح مسلم، كتـاب الأقضية، بـاب بيـان أجـر الحـاكم، بـرقم: (١٧١٦)، (٣/ ١٣٤٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله المستلزم لعبادته وحده لا شريك له، وأن من عبد غير الله بنوع من أنواع العبادة فقد أشرك، سواء كان المعبود ملكًا أو نبيًا أو صالحًا أو صنمًا.



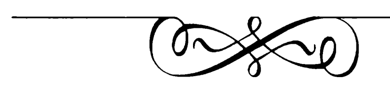
قوله: (**وهو الكفر بالطاغوت**)، تتكرر في الآيات الكريمة: الطاغوت والإيمان بالله، وبعض الناس قد لا يفهم معنىٰ الطاغوت، يظن أن الطاغوت شيء كبير باسم الطاغوت، لابد أن يراه، وليس بصحيح، فإنه قد يكون في سلوك الإنسان طاغوت، وهو لا يشعر، قد يعيش في الطاغوت طوال حياته، ولا يعلم، والله يقول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وهنا حالان: إما الإيمان بالله، أو بالطاغوت، فإذا كان سلوك الإنسان في حياته مُنبثِقًا من الإيمان، فهو مُتَّبِع الإيمان، وإذا كان سلوكه في حياته من غير الإيمان، ففي سلوكه طاغوت، وكذا في معاملاته، وفي حياته الداخلية، وفي كل شأنه، فهو بين أمرين: إما أن تكون حياته قد قامت علىٰ أُسس الإيمان المنبثق من الكتاب والسُّنَّة، ومن فتاوىٰ علماء الأمة، أو تكون بعيدة عن هذا الإيمان، أو تكون بين بين، ففي الحديث القدسي: (**مَن عمل عملًا أشرك معي فيه غيري، تركته وشِرْكه**)[1]، فلابد أن نحاسِب أنفسنا، هل سلوكنا مُستقىٰ من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، برقم: (٢٩٨٥)، (٤/ ٢٢٨٩).

الإيمان؟ وهل معاملاتنا مُستقاة من الإيمان؟ وهل بيوتنا التي نعيش فيها، مع أُسرنا وزوجاتنا وأولادنا وبناتنا تقوم على الإيمان؟ والله يقول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فشرط تحقيق الإيمان، الكفر بالطاغوت، والبراءة منه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: قالَ ابنُ مسعودٍ: مَنْ أرادَ أن يَنظُرَ إلىٰ وَصِيَّةِ محمدٍ ﷺ التي عليها خاتَمُهُ فليقرأ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ ...﴾ [الأنعام:١٥١] **إلىٰ قوله:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].



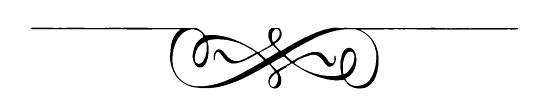
الشرح

هذا الأثر عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أراد به أن النبي ﷺ، إنما أوصَىٰ بكتاب الله، ومما في كتاب الله هذه الآيات، التي لم تُنسَخ؛ لأن هناك بعض أحكام نُسِخَت، وبعض أوامر ونواهٍ شرعية نُسِخَت، لكن هذه الآيات الثلاث، بقيت لم تُنسَخ، فالرسول وصَّىٰ بكتاب الله، حيث قال: (**تركت فيكم ما لن تضلوا إن تمسكتم به: كتاب الله**)(١)، فهو أوصَىٰ بكتاب الله، وهذه الآيات هي في كتاب الله.

لكن الحديث لا يخلو من التدليس، فإن في سنده راويًا يسمَّىٰ داود الأودي، وداود الأودي يُطلَق علىٰ شخصين متعاصرين، داود بن يزيد، وداود بن عبد الله، والراوي لم يذكر أيهما روَىٰ عنه، وداود بن يزيد الأودي ضعيف، وداود بن عبد الله الأودي ثقة، وكلاهما في عصر واحد، وكلاهما شيخان لنفس الراوي.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ "إن اعتصمتم به"، كتاب الحج، باب حج النبي ﷺ، برقم: (١٢١٨)، (٢/ ٨٨٦).

ولهذا فإن المباركفوري شارح الترمـذي، لـم يستطع أن يجـزم أيهمـا هـو، والـراوي يفعـل هـذا بقصـد توثيـق الحـديث؛ لأنـه لـو ذكـر أن الـذي رواه فـلان الضعيف، ما قُبِلَ، وهذا يسمَّىٰ تدليسًا، و هو مما يُجرَح به الرواة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ابـن مسـعود هـو: عبـد الله بـن مسـعود بـن غافـل بمعجمـة وفـاء ابنُ حبيـب الهذلي أبو عبدالرحمن صحابي جليل مـن السـابقين الأولـين، وأهـل بـدر وبيعـة الرضوان، ومن كبار العلماء من الصـحابة، أمّـره عمـر علىٰ الكوفـة، ومـات سـنة اثنتين وثلاثين، وهذا الأثر رواه الترمـذي وحسـنه، وابـن المنـذر وابـن أبـي حـاتم والطبراني بنحوه، وروىٰ أبو عبيد وعبد بن حميد عن الربيع بن خيـثم نحـوه، قـال بعضهم: ما معناه أي من أراد أن ينظر إلىٰ الوصية التي كأنها كُتبت وخُـتم عليهـا، ثم طُويت فلم تُغير ولـم تُبدل تشبيهـًا لها بالكتاب الذي كُتـب ثـم خُـتم عليـه فلـم يزد فيه ولـم ينقص؛ لأن النبي ﷺ كتبها وختم عليها وأوصىٰ بهـا، فـإن النبـي ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله كما قال فيما رواه مسلم: «واني تارك فيكم ما إن تمسـكتم به لن تضلوا كتاب الله».



الشَّرح

قولـه: (عبـد الله بـن مسـعود بـن غافـل بمعجمـة...)، الشـارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُـترجَم الصحابي الـذي يـروي الأثـر، عبـد الله بـن مسـعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والصـحابة يتفاضـلون بحضورهم للحوادث التاريخية في السيرة، فيُقـال: فـلان مـن أهـل بـدر، وفـلان من أهل بيعـة الرضـوان، وهـذه أعلىٰ الشـهادات التـي يُرفَـع بهـا الصـحابي بـين الصـحابة، وأعظـم الصـحابة قـدرًا -فيمـا بـين الصـحابة أنفسـهم- مَـن حضـر غزوتين من غـزوات النبـي ﷺ، وهمـا: غـزوة بـدر التـي كانـت مُفتتـح الجهـاد، وبيعة الرضوان التي كانت غزوة السلم، فمَن حضر كلتا هـاتين الغـزوتين، كـان في قمة درجات الصحابة، والمؤرِّخون دائمًا كابن الأثير، وابـن عبـد الـبر، وابـن كثير رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، يذكرون في تراجم الصحابة، أن فلانًا الصحابي كان من أهل بـدر، أو كان من أهل بيعة الرضوان.

فأما غزوة بدر، فكانت بدرًا كاسمها، فقد أضاء الإسلام بعدها، وكانت قاعدة انطلق منها الإسلام، وقويت شَوْكَة المسلمين، وقد وردَت أحاديث وقصص كثيرة في فضلها، وفضل أهلها، من أهمها، ما جاء في الصحيح، أن عبد حاطب جاء إلىٰ النبي ﷺ يشكو حاطبًا، قال: يا رسول الله، إن حاطبًا من أهل النار، قال: (**كذبْتَ، لايدخلها، فإنه شَهِد بدرًا والحديبية**)[1]، وحاطب كان له موقف عجيب، وهو أنه عندما أراد النبي ﷺ أن يفتتح مكة، وكان يستعد للقتال، وكان يقول: «اللهم عمِّ عنهم خبرنا»، أي عن قريش، فحاطب بعث برسالة إلىٰ أهله في مكة، يبلِّغهم بمَقدَم رسول الله ﷺ، وهو من أهل غزوة بدر، ومن أهل غزوة الحديبية، فأطلع الله ﷻ نبيه ﵊، فبعث علي بن أبي طالب والمقداد، وقال: «اذهبا إلىٰ روضة خاخ، فإن بها ضعينة»، أي امرأة، «ومعها كتاب، ائتياني بالكتاب»، فذهبا فوجدا في هذا المكان امرأة علىٰ بعيرها، فقالا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قالا: والله ما كذب رسول الله ﷺ، لتخرجينه، أو لنُجَرِّدنَّك: أي نخلع ملابسك، لنبحث عن الكتاب، فخافت علىٰ عَوْرتها، فقالت: إليكُما عني، فأهْوَت إلىٰ عقيصتها، فأخرجت منها الكتاب، فجاؤوا به إلىٰ النبي ﷺ، فإذا هو من حاطب إلىٰ قريش، يخبرهم بمقدم رسول الله ﷺ، ودعوة الرسول ﷺ مستجابة، وقد دعا الله أن يعمي خبره عن قريش، فاستجاب الله دعوته، وكشف هذا الخطاب، فجاء بحاطب، وقال: (**ما حملك يا حاطب علىٰ ما صنعت؟**)، قال: والله يا رسول الله، ليس بي رِدَّة عن الإسلام، ولكن ما من أحد من أصحابك، إلا وله أهل وبنون، أو أهل وعشيرة في قريش، ولم يكن لي فيهم أهل ولا عشيرة، فأردت أن يدفع الله بهذا الخطاب عن أهلي، قال عمر: يا رسول الله، دعني

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر، برقم: (٢٤٩٥)، (٤/ ١٩٤٢).

أضرب عنقه، فإنه قد نافق، قال ﷺ: **(وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)**(١).

فهذه الصحبة العظيمة، وهذه الفئة الكريمة، التي كانت قاعدة الإسلام، قد تجاوز الله عن أخطائها، وعن ضعفها، وعن تقصيرها، فشهود الصحابي لهذه الحوادث، وهذه الغزوات، يرفعه، وتجعله في أعلى درجات التكريم، ولو وقع منه ما وقع، فإن الضعف صفة من صفات البشرية، فهنا يُوصَف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، بأنه حضر بدرًا، وحضر الحُديبية، وهي بيعة الرضوان الحديبية، وهذه الغزوة التي اتفق فيها النبي ﷺ مع قريش، على إيقاف القتال، كانت فتحًا عظيمًا للإسلام، وقال ﷺ: **(لا يدخل النار -إن شاء الله- من أصحاب الشجرة، أحد الذين بايعوا تحتها)**(٢)، وهذا في الصحيح، وإنما قال: مَن بايع؛ لأن هناك شخصًا لم يُبايع، وهو جد بن قيس، اختفى خلف بعيره، وأما جميع الصحابة، فقد بايعوا رضي الله عنهم، وكان عددهم أربعمائة وألف تقريبًا، كلهم بايعوا على عدم الفرار، والصبر على القتال؛ لأنه ﷺ عندما وصل إلى الثنية، بركَت الناقة، فأرغمها على القيام، فأبَت، فقال: **(والله لا تريد قريش مني شيئًا، تعظِّم به بيتَ الله، إلا أعطيتُه إياه)**(٣)، فقامت الناقة، فرجع ﷺ، وبقي في الحديبية، وأرسل عثمان رضي الله عنه للصلح، فسمع أن عثمان قُتِلَ، فغضب ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، منها: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم الحديث: (٣٠٠٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر، برقم: (٢٤٩٤)، (٤/ ١٩٤١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان، برقم: (٢٤٩٦)، (٢٤٩٦).

(٣) أخرجه البخاري بمعناه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، برقم: (٢٧٣١)، وأما هذا اللفظ، فلم أجده في دواوين السنة، لعل الشيخ نقله بالمعنى.

وبايع الصحابة علىٰ القتال، وعلىٰ الصبر والموت، وفي بعض الروايات: بـايعوا علىٰ أنهم لا يفرُّون من القتال، فهذه البيعة كانت بيعة أخـرىٰ لعـدم الفـرار؛ لأنـه أراد أن يقتحم علىٰ أهـل مكـة دُورَهـم، عنـدما سـمع أنهـم قتلـوا عثمـان؛ لأنهـم قتلـوا الرسـول، والرسـول عـادة لا يُقتَـل، فبلغـه أن هـذا خـبر كـاذب، ثـم كـان الصـلح بـين الرسـول ﷺ وبـين قـريش لمـدة، أي كـان بيـنهم هُدنـة، فكـان هـذا فتحًا، فهذه الحادثة من حضرها من الصحابة، فإنه قد وُعِدَ بدخول الجنة، كمـا جـاء في الحـديث الصـحيح، فـابن مسـعود رضي الله عنه حضـر الغـزوتين، وهـو مـن السابقين الأولين، أي الذين أسلموا وهاجروا قبل بدر، فمَن هاجر إلىٰ المدينة قبل بدر، يُطلَق عليهم السابقون الأولون، فهـو رضي الله عنه كـان مـن هـذه الفئـة، وكـان سادس ستة في الإسلام، فهو من المسلمين الأوائل، وهو أول مَن جهـر بـالقرآن في المسجد الحرام، حتىٰ ضُرِبَ رضي الله عنه، وهو من فقهاء الصحابة وعلمـائهم؛ لأن الصحابة فيهم العبادلة الأربعة: عبد الله بـن مسـعود، وعبـد الله بـن عمـر، وعبـد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، فهؤلاء من فقهاء الصحابة.

وأمـا قولـه في الأثـر: أن هـذا الأثـر أخرجـه الترمـذي، فقـد مـرَّ أن في سـنده تدليسًا، لأن داود الأودي يُطلَـق علـىٰ راويـين، أحـدهما ثقـة، والثـاني ضـعيف، وأن الراوي عندما لـم يُبين أيهما المراد، كان هذا تدليسًا، ولهذا يكون الحـديث ضعيفًا، وإن كان الترمذي حسَّنه؛ لأن احتمال الروايـة عـن الضـعيف وارد، فلـو كان الراوي رواه عن الثقة، لبيَّنه، ولهذا شارح الترمـذي -وهـو المبـاركفوري- لـم يسـتطع أن يجـزم أيهمـا هـو، ولكـن قـال: الظـاهر أنـه هـو داود بـن عبـد الله الأودي. وكلمة الظاهر هذا تخلص من الترجيح الدقيق، ولكن الصحيح أنه لـم يُعـرَف أيهمـا، بـل الظـاهر أنـه الضـعيف؛ لأن الـراوي عـادةً إذا كـان شـيخه ثقـة يُصرِّح باسمه كاملًا، وأما إذا كـان ضـعيفًا، وكـان مـن المـُدلِّسين، فإنـه لا يُبـين أيهما روَىٰ عنه.

ومعنىٰ الأثر بيان مكانة هذه الآيات، وأنها من الآيات التي لم تُنسَخ، وقد مات ﷺ، وهي مما أوصَىٰ به؛ لأن الرسول لمْ يوصِ إلا بكتاب الله ﷻ، فوصاية الرسول ﷺ بكتاب الله، يضمن هذه الآيات الثلاثة.

وقوله ﷺ: (**إني تارك فيكم ما إن تمسَّكتم به، لن تضلوا، كتاب الله**)، هذا الحديث رواه مسلم بلفظ: (**لقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده، إن اعتصمتم به، كتاب الله**)(١)، وهذه الكلمة قالها في أعظم مجمع للمسلمين، في حجة الوداع؛ لأنه قد خطبهم خطبة طويلة، خطبة يودِّع بها أصحابه، ويعلِّمهم الحلال والحرام، وقد ذكر في هذه الخطبة العظيمة الحقوق المحرَّمة الثلاثة: الدماء والأعراض والأموال، ثم أوصاهم بكتاب الله، وقال: (**قد تركت فيكم ما لم تضلوا، إن تمسكتم به، كتاب الله**)(٢)، وهذا كتاب الله ﷻ فيه جميع ما تحتاجه الأمة الإسلامية في دينها، وسُنَّته ﷺ شارحة لكتاب الله ﷻ، وقد حفظ الله السُّنَّة بالمحدِّثين الذين حرصوا علىٰ رواية الأحاديث، وبذلوا في ذلك الجهد العظيم، وسافروا أسفارًا طويلة، وتحمَّلوا المشاق الطويلة في حفظ سُنَّة رسول الله ﷺ، فقيَّد الله للسُّنَّة مَن يحفظها من علماء الأمة، وقد وضعوا لهذه السُّنَّة ضوابط ومسالك دقيقة في حفظها، حتىٰ إنه لو همَّ رجُل بأن يكذب، لكشف الله كذبه، وكان العلماء يكشفون ما أُدخِل، أو أراد بعض الناس أن يدخله، في دين الله، عن طريق هذه الضوابط، بالسؤال عن سند هذا الحديث، فوضعوا لها هذه الضوابط التي تحفظ هذه السُّنَّة، ولكن بعض الطوائف المنحرفة تَرُدُّ السُّنَّة، وتزعم أنه لا يمكن أن نصدِّق كل ما جاء في السُّنَّة؛ لأنهم ليس عندهم دراية بعلم الأسانيد، ولا بمنهج المحدِّثين لحفظ سُنَّة رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، باب حَجَّةِ النَّبِىِّ -ﷺ- رقم (٣٠٠٩).

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: وقد روىٰ عبادة بن الصامت قال: (قال رسول الله ﷺ: أيكم يبايعني علىٰ هؤلاء الآيات الثلاث ثم تلا ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] حتىٰ فرغ من ثلاث آيات، ثم قال: من وفىٰ بهن فأجره علىٰ الله، ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلىٰ الآخرة كان أمره إلىٰ الله إن شاء أخذه وان شاء عفا عنه) رواه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه، فهذا يدل علىٰ أن النبي ﷺ يعتني بهن ويبالغ في الحث علىٰ العمل بهن.

الشَّرح

قوله: (وقد روىٰ عبادة بن الصامت)، هذا الحديث سنجعله نموذجًا لمنهج المحدِّثين، فإن هذا الحديث الذي رُوِيَ عن عبادة بن الصامت، قد رُوِيَ عن الزهري -محمد بن شهاب الزهري-، وهو من أتباع التابعين، وهو من أول مَن دوَّن الحديث، فقد رواه عنه ستة أشخاص، خمسة أشخاص رواياتهم في الصحيحين: البخاري ومسلم، وذكروا في هذا الحديث أن البيعة كانت علىٰ بيعة النساء، التي وردَ فيها أنه بايعهُن علىٰ أن لا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين.. إلىٰ آخر ما جاء في بَيْعة النساء، وليس فيها آيات الأنعام الثلاثة، فخمسة رَوُوا عن الزهري أن الحديث وردَ في آيات بَيْعة النساء، وليس في آيات الأنعام، ولكن الحديث رواه السادس، واسمه سفيان بن حسين الواسطي عن الزهري، وفيه أن البيعة كانت علىٰ آيات الأنعام، قال المحدِّثون: إن سفيان بن حسين الواسطي أخطأ ووَهِم؛ لأن سفيان لـمْ يلقَ الزهري، إلا في موسم الحج، والآخرون من تلاميذه الخاصين به، الذين عاشوا معه، وهم: معمر، وابن عيينة، ويونس بن عبد الأعلىٰ، وشعيب، وابن أخي ابن أبي هشام

محمد بن عبد الله بن مسلم، فوَهِم سفيان في هذه الرواية، لذا قال المحدِّثون: سفيان بن حسين الواسطي ثقة، ولكنه ضعيف في الزهري، أي هو ثقة إذا روىٰ عن غير الزهري، ولكن إذا روىٰ عن الزهري فهو ضعيف؛ لأنه لم يلقه إلا مرة واحدة في الحج، إلا إذا وافق روايته رواية الآخرين، فإنها تُقبَل، وهنا خالفت؛ لأنه ذكر أن البيعة كانت علىٰ آيات الأنعام، والآخرون ذكروا أن البيعة كانت علىٰ بيعة النساء، فلهذا يعتبر حديثه مُنكَرًا شاذًّا؛ لأنه خالَف الثقات في حديث مشهور، ورواياتهم في الصِّحاح، وهذه هي الدقة في بيان درجات المحدِّثين والرواة.

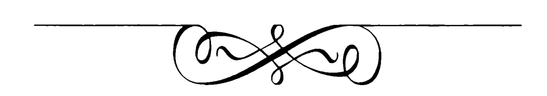
وهذا الحديث أوْرده ابن أبي حاتم في التفسير، وابن أبي حاتم هو عبد الرحمن بن أبي حاتم، صاحب الجَرح والتعديل، وله تفسير كبير، وهو علىٰ نمط الطبري، ولكنه مملوء بالأحاديث الضعيفة، ورواه الحاكم وصحَّحه، وقد سبق أن الحاكم مُتساهِل في التصحيح، وكتابه المستدرك الذي أراد أن يستدرك به علىٰ البخاري ومسلم، يقول العلماء: لا يكاد يصفو له منه إلا ربعه، مع أنه يقول: إن هذا الاستدراك أوْرد فيه الأحاديث الصحيحة، فهذا يستلزم من طالب العلم أن لا يعمد إلىٰ الكتب المدوَّنة، فيأخذ ما فيها من الأحاديث، ثم يحدِّث بها الناس؛ فإنه حينئذ سيكون مُخطئًا، لأنه ليست الأحاديث التي في الكتب كلها صحيحة، بل فيها من الصحيح، والضعيف، والحسن، والموضوع، ما عدا الصحيحين البخاري ومسلم، غير اليسير المُنتقَد عليه، وإن كان أكثرهم قد انتصر له في ذلك، كما قال السيوطي في ألفيته:

وانتقدوا عليهما يسيرًا فكم ترىٰ نحوهم نصيرًا

فالدارقطني رحمه الله انتقد مائة وعشرة أحاديث تقريبًا علىٰ الصحيحين، وإن كان الحق فيها كان مع أصحاب الصحيحين، إلا بعض الأحاديث كان

الدارقطني فيها مُصيبًا، والدارقطني في حفظه وعلمه، كان أعجوبة الدهر، له كتاب العلل، يدل علىٰ علمه وفطنته وذكائه -رحمه الله -، له قصة في الحفظ، وذلك أنه تأخَّر عن شيخه مرة، وقد روَىٰ الشيخ قرابة عشرين حديثًا، وفي اليوم الثاني جاء إلىٰ الدرس، وأخذ صحيفة زميله ينقل منها الأحاديث، والشيخ كان يُلقي الأحاديث، فقال بعض التلاميذ: أنت تضيع درسًا علىٰ درس آخر، فأنت الآن تكتب الأحاديث، وتنسىٰ التي تسمعها من الشيخ، قال: إنني أكتب وأحفظ ما يقوله الشيخ، فقال: أسمعنا، فأعاد جميع الأحاديث التي قالها الشيخ، وقد نقل كل الصحيفة. لطيفة: قال العلماء: إذا كان الطالب أثناء الدرس يكتب شيئًا هامًّا، هل تُقبَل روايته، أي هل هو سمع من الشيخ؟ قالوا: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ولا يجوز أن يُسمَّىٰ علمه سماعًا، إلا إذا كان كالدارقطني، فالدارقطني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان حافظًا عجيبًا، وكان في الحديث يُضاهي البخاري ومسلمًا، -رحمهم الله جميعًا-.

فالشاهد أن كُتُب السُّنَّة، خاصةً التي بعد الكتب الستة، كمعاجم الطبراني، وجامع السيوطي، والمسانيد المختلفة، لا ينبغي لطالب العلم أن يأخذ منها الأحاديث، إلا إذا تأكَّد من صحتها.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعن معاذ بن جبل قال: (كُنتُ رَدِيفَ النَّبِي ﷺ علىٰ حمَارٍ فقالَ لي: ياَ مُعَاذُ، أَتَدْرِي ما حَقُّ اللهِ علَىٰ العِبَادِ؟ ومَا حَقُّ الْعِبَادِ علَىٰ اللهِ؟ فَقُلْتُ: اللهُ ورَسُولُهُ أعْلَمُ. قال: حقُّ اللهِ علَىٰ الْعِبادِ أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا بهِ شَيئًا وحَقُّ العِبَادِ علَىٰ اللهِ أن لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيئًا. فقُلتُ: يا رسولَ الله أفَلا أُبَشِّرُ الناسَ، قالَ: لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا) أخرجَاه في الصحيحين.

هذا الحديث في الصحيحين وبعض رواياته نحو ما ذكر المصنف، ومعاذ هو: معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الانصاري الخزرجي أبو عبدالرحمن صحابي مشهور من أعيان الصحابة شهد بدراً وما بعدها، وكان إليه المنتهىٰ في العلم بالأحكام والقرآن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مات سنة ثمان عشرة بالشام.

قوله: (كنت رديف النبي ﷺ) فيه جواز الإرداف علىٰ الدابة، وفضيلة لمعاذ من جهة ركوبه خلف النبي ﷺ.



الشرح

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كنت رديف النبي ﷺ علىٰ حمار)، هذه الرواية إحدىٰ روايات معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي الرواية الأخرىٰ أنه قال: -وكان رديفه علىٰ الدابة-، (يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله، وسعديك)، ثم مشىٰ قليلًا، ثم قال: (يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله، وسعديك)، ثلاث مرات، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا حرَّمه الله علىٰ النار)، فقال: (يا رسول الله، أفلا أُبشِّر الناس؟)، قال: (لا تبشِّرهم، فيتَّكِلوا)، أو (إني أخاف أن يتَّكِلوا)[1]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه باختصار، وباختلاف يسير في الألفاظ، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم؛ كراهية أن لا يفهموا، برقم: (١٢٨).

هـذه إحـدىٰ روايـات معـاذ ﵁ في هـذا الحـديث، وسيأتي -إن شـاء الله- هـذا الموضوع؛ لأن الشارح قد أوْرد فيه عدة أحاديث، تتعلق بقضية دخول الجنة لمَن مات علىٰ الإسلام، وهل يدخل الجنة ابتداءً إذا كان موحِّدًا، أم لابد من دخول النار؟ هذا فيه تفصيل.

ومعـاذ ﵁ بعثه النبي ﷺ إلىٰ اليمن رابع أربعة، في السنة التاسعة أو العاشرة، فقد بعث النبي ﷺ إلىٰ اليمن أربعة من الصحابة -رضوان الله عليهم-: بعث خالد ابن الوليد ﵁؛ لحربهم، وبعث علي بن أبي طالب ﵁؛ لأخذ الخُمس، وبعث أبا موسىٰ الأشعري ﵁ علىٰ اليمن الأسفل، علىٰ المخلاف الأسفل، وهو ما يُسمَّىٰ باليمن الشمالي اليوم، وبعث معاذًا ﵁ علىٰ المخلاف الأعلىٰ، فمعاذ وأبو موسىٰ ﵄ كانا قاضيين، ومعلِّمين، وكانا أميرين، أَما خالد ﵁ فقد كان قائدًا للجيش للجهاد، وعلي ﵁ كان يأخذ الخُمس، الذي هو خاص برسول الله ﵊، ومعاذ بن جبل ﵁ كان من علماء الصحابة، وبعد أن مات النبي ﷺ رجع معاذ ﵁، ثم ذهب إلىٰ الشام، وبقِيَ فيها إلىٰ نصف خلافة عمر ﵁، ثم توفي ﵁.

قوله: (**فيه جواز الإرداف علىٰ الدابة**)، قد وردَ في بعض الأحاديث أنها الحمار، أي أن الرسول ﷺ أردفه معه علىٰ الحمار، وركوب الرسول ﵊ علىٰ الحمار مع وجود الخيل والإبل، يدل علىٰ تواضعه ﵊، والتواضع خُلُق الأنبياء، وخُلُق الصالحين، بل خُلُق كل مسلم، فإن التكبُّر هو أول ذنب عُصِيَ الله به في السماء، وهو معصية إبليس، فإن الله أَمَرَه، فاستكبر، فكان جزاؤه جهنم، ولهذا قال العلماء: الفرق بين معصية ترك الأمر، ومعصية ارتكاب النهي، تختلف، فإنه إذا أُمِرَ الشخص بأمر، فامتنع، دلَّ علىٰ كِبْره، ولكن لو نُهِيَ عن شهوة، فلم يمتنع، ووقع فيها، فهذا ضَعْف في عَزْمه، وليس تكبُّرًا، فإبليس امتنع لما أُمِر، فكان هذا منه استكبارًا، فكان جزاؤه جهنم، وآدم ﵇

نُهِيَ، فكان الدافع له الشهوة، وليس الكِبْر، فصار له مجال للتوبة، ولهذا يُفرِّق ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بين الذنبين؛ لأن ترك الأوامر يدل علىٰ الكِبْر في النفس، والكبر خُلق مذموم، لا يحِلُّ قلبًا إلا ويستحق صاحبه جهنم، والكِبْر أن يشعر الإنسان بأن له فضلًا علىٰ غيره، وأن يحتقر الناس، وأن يرد الحق، وذرة من هذا الكِبْر، تهدم جبال الحسنات، وقد جاء في الحديث أنه: **(لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر)**(١)، فما بالك بدرهم، وما بالك بقنطار، وما بالك بجبال الكبر -نعوذ بالله-، فنبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان أبعد الناس عن الكِبْر، فكان يأكل كما يأكل العبيد، ويركب كما تركب العبيد، وعندما خُيِّرَ -كما وردَ في بعض الآثار- أن يكون مَلِكًا رسولًا، أو عبدًا رسولًا، اختار أن يكون عبدًا رسولًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فالتواضع خُلق المسلم، والكِبْر يُضاد أصل الإيمان، لا يُضاد كماله فقط، فإذا دخل الكِبْر قلبًا، خرج منه الإيمان؛ لأن الكِبْر أو الاستكبار من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو المتكبِّر وحده عَزَّ وَجَلَّ، فينبغي للمسلم أن يحذر من أن يقع في هذا الذنب العظيم، الذي لا يغفره الله يوم القيامة.

وحصلت لمعاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذه الفضيلة، بأن الرسول يردفه وراءه، فهذا يدل علىٰ محبته لمعاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقد جاء في الحديث: **(يا معاذ إني أحبك، فلا تدعْن دُبُر كل صلاة، أن تقول: اللهم أعني علىٰ ذكرك، وشكرك، وحُسن عبادتك)**(٢)، فمعاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان محبوبًا للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم: (٩١)، (١/ ٩٣).

(٢) أخرجه أبوداود في سُننه، كتاب الصلاة، باب الاستغفار، برقم: (١٥٢٢)، والبخاري في الأدب المفرد، باب دعوات النبي ﷺ، برقم (٦٩٠)، والنسائي في سُننه، كتاب الصلاة، باب نوع آخر من الدعاء، برقم: (١٣٠٣)، والحاكم في المستدرك، كتاب الصلاة، برقم: (١٠١٢)، والإمام أحمد في مسنده، برقم: (٢٢١٩)، (٣٦/ ٤٣٠)، وصحَّحه الألباني في تعليقه علىٰ سُنن أبي داود ص٢٦١.



قال المؤلف رحمه الله:

قوله: (على حمار) في رواية (اسمه عُفَير) بعين مهملة مضمومة ثم فاء مفتوحة، قال ابن الصلاح: وهو الحمار الذي كان له ﷺ. قيل: إنه مات في حجة الوداع، وفيه تواضعه ﷺ للإرداف، ولركوب الحمار خلاف ما عليه أهل الكبر.

قوله: (أتدري ما حق الله على العباد؟) الدراية: هي المعرفة، وأخرج السؤال بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم، فإن الإنسان إذا سئل عن مسألة لا يعلمها ثم أخبر بها بعد الامتحان بالسؤال عنها، فإن ذلك أوعى لفهمها وحفظها، وهذا من حسن إرشاده وتعليمه ﷺ.

(وحق الله على العباد) هو ما يستحقه عليهم ويجعله متحتماً، (وحق العباد على الله) معناه: أنه متحقق لا محالة؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده، ووعده حق إن الله لا يخلف الميعاد.



الشرح

قوله ﷺ: (أتدري ما حق الله على العباد؟)، هذا نموذج من أساليب التربية النبوية للصحابة رضي الله عنهم، وتعليمهم، فأحيانًا يُلقي إليهم القول إلقاءً، وأحيانًا يُقدِّم بمقدمة قبل الإلقاء بها؛ لإثارة الانتباه بمثل هذا السؤال، وأحيانًا بقياس مسألة على مسألة، وأحيانًا يذكر القصص، قصص الماضين، فإن الماضين كان فيهم عِبْرة، وهكذا كان - عليه الصلاة والسلام - يعلِّم الصحابة بوسائل متنوعة، وهذا أكمل التعليم، وأبلغه، وأفضله، وهذا ما جاء به القرآن الكريم، فالقرآن قد ذكر القصص، وذكر القياسات، وذكر الأمثال، وذكر كثيرًا من القضايا على وجه الاستنكار والاستفهام، هذه كلها أساليب قرآنية، وأساليب نبوية، وهذه مما ينبغي أن يهتم بها المعلِّمون؛ لأنها ترسخ في نفوس الناس ما يريده المعلم من طلابه.

فالحديث ذُكِرَ فيه حقين، والحق: هو الذي سيتحقق لا محالة، والحق

قسمان: حق بالأمر، وحق بالوعد، فالحق علينا بالأمر، لأن الله أمرنا أن نفعل، والحق على الله بالوعد، وهو حق تفضُّل منه ﷻ، لم يحقه غيره عليه ﷻ، بل من فضله وكرمه ﷻ أن جعل ذلك على نفسه حقًّا للمؤمنين، كما قال ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧]، فالله هو الذي أحق هذا الحق على نفسه ﷻ.

فليس المراد بالحق هنا أن أحدًا فرض على الله ﷻ حقًّا، إنما المراد أن الله إذا وعد بوعد ثواب، فإنه متحقق لا محالة، ولكنه لو توعَّد على فعل، فإن هذا إلى مشيئته، قد يحققه، وقد لا يحققه، مثاله: -ولله المثل الأعلى-، لو أن الإنسان وعد ولده بجائزة إذا نجح في الامتحان، قال: إن نجحت، أعطيتك جائزة، وإن لم تنجح، فإنني أعاقبك، فنجح أحد أبنائه، فيلزمه أن يعطيه ما وعد به، ولو لم يعطه لكان كاذبًا، ولكن لو رسب ابنه الثاني، ولم يضربه، لا يسمَّى كاذبًا، هذا يُسمَّى كرمًا، فالله قد يتوعَّد الناس بالعقاب، ولكن قد يعفو ﷻ، فإذا عفا، كان هذا منه كرمًا، وليس كذبًا؛ لأن الكذب إنما هو إذا تعلق بحق الإنسان، أما إذا تعلق بحقه -تعالى- فهذا كرم منه، قد يحققه، وقد لا يحققه، ولهذا قال العلماء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء:٩٣]، إلى آخره: إن الله لم يقل: إنه سيدخله النار، إنما قال: (جزاؤه)، أي يستحق هذا الجزاء، ولكن الله قد لا يحققه ﷻ.

فالمعاصي جزاؤها العقاب، والله قد يعفو ﷻ، أما الحسنات فجزاؤها الثواب، وهذا وعد متحقق بفضل الله ﷻ، وهذا يخالِف فيه الطوائف، كما يذكر ابن تيمية رحمه الله، فأهل السُّنَّة يقولون: إن هذا الحق الذي على الله، هو حق تفضُّل وإنعام، أما المعتزلة فيقولون: هذا حق واجب على الله بالقياس على المخلوق، نعوذ بالله، وهذا من شناعات المعتزلة، كما سيذكره ابن تيمية رحمه الله.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال شيخ الإسلام: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق على المخلوق، فمن الناس من يقول: لا معنى للاستحقاق إلا أنه أخبر بذلك ووعده صدق. ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقاً زائداً على هذا، كما دل عليه الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧]، ولكن أهل السنة يقولون: هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب هذا الحق على نفسه لم يوجبه عليه مخلوق. والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على الخلق وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك وهذا الباب غلطت فيه القدرية والجبرية تُباع جهم والقدرية النافية.

قوله: (فقلت: الله ورسوله أعلم) فيه حسن أدب المتعلم، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك بخلاف أكثر المتكلفين.



الشـرح

قوله: (وقال شيخ الإسلام: كَوْن المطيع...)، أشار رَحِمَهُ اللَّهُ هنا إلى مذهبَيْ أهل السُّنَّة والجماعة، والمعتزلة، قال: فأهل السُّنَّة والجماعة يقولون: إن هذا الحق هو حق إنعام وتفضُّل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما المعتزلة فهم يقولون: إنه حق واجب على الله، كما يجب على المخلوق، أي قياسًا على المخلوق، فالمعتزلة يُسمُّون مُشبِّهة الأفعال، ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ : إنهم يزعمون أن الذين أطاعوا الله، ليس لله عليهم مِنَّة، فهم فعلوا الطاعات بدون أن

يجعلهم الله مُطيعين له، وهذه عقيدة المعتزلة، فإن المعتزلة يعتقدون أن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه، وأن الله لا يخلق أفعال العباد، يقول أحد علمائهم، بل المُنظِّر لهم، القاضي عبد الجبار الهمزاني، في كتابه المغني -هذا الكتاب وُجِدَ منه بعض مجلداته، وطُبِع في قرابة عشرين مجلدًا تقريبًا، ولو طُبِعَ طباعة عادية، لعله يبلغ ثمانين مجلدًا، كله كلام في قضايا العقيدة، ولا تجد فيه آية أو حديثًا، إلا نادرًا، وفيه إن قلتم كذا، قلنا كذا، ولو قالوا كذا قلنا كذا، كلام يُقسِّي القلوب-: "اتفق كل أهل العدل -(المعتزلة يسمُّون أنفسهم أهل العدل، وأهل التوحيد)- علىٰ أن أفعال العباد من تصرفهم، وقيامهم وقعودهم حادثة من جهتهم، وأن الله ﷻ أقدرهم علىٰ ذلك، ولا فاعل لها، ولا مُحدِث لها، سواهم، وأن مَن قال: إن الله -سبحانه- خالقها ومُحدِثها، فقد عَظُمَ خطؤه"[1].

فهم يعتقدون أن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه، وليس لله في خلق العباد أي تعلُّق، هذا ما يتعلق بعقيدة القدرية أو المعتزلة، أما من يسمُّون بالجبرية فهم طائفتان، الجبرية الخالصة، وهم أتباع جهم -كما يقول ابن تيمية-، والجبرية المتوسطة.

فالجبرية الخالصة قابلوا المعتزلة، فالمعتزلة في طرف، والجبرية في طرف، وقد ردُّوا علىٰ البدعة ببدعة مثلها، أو أشد، فالمعتزلة تقول: ليس لله فعل، ولا خَلْق في أفعال العباد، فنَفَت خلق الله، وجعلت الأعمال كلها من فعل العباد.

---

(١) المغنىٰ في أبواب التوحيد والعدل ٨/ ٣، الكلام في المخلوق - ذكر اختلاف الناس في أفعال العباد ".

والجبرية خالفت، وقالت: بل ليس للعباد في أفعالهم أي دور، وليس لهم فيها أي طاقة، ولا قدرة، ولا عمل، بل كلها من فعل الله، والإنسان مع أعماله مثل السَّعَفة في الريح، فالإنسان الذي أصيب بحركة المرض، بالحُمَّىٰ مثلًا، مثل الشخص الذي يأكل ويصلي ويصوم، كلاهما سواء، فليس للعبد فيها اختيار، وهذه قابلت القدرية والمعتزلة.

أما الجبرية المتوسطة، فيطلق علىٰ الأشاعرة؛ لأن الأشاعرة يقولون: إن فعل العبد ليس له منه إلا الإرادة، وإذا أراد العبد شيئًا، فالله يفعل ما أراده، فإذا أراد أن يصلي، خلق الله له فعلًا يصلي به، إذا أراد أن يصوم، خلق الله له فعلًا يصوم به، قال العلماء: فالإرادة مَن خلقها؟ فما استطاعوا أن يجيبوا علىٰ هذه الشبهة؛ لأنهم يقولون: إن أفعال العباد خَلْق الله، وكسب العباد. ويقولون: نحن نتفق مع الجبرية في بعض عقيدة الجبر، يقول البيجوري -وهو أحد علماء الأزهر، وتوفي قبل ستين سنة، أو حولها- في علامات التوحيد: "وبالجملة فليس للعبد تأثير ما، فهو مجبور باطنًا، مُختار ظاهرًا". أراد أن يجمع بين الاختيار والجبر، فإن قيل: إذا كان مجبورًا باطنًا، فلا معنىٰ للاختيار الظاهري؛ لأن الله قد علم وقوع الفعل ولابد، وخلق في العبد القدرة عليه، أجيب بأنه -تعالىٰ- لا يُسأل عما يفعل، أي ما استطاع أن يجيب، ثم قال: ولذلك قال سيدي إبراهيم الدسوقي -وهذا أحد من يُسمَّىٰ بالأولياء، والتصوُّف قد اختلط بالأشعرية-: (مَن نظر للخَلْق بعين الحقيقة، عَذَرَهم، ومَن نظر بعين الشريعة، مَقَتَهم، فالعبد مجبور، في صورة مُختار)[1]. ما معنىٰ هذا الكلام؟ إذا نظر بعين الصوفي يُعذَر الإنسان علىٰ فعله، يُعذَر فرعون، ويُعذَر أبو جهل، ويُعذَر أبو لهب؛ لأن هؤلاء يطبِّقون إرادة الله فيهم، أي

---

(١) انظر: تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد ص١١٨.

مجبرون على فعلهم، ولكن لو نظر بعين الشريعة الظاهرة فإنه قد يمقتهم أي: يحاسبهم ويكرههم على فعلهم، ومما ينبغي أن يعلم أن الإسلام ليس فيه حقيقة وشريعة؛ لأن الإسلام ليس فيه إلا شريعة، شريعة نبينا ﷺ، فكيف يُقال: ينظر إليهم من منظارين: منظار الحقيقة، ومنظار الشريعة؟ بمعنى أن الأمر له جانبان: جانب حقيقي، وجانب صوري، والجانب الحقيقي هو الذي يفهمه ويعرفه الصوفي، والجانب الصوري ما تقرُّه الشريعة، مفهومه أن الأنبياء جاؤوا بأحكام هي صور وأشكال، ولم يأتوا بأحكام الحقائق، وهذا -نعوذ بالله- غاية الضلال.

قال ابن تيمية[1] رحمه الله : وأما أهل السُّنَّة فإنهم يقولون: إن فعل العبد، فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله، ومفعول له، فله جانبان، فللعبد اختيار، ولكن اختياره داخل مشيئة الله، لك مشيئة مستقلة داخلة في مشيئة الله، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ [التكوير:٢٨]، فأثبت له مشيئة مستقلة، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير:٢٩].

فمشيئة الله تحيط بالإنسان، ولكن كيف تلتقي المشيئتان؟ كيف يلتقي فعله مع فعل الله؟ هذا لا نستطيع أن نعرفه؛ لأننا لا ندرك كل شيء في الوجود، ولكن القرآن والسُّنَّة مملوءان بإثبات الإرادتين: إرادة الإنسان، وإرادة الله ﷻ، فإن إرادة الله من فعله، وفعله من صفاته، وصفاته من ذاته، فكيف نستطيع أن نعرف كيف يشاء الله؟ هذا أمر فوق طاقتنا، فليس لنا إلا التسليم، ولكننا

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله في منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٩٨)، (وأما جمهور أهل السنة المتبعون للسلف والأئمة، فيقولون إن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله، ومفعول لله، لا يقولون هو نفس فعل الله، ويفرقون بين الخلق والمخلوق، والفعل والمفعول).

محاسبون على فعلنا، فينبغي أن نُدرِك أولًا أننا محاسبون على تصرفاتنا، وأن الله جعلنا قادرين مختارين، وأن الله ﷻ عادل لا يظلم، ويستحيل أن يظلم، وأن يحمِّلنا أمرًا لم نعمله، أو لم نفعله باختيارنا، فالعبد مختار، وقادر أن يتحرك كما أراد، ولكن داخل إرادة الله، ومشيئته، فكما أن جسمنا داخل الكون، فكذلك فعلنا داخل مشيئة الله، ولله المثل الأعلى.

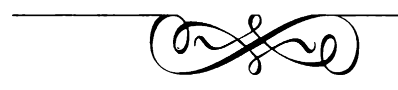
قوله: (**فقلت: الله ورسوله أعلم**)، هذا بعض أدب طالب العلم، وبعض أدب العلماء، إذا سُئِلَ عن أمر لا يعلمه، يقول: الله أعلم. والصحابة رضي الله عنهم لهم مواقف، يسألهم فيها النبي ﷺ عن أشياء فيقولون: الله أعلم، وهم يعلمون، ولكن هذا من باب الأدب، وأشهرها في الحج، عندما سأل النبي ﷺ الصحابة، فقال: **أي يوم هذا؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **أليس الحج الأكبر؟** قالوا: بلى، قال: **أي بلد هذا؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **أليس البلدة -أو البلد- الحرام؟** قالوا: بلى، قال: **أي شهر هذا؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **أليس ذي الحجة؟** فيسألهم وهم يقولون: الله ورسوله أعلم، ثم قال ﷺ: (**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم، حرامٌ عليكم، كحُرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا**)[1].

فأدب المتعلِّم أو العالِم إذا سُئِلَ عن أمر، وعنده مَن هو أعلم منه، أن لا يجيب حتى يسمع الزيادة من العلم، وإن كان لا يعلم فيقول: الله أعلم؛ لأنه لا ينبغي للإنسان أن يجيب عما لا يعلم، والعالِم قد يُسأَل أحيانًا عن مسألة لا يجهلها، ولكن يكون في ذهنه أشياء كثيرة، تمنعه من الإجابة، ومثال ذلك:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: رب مُبلِّغ أَوْعَى من سامع، برقم: (٦٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين، باب تغليظ تحريم الدماء، برقم: (١٦٧٩)، (٣/ ١٣٠٥).

مالك بن أنس -رضي الله عنه، ورحمه الله-، وهو إمام دار الهجرة، جاءه سائل بأربعين مسألة، فسأله عنها، فقال: في أربعة وثلاثين منها: الله أعلم. وأجاب علىٰ ستة، فقال السائل: ماذا أقول لمَن ورائي، فإنني قد أتيتك من المغرب؟ فقال: اذهب إليهم، وقل سألتُه، فقال: الله ورسوله أعلم. فهذا إمام دار الهجرة، العالِم المحدِّث الكبير، الذي كان في عصره يُرجَع إليه في الفتوىٰ، وفي العلم، وكان مشهورًا تُضرَب إليه آباط الإبل من كل مكان، ولكنه كان قد تتعارض في ذهنه الأدلة، أو قد يكون في ذهنه أشياء لا يدركها طالب العلم، وعندما قال: الله أعلم، فليس جهلًا منه، ولكن يكون في ذهنه من التعارُض، أو من الاختلاف، أو من عدم وضوح الدليل، ما يمنعه من الإفتاء، وهكذا معاذ رضي الله عنه عندما سأله: (**أتدري ما حق الله علىٰ العباد**)[1]، قال: (**الله ورسوله أعلم**).



---

(١) سبق تخريجه.

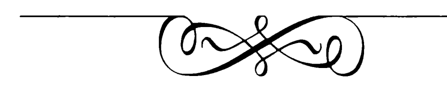
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا) أي: يوحدوه بالعبادة وحده ولا يشركوا به شيئًا، وفائدة هذه الجملة بيان أن التجرد من الشرك لابد منه في العبادة، وإلا فلا يكون العبد آتيًا بعبادة الله بل مشرك، وهذا هو معنى قول المصنف: إن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه، وفيه معرفة حق الله على العباد وهو عبادته وحده لا شريك له، فيا من حق سيده الإقبال عليه والتوجه بقلبه إليه لقد صانك وشرفك عن إذلال قلبك ووجهك لغيره، فما هذه الإساءة القبيحة في معاملته مع هذا التشريف والصيانة فهو يعظمك ويدعوك إلى الإقبال وأنت تأبى إلا مبارزته بقبائح الأفعال.

الشرح

قوله: (أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا)، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذه الجملة تفيد أنه لابد من قضيتين للمسلم: وهي التوحيد، وترك الشرك، أي: فعل وترك، فالفعل هو العبادة، والترك هو ترك الشرك، وهذا معنى لا إله إلا الله، فهي نفي وإثبات، وكذلك قول الرُّسُل، ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل:٣٦]، فهما قضيتان، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فهذا الحديث على نفس المنهج، أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، والعتاب الأخير في قوله: (فيا مَن حق سيده الإقبال عليه، والتوجُّه بقلبه إليه، لقد صانك وشرَّفك)، أراد أن يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: أيها الإنسان، إن الله جَلَّ أكرمك بالتوحيد، وجعلك لا تَذِل بوجهك، ولا بقلبك، ولا بجوارحك، إلا له سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فلا تُدنِّس كرامتك، ولا تُهِن نفسك، بأن تسجد لصنم، أو تتقرب إلى وثن، أو تعبد بشرًا حيًّا أو ميتًا، فأنت عزيز أمام الآخرين،

وكلهم لله عبيد، ليس في البشر أرباب وعبيد، الجميع عبيد الله، ويقول الله لك: (لا تشرك بي)، أي لا تُدنِّس كرامتك، لا تَذِل لغيري، ثم تصرف ذُلَّك، وحاجتك، وخوفك، ومحبتك للعبيد! فمحبتك لله، وخوفك منه، وتوكلك عليه تكريم لك، وأنت تأبَىٰ هذا التكريم، فتُدنِّس نفسك، فتخضع للمخلوق، وتَذِل له، وترجوه، وتتوكل عليه، وتطمع في رزقه، فهذه كلها تنقيص لمكانتك، فالله يعاتبك هذا العتاب، ويقول لك: إني قد كرَّمتُك، وشرَّفتُك، وجعلتُك عبدًا لي، فلا تكُن عبدًا لعبيدي، ولا عبدًا لمخلوقاتي، هذا مُراد الشارح رحمه الله من هذه العبارة، وهذه أشبه بكلام ابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد، فإنه علىٰ هذا النمط، وعلىٰ هذا الأسلوب.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

في بعض الآثار الإلهية: (إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بالنعم، ويتبغضون إلي بالمعاصي)

وكيف يعبده حق عبادته من صرف سؤاله ودعاءه وتذلله واضطراره وخوفه ورجاءه وتوكله وإنابته وذبحه ونذره لمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً من ميت رميم في التراب أو بناء مشيد من القباب فضلا مما هو شر من ذلك.

الشَّرح

قوله: (**في بعض الآثار الإلهية**)، وهذا الأثر أوْرده البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ في شُعَب الإيمان، وفي سنده بقية بن الوليد، المشهور بالتدليس، وهذا الأثر نداء لطيف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو يعاتب خلقه، يقول: (**إني والجن والإنس في نبإٍ عظيم، أخلُق، ويُعبَد غيري، وأرزُق، ويُشكَر سواي، أتحبب إليهم بالنِّعم، ويتبغَّضُون إلي بالمعاصي، خيري إلى العباد نازل، وشرُّهم إليَّ صاعد**)، هذا الإنسان الجَحُود الكَنُود يرى هذا الوجود العجيب، نرى الوجود في كل دقيقة وثانية خَلْقًا جديدًا، كل لحظة يُخلَق أحياء، وتموت أحياء، ويوجد أرزاق، ويفنَى أرزاق، والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يخلق هذا الخلق، هذا الإنسان لو تذكر رحلته الطويلة التي مرَّ بها، والتي كلها عَجَب، لاعتبر! ولكن إلْف الإنسان، وكثرة رؤيته للأشياء، تُفقِدها عظمتها، وإلا فإن الكون عظيم، وفي نفس الإنسان التي بين جنبيه آيات وعجائب، فإذا تذكر الرحلة الطويلة، كيف بدأت من خلية واحدة؟ وتُسمَّى عند الأطباء بالحيوان المنوي، أين كان هذا الحيوان المنوي مختفيًا؟ وفيه جميع صورته، وجميع مشاعره، وجميع أخلاقه، كلها تكمُن في تلك الذرة الصغيرة، التي لا تُرَى إلا بالمجهر، لا تُرَى بالعين المجردة، ثم تلتقي مع

البويضة، وتكونان عَلَقَة، تخرق جدار الرحم، وتَعْلَق فيه، ثم تتدرج في الخلق، والله يخلق، ويصوِّر، ويرزق، حيث لا تمتد يد من أيدي البشر، ويجعل له السمع، والبصر، والجوارح، والجهاز الهضمي، والجهاز العصبي، والجهاز التنفسي، حتىٰ إذا اكتمل خَلْقه، أخرجه، وقلب رأسه إلىٰ أسفل، ثم يسَّر له الخروج إلىٰ خارج الرحم، فيخرج إنسانًا سويًّا مُجهَّزًا بجميع ما يحتاج إليه، من سمع يسمع به، وبصر يبصر به، وجهاز يتنفس به، وجهاز للطعام، وجهاز يضخ الدم، والسمع من حكمة الله به، أنه جعله لا يسمع إلا أشياء معينة، وإلا فالكون مملوء بالأصوات، فكم في الكون من كواكب ونجوم، وهي تنطلق في الفضاء تُحدِث أصواتًا رهيبة، كم ينطلق في الفضاء من شُهُب، تُحدِث أصواتًا رهيبة، كم في الكون من صور مبثوثة: صور الجن، وصور الملائكة، وصور الشياطين، بل إن الإنسان نفسه اخترع أجهزة تبُثُّ أصواتًا وصورًا في الفضاء، فلو كان خَلْقه ليس مُتقنًا، ما استطاع أن يعيش، لو كان سمعه زائدًا عن حدِّه، لسمع أصوات الكواكب، وأصوات النجوم، وأصوات الإذاعات البشرية التي فوق رأسه، عندما نفتح المذياع نسمع الأصوات الكثيرة، مائة، وألف، بل آلاف، وكلها في الفضاء، وكم هناك من صور تُبَثُّ عن طريق البث التي يلتقطها جهاز الاستقبال التلفاز، فالوجود مملوء بالصور والأصوات، ومن رحمة الله بالإنسان، وإعداده المُتقَن له، أن جعل سمعه وبصره محدودين، ولما مرَّ نبينا ﷺ علىٰ قبرين، أعطاه الله سمعًا زائدًا، فقال للصحابة: **هل تسمعون ما أسمع؟** قالوا: لا. قال: **(إنهما ليعذبان)**، أي: ويصيحان، وهو يسمعهما ﷺ، **(أما إنهما لا يعذبان في كبير، أما أحدهما، فكان لا يستنزه من البول)**، أو **(لا يستتر من البول)**، أي يبول أمام الناس، أو أنه إذا تبوَّل، لا يغتسل، فيقع البول علىٰ ملابسه، **(والآخر كان يمشي بالنميمة)**[1]، فسمع أصواتهما، وهما يُعذَّبان في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، برقم (٢١٨)، ومسلم في صحيحه، =

القبر، ويصيحان، وفي الحديث الشريف: أن الكافر (**يُضرَب بمطرقة، فيصيح صيحةً، يسمعها من يليه، إلا الثقلين**)[(١)] : الإنس والجن، فيسمعه الدواب والحيوانات، ولكن الإنس والجن لا يسمعون، فالله أعطىٰ الحيوانات سمعًا زائدًا، ولهذا بعض الحيوانات تسمع أصوات الزلزال في أعماق الأرض، قبل أن يرتفع، ويذكر ابن تيمية ﵀ : أنه كان في الشام مقابر لليهود، فإذا أمسَكَت الدابة، أي صارت لا تبول، وكان عندها إمساك، ذهبوا بها إلىٰ مقابر اليهود، فاليهود يُعذَّبون، وتسمع الدابة أصواتهم، فيأتيها إسهال وتبوُّل.

فمن رحمة الله بالإنسان، وخلقه الدقيق له، أنه خلقه في هذه الصورة المحكَمة، ولم يجعل له سمعًا زائدًا، ولا بصرًا زائدًا، وكذلك بقية الأجهزة، فهذا القلب يضخُّ الدم، ولا يتوقف ستين سنة، أو ثمانين سنة، يقول العلماء: يضخُّ ويتحرك في اليوم أكثر من مائة ألف مرة، وهذا الرزق العجيب ليس للإنسان جهد فيه، إلا أن يأكله، ماذا يجري في داخل جسمه؟ كيف يتحرك الطعام؟ كل ذلك من خَلْق الله ﷻ، كيف يأتي هذا الرزق من أعماق المحيطات؟ تنقله المياه عبر السُّحُب، وعبر الهواء، ثم هذه البذرة الصغيرة، يشترك في إخراجها الشمس بأشعتها، والهواء، والماء، والتراب، والإنسان، وهي رزق الإنسان في أطراف الأرض، وهي تُصنَع في طرف الأرض، ثم تخرج إليه عبر المحيطات، حتىٰ تأتيه وهو علىٰ فراشه، ولكن الإنسان الضعيف المسكين يعبد غير الله، ويعتقد الرزق من غير الله، فهذا ضعف في الإنسان، ولهذا يقول الله: كما في بعض الآثار الإلهية (**أخلُق ويُعبَد غيري، وأرزق ويُشكَر سواي، خيري إليهم نازل، وشرُّهم إلي صاعد**)، أي من السيئات والمعاصي.

= كتاب الطهارة، باب الدليل علىٰ نجاسة البول، ووجوب الاستبراء منه، برقم: (٢٩٢)، (١/ ٢٤٠)، وليس فيهما قوله: "هل تسمعون ما أسمع"، ولكنها واردة في صحيح ابن حبان بلفظ: "ما تسمعون ما أسمع؟"، برقم: (٨٢٤)، (٣/ ١٠٦).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، برقم: (١٣٣٨).

يقول ﷻ: (إني والجن والإنس في نبإٍ عظيم، أخلُق، ويُعبَد غيري، وأرزُق، ويُشكَر سواي، خيري إلىٰ العباد نازل، وشرُّهم إليَّ صاعد، أتحبب إليهم بالنِّعم، ويتبغَّضُون إليَّ بالمعاصي)، هذا الحديث وإن كان في سنده مقال، إلا أن معناه متحقق في كثير من الأجيال البشرية، وفي كثير من المجتمعات البشرية، حيث لم تلتزم بعبادة الله ﷻ الذي خَلَق، فالخَلْق كله له ﷻ، الوجود كله من خَلْقه، السماوات السبع، والأرضون السبع، وما بينهما كله من خَلْقه ﷻ، وهو الذي يرزق، فالله ﷻ قد أنزل أصولًا للرزق، فجعل الحبوب والثمار قابلة للاستمرار، فإن الحبوب مهما خُزِّنَت، تنبُت إذا زُرِعَت، فإنها تُخرَج منها أضعافها، والإنسان قد يصنع حبوبًا، ولكنها حبوب ميتة، لا روح فيها، وهذا خلق الله ﷻ، فهو الذي أوجد تلك الروح العجيبة في الثمار، وفي الحبوب، إذا بُثَّت في التراب، وإذا بها تنفَلِق، وتخرج منها السيقان، وتخرج منها الثمار، أحسن ما يكون، وعندما دعا بعض الصالحين، أن لا يرزق الله الكفار، ردَّ عليه زميله، وقال: كأنك بهذا قد أشركت مع الله ﷻ، فالله الذي يرزق المؤمنين، والكافرين، وإلا لو أوقف الله رزقه عن الكافرين، لهلكوا، ولكن الله هو الذي يرزق ﷻ.

ثم قال: (خيري إليهم نازل)، في أمور الدنيا، وفي أمور الآخرة، (وشرُّهم إليَّ صاعد)، أي: معاصيهم وسيئاتهم، وإلا فإن الإنسان أضعف من أن يصل شره إلىٰ الله ﷻ، كما جاء في الحديث القُدُسي، أن الله -تعالىٰ- قال: (إنكم لن تبلغوا ضري، فتضروني، ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني)[١]، فالإنسان عاجز، ولكن الله ﷻ يمِدُّ الإنسان بالرزق، لأمر قد أراده ﷻ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧)، (٤/ ١٩٩٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قولـه: (وحـق العبـاد علـىٰ الله أن لا يعـذب مـن لا يشـرك بـه شـيئًا) قـال الخلخـالي: تقـديره أن لا يعـذب مـن يعبـده ولا يشـرك بـه شـيئًا، والعبـادة: هـي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي؛ لأن مجرد عدم الاشتراك لا يقتضي نفي العـذاب، وقـد عُلـم ذلـك مـن القـرآن والأحاديـث الـواردة في تهديـد الظـالمين والعصاة.

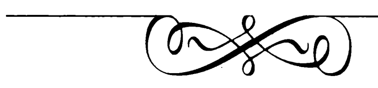
الشَّرح

قوله: (**قال الخلخالي: تقديره أن لا يعذب مَن يعبده...**)، هـذا الكـلام مـن كلام أحد العلماء يُسمَّىٰ محمد بن مظفر الخلخالي، مـن علمـاء القـرن الثـامن الهجري، وهو عالم بـالأدب ولـه شـرح المصـابيح، ولعـل هـذا الكـلام مـأخوذ منه، وهذا الذي ذكره، آخر حديث معاذ، أنه قال ﷺ: (**وحق العباد علىٰ الله أن لا يُعذِّب مَن لا يُشرِك به شيئًا**)[1]، وهذا اللفظ في الحقيقـة لابـد فيـه مـن تقـدير؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد توعَّد علىٰ كثير مـن المعاصـي التـي هـي دون الشـرك بالعـذاب، كقولـه تعـالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:١٠]، وأكـل مـال اليتـيم لـيس شِـركًا، ولكنـه كبيـرة، فتوعَّد الله علىٰ هذه الكبيرة بالنار، فهـذا يعبـد الله، ولا يُشـرك بـه شـيئًا، ولـذلك قال العلماء: فلابد من تقدير هنـا، والتقـدير يـدل عليـه أول الحـديث، فـإن أول الحديث: (**فإن حق الله علىٰ العباد، أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا**)، فهنا أمران: عبادة الله التـي هـي التوحيـد، وعـدم الشـرك، وفي آخـر الحـديث: (**وحق العباد**

(١) سبق تخريجه.

علىٰ الله، أن لا يُعذِّب مَن لا يُشرك به شيئًا)، فلم يذكر عبادة، فاقتضىٰ أن يكون هناك محذوف، فقالوا: لابد من تقدير، وهو: أن حق العباد علىٰ الله، أن لا يُعذِّب مَن يعبده، ولا يُشرك به شيئًا، وبهذا يستقيم المعنىٰ، هذا وجه في تخريج الحديث، وهناك تخريج ثانٍ، فمن العلماء مَن يرىٰ أن كل معصية شرك، ولكنها شرك أصغر، فالإنسان إنما يعبد هواه إذا وقع في المعاصي، وعبادة الهوَىٰ شرك، ولكنها دون عبادة الأصنام.

وهذا كلام مُجْمَل، ولكن الصحيح -والله أعلم- أن هذا الحديث المُطلَق تقيِّده الأحاديث الأخرىٰ، فإن كلام الله ﷻ يفسِّر بعضه بعضًا، وكلام رسوله ﷺ يفسِّر بعضه بعضًا، فلا يؤخَذ حديث لوحده، بل لابد من النظر إلىٰ جميع الأحاديث في المسألة، فالمسألة قد وردَ فيها أحاديث كثيرة، كلها قيَّدت دخول الجنة، بمَن وحَّد الله مُخلِصًا بها قلبه، مستَيْقِنًا بها قلبه، وسيأتي -إن شاء الله- ذِكْر هذه المسألة بتوسُّع؛ لأن صاحب المتن والشارح قد أوْرد في بعض الأبواب أحاديث عدة في هذه المسألة، ولكن الخلخالي هنا، قال: لابد من تقدير، وكلامه له وجه.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الحافظ: اقتصر علىٰ نفي الإشراك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول الله فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك، وهو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته. أي: مع سائر الشروط، فالمراد حال كونه مؤمنًا بجميع ما يجب الإيمان به.

قلت: وسيأتي تقرير هذا في الباب الذي بعده إن شاء الله تعالىٰ.

قوله: (أفلا أبشر الناس) فيه استحباب بشارة المسلم بما يسره، وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا نبه عليه المصنف.

قوله: (قال: لا تبشرهم فيتكلوا) وفي رواية: (إني أخاف أن يتكلوا) أي: يعتمدوا علىٰ ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة، وفي رواية (فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا) أي: تحرجًا من الإثم.

الشَّـرح

قوله: (وقال الحافظ: اقتصر علىٰ نفي الإشراك...)، هذا من كلام الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو من علماء القرن التاسع، وله كتابه المشهور (فتح الباري لشرح صحيح البخاري)، وهو أعظم كتاب، شرحَ أعظمَ كتاب، بعد كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، وقد عاصره عالِم آخر، اسمه بدر الدين العيني، شرح البخاري بكتاب سمَّاه (عمدة القاري)، وهو في حجمه قريب من فتح الباري، ومنهجه قريب من فتح الباري، وقد كان بين العالِمَين الجليلين ابن حجر والعيني، ما يكون بين الأقران، وكان بدر الدين العيني يأخذ ما يشرحه الحافظ ابن حجر في هذا الكتاب، ويُدخِله في كتابه، وكان العيني حنفيًّا، وابن حجر شافعيًّا، وهذه من

القضايا التي تحدُث في الخلفيات بين العلماء في العصور، فاختلاف المذهب يؤدي كثيرًا إلى وجود النفرة بين الأقران، فهذا من كلام هذا العالم ابن حجر رحمه الله وهو يشرح هذا الحديث: (**اقتصر على نفي الإشراك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء**).

وقد سبق أن دلالة اللفظ لها ثلاث مراتب:

أولًا المطابقة: أن يدل اللفظ على كامل المعنى، فيسمَّى المطابقة.

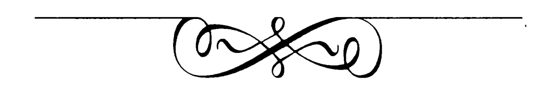
ثانيًا: المرتبة التي دونها، مرتبة التضمُّن: وهي أن تدل على جزء المعنى، مثل لو قلت: بيت، فكلمة بيت يشمل جميع محتوياته، فالجدار تشمله كلمة بيت، فهي تتضمَّن الجدار بالتضمُّن.

وثالثًا: مرتبة باللزوم، هذه أقل الدلالات في اللفظ، بأن يكون هناك تلازُم بين هذا اللفظ، وبين المعنى المذكور، فقوله: (**اقتصر على نفي الإشراك؛ لأنه يستدعي التوحيد باللزوم**)، يعني الشخص الذي يترك الشرك، يلزم أن يكون موحِّدًا، فمن باب الاقتضاء أن يكون تارك الشرك موحِّدًا؛ لأنه كما تقول: مَن توضَّأ، صحَّت صلاته، أي: توضَّأ وصلَّى، ولكن قد يقول الفقيه: مَن توضَّأ، صحَّت صلاته، وأراد إذا جمع إلى الوضوء بقية الشروط، فهذه بعض التخريجات لهذا الحديث.

قول معاذ رضي الله عنه: (**أفلا أُبشِّر الناس**)، أو (**أفلا أخبر الناس، فيستبشروا**)[1]، يدل على ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من حبهم للخير لإخوانهم، فعندما عرف معاذ رضي الله عنه أنه مَن أتى بالتوحيد، يغفر الله له معاصيه، أراد أن يبشِّر الناس،

(١) سبق تخريجه.

والإسلام يحثُّ علىٰ أن يكون المسلم حريصًا علىٰ نفع إخوانه، وعلىٰ بشارتهم، ومعاملتهم المعاملة الحسنة، حتىٰ إنه أمر أن يقابل أخاه بوجه طَلِق، وبكلمة طيبة، وهذه كلها من آداب الإسلام، فمعاذ رضي الله عنه أراد أن يُبشِّر الناس، ولكن النبي ﷺ نهاه، لئلا يتَّكِلوا؛ لأن الناس ليسوا سواء، بل يختلفون، فمنهم مَن يقابل البشارة بالتراخي والكسل، ومنهم مَن يقابلها بزيادة العمل، فخاف النبي عليه السلام أن تلقَىٰ نوعًا من هذا النوع، فيتَّكِل علىٰ رحمة الله، ورحمة الله لا شك أنها عظيمة، ولكنها مرتبطة بالأسباب، كما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى أنه وعد أن يكتبها للذين يتَّقون، ويقيمون الصلاة، إلىٰ آخر الشروط، فليست الرحمة هنا لكل إنسان مُطلَقة، بل مقيَّدةٌ بشروطها، فهذا معنىٰ نَهْيه عليه السلام له أن لا يُبشِّر الناس.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الوزير أبو المظفر: لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا ازدادوا في الطاعة، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة فلا وجه لكتمانها عنهم.

وقال الحافظ: دل هذا على أن النهي للتبشير ليس على التحريم، وإلا لما أخبر به أصلاً، أو أنه ظهر له أن المنع إنما هو من الإخبار عموماً، فبادر قبل موته فأخبر بها خاصاً من الناس.


الشرح

يقول أبو المظفر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: (إنه لم يكن ليكتُمها، إلا عن جاهل)، ولهذا لم يكتُمها ﷺ عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من فقهاء الصحابة، فإخبار النبي ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بها، دلَّ على أنه ليس المقصود عدم الإخبار بها، وإنما المقصود أن لا يُخبَر بها مَن لا يرعاها حق رعايتها، أو مَن لا يقابلها بالمقابلة التي ينبغي أن تُقابَل بها، فنهيه ﷺ عن الإخبار؛ خشيةَ أن تصل إلى مَن لا يعرف قيمتها.

قال: (الأكياس)، أي: الأذكياء، وإن كان كَيِّس، بفتح الكاف، جمعه أكياس، وكِيس بكسرها، جمعه أكياس أيضًا، ويُعرَف المعنى بالمفرد، فليس المراد هنا بالأكياس جمع كِيس- بكسر الكاف-، وإنما جمع كَيِّس -بفتحها-، ويُذكَر عن البعض أنه قرأ من كتابه: المؤمن كِيس قطن، يعني كَيِّس فَطِن، فقرأها خطأً، ثم قال: وهو يشرح قراءته الخاطئة؛ لأن داخله أبيض مثل القطن، ولصفاء قلبه، وصفاء نفسه، وصفه الرسول ﷺ بأنه كِيس قطن، فهذا أخطأ في

اللفظ، وأخطأ في المعنىٰ، فأكياس هنا جمع كَيِّس -بفتح الكاف-، وليس جمع كِيس -بكسرها-، فمعنىٰ كلامه رَحِمَهُ اللهُ أن الناس علىٰ نوعين: إنسان جاهل، وإنسان كَيِّس أي: ذكي، فقال: كل منهما يقابل هذا المعنىٰ، بغير ما يقابله الآخر، فالذي يعرف أن الله وعده بمغفرة الذنب، فقد يتمادَىٰ في المعصية، وهذا جاهل، أما الكَيِّس العاقل، إذا عرف أن الله يغفر ذنبه، فإنه يزداد في شكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا أن عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- لما رأته ﷺ يقوم الليل، حتىٰ تتفطَّر قدماه، قالت: (**يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك، وما تأخر!**) تعني: تفعل هذا، والله قد غفر ذنبك كله، فقال: (**يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**)(١).

فالناس يختلفون في مقابلة البُشارة، فالذي يُبشَّر بمغفرة الذنب، ويكون كَيِّسًا عاقلًا فَطِنًا، يزداد شكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ، والذي يظن أن الله سيغفر له ذنبه، ثم يتمادَىٰ في المعصية، وتَرْك الطاعات، هذا إنسان جاهل.

قوله: (**وقال الحافظ: دلَّ هذا علىٰ أن النهي...**)، هذا الكلام الذي أَوْرده الشارح رَحِمَهُ اللهُ مختصرًا من كلام ابن حجر(٢)، وإلا فله كلام مُطوَّل، وذكر ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن النهي إنما هو عن إخبار العامة، أي: نَهَىٰ الرسول ﷺ معاذ عن أن يخبر بها عامة الناس؛ لأن عامة الناس فيهم الجاهل، وفيهم مَن لا يقدِّرها حق قدرها، وربما تؤدي إلىٰ تكاسله في العبادة، وهذا الفهم يأتي في أن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (ليغفر لك الله ما تقدم...)، برقم: (٤٨٣٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، برقم: (٢٨٢٠)، (٤/ ٢١٧٢)، واللفظ لمسلم.

(٢) فتح الباري (١/ ٢٧٧).

الرسول ﷺ أخبر معاذًا، ومعاذ من خواص الناس، فمعاذ فهم من المنع أنه نُهِيَ أن يُخبر بها عامة الناس، ولهذا فمعاذ عند موته، أخبر بها طَلَبَته، لم يخبر عامة الناس.

والاحتمال الثاني: أن النهي للتنزيه؛ لأن النهي في الشرع يأتي بمعنيين: للتحريم، وللتنزيه، يعني للكراهية، فمَن فعل المنهي الذي جاء للتنزيه، لا يأثم ولا يُعاقَب، ففهم معاذ عند موته أن نَهْي الرسول ﷺ له عن الإخبار، إنما هو نَهْي تنزيه، لا نَهْي تحريم.

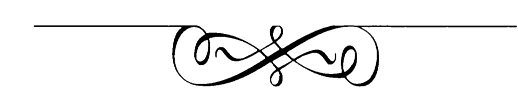
والاحتمال الثالث: أنه لا يُخبر بها مَن يخشىٰ عليه الاتِّكال، يعني لا يُخبر بها مَن عُرِفَ أن طَبْعه لا يحتمل، فضعيف النفس ضعيف الاحتمال، فأخبر بها خواص الناس.

وقوله: **(أخبر بها عند موته تأثُّمًا)**، لها معنيان:

المعنىٰ الأول: إما أنه خاف من الإثم، إن كتمها؛ لأنه جاء الوعيد لمَن كتم العلم، فخاف أنه إن كتم البشارة، يلحقه الوعيد، فقال: (أخبر بها تأثُّمًا)، أي خشية من الوقوع في الإثم، فأخبر بها.

المعنىٰ الثاني: أنه أخبر بها، وهو يخاف الإثم في الإخبار بها؛ لأنه نُهِيَ عن الإخبار بها، فخاف أن يأثم بإخباره بها، ولكنه أخبر بها، لعل الله أن ينفع بها مَن يسمعها.

وكلاهما محتَمَل، والله أعلم.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الباب من الفوائد غير ما تقدم: التنبيه على عظمة حق الوالدين، وتحريم عقوقهما، والحث على إخلاص العبادة لله تعالى، وأنها لا تنفع مع الشرك، بل لا تسمى عبادة شرعًا، والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام ذكره المصنف.

وجواز كتمان العلم للمصلحة، ولاسيما أحاديث الرجاء التي إذا سمعها الجهال ازدادوا من الآثام، كما قال بعضهم: =

فأكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريمٍ.



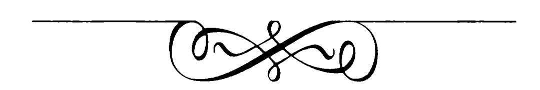
الشَّرح

قوله: (وفي الباب من الفوائد...)، هذه من فوائد الباب، والمُصنِّف -أي مؤلف كتاب التوحيد-، يذكر في نهاية كل باب الفوائد المستفادة من الآيات والأحاديث، فقال: من الفوائد، أو الفائدة المُستقَاة في هذا الباب، (التنبيه على عظمة حق الوالدين)، وقد مرَّ في آيات الأنعام، وآيات النساء الدلالة، أو الإشارة إلى حق الوالدين مع حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، (وتحريم العقوق)، والعقوق: هو قطع الصلة؛ لأن العقوق مشتق من عقَّ أي قطع، فالذي يقطع صلته، وبِره بأبويه، يُسمَّى عاقًّا. قال: (والحث على إخلاص العبادة لله -تعالى-)، فالآيات والأحاديث كلها تدل على الإخلاص، وتأمُر به، وهذا هو التوحيد الذي أنزل الله من أجله الكُتُب، وبعث من أجله الرُّسُل، ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (والتنبيه على عظمة الآيات المُحْكَمات، التي في آخر سورة الأنعام)، وهي قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأنعام:١٥١].

قوله: (وجواز كتمان العلم للمصلحة)، هذا إشارة إلىٰ ما تقدَّم ذِكْره، وهو أن بعض الناس إذا فَهِم سعة رحمة الله ﷻ، وأن الله يغفر الذنوب بالتوحيد، قد يدفعه للمعاصي، كما قال هنا في هذا البيت:

فأكثِر ما استطعت من الخطايا　　　إذا كان القُدوم علىٰ كريم

وهذا -نعوذ بالله- عكس ما أراده الله من خَلْقه -سبحانه-، ولهذا يقول الله ﷻ يوم القيامة للمُفرِّطين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ [الانفطار:٦]، فالله ﷻ كريم، إن عمل الإنسان حسنة، أعطاه ضعفَيْها، وقد يعطيه عشرة أضعافها، وقد يعطيه إلىٰ سبعمائة ضِعْف، وإن همَّ بحسنة، ولم يعملها، كتبها الله له حسنة، وإن همَّ بسيئة، ولم يعملها، كتبها الله له حسنة، وإن همَّ بسيئة، فعملها، كتبها عليه سيئة واحدة، وقد يغفرها، فكيف يأتي مع هذا الكرم من الله ﷻ يوم القيامة بصحيفة مملوءة بالمعاصي، هذا الكريم ﷻ يعطيه الأجر العظيم، ويُضاعِف الحسنات، بل ويُبدِّل السيئات حسناتٍ لمَن صدق في التوبة مع الله ﷻ، فكيف يهلك علىٰ الله الكريم! لا يهلك علىٰ الله -تعالىٰ- يوم القيامة، إلا مَن كان هالكًا، أعاذنا الله من الهلاك، فهذا بعض ثمار علم الجاهل بآيات الرحمة والرجاء، إذ قد يدفعه إلىٰ هذا الكسل والتمادي في معاصي الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض، وفضيلة معاذ ومنزلته من العلم لكونه خُص بما ذُكر، واستئذان المتعلم في إشاعة ما خُص به من العلم، والخوف من الاتكال على سعة رحمة الله، وأن الصحابة لا يعرفون مثل هذا إلا بتعليمه ﷺ. ذكره المصنف.

الشرح

قوله: (**وتخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض**)، وهذا ما يُسمَّىٰ في العصر الحاضر بمراعاة الفروق الفردية، فالناس كلهم ليسوا علىٰ مستوىٰ واحد في الإدراك، وليسوا كلهم علىٰ مستوىٰ واحد في التحُّمل، وليسوا كلهم علىٰ مستوىٰ واحد في الاستعداد، فنبيُّنا ﷺ كان يعطي كل صحابي ما يستطيعه، وما هو قادر علىٰ تحمله، فنجد أحدهم يعطيه الأخبار عن مسائل التوحيد، كمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وبعضهم يعطيهم أسرار المنافقين، كحذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وبعضهم يولِّيه علىٰ قيادة المسلمين، مع أن في الجيوش الإسلامية والقيادة مَن هو أفضل منه، فيعطي كل إنسان ما يستطيعه في نفس التخصُّص الذي يحتاجه العمل، هذا خالد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يقود الجيوش، وقد يكون في جيشه مَن هو أفضل منه، من حيث العبادة، والتقوىٰ، والصلاح، ولكنه يُؤَمِّره لمهاراته في القتال، حتىٰ سمَّاه الرسول ﷺ سيف الله المسلول، جعل يَأْمُره علىٰ الجيش؛ ليكون من أسباب النصر -إن شاء الله-.

وهنا يقول: (**تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض**)، أي أن الرسول ﷺ كان يعرف قدراتهم واستعدادهم، فكان يعطي كل صحابي، ويعامله، بحسب ما يستطيعه في هذا المجال.

هذا المعنىٰ بوَّب له البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه ببابين: باب في الأفعال،

وباب في الأقوال، قال في الباب الأول: (باب مَن ترك بعض الاختيار؛ مخافةَ أن يقصُر فهم بعض الناس، فيقع في أشد منه)، (باب مَن ترك بعض الاختيار)، أي: بعض المُستحبَّات، أو بعض الأعمال المشروعة، (مخافةَ أن يقصُر فهم بعض الناس)، هذا الباب أوْرد تحته حديث عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أنها سألت عن بناء الكعبة، فقال رسول الله: (**لو لا قومُك حديثُ عهدِهم بكفرٍ، لنَقَضْتُ الكعبة، فجعلت لها بابين: باب يدخل الناس، وباب يخرجون**)(1)، وهذا في الصحيح، فالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ استنبط من هذا الحديث، أن العالم قد يترك بعض الأفعال، وهي مشروعة مُستحبَّة؛ خشيةَ أن لا يُدرِكها عقول عامة الناس، وهذا استنباط دقيق من صاحب الصحيح رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على هذا الباب: (ويُستفاد منه ترك المصلحة؛ لأمْنِ الوقوع في المَفْسَدة)، ومرَّ باب سد الذرائع، ترك المصلحة؛ لأمن الوقوع في المفسدة، إذا فُعِلَت أو عُمِلَت، قد تنتج عنها مفسدة، فالأَوْلى تركها. (والفائدة الثانية: ترك إنكار المُنكَر؛ خشيةَ الوقوع في أَنْكَر منه)، وهذا استنباط دقيق، أي أن الإنسان قد يرى مُنكَرًا، ولكن لو غَيَّره، حدث مُنكَر أكبر منه، وقد مرَّ موقف ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ من التَّتَر، أنه رَحِمَهُ اللَّهُ مرَّ على قوم من التتر، مِمَّن يزعم أنه مسلم؛ لأن التتر أسلموا إسلامًا مشُوبًا، فمرَّ على جماعة منهم يشربون الخمر، ولم يُنكِر عليهم، فنبهه بعض طلابه، قال: أنت رأيت مُنكرًا، ولم تغيِّر. قال: دعْهم في سُكْرهم، فإنهم إذا صحُوا من سُكْرهم، قتلوا المسلمين، ونهبوا أموالهم، فالسُّكْر مضرَّته فردية، ولكن لو صحُوا، بحثوا عن أعراض الناس، وعن أموالهم، فهتكوا الأعراض، وأخذوا الأموال، وسفكوا

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس فيقع في أشد منه، برقم: (١٢٦)، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، برقم: (١٣٣٣)، (٢/ ٩٦٨).

الدماء؛ لأنهم لا يخافون الله ﷻ، فرأىٰ ابن تيمية ﵀ أن ترك هذا المـُنكَر، أخفُّ من المـُنكَر الذي هو أصعب وأعظم منه، وهذا من فقهه ﵀، وهذا ما يُستنبَط من هذا الحديث، وأمثاله.

والباب الثاني: (باب من خصَّ بالعلم قوم دون قوم؛ كراهيةَ أن لا يفهموا)، فنبيُّنا ﷺ ما أخبر الصحابة كلهم، وإنما أخبر معاذًا وحده، ثم أوْرد تحته أثر علي ﵁، قال: (حدِّثُوا الناس بما يعرفون، أتحبُّون أن يُكذَّب الله ورسوله؟)، فأحيانًا قد تكون بعض الأحاديث لا يدركِها بعض الناس، فلا يحسُن أن يُحدَّث بكل حديث، أمام كل إنسان، وخاصةً في قضايا الغَيْب، والأسماء والصفات، فقد لا تتحملها بعض العقول، ولهذا وردَ عن مالك ﵀ أنه كَرِه الحديث والرواية، لبعض أحاديث الصفات؛ خشيةَ أن لا يُدرِكها بعض الناس، ثم أوْرد تحته حديث معاذ ﵁، لكن برواية أخرىٰ أنه قال: (**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، صِدقًا من قلبه، إلا حرَّمه الله علىٰ النار**)[1]، وهنا قيَّد (صدقًا من قلبه)، والحديث الواحد إذا اختلفت ألفاظه، يحتاج إلىٰ دراسة الأسانيد؛ لترجيح أحد الألفاظ؛ لأن الرسول ﷺ لم يقل كل الألفاظ، وإنما قال واحدًا منها، وهذا لا يُعرَف، إلا إذا جُمِعَت الأسانيد، وعُرِفَ درجات رُواتها من الضبط والإتقان، ثم يُؤخَذ الحديث الذي يتفق مع النصوص الأخرىٰ من الشرع، وكذلك ذكر ابن حجر ﵀ أثر ابن مسعود ﵁، قال: (**ما أنت بمحدِّث قوم حديثًا، لا تبلُغُه عقولهم، إلا لكان لبعضهم فتنة**)[2]، وكلاهما صحابيَّان جليلان، وهذان الأثران وردَا في الصحيحين، فهذا منهج

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب مَن خصَّ بالعلم قومًا دون قوم؛ كراهيةَ أن لا يفهموا، برقم: (١٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، برقم: (٥)، (١/ ١٠).

الصحابة، ومنهج علماء الأمة، حديثًا أو مسألة من المسائل قد لا يُدرِكها كثير من الناس، وعليه فلا تُحدِّث كل الأحاديث في كل المجامع، إنما يُحدَّث بالأحاديث، بحسب استعداد الناس، وقدراتهم؛ حتىٰ لا تقع فتنة لبعض الناس.

قوله: (**وفضيلة معاذ ومنزلته من العلم؛ لكونه خُصَّ بما ذُكِرَ**)، وهذه فضيلة خاصة بمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث لم يُخبِر بها النبي ﷺ غير معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا يدلنا علىٰ أن معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من علماء الصحابة، وهذا فضل لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن لا يُخبَر بهذا الحديث، إلا عن طريق معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن جاءت أحاديث أخرىٰ بهذا المعنىٰ، منها: (**من قال: لا إله إلا الله، مخلصًا بها قلبه**)(١)، أو (**مَن يشهد أن لا إله إلا الله، مُستَيْقِنًا بها قلبه**)(٢)، أو نحو ذلك.

قوله: (**واستئذان المتعلم في إشاعة ما خُصَّ به من العلم**)، هذا من أدب المجالسة، وأدب المصاحبة، وأدب طالب العلم، إذا أُعطِيَ مسألة تفرَّد بها، فلا يُخبِر إلا إذا استأذن، ويكون هذا أدبًا لنا في المجالسات، فإذا جالست إنسانًا، فأعطاك حديثًا، أو سِرًّا، أو تكلَّم في مسألة، وأنت أحببت أن تخبر بها؛ لمصلحة ما، فينبغي عليك أن تستأذن صاحب الحديث، وهذا من معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدل علىٰ فقهه، فقد كان فقيهًا، فاستأذن الرسول ﷺ في أن يُخبِر بها، فلم يأذن له، مع أنها من مسائل العلم، ورسولنا نبي إلىٰ كل أمة، وأخباره وأقواله وأفعاله كلها للأمة تشريع، ولكن معاذًا هنا، عَرَفَ أن هذه خصوصية، وأن هذه مسألة دقيقة، لذا استأذن في الإخبار بها، وإلا فإن كثيرًا مما يقول، ومما يفعله ﷺ، لا يُستأذَن في الإخبار به، ولم يؤذَن له، لأحد الأسباب المتقدمة.

---

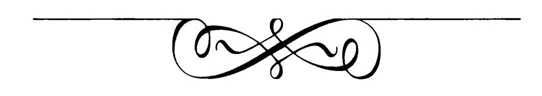
(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب زيد بن أرقم الأنصاري، برقم: (٥٠٨١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مطوَّلًا، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن مَن مات علىٰ التوحيد، دخل الجنة قطعًا، برقم: (٣١)، (١/ ٦٠).



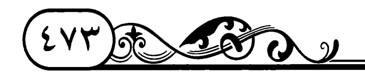
قولـه: (والخـوف مـن الاتِّكـال علـىٰ سـعة رحمـة الله)، وهـذا مـن شـفقة النبي ﷺ علىٰ أُمَّته، خَشِيَ أن يسمع هذا الحديث مَن لا يعطيه حقـه، وقـد كـان رحيمًـا بالأمـة، حتـىٰ إن يـوم القيامـة يـدخل الأنبيـاء والمؤمنـون والصـالحون الجنـة، ويبقَـىٰ رسـولنا ﷺ يشـفع في العصـاة، ويشـفع في زيـادة درجـات أهـل الجنة، فهو مشغول بأُمَّته في الدنيا والآخرة ﷺ، حتىٰ إنه يوم القيامـة يقـول: (يـا رب، أُمَّتي أُمَّتي)[1]، هذا من كمال رحمته، وشفقته عليه السلام بأُمَّته.

قولـه: (وأن الصـحابة لا يعرفـون مثـل هـذا، إلا بتعليمـه ﷺ)، أي قضـايا الغَيْب، وما وعد الله به عباده، ومـا يترتـب علـىٰ الأعمـال مـن ثـواب أو عقـاب، كل ذلك لا تُعرَف بالاجتهاد، وإنما تُعرَف بـالوحي، وبالنقـل، فهـذا يـدلنا علـىٰ أن معاذًا رضي الله عنه لم يكن يعرف ذلك قبل أن يسمعه، و يدلنا علىٰ أن مسـائل الـدين ليست عقلية، وإنما هي نقلية، فالعقل البشري ليس مهيًّأً وقـادرًا علـىٰ أن يُـدرِك مسائل الغيب، وقضايا الدين، إلا عن طريـق الـوحي، والـوحي واحـد، وعقـول الناس بالملايين، فلـو كـان النـاس قـد وُكِّلُـوا إلـىٰ عقـولهم، لاختلفـوا وضـلُّوا، وتعادُوا، وتقاتلوا، وفرض كل صـاحب عقـل علـىٰ الآخـر مـا يـوحي بـه عقلـه، ولكن الله رحم الناس بالوحي، فجعل الوحي مرجِعًا، ترجـع إليـه البشـرية عنـد كل كبيرة وصغيرة، منه تستقي عقائـدها، ومنـه تسـتقي أحكامهـا، ومنـه تسـتقي آدابهـا، ومنـه تسـتقي سـلوكها، فهـذا هـو المصـدر الوحيـد الـذي نرجـع إليـه في معرفة مسائل الدين الغيبية والمشاهدة، وهو الوحي من الكتاب والسُّنَّة.



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كـلام الـرب عز وجل يوم القيامـة مـع الأنبيـاء وغيرهم، برقم: (٧٥١٠). ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمـان، بـاب أدنـىٰ أهـل الجنـة منزلـة، برقم: (١٩٣)، (١/ ١٨٠).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قولـه: (أخرجـاه في الصـحيحين) أي: أخرجـه البخـاري ومسـلم في صحيحيهما، وإنما أضمرهما للعلم بهما.

والبخاري: هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي مولاهم، الحافظ الكبير صاحب الصحيح والتاريخ والأدب الفرد وغير ذلك من مصنفاته، روىٰ عن الإمام أحمد بن حنبل والحميدي وابن المديني وطبقتهم، وروىٰ عنه مسلم والترمذي والنسائي والفربري راوي الصحيح وغيرهم، ولد سنة أربع وتسعين ومائة ومات سنة ست وخمسين ومائتين.

ومسلم: هو ابن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري صاحب الصحيح والعلل والوحدان وغير ذلك، روىٰ عن أحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وطبقتهم روىٰ عنه الترمذي وإبراهيم بن محمد بن سفيان راوي الصحيح وغيرهم، ولد سنة أربع ومائتين ومات سنة إحدىٰ وستين ومائتين بنيسابور رحمه الله تعالىٰ.



الشرح

قوله: (أخرجاه في الصحيحين)، إذا أُطلَق الصحيحان، فإنه لا يتبادر إلىٰ الذهن إلا صحيحا البخاري ومسلم، وإلا فهناك كُتُب سمَّاها أصحابها صِحاحًا، ولكن لم تلقَ من القَبول عند الأُمَّة ما لقيه الصحيحان، وكتابا الصحيحين هما أصح كتاب بعد كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وأصحهما كتاب صحيح البخاري؛ لأن شرط البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوىٰ من شرط مسلم، فإن البخاري اشترط في الرواية أن يكون قد ثبت اللُقَيا بين الراوي وبين مَن يروي عنه، ولو مرة واحدة، وهذا شرط قوي جدًّا، ولهذا ضرب الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا مثالًا، فقال: مثال ذلك الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ له خمس طبقات تروي عنه:

الطبقة الأولىٰ: مَن كانوا مع الزهري في سفره، وحضره، ولازموه طوال حياته.

والطبقة الثانية: مَن أكثرت عن الزهري، ولكن لم تلازمه ملازمة الطبقة الأولىٰ.

فشرط البخاري الطبقة الأولىٰ دون الثانية، وقبل مسلم الطبقة الثانية، فالبخاري يظهر من صيغه اشتراط اللُّقْيَا التي عبر عنها بـ: السماع، وذلك لسعة علمه، حتىٰ إنه قال: إنني ما رَوَيْتُ عن راوٍ إلا وإنني أعرف متىٰ وُلِد، ومتىٰ مات، وكيف عاش في حياته، وهذا أعجوبة، وكتابه التاريخ الكبير روَىٰ فيه عن عشرات آلاف من الرواة، مما يدل علىٰ سعة حفظه، واطِّلاعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فعلم البخاري الواسع يجعله يعرف الراوي، هل لَقِيَ الراوي الذي روَىٰ عنه أم لا؟ أما مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: إنه لا يُشترَط اللُّقْيا، بل تكفي المُعاصرة، فإذا روَىٰ الراوي عن شيخ عاصره، يكفي في أننا نثق في روايته.

ثم من منهج البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يستنبط الأحكام، والبخاري كان فقهيًا دقيقًا في تراجمه، فإنه قد ترجم في كتابه لأبواب الصحيح بتراجم دقيقة، يضع الترجمة، ثم يأتي تحتها بالآيات والأحاديث، فتكون الترجمة أحيانًا جزءًا من حديث صحيح، أو جزءًا من حديث ليس علىٰ شرطه، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقيه ومُحدِّث، أما مسلم، فإنه لا يذكر أبوابًا في كتابه، بدأ من أول الكتاب إلىٰ نهاية الكتاب، وسردَ الأحاديث سردًا، ولم يذكر تراجم في كتابه، ولكنه رتَّبه علىٰ أبواب الفقه، والنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الذي وضع تراجم صحيح مسلم.

ومن ميزات مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يجمع طُرُق الحديث في مكان واحد، أما البخاري، فإنه يوزِّع الأحاديث في الصحيح، ولهذا يصعُب علىٰ كثير من طلبة العلم أن يستدِلُّوا علىٰ مكان الحديث في الصحيح؛ لأن البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد يأتي بالحديث في غير مَظانِّه، لفقه رآه، أو استنباط رآه، فصحيح البخاري مقدَّم من

حيث الشرط، ولكنه أوْرد فيه مُعلَّقات، أما مسلم فليس فيه مُعلَّقات، كلها أحاديث مسندة، ولهذا أهل المغرب يفضِّلون صحيح مسلم علىٰ صحيح البخاري؛ لأنهم قالوا: ليس في صحيح مسلم حديث مُعلَّق، ولا مُرسَل، ولا مقطوع، أما صحيح البخاري ففيه أحاديث مُعلَّقات، ولكن أكثر العلماء علىٰ تقديم صحيح البخاري علىٰ صحيح مسلم، بل مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ إنما استفاد علمه من البخاري، حتىٰ إنه في بعض المواقف سأل البخاري عن حديث، وهو حديث كفَّارة المجلس، فأخبره البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: ولكن فيه عِلَّة، فانزعج مسلم، وقال: أخبرني بهذه العلة، فأخبره، فقال مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ : "أشهد أنه لا يَشْنَأَكَ إلا حاسد، ائْذَن لي يا أستاذ الأستاذين أن أُقَبِّل قدمَك". وهذا يدل علىٰ تقديره رَحِمَهُ اللَّهُ وتعظيمه للبخاري، وهذا من تواضُع مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ، وإلا فقد كان عالِمًا جليلًا.

وهذان الكتابان هما أصح كتاب بعد كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد انتقد العلماء بعض الأحاديث في الصحيحين، ولكن لا يضرهما ما انتُقِد، فقد كان الحق في كثير منها مع أصحاب الصحيحين رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

وأما البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ كان أعجوبة في حفظه وذكائه، حتىٰ إنه عندما جاء إلىٰ بغداد، أرادوا أن يختبروه، فاختاروا من الطلاب عشرة، وأعطوا كل طالب من الأحاديث عشرة، فهذه مائة، وقَلَبُوا أسانيدها، وجعلوا إسناد هذا الحديث لحديث آخر وهكذا، فعندما وردَ البخاري، أرادُوا أن يحرجوه، فقام الأول، فقال: أخبرني أيها الإمام عن هذه الأحاديث، فأخبره بالأحاديث العشرة، فلان عن فلان عن فلان قال كذا، وكلها خطأ مقلوبة، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول كل مرة: هذه لا أعرفها، حتىٰ انتهوا من المائة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ للشخص الأول: أنك قلت كذا كذا، والصواب كذا وكذا، فأعاد كلامه كما قاله خطأ، ثم أوْرد الحديث علىٰ الصواب، وكذا للشخص الثاني، والثالث، إلىٰ العاشر، حتىٰ انتهىٰ من المائة

حديث، فأذعنوا له بالحفظ والإتقان والعلم.

ولكنه عاش في عصره مُبتَلىٰ، وأُوذِيَ حسدًا وبغيًا، ولكـن الله قـد كتـب لـه ﵀ أن يكـون ذِكْـره في كـل مكـان، بسـبب إخلاصـه، وتقـواه، ومراقبتـه لله ﷻ، ففي ذلك العصر، الذي هـو القـرن الثالـث، ظهـرت فتنـة خَلْـق القـرآن، وتبنَّتهـا المعتزلـة، والـذين كـان لهـم تـأثير علىٰ المـأمون الخليفـة العباسـي، وقـد تبنَّىٰ المسألة عام مائتين واثنـي عشـر هجريـة، ولكنـه لـم يظهرهـا للنـاس إلا في سـن متأخرة، أي في عام مائتين وثمانية عشر، وقد اُبتلِيَ الإمام أحمـد، وجماعـة مـن المحدِّثين علىٰ هذه المسألة.

وأصبحت الدولة ذات طابع اعتزالي، وقَلَّ مَـن لـمْ يقـلْ بخلـق القـرآن، إلا يُؤذَىٰ، ويُضيَّق عليه في رزقه، ويُسجَن، حتىٰ إن بعض العلماء ماتوا في السـجن، فبقِيَت هذه المسألة إلىٰ ما بعد المائتين والثلاثـين في عصـر الواثـق، وهـو الـذي رفع الفتنة، وأعاد الأمور إلىٰ مجراها السابق.

والمعتزلة قالوا: إن القرآن مخلوق، فظهرت مسـألة أخـرىٰ، وهـي ألفاظنـا بـالقرآن مخلوقـة أو غيـر مخلوقـة؟ فسـأل أحـد النـاس الحسـين بـن علـي الكرابيسـي، وهـو أحـد الفقهـاء المعاصـرين للإمـام أحمـد، فقـال الكرابيسـي: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، فذهب هذا السائل، فأخبر بـذلك الإمـام أحمـد، فقـال الإمام أحمد: مَن قال ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، فهو جَهَمي، فرجـع إليـه، فقـال: فألفاظنا بالقرآن إذا ليست مخلوقة، فرجع إلىٰ الإمـام أحمـد، وأخبـره بـذلك، فقال الإمـام أحمـد: مَـن قـال لفظـي بـالقرآن غيـر مخلـوق، فهـو مبتـدع، فرجـع فأخبر بذلك الكرابيسي، فقال الكرابيسي: ماذا نفعـل بهـذا الصـبي؟ أراد الإمـام أحمد[1]، وقد كان الكربيسي مـن الفقهـاء، ولكـن كلامـه في إمـام السُّـنَّة، الإمـام

(١) انظر القصة في (تاريخ بغداد) ٨/ ٦٥. المنتظم لابن الجوزي (٨/ ٢٦٨).

أحمد الجليل، أسقطه في أعين الناس، حتىٰ إن المحدِّثين لمْ يروُوا عنه حديثًا[١]، والإمام أحمد رحمه الله إنما أراد بالمسألة أن يَسِدَّ الباب، وإلا لمْ يُرِدْ أن أفعال الناس ليست مخلوقة، وإنما أراد أن يَسِدَّ الباب؛ حتىٰ لا يتذرَّع بهذه الكلمة مَن يزعُم أن القرآن مخلوق، فهذا هو بداية الأمر، وزادت هذه الفتنة في عصر البخاري رحمه الله، وكان متأخِّرًا عن الإمام أحمد؛ لأن الإمام أحمد تُوفِّيَ عام مائتين وواحد وأربعين هجرية(٢٤١)، والبخاري توفي عام مائتين وستة وخمسين هجرية(٢٥٦).

وبعض الناس فهم أن أصواتنا أزلية، وأن ألفاظنا أزلية ليست مخلوقة، فأراد البخاري رحمه الله أن يَرُدَّ علىٰ هذه الشبهة، وكما قال ابن تيمية رحمه الله، -وهو يُبيِّن هذه المسألة-، قال: وكان أهل الحديث قد افترقوا في ذلك، فصار طائفة منهم يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، ومرادهم أن القرآن المسموع غير مخلوق، وليس مرادهم صوت العبد، كما يُذكَر عن أبي حاتم الرازي، ومحمد بن داود المصيصي، وطوائف غير هؤلاء، وكان أبو حاتم الرازي يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، وعندما بلغه قول البخاري، لم يروِ عن البخاري، وتكلَّم فيه، وهو من علماء الحديث المشهورين، قال ابن تيمية رحمه الله : وفي أتباع هؤلاء مَن قد يُدخِل صوت العبد، أو فعله، في ذلك، أو يقف[٢]. ففهم ذلك بعض الأئمة، ومنهم البخاري رحمه الله، فصار يقول: أفعال العباد مخلوقة، ردًّا علىٰ هؤلاء، كما فعل محمد ابن نصر المروزي، وغيرهم من أهل السُّنَّة، وصار يحصل بسبب كثرة الخوض في ذلك ألفاظ مشتركة، وأهواء للنفوس، فحصل

---

(١) قال الخطيب: "حديثه يعز جدًّا، لأن أحمد بن حنبل كان يتكلم فيه بسبب مسألة اللفظ، وكان هو أيضًا كان يتكلم في أحمد؛ فتجنب الناس الأخذ عنه لهذا السبب". قال الذهبي رحمه الله تكلم: مقت الناس حسينًا، لكونه تكلم في أحمد. ميزان الاعتدال (١/ ٥٤٤).

(٢) درء تعارض العقل والنقل ت عبد اللطيف عبد الرحمن (١/ ٢٦٢).

بذلك نوع من الفرقة والفتنة، والمحدِّثون أنفسهم اختلفوا في المسألة، حتىٰ إن اللالكائي رَحِمَهُ اللَّهُ أوْرد بابًا في تكفير اللفظية، أي مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق. والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عندما رأىٰ هذا الجهل في فهم هذا الكلام، ردَّ عليهم، فقال: التلاوة غير المَتْلُو، فالتلاوة فعل القاري، والمَتْلُو كلام الباري، فالتلاوة فعل القارئ، ولهذا يؤجَر عليها، والمَتْلُو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا قلت: إن القراءة غير مخلوقة، يكون معنىٰ ذلك أن الصوت قديم أزلي، وأن صوت الإنسان هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، أي صوت الله، وهذا خطأ، فألَّف الإمام البخاري كتابًا باسم: (خلق أفعال العباد)، للرَدِّ علىٰ هذه المسألة، وذلك عندما ذهب إلىٰ نيسابور، وكان فيها إذ ذاك الإمام المشهور محمد بن يحيىٰ الذهلي، فقال للطلاب: اذهبوا إلىٰ هذا العبد الصالح، فاستفيدوا منه، فعندما جاؤوا إلىٰ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ وجدوه بحرًا، فنقصت حلقة الشيخ محمد بن يحيىٰ الذهلي، فدبَّ فيه الحسد؛ لأنه طبيعة البشر، وقالوا: كان هذا سببًا لكراهيته للإمام البخاري. فاجتمع الناس في درس الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، حتىٰ امتلأت الساحات، والبيوت، وكَثُر الناس بعشرات الآلاف، فدُسَّ إلىٰ البخاري مَن يسأله: هل ألفاظنا بالقرآن مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فسأل مرة أخرىٰ، فما أجاب عليه، فسأل مرة ثالثة، فقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ : كلام الله غير مخلوق، وأفعالنا مخلوقة، فشغب هذا الشخص، وقال: قال البخاري: لفظي بالقرآن مخلوق، قال الذهلي في اليوم الثاني: مَن كان يذهب إلىٰ هذا الغلام البخاري فلا يقربَنَّ مجلسنا، وقام من المجلس رجل واحد، وهو الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ، وأخذ معطفه علىٰ رأسه، ثم قام أمام الناس، فبدأ الحسد، وبدأت المشكلة، وأُخرِج البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ من نيسابور وحيدًا طريدًا، فذهب إلىٰ بُخارَىٰ، فاستقبله الناس علىٰ بُعد عدة أميال، وخرجوا بالآلاف، ثم بَقِيَ فيها فترة، فحدث له فيها كذلك فتنة، وأُخرِج من بُخارَىٰ، ثم ذهب إلىٰ المدينة التي مات فيها رَحِمَهُ اللَّهُ، وهناك استقبله الناس، ثم

بعد فترة، وقعت له فيها مشكلة مع بعض وُلاتها، فأراد أن يُخرَج، وأراد أن يُطرَد، ولكنه رحمه الله عاجلته المَنِيَّة قبل ذلك.

و نقرأ هنا كلامه رحمه الله عندما عاش هذه الفتنة الصعبة، قال أبو أحمد بن عدي[١] رحمه الله : ذكر لي جماعة من المشايخ، أن محمد بن إسماعيل لما وردَ إلىٰ نيسابور، واجتمع الناس عنده، حسده بعض شيوخ الوقت، فقال: إن محمد بن إسماعيل يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وقال أحمد بن سلمة النيسابوري: دخلت علىٰ البخاري، فقلت: يا أبا عبد الله، إن هذا الرجل مقبول بخراسان -يعني الذهلي-، خصوصًا في هذه المدينة، وقد لجَّ في هذا الأمر، حتىٰ لا يقدر أحد منَّا أن يكلمك، فما ترىٰ؟ قال: فقبض علىٰ لحيته، ثم قال: وأفوِّض أمري إلىٰ الله، إن الله بصير بالعباد، ثم قال: اللهم إنك تعلم أني لمْ أُرِدْ المقام بنيسابور أَشِرًا ولا بَطْرًا، ولا طلبًا للرئاسة، وإنما أَبَتْ عليَّ نفسي الرجوع للوطن؛ لغلبةَ المُخالِفين، وقد قصدني هذا الرجل حسدًا، ثم قال لي أحمد: إني خارج غدًا، لتتخلصوا من حديثه من أجلي، ثم ذهب إلىٰ بُخارَىٰ، ولما رجع إلىٰ بُخارَىٰ نُصِبَتْ له القباب علىٰ فراسِخ من البلد، واستقبله عامة البلد، حتىٰ لمْ يبقَ فيها مذكور، ونُثِرَ عليه الدراهم والدنانير، فبَقِيَ مدة، ثم وقع بينه وبين أميرها وَحْشَة، فأمره بالخروج، فخرج من بُخارَىٰ إلىٰ بيكند، ثم وصل إلىٰ خرتنك -قرية من قُرىٰ سمرقند-، وكان له فيها أقرباء، قال أحد تلاميذه: وسمعته ليلة من الليالي، وقد فرغ من صلاته يقول: اللهم قد ضاقت عليَّ الأرض بما رَحُبَتْ، فاقبضني إليك، فما تمَّ الشهر، حتىٰ قَبَضه الله إليه.

هذا الإمام العَلَم الذي يغمُر ذِكْرُه الدنيا الآن، ولا يكاد مسلم يقرأ ويكتب، إلا ويعرف البخاري رحمه الله، قال المروزي: إن البخاري رحمه الله قال: مَن

---

(١) انظر القصة، انظر: تاريخ بغداد ٢/ ٣٠، وكذا في طبقات الشافعية ج٢/ ٢٢٨، وتهذيب التهذيب ج٩/ ٥٣، وهدي الساري ٤٩٠.

زعم أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو كذَّاب، فإني لم أقله، فقلت له: يا أبا عبد الله فقد خاض الناس في هذا، وأكثروا فيه، فقال: ليس الأمر إلا ما أقول، وأحكي لك. قال أبو عمر الخفاق: فأتيت محمد بن إسماعيل، فناظرته في شيء من الحديث، حتىٰ طابت نفسه، فقلت له: يا أبا عبد الله ههنا رجل يحكي عنك أنك قلت هذه المقالة -أي لفظي بالقرآن مخلوق-، فقال لي: يا أبا عمرو، احفظ ما أقوله لك، مَن زعم من أهل نيسابور، وقومس، والري، وهمزان، وحلوان، وبغداد، والكوفة، والمدينة، ومكة، والبصرة، أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو كذاب، فإني لم أقل هذه المقالة، إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة، هذه هي الفتنة، ثم ألَّف كتابه؛ للردِّ عليها، وبيانها، فألَّف كتابه المشهور (خلق أفعال العباد)؛ لأن هذه المشكلة في عصره تتطلب بيانًا، وتصحيحًا لها، فإن الناس أخطئوا في فهم قول الإمام أحمد، في تبديع مَن قال هذه اللفظة، واستفتح كتابه بقوله: حدَّثني الحكم بن محمد الطبري، كتبت عنه بمكة، حدَّثنا سفيان بن عيينة، أدركت مشايخنا منذ سبعين سنة، منهم عمرو بن دينار، يقولون: القرآن كلام الله، وليس بمخلوق، ثم استطرد رَحِمَهُ اللهُ في ذِكْر أقوال العلماء في القرآن، في عشر صفحات؛ لأن المسألة تتعلق بالقرآن، ثم قال عنوان: أفعال العباد، وساق آيات، وأحاديث، وأثارًا عن الصحابة والتابعين، مُعقِّبًا علىٰ كل ذلك؛ لبيان دلالتها، علىٰ أن أفعال العباد مخلوقة، ثم أشار إلىٰ مذهب الإمام أحمد، واختلاف الناس فيه، فقال: فأما ما احتجَّ به الفريقان، -(وهذا كلام البخاري رَحِمَهُ اللهُ)-، لمذهب أحمد، ويدعيه كل لنفسه، فليس بثابت في كثير من أخبارهم، وربما لم يفهموا دقة مذهبه، بل المعروف عن أحمد، وأهل العلم، أن كلام الله غير مخلوق، وما سواه مخلوق، وأنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنَّبوا سُبُل أهل الكلام، والخوض والتنازع، إلا فيما جاء فيه العلم، وبيَّنه رسول الله ﷺ. وقال بعد

صفحات: وسُئِلَ النبي ﷺ أي الصلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت، فذكر النبي ﷺ أن بعض الصلاة أطول من بعض، وأخف، وأن بعضهم يزيد علىٰ بعض في القراءة، وبعضهم ينقص، وليس في القرآن زيادة ولا نقصان، فأما التلاوة، فإنهم يتفاضلون في الكثرة والقلة، والزيادة والنقصان، وقد يُقال فلان حَسَن القراءة، ورَدِيء القراءة، ولا يُقال: حَسَن القرآن، ورَدِيء القرآن، وإنما يُنسَب إلىٰ العباد القراءة، لا القرآن؛ لأن القرآن كلام الرب -جلَّ ذِكْره-، والقراءة فعل العبد، ولا يخفَىٰ معرفة هذا القدر، إلا علىٰ مَن أعمىٰ الله قلبه، ولم يُهْدَ إلىٰ سبيل الرشاد، وليس لأحد أن يُشرِّع في علم الله بغير علم، كما زعم بعضهم أن القرآن بألفاظنا، وألفاظنا شيء واحد، والتلاوة هي المَتْلُو، والقراءة هي المقروء، وقيل له: إن التلاوة فعل التَّالين، وعمل القارئ، فرجع، وقال: ظننتهما مصدرين، فقيل له: هلَّا أمسكت كما أمسك كثير من أصحابك، ولو بعثت إلىٰ مَن كَتَبَ عنك، فاستردَدت ما أثبت، وضربت عليه، فزعم أن كيف يمكن هذا، وقد قلت، ومضَىٰ، فقيل له: كيف جاز لك أن تقول في الله ﷻ شيئًا، لا تقوم به شرحًا وبيانًا، إذا لمْ يُميِّز بين التلاوة والمَتْلُو، فسكت عنئذٍ، ولمْ يكن عنده جواب، هذا بعض كلامه في كتابه (خلق أفعال العباد).

وجاء بعده ابن قتيبة ﵀، الذي يُسمَّىٰ أديب أهل السُّنَّة، ومات بعد البخاري بعشرين سنة، فهو قريب العهد به، فنصر هذا المذهب، فقال ﵀ في كتاب لطيف جدًّا، وهي رسالة صغيرة ودقيقة ولطيفة، باسم: (الاختلاف في اللفظ، والرد علىٰ الجَهَمِيَّة والمُشَبِّهة)، وهي تصور واقع الناس آنذاك، ابتدأ الكتاب بالشكوىٰ من أهل عصره، قال: (فهذا يردُّ علىٰ أبي حنفية، وهذا يردُّ علىٰ مالك، وآخر يردُّ علىٰ الشافعي، بزُخرف من القول، ولطيف من الحِيَل، كأنه لا يعلم أنه إذا ردَّ الأول -وكان صوابًا عند الله- بتهويله، فقد تقلَّد المآثم عن العاملين به دهر الداهرين، وهذا يطعن بالرأي علىٰ ماضٍ من السلف،

وهو بريء، وبالابتداع على دين الله على آخر، وهو يبتدع)[١]. (وكان آخر ما وقع من الاختلاف، أمرًا خُصَّ بأصحاب الحديث، الذين لم يزالوا بالسُّنَّة ظاهرين، وبالاتِّباع قاهرين، يضاجون بكل بلد، ولا يضاجون، ويُستَتَر منهم بالنِّحَل، ولا يستترون، ويَصْدعون بحقهم الناس، ولا يستغشون، ولا يرتفع بالعلم، إلا مَن رفعوا، ولا يتَّضِع فيه، إلا مَن وضعوا، ولا تسير الرُّكْبان، إلا بذِكْر مَن ذكروا، إلى أن كاد الشيطان بمسألةٍ لَمْ يجعلها الله -تعالى- أصلًا في الدين، ولا فرعًا، وفي جهلها سعة، وفي العلم بها فضيلة، فنَمَا شرُّها، وعَظُمَ شأنُها، حتى فرَّقَت جماعتهم، وشتَّت كلمتهم، ووَهَّنَت أمرهم، وأشمَتَت حاسديهم، وكَفَت عدوهم مُؤْنَتهم بألسنتهم، وعلى أيديهم)[٢]، حتى انتهى، وقرَّر هذه المسألة، وهذا الكلام من ابن قتيبة، يدلنا على مدَى ما وصلت إليه هذه المسألة في عصره من الخطورة.

ثم جاء ابن تيمية ﵀ وقرر ما ذهب إليه البخاري، وابن قتيبة، وكذلك ابن القيم، فقرر ما ذهب إليه البخاري، ثم قال ﵀ في كتابه الصواعق المرسَلة، بعد أن أوْرد ما يدل على اتفاق الإمامين: ابن حنبل والبخاري: (هذا مذهب الإمام البخاري، ومذهب الإمام أحمد، وأصحابهما من سائر أهل السُّنَّة، فخَفِيَ تفريق البخاري، وتميُّزه على جماعة من أهل السُّنَّة والحديث، ولم يُفهَم مُراده، وتعلَّقوا بالمنقول عن أحمد، نقلًا مستفيضًا، أنه قال: مَن قال لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جَهَمي، ومَن قال: غير مخلوق، فهو مُبتَدِع، وساعد على هذا، نوع حسد باطن للبخاري، لما كان الله نشر له من الصِّيت

---

(١) الاختلاف في اللفظ، والرد على الجهمية والمشبهة، للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري.

٢١٣ - ٢٧٦ هـ تحقيق عمر بن محمود أبو عمر.

(٢) السابق.

والمحبة في قلوب الخلق، واجتماع الناس عليه حيث حَلَّ، حيث هُضِمَ كثير من رئاسة أهل العلم، وامتعَضُوا لذلك، فوافق الهوَىٰ الشبهة الناشئة من القول المُجمَل، وتمسَّكوا بإنكار الإمام أحمد، وإنكاره علىٰ مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وأنه جهمي، فتركَّب من مجموع هذه الأمور فتنة، وقعت بين أهل الحديث)، إلىٰ أن قال: (فالبخاري أعلم بهذه المسألة، وأَوْلَىٰ بالصواب فيها من جميع مَن خالَفه).[1]

وهذا النقل ذكرتُه؛ لنستفيد منه دروسًا عدة:

الدرس الأول: أن الخلاف قد يقع بين أهل السُّنَّة أنفسهم، فليسوا معصومين من الخطأ، بعضهم قد يقول قولًا، ويخالِفه شخص آخر، وكلاهما علىٰ مذهب واحد، كما جرىٰ بين البخاري والذهلي رحمهما الله، وكلاهما إمام جليل، ولهذا إن مسلمًا رحمه الله لم يروِ عن البخاري، وعن الذهلي حديثًا واحدًا، بل ترك الرواية عنهما، وهو من باب الإنصاف، أما البخاري رحمه الله فقد روَىٰ عن الذهلي، ولكن يذكره بنوع من الإبهام به، فلا يذكر اسمه كاملًا، وإنما يكتفي بقول محمد بن عبد الله؛ لأنه بشر.

فوقوع الخلاف بين العلماء في أي عصر من العصور، لا ينبغي أن يُوَسَّع، ولا ينبغي أن يكون دليلًا، أو سببًا للطَعْن علىٰ العلماء الآخرين.

الدرس الثاني: عدم الاستعجال في التبديع، فهذا الإمام العَلَم، حافظ الأُمَّة، الذي يُذكَر اليوم في كل مجلس علم، قد وُصِفَ بالبدعة؛ لجَهْل مَن قالها، واستعجال مِن قائلها، فكيف إذا وقف هذا القائل يوم القيامة، وخَصْمه حافظ الأمة البخاري رحمه الله ؟ وقد اتَّهمه رحمه الله، وآذاه، وكذب عليه، وحمَّل كلامه ما لَمْ يحتمِل، فالوصف بالبدعة لعلماء الأمة والمجتهدين في الإصلاح، أمر جِدُّ خطير، ينشأ من قلة الوَرَع، وقلة الدين، وعلىٰ كُلٍّ أن يتقي الله؛ حتىٰ

(١) مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (ص: ٥١٢).

لا يكون خصمه يوم القيامة علماء الأمة؛ فإن أعراض العلماء أشد حُرمة من أعراض غيرهم، وهذا الابتلاء لهذا الإمام الجليل، الذي أُوذِيَ وطُرِدَ من كل بلدة حَلَّ بها، إنما هو بسبب الجهل من هذا القائل.

الدرس الثالث: أن بعض المسائل قد تخفَىٰ علىٰ كثير من أهل العلم، فهذه المسألة خُفِيَت علىٰ الذهلي، وعلىٰ كثير من العلماء في عصره، فالعالم قد يُخطِئ في فهمه، وفي إدراكه؛ لأن العقل البشري مهما بلغ كماله، فلابد أن يبقَىٰ فيه نقص، وهذا يدلنا علىٰ أن الإنسان لا ينبغي له أن يُصِرَّ علىٰ رأي يقوله، أو فَهم يستنبطه، فقد يكون خطأً، وغير موافق للصواب.

الدرس الرابع: الحذر من الإساءة إلىٰ العلماء، فالذين أساؤوا إلىٰ هذا العالم الجليل، وذكروا أنه ابتدع قولًا يُخالِف أهل السُّنَّة، وآذوه في ذلك، ولَمْ يكتفوا بتبديعه، بل كانوا في دروسه يُثِيرون عليه، ويُشغِبون عليه، ويريدون أن يوقعوا بينه وبين علماء عصره الفتنةَ، فكانوا يسألونه عن هذه المسألة سؤالًا مقصودًا مقصدًا، ما ذا يكون موقفهم وجوابهم إذا جاؤوا يوم القيامة، وخصمهم حافظ الأمة وعالمها رَحِمَهُ اللَّهُ ؟

الدرس الخامس: أن الهوَىٰ قد يدخل في كثير من الخلاف، فمهما بلغ الإنسان من العلم والزهد والتقوىٰ، فإنه بشر، يبقىٰ فيه ضعف، فهذا الإمام الجليل محمد بن يحيىٰ الذهلي، وكان إمام نيسابور المشهور، وكانت له الكلمة في ذلك البلد، حتىٰ إنه إذا أمر الناس بأمر، امتثلوه، لَمْ ينجُ من الحسد، كما ذكره العلماء، أنه دخله الحسد عندما رأىٰ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، فدَبَّ الحسد في نفوس مرضَىٰ النفوس، فالإنسان مهما بلغ علمه وفضله، فإنه بشر، كما قال ابن عباس: (احذروا من حسد العلماء، فإنهم يتناطحون كما تتناطح الكِبَاش، -أو قال: كما تتناطح التُّيُوس-)، يعني: أن هذا إنما في بعضهم، فضعف الإنسان، قد يحمله إلىٰ أن يُخطئ، أو يُسِئ إلىٰ عالم آخر.

الدرس السادس: أن كثيرًا من أهل الفضل، لا يُعرَف قدرهم إلا بعد موتهم، والعالم إذا مات تبدأ تظهر محاسِنه، ويترحَّم الناس عليه، ويعرفون آثاره، فهذا الإمام الحافظ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عَرَفَ الناس فضله بعد موته، وهذا الكتاب الجليل الذي ألَّفه في الصحيح، يُعتبَر أعجوبة، وكتابًا عظيمًا، عَرَفَ الناس قدره، فشرحه العلماء، وحفظوه، وأصبح عُمْدَة لجميع العلماء في كل العصور، فهذا يدلنا علىٰ أن الإنسان قد تخفَىٰ محاسنه في حياته، ولكن تظهر بعد موته.

الدرس السابع: أن آفة كثير من الأخبار رُواتها، فنقلوا عن البخاري أنه قال: لفظي بالقرآن مخلوق، ولم يقل هذا رَحِمَهُ اللَّهُ، وإنما الراوي قد كذب في اللفظ، ونقل الكلام بدون لفظه، وتغيير اللفظ أدَّىٰ إلىٰ هذه المَفْسَدة، وإلىٰ اتِّهام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بما لم يقل، فيجب علىٰ الإنسان الناقل للحديث، أن يتورَّع في النقل، وأن يكون هدفه بالنقل الخير، وأن لا ينقل إلا ما فيه الخير والمصلحة، لا ينبغي له أن يستعجل في نقل الحديث للإفساد والإساءة، فإن كل ما يقول، وما يعمل، مكتوب في كُتُب، سيظهر، ويراه يوم القيامة، ولا يُنجِيه منه إلا أن يكون صادقًا فيما قال، وعليه أن يكون مجتهدًا لمعرفة الحق، وإلا فإنه يهلك بسبب وقوعه في أعراض المسلمين.

الدرس الثامن: أن الحسد قد يقع بين الأفراد وبين الأقران، ولكن تبايُن الاجتهادات لا تُعتبَر من باب الحسد؛ فمَن يقرأ التاريخ، يرىٰ أنه ما يكاد يَسْلَم عصر من العصور، إلا ويقع بين العلماء في ذلك العصر بعض الخلافات، بسبب تبايُن اجتهاداتهم، وهذا مما يُغتفَر -إن شاء الله-، إذا صدقت منهم النية.

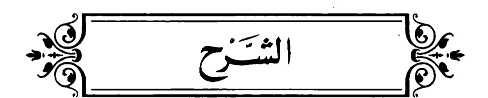




باب: فضل التوحيد وما يُكفر من الذنوب

قال المؤلف رحمه الله:

(باب) خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا باب بيان فضل التوحيد، وبيان ما يكفر من الذنوب، (وما) يجوز أن تكون موصولة، أي: وبيان ما يكفره من الذنوب، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: وبيان تكفيره الذنوب، وهذا أرجح؛ لأن الأول يوهم أن ثم ذنوبًا لا يكفرها التوحيد، وليس بمراد، ولما ذكر معنىٰ التوحيد ناسب ذكر فضله وتكفيره للذنوب ترغيبًا فيه وتحذيراً من الضد.



الشَّرح

التوحيد كلمة عظيمة، لها آثارها الجليلة في الدنيا والآخرة، والمؤلِّف والشارح لم يذكرا إلا فضل الآخرة، وإلا فإن لها فضلًا في الدنيا، وفائدة عظيمة في حياة الإنسان، فإن التوحيد هو مقصد جميع الرسالات، وما من نبي إلا جاء بالتوحيد، والتوحيد الذي ينطلق من قلب المؤمن، تنعكس آثاره في الاعتقاد والتصور، وفي الخلق والسلوك، وفي المعاملات والعلاقات، فالتوحيد ليس معنىٰ ذهنيًّا، ولا اعتقادًا قلبيًّا فقط، بل التوحيد شجرة أصلها في القلب، وفروعها في الجوارح، والذي يزعم أنه موحِّد بقلبه، ثم لا يكون في حياته العملية موحِّدًا، يكذب علىٰ نفسه، ولمَّا قال بعض الصحابة: إننا نحب

الله، أراد الله ﷻ أن يمتحـنهم فقـال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، وقولـه (اتَّبعـوني) عمـل، فهـم لمـَّا ادَّعـوا المحبـة القلبيـة، جـاء الامتحان القرآني، بأن المحبة القلبية لابـد أن يكـون لهـا آثـار في جـوارح العبـد، فإن لم تظهر هذه الآثار، كانت الدَّعْوَىٰ كاذبة، كما قال الشاعر:

وكـــل يـــدَّعِي وَصْـــلًا لليلـــىٰ ... وليلـــىٰ لا تقـــرُّ لهـــم بـــذاك

فـدعوَىٰ الإنسـان لا تكفـي، إن لـمْ يصـحبها عمـل وسـلوك، فمَـن يظـن أن التوحيد عمل قلبي فقط، ولا يكون لـه علىٰ الجـوارح آثـار، إمـا جاهـل بمعنـىٰ التوحيد، أو يُغالِط نفسه، فإن التوحيد قاعدة عظيمة، تنطلـق منهـا جميـع فـروع الدين، وآثارها في الدنيا كثيرة، نذكر منها عشرة آثار:

الأثـر الأول: تعلُّـق القلـب بالخـالق، فالـذي يعلـم أن الكـون كلـه بيـد الله، والأمر كله بيد الله، والخلـق كلـه مـن الله، والـرزق كلـه مـن الله، والغِنَـىٰ والفقـر والحياة كلها بيد الله، يتعَّلق قلبه بصاحب الأمر، الذي هو الله ﷻ، وهـذه أُولَـىٰ ثمرات التوحيد، لا يتشتت القلب يمينًـا وشـمالًا، فـلا يبحـث قلـب الموحِّـد في الأرض عمَّن يُنزل بـه حاجتـه، كمـا قـال ﷻ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨]، فيلتفـت القلـب يمينًـا، فيـرىٰ أمواتًـا، أو يـرىٰ أُناسًـا مصـيرهم إلـىٰ الموت، لا يرىٰ إلا ميتًا، أو مَن يموت، فإذا عرف الإنسـان ذلـك، اطمـأن قلبـه، وتعلَّق بخالقه ﷻ، وهذا من بلاغة توجيه القرآن، فإنه لم يقل: توكـل علـىٰ الله؛ لأنه أراد أن يجعل الإنسان نفسه يبحث عن مَن هـو أهـل لأن يُنـزل بـه حاجتـه، فقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨].

الأثر الثاني: أنه لا يُلتفَت إلىٰ المخلوق، فإن المخلوق ليس له من أمره إلا العدم، والمخلوق فقير محتاج مثله، ولم يكن من قبل، ثم كان، ثم سينتهي مـن

الوجود، وقد جاء إلىٰ الدنيا فقيرًا ضعيفًا عاجزًا، ثم هو طوال حياته محتاج إلىٰ مَن يُعينه، ويحفظه، ويرزقه، ويُحييه، ويُعطيه سؤاله، لذا فإن الموحِّد لا يُعلِّق قلبه بهذا المخلوق العاجز؛ لأنه عرف أن هذا الإنسان، ليس له من نفسه إلا العدم.

الأثر الثالث: أن التوحيد يجعل للقلب قوة، وللموحِّد بذلك عزة، فيكون عزيزًا قويًّا؛ لأنه يعلم أن الأمور ليست بيد المخلوق، وينتج عنه أنه لا يخاف أحدًا، ولا يرهب أحدًا، ولا يُخِيفه شيء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: **"حسبنا الله ونعم الوكيل، كلمة قالها إبراهيم عليه السلام عندما أُلقِيَ في النار، وقالها محمد عليه الصلاة والسلام عندما قال له الناس: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾** [آل عمران:١٧٣][(١)]**"**، فهذه العزة الإيمانية لا تكون إلا لمَن امتلأ قلبه بتوحيد الله عز وجل، وعرف أن المُلْك كله لله، وأن الكون كله بيد الله، وأن الإنسان إنما هو سبب بيد المُسبِّب، الذي هو الله عز وجل، فالذي يكون هذا توحيده، فإنه يُكْسِبُه عزة وقوة، تجعله في حياته حُرًّا، لا يخاف أحدًا، ولا يرهب أحدًا، ولكن هذه العزة ليست عزة مؤذية، وإنما هي عزة مفيدة نافعة، فلا يُفهَم من هذا أن الإنسان يؤذِي غيره باسم العزة الإيمانية.

الأثر الرابع: الرضا بالأقدار، والإنسان مُحاط بقدر الله، منذ وجوده، إلىٰ أن يرحل، والقدر يحيط به من كل مكان، فإذا وحَّد الله بقدرِه، فإنه يرضىٰ بالقدر، ويصبر عليه؛ لأنه يعلم أن هذا ليس من فعل البشر، ولكنه من فعل خالق البشر، فالتوحيد يُكسِبه رضًا بأقدار الله عز وجل.

---

(١) سبق تخريج الأثر.

الأثـر الخـامس: الأمـن النفسـي، فـالأمن مطلـب لكـل إنسـان، والأمـن للمستقبل هو الغاية المنشودة، ولهذا قال -تعالىٰ- عـن الـذين آمنـوا بـه: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة:١١٢]، أي لا يحزنـون علـىٰ الماضـي، ولا يخافون من المستقبل، أي مطمئنون آمنون به؛ لأنهم يعلمون أنه لا يقع إلا ما قدَّره الله ﷻ.

الأثر السادس: أنه بالتوحيد تظهر الفضائل علىٰ الفرد، وتظهر الفضـائل في المجتمع؛ لأن الموحِّد يتلقَّىٰ من الله ﷻ أوامره ونواهيـه، وبـذلك لا يعمـل إلا مـا أمـره الله بـه، وهـي الفضـائل، ولا يـترك إلا مـا نَهَىٰ الله عنـه، وهـي الرذائـل، فيصبح الفرد مُصدِّرًا للفضيلة، وكذلك الأسرة والمجتمع.

الأثـر السـابع: الاختفـاء؛ لأن الموحِّـد لا يعمـل الرذيلـة؛ لأنـه يراقـب الله، فكل ما همَّت نفسه بسوء أو معصية، تذكر الله ﷻ، فامتنع عن فعلها، ولكن قـد يعثُر، وقد يكبو، ثم يرجـع إلـىٰ الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠١].

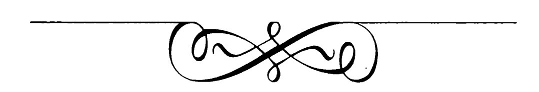
الأثر الثامن: يصبح المجتمع مجتمعًا واحدًا موحَّدًا؛ لأنه كلـه يتلقَّـىٰ أمـره مـن ربٍّ واحـد، ويعبـد ربًّـا واحـدًا، ويتقـرَّب إلـىٰ ربٍّ واحـد، وبـذلك تتوحَّـد الأمـة؛ لأنهـا لا يكـون لهـا شـركاء، هـذا يـأمر، وهـذا ينهَـىٰ، وهـذا يُهـدِّد، وهـذا يُؤمِّل، بل كلهم تتجه قلوبهم إلىٰ الله، ويتلقُّون من الله وحـده أمْـرَهم، وحيـاتهم، وديـنهم، وتشـريعهم، وبـذلك يصـبح المجتمـع مجتمعًـا واحـدًا، لا أحـزاب مُتنافرة فيه، ولا جمعيات مُتعادية، بل كلها تصبح موحِّدة؛ لأن التوحيد يقودهـا إلىٰ الوحدة العامة.

الأثر التاسع: هذا المجتمع بهذه العقيدة، يصبح قويًا، لا يستطيع أحد أن ينتهك حُرماته، ولا يتعدَّىٰ حدوده؛ لأنه مجتمع قوي عزيز، وبهذا يكون مجتمعًا مرهوبًا، كما كان في عصر الصحابة رضي الله عنهم.

الأثر العاشر: تختفي مظاهر الشرك من هذا المجتمع؛ لأن مظاهر الشرك إنما تظهر في المجتمع الذي ينقُص توحيده، وينقُص علمه بالله عز وجل، فكلما ضعفت آثار النبوة، وآثار الوحي، ظهرت فيه مظاهر الشرك، ومظاهر المعصية الوثنية، أما المجتمع الموحِّد، فلا يرىٰ فيه آثار لشرك، ولا يرىٰ فيه آثار لمعصية عامة، وإن كانت المعصية قد توجد في أفراد، ولكنها لا تكون ظاهرة عامة، هذا مُجمَل ما يُستفاد من التوحيد في الدنيا من الآثار.

كلام الشارح رحمه الله في بيان إعراب العنوان، وكيفية دلالته علىٰ المراد، وقد ذكرنا أكثر من مرة أن العناوين، -سواءٌ كانت عناوين صُحُف، أو عناوين موضوعات- تُعرَب في النحو علىٰ أنها أخبار، فقال: (باب)، وهو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره هو، والسياق يدل علىٰ المحذوف، وسياق الكلام لابد أن يكون معروفًا لطالب العلم، ومن يتصدَّىٰ لشرح كتاب الله عز وجل، أو كلام رسوله عليه الصلاة والسلام، إن لم يكن عارفًا بهذا، فإنه قد يشرح العبارة شرحًا خاطئًا، قال: (فضل)، ولابد من تقدير كلمة قبلها، وهي: بيان، أي هذا باب بيان، وبهذا يستقيم المعنىٰ؛ لأن المؤلِّف سيُبيِّن في هذا الباب فضل التوحيد، ثم ذكر موقع (ما)، فإن (ما) في العربية تأتي لعدة معانٍ، منها أن تأتي موصولة، أي بمعنىٰ الذي، ومنها أن تأتي مصدرية، أي تُؤَوَّل مع ما بعدها إلىٰ المصدر الصريح، فيكون له موقع من الإعراب.

فأما علىٰ القول الأول -الموصولة-، فتقديرها: هذا باب بيان فضل التوحيد، وبيان الذي يُكَفِّره من الذنوب، قال الشارح هذا ليس راجحًا، قال: لأن هذا يلزَم منه أن هناك ذنوبًا لا تُكَفَّر، وليس هذا مرادًا لصاحب المتن، ثم رجَّح أنها مصدرية، أي باب بيان تكفيره للذنوب، فيدل هذا علىٰ أن التوحيد يُكفِّر جميع الذنوب، ولكنه سيأتي فيه إشكال؛ لأنه قد وردَت أحاديث تدل علىٰ أن صاحب الكبائر، إذا مات مُصِرًّا عليها، فإنه مُتوَعَّد بعقاب الله ﷻ، وأن جهنم يخرج منها أُناس موحِّدون، فتوحيدهم لم يُكفِّر ذنوبهم، ولكن العلماء قالوا: إن الذنوب إنما يرتكبها الإنسان، إذا نقص توحيده، فأما إذا كَمُل التوحيد، فإنه لا يرتكب الذنوب، ولهذا يقول ابن تيمية ﵀ : إن لـ (لا إله إلا الله) أشعة تُحرِق جميع الذنوب، فلا يبقىٰ في القلب مع هذه الكلمة قَصْد ولا محبة ولا مُراد لمعصية الله ﷻ، فكلما قَوِيَت (لا إله إلا الله) في القلب، أخرجت جميع ما في القلب من محبة المعاصي، والمَيْل إليها، فإن الموحِّد تظهر علىٰ جوارحه آثار التوحيد.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].



الشرح

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ ...﴾ [الأنعام:٨٢]، هذه الآية التي استشهد بها المؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ هي آية جاءت في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، جاءت تعقيبًا في آخر القصة، وفي أول القصة قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٦]، هذه أول القصة، ثم في آخرها، ذكَر محاجَّته لقومه، إلى أن قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨١]، ثم جاء الجواب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

فمَن الذي قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، قال المفسِّرون: هناك احتمالات ثلاثة؛ لأن إبراهيم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- قال: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾، أي: أنا أم أنتم؟ فكان الجواب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢]:

الاحتمال الأول: أن هذا قول الله جَلَّ وَعَلَا، وأنه فصل بين إبراهيم وبين قومه، فذكَرَ مَن هو الذي يستحق الأمن.

والاحتمال الثاني: أن هذا قول إبراهيم عليه السلام، سأل، ثم أجاب على نفسه.

والاحتمال الثالث المردود: أن هذا قول أجابوا به إبراهيم عليه السلام، ولكن قال العلماء: لو أنهم أجابوه، لآمنوا، وانتهى الخلاف معهم، ولكنهم لم يؤمنوا، فبقوا على كفرهم وشركهم، حتى آذوه، ورموه في النار، التي قال فيها عز وجل: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩]، قال العلماء: قال الله: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾، ولو لم يقل ﴿وَسَلَامًا﴾، لبرد فيها، وأهلكته ببردها، ولو لم يقل: ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، لبقِيَت النار إلى يوم القيامة لا تضر أحدًا، ولكن الله جعل هذه المعجزة لإبراهيم عليه السلام خاصةً، ولهذا قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩] فقط، فالجواب إما كان من الله، وهذا هو الذي رجَّحه العلماء، وإما كان من إبراهيم، وهذا قول مقبول كذلك.

وإبراهيم عليه السلام عندما رأى الكوكب قال: هذا ربي، وعندما رأى القمر، قال: هذا ربي، وعندما رأى الشمس، قال: هذا ربي، قال العلماء: هل هذا القول قول للمناظرة، أو قول للنظر؟ أي هل إبراهيم عليه السلام لم يكن يعرف الله، فتدرَّج في طلب معرفته، أم أنه كان يعرف الله، ولكنه أراد أن يقنع قومه بهذا التدرُّج العقلي؟ قولان للعلماء، فالطبري رحمه الله يرى أن هذا القول من إبراهيم عليه السلام قول للمناظرة، وليس للنظر، يعني أنه كان يعلم أن الله ربه، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء:٥١]، قال -جلَّ ذِكْره-: إن إبراهيم كان راشدًا، ولكنه تدرَّج؛ لأن قومه كانوا يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها تؤثِّر في الكون، حتى بنوا لها هياكل في بلادهم، وزعموا لكل كوكب هيكلًا، على شكله، وزعموا أن لكل كوكب آثارًا على حياة الناس، فعبدوا الكواكب، وجعلوا لها الهياكل، فإبراهيم عليه السلام أراد أن

يُبطِل اعتقادهم، بعد أن كسر أصنامهم، ولكن ابن كثير رحمه الله قال: هذا قول للنظر، فإن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام:٧٧]، فدلَّ على أنه إلى هذه المرحلة لم يكن قد اهتدَى، وعلى كل حال ليس هناك كبير فائدة في القضية، وإنما هذا من باب ذِكْر حقيقة القصة.

ومعنا في الآية عدة قضايا:

القضية الأولى: (الَّذِينَ آمَنُواْ)، والإيمان من الاصطلاحات الشرعية التي أصبح لها مدلول جديد، بعد أن نزل القرآن الكريم، وكان لها عند العرب معنى، وهو التصديق، أو الإقرار، وهذا ما رجَّحه ابن تيمية رحمه الله أنه ليس معناها التصديق فقط، بل هناك معنى إضافي، أو معنى زائد، وهو الإقرار، ولكن عندما جاء الإسلام، استخدمها في معنى، فزاد في معناها، وهكذا في جميع المصلحات الشرعية، مثل الصلاة والزكاة والحج والصيام، كلها استعملها القرآن بمعناها اللغوي، وزاد في معناها، ولم يغيِّرها، فالإيمان إذا وردَ في الشرع وحده، دلَّ على كل الدين، وإذا وردَ في الشرع مع ذِكْر الإسلام، كان المراد بالإيمان هو أعمال القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣]، فعندما ذكر الإيمان مع العمل الصالح، دلَّ الإيمان على ما في القلب فقط، ولكن هنا لم يُذكَر معه الإسلام، ولم يُذكَر معه العمل الصالح، فدلَّ على أن الإيمان هنا يُراد به جميع الدين، أي: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، اعتقادًا وقولًا وعملًا، فهؤلاء الذين آمنوا بهذا المعنى.

القضية الثانية: (وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ)، أي لم يُخلِطوا إيمانهم بكفر؛ كما جاء مفسِّرًا الحديث (أولئك لهم الأمن، وهم مهتدون)، فكان هذا جزاءهم، وإلا لو فسَّر الظلم هنا بمجرد الذنب، كما تبادر إلى أذهان الصحابة،

لكـان كـل واحـد منـا هالكًـا، والزمخشـري -وهـو مـن علمـاء الاعتـزال- فسَّـر الظلم هنا بالذنب، قال: ولم يلبسوا: أي لـم يخلطـوا إيمـانهم بـذنب، وهـذا هـو اعتقاد المعتزلة، أن مَن فعل الذنب، يكون في منزلة بين المنـزلتين في الحيـاة، لا هو كافر، ولا هو مؤمن، ولكنه في الآخـرة مُخلَّـد في جهـنم، وهـذا نفسـه اعتقـاد الخوارج، ولكن الخوارج كفَّرُوا صاحب الكبيـرة، فقـالوا: مَـن ارتكـب كبيـرة، فقد كفر. وأهل السُّنَّة يقولون: إن المعاصي لا تنقـل الإنسـان مـن الإسـلام، بـل إنما تُنقِص درجته، فإذا ارتكب المعصية، لا يستحق وصفه بالإيمـان المـُطلَق، وإنما يُقال: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو يُقـال: فاسـق، أمـا في الآخـرة، فإنـه إلى مشيئة الله، قد يغفر الله له، وقد يدخله النار، ولكن مصيره إلـى الجنـة، فـإن هذا من فوائد التوحيد، فمَن جاء بالتوحيد الكامل، فإن له الأمـن المـُطلَق، فـلا يدخل النار، ومَن جاء بالإيمـان النـاقص، لـه مُطلَـق الأمـن، أي: لابـد أن تنتهـي حياته إلى الجنة، وإن دخل النار، فالقضـية الأُولَـى في الآيـة الإيمـان، والإيمـان يشمل حياة الإنسان كلها، يشمل حركاته كلها، حركة القلـب، وحركـة اللسـان، وحركة الجـوارح، وسيأتي في الحـديث أن هـذه الآيـة عنـدما نزلـت، شـقَّ ذلـك على أصحاب رسول الله ﷺ؛ لأنهم ظنوا أن الظلـم هنـا، هـو أي ظلـم؛ **و الظلـم على ثلاثة أنواع:**

١) ظلم العبد لنفسه.

٢) وظلم بين العبد وبين الناس.

٣) وظلم بين العبد وبين ربه.

فظنوا أن أي ظلم لا يستحق الأمـن معـه في الآخـرة، فقـال ﷺ: إنـه **(لـيس ذلك إنما هو الشرك، ألم تسمعوا مـا قـال لقمـان لابنـه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ**

ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣][(١)]، ففسَّر الحديث الظلم هنا بأنه الشرك، ولكن المعتزلي -الذي هو الزمخشري- أبَىٰ هذا، وهذا منهج المعتزلة، فإنهم يردُّون الأحاديث، ولو كانت في الصحاح، وهذا الحديث في الصحيحين، وفي أكثر من كتاب من كُتُب السُّنَّة.

المراد بالظلم في الحديث الشرك، وهو إجماع من الصحابة، الصدِّيق، والفاروق، وابن عباس، وابن مسعود، وحذيفة، وغيرهم رضي الله عنهم، ومن التابعين، قالوا فيها: إن الظلم في هذه الآية يُراد به الشرك، وسيأتي من قول الشارح، أن عمر رضي الله عنه فسَّره بالذنب، ولم يصح عنه رضي الله عنه، فإن ابن أبي حاتم ذكر أن عمر رضي الله عنه مِمَّن فسَّره بالشرك، ولا يمكن أن عمر رضي الله عنه يفسِّره بالذنب، مع وروده في النص المرفوع، إنما الذي أَوْهم علىٰ مَن زعم أن عمر رضي الله عنه فسَّره بالذنب، أن عمر رضي الله عنه وردَت عنه عدة روايات، أنه استشكل معنىٰ هذه الآية، فذهب إلىٰ أُبي بن كعب رضي الله عنه، ثم إن أُبيًّا قال له: ليس ذلك يا أمير المؤمنين، إنما المراد به هنا هو الشرك، ولكن الآثار لم تصح من حيث السند، فدلَّ علىٰ أن الصحابة مُجمِعون علىٰ أن الظلم في هذه الآية هو الشرك.

والقضية الثالثة: (أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ)، الأمن لا يكون في الماضي، وإنما يكون في المستقبل كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة:١١٢]، فالخوف والأمن إنما يكونان في المستقبل، فهذا وعد من الله عز وجل أن الذي آمن، ولمْ يخلط إيمانه بشرك، أن له الأمن، ولكن العلماء قالوا: إن الأمن قسمان: أمن مُطلَق، ومُطلَق الأمن.

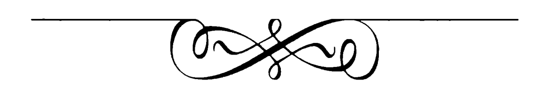
---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالىٰ: (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله)، برقم: (٣٤٢٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، برقم: (١٢٤)، (١/ ١١٤)، واللفظ للبخاري.

فالأمن المطلق: أن صاحبه لا يعرض له في الآخرة عذاب، بل يدخل الجنة مباشرةً.

وأما مطلق الأمن: فهو أن مصيره إلىٰ الجنة، وهذا لمَن ارتكب بعض المعاصي، ومات مُصِرًّا عليها، فالله قد يغفر ذنبًا، وقد يعاقبه علىٰ ذنب، ولكن مصيره إلىٰ الجنة.

القضية الرابعة: (وَهُم مُّهْتَدُونَ)، أي: في الدنيا، والهداية أعظم مطلب للمؤمنين، وأعظم مطلب للإنسان، ولهذا فهو أول طلب في كتاب الله ﷻ، لقوله -تعالىٰ- وهو يعلِّمنا أن نقول في صلاتنا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦]، فالهداية أعظم مطلب، فإذا هدَىٰ الله ﷻ إنسانًا، فإنه سينتهي إلىٰ الجنة، وإنه -تعالىٰ- قد حفظه، ورعاه، ورضي عنه، فالهداية أمرها عظيم، وهذه هي المعاني التي يشتمل عليها قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦]، ولكن الإنسان لقصوره وجهله، يظن أن معنىٰ الهداية قاصر، ولو كان هناك معنىٰ أعظم من الهداية، لعلَّمنا الله سبحانه وتعالى إياه في هذه السورة التي نقرأها في كل ركعة من صلاتنا، هذه القضايا الأربعة التي وردَت في الآية، هي التي ستكون محور كلام الشارح رحمه الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال بعض الحنفية في تفسيره: هذا ابتداء.

قال ابن زيد وابن إسحاق: هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه قال الزجاج: سأل إبراهيم وأجاب بنفسه.

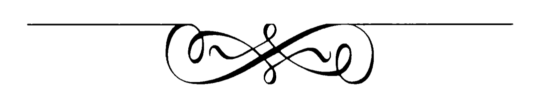
وعن ابن مسعود: قال لما نزلت هذه الآية قالوا: فأينا لم يظلم!! قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (إن الشرك لظلم عظيم)، وكذا عن أبي بكر الصديق أنه فسره بالشرك فيكون الأمن من تأبيد العذاب، وعن عمر أنه فسره بالذنب، فيكون الأمن من كل عذاب.

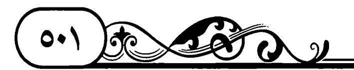
الشَّرح

قوله: (قال الزجاج)، الزجاج من علماء اللغة، وهو مِمَّن عاصر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وله كتاب في تفسير القرآن، أو في بيان معاني القرآن وإعرابه، عنوانه معاني القرآن وإعرابه، وأشار الشارح هنا إلى نص ما قاله، وبالعودة إلى كتاب الزجاج لا نرى هذا النص، ولعله -والله أعلم- إنما روَى بالمعنى؛ لأن الشارح ينقل عن مفسِّرين، وعن كتب التفسير، ولو مُحِّصَت، لوجدت أن كثيرًا من الآثار والروايات والأقوال في ذلك، لم تصح نسبته إلى قائليه، وهي في هذا مثل التاريخ، فإن التاريخ فيه روايات كثيرة لا تصح، لا واقعًا ولا عقلًا.

فليس كل ما في التفسير والتاريخ يكون صحيحًا، وإن كان بعض المفسِّرين وبعض العلماء يرويه بالسند، فهذا القول للزجاج، لم يأتِ هكذا، وإنما قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ : جاز أن يكون هذا قول الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يكون حكاية عن إبراهيم، فالزجاج لم يذكر هذا النص بنفسه، إنما ذَكَرَه الشارح عن بعض المفسِّرين بالمعنى، وهذا من باب التأكُّد من الأقوال، ونسبتها إلى أصحابها.

قوله: (**وعن عمر أنه فسَّره بالذنب...**)، سبق أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم يصح عنه أنه فسَّر الظلم هنا بالذنب، فيُذكَر بجانبه، وإنه قد فُهِمَ من مراجعته لأُبي بن كعب، وإن كانت الروايات لم تصح كذلك، وفي أسانيدها مقال.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الحسن والكلبي: أولئك لهم الأمن في الآخرة، وهم مهتدون في الدنيا انتهىٰ.

وإنما ذكرته؛ لأن فيه شاهداً لكلام شيخ الإسلام الآتي في الحديث الذي ذكره حديث صحيح في الصحيح والمسند وغيرهما.

وفي لفظ لأحمد عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] شق ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] إنما هو الشرك».



الشـرح

قوله: (**وقال الحسن والكلبي**)، الحسن أي البصري، والكلبي: هو أحد المفسِّرين، وبعض العلماء يقول: إنه شيعي المعتقد، أي من الشيعة الرافضة، إن صحَّت النسبة إليه بذلك.

قوله: (**في الحديث الذي ذكره، حديث صحيح**)، هنا يحسُن أن يُلحِق كلمة، فيقول: بعد قوله: (ذكره، وهو حديث صحيح)؛ لأنه لابد أن يُفصَل هنا.

قوله ﷺ: (**إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا...**)، هذا الحديث وردَ في صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعَزْوه إلىٰ المسند في الحقيقة فيه قصور؛ لأن الحديث بنفس اللفظ في صحيح البخاري، ولكن ليس في الصحيح ذِكْر العبد الصالح، وإنما فيه ذِكْر لقمان، وكذا فيه "تظنُّون" بدل "تعنُون"، وهذا ليس له علاقة بمعنىٰ الحديث، وفي هذا الحديث، أن النبي ﷺ فسَّر الظلم بالشرك،

والروايات التي في صحيح البخاري، جاءت بلفظين، والألفاظ التي رُوِيَت عن النبي ﷺ، ربما تختلف، فإذا اختلفت، وَجَبَ علينا أن نبحث السند، فالصحابة عندما سمعوا هذه الآية، شقَّ عليهم الأمر، وهذا معنىٰ مُتَّفَق عليه بين جميع الروايات، ثم اختلفت الروايات، فمنها ما فيه: (أن النبي ﷺ قرأ الآية)، أي: فسَّر الآية السابقة بالآية الثانية.

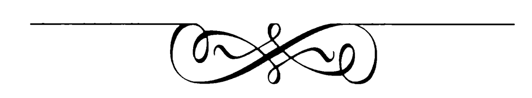
ومنها ما فيه: أن الله أنزل آية لقمان، فيكون الصحابة عندما شقَّ عليهم ذلك، أنزل الله آية، فيكون هذا سببًا لنزولها، فكلا اللفظين جاء في الصحيح، وعندما رجعنا إلىٰ أسانيدها، وجدنا هذا الحديث من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رواه عنه علقمة بن قيس النخعي، وهو تابعي، ورواه عن علقمة، إبراهيمُ بن يزيد النخعي، وهو أيضًا تابعي، ورواه عن إبراهيم، سلميانُ الأعمش بن مهران، وهو أيضًا تابعي، وهذه من رواية تابعي عن تابعي عن تابعي، ورواه عن الأعمش خمسة رُواة: أربعة ذكروا أن الرسول فسَّر الآية بآية أخرىٰ، والخامس ذكر أن الله أنزل الآية، فإذا خالَف الثقة الثقات، فإنها تُرجَّح روايات الثقات؛ لأن الجماعة مقدَّمة روايتها عن الواحد، وكلها في الصحيح، ولكن أحد المفسِّرين في العصر الحاضر، وهو جمال الدين القاسمي رحمه الله، وتفسيره علىٰ منهج السلف، ظنَّ أن بعض هذه الراويات ليس في الصحيح، ففسَّرها بحديث صحيح، ثم قال رحمه الله : (هذه الرواية)، أي: رواية المسند، (توضح رواية البخاري السابقة، أعني قول ابن مسعود: نزلت)[1]، والحقيقة أن هذه الروايات كلها في الصحيح، ثم قال: (من جهة أن النزول أُريد به تفسير الآية، لا سبب نزولها، وهو اصطلاح للصحابة والتابعين دقيق، ينبغي التنبُّه له، وقد

---

(١) تفسير القاسمي، محاسن التأويل (٤/ ٤١٣).

أشرنا له في المقدمة، فجدِّد بها عهدًا)، ولكن عندما رجعنا إلىٰ الروايات، وجدنا أن هذا اللفظ لم يُنقَل في كل الروايات، فليس من كلام الصحابة، ولا من كلام التابعين؛ لأن الرواة عن الأعمش خمسة، أربعة منهم لم يذكروا هذا اللفظ.

فليس هذا اللفظ من قول الصحابة ﵃، كما أنه ليس من قول النبي ﷺ؛ لأن سبب النزول إنما يذكره الصحابة، وهذا يُبيِّن لنا الترجيح بين الروايات.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال شيخ الإسلام: والذي شق عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد لنفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله.

وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فمن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:٣٢]، وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

الشرح

قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : **(والذي شقَّ عليهم، ظنُّوا أن الظلم المشروط، هو ظلم العبد لنفسه)**، هذا يدلنا على شدة حساسية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ودقة تعاملهم مع ألفاظ كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، فعندما أنزل الله هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام:٨٢]، فَهِم الصحابة أن الظلم منه ما يكون معاصي صغيرة، فمَن جاء بالمعاصي الصغيرة، فإنه لا يكون يوم القيامة آمنًا، فخافوا، وشقَّ عليهم، فطمأنهم النبي ﷺ بأن المراد بالظلم هنا هو الشرك، فهو أعظم ذنب وأكبره، ومُحال أن يقع من الصحابي هذا الظلم، الذي هو الشرك، ولا يقع كذلك من المؤمن، وهذا ما طمأنهم به ﷺ، فقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : إن هذا شقَّ عليهم؛ لأنهم ظنُّوا أن الظلم المراد هو الذنب.

قوله: (**وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء، إلا لمَن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم**)، ذكر رَحِمَهُ اللهُ: أن مَن لا يلبس إيمانه بظلم، يكون من أهل الأمن والاهتداء، كما أنه من أهل الاصطفاء، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه بعد أن أهلك الأمم الماضية، اصطفى أمة جديدة، والأمة الجديدة فيها طبقات ثلاث:

طبقة عريضة، هي أكثر الأمة، فبدأ الله بهم؛ لأنها كالقاعدة، ثم التي هي أقل من الأُولَى، وهي أحسن منها، ثم التي هي أعلاها، مثل الهرَم، أي أن الأمة مثل الهرم، والقاعدة العريضة فيه عادةً لا تكون مستقيمة استقامة كاملة، ثم تأتي فوقها طبقة تكون استقامتها أحسن من التي فوقها، ثم تأتي القمة، فذكر ربنا عَزَّ وَجَلَّ أن الأمة التي اصطفاها على ثلاث مراتب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر:٣٢]، وهي القاعدة الكبيرة، الظالم للنفس هو الذي يعمل الواجبات، ويقصِّر في بعضها، أو يرتكب بعض المَنهيَّات، والتي أعلى منها ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، المقتصد الذي يأتي بالواجبات، ويترك المحرَّمات، والتي أعلى منها ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢]، السابق الذي يأتي بالواجبات، ويجتنب المحرَّمات، ثم يتقرَّب إلى الله بالنوافل، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحديث القدسي: (**ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أَحَبّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل، حتى أُحبه**)، -هذا هو السابق بالخيرات- (**فإذا أحببته، كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويَده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني، لأُعطِينه، ولئن استعاذني، لأُعِيذنه**)(١).

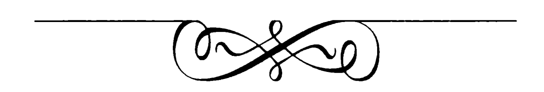
---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، برقم: (٦٥٠٢).

فالطبقات ثلاث، الظالم لنفسه، والمـُقتصِد، والسابق، وقال الله عنهم جميعًا إنه اصطفاهم، ثم قال في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢]، ذكر الفضل الكبير جزاء الطبقات الثلاث، فسمَّاهم الله المصطفين، أي: اصطفاهم الله واختارهم، فهؤلاء جميعًا أصحاب الجنة، فالذي ظلم نفسه بمعصية، فإنه سيدخل الجنة، إما ابتداءً، فإما انتهاءً، مثل الذي وعد الله أن يكون له الأمن، إذا لم يشرك بالله، وكانت له معاصٍ، إما أن يُمَحَّص في النار قبل دخول الجنة، وإما أن يعفو الله عن سيئاته.

هنا عبارة سقطت من كلام الشارح؛ لأن هذا الكلام منقول من الإيمان لابن تيمية رحمه الله من الجزء السابع صفحة (٨٠)، وهنا سقطت عبارة، فسبَّب خلطًا في المعنىٰ؛ لأنه بعد قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، قال: (وقد سأل أبو بكر رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك)، ففَهِمَ أن الحديث في آية الزلزلة، وليس كذلك، بل سقط بعد قوله: (يره) وقال تعالىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، فتُلحَق هذه العبارة حتىٰ ترتبط بالحديث الذي بعدها، فقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾ [الزلزلة:٧]، كيف يرىٰ، وقد ذهبت الدنيا؟ وكيف يرىٰ السارق عمله؟ وكيف يرىٰ الكاذب كذبه؟ وكيف يرىٰ الخائن خيانته؟ لا بُعْد في ذلك؛ لأننا نرىٰ في حياة البشر في هذا العصر، أنها تُوثِّق المعلومات، عن طريق التسجيل والتصوير، فإذا جِيء بالإنسان، وقد ارتكب جريمة، وقد صُوِّر بآلات التصوير، وسُجِّل بآلات التسجيل، رأىٰ جريمته أمامه، لا يستطيع أن يُنكِر، هذا استطاع أن يصل إليه البشر، فما بالك بوسائل التوثيق يوم القيامة من خالق البشر؟ فيوم القيامة يرىٰ جريمته أشد مما يراها في الدنيا، يرىٰ بالعين؛ لأن الرؤية تكون بالعين،

والله ﷻ لا يعجزه شيء، فكأنه يوم القيامة، سيرىٰ إما عمله، أو نفسه وهو يهرب عن الصلاة، أو يرتكب الفاحشة، أو يعمل عملًا خاطئ، يرىٰ ذلك بأدق وسائل التوثيق، والله ﷻ هو مالك الكون، فرؤية الإنسان لعمله يوم القيامة، تكون عن طريق قدرة الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالىٰ: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، وقد سأل أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي ﷺ عن ذلك فقال: يا رسول الله وأينا لم يعمل سوءا؟ فقال: «يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن أليس تصيبك اللأواء فذلك ما تجزون به».

الشَّرح

هذا الحديث عن الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سنده ضعف، ولكن المحقِّق هنا ذكر أن له طُرُقًا، وأن له شواهد من أحاديث أخرىٰ، وقد جاءت هذه الآية في صحيح مسلم، أنها لما نزلت: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **(قارِبوا وسدِّدوا، ففي كل ما يُصاب به المسلم كفَّارة له، حتىٰ النكْبَة ينكَبها، أو الشَوْكة يُشاكها)**(١)، والنكبة ليس المراد بها المصيبة الكبيرة، وإنما يراد بها ما يحدث للإنسان أثناء السير، فقد يضرب رجله في حجر، أو في حفرة، أو ما أشبه ذلك، أما المصائب الكبرىٰ فهي أعظم، ولكن نبَّه النبي ﷺ بالصغير علىٰ الكبير، قال: (حتىٰ الشوكة)، فلو ضُرِبَت رجله في حجر، فإنه يوم القيامة يُكفِّر الله بها من ذنوبه، فهذا الحديث في الصحيح، يشهد لحديث الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصاب من مرض أو حزن أو نحو ذلك، حتىٰ الشوكة يشاكها، برقم: (٢٥٧٤)، (٤/ ١٩٩٣)، وأخرجه البخاري بلفظ: "ما يصيب المسلم من نَصَب، ولا وَصَب، ولا هَم، ولا حزن، ولا أذىٰ، ولا غَم، حتىٰ الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه"، كتاب المرضىٰ، باب ما جاء في كفارة المرض، برقم: (٥٦٤١).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فبين أن المؤمن الذي إذا مات دخل الجنة قد يجزىٰ بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه، قال: (فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة) يعني: الظلم الذي هو الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك كان له الأمن التام والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلم نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقًا، بمعنىٰ: أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرىٰ، وقد هداه الله إلىٰ الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلىٰ الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه، ليس مراد النبي ﷺ بقوله: «إنما هو الشرك» أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلىٰ الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلىٰ هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولابد لهم من دخول الجنة.



الشرح

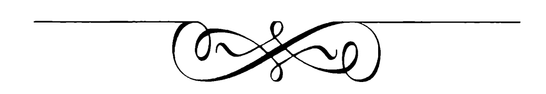
هذا المقطع معناه: أن مَن جاء بالتوحيد الكامل، الذي لا يكون معه شرك، ولا إصرار علىٰ كبيرة، فله الأمن المُطلَق يوم القيامة، ولكن لو جاء معه بتوحيد، ثم جاء معه بمعصية، فالله قد توعَّده، فقد يعفو عنه، وقد يعاقبه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فما دون الشرك، مُقيَّد بمشيئة الله ﷻ، فالمراد أن مَن جاء بالتوحيد الناقص، فإن له الأمن الناقص يوم القيامة، ومَن جاء بالتوحيد الكامل، فإن له الأمن الكامل يوم القيامة.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (إنما هو الشرك) إن أراد به الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وهو مهتد إلىٰ ذلك، وإن كان مراده جنس الشرك فيُقال: ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب، وهو شرك أصغر، وحبه ما يبغض الله حتىٰ يقدم هواه علىٰ محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك، فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار. انتهىٰ ملخصًا.

الشَّرح

انتهىٰ من كلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه العظيم (الإيمان)، فيقول: إن الشرك إن أُريد به الشرك الأكبر، فهذا واضح، وإن أُريد به جِنْس الشرك، -فإن الإنسان العاصي، لا يخلو من جِنْس الشرك، فالذي يرتكب المعصية يكون قلبه قد أحبَّ المعصية، وحب القلب لغير ما يحبه الله، شرك أصغر-، فيكون المعنىٰ أن مَن سَلِم من جنس الشرك، الذي فيه أصغر وأكبر، فإنه يوم القيامة يأتي آمنًا، ولكن مَن وقع في الشرك الأكبر، فإنه يأتي خائفًا، ومَن وقع في الشرك الأصغر، الذي هو أصل المعصية، فهذا يكون غير آمن يوم القيامة؛ لأن المعصية تنتج عن وجود محبة لغير ما يحبه الله، وأن محبة غير ما يحبه الله، أو محبة ما يبغضه الله، يكون شركًا أصغر، يستحق به نقص الأمن يوم القيامة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

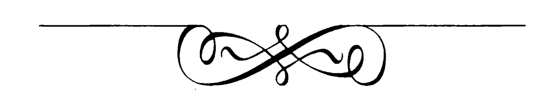
وبه تظهر مطابقة الآية للترجمة فدلت على فضل التوحيد وتكفيره للذنوب؛ لأن من أتى به تامًا فله الأمن التام والاهتداء التام، ودخل الجنة بلا عذاب، ومن أتى به ناقصًا بالذنوب التي لم يتب منها، فإن كانت صغائر كفرت باجتناب الكبائر لآية النساء والنجم، وإن كانت كبائر فهو في حكم المشيئة إن شاء الله غفر له وان شاء عذبه ومآله إلى الجنة والله أعلم.



الشَّرح

قوله: (فإن كانت صغائر، كُفِّرَت باجتناب الكبائر لآية النساء)، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء:٣١]، فذكرت الآية أن مَن يجتنب الكبائر، فإن الله يُكفِّر سيئاته، أي الصغائر، فاجتناب الكبائر يُكفِّر الصغائر، وأما ارتكاب الكبائر، فيجعل صاحبها مُتوَعَّدًا بالعقاب، وهذا كله كما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ من باب النظريات، وإلا فلا يوجد مُرتكِب الكبائر عَمْدًا مؤمنًا خائفًا من الله، كيف يوجَد مَن لم يصلِّ مثلًا، ثم جِيء له بالسيف، وهُدِّد بالقتل: إن لم تصلِّ، نقتلك، وامتنع عن الصلاة، ويزعُم أنه مؤمن حقًّا، فيُقْتَل كما قال الفقهاء، وهل يُقتَل حَدًّا، أو يُقْتَل رِدَّة؟ على قولين، ولكن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: هذا كلام نظري، فيستحيل أن يكون في القلب إيمان، وخوف من الله، وتعظيم لله، ومحبة لله، ثم يُؤمَر بالصلاة، فلا يصلِّي، ثم يُهدَّد بالسجن، فلا يُصلِّي، ثم يُهدَّد بالقتل، فلا يُصلِّي، ويزعم أن في قلبه إيمانًا، فهذا كلام نظري، ولكن الفقهاء ذكروه من باب تفريع الأحكام.

وكذلك في قضية التوحيد، فقال: إن الذي يكون في قلبه التوحيد عظيمًا، وقويًّا، وواضحًا، يستحيل أن يكون معه إصرار على كبيرة، ولا يستحيل أن يكون معه وقوع في الكبيرة، فما منَّا إلا وقد يقع في المعصية، والإنسان ليس معصومًا من المعاصي، ولكن يستحيل أن يبقَى مُصِرًّا على كبيرة، مع وجود الإيمان في قلبه، وبقائه واضحًا قويًّا مُنيرًا مُضيئًا في قلبه، ثم يبقى مع ذلك مُصِرًّا على كبيرة، قال: هذا لا يوجد في الواقع، إنما هذا من باب النظريات، لا من باب الواقع والعمليات.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

عن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ قال: (قال رسولُ الله ﷺ: مَنْ شَهِدَ أن لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، وأنَّ عِيسَىٰ عَبْدُاللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ وَالجَنَّة حَقٌّ وَالنَّار حقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الجنةَ عَلَىٰ مَا كانَ مِنَ العَمَلِ)أخرجاه.

عبادة: هو ابن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد أحد النقباء بدري مشهور من أجلة الصحابة، مات بالرملة سنة أربع وثلاثين، وله اثنتان وسبعون سنة، وقيل: عاش إلىٰ خلافة معاوية.



الشَّرح

قوله: (عن عبادة بن الصامت)، حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء بلفظين، هذا أحدهما، وهو في الصحيحين البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ الثاني قال فيه: (مَن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، حرَّمه الله علىٰ النار)[١]، فاللفظ الأول: (أدخله الله الجنة)[٢]، واللفظ الثاني: "حرَّمه الله علىٰ النار"، واللفظان مختلفان، فاللفظ الأول وعدَه بالجنة، ولكن قد يدخل النار، إذا جاء بالكبائر، وهذا هو مُعتقَد أهل السُّنَّة والجماعة، أن مَن شهد أن لا إله إلا الله، ووقع في الكبيرة، ومات ولَمْ يَتُبْ منها، فإنه مُتوَعَّد بعقاب، ولهذا يخرج من النار بالشفاعة، مَن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فدلَّ علىٰ أن

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن من مَات علىٰ التوحيد، دخل الجنة قطعًا، برقم: (٢٩)، (١/ ٥٧).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالىٰ: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم...)، برقم: (٣٤٣٥)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن مَن مات علىٰ التوحيد، دخل الجنة قطعًا، برقم: (٢٨)، (١/ ٥٦).

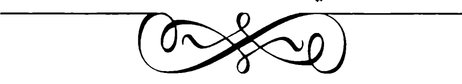
بعض الموحِّدين قد يدخل النار، فهذا الحديث لا يمنع لفظه من دخول الإنسان النار، إذا جاء بهذه الأشياء، وخلطها بعمل آخر، ولكن اللفظ الثاني يقول: (حرَّمه الله علىٰ النار)، أي لا يدخل النار، ولو جاء بأي عمل من المعاصي، فهذا هو الإشكال في هذا الحديث، فاللفظان مختلفان، ومصدرهما واحد، والقصة واحدة، ولابد من الترجيح، فالترجيح قد يكون إما عن طريق كثرة الرواة لأحد اللفظين، أو عن عُلُو درجة أحد الإسنادين، أو عن موافقة أحد اللفظين لأصول أخرىٰ، هذه بعض أوجُه الترجيح بين الروايات المتعارضة؛ لأن الرواية إذا كان أصلها واحدًا يحتاج إلىٰ الترجيح، وإذا كان المَورِد اثنين، أو ثلاثة، أو ذُكِرَ هذا الحديث في أكثر من موطن، فليس هناك إشكال؛ لأنه يُدرَس الموطن الذي ذُكِرَ فيه، ويُستنبَط منه الحكم، فإذا كان أصل الحديث واحدًا، بأن قيل في زمن واحد، وفي مكان واحد، ثم اختلف اللفظان، دلَّ علىٰ أن الخلاف جاء من الراوي؛ لأن الرواة من الصحابة والتابعين وغيرهم، يستجيزون رواية الحديث بالمعنىٰ، فعندئذٍ لابد من بحث الترجيح، فيحتاج إلىٰ دراسة السند، وطُرُق الروايات، ثم نخرج منها بالترجيح.

قوله: (**عبادة: هو ابن الصامت بن قيس...**)، الشارح رَحِمَهُ الله دائمًا يُترجِّم للأعلام الواردين في المتن، سواءٌ كانوا صحابة، أو علماء، أو محدِّثين، فهذه الترجمة للصحابي الجليل، عبادة بن الصامت، الذي بعثه عمر رَضِيَ الله عَنْهُ إلىٰ الشام قاضيًا ومعلِّمًا، والعلماء يذكرون الأحداث؛ لبيان درجة الصحابي، فكان من أول الأحداث التي فُضِّل بها عبادة، أنه أحد النقباء ليلة العقبة؛ فإن الأوس والخزرج الذين بايعوا النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قد بايعوه مرتين: العقبة الأولىٰ، في السنة الثانية عشر للبعثة، أي قبل الهجرة بسنتين، وكانوا اثني عشرة رجلًا، والعقبة الثانية، التي حضر فيها ثلاث وسبعون رجلًا وامرأتان، فعندما حضروا في

العقبة، في منتصف الليل؛ لمُبايعة النبي ﷺ في مكة، حتىٰ يهاجر إليهم، وينصروه، قال عليه السلام: (أخرجوا لي منكم نقباء، اثنا عشر نقيبًا)[١]؛ لأنه لا يستطيع أن يتكلَّم مع الجميع، فلابد من مُمَثِّلين، ولابد من رؤساء، فكان عبادة أحد الخزرج الذين خرجوا، وكان نقيبًا، أي كان عَرِيفًا علىٰ مجموعة من قومه، فهذه ميزة.

والميزة الثانية: أنه كان من أهل بدر، وغزوة بدر هي بداية انتصار الإسلام، وما من رجل قد حضر بدرًا، إلا وقد رفع الله درجته، حتىٰ ولو عمل أي عمل، كما في قصة حاطب المشهورة: أنه جاء غلام حاطب، وقال: (يا رسول الله)، وكان حاطبًا شديد التعامل معه، (إن حاطبًا من أهل النار)، قال: (كذبْتَ، إنه من أهل الجنة، إنه من أهل بدر)[٢]، فيذكر العلماء دائمًا في سير الصحابة، حضورهم للغزوات، فأهل بدر أعلىٰ درجة في الصحابة، فلهذا يقول العلماء: إن البدريين لم يكن أحد منهم في جيش معاوية، حين خرج علىٰ علي، بل انقسموا قسمين: قسم كان مع علي، وقسم اعتزلوا؛ لأن البدريين كان إدراكهم، وفهمهم للدين، علىٰ أعلىٰ درجة، وكان عمر رضي الله عنه إذا أراد أمرًا، فأول مَن يستدعي البدريين، ليشاورهم؛ لأنهم هم الدرجة الأولىٰ في الأمة؛ لأن الله أعطاهم هذا الفضل.

فهنا الصحابي الجليل هو أحد النقباء ليلة العقبة الثانية، وكذلك مِمَّن حضر بدرًا، وهذه تزكية للصحابي، إذا ذُكِرَ في ترجمته.



---

(١) أخرجه بطوله الإمام أحمد في المسند، برقم: (١٥٧٩٨)، (٢٥/ ٨٩-٩٦)، والحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، باب في ذكر مناقب سعد بن عبادة الخزرجي رضي الله عنه، برقم: (٥١٦٥)، (٣/ ٣٠٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٨٩).

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (من شهد أن لا اله إلا الله) أي: من تكلم بهذه الكلمة عارفـًا لمعناها عـاملاً بمقتضـاها باطنـًا وظـاهرًا كمـا دل عليـه قولـه: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، وقولـه تعـالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف:٨٦]، أما النطـق بهـا مـن غيـر معرفـة لمعناهـا ولا عمـل بمقتضـاها فـإن ذلـك غيـر نـافع بالإجماع.

وفي الحديث ما يدل علىٰ هذا، وهو قوله: (من شهد) إذ كيف يشهد وهـو لا يعلم، ومجرد النطق بشيء لا يسمي شهادة به، قـال بعضـهم: أداة الحصـر لقصـر الصفة علىٰ الموصوف قصر إفراد؛ لأن معناه الإلوهية منحصرة في الله الواحـد في مقابلة من يزعم اشتراك غيره معـه، ولـيس قصـر قلـب؛ لأن أحـداً مـن الكفـار لـم ينفها عن الله، وإنما أشرك معه غيره.

الشَّرْح

هنا بدأ الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحديث عن ما جاء في الحـديث، وهـو: (أن مَـن شـهد أن لا إله إلا الله)، هذا فعل الشرط، وسيأتي جوابه، أي مَـن فعـل هـذا، فلـه كـذا، تأتي أحاديث كثيرة فيها كلمة (شهد)، كحديث عبد الله بـن عمـر: (بنـي الإسـلام علىٰ خمس)، ثم قال: (شهادة أن لا إله إلا الله)[1]، والحـديث الثـاني هنـا، وفيـه: (أُمِـرْتُ أن أقاتـل النـاس، حتـىٰ يشـهدوا أن لا إلـه إلا الله)[2]، وحـديث عمـر الطويل، أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سأله ﷺ عن الإسلام، فقال: (الإسلام شـهادة أن لا إلـه

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

إلا الله)[١]، وحديث عبد الله ابن عباس، في وفد عبد القيس، (آمركم بالإيمان بالله وحده)، ثم قال: (أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله)[٢]، وحديث معاذ: (فليكن أول ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله إلا الله)[٣]، فذكر في كلها كلمة شهادة، وليس قول (لا إله إلا الله) فقط؛ لأن الشهادة أعلىٰ درجات اليقين، والشهادة تُطلَق علىٰ ما أصبح في درجة لا شك فيها، ولهذا يُقال: الشهود، إذا شهد الإنسان قضية رآها بعينه، وسمعها بأذنه، فيكون هذا غاية التوثيق، فمعنىٰ أشهد: أُبيِّن وأُعلِن، وكأنه يقول: إن هذا أمر قد أصبح عندي في درجة الشهادة، ليس طريقًا غيبيًّا، بل أعلىٰ درجات العلم، فمعنىٰ أشهد، أنه لم يبقَ لديه شك فيما يقول، وهل يكفي النطق بالكلمة في دخول الإنسان في الإسلام؟ يكفي في دخول الإسلام في البداية، ولكن إذا لم تأتِ بمدلولها ومعناها، فلا يكفي، فإن المنافقين قالوها، ولكنها لم تكفهم، ولا تنفعهم؛ لأنه لابد من قولها، ومعرفة معناها، واعتقاد معناها، والعمل بمقتضاها، وإلا فإن قريشًا قالت: لا إله إلا الله، ولم تعبد الله، وبقيت تعبد الأصنام، فلم ينفعها ذلك.

فمعنىٰ الشهادة، أنه لابد أن يكون وراءها عمل، فيقول ﷺ : والدليل عليه، قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ ﴾، وهذا خطاب للنبي ﷺ، ولكل أُمَّته، ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه مطولًا، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام برقم: (٨)، (١/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، برقم: (٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالىٰ ورسوله ﷺ...، برقم: (١٧)، (١/ ٤٦).

(٣) سبق تخريجه.

إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، قال البخاري رحمه الله في باب بَوَّبَهُ بهذه الآية: (باب العلم قبل القول والعمل)، قال ابن المنير -وهو أحد شُرَّاح البخاري-: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يُعتَبران إلا به، فهو مُتقدِّم عليهما؛ لأنه مُصحِّح للنية المُصحِّحَة للعمل)(١)، فالعلم لابد أن يسبق القول والعمل، ولابد أن يسبق النية؛ لأن النية لا تكون صحيحة، إلا إذا عرف الحكم الشرعي، فالذي يعمل عملًا بدون علم يُرضِي الله به، ويتقرَّب به إليه، يكون آثمًا، كما فعل النصارىٰ، وسمَّاهم الله ضالين؛ لأنهم فعلوا وعملوا، ولكن علىٰ جهل، فسمَّاهم الله ضالين، وأما اليهود فعلموا، ولكنهم لم يعملوا، فغضب الله عليهم، والصنف الثالث: الذين علموا وعملوا، هم الذين هداهم الله.

فالعلم يُراد به العمل، فكل علم ليس وراءه عمل، فلا خير فيه، وكل عمل بدون علم، لا خير فيه، فأول شرط لهذه الكلمة، أن تعلم معناها.

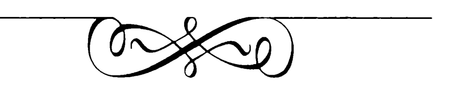
والآية الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف:٨٦]، وقبلها: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾، وهنا ذكر المفسِّرون معنيين: هل المراد أن المَدعُوِّين من الملائكة، والرُّسُل، والأصنام، وغيرها، لا تملك الشفاعة، إلا مَن كان شاهدًا بالحق، عالمًا به، فتكون الشفاعة منهم، أي لا يشفع منهم إلا مَن كان بهذه الصفة، أو يكون المعنىٰ لا يشفعون إلا لمَن شَهِد بالحق؟ فـ(مَن) هنا، إما أن تكون في محل رفع، وإما أن تكون في محل جر:

---

(١) انظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢/ ٣٩)، فتح الباري لابن حجر (١/ ١٦٠) الْكَلَامِ.

فإذا كانت في محل رفع، فالمراد به الذين عُبِدُوا من دون الله، لا تكون الشفاعة لأحد، إلا مَن كان منهم شاهدًا بالحق، عالمًا به، وهذه خاصة للأنبياء والرُّسُل، وأما إذا كانت في محل جر، أي: لا يشفعون -أي: الملائكة والرُّسُل- إلا لمَن شَهِد بالحق، وقال ابن عباس: (شهادة الحق، هي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)، فمَن جاء بالتوحيد يوم القيامة، يستحق الشفاعة، ومَن يأتي مُشرِكًا، لا يستحق الشفاعة، وهذا هو المعنى القريب للآية، والذي أراده الشارح ﵀، فلابد في الشهادة من أن يكون شاهدًا بالحق، عالمًا به، فإذا لم يكن شاهدًا بالحق، غير عالِم به، فإنه لا تنفعه شهادته، بل تكون كشهادة المنافقين.

فقريش ما كانت تنفي عن الله أنه معبود، أو تنفي أن يكون مع الله معبودات أخرى؛ لأنها كانت تحج، وتقسم بالله، وتعظِّم الله، وتطوف بالكعبة، وتدعو الله، ولكن تدعو معه غيره، فهي لم تنفِ عن الله إنه إله، ولكن نَفَت تفرُّده بالإلوهية، فقالت: ليس الله وحده إلهًا، كما قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥]، فلم ينفوا أن الله إله، وإنما نفيهم أن يكون الله وحده إلهًا، فعندما قال الرسول: لا إله إلا الله، عجبوا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ﴾ التي نعبدها، ونتقرَّب إليها، في كل مكان من الأصنام ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾، فقريش لم تنفِ عن الله الألوهية، وإنما نَفَت عن الله التفرُّد بالألوهية، وأن الله وحده إله، فجاء الردُّ عليهم، بأن الله وحده إله، وما عداه ليس بإله.

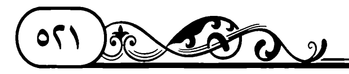


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال النووي: هذا حديث عظيم جليل الموقع وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج عن ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها فاقتصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم. انتهى.

الشَّرح

قوله: (**وقال النووي: هذا حديث...**)، هذا مُجمَل، وكلام النووي سيأتي مشروحًا من كلام الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ، والأديان الثلاثة التي كانت قبل الإسلام، هي: المجوسية، واليهودية، والنصرانية، فأول الحديث: (مَن شَهِد أن لا إله إلا الله)، فهو خطاب للمُشرِكين، وبعده: (وأن عيسى عبد الله، ورسوله)، وهو خطاب للنصارى، الذين زعموا أن عيسى إله، أو أنه ابن إله وقوله: (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه)، ردٌّ على اليهود الذين اتهموه بأنه ابن زِنَى، وحاشاه من ذلك، فالحديث يردُّ على الأديان الثلاثة، ولهذا يقول العلماء: إذا أراد أن يُسلِم الكِتابي، لابد أن يقول هذا الكلام، ولا يكفي فيه أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، بل لابد أن يشهد أن عيسى عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، فلابد أن يشهد هذه الثلاث؛ لأن لديه معتقدات، لابد من نفيها، وهذا الحديث كما قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ يشمل ويردُّ على الأديان الثلاثة، التي كانت قبل الإسلام.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومعنى (لا اله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥]، مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦]، فصح أن معنى الإله هو المعبود، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش: «قولوا لا إله إلا الله» قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾ [ص:٥] وقال قوم هود: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ﴾ [الأعراف:٧٠]، وهو إنما دعاهم إلى (لا اله إلا الله).

فهذا هو معنى (لا إله إلا الله)، وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت وإيمان بالله.



الشرح

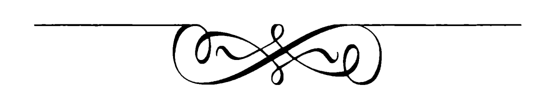
قوله: (ومعنى: لا اله إلا الله)، هنا أراد أن يفسِّر معنى (إله)، بأن معناه معبود، يُؤخذ ذلك من الآيات القرآنية، فالآية الأولى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥]، فكل رسول دعا قومه بقوله: (لا إله إلا الله)، وفهمت الأمم من هذا، ما قال -تعالى- في الآية الثانية، التي تُبيِّن معنى (لا إله إلا الله)، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النحل:٣٦]، بعث في كل أُمَّة رسولًا، يقول: اعبدوا الله، وفي السابق يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، فمعنى

الإله، هو معنىٰ المعبود، معنىٰ العبادة، هو الإلوهية، أي عبودية، وهي العبادة، هذا معنىٰ (لا إله إلا الله)، قال -تعالىٰ- عن قوم هود: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ ﴾ [الأعراف:٧٠]، ردًّا علىٰ قول هود: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٦٥].

فذكر العبادة مع الألوهية، فمعنىٰ إله أي معبود، وهذا الاستطراد سيتكرر؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر أن هناك مَن أخطأ في فهم (لا إله إلا الله)، وظنوا أن معنىٰ (لا إله إلا الله)، لا خالق إلا الله، أو لا رازق إلا الله، أو لا مُحيِي إلا الله، أو لا مُميت إلا الله، وهذا وقع فيه طوائف المسلمين، هذا خطأ لغةً وشرعًا، وقد نقل رَحِمَهُ اللَّهُ كما سيأتي أقوال تسعة من علماء الشريعة، فسَّروا إله بأنه معبود، علىٰ وزن فِعال، أي مفعول، ونقل أيضًا أقوال تسعة من علماء اللغة، فسَّروا إله بأنه معبود.

فاللغة والشرع كلاهما يدلان علىٰ أن معنىٰ (لا إله إلا الله): لا معبود بحق إلا الله، وليس معناها لا خالق إلا الله، فإن قريشًا ما كانت تجهل أن الله خالق، والقرآن أثبت هذا ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ [لقمان:٢٥]، فليس هناك إشكال في الخَلْق، إنما ٧الإشكال في أن يُفرَد الخالق بالعبادة والطاعة، فهذا هو مُراده رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (وهو الكفر بالطاغوت، وإيمان بالله)، هنا يحسُن أن يقول: الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، فبهذا يستقيم المعنىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوىٰ الله ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الإلهية لغيره، فتضمنت نفي الإلهية عما سواه، وإثباتها له وحده لا شريك له، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه إلهًا وحده، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي أو يستشهد من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد، المفتي فلان، والشاهد فلان. فإن هذا أمر منه ونهي، وقد دخل في الإلهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب والخضوع والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد الله تعالىٰ بها: كالدعاء والخوف والمحبة والتوكل والإنابة والتوبة والذبح والنذر والسجود، وجميع أنواع العبادة، فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئًا مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك، ولو نطق بـ(لا إله إلا الله) إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص.



الشَّرح

هذا بيان لمعنىٰ (لا إله إلا الله)، وأنها تشمل حركة الإنسان كلها، كحركة اللسان، وحركة القلب، التي منها التوكُّل والمحبة والخوف والرجاء، وحركة الجوارح.

فالإنسان كل حياته مُحاطة بمعنىٰ لا إله إلا الله، فيجب عليه أن تكون حياته وِفْق هذه الكلمة، ابتداءً من حركة القلب، وانتهاءً بحركة الجوارح، هذا معنىٰ (لا إله إلا الله)، وسيذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ شواهد من كلام العلماء عليه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر نصوص العلماء في معنىٰ (الإله):

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (الله ذو الألوهية والعبودية علىٰ خلقه أجمعين) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال الوزير أبو المظفر في (الإفصاح) قوله: (شهادة أن لا إله إلا الله) يقتضي أن يكون الشاهد عالمًا بأن (لا إله إلا الله)، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، وينبغي أن يكون الناطق بها شاهدًا فيها، فقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالمًا بما شهد به، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، قال: واسم الله تعالىٰ مرتفع بعد إلا من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه.

الشَّرح

قوله: (وقال الوزير أبو المظفر...)، هذا كلام الوزير أبو المظفر يحيىٰ بن هبيرة، أحد وزراء الدولة العباسية في القرن السادس، وكان يُسمَّىٰ بالوزير العادل، حتىٰ قيل فيه: إنه لم يكن في الدولة العباسية وزير مثله في العلم والعدل، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من العلماء في اللغة والحديث والشريعة، ومن مؤلفاته كتابه: (الإفصاح عن معاني الصحاح)، شرح به الصحيحين البخاري ومسلم، فهذا منقول من هذا الكتاب، وهو مطبوع في مجلَّدين، فهذا كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنىٰ (لا إله إلا الله)، فهذا العالِم بيَّن أن معنىٰ (لا إله إلا الله)، هو لا معبود بحق إلا الله، وهو الذي وردَ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله الماضي، وهو أنه ذو الألوهية والعبودية، فكلتاهما بمعنىٰ واحد، أي الألوهية والعبودية، علىٰ خلقه أجمعين.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: واقتضىٰ الإقرار بها أن تعلم أن كل ما فيه أمارة للحدث فانه لا يكون إلهًا، فإذا قلت: (لا إله إلا الله) فقد اشتمل نطقك هذا علىٰ أن ما سوىٰ الله ليس بإله، فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده.

قال: وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هي مشتملة علىٰ الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت، وآمن بالله.

الشَّرح

هنا قضيتان: القضية الأولىٰ: قوله: (**واقتضىٰ الإقرار بها، أن تعلم أن كل ما فيه أمارة للحدث**)، معنىٰ (أمارة للحدث): أن كل مخلوق فيه علامة الحَدَث أي: علامة الوجود، أي: أنه مُحدَث، فالمُحدَث الذي لم يكن له وجود، وقد أحدثه غيره، لا يستحق أن يكون إلهًا؛ لأن الإله لابد أن يكون خالقًا أَزَلِيًّا أبديًّا، ليس مُفتقِرًا إلىٰ غيره، فالذي يجعل من المُفتَقِرات ومن المُحدَثات، التي قد أوجِدَت، لا من نفسها، آلهةً يتقرَّب إليها، ويعبُدها، ويسألها، ويدعوها، ويستغيث بها، لم يفهم معنىٰ (لا إله إلا الله).

وأما قوله: (**فهي مُشتمِلَة علىٰ الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله**)، ثم قال في آخره: (**فإنك لمَّا نَفَيْتَ الإلهية، وأَثْبَتَّ الإيجاب لله -سبحانه-، كنتَ مِمَّن كفر بالطاغوت، وآمن بالله**)، هذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وهناك دائرتان في حياة البشر، لا ثالث لهما: دائرة الإيمان، ودائرة الطاغوت.

فكل ما ليس من الإيمان، فهو طاغوت، وكل ما هو إيمان، فليس طاغوتـا، فينبغي أن نعرف هل حياتنا في دائرة الإيمان بـالله، أم في دائـرة الطـاغوت؟ فكـل عادة، ونظام، وتشريع، وسلوك، وخُلُق، ومعاملة، ليست من الإيمان، فهي مـن الطاغوت، وكل بيت لا يقوم علىٰ قواعد الإيمان، وليس في دائرة الإيمـان، فهـو في دائـرة الطـاغوت، هـذا معنـىٰ الآيـة، فالآيـة ذكـرت قضـيتين، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾، أي فمَن يتبرأ منه، ويتخلَّ عنـه، وينتقـل بكُلِّيَّتِـهِ إلـىٰ الإيمـان، فقـد آمن، أما الذي تكون حياته مَشُوبة، بعضها في دائرة الطاغوت، وبعضها في دائـرة الإيمان، فهذا خَلَطَ عملًا صالحًا، وآخر سيئًا، فكل شيء في حياة الإنسان لـيس مُستمَدًّا من الإيمان، فهو من ضدِّه، أي من الطاغوت، فليس هنـاك دائـرة ثالثـة، إلا أن تكون مختلطة، فعلىٰ كل واحـد منَّـا، أن يحاسِـب نفسـه في شخصـه: هـل سلوكه، وعقائده، وأفكاره، وآراؤه، وتوجُّهاته، وأخلاقه، مُقتبَسَة مـن الإيمـان، أم أنها ليست من الإيمان؟ والإنسـان يُـدرِك هـذا بنفسـه، فـردًا وأسـرة وجماعـة وأُمَّـة، إن كانـت مـن الإيمـان، فهـذا نعمـة لـه، وإن كـان في سـلوكه ومعاملاتـه وعاداته شيء ليس من الإيمان، وفي أسـرته الداخليـة شـيء لـيس مـن الإيمـان، فهو من الطاغوت، فلم يعطِ (لا إله إلا الله)، حقها من المعنىٰ.

فالإنسان ينبغي أن يفهم أن (لا إله إلا الله)، تتبرَّأ مـن جميـع الآلهـة، وتتـبرَّأ من جميع الأنظمـة، وجميـع المـذاهب، وجميـع الاتجاهـات، إلا الإيمـان بـالله ﷻ، والمسـلمون قـد خلطـوا، والشـارح رحمه الله يُبـيِّن أن أول انحـراف في الأمـة، الجهلُ بالمفاهيم الشرعية، فإن قريشًا كانت تعرف معنىٰ إله، ولكـن المسـلمين طرأَ عليهم الجهلُ بمعنىٰ إلـه، وأول اختلاف في الأمة، هـو اختلاف في معنىٰ الإسـلام، والإيمـان، وأول مَـن أحـدَث في الأمـة الخـوارج، ثـم جـاءت بعـدها المـرُجِئة، ثـم المعتزلـة، ثـم إلـىٰ اليـوم نـرىٰ أن مفـاهيم الإسـلام والإيمـان

والتوحيد، ومفاهيم المسلم والكافر والطاغوت، كل هذه المفاهيم هي سبب البلاء في الأمة، فعندما انحرفت الأمة في معرفة هذه الاصطلاحات الشرعية، وقع بينها الفرقة، ووقع بينها العداوة، وانحرف كثير منهم عن دين الله ﷻ، والشارح هنا رحمه الله يُبيِّن أن كثيرًا من الطوائف عبدوا مع الله غيره، وهم يقولون: لا إله إلا الله؛ لأنهم لم يعرفوا معنىٰ (لا إله إلا الله)، وظنوا أن نُطْق (لا إله إلا الله) يكفي، أو ظنوا أن معنىٰ (لا إله إلا الله)، لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولم يعلموا أن (لا إله إلا الله)، عَقْد لازم بين العبد وبين الله، أن لا يتحرك حركة قلبية، ولا لسانية، ولا في جوارحه، إلا وِفْق (لا إله إلا الله)، فالمرء عبدٌ لله، ينبغي أن تكون حركته وِفْق أمر الله، فالكون كله يسير وِفْق أمر الله، الشمس والقمر وفق أمر الله، والليل والنهار وفق أمر الله، وجميع المخلوقات تسير وفق أمر الله القدري، والإنسان هو الوحيد الذي جعل الله حركته، شرعية اختيارية له، وأمره أن تسير حركته وفق حركة الكون، يعيش مع الكون، يعيش لله، وبهذا يسعد في الدنيا والآخرة، ولكن إذا انطلق من قيود (لا إله إلا الله)، فإنه يُدَمِّر نفسه أولًا، ويُدَمِّر المجتمع، ويُدَمِّر الحياة.

فاختلاف الناس في المفاهيم الشرعية، هي من أسباب بلاء الأمة، ولا يزال كثير من المسلمين يجهل معنىٰ (لا إله إلا الله)، ولهذا وقع الفساد في العقائد، وفي المعاملات، وفي الأخلاق، وفي السلوك؛ لأنه يقولها المسلم، ويطوف علىٰ قبر الميت، ويدعو الأموات، ويتوكل علىٰ غير الله، ويخاف غير الله، ويحب غير الله، ولا يُطبِّق المعاملات في حياته وفق أمر الله.

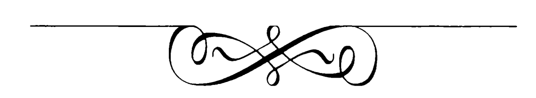
فمفهوم (لا إله إلا الله)، أصبح لدىٰ كثير من المسلمين غير واضح، وما انحرفوا، أو انحرَف كثير منهم، إلا عندما جهلوا معنىٰ (لا إله إلا الله)، فالشارح هنا استطرد في ذِكْر معنىٰ (لا إله إلا الله)، فسيذكر أقوال العلماء، في أن معناها لا معبود إلا الله، وقد مرَّ أن العبادة لها ثلاث جوانب:

الأول: الطاعة الكاملة. والثاني: الحب الكامل. والثالث: الذُّل الكامل.

فأذا نقص بعضها، نقص الإيمان والتوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، والعبادة لابد أن تكون بهذه الزوايا الثلاث:

الطاعة الكاملة لله، تسمع وتطيع محبةً لله، لا تفعل مُكرَهًا، بل تتلذَّذ بالعبادة؛ لأنها تُرضِي المَوْلَىٰ ﷻ، والثالث الانقياد أو الذُّل، فالعبد يعملها محبةً وذُلًّا، يَذِل إلىٰ الله ﷻ، فقد يطيع إنسانًا، ولا يَذِل له، فليس عبدًا له، ولكن إن خَطَرَ في قلبه ذُل أو خضوع له، مع طاعته، فهو يعبده من دون الله ﷻ.

فالجهل بمفهوم (لا إله إلا الله)، بداية انحراف الأمة، وما حدثت القبور، وعباد القبور، ودعاء غير الله ﷻ، والانحراف في كثير من حياتنا، إلا عندما جهلنا معنىٰ (لا إله إلا الله)، فهذا جزء من تفسيرها، وبيانها من كلام العلماء رحمهم الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال أبو عبد الله القرطبي في التفسير: (لا إله إلا هو) أي: لا معبود إلا هو.

وقال الزمخشري: (الإله) من أسماء الأجناس كالرجل والفرس اسم يقع علىٰ كل معبود بحق أو بباطل ثم غلب علىٰ المعبود بحق.

وقال شيخ الإسلام: (الإله) هو المعبود المطاع. وقال أيضا: في (لا إله إلا الله) إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلىٰ العباد، فان الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يُعبد، وكونه يستحق أن يُعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب المخضوع له غاية الخضوع.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الإله) هو: الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وإنابة وإكرامًا وتعظيمًا وذلاً وخضوعًا وخوفًا ورجاء وتوكلاً.


الشَّرح

قوله: (وقال الزمخشري: (الإله) من أسماء...)، الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا استشهد بقول الزمخشري، في أن معنىٰ (الإله)، اسم يُطلَق علىٰ كل معبود، فبيَّن أن معناه المعبود، ولكن نحن لا نسلم له بقوله؛ لأن الأسماء: إما اسم جنس، أو اسم شخص، فأسماء الجنس فيدخل تحته الكثير، فالفرس مثلًا يدخل تحته كل ما في الأرض من الخيول، من إناث الخيول وذكورها، ولكن هذا التفسير للإله خطأ؛ لأن هذا يُفهَم أن العرب وضعت اسم الإله علىٰ غير الله، ثم نقلته إلىٰ الله، أو جعلته اسمًا عامًّا، يدخل تحته الله مع غيره، وهذا خطأ، بل هذا من أشد الشناعات، فإن كلمة (إله) هو اسم خاص بالله جَلَّ وَعَلَا، انحرفت فيه الأمة،

فنقلتـه إلـىٰ غيـر الله...، فلـيس في الوجـود إلـه يسـتحق أن يُسـمَّىٰ إلـهًـا، ولكـن العرب أخطأت، فسمَّت غير الله إلهًا، كما سمَّت الله إلهًا، والله اسمه إله، أو اسمه الله، ليس هذا الاسم مُحدَثًا، بل هذا اسم الله قبل أن يخلِق الخَلْق، وقبل أن يأتي العرب والعجم، فهذا اسم الله ﷻ، فقوله: (**إنه من أسماء الأجناس**)، لا نقرُّ له بهذا؛ لأن هذا يتفق مع مذهب المعتزلة؛ لأن المعتزل يقولون: إن اللغات وضعية، أي اجتمع مجموعة من الناس، فوضعوا اللغة، وهذا كذب، فإن اللغة توقيفية، أصلها من الله، وإن حَدَث فيها زيادات، ولكن الأصل، أن الله علَّم آدم الأسماء.

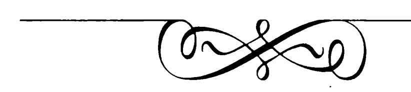
فالإنسان علَّمه اللهُ اللغة، ثم تطوَّر الإنسان، وتوسَّع فيها، ولكن الأصل أن اللغة ليست وضعية، كما تقول المعتزلة، ومَن سار في طريقهم، حتىٰ قالوا إن العرب وضعت الأسماء لمُسمَّىٰ اليوم وغدًا، ونقلته إلىٰ معنىٰ آخر، وهذا ما يُسمُّونه بالمجاز، مَن أخبرك أن العرب اجتمعت في مكان واحد، ووضعت هذا الاسم لهذا المعنىٰ، ثم نقلته؟ فهذا علىٰ مذهب المعتزلة مستقيم، ولكننا نُنازِعهم، ونقول: إن اسم إله، هو اسم لله ﷻ، ثم العرب انحرفت، فسمَّت به معبوداتها من غير الله ﷻ.

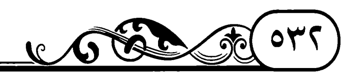
قوله: (**وقال شيخ الإسلام: (الإله)، هو المعبود المُطاع...**)، العبادة -كما مرَّ- تتضمَّن -(كما قال ابن تيمية رحمه الله)-: كمال الحب، مع كمال الذُّل، وكمال الطاعة، وهذا هو معنىٰ أن الألوهية تقتضي العبادة لله بكمال الحب، وكمال الخضوع، وهذا معنىٰ (لا إله إلا الله).

قوله: (**وقال ابن القيم رحمه الله: (الإله) هو: الذي تألهه القلوب...**)، هذه كلها من أعمال القلوب؛ لأن عمل القلب يؤثِّر علىٰ عمل الجوارح، فإذا صفا عمل القلب، وصفا الإيمان، وكان الإنسان يُعظِّم الله ﷻ، ويعرف حقه، ظهر

هذا على جوارحه، وإذا جهل هذا الجانب، فلم يعرفه، فإن أثره أيضًا يكون واضحًا على الجوارح.

(فالإله الذي تألهه القلوب)، أي: تحبه، وتعظِّمه، وتُجِلُّه، وهذا لابد أن يسبقه العلم بعظمة الله، وبقدرته، وأسمائه، وصفاته ﷻ، فإذا عرف الإنسان ربه، بصفاته العليا، وأسمائه الحسنى، وعرف أفعاله من خلال مخلوقاته، رأى طرفًا من عظمة الله ﷻ، فخضع له، وعظَّمه، وأكرمه ﷻ.





قال المؤلف رحمه الله:

وقـال ابـن رجـب رحمـه الله: (الإلـه) هـو الـذي يُطاع فـلا يعصىٰ هيبـة لـه وإجلالاً ومحبة وخوفًا ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله ﷻ، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قول (لا إله إلا الله) ونقصًا في توحيده وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك.

وقال البقاعي: (لا إله إلا الله) أي: انتفىٰ انتفاء عظيمًا أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرىٰ المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه وإلا فهو جهل صرف. وقال الطيبي: (الإلـه) فعال بمعنىٰ مفعول كالكتاب بمعنىٰ المكتوب من إله أي عبد عبادة.



الشَّرح

قوله: (وقال ابن رجب رحمه الله : (الإله)، هو الذي يُطاع، فلا يُعصَىٰ؛ هيبةً له)، ابن رجب رحمه الله وهو من تلاميذ ابن القيم رحمه الله، علىٰ نفس المنهج، وهذه العبارة أسلوبه وأسلوب ابن القيم -رحمه الله-، وهو يقرر أن معنىٰ (لا إله إلا الله)، أي: هو الإله الذي يُطاع فلا يُعصَىٰ؛ هيبةً له، وإجلالًا، ومحبةً، وخوفًا، ورجاءً، بمثل ما ذكره ابن القيم رحمه الله، فهو يقرر المعنىٰ الذي ذكره ابن القيم رحمه الله.

قوله: (وقال البقاعي: (لا إله إلا الله)، أي: انتفَىٰ انتفاء...)، البقاعي نسبةً

إلىٰ البقاع في الشام، وهو مؤرخ أديب، له كُتُب أشهرها (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وهذا تفسير مطبوع، وله كتاب بعنوان (الباحة في علمي الحساب والمساحة)، وله كتاب (تنبيه الغبي في تكفير ابن الفارض وابن عربي)، وله رَحِمَهُ ٱللَّهُ مواقف مُشرِّفة في الدفاع عن عقيدة التوحيد، ففي تفسيره يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وإنما يكون، إذا كان الإذعان والعمل)، كان هنا التامة، وليست الناقصة، أي: إذا وُجِد الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صِرْف، يعني: إذا لم يكن هناك عمل ولا إذعان، فقول: (لا إله إلا الله)، قول جاهل بمعناها، لا ينفع.

قوله: (**وقال الطيبي: (الإله)، فِعال بمعنىٰ...**)، والطيبي كذلك من علماء الحديث، وله حاشية علىٰ كتاب الكشاف للزمخشري؛ لأن كشاف الزمخشري تفسير علىٰ مذهب المعتزلة، والطيبي جعل عليه حواشي، وبيَّن اعتزالياته، ولكن الطيبي من علماء الأشاعر،ة فهو علىٰ نَهْج المتكلِّمين، وله كتاب (في شرح مشكاة المصابيح)، والطيبي أديب في أسلوبه، مُتمَكِّن من اللغة، جميل الأسلوب، عَذْب الكلام، قوي في عبارته، وله استنباطات جميلة، وتقريرات جيدة في معاني الآيات والأحاديث، ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كانت عنده هذه النزعة، نزعة المتكلِّمين.

هذه هي جملة علماء الشريعة الذين استشهد بهم الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، منهم السلفي، ومنهم المعتزلي، ومنهم الأشعري، فهذا منهج أهل السُّنَّة والجماعة، لا يرفضون الحق إذا جاء من شخص، سواءٌ كان علىٰ منهجهم، أو لم يكن علىٰ منهجهم، فإن الحق ضالَّة المسلم، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (ليس كل مَن استشهدنا بقوله، نرضَىٰ كل قوله)، فإذا جاء القول الحق والصواب من عالِم، وإن كان مُخالِفًا في المنهج، وفي بعض العقائد، فهذا ليس فيه ضرر؛ لأن

الاستشـهاد بـالحق في موطنـه، لـيس فيـه إشـكال، فهـذه جملـة نقـولات علمـاء الشريعة في معنىٰ (إله)، ونذكر هنا جملـة مـن كـلام أهـل اللغـة في معنـىٰ (إلـه)، ونستفتحها بقول أبي الهيثم، وهو أحد علماء اللغة، في القرن الرابـع، وعـاش في أواخر القـرن الثالـث، وأوائـل القـرن الرابـع، قـال: (فـالله أصـله إلـه، ولا يكـون إلهًـا، حتىٰ يكـون معبـودًا، وحتـىٰ يكـون لعابـده خالقًـا ورازقًـا ومُـدَبِّرًا، وعليـه مُقتَدِرًا، فمَن لم يكن كذلك، فليس بإلـه، وإن عُبِـدَ ظُلمًـا)[1]، فمعنـىٰ إلـه عنـده خاص بالله، ولكن قد يُسمَّىٰ به غيره ﷻ، فمفهوم إلـه عنـد هـذا العـالم اللغـوي هو معبود.

وقال ابن فارس، وهو أيضًا من علماء القـرن الرابـع، ولـه كتـاب جميـل في اللغـة اسـمه (مقـاييس اللغـة)، وكأنـه أراد بهـذا الكتـاب أن يجمـع أصـول الكلمات، فيقول: الكلمة أصلها كذا، ولكن: يتفرَّع منها فروع، قـال ؒ : (إلـه الهمزة والهـاء والـلام أصـل واحـد، وهـو التعبُّـد، فالإلـه الله -تعـالىٰ-، وسُـمِيَ بذلك؛ لأنه معبود، ويُقال: تألَّه الرجل، إذا تعبَّد)[2].

فمعنىٰ إله المعبود، وتألَّه الرجل أي تعبَّد، هذا في كلام اللغويين.

وقال ابن سيدا، وهو إمام لـه كُتُـب في اللغـة، منهـا المخصـص والمحكـم، قال: (والإله، والألوهة، والألوهية، العبادة)[3]، فمعنىٰ إله وألوهية: العبادة.

وهكـذا الجـوهري، وهـو صـاحب الصـحاح، ومـن علمـاء القـرن الرابـع، يقـول: (والله أصـله إلـه، علـىٰ فِعـال، بمعنـىٰ مفعـول؛ لأنـه مَـأْلُوه، أي معبـود،

---

(١) انظر لسان العرب ١٣/ ٤٦٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ١٢٧).

(٣) لسان العرب (١/ ١١٤).

كقولنا إمام فِعال، بمعنىٰ مفعول؛ لأنه مُؤْتَم به)[(١)].

وقال الراغب الأصفهاني: (وإله جعلوه اسمًا لكل معبود لهم)[(٢)].

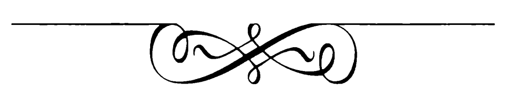
وقال ابن منظور: (والإله الله ﷻ، وكل ما اتُّخِذَ من دون الله معبودًا، إله عند مُتَّخِذه)[(٣)].

وقال السميل، وهو من علماء اللغة، في القرن السابع: (إن إله: أَلَهَ فلان، يَأْلَه إلهة، أي عبد عبادة، فإله فِعال، بمعنىٰ معبود)[(٤)].

وقال الفيروز آبادي: (إله فِعال، بمعنىٰ مَأْلُوه، وكل ما اتُّخِذَ إله عند مُتَّخِذه)[(٥)].

وكذلك قال الزبيدي، وهو شارح للقاموس.

هذا كلام أهل اللغة، وكلام أهل الشريعة، ولكنه قد وُجِدَ طوائف، قد تغمر العالَم الإسلامي، لم يفهموا هذا المعنىٰ، حتىٰ عبدوا غير الله -سبحانه-، وظنوا أن هذا ليس مُخالِفًا لمعنىٰ لا إله إلا الله، فإذا كان الإنسان من أصحاب هذا المعنىٰ، فيوم القيامة يُشفَع فيه، فهو يدخل تحت شفاعة الشافعين.



(١) الصحاح مادة (أله) (٦/ ٢٢٢٣).

(٢) المفردات (٢١).

(٣) فيض الباري (٤/ ٥١٧).

(٤)

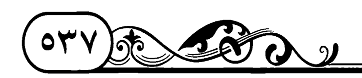
(٥)

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا كثير جداً في كلام العلماء، وهـو إجمـاع مـنهم أن الإلـه: هـو المعبـود، خلافـًا لما يعتقده عباد القبور وأشباههم في معنىٰ الإله أنه الخـالق أو القـادر علـىٰ الاختراع، أو نحو هذه العبارات، ويظنون أنهم إذا قالوهـا بهـذا المعنىٰ فقـد أتـوا مـن التوحيـد بالغايـة القصـوىٰ، ولـو فعلـوا مـا فعلـوا مـن عبادة غيـر الله، كـدعاء الأموات والاستغاثة بهم في الكربات، وسؤالهم قضاء الحاجـات، والنـذر لهـم في الملمات وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسموات إلىٰ غير ذلك مـن أنـواع العبادات، وما شعروا أن إخـوانهم مـن كفـار العـرب يشـاركونهم في هـذا الإقـرار ويعرفون أن الله هو الخالق القادر علىٰ الاختراع، ويعبدونه بأنواع مـن العبـادات، فليهنأ أبو جهل وأبو لهب ومـن تبعهمـا مـن الإسـلام بحكـم عبـاد القبـور، وليهنـأ أيضا إخوانهم عباد ود وسواع ويغوث ويعـوق ونسـر إذ جعـل هـؤلاء ديـنهم هـو الإسلام المبرور.

الشَّرْح

الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ لا زال يتكلم عن عباد القبور، ومَن نَحا نحوهم، حيث كـانوا يعتقدون أن معنىٰ (لا إلـه إلا الله)، أنـه لا قـادر علـىٰ الاخـتراع إلا الله، أو أنـه لا خــالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا محيــي إلا الله، ولا مميــت إلا الله، وهــذا الفهم خطأ غير مستقيم من حيث اللغة، ومن حيث الشرع، وهنا يصفهم بـأنهم إخوان كفار العرب، و أراد رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُبيِّن أن فهمهم هذا كفَهْم كفار العـرب، فـإن أصرُّوا عليه، فـإنهم يشـاركونهم في إدراك معنـىٰ (لا إلـه إلا الله)، وإن كـان كفـار العـرب أدركـوا مـن معنـىٰ (لا إلـه إلا الله)، مـا لـم يدركـه كثيـر مـن المسـلمين، وشَرْح المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب يشتمل علىٰ سبع مسائل، **نُلخِّصها فيما يلي:**



المسألة الأولى: وهي أن كلامه هذا رحمه الله بيان لخطأ بعض الطوائف والمجتمعات الإسلامية في فهم (لا إله إلا الله).

المسألة الثانية: أوْرد رحمه الله كلام تسعة من علماء الشريعة في معنى (لا إله إلا الله)، ليُبيِّن أن فهم العلماء ليس هو الفهم الذي فهمه عُباد القبور.

المسألة الثالثة: هاجم رحمه الله الفرق الضالَّة التي حرَّفت هذا المعنى، وردَّت الذي وردَ في اللغة والشرع، فغيَّروا معناها بأنه الخالق، والقادر على الاختراع.

المسألة الرابعة: الإشارة إلى ما أضافوه إلى هذا المعنى من شرك بالله عز وجل، فهم عندما دافعوا عن معنى (لا إله إلا الله)، بهذا المفهوم أرادوا به إقرار واقعهم المُشرِك، فقالوا: إن مَن استغاث بغير الله، وإن مَن دعا غير الله لا يُسمَّى مُشرِكًا؛ لأنهم قد أثبتوا معنى (لا إله إلا الله)، ومعنى (لا إله إلا الله) عندهم، لا قادر ولا خالق إلا الله، فليسوا مشركين بدعائهم غير الله عز وجل.

المسألة الخامسة: أجرى رحمه الله مقارنةً بين عباد القبور، وبين مُشركي قريش في هذا الموقف، وخرج بأن كفار قريش يدركون من معنى (لا إله إلا الله)، أحسن مما يدركه الذين يدعون أصحاب القبور من دون الله عز وجل.

المسألة السادسة : بيان أن هذا المعنى للشهادة، كان معروفًا عند قريش، فلو كان هذا المعنى -لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله- صحيحًا، لما امتنعوا عن قولها، فالقرآن قد أثبت أنهم يعترفون بأنه لا خالق إلا الله -كما سيأتي-.

المسألة السابعة: استطرد في بيان (لا إله إلا الله)، وفي جميع شرحه لهذا الحديث، هذا ملخص ما أوْرده الشارح رحمه الله حول شرحه لهذا الحديث.

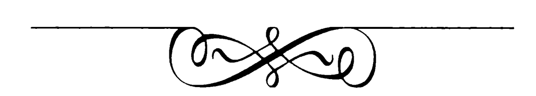
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته، إذ يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله. بمعنى أنه لا قادر على الاختراع إلا الله، فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، ويقول تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف:٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس:٣١]، إلى غير ذلك من الآيات.

الشرح

قوله: (**ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال...**)، أوْرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشواهد من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ على أن قريشًا تعرف أنه لا خالق إلا الله، وأن الذي خلقهم، وخلق السماوات والأرض، هو الله عَزَّ وَجَلَّ، فكيف يدعوهم لأمر هم أقرُّوا به؟ هذا تناقض في الدعوة، فلو كان معنى (لا إله إلا الله)، أنه لا خالق إلا الله، لما كان للدعوة معنى؛ والقرآن أثبت أن قريشًا تعرف أنه لا خالق إلا الله، والله يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف:٩]، فليس هناك إشكال فيمَن خلق، وإنما الإشكال في فعلهم هم، إلى مَن يتقربون، ومَن يدعون، وبمَن يستغيثون، إلى مَن يلجؤون، إلى مَن يتحاكمون، كل هذا هو الخلاف بين الرُّسُل والأُمَم، ولو كان معنى (لا إله إلا الله)، لا خالق إلا الله، ما قاتلوه؛ لأنهم يعترفون بهذه الحقيقة، ولو كانت هذه الحقيقة ليست موجودة

عند قريش، لكانت هذه فرصة قريش في أن يكذِّبوه، ويقولوا: كيف يقول ربك إننا نقرُّ أنه هو الخالق، ونحن نُنكِر ذلك، فلست بصادق؛ لأن قريش كانت تحرص على وجود أي خلل في القرآن، حتى يردُّوه، فلو كانت قريش لا تعرف أن الله هو الخالق -والله قال: إنهم يعرفون هذا-، لردُّوا عليه، فلما لم يحدث هذا، عُرِفَ أن قريشًا تعرف معنى (لا إله إلا الله)، وأنه ليس هو بمعنى الخالق، وإلا لمَا حاربوا الرسول ﷺ، ولأقرُّوا له بهذا المعنى.



قال المؤلف رحمه الله:

لكن القوم أهل اللسان العربي فعلموا أنها تهدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس، وتكب بناء سؤال الشفاعة من غير الله، وصرف الإلهية لغيره لأم الرأس، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص:٥]، فتباً لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه بـ (لا إله إلا الله)، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات:٣٥-٣٦]، فعرفوا أنها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله وإفراد الله بالعبادة وهكذا يقول عباد القبور إذا طلبت منهم إخلاص الدعوة، والعبادة لله وحده: أنترك سادتنا وشفعاءنا في قضاء حوائجنا. فيُقال لهم: نعم. وهذا الترك والإخلاص هو الحق كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات:٣٧].

الشرح

هذه الآيات تقرر توحيد الألوهية، والآيات السابقة كقوله -تعالى- في سورة يونس ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١]، وكقوله في سورة سبأ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، فيها إقرار من كفار قريش بتوحيد الربوبية، وفي الآية السابقة ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أجابوا؛ لأن السماء هنا مُفرَدة لا جمع، وإن قريشًا وجميع البشر يعلمون

السماء الدُّنيا، ولكن وجود سبع سماوات، لا يعلمه الإنسان، إلا عن طريق الوحي، ولذلك في آية سبأ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾، لم يأتِ الجواب منهم، بل من النبي ﷺ؛ لأن العرب لا يعرفون السماوات السبع، أما هنا فجعل الجواب منهم حيث السماء مُفرَدة؛ لأنهم يعرفون السماء فوقهم، ويعترفون بها.

والخلاصة أن قريشًا تعرف أن الذي يرزق، والذي يُحيي، والذي يميت، والذي يدبر الأمر، هو الله سبحانه وتعالى.

وفي آية الزمر قال عز وجل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:١-٣]، فهم مُعترفون بأنهم يعبدونهم، ولكن عبادتهم ليست عبادة مستقلة، بل لها مقصد، هو أن يتقربوا بها إلىٰ الله، فقريش لم تكن تجهل الله، ولم تكن تترك عبادة الله، ولكنها كانت تعبد مع الله غيره، وتتقرب إليه بوسائط تظن أنها أقرب إليه.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، أي ما لا يضرهم لو تركوا عبادته، ولا ينفعهم لو عبدوه، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، وهذا التعقيب في غاية الجمال، فالشفاعة: أن يضم الإنسان رغبة غيره مع رغبته؛ لتحقيق مقصدٍ له، والإنسان يذهب إلىٰ بعض الوجهاء من زعماء الدنيا، وأصحاب الجاه، والمال، والسلطان؛ لكي يبحث عمَّن يعرفه، أو يشفع له عند مَن يريد الوصول إليه من هؤلاء، وهذا في حياة الناس بعضهم مع بعض، والمشركون اعتقدوا في الله، كما يعتقد الإنسان

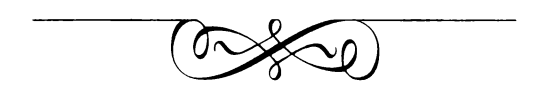
في الإنسـان، وظنـوا أن الله ﷻ لا يعـرف حـاجتهم، فلابـد مـن مُعـرِّف لهـم، فاتخـذوا وسـائط، فقـالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، يعرِّفوننـا إلـىٰ الله ﷻ، والله يقـول: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي هـل تظنون أن الله لا يعلـم عبـاده، ولا يعلـم حـاجتهم، ولا يعلـم واقعهـم، ولا يعلـم أحـوالهم، فالشـفعاء في حيـاة البشـر، إنمـا هـم لتعريـف صـاحب الحاجـة بالسلطان، أو بصاحب المـال؛ حتـىٰ يُعِينـه، أو حتـىٰ يقرِّبـه، أو يقضـي حاجتـه، ولكـن الله لـيس كخلقـه، فإنـه لا تخفَـىٰ عليـه خافيـة، ولا يحتـاج إلـىٰ شـفعاء، فالمشركون أخطؤوا حينما قاسوا الله بخلقه، وظنـوا أنـه لا تصـل حـاجتهم إلـىٰ الله، إلا عن طريق المخلوق.

ويقول ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فسمَّىٰ أعمالهم وتقرُّبهم إلـىٰ الأصـنام عبـادة، ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾، قـال الزجـاج: أي مـا لا يضـرهم لـو تركـوا عبادتـه. ولكـن لـو تركـوا عبـادة الله فـإن الله يعـذِّبهم، فشـتَّان، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ﴾، يـا محمـد ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾، أي أتخـبرون الله، ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، فـالله لا تخفَـىٰ عليـه خافيـة، فـلا يحتـاج إلـىٰ مَـن يقـرِّب النـاس إليه، أو يعرِّفه بحاجات خلقه، أو يشفع إليه.

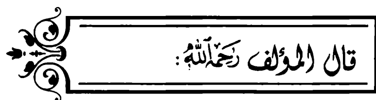
ثم ذكر عن قريش أنهم عرفوا معنىٰ (لا إله إلا الله)، فأنكروا الـدعوة حيـث قـالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:٥]، أي أجعـل ودًّا وسواعًا ونسرًا ويغوث وهُبل واللات ومَناة تُلغَىٰ، ولا يبقىٰ إلا إله واحد! وهـم أَلِفـوا أن يتقربـوا إليهـا، وأَلِفـوا عبادتهـا، وأَلِفـوا الاستشـفاع بهـا، فـأنكروا أن يدعوهم إلىٰ إلـه واحـد، والقـرآن سـجَّل علـيهم هـذا الموقـف، فلـو كـان هـذا

التسجيل عليهم ليس صادقًا، لكان فرصة منهم أن ينكروا ويقولوا: ما أنكرنا، ولكن لم ينقل التاريخ اعتراضًا من أحد من كفار قريش، أنهم أنكروا هذا المعنىٰ، بل سكتوا، مما يدل علىٰ أنهم أنكروا معنىٰ (لا إله إلا الله).

و في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات:٣٥]، ما يدل علىٰ أن القضية ليست فقط الحرص علىٰ العبادة، وإنما هي مرض مُستكِن في القلوب، وهو الاستكبار، وهذا مرض إبليس، ومرض كُبراء الجاهلية في كل عصر، فإنهم يستكبرون أن يذلوا لله ﷻ فيذلوا لشهواتهم، ويذلوا لأهوائهم، ويذلوا للشيطان، ولكنهم إذا دعوا ليكونوا عبيدًا لله، يستكبرون -نعوذ بالله-، وهذا خُلُق كل جاهل، وخُلُق كل كافر، لهذا يقول ابن القيم رحمه الله عن إبليس: (واعتبر ذلك بحال إبليس، فإنه امتنع من السجود لآدم؛ فرارًا أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه، فصيَّره الله أَذَلَّ الأذلِّين، وجعله خادمًا لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرضَ بالسجود له، ورَضِيَ أن يخدم هو وبنوه فُسَّاق ذريته)[1]، فإبليس في كل جيل هو الذي يقود الفُسَّاق إلىٰ الفسق، فاستكبَر عن طاعة الله، التي فيها كرامته، وفيها عِزَّته، وامتنع عنها، فعاقبه الله -ﷻ- بأن جعله خادمًا لفُسَّاق الذرية، وليس للصالحين، وهكذا مَن امتنع عن عبادة الله خطوة، صيَّره الله أضعافها في عبادة الشيطان، ومَن امتنع عن درهم في سبيل الله، أنفق أضعافه في سبيل الشيطان، هذا هو عقاب كل مَن يبتعد عن الله تبارك وتعالىٰ.



(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٩٥).


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

و(لا إله إلا الله) اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم فليس بإله، ولا له من العبادة شيء، وأثبتت الإلهية لله وحده بمعنى: أن العبد لا يأله غيره، أي: لا يقصده بشيء من التأله وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة: كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك. وبالجملة فلا يأله إلا الله، أي: لا يعبد إلا هو، فمن قال هذه الكلمة عارفًا لمعناها عاملاً بمقتضاها من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به فهذا هو المسلم حقًا، فإن عمل به ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهراً وهم في الدرك الأسفل من النار، واليهود يقولونها وهم على ما هم عليه من الشرك والكفر فلم تنفعهم، وكذلك من ارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنها لا تنفعه، ولو قالها مائة ألف، فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله كعباد القبور والأصنام فلا تنفعهم، ولا يدخلون في الحديث الذي جاء في فضلها وما أشبهه من الأحاديث.


الشَّرح

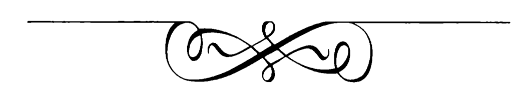
ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الناس أمام (لا إله إلا الله) على أربع درجات:

الدرجة الأولى: مَن قالها عارفًا لمعناها، مُعتقدًا له، وعاملًا بمقتضاها، أي مَن قالها بلسانه، والتزم مقتضاها بجوارحه، قال هذا: (هو المؤمن).

الدرجة الثانية: مَن قالها بلسانه، ولكنه لم يعتقدها بقلبه، فهذا هو المنافق.

الدرجة الثالثة: مَن لم يقلها، ولم يعمل بها، فهذا هو الكافر.

الدرجة الرابعة: التي أراد الشارح ﵀ أن يشير إليها، وهي: مَن قالها بلسانه، ولكنه أشرك في عمله، فقال: (**هذا هو المشرك**)، والمشرك أحيانًا يكون بمعنى الكافر، وأحيانًا لا يكون بمعنى الكافر، فقد لا يكون الإنسان كافرًا جاحدًا، وإنما يكون مُشرِكًا إذا ارتكب بعض الأعمال الشركية، فهو يعرف الله ويقول: لا إله إلا الله، ولكنه ينقضها ببعض أعماله، فلا شك أن هذا أقل في الفساد من الذي لم يقلها، ولم يعمل بها، فهذه هي الدرجات الأربعة أمام (لا إله إلا الله).



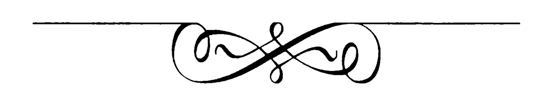
قال المؤلف رحمه الله:

وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله: «وحده لا شريك له» تنبيهًا على أن الإنسان قد يقولها وهو مشرك، كاليهود والمنافقين وعباد القبور لما رأوا أن النبي ﷺ دعا قومه إلى قول: (لا إله إلا الله) ظنوا أنه إنما دعاهم الى النطق بها فقط، وهذا جهل عظيم، وهو عليه السلام إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها ويتركوا عبادة غير الله، ولهذا قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾ [الصافات:٣٦]، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥]، فلهذا أبوا عن النطق بها، وإلا فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين، ولقاتلهم عليه السلام حتى يخلعوا الأنداد ويتركوا عبادتها، ويعبدوا الله وحده لا شريك له.



الشَّرح

يشير رحمه الله في هذا المقطع إلى أن قريشًا لو قالوا: (لا إله إلا الله)، ولكنهم لم يغيروا سلوكهم، ولم يغيروا أعمالهم، بل بقوا يعبدون الأصنام، ويدعون الأوثان، ويشركون بالله عز وجل، فهل كان النبي ﷺ يتركهم على هذا الحال، أم يقاتلهم؟ لا شك أنه سيقاتلهم؛ لأنه ليس الهدف من قول (لا إله إلا الله)، القول باللسان فقط، بل القول، والاعتقاد، والعمل.



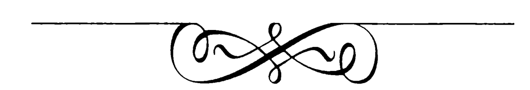
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا أمر معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة والإجماع، وأما عباد القبور فلم يعرفوا معنىٰ هذه الكلمة، ولا عرفوا الإلهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لا شريك له، بل لم يعرفوا من معناها إلا ما أقربه المؤمن والكافر واجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها لا قادر علىٰ الاختراع، أو أن معنىٰ الإله: هو الغني عما سواه الفقير إليه كل ما عداه، ونحو ذلك، فهذا حق وهو من لوازم الإلهية ولكن ليس هو المراد بمعنىٰ (لا إله إلا الله)، فإن هذا القدر قد عرفه الكفار، وأقروا به، ولم يدعوا في آلهتهم شيئًا من ذلك، بل يقرون بفقرهم وحاجتهم إلىٰ الله، وإنما كانوا يعبدونهم علىٰ معنىٰ أنهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب، وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق والإحياء والإماتة والأمر كله لله وحده لا شريك له، وقد عرفوا معنىٰ (لا إله إلا الله) وأبوا عن النطق والعمل بها، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلهية، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف:١٠٦].



الشرح

أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا أن يقول: إن كفار قريش لو كان فهمهم هذا صحيحًا، ما كان هناك خلاف، وهذا الفهم يفهمه الكافر والمسلم، فالكافر يعرف أنه لا خالق إلا الله، وأن الأمر بيد الله، وأن الإحياء بيد الله، وأن الإماتة بيد الله، وأن المُلْك بيد الله، فهذا المعنىٰ ليس فيه خلاف بين الكفار والمسلمين، فسبب الخلاف هو توحيد العبادة، أي لا معبود إلا الله -سبحانه-.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعباد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها، وأبوا عن الإتيان به فصاروا كـاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها، ولا يعملون به فتجد أحدهم يقولها وهو يألـه غير الله بالحـب والإجـلال والتعظـيم والخـوف والرجـاء والتوكـل والـدعاء عند الكرب ويقصده بأنواع العبادة الصادرة عن تأله قلبه لغير الله ممـا هـو أعظـم ممـا يفعله المشـركون الأولـون، ولهـذا إذا توجهـت علىٰ أحـدهم اليمـين بـالله تعـالىٰ أعطاك ما شئت من الأيمان صادقًا أو كاذبًا، ولـو قيـل لـه: احلـف بحيـاة الشـيخ فلان أو بتربته ونحو ذلك، لم يحلف إن كان كاذبـًا، ومـا ذاك إلا لأن المـدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب.

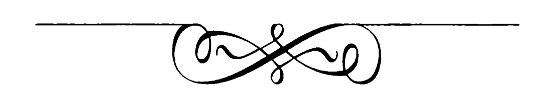


الشَّرْح

يقول هنا: إن اليهود يعترفـون بـأن (لا إلـه إلا الله)، ولكـن الـذي في قلـوبهم من الخوف لغير الله، والمحبة لغيره، والتعظيم لغيره، والتوكل علىٰ غيـره، هـذا الذي أفسد عليهم معنىٰ (لا إله إلا الله).

ثم يقول: إن عباد القبور الذين يعظِّمونها، لو احتاج إنسـان مـنهم أن يَقْسِـم علىٰ أمر، لأقسـموا بـالله كـاذبين، ولكـن لـو قيـل أقْسِـموا بصـاحب التربـة، أو بالولي فلان، أو بصاحب القبر، لمـَا حلفوا به كاذبين، مما يـدل علىٰ أن تعظـيم صاحب القبر في قلبه، أشد من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أشد من شـرك المشـركين، الذين يشركون في الرخـاء، ولكنـه في الشـدة يلجؤون إلـىٰ الله، وقـد ذكـر -كمـا سيأتي- أحد علماء القرن الثـاني عشـر المعاصـر لإمـام الـدعوة الشـيخ/ محمـد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، اسمه حسين بـن محمـد المهـدي، في كتـاب لـه سـمَّاه (معـارج الألبـاب في

مناهج الحق والصواب)، أوْرد فيه نماذج غريبة جدًّا عن عباد القبور، في المجيء إلىٰ أهل القبور، وتعظيمهم، والقَسَم بهم، والذبح لهم، والدعاء لهم، وكتابة اللوحات علىٰ قبورهم، بل والقصائد الشركية التي لا يجوز أن تُذكَر إلا في الله ﷻ.



قال المؤلف رحمه الله:

وما كان الأولون هكذا بل كانوا إذا أرادوا التشديد في اليمين حلفوا بالله تعالىٰ، كما في قصة القسامة التي وقعت في الجاهلية، وهي في صحيح البخاري.



قوله: (**في قصة القسامة التي وقعت في الجاهلية**)، إن للقسامة قصةً عجيبة، تدلنا علىٰ أن الجاهلية تعظِّم الله ﷻ، وهذا الحديث أوْرده البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو أنه رضي الله عنه قال: (**إن أول قسامة كانت في الجاهلية، لفينا بني هاشم، كان رجل من بني هاشم، استأجره رجل من قريش، من فخذ أخرىٰ، فانطلق معه في إبله، فمرَّ به رجل من بني هاشم، قد انقطعت عُروة جوالقه**)، يعني عُروة الأكياس التي فيها الطعام، (**فقال: أغثني بعِقال أَشُدُّ به عُروة جوالقي، لا تنفُر الإبل**) أي: لو نَفَرَت الإبل، وهو بدون رباط، لذَهَبَ كل ما فيه، (**فأعطاه عِقالًا**)، وكان في الجاهلية لكل بعير عِقال، ولكن عندما أعطاه عِقالًا، نقص عِقَال من العُقُل التي تُربَط بها الأبل، (**فشدَّ به عُروة جوالقه، فلمَّا نزلوا، عُقِلَت الإبل إلا بعيرًا واحدًا، فقال الذي استأجره: ما شأن هذا البعير لَمْ يُعقَل من بين الإبل؟ قال: ليس له عِقال. قال: فأين عِقاله؟ قال: فحَذَفَه بعصا، كان فيها أجله**)، أي ضربه بعصا في مكان مميت، فأصيب بمثل الشلل، ثم مات من ذلك الفعل، (**فمرَّ به رجل من أهل اليمن**)، مرَّ بهذا المضروب، (**فقال أتشهد المَوْسم؟ قال: ما أشهد، وربما شهدته، قال: هل أنت مُبَلِّغ عني رسالة مرةً من الدهر؟ قال: نعم، قال: فكتب إذا أنت شهدت الموسم، فنادِ يا آل قريش، فإذا أجابوك، فنادِ يا آل بني هاشم، فإن أجابوك، فسَلْ عن أبي طالب، فأخبره أن فلانًا قتلني في عِقال، ومات المستأجر، فلمَّا قدم الذي استأجره، أتاه**

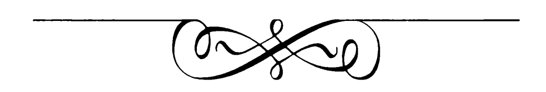
أبو طالب، فقال: ما فعل صاحبنا، قال: مَرِضَ، فأحسنتُ القيام عليه، فوُلِّيتُ دفنه، قال: قد كان أهل ذاك منك، فمكث حينًا، ثم إن الرجل الذي أوصىٰ إليه أن يبلغ عنه، وافىٰ الموسم، فقال: يا آل قريش، قالوا: هذه قريش، قال: يا آل بني هاشم، قالوا: هذه بنو هاشم، قال: أين أبو طالب؟ قالوا: هذا أبو طالب، قال: أمرني فلان أن أبلغك رسالة، أن فلانًا قتله في عِقال، فأتاه أبو طالب فقال له: اختر منا إحدىٰ ثلاث، إن شئت أن تُؤدِّي مائة من الإبل، فإنك قتلتَ صاحبنا، وإن شئت حَلِفَ خمسون من قومك أنك لم تقتله، فإن أَبَيْتَ، قتلناك به، فأتىٰ قومه، فقالوا: نحلف)، فالجاهلية كانت ينصر بعضهم بعضًا علىٰ الباطل، (فأتته امرأة من بني هاشم، كانت تحت رجل منهم)، من قوم هذا الذي سيحلف، (قد وَلَدَتْ له، فقالت: يا أبا طالب، أحب أن تجيز ابني هذا برجل من الخمسين، ولا تصبر يمينه حيث تصبر الأيمان، ففعل)، أي أعطته بعيرين مقابل يمينه، خافت من اليمين، (فأتاه رجل منهم، فقال: يا أبا طالب أردتُ خمسين رجلًا أن يحلفوا مكان مائة من الإبل، يُصِيب كل رجل بعيران، هذان بعيران فأقبلهما عني، ولا تصبر يميني حيث تصبر الأيمان، فقبلهما)، فبقي من الخمسين ثمانية وأربعون، (وجاء ثمانية وأربعون، فحلفوا)، فهذا تعظيم لله عندهم.

فالمؤلِّف أراد أن يبيِّن أنهم يعظِّمون الله، وإلا لو كانوا لا يعرفون الله، لما عظَّموه بالقَسَم به، ولكانوا أقسموا باللات والعُزَّىٰ، ولكن عندما اشتدت الحاجة، حلفوا بالله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (فوالذي نفسي بيده، ما حال الحَوْل ومن الثمانية والأربعين عَيْنٌ تطرف)[1]، حلفوا جميعًا بحلفهم الكاذب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب القسامة في الجاهلية، برقم: (٣٨٤٥).

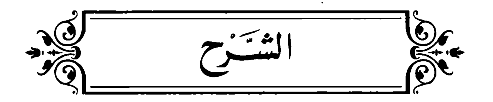
فالشاهد كما أشار إليه الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ، أن الجاهلية كانت تُعظِّم الله، وعندما يشتد الأمر، كانوا يلجؤون إلى الله، بخلاف أصحاب القبور، فإنهم إذا اشتد الأمر، لجؤوا إلى صاحب التراب، ويُقسِمون بالله كاذبين، ولا يُقسِمون بأصحاب التراب كاذبين، وهذا على خلاف منهج الجاهلية، مما يدلنا على أن أهل الجاهلية أحسن حالًا من عباد القبور.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكثير منهم وأكثرهم يرى أن الاستغاثة بإلهه الذي يعبده عند قبره، أو غيره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله في المسجد، ويصرحون بذلك، والحكايات عنهم بذلك فيها طول، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، وكلهم إذا أصابتهم الشدائد أخلصوا للمدفونين في التراب، وهتفوا بأسمائهم، ودعوهم ليكشفوا ضر المصاب في البر والبحر، والسفر والإياب، وهذا أمر ما فعله الأولون، بل هم في هذه الحال يخلصون للكبير المتعال فاقرأ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل:٥٣، ٥٤].

وكثير منهم قد عطلوا المساجد وعمروا القبور والمشاهد، فإذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه أخذ في دعاء صاحبه باكيًا خاشعًا ذليلاً خاضعًا بحيث لا يحصل له ذلك في الجمعة والجماعات، وقيام الليل وإدبار الصلوات، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، والنجاة من النار، وأن يحطوا عنهم الأوزار، فكيف يظن عاقل فضلاً عن عالم أن التلفظ بـ(لا إله إلا الله) مع هذه الأمور تنفعهم، وهم إنما قالوها بألسنتهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم.



الشرح

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، القرآن هنا يُبيِّن طرفًا من حال قريش، هو أنهم وقت الشدة يوحِّدون، ووقت الرخاء يُشرِكون، وهذا بخلاف أصحاب عباد القبور، فإنهم يُشرِكون في الرخاء والشدة، بل في الشدة يلجأون إلى الأولياء -كما يسمُّونهم- في المقابر،

فيدعونهم من دون الله ﷻ.

قوله: (**وكثير منهم قد عطَّلوا المساجد، وعمَّروا القبور والمشاهد**)، أشار هنا إلىٰ واقع عباد القبور، وقد تكلَّم العلماء، وصوَّروا أحوالهم منذ زمن بعيد، وهذا ابن القيم رحمه الله يقول ويشرح في (إغاثة اللهفان) طرفًا من واقع عباد القبور، فقال رحمه الله: (فلو رأيت غُلاة المتَّخِذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن ظهور الدواب، إذا أهوَىٰ من مكان بعيد)[1]، أي: احترامًا للقبور إذا اتَّجهوا إليها، ينزلون في مكان بعيد، حتىٰ لا يركبوا إلىٰ قرب القبر، (ووضعوا الجِبَاه، وقبَّلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتَبَاكُوا، حتىٰ تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح علىٰ الحجيج، فاستغاثوا بمَن لا يُبدِئ ولا يُعِيد، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة أُولي العاهات والبَلِيَّات)، هكذا يصوِّر رحمه الله في عصره هذه النماذج من عبادة القبور، فإن الأُمَّة قد ابتُلِيَت من عصر قديم بهذه المشاهد، ولعل من أكبر مَن أسَّس هذه القبور والمشاهد، هم الدولة الفاطمية العبيدية، التي حكمت إفريقيا وشمال إفريقيا ومصر قرنين من الزمان، من منتصف القرن الرابع إلىٰ قرابة منتصف القرن السادس أو القرن الخامس، فهم من أوائل مَن أسَّسوا هذه المشاهد والقبور.

ويقول النعميي[2]، وهو من العلماء الذين عاشوا وعاصروا الدعوة في القرن الثاني عشر، يقول: عن أصحاب القبور، وما ابتُلوا به: (من دعائهم، والاستغاثة بهم، والعكوف حَوْل أجداثهم، ورفع الأصوات بالخوار، وإظهار

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٩٤).

(٢) هو حسن بن مهدي النعمي التهامي، من أهل صبيا بتهامة اليمن، تعلم ودرس في صنعاء، توفي سنة ١١٨٧هـ.

الفاقة والاضطرار، واللَّجَأ في ظلمات البحر، والتطام أمواجه الكبار، والسفر نحوها بالأزواج والأطفال)، إلىٰ أن قال: (وهذا شيء لا يختصُّ به الواحد والاثنان، ولا البلدة والبلدتان، ولا القُطر والقُطران، بل عن أمر المشاهد وعبادة الأموات، البلاد من أقصاها إلىٰ أقصاها، حتىٰ آل الأمر، إلىٰ أن عاد غصن الشرك غَضًّا طريًّا)(١)، ثم يقول بعده الشوكاني، أي بعد قرابة خمسين عامًا؛ لأنه من الجيل الذي بعده، فهو من علماء القرن الثالث عشر، يقول ﵀ ويتكلم عن فشو الشرك: (فتفاقَم الأمر، وتزايَد الشر، وعَظُمَت المحنة، واشتدَّت البَلِيَّة، وصار في كل قُطر من الأقطار، بل في كل مدينة من المدائن، بل في كل قرية من القُرىٰ جماعة من الأموات، يعتقد فيهم الأحياء، ويعكفون علىٰ قبورهم، وينتسبون إليهم، وصار هذا عندهم أمرًا مألوفًا مأنوسًا، تنبسط إليه نفوسهم)(٢)، ويقول النعميي المعاصر للشيخ محمد ﵀، وهو في عصره من أئمة المذاهب الأربعة في مكة المكرمة، الذين أَفتُوا ضد هَدْم القباب، وهاجموا مَن قال: إن مَن دعا أصحاب القبور مشرك، فيقول ﵀ : (وبعد، فلمَّا كان في شهر ربيع الآخر، من شهور سنة سبع وسبعين ومائة وألف من الهجرة النبوية، وقفت علىٰ صورة سؤال، وغير ما جواب في شأن ما يسَّر الله هدمه، وافتقاده من المشاهد والقباب، وإزالة ما أُزيل منها بالتدمير والخراب؛ لما تفاحَشَتْ خُطُوب مفاسدها في هذا الزمان، وضاهَتْ رسوم الجاهلية الجهلاء النافية للتوحيد والإيمان، مع كَوْن وضع القباب أمرًا صادَمَ المأثور الصحيح من النهي الصريح، فهو بمجرده ممنوع شرعًا، كما قد شرحت ما جاء فيه ضمن رسالة مستقلة وجيزة، أَسْفَرَتْ عن وجهة الصبيح، واسمها:

---

(١) معارج الألباب في مناهج الحق والصواب ص ١٦٩.

(٢) انظر: أدب الطلب ومنتهىٰ الأدب (ص: ٢١٣).

"مدارج العبور علىٰ مفاسد القبور".

وكان قبل هذا التاريخ بمدة يسيرة، ألقَىٰ إليَّ بعض أعيان الزمن بمدينة صنعاء اليمن -حاطها الله وسائر بلاد الإسلام من طوارق المحن والفتن- كتابًا وردَ عليه من مكة المشرفة، ذكر فيه ما حاصله:

أنه وصل إلىٰ هنالك سؤال في هذه المسألة، وأنه أجاب فيه مُفتُو الأربعة مذاهب، بما يتضمَّن التشنيع علىٰ مَن دلَّ علىٰ هَدْم القباب والمشاهد، وأشار بتخريب تلك المعاقل والمعاهد)[1]، إلىٰ أن أشار إلىٰ مضمون تلك الفتوَىٰ، وأنها تضمَّنت عدة مسائل منها:

قوله: (تواردت النقول الصحيحة، بأن الخير والهدىٰ في اتِّباع مَن سَلَكَ ومَضَىٰ)، أي هذه آثار السلف فلا ينبغي أن نغيرها، وقولهم: (أجمع الناس علىٰ حُسْنِ وضع القباب، وكَفَىٰ به حجة)، وقولهم: (إن هدم القباب أذية لأولياء الله -تعالىٰ-، وقد قال رسول الله ﷺ عن ربه: مَن آذىٰ لي وليًّا، فقد أذنته بالحرب)، وقولهم: (وأما قول ذلك المـُفتي أن زُوَّارها عبدة أصنام؛ لأنهم يقولون: يا ولي الله افعل لي كذا، واترك لي كذا، كأنهم يتخذون الأولياء آلهة، تخلِق لهم الأفعال، من جَلْب نفع، ودَفْع ضر، فهو قول غافل، وخيال باطل، بل قُصَارَىٰ أمرهم هو التوسُّل إلىٰ الله -تعالىٰ- في قضاء الحوائج بالأقربين إلىٰ الله في إجابة الدعاء، وقضاء الحوائج بأهل الخير، وغايته أن العوام قد تقع منهم عبارات موهمة؛ لعدم إحسانهم العبارة اللائقة، مع كونهم مفروضًا في طبائعهم أن المؤثر في الأمور كلها، خيرها وشرها، هو الله -تعالىٰ-). ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (فكيف ساغ لأهل تلك الأجوبة -عافهم الله- أن يأتوا بما يترتب عليه شدُّ عَضُد تلك المنكرات؟ كقول قائلهم -وهو ثالث مَن

---

(١) معارج الألباب ص(٢٦ - ٢٧).

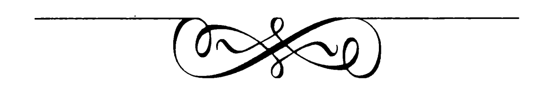
تصدَّر للإفتاء في هذه المسألة-: (نَقَل العارف بالله، قُطر الدائرة، مولانا الشيخ/ عبد الوهاب الشعراني، أن بعض مشايخه ذكر له، أن الله يوكِّل بقبر كل ولي مَلِكًا، يقضي حوائج الناس)، أي لكل قبر ملك، وكل مَن ذهب إليه، يقضي حاجته، (ومثل هذه النكتة أختها التالية)، يقول رَحِمَهُ اللهُ : (وذكر -أي الشعراني- عند الكلام علىٰ ترجمة سيدي شمس الدين الحنفي، أنه قال في مرض موته: مَن كان له حاجة، فليأتِ قبري، وليطلبها، أقضِها له، فإنما بيني وبينه ذراع من تراب، وكل رجل يحجبه عن أصحابي ذراعه من تراب، فليس برجل)، ويقول هنا: (ومثل ذلك ما نقله المُفتي، من أن الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يحضر مجلس فقه أبي حنيفة، في كل يوم بعد صلاة الصبح، يتعلم منه علم الشريعة، فلما مات سأل ربه عَزَّ وَجَلَّ أن يرد روحه في قبره، حتىٰ يتم له علم الشريعة، فكان يأتي إليه كل يوم علىٰ عادته، يسمع منه علم الشريعة من داخل القبر، وأقام علىٰ ذلك خمس عشرة سنة، حتىٰ أكمل علم الشريعة علىٰ أبي حنيفة بعد موته)، فالمفهوم أنه لم يكفِهِ الرسول ﷺ، ولا الصحابة، وإنما انتقل إلىٰ أبي حنيفة، وهذا المُفتي الذي جاء بهذا الكلام، هو أحد الأئمة الذين أفتوا ضد هدم القبور، وهدم القباب.

والإنسان قد يعجب من حال ذلك العصر، ولكننا نجد في هذا العصر، أن أحد أئمة الفتوىٰ في هيئة كبار علماء بعض البلدان الإسلامية، توفي قبل سبعين عامًا، يقول: (ولا أدري كيف يكفرون بالاستغاثة ونحوها، فإن المستغيث إن كان طالبًا إلىٰ الله -تعالىٰ- بكرامة هذا الميت لديه، فالأمر واضح، وإن كان طالبًا من الولي نفسه، فإنما يطلب منه علىٰ الاعتقاد أن الله أعطاه قوة روحانية تشبه قوة الملائكة، فهو ينفع بها، فهل في ذلك تأليه؟! ولو فرضنا جدلًا أننا مخطؤون في ذلك، لن يكون فيه شركٌ ولا كفر، بل نكون كمَن طلب من المقعد المعونة، معتقدًا أنه صحيح غير معقد، مع أن عمل الأرواح، ومواهب

الأنبياء والأولياء، ثابتة بالدلائل القطعية، علىٰ الرغم من أنوفهم)، أي أنوف الـذين يـدعون إلىٰ التوحيـد، (وصـفوة القـول أننـا نقـول: هـؤلاء المسـتغيثون يعتقدون أن الله أعطىٰ هؤلاء الأولياء مواهب، لم يعطها لغيرهم، وذلـك جائز، لا يمكـنهم منعـه، وهـم يقولـون: إنهـم اعتقـدوا فـيهم الألوهيـة، مـع أن ذلـك لا يقول به أحد، إلا عند مَن أساء الظـن بالمسـلمين ظلمًـا وعنـادًا، ولـو فرضـنا أن ذلك مشكوك فيه، فهل يجوز التكفير والقتل بمجـرد الشـك؟ فالاسـتغاثة مبنيـة عنـدنا علىٰ أن الأنبيـاء والأوليـاء أحيـاء في قبـورهم كالشـهداء، بـل أعلـىٰ مـن الشـهداء، ويمكـنهم أن يـدعوا الله -تعـالىٰ- للمسـتغيث بهـم، بـل يمكـنهم أن يعـاونوه بأنفسـهم، كمـا تُعـاوِن الملائكـة بنـي آدم، ولـلأرواح تصـرُّف كبيـر في البرزخ)، هذا عضـو هيئـة كبـار علمـاء في بعـض البلـدان الإسـلامية، ولا نـدري كيف عرف أن الميت له قوة روحية يستطيع أن يجيب بها؟ وكيف سـاغ للميـت أن يرضَـىٰ أن يُـدعَىٰ مـن دون الله ﷻ؟ ولمـاذا لـم يفعـل الصـحابة ذلـك عنـدما تحزنهم أمور، ويحتاجون إلىٰ مَن يعينهم؟ ونـرىٰ عمـر رضي الله عنه عنـدما اشتد بهـم القحـط، إنمـا استسـقىٰ بعـم رسـول الله ﷺ، ولـم يستسـقِ برسـول الله، وهـو بجانبهم في القبر، ثم نسـأل مـا هـو الشـرك الـذي وقعـت فيـه قـريش، ألـيس هـو دعاءهم للأصنام والأوثان؟ فهذا الشرك الذي كان في قريش، هو الشـرك الـذي يقع في عباد القبور اليوم، ثم ما معنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]؟ ما الحكمة من حصر العبادة في الله، وحصر الاستعانة بـالله ﷻ إذا كـان غيـر الله يمكن أن يعين، ويمكن أن يمد الحاجة، ويعطي المحتـاج؟ ثـم زعـم أن الـولي أعطاه الله قوة روحانية، مَن أخبره بها؟ لم يأتِ هذا في كتاب، ولا في سُنَّة، وهـذا أمر لا يُعـرَف إلا بعـد المـوت، والـذي يمـوت هـو الـذي يُـدرِك هـذه الحقيقـة، فكون الإنسان يحكم بأن الأولياء لهم قوة روحانية يسـتطيعون بهـا أن يسـاعدوا الأحياء، كذب وافتراء، لا يجوز من عامة الناس، فكيف بعلماء المسلمين! ثـم

لو فرضنا أن هؤلاء قادرون أن يساعدوا الناس في حياتهم الدنيا، فإن هذا بعد الموت مَنفي، حتىٰ عن سيد البشر ﷺ، بل الله قد أخبر الرسول ﷺ، وأمر له أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، فهذا سيد البشر رسول الله ﷺ، فكيف بمَن دونه، مِن أتباعه الذين يزعمون أنهم يستطيعون أن يساعدوا الناس؟

والشاهد أن هذه الخرافة والبدع وهذه الشركيَّات، لو كانت محصورة في العوام، فستنتهي، ولكن إذا أصبح لها مَن يحميها، ومَن يقررها، ومَن يجعلها شرعية من العلماء، فإن انتهاءها لا يكون إلا بمشقة وصعوبة، ودعوة مستمرة، وتحمُّل للأذىٰ، وهذه نبذة من أقوال العلماء من القرن السابع إلىٰ اليوم، لا يكاد عصر يخلو من هذه البدع والعقائد، ولو كان الأمر في فرد أو أفراد أو جماعة أو قرية، لكان أهون، لكن هذا يشمل أكثر أو غالبية بلاد المسلمين، وقد يقول قائل: هل هذا الشرك هو الوحيد في بلاد المسلمين؟ قلنا: لا، ولكن هذا شرك يقع فيه الإنسان إذا اشتدت به الجهالة، وإذا اختفت أنوار النبوة، وأهل هذا الشرك المُتَفَشِّي في بلاد المسلمين، لا يمكن لهم أن يعرفوا معنىٰ (لا إله إلا الله)، وأن يحقِّقوها، مع بقائهم عليه، وهم يدعون غير الله، ويستغيثون بغير الله، ويلجأون إلىٰ غير الله، ويخافون غير الله، ويحبون غير الله، وينذرون لغير الله ﷻ.



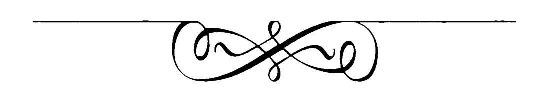
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضًا بشهادة أن محمداً رسول الله ولم يعرف معنىٰ الإله، ولا معنىٰ الرسول، وصلىٰ وصام وحج ولا يدري ما ذلك إلا أنه رأىٰ الناس يفعلونه فتابعهم، ولم يفعل شيئًا من الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه، وقد أفتىٰ بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر، أو قبله في شخص كان كذلك كما ذكره صاحب الدر الثمين في شرح المرشد المعين من المالكية، ثم قال شارحه: (وهذا الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء لا يمكن أن يختلف فيه اثنان). انتهىٰ.

الشَّرح

قوله: (**ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين...**)، أراد رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُبيِّن أن هذا ليس خاصًّا بفقهاء بعض المذاهب، بل هذا هو الذي تواردت عليه فتاوَىٰ العلماء، ويوجد اليوم كتاب بعنوان (موقف علماء مذهب الحنفية من توحيد العبادة)؛ لأن بعض الناس يظن أن معنىٰ (لا إله إلا الله)، بهذا المفهوم خاص بأهل المذهب الحنبلي، وهذا غاية الجهل، فإن العلماء من جميع المذاهب أفتُوا بهذا، وشرحوه، وبيَّنوه، ولا يكاد يطلع المسلم علىٰ كلام عالم من علماء المسلمين، مِمَّن له المكانة بين المسلمين في المذاهب الأربعة، إلا وهو يُفتي بأن مَن دعا غير الله، أو التجأ إلىٰ غير الله، أو استغاث بغير الله، مُشرِك، فهذا نموذج من فتاوَىٰ علماء المالكية في القرن الحادي عشر، فإنهم قد سألوا عن رجل دعا غير الله، واستغاث بغير الله، ما حُكْمه؟ فأفتوا بأنه مُشرِك، وهذا إجماع منهم بذلك، وهكذا جميع علماء المذاهب، لا يقرُّ عالم بأن يُدعَىٰ غير

الله، ولا يقرُّ عالم بأن يُنذَر لغير الله، أو يُذبَح لغير الله، بل قد يوجد بعض الخرافيين، الذين ذكرت بعض ضلالتهم، وبعض مَن يُسَمُّون بالعلماء، يؤيِّد هذا، ولكن جمهور العلماء في جميع المذاهب، علىٰ خلاف هذا المبدأ، في تفسيرهم لمعنىٰ (لا إله إلا الله).



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولا ريب أن عباد القبور أشد من هذا؛ لأنهم اعتقدوا الإلهية في أرباب متفرقين، فإن قيل: قد تبين معني الإله والإلهية فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإله القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة؟ قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع لا يُعرف أحد قاله من العلماء، ولا من أئمة اللغة وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم، فيكون هذا القول باطلاً

الثاني: على تقدير تسليمه فهو تفسير باللازم للإله الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقًا قادرًا على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك فليس بإله حق وإن سمي إلهًا، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الاختراع فقد دخل في الإسلام وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام، فإن هذا لا يقوله أحد؛ لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قُدر أن بعض المتأخرين أرادوا ذلك فهو مخطئ يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية.

الشَّرح

قوله: (...الجواب من وجهين...)، بعد أن انتهى رَحِمَهُ اللَّهُ من شرح (لا إله إلا الله)، وبيان أن هناك من علماء المسلمين مَن أخطأ في فهم هذا المعنى، ولم يصب في تفسير هذه الكلمة التفسير الصحيح، يقول: نردُّ عليه بأمرين:

الأول: قال: (**أن هذا قول مُبتدَع**)، أي أمر حَدَث في الأمة، لم يُنقَل عن أحد من السلف، لا من الصحابة، ولا من التابعين، ولا من أئمة المذاهب الأربعة، ولا من علماء القرون الثلاثة، بل هو قول مُبتدَع، وأي قول مُبتدَع في الأمة، فإنه مردود.

الثاني: على فرض أنه قيل، فنحن نقول: ليس مراد هذا القائل أن هذا هو المعنى لـ(لا إله إلا الله)، وإنما هذا من لوازمها، فإن من لوازم الرب أن يكون إلهًا، ومن لوازم الإله أن يكون ربًّا، مُتصرِّفًا، قادرًا، يفعل ما يريد، ويحكم ما يشاء، وإلا فكيف يكون معبودًا مُطاعًا يُتقرَّب إليه؟ هذا معنى كلامه ﷺ، ولكن أُقدِّم نموذجًا من القرن الخامس، من كلام أحد علماء المسلمين المشهورين، وهو البيهقي ﷺ، وكان على منهج شيخه الحليمي، والحليمي له كتاب اسمه (المنهاج في شعب الإيمان)، ويميل كثيرًا إلى مذهب المتكلِّمين، المشهور بمذهب الأشاعرة، والبيهقي قد تأثَّر بشيخه ﷺ، وقد ألَّف كتابًا في شعب الإيمان، في سبعة مجلدات، وهو عبارة عن شرح كتاب الحليمي، الذي هو المنهاج، والمنهاج أكثره شروح واستنباطات، وجاء البيهقي ﷺ فأخذ العناصر من هذا الكتاب، ودعمها بالأدلة، فعندما جاء إلى مفهوم الإيمان، ومعنى (لا إله إلا الله)، أوْرد الحديث، وهو (**الإيمان بضع وستون، أو بضع وسبعون شُعْبَة، فأفضلها قول لا إله إلا الله**)[1]، قال البيهقي: قال الحليمي: وهذه الشهادة فرض، تجمع الاعتقاد بالقلب، والاعتراف باللسان، والاعتقاد والإقرار وإن كانا عملين يعملان بجارحتين مختلفتين، فإن نوع العمل واحد... إلى أن قال: (والعمل الصالح بالاعتقاد والإقرار مجموع عدة أشياء:

أحدها: إثبات الباري؛ ليقع به مفارقة التعطيل.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، برقم: (٣٥)، (١/ ٦٣). وأخرج البخاري بلفظ: "بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان"، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان وقول الله تعالى ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟..﴾، برقم: (٩).

والثاني: إثبات وحدانيته؛ لتقع به البراءة من الشرك.

والثالث: إثبات أنه ليس بجوهر، ولا عَرَض.

والرابع: إثبات أن وجود كل ما سواه، كان معدومًا من قبل إبداعه.

والخامس: إثبات أنه مُدبِّر، يدبر ما أبدع، ومُصرِّف علىٰ ما يشاء.

أما البراءة لإثبات الباري -جلَّ ثناؤه-، والاعتراف له بالوجود، من معاني التعطيل، فلأن قومًا ضلُّوا عن معرفة الله -جلَّ ثناؤه-، فكفروا الحدوث، وزعموا أنه لا فاعل لهذا العالم)، فأولًا يردُّ علىٰ مَن زعم أن العالَم ليس له خالق، (فإذا أثبت المـُثبِت للعالَم إلهًا -أي ربًّا-، ونسب الفعل والسمعة إليه، فقد فارق الإلحاد والتعطيل)، هذا معنىٰ الأول، (أما البراءة من الشرك بإثبات الوحدانية، فإن قومًا ادَّعُوا فاعلين)، هذا معنىٰ الوحدانية والبراءة من الشرك، (فزعموا أن أحدهم يفعل الخير، والآخر يفعل الشر، وزعم قومٌ أن بدء الخلق كان من النفس، فإذا أثبت المـُثبِت أن لا إله إلا الله واحد، ولا خالق سواه، ولا قديم غيره، فقد انتفَىٰ عن قول الشريك، الذي هو في البطلان، ووجوب اسم الكفر لقائله كالإلحاد والتعطيل، وأما البراءة من التشبيه فإثبات بأنه ليس بجوهر ولا عرض، فلأن قومًا زاغوا عن الحق، فوصفوا الله ﷻ ببعض صفات المحدثين..)[1] إلىٰ آخره، وأين معنىٰ العبادة في (لا إله إلا الله) في كلامه؟ فهنا يزعم أنه لو أثبت المـُثبِت أن لا إله إلا الله واحد، لا خالق سواه، فهذا صحيح من حيث اللزوم، أن الإله لابد أن يكون واحدًا، لا خالق غيره، ولا رب سواه، ولا محيي سواه، ولا مميت سواه، ولا رازق سواه، ولكن ليس هذا هو معنىٰ (لا إله إلا الله)، وقد سبق قول ثمانية عشر عالِمـًا من علماء اللغة وعلماء الشريعة، كلهم يثبتون أن (لا إله إلا الله)، بمعني لا معبود إلا الله، وبعض

---

(١) شعب الإيمان (١/ ١٠٣).

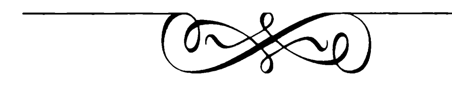
الناس قد لا يستطيع أن يصل من كتب المتكلِّمين إلىٰ معنىٰ (لا إله إلا الله)؛ لأن جميع كتبهم خالية من هذا المعنىٰ، و كل حديثهم في تقرير أنه لابد أن تعرف أن هناك ربًّا، خالقًا، مُوجِدًا، وهذا المعنىٰ ليس خافيًا علىٰ جميع البشر، إلا أفرادًا مِمَّن زاغت فطرتهم، وليست هذه هي البداية للرُّسُل، وليس هذا هو الخلاف مع الرُّسُل، فالخلاف مع الرُّسُل في العبادة، فمعنىٰ لا إله إلا الله هو لا معبود بحق إلا الله، والعبادة هي الطاعة، والمحبة، والتوكل، والخوف، والرجاء، والذل، كل هذه من معاني العبادة، ولا نرىٰ في كتبهم هذا المعنىٰ، ويسمُّون الجانب العقدي الإلهيات، وقد كُتِبَت فيه رسائل علمية، (موقف العالم الفلاني من الإلهيات)، والإلهيات: جمع ألوهية أو إلهية، أي الجانب العقدي، فالإيمان بالله، والتصديق به، سمُّوه ألوهية أو إلهية، وهذا خطأ، فمن حيث المعنىٰ، هذا يُلحَق بتوحيد الربوبية؛ لأن كل ما يتعلق بالله وفعله، فهو من توحيد الربوبية، وكل ما يتعلق بفعل العبد، فهو من توحيد الإلوهية أو العبادة.

فقول الشارح رَحِمَهُ اللهُ إن هذا حدث جديد، أو لم يقل به إلا أفراد قليلون في العصر الحاضر، نستنتج منه أن البدعة حديثة، والحق أن البدعة قديمة، وهي لا زالت في أذهان كثير من المسلمين، ومن علماء المسلمين، كما مرَّ من قول أحد كبار العلماء بعض البلدان الإسلامية في القرن الماضي، وأنه أنكر تقسيم التوحيد، إلىٰ توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية، فقال: هل قريش كانت تعتقد أن الله هو الذي يضر وينفع؟ نحن نقول: ما هو الخلاف الذي جاء الرُّسُل ليرفعوه، كانت تعرف الله، ولكن لا شك أنها كانت تظن أن بعض التأثير في الوجود يحدث من غير الله، وإلا لما تقرَّبت إلىٰ الأصنام بالعبادة، وكانت تعتقد أن بعض الأصنام تنفع وتضر، ولكن لم تعتقد أنها تخلق وتُوجِد، ولم تكن تنكر أن الله هو الخالق الرازق المحي المميت.

فمفهوم (لا اله إلا الله)، انحرفت فيه كثير من الطوائف من عصور متقدمة، ولا يزال هذا الانحراف متوارثًا إلىٰ اليوم، ويوجد كثير، بل قد يكون الأكثر، من علماء المسلمين اليوم علىٰ هذا المفهوم.

وعليه فالاسترسال وكثرة الشروح والتنبيهات علىٰ هذا المعنىٰ، لا ينبغي أن يُتعجَّب منه، فإنه لابد من هذه المرحلة، مرحلة التصحيح، وبيان المفاهيم الخاطئة، فهذا أمر يسبق العمل، ولابد من فترة طويلة لبيان ذلك، فإن الأمة اليوم مُحاربَة ومُحاطَة من كل مكان، إما من جهل أبنائها، وإما من كَيْد أعدائها، فالأمة في حاجة إلىٰ فترة طويلة لتجلية هذا المعنىٰ، حتىٰ تفهم المراد؛ لأن كثيرًا من الناس يظنون أن العبادة محصورة في جانب من حياة الإنسان، فما بال العلماء، وطلبة العلم، والدعاة، يوسعون الدائرة!

فالعبادة تشمل حياة الإنسان كلها، فالكون خلقه الله، وجعل له نظامًا يسير عليه بدون اختياره، والإنسان جزء من هذا الكون، ولكن الله أعطاه فرصة الاختيار، وأمره أن يسير وفق نظام الكون، أي أن تكون حياته كلها وفق طاعة الله، فيسير الكون كله في طاعة الله، فلا يكون في الكون مصدر للنظام، لنظام الكون، ولا لنظام الإنسان إلا الله ﷻ، وهذا هو معنىٰ الطاعة والعبادة، فيسير وفق أمر الله، كما تسير الشمس والقمر والكواكب والنجوم والماء والهواء وفق أمر الله، فيسعد في الدنيا وفي الآخرة، فهذا المفهوم انحرف في أذهان كثير من المسلمين، واعتقدوا أن الدين يكفي فيه أن يصلي ويصوم ويحج ويزكّي، وتبقىٰ بقية الحياة للأهواء وللشياطين يعبثون بها، هذا مفهوم خاطئ، فإن الإنسان ملك لله، وحق الملكية أن لا يتصرَّف إلا وفق أمر المالك ﷻ، وهذا هو معنىٰ (لا إله إلا الله).



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وأن محمداً عبده ورسوله) أي: وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله، فتكون الشهادة واقعة على هذه الجملة وما قبلها وما بعدها، فإن العامل في المعطوف وما عطف عليه واحد، ومعنى العبد هنا يعني: المملوك العابد، أي: مملوك لله تعالى، وليس له من الربوبية والإلهية شيء، إنما هو عبد مقرب عند الله، (ورسوله) أرسله الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن: ١٩-٢٣].

الشرح

قوله: **(وأن محمدًا عبده ورسوله)**، هذا هو الشَطْر الثاني من كلمة التوحيد، فإنه كما يجب أن يوحِّد الله ﷻ بالطاعة، فكذلك لابد من واسطة نعرف بها مراد الله ﷻ، وهذه الواسطة هي الرُّسُل، و قال هنا في الحديث: (وأن محمدًا عبده ورسوله)، فجمع بين العبودية والرسالة؛ لدفع ما قد يتوهَّم من اتصافه ببعض صفات الربوبية، **ولأن المجتمع البشري قد شُغِف من عهد نوح عليه السلام إلى اليوم بتعظيم المخلوق**، فأعطوه بعض خصائص الخالق، ولأن الأنبياء -وهم الصفوة المُختارة- يجري على أيديهم من الأفعال العجيبة، ما يظنه الجهلة من خصائص الخالق، فإن الله يؤيِّد رسله، ويكرمهم بالمعجزات، فيُجرِي على أيديهم من الأعمال، ما يجعل الجهال يعتقدون فيهم أنهم مشاركون مع الله في الخلق، وفي تدبير الكون، وهذا الذي جعل النصارى يرفعون عيسى عليه السلام إلي مرتبة الألوهية؛ لأنه كان يُحيي الموتى، ويُبرِئ الأكمه والأبرص، ويخبرهم

بما في بيوتهم، كل ذلك -بإذن الله-، فظنوا أن هذا جزء من الألوهية حَلَّت فيه، كما تعتقد الطوائف الباطلة في زعمائها، فظنوا أن عيسىٰ عليه السلام ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، أو أنه الله نزل الأرض فترة من الزمن، ثم صعد إلىٰ السماء، فما يجري علىٰ أيدي الأنبياء من خوارق العادات، والأمور العجيبة، قد ينخدع بها مَن ليس عنده علم شرعي، فيعطيه بعض خصائص الخالق سبحانه وتعالى، ولهذا لابد لمَن يشهد أن لا إله إلا الله، أن يشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ولابد أن يقرَّ أن الرسول ليس إلهًا، وليس فيه بعض خصائص الألوهية، وليس له صفات الألوهية، بل هو عبدٌ لله سبحانه وتعالى، وإن أكرمه الله، وشرَّفه، واصطفاه، فإنه لا يخرج عن دائرة العبودية، والقرآن الكريم قد أبدَىٰ في ذلك وأعاد، ولهذا يذكره بوصف العبودية في المقامات العجيبة، ومنها مقام الإسراء، فإن الإسراء مقام عجيب، وحدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيها حوادث عظيمة، من ذهابه إلىٰ بيت المقدس، وعُرُوجه إلىٰ السماء، فلابد من بيان أن هذا لا يعني أنه إله، أو فيه صفات الألوهية، فقال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، ولم يقل برسوله، وإن كانت الرسالة عالية شريفة عظيمة، ولأن الإنسان هو في العبودية علىٰ أمرين:

- إما أن يترقَّىٰ في عبودية الخالق، فيرتفع.
- وإما أن ينزل في عبودية الخالق، فيهبط.

فعبودية الخالق ترفع الإنسان، وإذا نقص من قلبه عبودية الله، فعبد غير الله، فهو عبد هواه، أو عبد المصلحة، وقد جاء في الحديث: (**تَعِسَ عبدُ الدرهم، تَعِسَ عبدُ الدينار**)[1]، فيقول العلماء: إن الله وصفه -أىٰ النبي صلى الله عليه وسلم-

---

(١) سبق تخريجه.

بالعبودية في أشرف المقامات، وهو مقام الإسراء، والمقام الثاني مقام الدعوة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، ولم يقل: رسول الله، والرسالة مقام شريف، ولكنها من الله، وأراد الله أن يُبيِّن أن هذا الرسول نفسه، قد ارتفع بجهده عند الله -تعالىٰ-، وهو العبادة، والمقام الثالث مقام الإعجاز، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، ولم يقل رسولنا، ففي هذه المقامات الثلاثة ذكره الله فيها بالعبودية؛ لأمرين:

الأمر الأول: أن العبودية لله تكريم، فمَن عبد الله حق العبادة، ارتقَىٰ، فنبينا أعلىٰ البشر عبادة، فهو سيد البشر، فنبينا ﷺ في قمة الهرم البشري، وأن البشرية تمثل هرمًا، والهرم مثل الجبل، يضيق رأسه، وتتسع قاعدته، فالقاعدة فيها حثالة الناس من الكفار وغيرهم، وأعلىٰ منهم فُسَّاق المؤمنين، وأعلىٰ منهم المؤمنون، ثم الصالحون، ثم الشهداء، ثم الصدِّيقون، ثم الأنبياء، ثم نبينا ﷺ في قمة هذا الهرم، ولكنه يبقىٰ في دائرة البشرية، فالرسول له مقام عالٍ، وله حقوق، فينبغي أن نعرف حقه، ولكن ينبغي أن لا نخلط بين حقه كنبي مُرسَل ﷺ، وبين حق الله ﷻ، وما انحرف الناس، إلا عندما جهلوا الفوارق بين الخالق والمخلوق، فالقرآن أبدَىٰ في هذه القضية وأعاد، وأمره أن يَبْرَأَ من الحَوْل والطَّوْل، وأن يُخبرهم ببشريته، فقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ [الجن:٢١]، ويقول العلماء: في قوله: ﴿ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾، حذف المتقابلات، فالضر يقابله النفع، والرشد يقابله الغواية، وكلاهما لا يملكه رسول الله ﷺ، فتبرأَ من ملك النفع والضر لغيره، ثم تبرأَ من ملك النفع والضر لنفسه الشريفة، فالقرآن الكريم ركَّز علىٰ بيان عبوديته ﷺ لله ﷻ، وعدم ملكيته لشيء من حق الله -تعالىٰ- من النفع والضر، أو من علم الغيب.

وقد بيَّنت السُّنَّة شيئًا من ذلك، فقال ﵊ في حديث يوم القيامة: (وأنه

سيجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول يا ربي أصحابي -أو أُصَيْحابي- فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[1]، فهنا يعترف بأنه لا يدري، وفي قصة أم العلاء مع عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وقد مات في بيتها، فقالت: رحمة الله عليك أبا السائب -تعني كنيته-، فشاهدتي لك أن الله أكرمك، فقال عليه الصلاة والسلام: **(وما يدريك أن الله أكرمه؟)** قالت: بأبي أنت يا رسول الله، إذا لم يكرمه الله، فمَن يكرم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: **(أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري، وأنا رسول الله، ما يُفعَل بي)**[2]، قالت: والله لا أزكِّي بعده أحدًا أبدًا. فهذا سيد البشر لا يعلم، ويعترف بأنه لا يدري، ولا يعلم الغيب.

فأول صفات الرسول صلى الله عليه وسلم العبودية لله سبحانه وتعالى، فالشهادة الأولىٰ لتبرئته من مقام الألوهية، والرسول كان يعلم، أو كانت لديه بعض البوادر في تعظيمه، فقال عليه الصلاة والسلام: **(لا تَطرُوني كما أَطرَت النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم، وإنما أنا عبد الله ورسوله)**[3]، وقال في حديث آخر: **(لعن الله اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)**[4]، يحذِّر مما صنعوا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم)، برقم: (٤٦٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم: (٢٨٦٠)، (٤/ ٢١٩٤)، وفي البخاري: "**أُصَيْحابي**"، وفي مسلم "**أصْحابي**".

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدخول علىٰ الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه، برقم: (١٢٤٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالىٰ: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت)، برقم: (٣٤٤٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، برقم: (١٣٩٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور، برقم: (٥٢٩)، (١/ ٣٧٦).

وقعت هذه الأوامر وهذه الإيضاحات كلها في الأمة، فبعض الطوائف انحرفت، فأعطت الرسول ﷺ حق الله، ورفعت الرسول إلىٰ مرتبة الألوهية، وخلطت بين حق الخالق وحق المخلوق، بل كثير مما تزعمه هذه الطوائف في حق النبي ﷺ، لا يجوز أن يقال إلا في الله ﷻ، وهذه نماذج من أقوالهم:

قال الحلاج وهو أحد زعماء التصوف[1]: (طس) -وهو يقلد القرآن الكريم- (طس سراج من نور الغيب بدا وعاد، وجاوز السراج وساد، أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت)، أي كل النبوات من نبوته، (وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم، سوىٰ نور صاحب الكرم، وهو سيد البرية، الذي اسمه أحمد، ونعته أوحد، وأمره أوكد، وذاته أمجد، العلوم كلها قطرة من بحره، الأزمان كلها ساعة من دهره، الحق وبه الحقيقة، هو الأول في الوصلة، وهو الآخر في النبوة، والباطن في الحقيقة، والظاهر في المعرفة، الحق ما أسلمه إلىٰ خلقه، إلا لأنه هو)، هو نفسه، (وإني هو، وهو هو)، أي أن الرسول هو الله، وأن الحلاج هو الله، هذا آخر ما وصل إليه في قوله.

وقال أبو طالب المكي: (بعضها للمعرفة، خلق الله بما فيها من نور المصطفىٰ ﷺ، فلما اشتاقت إلىٰ رسول الله ﷺ، كان شوقها إلىٰ المعدن والأصل، وصار شوق المشتاقين إلىٰ الجنة، شوقهم إلىٰ النبي ﷺ؛ لأنها من نوره خلقت)[2].

---

(١) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية، ص ٢٦٣- ٢٦٤، نقلا عن أخبار الحلاج ص ٨٢ وما بعدها.

(٢) علم القلوب (٣٠).

ويقول الشاغري: (فهو الياقوتة المنطوية عليها أصداف مكنوناتك، والغيبوبة المُنتَخَب منها معلوماتك، فكان غيبًا من غيبك، وبدلًا من سر ربوبيتك، حتىٰ صار بذلك مظهرًا نستدل به عليك)(١).

وقال الجيلي:

(أوج التعاظم مركز العز الذي	لنيل العلا من حوله دورانه
ملك وفوق الحضرة العليا علىٰ الـ	ـعرش المكين مثبت إمكانه
ليس الوجود بأسره إن حققوا	إلا حبابًا طفحته جنانه
الكل فيه ومنه كان وعنده	كفل الدهور ولم تزل أزمانه
فالخلق تحت سما علاه كخردل	والأمر يبرمه هناك لسانه
والكون أجمعه لديه كخاتم	في إصبع منه أجل أكوانه
والملك والملكوت في تياره	كالقطر بل من فوق ذاك مكانه
وتطيعه الأملاك من فوق السما	واللوح ينفذ ما قضاه بنانه)(٢)

هذا عن رسول الله ﷺ، ثم تكلم بكلام نثر عن الرسول، ثم قال:

(ثم اعلم أن الإنسان الكامل، هو الذي يستحق الأسماء الذاتية، والصفات الإلهية، استحقاق الأصالة والملك، بحكم المقتضىٰ الذاتي)، هذا كلام عبد الكريم الجيلي(٣).

وقال الرفاعي: (اللهم صل وسلم وبارك علىٰ نورك الأسبق، الذي أبرزته رحمة شاملة لوجودك، نقطة مركز الباء الدائرة الأولية، وسر أسرار الألف

(١) النفحة العلية (٣٣).
(٢) الإنسان الكامل (١/ ٧٣).
(٣) الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر، عبد الكريم الجيلي (٢/ ٧٣ – ٧٧).

القطبانية، الذي فَتَقْتَ به رق الوجود، فهو سرك القديم الساري، وماء جوهر الجوهرية الجاري، الذي أحييت به الموجودات، من معدن، وحيوان، ونبات، وقلب القلوب، وروح الأرواح، وإعلام الكلمات الطيبات، القلم الأعلىٰ، والعرش المحيط، روح وجسد الكونيين، وبرزخ البحرين..) إلىٰ آخره[١].

هذا كلام لبعض أقطاب التصوف، وهناك ابن عربي وابن الفارض، وكلامهما علىٰ هذا النمط، وهؤلاء يُقَدَّسُون ويُعظَّمُون في كثير بلدان المسلمين، وقد رفعوا الرسول ﷺ، بحيث لم يفرِّقوا بين حق الخالق وحق المخلوق، ولا بين خصائص الخالق وخصائص المخلوق، فلم يعرفوا معنىٰ: أشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فإنهم لو عرفوا معناها، لما وصلوا إلىٰ هذا الانحراف، فالعبودية تقتضي أن يبقىٰ العبد في دائرة البشرية، والرسالة ترفعه إلي قمة البشرية، ولكن الخلط بين معاني الألوهية ومعاني النبوة، جاء من جهلهم بمعاني كلام الله، وكلام رسوله ﵊، فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، يقتضي هذا المعنىٰ، ويقتضي هذا المقام، فنحن نعظِّمه، ونكرمه، ونحترمه، ولكن لا نرفعه فوق منزلته، فهذا هو الحق، وهو الموقف الصواب في حق نبينا ﵊، فإذا قال العبد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، كان هذا هو المراد، فنعتقد أنه عبدٌ لله، مملوك له، وعابد لله، مطيع له، ولكنه رسوله ومُصطفاه، أكرمه الله بكرامات كثيرة، ويوم القيامة يقف الموقف المحمود الذي تغبطه عليه جميع البشرية، ولكنه لا يرتقي عن درجة العبودية، فهذا هو معنىٰ (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله).

---

(١) أفضل الصلوات علىٰ سيد السادات (ص:٨٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قيل: وقُدم العبد هنا على الرسول ترقيًا من الأدنى إلى الأعلى، وجُمع بينهما لدفع الإفراط والتفريط الذي وقع في شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى بقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» رواه البخاري عن عمر بن الخطاب.

وذلك يتضمن تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والإنتهاء عما عنه زجر، فلا يكون كامل الشهادة له بالرسالة من ترك أمره وأطاع غيره وارتكب نهيه.

الشَّرح

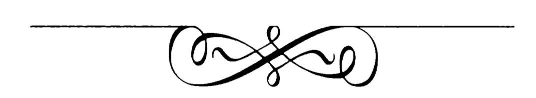
قوله ﷺ: (**لا تَطَرُوني كما أَطَرَت النصارى ابن مريم...**)[1]، في هذا الحديث تحذير لمَن رفعه فوق منزلته، وأَطراه، ومدحه مدحًا زاد به عن الحد المشروع، فقال: لا ترفعوني فوق منزلتي، أنا لي منزلة، أنزلنيها الله، وهي النبوة والرسالة، فإذا زدتم في المدح والثناء والإطراء، وأعطيتموني ما ليس من حقوقي، فإن هذا محرَّم، واعتداء على حق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فينبغي أن نعرف الدرجة التي ننزله فيها، بل الدرجة التي أنزله الله فيها، فإنه نبي مختار مصطفى ﷺ، لا ينبغي لنا أن ننقصه حقه، ولا أن نرفعه فوق درجته.

قوله: (**وذلك يتضمَّن تصديقه فيما أخبر...**)، يقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ : إن معنى الشهادة بالرسالة يقتضي أن نصدق أمره، وأن نصدق خبره، فإذا أخبرنا عن أمر صدَّقْناه، ولا نحاكمه بعقولنا، فإن علم الغيب، وما وراء الغيب، لا يعرفه

---

(١) سبق تخريجه.

إلا الله، والعقل البشري له حدود، فلا ينبغي له أن يتعدىٰ حدوده، ثم إذا أمره بأمر، فعليه أن يُبادِر إلىٰ تنفيذه، وإذا نهاه عن شيء، فعليه أن يُبادِر وأن يجتنب ما نهاه عنه، فتحقيق معنىٰ الشهادة بأنه رسول الله، هو تصديقه في كل ما أخبر به من الغيبات، وطاعته فيما أمر به من الأوامر، واجتناب كل ما نَهَىٰ عنه من النواهي.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله) وفي رواية: (وابن أمته) أي: خلافًا لما يعتقده النصارىٰ أنه الله أو ابن الله، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، فيشهد بأنه عبد الله، أي: عابد مملوك لله لا مالك، فليس له من الربوبية ولا من الإلهية شيء، ورسول صادق، خلافًا لقول اليهود: إنه ولد بغي، بل يُقال فيه ما قال عن نفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم:٣٠-٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ ﴾ [النساء:١٧٢]، قال القرطبي: ويُستفاد منه ما يلقنه النصراني إذا أسلم.

الشرح

قوله: (وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله)، هنا جاء في الحديث ما يتعلق بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكما سبق: إن الأنبياء قد جرىٰ علىٰ أيديهم من الخوارق والعجائب، ما قد ينخدع به بعض الجهال، فيعطونهم غير حقوقهم، وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّن ابتُلِيَ بهذا الموقف، والقرآن الكريم ذكر قصة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وابتدأها بذكر أصل أمه عَلَيْهَا السَّلَامُ، وأنها كانت من بيت صالح، ثم ذكر نشأتها الفاضلة الصالحة، وذكر أن الله قد اعتنىٰ بها في صغرها، وأن أصلها كانت

دعوة أمها، وأن أمها قد دعت لها بالحفظ من الشيطان، وأن الله قد وعدها بحفظها، وأن الله اصطفاها، والملائكة كانت تُكلِّمها وتُبشِّرها، وهذه المقدمات قبل أن يأتي الملَك لينفُخ فيها عيسىٰ عليه السلام؛ وقد جاء في سورة آل عمران بيان لأصل مريم عليها السلام، وأنها كانت امرأة من بيت صالح، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران:٣٣-٣٥]، وأمها نذرت ما في بطنها لخدمة المعبد، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، أي استجاب دعوتها، ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، بالحفظ والرعاية، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ﴾، وزكريا كان نبيًّا، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧]، وهذه البدايات كانت إرهاصًا ومقدمات، حتىٰ لا تُفاجَأ إذا جاء الملَك بأمر الله، فكانت هذه العناية قبل أن يأتي الملَك، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران:٤٢]، كل هذه مقدمات، والاصطفاء والتطهير من النجس والرجس والزنا، ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران:٤٣-٤٥]، فأخبرتها الملائكة بأنه سيأتيها ولد، يُنسَب إليها ليس له أب، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦]، ولكن مريم عليها السلام لمَّا كان الأمر حدثًا عظيمًا

قطعـت الكـلام، ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، ثم قال تعالىٰ: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران:٤٧]، ثـم اسـتطرد السـياق: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمـران: ٤٨] إلـىٰ آخـره، وهذه المقدمات جاءت تَوْطِئَةً وتمهيدًا، قبل أن يأتي المـلَك بـنفخ روح عيسىٰ ﷺ، وكذلك الأنبياء لا يأتيهم الوحي المباشر إلا بعد مقدمات، ونبينا ﷺ قـد أتاه أشياء قبل النبوة في مقـدمتها الرؤيـة، فكـان لا يـرىٰ شـيئًا إلا أتـاه مثـل فلـق الصبح، وكان يُسلِّم عليه، وحفظـه الله مـن الـنجس، والـرجس، ومـن الشـرك، وعبادة الأصنام، وكذلك هذه مقدمات حمل عيسىٰ ﷺ، وسنذكر القصة؛ لأن فيها إعجازًا لكلام الله؛ لأن القرآن يتحدث عن تفصيلات دقيقة، ككونها تعيش شرقي البيت، أو شرقي المعبد، واتخادها من دونهم حجابًا، وهذه التفاصيل لا يعرفهـا إلا مَـن كـان يتلقَّـىٰ الـوحي، ولا يعرفهـا البشـر، ولـم يسـتطع أحـد مـن النصارىٰ أن ينكر هذه القصـة، قـال الله تعـالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم:١٦]، فحدَّد المكان، ولـو كـان القـرآن لـيس مـن الله، لما استطاع الرسول الأمِّي أن يحدد المكان؛ لأنه لـم يكـن في ذلـك العصـر موجـودًا، كمـا قـال تعـالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾، فهـذا التحديث يدل علىٰ أن هذا الكلام ليس من البشر، وإنما هو كلام خـالق البشـر، الـذي يعلـم الغيـب كلـه، قـال: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم:١٧-١٩]، أي رسـول ربـك الـذي رعـاك في السـابق، وتعـرفين آثاره، وتعرفين رعايته وحفظه، هذا الذي حفظك ورعاك، وأجرَىٰ علىٰ يـديك مـن الـرزق، مـا جعـل زكريـا يسـتغرب، هـو الـذي أرسـلني، ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا

زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم:١٩-٢١]، وفي البشارة السابقة، قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾، وهنا قال: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾، فتكرار ربك ليُبيِّن لها أنها في موقف عظيم؛ لأنها تتصور كيف الحمل، وكيف الولادة، وكيف تأتي قومها، وهذا التفصيل عن قصة عيسىٰ عليه السلام؛ ليُبيِّن للنصارىٰ انحرافهم، ثم استمر السياق، إلىٰ أنها عندما حملت به، وجاءها المخاض، قال لها الملك: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم:٢٥]، يقول العلماء: قبل أن يأتيها المخاض، كان يأتيها الرزق بدون جهد، وبدون عمل، وهنا في موقف تحتاج فيه إلىٰ العناية والرعاية، احتاجت إلىٰ عمل، كما يقول: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ﴾ [مريم:٢٥]، وذلك لأن ولي الله إذا ترقَّىٰ، فإنه يصبح لا يحتاج إلىٰ كرامات، فلابد من مباشرة الأسباب، ثم هذه كرامة، إنما تهزها بيدها فيسقط الثمر، ولكن هناك كانت تحتاج إلىٰ الدلائل القوية؛ لتدل علىٰ أنها مُصطفاة، وأنها مُختارة، وهنا أصبحت في درجة أعلىٰ.

ثم كان أول كلمة من عيسىٰ عليه السلام، لمَّا أشارت إليه أمه عليها السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم:٣٠]، ففي أول كلمة نطق بها اعترف بالعبودية؛ لأن في مثل حاله ووضعه، ربما يختلط على الناس؛ لأنه وُلِدَ من غير أب، وهذا حدث عظيم، ثم سيجري علىٰ يديه أشياء عظيمة من خوارق العادات، فأول شهادة يقولها الإنسان، وخاصةً مِمَّن يدخل في الإسلام من النصارىٰ، هي أن يشهد أن عيسىٰ عليه السلام عبد الله ورسوله، فلابد من الشهادة بالعبودية والرسالة، وهذا هو المقطع الثالث من الحديث، وسيأتي التفصيل في حقه عليه السلام، مع بيان المواقف المتعلقة به.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وَكَلِمَتُهُ) إنما سُمي عَلَيْهِ السَّلَامُ كلمة الله لصدوره بكلمة كن بلا أب، قاله قتادة وغيره من السلف.



الشَّرح

قوله: (وكلمته)، للعلماء ثلاثة أقوال في توجيه كون عيسى (كلمة الله):

القول الأول: أن المراد بها أنه خُلِقَ بكلمة (كُنْ)، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلق المخلوقات بقوله: (كُنْ) فيكون، فعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خلقه الله بكلمة (كُنْ)؛ لأن خَلْق البشر أصبح بعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالأسباب، فيتزوج الإنسان امرأة، فتلد له مولودًا من ذكر أو أنثىٰ، وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أوجدته الإرادة الإلهية مباشرةً من دون أب، فقيل: إنه كلمة الله، أي: خلقه الله بكلمة (كُنْ)، وهذا قول قتادة، وأبي عبيدة، وأحمد، وابن كثير، وجماعة من المفسِّرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

القول الثاني: أنها بمعنىٰ البشارة، وهذا قول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ [آل عمران:٤٥]، أي يبشِّرك ببُشرىٰ، وهي عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقول الناس بينهم: فلان سَرَّ إليَّ كلمةً، أو ألقىٰ إليَّ كلمةً وسَرَّني بها، أي بشَّره ببشارة، أو بأمر، أو بحدث، فالكلمة يراد بها ما وراءها، وليس المراد نفس الكلمة.

والقول الثالث: أنها اسم عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما يُقال له: عيسىٰ، يُقال له: كلمة، ويُقال له: روح الله، فهذه من أسمائه، كما يُقال للنبي ﷺ: محمد وأحمد والعاقب والحاشر، فيُسمَّىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه كلمة الله، وأنه روح الله، وليس المراد منها أنه كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن الله يخلق بكلامه، وليس كلامه مخلوقًا.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الإمام أحمد فيما أملاه في الرد على الجهمية: (الكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له كن، فكان عيسى بكن، وليس عيسى هو كن، ولكن بكن كان، فكن من الله قول، وليس كن مخلوقًا، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالت: عيسى روح الله وكلمته، إلا أن الكلمة مخلوقة. وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذات الله، كما يُقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب، وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة). انتهى. يعني به ما قال قتادة وغيره.

قوله: ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٧١]، قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عَزَّوَجَلَّ، فكان عيسى بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له كن فكان والروح التي أرسل بها جبرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١].



الشرح

قوله: (وكذب النصارى والجَهَمية على الله في أمر عيسى...)، أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُبيِّن أن النصارى الذين زعموا أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو كلمة الله، أي: ليس مخلوقًا، فقال: أنتم تقولون كلام الله غير مخلوق، وعيسى كلمة الله، وقابلتهم الجهمية، حيث قالوا: إن عيسى روح الله وكلمته، إلا أن الكلمة مخلوقة، أي أن كلام الله مخلوق، فالنصارى زعموا أنها غير مخلوقة، وأرادوا بها كلام الله، والجهمية

زعموا أن عيسىٰ كلمة الله، وأن كلام الله مخلوق أي القرآن، وكلاهما علىٰ طرفي نقيض، ونحن نقول: إن عيسىٰ عليه السلام خَلْق من خلق الله، خَلَقَه الله بكلامه، وكلام الله غير مخلوق، بل هو من ذاته وصفاته سبحانه وتعالى، وصفات الله غير مخلوقة، فكما أن من صفات الله العلم والرحمة والسمع والبصر، وغير ذلك، فالكلام من صفاته -تعالىٰ-، فكما لا يُقال فيها إنها مخلوقة، كذلك كلامه عز وجل غير مخلوق، وإلا لو كان كلام الله مخلوقًا، ونحن نقرأ في كتاب الله، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة:١١٧]، لكان يلزم من خَلْق "كُنْ"، خَلْق "كُنْ" أخرىٰ قبلها، إلي مالانهاية، وهذا باطل بإجماع العقلاء، وهذا الفساد في المعتقد سببه المنهج الباطل في التعامل مع النصوص، وأما اتِّباع المذهب السلفي، فيقولون: إن كلام الله من صفاته، وصفاته غير مخلوقة، فالقرآن غير مخلوق.

قوله: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء:١٧١]، الروح هنا ذكر العلماء فيها ستة أقوال:

القول الأول: أن مريم حملت بنفس الشخص الذي خاطبها، وهذا قول أُبي بن كعب، أي جاء إليها في صورة مَلَك، أو في صورة شخص، ثم دخل في جيبها، فدخل في فَرْجها، ثم حملت بها، وهذا قول يحتاج إلىٰ دليل.

القول الثاني: أنه من روح جبريل عليه السلام، نفخ في درعها، فنُسِبَ إلىٰ الله سبحانه وتعالى؛ لأنه بأمر الله، أمره الله بأن ينفخ في جيبها.

القول الثالث: أن عيسىٰ عليه السلام سُمِّيَ روح الله لما ظهر عليه من العجائب، فإن عيسىٰ عليه السلام كان يُحيي الموتىٰ، ويُبرئ الأكمه والأبرص، وأجرَىٰ الله علىٰ يديه من العجائب، ما جعله يُوصَف بأنه روح الله سبحانه وتعالى.

القول الرابع: أنه بمعنىٰ الرحمة، أي رحمة الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة:٢٢].

القول الخامس: أنه البرهان، أي أن عيسىٰ عليه السلام برهان قدرة الله -تعالىٰ-.

القول السادس: وهو القول الراجح والأخير، أي أنه من خَلْق الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية:١٣]، وهذه الآية قرأها بعض العلماء عند طبيب نصراني كان للرشيد، فقال النصراني: إن عيسىٰ عليه السلام جزء من الله، وكتابكم يقول هذا: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء:١٧١]، فقال هذا المسلم: قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾، فكل الكون جزء من الله -تعالىٰ- علىٰ كلامك، فأَفْحَمَه، فأسلم النصراني علىٰ هذه الآية، فالمراد بـ (منه) أي من أمر الله؛ لأن (مِن) تأتي في العربية لخمسة عشر معنىٰ، ومن معانيها الابتداء، أي: ابتداء الغاية، وسيأتي تفصيله -إن شاء الله-.

والضلال في فهم الآيات، وفهم الألفاظ، له أسباب عدة، نذكرها إجمالًا:

السبب الأول: أن كثيرًا من الناس يعتقد أولًا، ثم يأتي إلىٰ القرآن؛ ليستدل، فيسبق اعتقاده استدلاله، فالكثير يقرر تقريرًا معينًا في نفسه، عقيدةً أو حكمًا، أو مفهومًا، ثم يأتي يبحث في القرآن والسُّنَّة؛ ليستدل علىٰ هذا الذي قاله، وقرَّره مُسبقًا، وهكذا فعل النصارىٰ، اعتقدوا ثم جاؤوا إلىٰ كتاب الله، يستدلون به علىٰ ما اعتقدوه، وهذا خطأ، فنأتي إلىٰ القرآن بأذهان خالية، لنأخذ منه الاعتقاد، لا نأتي إليه لنستدل علىٰ أمر قد اعتقدناه قبل.

السبب الثاني: قلة العلم بمعاني الألفاظ، فإن (مِن) تأتي لخمسة عشر معنىٰ، فهم خلطوا المعاني، وظنوها كلها بمعنىٰ واحد.

السبب الثالث: الجهل بأساليب اللغة، فإن العرب لها أساليب في لغتها، فقد تجعل لفظًا بدل لفظ، وتجعل السبب في مكان المُسَبِّب، وتأتي بالمصدر في مكان المفعول، وهذا من أسباب انحراف النصارىٰ في اعتقادهم، وانحراف

كثير من المسلمين في اعتقادهم، وفي مقرراتهم.

وملخص ما حدث فيه من اختلاف لدىٰ أتباعه من النصارىٰ، علىٰ اختلاف فيما بينهم، أن منهم مَن زعم أنه الله، ومنهم مَن زعم أنه ابن الله، ومنهم مَن زعم أنه ثالث ثلاثة.

فالذي زعم أنه هو الله، استدل علىٰ ذلك بالمعجزات التي جرت علىٰ يديه -بإذن الله-، وهيٰ فوق طاقة البشر، كإحيائه للموتىٰ، وإبرائه للأكمه والأبرص، وهما مَرَضَان عجز الطب عن علاجهما، ونحو ذلك، قالوا: هذه من أفعال الله الخالق، فعيسىٰ هو الخالق.

والذين اعتقدوا أنه ابن الله، قالوا: نحن نرىٰ أن جميع بني آدم لهم آباء، وعيسىٰ ليس له أب، فهو ابن الله.

والذين اعتقدوا أن عيسىٰ ثالث ثلاثة، قالوا: إنه قد وردَ في القرآن الكريم، أن الله يتكلَّم عن نفسه بلفظ الجمع، فيقول: إنا، ونحن، فدلَّ علىٰ أن هناك ثلاثة، أو جَمْع هم الذين يُصرِّفون الكون، هذه شُبَه النصارىٰ، وعندما جاءت الوفود إلىٰ النبي ﷺ، في العام التاسع عام الوفود، جاء وَفْد نجران من النصارىٰ، فجادلوا النبي ﷺ، ومن ضمن ما جادلوا به، ما وردَ في القرآن الكريم من لفظ الجمع، فأنزل الله ﷻ فيهم صدر سورة آل عمران، وهو قرابة ثمانين آية، افتتحها بقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾ [آل عمران: ١، ٢]، إلىٰ أن قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧]، فذكر ﷻ أن القرآن الكريم فيه آيات محكمات، والمراد بالإحكام: أن الآية لا تدل إلا علىٰ معنىٰ واحد، والتشابه: هو أن تكون الآية تدل علىٰ أكثر من معنىٰ، ويُفسَّر المـُتشابِه علىٰ ضوء

المُحْكَم، فمثلًا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر:٩]، وهذا عند العرب ليس فيه لَبْس، ولا خطأ في الفهم، ولكن الإشكال عند الذين لا يدركون أساليب العرب، فالعرب تُطلِق ضمير الجمع للمفرد المُعظَّم، أو المُعظِّم نفسه، فالذي يعظِّم نفسه، يقول: نحن فعلنا، وتقول إذا خاطبت المعظَّمَ: أنتم فعلتم، وأنتم قلتم، ولكن الذي لا يفهم الأسلوب العربي، ويتعلم العربية من جديد، ويأخذ أنواع الضمائر، وأنها تدل علىٰ مفرد، وعلىٰ مثنىٰ، وعلىٰ جمع، يلتبس عليه الفهم، فلنفرض أن هذه آية متشابهة، ومثال المُحْكَمة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣]، فليس هناك لَبْس، وإذا جاء الحديث من الله ﷻ عن فعله، كثيرًا ما يأتي بضمير الجمع؛ للتعظيم، لكن إذا جاء الأمر أو الحديث عن العبادة له، إنما يأتي بلفظ المفرد (اعبدوني)، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

والذي سبق بعض أسباب الخطأ في الفهم في القرآن والسُّنَّة، وخاصةً بما يتعلق بحديث عيسىٰ ﵇، وإلا فإن الخطأ في الفهم أنواعٌ كثيرة منها: العناد، ومنها الكِبْر، والاستكبار، ومنها الغفلة، وسنذكر بعض ما يتعلق بقصة عيسىٰ ﵇، وهي أربعة أنواع من أسباب الخطأ، والانحراف في فهم النصوص الشرعية:

السبب الأول: الهوَىٰ، والهوىٰ أعظم وَثَن عُبِدَ من دون الله ﷻ، فإن الهوَىٰ يرافق كثيرًا من الناس، فيجعله لا يرىٰ إلا ما تهوَىٰ نفسه، وتميل إليه، ولهذا لو جاءته عشرات الآيات والأحاديث المُخالِفة لهواه، لا يقبلها، ولهذا وصفه الله بأنه ليس في مرتبة الحيوان، بل أقل من مرتبة الحيوان؛ لأنه قد عطَّل إدراكه، وعطَّل قواه العقلية، وعطَّل جهاز الاستقبال الإنساني، والفرق بين الإنسان والحيوان، أن الإنسان يُدرِك ويفهم ويتجاوب، ولكن صاحب الهَوَىٰ

عطَّل هذه الاستعدادات الإنسانية، فلهذا وصفه الله بأقل من الحيوان، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان:٤٣]، ثم قال بعدها مباشرةً: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤]، فصاحب الهوىٰ في درجة تحت الحيوانات؛ لأن الحيوان قد هداه الله فطرة وطبعًا؛ لمعرفة مصلحته، فيتحرك لما ينفعه، ويجتنب ما يضره، فقال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾، والسماع علىٰ نوعين: سماع الصوت الذىٰ تسمعه حتىٰ الحيوانات، ولكن ليس المراد هنا مجرد السمع، بل المراد بالسمع الاستجابة، وإلا فهم يسمعون القرآن والسُّنَّة، وذلك كما أن الشخص إذا صلَّىٰ، ورفع رأسه في الركوع، يقول: سَمِعَ الله لِمَن حمده، والله يسمع لمن حمده، ولكن المراد هنا أي: استجاب الله لمن حمده، تقبل الله مِمَّن حمده، فالسماع يراد به هنا القبول، فهم لا يسمعون الحق سماع المُستجِيب المُطيع، ثم من دقة القرآن أنه لم يقل: كلهم؛ لأن الحديث هنا في هذه السورة عن المنافقين، فالخطاب نزل يواجههم، فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾ [الفرقان:٤٤]، وهكذا طالب العلم، لا ينبغي أن يُعمِّم في القضايا، لا ينبغي أن يقول: كل بني فلان، أو كل أهل فلان، وإنما يتحدث بحسب ما يتفق مع واقع الحديث.

فالهوىٰ إذا رسخ في ذهن إنسان، صدَّه عن الحق، ولو سمع كل الآيات، وكل الأحاديث، فإن الهوىٰ داء عُضَال، يمنع من سماع الحق وقبوله، -أعاذنا الله من الهوىٰ-، فالنصارىٰ قد سبق إلىٰ أذهانهم الهوىٰ، فلم يقبلوا من رسول الله ﷺ، وعندما جاؤوا يناظرونه، فطالب منهم المُباهلة، أي المُلاعنة، تشاوروا وقالوا: تعلمون أنه رسول الله، ولو باهَلَكم، والله ما أفلحتم أبدًا، فجاؤوا في اليوم الثاني، وقالوا: نحن قد عزمنا أن نبقَىٰ علىٰ دينا، وأن نتركك ودينك، ولا نباهِلُكَ، فابعث معنا رجلًا أمينًا، يحكم فيما بيننا، في أشياء مما

تخصنا، فقال: (لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا، حق أمين)[1]، فاختار لهم أبا عبيدة رضي الله عنه، ثم أرسله معهم إلىٰ نجران.

والسبب الثاني: قريب من هذا السبب، وهو الاعتقاد المسبق، واتخاذ الموقف قبل سماع الدليل، وهو قد يكون أخص من وجه، وأعم من وجه، وقد يكون هذا الموقف وراثة ورثها الإنسان من أبيه، وأهله ومجتمعه، أو دراسته، أو تعلمه، أو فهم خطأ من بعض النصوص، فهو قد اعتقد سلفًا قبل أن يسمع النصوص الشرعية، ولهذا لا يُغيِّر موقفه، بل يذهب إلىٰ كتاب الله، وإلىٰ سُنَّة رسول الله ﷺ، يبحث عما يؤيد معتقده، فكأنه جعل القرآن تابعًا له، وليس هو تابعًا لكلام الله، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]، أي: لا تسبقه باتخاذ الموقف، ولا باتخاذ قرار، اجعل قرارك تابعًا لقرار القرآن الكريم والسُّنَّة، واجعل موقفك تابعًا لموقف القرآن والسُّنَّة، ومن الخطأ والضلال أن يأتي الإنسان إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ولم يفرغ قلبه من جميع القرارات السابقة، ليتلقَّىٰ من كتاب الله الحُكْم في القضايا، والمواقف في الحداثة؛ لأن الإنسان إذا اتخذ موقفًا، ثم جاء إلىٰ كتاب الله يبحث له عن الدليل، صار كأنه هو الذي يُشرِّع لنفسه، فالنصارىٰ قد جعلوا الحُكْم مسبقًا في أن الله ثالث ثلاثة، أو أن عيسىٰ هو ابن الله، أو أنه روح الله، بمعنىٰ جزء من الله، ثم جاؤوا يبحثون في كتاب الله ما يقررون به مذهبهم، وهذا انحراف، وقد يقع في غير النصارىٰ.

السبب الثالث: هو قلة العلم بمعاني الألفاظ العربية، فإن اللغة العربية

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، برقم: (٤٣٨٠)، و مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، برقم: (٢٤٢٠)، (٤/ ١٨٨٢).

واسعة في استعمال الألفاظ، واللفظ له معنىٰ يختلف باختلاف السياق، وليس له معني واحد في كل سياق، بل قد يأتي في سياق لفظ بمعنىٰ، ويأتي في سياق آخر بمعنىٰ آخر، والاشتباه هنا في هذه الآية لفظة (مِن)، و(مِن) في لغة العرب تأتي لأكثر من خمسة عشر معنىٰ، فالذي يظن أن (مِن) تأتي فقط للتبعيض، أي للتجزئة، أي أن تدل علىٰ أن الشيء جزء من الكل، فقد أخطأ، **وسنذكر أربعة من المواضع التي جاءت لها مِن:**

الأول: ابتداء الغاية، وذلك في الحدث الذي له بداية، وله غاية، أو نهاية، فيقال: مِن كذا إلىٰ كذا، فـ(مِن) هنا تدل علىٰ ابتداء الشيء، كما قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، وليست تَبْعِيضية، بل لابتداء الغاية.

الثاني: تأتي للتبْعِيض، كما قال تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، أي: جزءًا مما تحبون، وبعضًا مما تحبون.

الثالث: تأتي للسببية، قال تعالىٰ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح:٢٥]، أي: بسبب خطيئاتهم أغرقوا.

الرابع: تأتي للبدلية، كما قال تعالىٰ: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة:٣٨]، أي: بدلًا عن الآخرة.

فـ(مِن) هنا جاءت لأكثر من معنىٰ، والذي لا يفهم معاني الألفاظ العربية، يُخطِئ، ويُسِيء الفهم، ولا نقول إن (مِن) تأتي في موضع حقيقةً، وفي موضع آخر مجازًا، بل كلها حقيقةً، واصطلاح حقيقة ومجاز من الاصطلاحات الحادثة، ومرادنا بالحقيقة أنها تدل علىٰ المعنىٰ الذي وردَت في السياق من أجله، ولكن الذين تعلموا اللغة تعلُّمًا سطحيًّا، ودَرَسُوها علىٰ حسب الشروح من المُدرِّسين الذين دَرَّسُوهم، أخطؤوا في طريقة تنزيل اللغة علىٰ المعاني،

فالذي دَرَسَ الضمائر إفرادًا وتثنيةً وجمعًا، يسبق إلي ذهنه أن ما يدل علي الجمع منها، لا يمكن أن يدل علىٰ المفرد، وهذا ما تعلموه، ولكن العرب تستخدم اللفظ بمعانٍ مختلفة، والسياق يدل علىٰ المعنىٰ المراد، ويقال: اللفظ يدل علىٰ الحقيقة، بمعنىٰ أنه يدل علىٰ المعنىٰ الذي وردَ السياق من أجله، فالسياق إذا وردَ من أجل معنىٰ معين، دلَّ عليه حقيقة، فلو قلت: رأيتُ أسدًا يخطُب، في موضع حقيقة؛ لأنك أردت معنىٰ، وأوْردت اللفظ في السياق من أجله، وهو إثبات شجاعة الخطيب، ولم تُورِدْ لفظ الأسد، وأنت تريد به الحيوان المفترس، فهذا هو المراد بالحقيقة، فاللغة العربية -علىٰ هذا- كلها حقائق، وليس فيها مجاز؛ لأن هذا المجاز مما أفسدوا به عقيدة المسلمين، وجعلوا أكثر لغة العرب مجازًا، كما ذكره ابن جني في الخصائص، فكل لفظ يتعلق بذات الله، أو أكثر ما يتعلق بذات الله، جعله مجازًا، فأفعال الله مجاز، وأسماء الله وصفاته مجاز، وهذا -نعوذ بالله- مما أضلُّوا به الناس عن عقيدة المسلمين، فالشاهد أن اللفظ يأتي لمعانٍ عدة، فلا ينبغي للإنسان أن يتعجَّل في فهم اللفظ، إلا إذا عرف موارد الاستعمال.

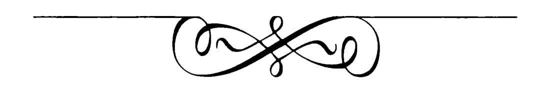
السبب الرابع: اختلاف الأساليب عند العرب، فللعرب أساليب في لغتها مختلفة: منها أن تُنزِل المصدر منزلة المفعول به، ومنها أن تُنزِل السبب منزلة المُسبِّب، ومنها الحذف والإيجاز والكناية، كل هذه من أساليب العرب، يقول الطبري رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٧١]، فسمَّاه الله عز وجل كلمته؛ لأنه كان عن كلمته، كما يُقال لما يُقدِّر الله من شيء: هذا قدر الله وقضاؤه، يعني به: عن قدر الله وقضائه حدث، كما قال -جلَّ ثناؤه-: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝٤٧﴾ [النساء:٤٧]، يعني به ما أمر الله به، فيقال: أمر الله ومأموره، وقدر الله ومقدوره، وخلق الله ومخلوقه، ويُقال: الناس خلق الله، ولكن الخلق فعلٌ لله عز وجل، وسُمِيَ الإنسان خلق الله؛ لأنه عن

خلق الله وفعله كان، وإلا فهو مفعول لفعل الله، وكما قال القرطبي ﵀: والعرب تُسمِّي الشيء باسم الشيء، إذا كان صادرًا عنه، كما تسمي الزرع أو النبات غَيْثًا، والغَيْث: هو المطر، ولكنه كان بسبب الغيث، وكلها حقيقة، ومرادنا بالحقيقة أن المتكلم أراد معنىٰ، فأوْرد اللفظ ليقرر المعنىٰ الذي يقصده، أما الاصطلاح الحادث (حقيقة ومجاز)، بمعنىٰ أن العرب تستخدم اللفظة لمعنىٰ معين اليوم، وغدًا نقلته إلىٰ معنىٰ ثانٍ، فمَن أخبركم أن العرب استعملت اللفظة اليوم في معنىٰ، وغدًا غيرت الاستعمال؟ ما هناك دليلٌ، ولم يَرِدْ له ذكرٌ عن العرب، ولا عن علماء اللغة، لا الخليل بن أحمد، ولا سيبويه، ولا الكسائي، ولا الزجاج، لم يذكروا هذا المعنىٰ، ولم ينقلوا أن العرب قالوا: وُضِعَ اللفظ اليوم لمعنىٰ، وغدًا نُقِلَ لمعنىٰ آخر، أو هذا ما وُضِعَ له اللفظ، ثم نُقِلَ إلىٰ معنىٰ ثانٍ، فالعرب تستخدم الألفاظ، وتريد بها دلالات علىٰ معانٍ معينة، والسياق يدل علي ذلك، أما أن نقول: إن العرب استخدمت اللفظ اليوم، وغدًا غيَّرته، فهذه قضية تاريخية، والتاريخ لا يُعرَف إلا بالنقل، والنقل لا يُصدَّق إلا عن طريق الثقات، وإلا فكيف نزعم أنه حدث ما لم يحدث؟ لأن هذا غيب، فما حدث في الجيل الماضي، نعرفه عن طريق النقل الصحيح الثابت، وقال علماء اللغة: إن من طرق معرفة الحقيقة والمجاز، النقل عن العرب، هذا ما ذكروه في كل كتبهم، ولم يوردوا كلمة واحدة عن عربي واحد، أنه أقرَّ هذا الاصطلاح.

وقال ابن تيمية ﵀: وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن، أن يُسمَّىٰ المفعول باسم المصدر، فيُسمَّىٰ المخلوق خَلْقًا، لقوله هذا خَلْق الله، ويقال درهم ضَرْب الأمير، أي مضروب الأمير، ولهذا يُسمَّىٰ المأمور به أَمْرًا، والمَقْدُور قدرة وقَدَرًا، والمعلوم عِلْمًا، والمرحوم به رحمةً، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب:٣٨] وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾

[النحل:١][(١)]، أَمْر: أي مأمور الله الذي أَمَرَ الله به، وقال النبي ﷺ: (**قال الله تبارك وتعالى للجنة، أنت رحمتي**)، -ورحمة الله صفته، ولكن هذه من أسباب الرحمة، التي يرحم الله بها عباده- (**أرحم بك مَن أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذِّب بك مَن أشاء من عبادي**)[(٢)]، فالجنة وسيلة للرحمة، التي هي صفة من صفات الله -عز وجل-، وكذلك النار، فهي فعل من أفعال الله، ليس المفعول هو صفة الله، بل هو أثر لصفة الله سبحانه وتعالى.

فقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾، ليس المراد بها أن عيسىٰ عليه السلام هو نفسه كلام الله، بل المراد أنه خُلِقَ بكلمة الله، فهذا أسلوب من أساليب العرب، ولكن لمَّا كان المتأخرون لم يَتَلَقُّوا اللغة إلا تعلُّمًا نظريًّا سطحيًّا، لا تذوُّقًا، ولا ممارسةً، فهموا أن المعاني محصورة، وإلا فإن العرب تستخدم هذا الأسلوب ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾، أي: كان عن كلمته، وكلمة الله هي (كُنْ)؛ لأن الله خلق آدم عليه السلام بقوله: (كُنْ)، وعيسىٰ عليه السلام خلقه بقوله: (كُنْ)، ولهذا قال -تعالىٰ- بعد أن ذكر قصة عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].



(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٤١١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله (وتقول هل من مزيد)، برقم: (٤٨٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، برقم: (٢٨٤٦)، (٤/ ٢١٨٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أبي بن كعب: عيسىٰ روح من الأرواح التي خلقهـا الله ﷻ، واسـتنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، بعثه الله إلىٰ مريم فـدخل فيهـا. رواه عبد بن حميد وعبدالله بـن أحمـد في زوائـد المسـند وابـن جريـر وابـن أبـي حـاتم وغيرهم.

الشَّرح

قوله: (**قال أبي بن كعب: عيسىٰ روح من الأرواح...**)، هـذا الأثـر عـن أُبي بن كعب، ذكر المحقق أن رجاله: (رجال الصحيح)، وليس الأمر كـذلك؛ لأن معناه عنـد المحدِّثين أن رجالـه رجـال البخـاري ومسـلم، أو رجـال أحـدهما، علي الهيئة التي ارتضياها في الرواية عن هؤلاء الرجال، وفي الحقيقـة أن الربيـع بن أنس -أحد رجال السند- لم يروِ لـه الشيخان، والحديث سنده لا بـأس بـه إلـي أُبي بـن كعـب؛ لأنـه موقـوف عليـه، وقضـايا الغَيْـب لا تُعـرَف عـن طريـق الاجتهاد، وأُبي بن كعب من خيرة الصحابة وقُرَّائهم رضي الله عنهم، وكـان يُسـمِّيه عمـر رضي الله عنه سيد المسلمين، فهو من أفضـلهم، ولكـن هـذا الأثـر -إن صـح عنـه- فهـو بين أمرين: إما أن يكـون قـد سـمعه مـن أهـل الكتـاب، أو يكـون قـد سـمعه مـن النبي ﷺ؛ لأن المسألة وردَت فيها أحاديث كثيرة.

والحديث فيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولىٰ: قضـية إخـراج أرواح بنـي آدم، وتقسـيمهم، هـل أخرجهـا الله ﷻ في الأَزَل؟ وردَت أحاديـث تشـير إلـىٰ أن الله أخـرج جميـع أرواح بنـي آدم، بعد أن خلق آدم عليه السلام، ثم قال: (هؤلاء للجنة، وهـؤلاء للنـار)، فقسَّـم أهـل

الجنة على حدة، وأهل النار على حدة، ثم أعادهم الله في ظهر آدم ﷺ، ويُسمَّى هذا عالم الذَّر، واليوم في العصر الحدي،ث عندما يقول الأطباء: الحيوان المنوي، أو الخلية الأولى، يعنون جميع البشر الذين خلقهم الله إلى اليوم، ولو صُبَّ ذلك في إناء صغير، لوسعهم؛ لأنهم يقولون: إن في الدفقة الواحدة من الرجل أكثر من مليونين ونصف حيوان منوي، و هذا لا يُرَى إلا بالمجهر المكبِّر تكبيرًا جدًّا؛ لأنه صغير، ولا يكاد يُرَى على هيئته الأصلية، فإخراج الله لذرية آدم من ظهره، ونَثْرهم بين يديه، ليس مُستبعدًا، وليس مستحيلًا على قدرة الله ﷻ، فإن الله قادر أن يخلق جميع الخلق في وقت واحد، فإخراج الأرواح، ونَثْرهم أمام آدم، وبيان أهل الجنة والنار، قضية مُتفَق عليها، وعليه جميع علماء السلف.

المسألة الثانية: قضية العهد والميثاق بالاستنطاق، أي سؤالهم: مَن ربهم؟ ولَمْ يقل من إلههم؛ لأن الألوهية سيأتي لها أنبياء، يخبرونهم أنهم لابد أن يعبدوا الله، ولكن الربوبية بمعنى مَن خلقهم، هذا هو مراد الآية مَن ربكم؟ فهل حدث ميثاق في الأزل؟ جاءت الآيات الكريمة في كتاب الله والأحاديث النبوية بعدة أساليب، تُبيِّن أنه كان هناك إخراج في الأزل، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، والله ﷻ أخرج الذرية، وأبان لها أنه ربها، وأنه خالقها، وجاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف:١١]، فالسياق هنا جاء بالترتيب، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، بضمير الجماعة، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، فجاء الأمر أولًا بذكر الخلق، فجميعنا على هذا، قد خُلِقْنا في وقت واحد، ثم صُوِّرْنا في الأزل،

ولكن في السجود قال: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، فالسجود كان لآدم، ونحن في ظهره، ولكن الخلق والتصوير في الآية بلفظ الترتيب هنا بـ(ثم)، فدلَّ على أن الله خلقنا وصورنا، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود، وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ﴾ [الأعراف:١٠٢]، والعهد هو عهد الميثاق، وهناك آيات كثيرة تدل بفحواها على هذا المعنى، وجاءت الأحاديث منها حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (**أخذ الله الميثاق من آدم من ظهره بنعمان**)، أي بعرفة، (**فأخرج كل ذرية ذرأها، ونثرهم بين يديه كالذَّر، ثم خاطبهم قُبُلًا**) أي: مواجهةً، ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢][1]، وهذا الحديث صحيح، رواه الإمام أحمد، وابن أبي عاصم، والحاكم، وقد وردَ بسندين موقوف ومرفوع، وكلاهما صحيح، وقد وردَ عن غير ابن عباس أحاديث، كحديث عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وهشام بن حكيم، وأنس رضي الله عنهم في الصحيح، وورد عن جماعة من الصحابة هذا المفهوم، وإن كان أكثرها لم يصح، ولكن كثير منها صح، وأصحها حديث أنس، وهو أنه قال: (**يقول الله تبارك وتعالى لِأَهْوَن أهل النار عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها -ما على الأرض من شيء- أكنتَ مُفتديًا بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردتُ منك أَهْوَن من هذا، وأنت في صُلْب آدم، أن لا تشرك بي شيئًا، ولا أدخلك النار، فأبيْتَ إلَّا الشرك**)[2]، رواه البخاري

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٤٥٥)، (٤/ ٢٦٧)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، سورة الأعراف، قوله تعالى: وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم، رقم (١١١٢٧)، والحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، برقم: (٤٠٥٨)، (٢/ ٦٤٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وسكت عليه الذهبي في التخليص.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، برقم: (٣٣٣٤)، وصحيح مسلم، كتاب الجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا، برقم: (٢٨٠٥)، (٤/ ٢١٦٠)، واللفظ لمسلم.

ومسلم، وهذا أصح حديث في المسألة، ولكن حديث ابن عباس وعمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وهشام ابن حكيم رضي الله عنهم نصَّ في المسألة، ولكن أكثرها لم يصح، أما حديث أنس فهو عند البخاري ومسلم، وكذلك حديث ابن عباس صحَّ موقوفًا ومرفوعًا، وهذا عليه جميع علماء السلف، كما قال ابن الأنباري عندما ذكره ابن القيم رحمه الله في كتاب (الروح): قال ابن الأنبارى: (مذهب أهل الحديث، وكبراء أهل العلم في هذه الآية، أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه، وأصلاب أولاده، وهم في صور الذَّر، فأخذ عليهم الميثاق، أنه خالقهم، وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك، وقبلوا)[1]، فهذا هو مذهب السلف، ثم خالَف جمهور المتكلِّمين، وقالوا: لم يكن هناك إخراج، وما أخرج الله شيئًا في الأزل، وإنما هذا تخييل وتمثيل، فالله يُخيِّل لنا، ويُمثِّل لنا فقط، -نستغفر الله-، وهذا نص الزمخشري، وهو من علماء المعتزلة، وقد تبعه جمهور المتكلِّمين من معتزلة وأشاعرة، قال الزمخشري: (من ظهورهم، بَدَلٌ من بني آدم، بَدَل البعض من الكل، ومعنى أخذ ذريتهم من ظهورهم، أي إخراجهم من أصلابهم نسلًا، وإشهادهم على أنفسهم، وقوله: (**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**)، من باب التمثيل والتخييل)، يعني ما كان هناك كلام أصلًا؛ لأن هذا من باب التمثيل والتخييل، (ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته، ووحدانيته، وشَهِدَت به عقولهم، وبصائرهم التي ركَّبها فيهم، وجعلها مميِّزة بين الضلال والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم، وقرَّرهم، وقال لهم: (**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**)، وكأنهم قالوا: بلى، أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا، أقررنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله -تعالى-، وكلام رسوله عليه السلام،

---

(١) الروح ص: ١٦٣.

وفي كلام العرب)[١]، هذا كلام الزمخشري، وهو إمام في الاعتزال، وقد تبعه جميع الأشاعرة، إلا أفرادًا منهم.

ففي مسألة الإخراج مذهبان: مذهب السلف، ومذهب الأشاعرة.

والغريب أن شيخ الإسلام، وافق المتكلِّمين في هذه المسألة، وتبعه تلميذه ابن القيم، وتلميذه ابن كثير رحمهم الله، حيث لم يقولوا بالإخراج، وقد قرَّر ابن تيمية أنه كان هناك إخراج، وقال: ثبتت الأحاديث في الإخراج، ولكن لم يكن هناك استنطاق، ولا سؤال، وإنما المراد بالآية الإخراج الحالي، الإخراج المتدرج، نسلًا بعد نسل، وقال: الآية لا تدل على ما جاء في الأحاديث، ثم قال: لم يصح في ذلك حديث، كذا قال ابن تيمية، ولكن لا ندري ما مراده بهذا الكلام؛ لأن حديث أنس في الصحيحين، وكذلك حديث ابن عباس صحيح، فابن تيمية وابن القيم وابن كثير رحمهم الله قد خالفوا مذهب السلف في هذه المسألة، وقد خرَّج ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله الآية على هذا المذهب الأخير، ولكن على غير طريقة المتكلمين، فالمتكلمون قالوا: هذا من باب التخييل والتمثيل، وابن تيمية رحمه الله قال: ليس من باب التخييل والتمثيل، وقال: هذا هو المعنى الصحيح في اللغة، فالله يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ولم يقل: من آدم، ثم قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: من ظهره، ثم قال في الإشهاد: إن الشهادة على قسمين: شهادة تحمُّل وأداء، شهادة إقرار، فهنا ليس المراد أنه تحمل وأداء، وإنما المراد به الإقرار، كما قال -تعالى- عن الكفار: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧]، قال:

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري (٢/ ١٧٦).

فسمَّىٰ فعلهم -الذي يخالِف اعتقادهم- لو فعلوه شهادةً عليهم، قال: فالشهادة معناها في اللغة أوسع من قضية التحمل والأداء، ثم استطرد رحمه الله في كتاب (درء التعارض)، في الجزء الثامن في قرابة المائتين صفحة[١]، ثم جاء ابن القيم، وقرر المسألة في بعض كُتُبه في (شفاء العليل)[٢]، وفي (الروح)، وفي(أحكام أهل الذمة)، ثم جاء ابن كثير، فقرَّر في تفسيره: (تفسير القرآن الكريم)[٣]، ما قرَّره ابن تيمية وابن القيم، وفي العصر الحاضر، نبَّه الشيخ الألباني رحمه الله على موقف ابن القيم وابن كثير، ولكنه لم يقف على كلام ابن تيمية؛ لأن كتاب الدرء طُبِعَ متأخرًا، ولا أدري لِمَا ذا لَمْ يُشِرْ إلىٰ كلام ابن تيمية، وأشار إلىٰ كلام ابن القيم وابن كثير فقط! مع أن ابن القيم نقل كلام ابن تيمية بحرفه، ولم يخرج عنه إلا قليلًا.

فالشاهد أن ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله خالفَا مذهب السلف، مع أنه ذكر عن ابن الأنباري قوله: (وهذا مذهب أهل الحديث، وكبراء أهل العلم)، وهذا الخلاف لا يدل علىٰ أن ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله من المتكلِّمين، أو أصحاب البدع، وإن كان الشيخ الألباني قَسَىٰ عليهما[٤]، وقال:(هذا أسلوب أهل البدع)، ولم يحسن، فإن الشيخين رحمهما الله لم يَرُدَّا الحديث، وإنما اجتهدا، والعالم قد يجتهد، ولا يصيب، فلا يخرجه عن كونه عالمـًا، وقد يتفق العالم السلفي مع العالم من المتكلِّمين في بعض الجزئيات، وقد يتفق المذهب السلفي ومذهب المتكلمين في بعض الجزئيات، ولا يجعلهما مذهبًا واحدًا،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٨٢).

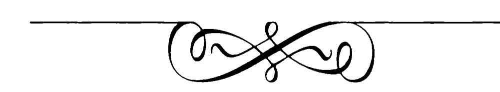
(٢) شفاء العليل ص: (٢٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٣).

(٤) انظر السلسلة الصحيحة (٢/ ٣٦٧).

فالاتفاق في بعض الجزئيات، لا يعني الاتفاق في المنهج، أو في العقيدة، فهذا اجتهاد منهما، قد يكون صوابًا، وقد يكون خطأً، والإنسان ليس معصومًا من الخطأ، بل كل منَّا مُعرَّض للخطأ، ولكن العلماء الكبار ﷺ أخطاؤهم معدودة مغمورة في بحار حسناتهم، بخلافنا؛ فإن أخطاءنا لا تُعَد، فلا ينبغي للإنسان إذا وجد مسألة خالَف فيها العالم بعض العلماء، أن يشنِّع عليه، ويجعلها سببًا لعداوته ومحاربته، بل يجعلها عِبْرة له، فأخطأ هذا العالم الجليل، الذي لعله لم يأتِ من القرن السابع إلىٰ اليوم عالم مثله، في حفظه للنصوص، واستنباطه، وتقعيده لمذهب السلف، وجمعه في موطن واحد، ورَدِّه علىٰ أصحاب البدع، وجدَّد الله به الدين، ومذهب السلف، ولا أظن أنه جاء عالم مثله في صفاء المُعتقَد، وحساسية الفَهم في اللغة، فإنه ﷺ لم يكن متخصصًا في فن من علوم الشريعة فحسب، وإنما كان إمامًا في علوم الشريعة كلها، بل واللغة، وكذلك عندما قابله أبا حيان، صاحب التفسير المحيط، الذي فسَّره علىٰ أسلوب أصحاب اللغة، وكان رائدًا في علم اللغة، أستاذًا فيها، وعندما دارت بينهما مسألة في كتاب سيبويه، قال ابن حيان: قال سيبويه كذا، علىٰ خلاف ما أراد شيخ الإسلام ابن تيمية، و قال ابن تيمية: أخطأ سيبويه، فغضب أبو حيان قائلًا: تقول: أخطأ سيبويه! فقال ابن تيمية ﷺ : لقد أخطأ سيبويه في كتابه في أكثر من مائة موضع، لا تعرفه أنت وأمثالك، وأبو حيان متخصص في اللغة، فهذا يدل علىٰ عمق علم شيخ الإسلام في اللغة، علىٰ جانب تَضَلُّعه في علم الشريعة، ولهذا خرَّج الآية القرآنية في هذه المسألة علىٰ المعنىٰ اللغوي، وشرحها علىٰ مذهب أهل اللغة، لبيان معانيها عند أصحاب اللغة، وأنها لا تدل علىٰ الإخراج الذي جاءت به الأحاديث، وأن الأحاديث لم تصح في هذه المسألة.

والمسألة الثالثة في الحديث: قوله: (**بعثه الله إلىٰ مريم، فدخل فيها**)، أي أراد أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -إن ثبت عنه هذا الأثر- أن الله أرسل الروح في صورة متجسمة، ثم دخل في مريم، هو روح عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، انكمش حتىٰ دخل في مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ من فَرْجها، وبَقِيَ في بطنها، إما خرج بعد ذلك بوقت قليل، وإما حملت به، كما تحمل النساء، وقلنا إن هذه من المسائل الغيبية، التي لا نستطيع أن نقبل فيها كلام أحد من الناس، إلا إذا جاء الكلام من المعصوم؛ لأن العلماء اختلفوا في المعنىٰ المراد قوله: (كلمته وروح منه)، كما سبق، فأما أن نحدد أنه روح الله، أو أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ تجسَّد في صورة إنسان، أو في صورة مَلَك، ثم جاء ودخل في فَرْجها، فهذا لا يُعرَف إلا عن طريق النقل الصحيح، وهذا لم يُثبَت عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.



قال المؤلف رحمه الله:

وقال أبو روق: (وروح منه) أي: نفخة منه، إذ هي من جبرائيل بأمره وسمي روحًا؛ لأنه حدث من نفخة جبرائيل عليه السلام.

وقال الامام أحمد: (وروح منه) يقول: من أمره كان الروح فيه كقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:١٣]، يقول: من أمره.

وقال شيخ الاسلام: المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه، ولا بغيره من المخلوقات، وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمًا به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب، وإن كان المضاف عينًا قائمة بنفسها كعيسى وجبرائيل عليهما السلام، وأرواح بني آدم، امتنع أن تكون صفة لله تعالى؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين:

أحدهما: أن تكون تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله وأرض الله، ومن هذا الباب فجميع المخلوقين عبيدالله، وجميع المال مال الله، وجميع البيوت والنوق لله.

الوجه الثاني: أن يُضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون في غيره، وكما يُقال عن مال الفيء والخمس: هو مال الله ورسوله، ومن هذا الوجه فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه. انتهى ملخصًا.

والمقصود منه: أن إضافة روح إلى الله هو من الوجه الثاني والله أعلم.

الشَّرح

قوله: (وقال أبو روق)، هو عالم كان في القرن الرابع، يُسمَّىٰ أحمد بن محمد الهزاني، فهو مِمَّن نُقِلَ عنه كلام في بعض التفاسير، والمُصنِّف استشهد هنا بكلامه رحمه الله.

قوله: (وقال الإمام أحمد)، هذا منقول عن الإمام أحمد رحمه الله، في كتابه (الرد على الجهمية والزنادقة)[1]، فذكر أن المراد بروح منه: أي من أَمْر الله عز وجل.

قوله: (وقال شيخ الإسلام: المُضاف إلىٰ الله -تعالىٰ-...)، هذا الكلام أوْرده ابن تيمية رحمه الله في (الجواب الصحيح)[2]، وهو كلام مُطَوَّل، تكلم فيه رحمه الله عن عيسىٰ عليه السلام، وفصَّل في بيان: (روح منه)، و(كلمته)، وردَّ علىٰ النصارىٰ؛ لأن هذا الكتاب أَلَّفه رحمه الله في الردِّ علىٰ النصارىٰ، وإن كان رحمه الله استطرد في مسائل ليست من مسائل النصارىٰ، وهذا منهجه؛ فإنه إذا كتب كتابًا، أو رسالةً، أو جوابًا علىٰ مسألة، فإنه يستطرد في ثنايا المسألة، حتىٰ لا يستطيع القارئ -الذي لا يعرف منهجه- أن يصل إلىٰ نتيجة؛ فيبدأ في المسألة، ثم يخرج منها إلىٰ مسألة أخرىٰ، وإلىٰ أخرىٰ، ولا يعود إلىٰ المسألة الأولىٰ إلا بعد كثير، ولهذا قد يعاني الإنسان في فهمه للمسألة من كتاب ابن تيمية مباشرةً، ففي كتابه (منهاج السُّنَّة)، في الردِّ علىٰ الشيعة، يُورِد المسألة، ويناقش فيها الفلاسفة، والمعتزلة، والأشاعرة، مع أن موضوع الكتاب أصالةً في الردِّ علىٰ الشيعة، وفي (الجواب الصحيح)، يستطرد مع الفلاسفة، ومع المنطقيين،

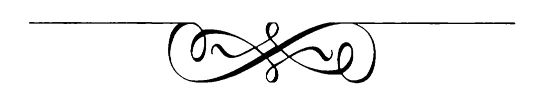
---

(١) الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص: ٣٢).

(٢) (١/ ٢٤٢).

ومع المتكلِّمين، ثم يرجع إلي الموضوع، فكُتُبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ موسوعة، وليست خاصة بموضوع معين.

قوله: (**والمقصود منه: أن إضافة روح...**)، وهذا تعليق من الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: إن المقصود من نقله لهذا النص، بيان أن الإضافة هنا من النوع الثاني، الذي هو إضافة التشريف والتكريم، وليست إضافة صفة من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (والجنة حق والنار حق) أي: وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله في كتابه أنه أعدها لمن آمن به وبرسوله حق، أي: ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التي أخبر الله في كتابه أنه أعدها للكافرين به وبرسله حق كذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]. وفيهما دليل علىٰ أن الجنة والنار مخلوقتان الآن خلافًا لأهل البدع الذين قالوا لا يخلقان إلا في يوم القيامة، وفيه دليل علىٰ المعاد وحشر الأجساد.



الشرح

قوله: (والجنة حق، والنار حق)، فيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولىٰ: الإيمان بأن الله ﷻ قد جعل هناك دارين: دارًا يُثِيب فيها الطائعين، ودارًا يُعاقِب فيها العاصين، وهاتان الداران لا نراهما إلا في الآخرة، وموقفنا الآن منهما الإيمان بهما، والذي يؤمن بأن هناك ثوابًا للطائعين، فإنه يحرص علىٰ الطاعة، والذي يؤمن بأن هناك عقابًا للعصاة، يجتنب المعصية، فإيمان الإنسان بهاتين الدارين، لابد أن يظهر علىٰ سلوكه، وعلىٰ عمله، وإلا فيكف يكون الإنسان مؤمنًا بأن هناك جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، من النعيم المـُقِيم، الذي لا يفنَىٰ، ولا يزول، ومَن دخلها، فإنه يسعد سعادةً لا تنقطع، ثم يكون في المقابل دارٌ أعدَّها الله للعُصاة، فيها أنواع العذاب من النار المحرقة، ومن

الماء الصديد، ومن السلاسل والأغلال، وعذابها لا ينقطع، إلا ما شاء ربُّك، ثم لا يظهر هذا الإيمان على سلوكه؟! فإن الإيمان هو عمل القلب، والجوارح محكومة بالقلب، فإذا كان القلب مُصدِّقًا لوجود هاتين الدارين، فإن ذلك يظهر على جوارح الإنسان؛ لأن معنى الإيمان: التصديق الجازم، والإنسان لو سمع بأن هناك نارًا في طرف المسجد، ورآها بعينه، ما جلس في المسجد، بل ينطلق هاربًا إلى الباب؛ خوفًا من النار؛ لأنه صدَّق بوجودها، فتحركت جوارحه؛ استجابةً لتصديق القلب، ولكن لو صدَّق بقلبه، ولم تتحرك جوارحه، فإنه يبقى حتى تأكله النار، وهذا مثل يُضرَب في القديم، يُسمَّى **تنابلة السلطان**، وهي فئة معينة كانت تعيش على موائد السلطان، ويأتيهم الطعام في الصباح، وفي الظهر، وفي الليل، وهم جالسون، لا يتحركون، وبلغ بهم الكسل إلى أنهم كانوا في البيت الذي كانوا فيه، واشتعلت النار، فصاح بعض الموجودين: النار اشتعلت في داركم، اهربوا إلى الباب الخلفي، في المحل الفلاني، قالوا: والله بعيد أن نهرب، والله ما نستطيع أن نتحرك، وبقوا حتى أكلتهم النار! فأصبحوا مثلًا، يُقال في كل إنسان يقع في مصيبة، أو في أمر يضره باختياره، أنه مثل تنابلة السلطان، فالإنسان العاقل لو رأى ضررًا، أو نارًا تشتعل في طرف بيت، أو طرف سوق، لا يبقى، بل يهرب؛ لأن تصديقه الصحيح الجازم بقلبه، يُحرِّك قدميه، وهكذا الإنسان المؤمن، إذا آمن بالجنة والنار، وكان إيمانه إيمانًا صحيحًا صادقًا، فإنه لابد أن يظهر ذلك على جوارحه، وآفة المسلمين اليوم أن تصديقهم بقضاء الآخرة، تصديق ضعيف، وإلا فلو صدقوا بأن هناك حشرًا، ونشرًا، ويومًا مقداره خمسون ألف سنة، يقفون فيه على أقدامهم، وأن الله يحاسبهم على أعمالهم، وأن الناس يفترقون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وتصوروه تصوُّرًا حقيقيًّا، لما وقعوا في محارم الله، ولما تركوا أوامر الله، ولكن التصديق تصديق ضعيف، لا

يُحرِّك صاحبه، فلابد أن يكون تصديقًا جازمًا حقيقيًّا، فمن شروط دخول الجنة، التصديق الجازم الذي يظهر أثره علىٰ سلوك الإنسان، وهذا الحديث جعل من شروط النجاة يوم القيامة، ودخول الجنة، من أي أبواب الجنة الثمانية، كيف يشاء الإنسان، أو مع ما كان من العمل، الإيمان بالجنة والنار.

والمسألة الثانية: أن يؤمن المسلم بأن الجنة والنار الآن موجودتان، خلافًا لمذهب أهل البدع، فالمعتزلة ينكرون أن تكون الجنة والنار موجودتين الآن، ويقولون: يخلقهما الله يوم القيامة، وهذا مخالفة للنصوص الشرعية، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]، فما جاء في القرآن الكريم من خبر قوم فرعون، والأحاديث النبوية، كل ذلك دالٌّ علىٰ وجودهما الآن، ولهذا قال البخاري رحمه الله في الجنة والنار: (باب ما جاء في صفة الجنة، وأنها مخلوقة)، ثم أوْرد حديث ابن عمر رضي الله عنهما: **(إذا مات أحدكم، فإنه يُعرَض عليه مقعده بالغداة والعشي، فإن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار)**(١)، فالإنسان منذ يموت، يُعرَض عليه مقعده أمامه يراه، سواء كان من أهل الجنة، أو من أهل النار، وكذلك حديث عمران بن الحصين رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: **(اطَّلعت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطَّلعت في النار، فرأيت أكثر أهلها النساء)**(٢)، فهذه الأحاديث تدل

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، برقم: (١٣٧٩)، وأخرجه مسلم أيضًا في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار، وإثبات عذاب القبر والتعوُّذ منه، برقم: (٢٨٦٦)، (٤/ ٢١٩٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم: (٣٢٤١)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء، برقم: (٢٧٣٧)، (٤/ ٢٠٩٦).

علىٰ وجود الجنة والنار الآن، ثم قال ﷺ : (باب صفة النار، وأنها مخلوقة)، وأوْرد كذلك أحاديث أخرىٰ علىٰ هذا النمط.

والمسألة الثالثة: أنهما لا تفنيان أبدًا، بل هما باقيتان بإبقاء الله لهما، فهذا مما يجب أن يعتقده المسلم، كما جاءت النصوص الشرعية في القرآن والسُّنَّة بذلك.

و لابن تيمية وابن القيم رحمهما الله كلام قَد يُفهَم منه أنهما يقولان بفناء النار، ولم يَرِد التصريح بذلك عندهما، وإنما هو فَحْوَىٰ كلامهما، وقالا: إن السياق عن أبدية الجنة والنار في القرآن الكريم يختلف في صيغة عَرْضه، وأن من حكمة الله عز وجل أن لا يُعذِّب إنسانًا عذابًا لا ينقطع، وهذه مسألة ليست من مسائل الاعتقاد، وإنما هي من المسائل التي ينبغي للمسلم فيها أن يتوقف مع النص الشرعي، ولا يخرج عنه؛ لأن ظاهر النصوص تدل علىٰ بقائهما، وعدم فنائهما، والله أعلم بحقيقة الأمر، إن أراد الله أن يفني النار، وأن يخرج أهلها، فهذا إليه عز وجل، وإن أراد أن يبقيها، فهذا من أمره سبحانه وتعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) هذه الجملة جواب الشرط وفي رواية (أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية).

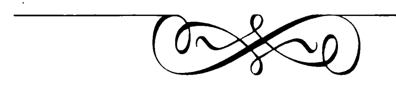
قال القاضي عياض: وما ورد في حديث عبادة يكون خصوصًا لمن قال ما ذكره ﷺ، وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه. فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته، ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة.

الشَّرح

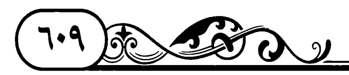
قوله ﷺ: **(أدخله الله الجنة، على ما كان من العمل)**، هذا تعليق على نهاية الحديث، فإن أوله: **(مَن شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له)**، ثم ذكر عدة أشياء، وفي آخر الحديث أنه إذا فعل هذه الأشياء، فإن جزاءه عند الله أن يدخله الجنة على ما كان من العمل، وهذا هو شاهد المؤلِّف، فإنه أوْرد هذا الحديث؛ ليستدل به على فضل التوحيد، وأن الموحِّد يدخل الجنة، ولو ارتكب من الأعمال ما يرتكب، فهذه أهمية هذا الحديث؛ لأن فيه بيان أن صاحب التوحيد يُغفَر له من الأعمال، ما لا يُغفَر لغيره، ولكن ظاهر الأحاديث التي تأتي تخالِف هذا، فهناك أحاديث تدل على أن كثيرًا من الموحِّدين يدخلون النار، والأحاديث الخمسة التي ساقها الشارح بعد حديث عبادة، تدل على أن الموحِّد يدخل الجنة، أو لا يدخل النار، فهذه مسألة واسعة، وسنحاول استعراضها؛ لأنها تحتاج إلى دراسة على ضوء متون الأحاديث، فإنه كما قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وإن المـُتَعيَّن على مَن يتكلم على الأحاديث، أن يَجْمَع طُرُقها، ومتونها، إذا صحَّ النقل، وكان مخرج الحديث واحدًا،

ويجمعها في موضوع واحد، ويشرحها علىٰ أنها حديث واحد، فإن الحديث أَوْلَىٰ مِمَّا فُسِّر به الحديث)[١].

فإذا أراد الإنسان أن يتكلم عن حديث اختلفت ألفاظه، فعليه أن يجمع طُرُق الأحاديث، وينظر فيها، فإن صحَّت الطرق، يرجع إلىٰ المتون، ويحاول أن يدرس الأحاديث علىٰ أنها جميعًا حديث واحد، ويستخرج منه المعنىٰ المراد، قوله: (**قال القاضي عياض: وما وردَ في حديث عبادة...**)، هذه من مسائل أحاديث الوعد بالجنة، وأحاديث الوعد بعدم دخول النار، وبينهما فرق، وسيأتي تفصيله -إن شاء الله-.



(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٤٧٥).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: (ولَهُمَا من حَدِيثِ عِتْبَانَ: فإنَّ اللهَ حَرَّمَ علىٰ النَّارِ مَنْ قالَ: لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله).

قوله: (ولهما) أي: للبخاري ومسلم في صحيحيهما، وهذا الحديث طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان كما قال المصنف.

(وعتبان) بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة، ابن مالك بن عمر بن العجلان الأنصاري من بني سالم بن عوض صحابي شهير مات في خلافة معاوية.



الشَّرْح

قوله: (ولهما من حديث عتبان...)، يحسُن أن نُورِد الحديث بكامله؛ لأن فيه دروسًا وتوجيهات جميلة لكل مسلم، ففي الحديث أن عتبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وهو مِمَّن شَهِدَ بدرًا- (أتىٰ نبي الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، قد أنكرت بصري، وأنا أصلي لقومي، فإذا كانت الأمطار، سال الوادي الذي بيني وبينهم، لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، ووددْتُ يا رسول الله أنك تأتيني، فتصلي في بيتي، فأتخذه مُصلَّىٰ، قال: فقال رسول الله ﷺ: سأفعل -إن شاء الله-، قال عتبان: فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر، حين ارتفع النهار، فاستأذن رسول الله ﷺ، فأذنْتُ له، فلم يجلس حتىٰ دخل البيت، ثم قال: أين تحب أن أصلي من بيتك؟ قال: فأشرت له إلىٰ ناحية من البيت، فقام رسول الله ﷺ، فكبَّر، فقمنا، فصففنا، فصلَّىٰ ركعتين، ثم سلَّم، قال: وحبسناه علىٰ خزيرة صنعناها له، قال: فثاب في البيت رجال من أهل الدار ذوو عدد، فاجتمعوا، فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخشن، فقال بعضهم: ذلك منافق، لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ:

لا تقل ذلك، ألَا تراه قد قال: لا إله إلا الله، يريد بذلك وجه الله؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: فإنَّا نرىٰ وجهه، ونصيحته إلىٰ المنافقين، قال رسول الله ﷺ: فإن الله قد حرَّم علىٰ النار مَن قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)(١).

وهذا الأسلوب النبوي الكريم منه ﷺ، فالنفاق قضية باطنية، لا تُعرَف إلا بخبر صادق من الله، أو من رسوله ﷺ، وقد تكون هناك علامات في الظاهر، ولكن ليست شرطًا، فالإنسان قد يضعُف إيمانه، فهذا الصحابي يقول: لا نرىٰ وجهه ومحبته وجلوسه إلا مع المنافقين، ولو كان يحب الرسول، لجاء إليه عندما سمع أنه سيأتي إلىٰ الحي، فالرسول ردَّ عليه ﷺ، وهكذا كل مسلم، فإذا تكلم أحد في عِرْض أخيه، وَجَبَ علىٰ السامع أن يردَّ عن عِرْض أخيه، ولو كان فيه ضعف إيمان، أو فِسْق، أو معصية، فحُرمة المسلم لا تنقطع، ما دام مسلمًا، ولهذا قال الرسول ﷺ: (**فإن الله قد حرَّم علىٰ النار مَن قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**)(٢).

فيجب علينا أن نتَّقي الله في حق كل مسلم قال لا إله إلا الله وعِرْضه، فإن من حق المسلم علىٰ أخيه، أن لا ينتهك عِرْضه في حضرته، وفي غيبته، فإنه من دافَع عن عِرْض أخيه المسلم، يؤجره أجرًا عظيمًا يوم القيامة، فهذا الحديث فيه معانٍ كثيرة، وأهمها عدم التسرُّع في إصدار الأحكام علىٰ الشخص، إذا ظهر منه خطأ، أو ضعف إيمان، وسبق ذكر قصة حاطب بن أبي بلتعة، الذي أرسل خطابًا إلىٰ قريش، يخبرها بعَزْم رسول الله ﷺ علىٰ حربها، وهذه خيانة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، برقم (٤٢٥). ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، برقم: (٦٥٧)، (١/ ٤٥٤).

(٢) سبق تخريجه.

عظيمة، تُوجِب الحكم على فاعلها بالعقاب والتعذيب، ولكن هذا الرجل لم يفعل ذلك خيانةً ولا نفاقًا، ولكنه ضعف إيمان، وكلنا تمرُّ بنا هذه الحالات في اليوم مرات كثيرة، فما بالنا لا نعتذر لأخينا إذا أخطأ؟ وما بالنا لا نتحمَّل من أخينا بعض الأخطاء؟ فما منَّا إلا وله خطأ، ولا نريد أن يحاسبنا الله على أخطائنا، فلا نحاسب الناس على أخطائهم، بل نعاملهم بما نحب أن يعاملونا به، ولما جاء الأقرع بن حابس إلي النبي ﷺ، فرآه يُقبِّل الحسن والحسين، قال: يا رسول أتُقبِّلون أبناءكم؟ قال: (نعم)، قال: والله يا رسول الله إن لي عشرة من الولد، ما قبَّلْتُ واحدًا منهم، فقال ﷺ: (مَن لا يَرْحَم، لا يُرحَم)[١]. كما تحب أن تُرحَم، وأن تُستَر، وأن يُعفَىٰ عنك، وأن تُقَال عثراتك، فكذلك كُنْ، (مَن ستر مسلمًا، ستره الله)[٢]، (مَن قضَىٰ حاجة مسلم، قضَىٰ الله حاجته)[٣]، وإذا تتبَّع المرء عورات الناس، وأخطاءهم، وظنَّ أنه كامل، وأنه ليس له أخطاء، فإن الله يوم القيامة سيعاقبه على هذا العمل، فالمسلم إذا اُنتهَك عِرْض أخيه في مجلس، فعليه أن يحمي عِرْضه، وأن يتَّقي الله فيه، وهذا هو منهج الإسلام، كما رأيناه من النبي ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم، ولا يسلمه، برقم: (٢٤٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، برقم: (٢٥٨٠)، (٤/ ١٩٩٦).

(٣) أخرج البخاري ومسلم بمعناه، ففي البخاري: "ومَن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كربة، فرَّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة"، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم، ولا يسلمه، برقم: (٢٤٤٢)، وقريب منه في مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، برقم: (٢٥٨٠)، (٤/ ١٩٩٦)، ولم أجده بهذا اللفظ الذي ذكره الشيخ، ولعله نقل بالمعنىٰ.

وقد أوْرد الشارح ﷺ بعد هذا الحديث أربعة أحاديث، على نوعين:

نوع فيه وعد بدخول الجنة، ونوع فيه وعد بعدم دخول النار، فهي متعارضة في الظاهر، ويحتاج طالب العلم إلى أن يوفِّق بينها، والأحاديث تتعارض لأسباب عدة:

السبب الأول: عدم صحة الحديث، فإذا لم يصح الحديث، فإنه حتمًا لا يقبله العقل، وقد يُخالِف نصًّا آخر، كحديث: (**إن أول ما خلق الله العقل، ثم قال له: أقبِل، ثم أقبل، ثم قال له: أدبِر...**)[1] إلى آخر الحديث، وهذا حديث باطل، سنده موضوع، أي مكذوب، وهذا النوع لا يصح أن يعارض أحاديث مقبولة.

السبب الثاني: عدم سلامة العقل، فالعقل البشري يتأثَّر ببيئته، وبتربيته، وبما عاش عليه من المناهج، ولهذا نرى من يَرُدُّ بعض الأحاديث؛ لأنه تعوَّد على فهم معين، وعلى نمط معين، وعلى عقيدة معينة، فقد تأثَّر عقله، والإسلام كما يقول العلماء: مثل الماء، والماء لا لون له، ولكن إذا تأثَّر بعقل البشر، تلوَّن بلون عقله، ولهذا لكل أصحاب مذهب في الفقه الإسلامي قواعد خاصة، على ضوئها يفهمون النصوص الشرعية، ولهذا يختلفون؛ لأن قواعدها الخاصة تُخالِف قواعد المذهب الثاني، فلوَّنوا مناهج الفهم بحسب تفكيرهم، فتأثَّر أتباع كل مذهب بقواعد مذهبه وتفكيره، مثال ذلك: لو كانت

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بلفظ: "**لما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له :أدبر فأدبر، قال: وعزتي ما خلقت أعجب إلي منك، بك أعطي وبك الثواب وعليك العقاب**"، برقم (٨٠٨٦)، (٨/ ٣٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في تعديد نعم الله وشكرها، فصل في فضل العقل الذي هو من النعم العظام التي كرم بها عباده، برقم: (٤٦٣٤)، (٤/ ١٥٤).

هناك مجموعات من الناس، وكل مجموعة تعيش في مكان خاص بها، فجماعة تلبس الثوب الأحمر، وجماعة تلبس الثوب الأصفر، وجماعة تلبس الثوب الأخضر، وكل منهم لا يرىٰ الآخر، فمَن كان يلبس الثوب الأحمر، لو رأىٰ إنسانًا يلبس الثوب الأصفر، لأنكره، واستغرب منه، وكذلك أصحاب الثوب الأصفر... وهكذا أصحاب المذاهب، فلو عاش إنسان في مجتمع شافعي مثلًا، ثم رأىٰ أشياء تخالِف ما تعوَّده، لأنكر ذلك، ولم يقبله، فتأثُّر الإنسان بمنهج معين، أو بمذهب معين، يجعله قد يَرُدُّ بعض الأحاديث التي لا تتفق مع مذهبه ومنهجه، وإن كان صاحب بدعة، فبدعته تغلُب عليه، وإن كان صاحب ضلال، فضلاله يغلُب عليه، وإن كان صاحب جهل، فجهله يغلُب عليه، فعدم سلامة العقل، يؤثِّر في فهم الأحاديث، ولهذا كتب ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول)، أي موافقة الحديث الصحيح للعقل السليم، فإذا كان الحديث غير صحيح، فالعقل السليم يرُدُّه، وإذا كان الحديث صحيحًا، ولكن العقل غير سليم، فإنه يردُّه؛ لأن العقل فيه آفة، وهذا الكتاب مطبوع بعنوان (درء تعارض المنقول والمعقول)، وهذا العنوان ليس سليمًا؛ لأنه يقر التعارض، ونحن ننفي التعارض، فلا يوجد تعارض أصلًا، والصحيح هو العنوان السابق (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول).

والسبب الثالث: صحة الحديث سندًا، ونكارته متنًا، مثال ذلك: حديث في مسلم، وهذا الحديث جاء مخالِفًا للقرآن، مع أنه في مسلم، وهو حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أخذ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيدي، فقال: (**خلق الله عَزَّ وَجَلَّ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخَلْق، في آخر ساعة من**

ساعات الجمعة)[١]، وهذا الحديث أنكره البخاري والعلماء، وقالوا: هذا الحديث لا يصح رفعه، فصح سنده، ولكن لم يصح متنه، فليس كل حديث صحَّ سنده، نُسارِع إلىٰ قبوله، فلابد من دراسته ومقارنته بما هو أصح منه، أو بالأصول الثابتة من كتاب الله، وسُنَّة رسول الله ﷺ.

وقد يصح السند والمتن، ولكن تختلف الألفاظ، كحديث السجود، فهل يهوَىٰ المصلي للسجود معتمدًا علىٰ يديه، ثم ركبتيه، أو يبدأ بركبتيه قبل يديه؟ فجاء عن النبي ﷺ، أنه قال -كما في حديث أبي هريرة-: (إذا سجد أحدكم، فلا يَبْرُكْ كما يَبْرُكُ البعير، وليضع يديه قبل ركبتيه)[٢]، وفي حديث وائل بن حجر رضي الله عنه، قال: (رأيت النبي ﷺ إذا سجد، وضع ركبتيه قبل يديه)[٣]، أخرجه الأربعة، كذا قال ابن حجر رحمه الله في بلوغ المرام، وفي حديث آخر أنه: (كان يضع

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة والنار، باب ابتداء الخلق وخلق آدم، برقم: (٢٧٨٩)، (٤/ ٢١٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود في سُننه، كتاب الصلاة، باب كيف يضع ركبتيه قبل يديه، برقم: (٨٤٠)، والنسائي في سُننه، كتاب الصلاة، باب أول ما يصل إلىٰ الأرض من الإنسان في سجوده، برقم: (١٠٩١)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٨٩٥٥)، (١٤/ ٥١٦)، والبيهقي في السُّنن الكبرىٰ، كتاب الصلاة، باب من قال يضع يديه قبل ركبتيه، برقم: (٢٦٣٣)، (٢/ ١٤٣)، واللفظ لأبي داود والبيهقي، وصحَّحه الألباني في تعليقه علىٰ سُنن أبي داود ص١٤٨.

(٣) سُنن أبي داود، الباب السابق، برقم: (٨٤٠)، وسُنن النسائي، الباب السابق، برقم: (١٠٨٩)، وسُنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلوات والسُّنة فيها، باب السجود، برقم: (٨٨٢). وسُنن الترمذي، كتاب مواقيت الصلاة، باب ما جاء في وضع الركبتين قبل اليدين في السجود، برقم: (٢٦٨)، وسُنن الدارقطني، كتاب الصلاة، باب ما جاء في صفة الركوع والسجود، برقم: (١٣٠٧)، وقال (٢/ ١٥٠): "تفرَّد به يزيد بن هارون عن شريك، وشريك ليس بالقوي فيما ينفرِد به"، ورواه أيضًا الطبراني في المعجم الكبير، وابن حبان في صحيحه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والدارمي في سُننه، وابن خزيمة في صحيحه، وضعَّفه الألباني في تعليقه علىٰ السُّنن.

يديه قبل ركبتيه)[١]، فالحديث الأول يخالِف الحديث الثاني، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ درس الحديث الأول، وقال: آخره ينقض أوله؛ لأن أول الحديث **(إذا سجد أحدكم فلا يبرُك كما يبرُك البعير)**، البعير إذا أراد أن يبرُك، فإنه يبرُك على يديه، ثم على رجليه، حتى يستوي، فهو نَهَىٰ عن بروك البعير، ثم أمر بصورة تُشابه بروك البعير، فقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الراوي لعله قد انقلب عليه الحديث، هذا موقف ابن القيم من تخريج الحديث[٢]، وهو يرى أن الحديث: هكذا (وليضع ركبتيه قبل يديه)، وهذا الحديث تعارضت في توجيهه الآراء، وتباينت بين العلماء، من عهد العلماء القدماء إلى اليوم، فالمقبلي رَحِمَهُ اللَّهُ وجَّه الحديث بأن الرسول ﷺ أراد عدم المبالغة في طريقة السجود، ولكن الشوكاني أنكر عليه إنكارًا شديدًا، وقال: هذا يُعطِّل الأحاديث من معناها، فيَرَىٰ أن الحديث مُنقلِب على راويه، والشيخ الألباني في العصر الحاضر أيَّد رأي المقبلي، وقال: إن الحديث صحيح، ولكن المنهي عنه هو عدم المبالغة في النزول على اليدين، وسُئِلَ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن حكم النزول، أو السجود على اليدين، أو الركبتين، -والعلماء إذا استفتوا في قضايا مثل هذه، يجب أن تكون فتاواهم فتاوَىٰ توجيه، وليست فقط فتاوَىٰ أحكام-، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (كلاهما جائز باتفاق العلماء)، حتى لا تقع خصومة بين الناس، (وإنما الخلاف في الأفضل، وذهب الأحناف والشافعية ورواية عن أحمد أن السُّنَّة هو النزول على الركبتين،

---

(١) أخرجه الدارقطني في سُننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في صفة الركوع والسجود، برقم: (١٣٠٣)، (٢/ ١٤٨)، والحاكم في المستدرك، كتاب الصلاة، برقم: (٨٢٤)، (١/ ٣٣٦ - ٣٣٧)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي في السُّنن الكبرىٰ، كتاب الصلاة، باب مَن قال يضع يديه قبل ركبتيه، برقم: (٢٦٣٨)، (٢/ ١٤٤).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٢١٥).

وخالَف المالكية، فقالوا: النزول على اليدين، وهو رواية عن أحمد)، فهو ﷺ لم يختر واحدة من هاتين الصورتين، حيث قال: (كلاهما جائز، وإنما الخلاف في الأفضل).

ومما انقلب على الراوي، حديث بلال في السحور، (إن بلالًا يؤذِّن بليل، فكلوا واشربوا، حتى يؤذِّن ابن أم مكتوم)[1]، وجاءت رواية صحيحة: (إن ابن أم مكتوم يؤذِّن بليل، فكلوا واشربوا، حتى يؤذِّن بلال)[2]، قال العلماء: هذا مما انقلب على الراوي، وكذا مما انقلب على الراوي حديث في الجنة والنار، وفيه: (أن النار لا تزال يُلقَى فيها حتى يضع الجبَّار فيها قدمه، فتُزوَى)[3] ثم قال: (وأما الجنة فيُنشِئ لها خلقًا، يُسكِنهم إياها)[4]، الراوي انقلب عليه هذا الحديث، فقال: (فأما النار فيُنشِئ لها خلقًا، يُسكِنهم إياها)[5]، قال العلماء:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الأذان قبل الفجر، برقم: (٦٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر...، برقم: (١٠٩٢)، (٢/ ٧٦٨).

(٢) أخرجه البيهقي في السُّنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب القدر الذي كان بين أذان بلال وابن أم مكتوم، برقم: (١٧٩٢)، (١/ ٥٦٢)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٢٠٥٠١)، (٢٤/ ١٩١)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصوم، باب السحور، برقم: (٣٤٧٣)، (٨/ ٢٥١)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، برقم: (٤٠٦)، (١/ ٢١٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: **"فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول قط قط، فهنالك تمتلئ، ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله ﷻ من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله ﷻ ينشئ لها خلقًا"**، كتاب التفسير، سورة ق، باب قول الله -تعالى-: "وهل من مزيد"، برقم: (٤٨٥٠)، وكذا أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، برقم: (٢٨٤٦)، (٤/ ٢١٨٦).

(٤) الحديث السابق.

(٥) انظر توجيه النظر إلى أصول الأثر (١/ ٣٢٨).

هذا مما انقلب على الرواة، والشاهد أن الأحاديث التي ظاهرها التعارض، لابد لطالب العلم فيها من وقفة وبحث؛ إذ ليس كل ما في الصحاح يكون مقبولًا، إلا إذا لم يُخالِف ما هو أصح منه، أو أكثر قبولًا منه.

ومما وقع فيه التعارض حديث مسلم: (بيت فيه تمر، لا يجوع أهله)، وروى مسلم بعد هذه الرواية، (بيت ليس فيه تمر، أهله جياع)[١]، والحديث الثاني يردُّه الواقع، كم من بيت ليس فيه تمر، وأهله ليسوا جائعين! ومن منهج مسلم رحمه الله أن يُورِد الحديث الصحيح أولًا، ثم يتبعه بالمتابعة والشاهد، وأراد أن يُبيِّن أن للحديث أصلًا، ما أراد أن يُبيِّن أنه صحيح.

فالأحاديث قد يُعارِض بعضها بعضًا، كما في هذا الباب في الشهادتين، فيأتي دور الباحث وطالب العلم، في جمع الروايات في الباب.

وسنذكر الروايات في هذا الباب، فإنه قد وردَت سبع روايات، عن سبعة من الصحابة، وهذه الروايات السبع اختلفت، فستٌّ منها فيها الوعد بدخول الجنة، والبقية بعدم دخول النار، وهذا لابد فيه من توجيه؛ لأن الموحِّد قد يدخل النار بمعاصيه، كما في حديث الشفاعة، إن أُناسًا من الموحِّدين يدخلون النار، ثم يخرجون منها بتوحيدهم، فبعض الأحاديث تدل على أن الموحِّد لا يدخل النار، ولو ارتكب كل المعاصي، كما دلَّت عليه رواية أنه «يحرَّم على النار»، ولكن الوعد بدخول الجنة، لا يمنع من دخول النار ابتداءً، ونذكر الآن سياق بعض هذه الأحاديث المـُتَضمَّنة لأسباب ورودها: فإن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، الذي في غزوة تبوك، قال فيه: (لمَّا كان غزوة تبوك، أصاب الناس

---

(١) روى مسلم الرواية الأولى بلفظ: "لا يجوع أهل بيت عندهم التمر"، والثانية بلفظ: "بيت لا تمر فيه جياع أهله"، كتاب الأشربة، باب في ادخار التمر ونحوه من الأقوات للعيال، برقم: (٢٠٤٦)، (٣/ ١٦١٨).

مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وأَدْهنَّا؟) -أي اتخذنا دَهْنًا من شحومها-، (فقال رسول الله ﷺ: افعلوا، قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله إن فعلت، قلَّ الظَّهر، ولكن ادعُهم بفضل أزوادهم) -أي بما بقَىٰ من طعامهم-، (ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك بركة، فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال: فدعا بنَطْع، فبَسَطَه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة، حتىٰ اجتمع علىٰ النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال خذوا في أوعيتكم، قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتىٰ ما تركوا في المعسكر وعاءً إلا ملؤوه، قال: فأكلوا حتىٰ شبعوا، وفَضَلَت فَضْلَة، فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقَىٰ الله بهما عبد غير شاكٍّ فيها، فيُحجَب عن الجنة)(١).

هذا حديث عجيب، وفيه فوائد، وإشارات جميلة:

الأولىٰ: أنه ﷺ لم يبادر هو بالدعاء بالبركة؛ لأنه لا يحب أن يُكثِر من الدعاء في أمور الدنيا؛ لأن الطعام من أمور الدنيا، فلم يدعُ له، ومع علمه بأنه لو دعا، فإن الله يبارك له في دعائه.

الثانية: أن الإشارة بما فيه مصلحة من بعض عقلاء القوم أمر مطلوب، فإن الأمة لا تسير إلا باتحاد أفكار عقلائها، وعمر رضي الله عنه كان من رؤساء الصحابة، وكان كثيرًا ما يُشير علىٰ الرسول ﷺ في بعض المواقف، فيقبل مشورته، لعلمه بإخلاصه، وإيمانه، وشهادته له بأنه لا يشاركه الشيطان في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن مَن مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم: (٢٧)، (١/ ٢٥)، وأخرجه البخاري مختصرًا، كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو...، برقم: (٢٩٨٢).

رأيه، فإنه عليه السلام قال فيه: (يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا قط، إلا سَلَك فجًّا غير فجِّك)(١).

فكان عمر رضي الله عنه مُلهَمًا، كما جاء في الحديث: (إن كان في أُمَّتي محدِّثون، فعمر منهم)(٢)، فعمر رضي الله عنه كانت كل آرائه صائبة، فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم مشورته، ولم يرَ ذلك تنقُّصًا، وهو سيد البشر، وهو المصطفىٰ المختار، وكان يعرف الحق، ويعرف الفضل لأهله، فعرف أن هذا الرأي رأي صحيح، فقبَلَه عليه الصلاة والسلام.

الثالثة: بيان فضل عمر رضي الله عنه، فإنه يقول بين يديه صلى الله عليه وسلم، ويُبدِي الرأي بين يديه، وهذا يدل علىٰ فضله رضي الله عنه، وقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم.

الرابعة: الحال الضَّنْك الذي كان يعيش فيه الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم لم يتمتعوا بالنعيم، بل كانوا في ضَنْك شديد، ولم يمنعهم هذا الضنك من الجهاد في سبيل الله، فرغم قلة الطعام، وقلة الزاد، وقلة الظَّهر، إلا أنهم كانوا مجاهدين في سبيل الله، وكانت تجوع بطونهم، وتعرَىٰ أجسادهم، ولكنهم ما كانوا يهتمُّون بتلك الأمور الدنيوية؛ لأن همهم هي الآخرة، وإرضاء الله عز وجل، وهم لم يقولوا كما قال قوم صالح: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمۡ عِندَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب، برقم: (٣٦٨٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر، برقم: (٢٣٩٦)، (٤/ ١٨٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: "إنه قد كان فيما مضَىٰ قبلكم من الأمم محدَّثون، وإنه إن كان في أُمَّتي هذه منهم، فإنه عمر بن الخطاب"، كتاب أحاديث الأنبياء، باب، برقم: (٣٤٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر، برقم: (٢٣٩٨)، (٤/ ١٨٦٤).

ﭐللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمـل:٤٧]، أي أن الصـحابة جـاءهم قحـط وجـوع وضنك، وما قـالوا: والله هـذا بسـبب هـذه الـدعوة، أو بسـبب الـدين، أو بسـبب رسـول الله، كمـا يقولـه كثير مـن الفُسَّـاق، إذا رأوا بعـض الصـالحين في بعـض الأماكن، ونزل قَحْط أو جَدْب أو مشكلة، قالوا: هذا بسبب المـُتدَيِّنين، أو كمـا يُسَمُّون! وهذا فسق في القلوب، والصحابة كـانوا أعلىٰ مـن هـذا، فإن الضـنك أصـابهم بعـد الإسـلام، وكـان الأَوْس والخـزرج في المدينـة أصـحاب نخـل، وأصحاب مزارع، ولكن بعد أن تركوها، وتفرَّغوا للدعوة إلىٰ الله، والجهـاد في سبيل الله، أُصيبوا بهـذا الضـنك، ولـم يقولـوا: إن سـببه الـدين؛ لعلمهـم أن هـذا ابتلاء من الله ﷻ.

الخامسة: حرص النبي ﷺ علىٰ ربط المسلم بربه وبعقيدته، وهـذه البركـة من الله ﷻ علامة الرسالة، وعلامة النبوة، فهذه من فوائد هذا الحديث.

وحديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: (خرجـتُ ليلـة مـن الليـالي، فـإذا رسـول الله ﷺ يمشي وحده، ليس معه إنسان، قال: فظننتُ أنه يكـره أن يمشـي معـه أحـد، قـال: فجعلتُ أمشي في ظـل القمـر، فالتفـتَ، فـرآني، فقـال: مَـن هـذا؟ فقلـتُ: أبـو ذر، جعلنـي الله فـداءك، قـال: يـا أبـا ذر تعـالَ، قـال: فمشـيتُ معـه سـاعةً، فقـال: إن المـُكثِرين هـم المـُقِلُّون يـوم القيامـة، إلا مَـن أعطـاه الله خيـرًا، فـأنفق فيـه يمينـه، وشماله، وبين يديه، ووراءه، وعمل فيه خيرًا، قال: فمشيتُ معه ساعةً، فقال لـي: اجلس ههنا، قال: فأجلسني في قاع حوله حجارة، فقـال لـي: اجلـس ههنـا، حتـىٰ أرجع إليك، قال: فانطلق في الحَرَّة، فلبثَ عني، فأطال اللُّبْث، ثم إني سمعتُه وهو مُقبِل، وهو يقول: وإن سرقَ وإن زنَىٰ، قال: فلمَّـا جـاء لـم أصبر، فقلـتُ: يـا نبـي الله، جعلني الله فداءك، مَن تُكلِّم في جانب الحَـرَّة، مـا سـمعت أحـدًا يُرجـع إليـك شيئًا؟ قال: ذاك جبريل عليه السلام، عَرَضَ لي في جانب الحَرَّة، فقال: بشِّر أُمَّتك أنه مَـن

مات لا يُشرِك بالله شيئًا، دخل الجنة، فقلتُ يا جبريل: وإن سرقَ وإن زنَىٰ؟ قال: نع،. قال: قلتُ وإن سرقَ وإن زنَىٰ؟ قال: نعم، قال: قلتُ وإن سرقَ وإن زنَىٰ؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر)(١). فالحديث فيه بُشارة بدخول الجنة، وإن سرقَ وإن زنَىٰ، ولكن ليس فيه عدم دخول النار.

أما الأحاديث التي جاءت في هذا الباب، فسنعرضها علىٰ المنهج الآتي:

الإشارة إلىٰ جملة الأحاديث ورواتها، فالأحاديث سبعة، ورواها سبعة من الصحابة: عثمان بن عفان، وأبو ذَر، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله، وعبادة بن الصامت، ومعاذ بن جبل، وعتبان بن مالك -رضي الله عنهم-، وكلها في الصحاح، ولم نأتِ بأحاديث من خارج الصحاح؛ لأن المعنىٰ التي جاءت به في الصحيحين، هو الذي في الكتب الأخرىٰ، مع وجود ضعف في بعض أسانيدها في غير الصحيحين.

وهذه الأحاديث اشتملت علىٰ شيئين:

◊ الأول: الوعد بالجنة.

◊ الثاني: الوعد بعدم دخول النار، لِمَن قال: لا إله إلا الله.

ودراسة الأحاديث يجب أن تكون علىٰ المنهج الذي قاله العلماء، كما قال ابن حجر رحمه الله: (وإن المتُعيَّن علىٰ مَن يتكلم علىٰ الأحاديث، أن يجمع طُرُقها، ومتونها، إذا صحَّ النقل، وكان مخرج الحديث واحدًا، ويجمعها في موضوع واحد، ويشرحها علىٰ أنها حديث واحد، فإن الحديث أولىٰ مما فُسِّر

(١) أخرجه البخاري في مواضع، منها: كتاب الرقاق، باب المكثرون هم المقلون، برقم: (٦٤٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، برقم: (٩٤)، (١/ ٩٤).

به الحديث)[١] فالإنسان إذا أراد أن يتكلم علىٰ حديث، وقد اختلفت ألفاظه، يجمع الأحاديث في موطن واحد، ثم يُجرِي بينها المقارنة، ثم يختار منها ما يرىٰ أنه هو الصحيح الوارد عن رسول الله ﷺ.

و الأحاديث التي وردَ فيها الوعد بالجنة، جاءت عن ستة من الصحابة:

الحديث الأول: حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال ﷺ: (مَن مات، وهو يعلم أن لا إله إلا الله، دخل الجنة)[٢].

الحديث الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه، يرفعه: (قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقَىٰ الله بهما عبد غير شاكٍّ فيها، إلا دخل الجنة)[٣]، وفي رواية: (لا يُحجَب عن الجنة)، وفي حديث آخر: (قال: اذهب بنعلي هاتين، فمَن لقيتَ من وراء هذا الحائط، يشهد أن لا إله إلا الله، مُستَيْقِنًا بها قلبه، فبشِّره بالجنة)[٤].

الحديث الثالث: عن أبي ذر رضي الله عنه، قال يرفعه: (أتاني آتٍ من ربي، فأخبرني -أو قال: بشَّرني- أنه مَن مات من أُمَّتي لا يشرك بالله شيئًا، دخل الجنة)، وهو الحديث الماضي الذي قال: (قلتُ: وإن زنَىٰ وإن سرقَ؟ قال: وإن زنَىٰ وإن سرقَ)، وفي لفظ: (ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات علىٰ ذلك، إلا دخل الجنة، قلت: وإن زنَىٰ وإن سرَق؟ قال: وإن زنَىٰ وإن سرقَ، ثلاثًا، وفي الأخير

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٤٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن مَن مات علىٰ التوحيد، دخل الجنة قطعًا، برقم: (٢٦)، (١/ ٥٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، نفس الموضع، برقم: (٢٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، نفس الموضع، برقم: (٣١)، (١/ ٥٩).

قال: علىٰ رغم أنف أبي ذَر)(١).

الحديث الرابع: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يرفعه: (مَن مات لا يشرك بالله شيئًا، دخل الجنة، ومَن مات يشرك بالله شيئًا، دخل النار)(٢).

الحديث الخامس: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله...)، إلىٰ آخر ما تقدَّم من كلام عبادة، (دخل الجنة، من أي أبواب الجنة الثمانية شاء)(٣).

الحديث السادس: حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَن لَقِيَ اللهَ لا يشرك به شيئًا، دخل الجنة)(٤).

فهذه الروايات كلها وعد بدخول الجنة، وبعض هؤلاء الصحابة وردَ اللفظان عنهم، فحديث عبادة ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وردَ فيهما عدم دخول النار، ففي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وحق العباد علىٰ الله، أن لا يُعذِّب مَن لا يُشرك به شيئًا)، أي الذي لا يُشرِكُ لا يُعذَّب، والعذاب في النار، هذا وعد بعدم دخول النار، وفي الرواية الثانية: (ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، إلا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب الثياب البيض، برقم (٥٨٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب مَن مات لا يشرك بالله شيئًا، دخل الجنة، ومَن مات مشركًا، دخل النار، برقم: (٩٤)، (١/ ٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، الموضع السابق، برقم: (٩٣)، (١/ ٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالىٰ: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم...)، برقم: (٣٤٣٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن مَن مات علىٰ التوحيد، دخل الجنة قطعًا، برقم: (٢٨)، (١/ ٥٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، برقم: (١٢٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن مَن مات علىٰ التوحيد، دخل الجنة قطعًا، برقم: (٣٢)، (١/ ٦١).

حرَّمه الله علىٰ النار)، وفي حديث عتبان رضي الله عنه: (فإن الله قد حرَّم علىٰ النار مَن قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)[1]، وفي حديث عبادة رضي الله عنه: (مَن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، حرَّم الله عليه النار)، فحديث عبادة وحديث معاذ رضي الله عنهما وردَ فيهما الوعد بالجنة بلفظ آخر، فلَمْ يبقَ إلا حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه، وهو : (أن الله حرَّم علىٰ النار مَن قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)، وهذه الروايات مُقيَّدة بكونه: (صادقًا من قلبه، غير شاكٍّ فيهما)، فالعلماء وجَّهوا هذا الحديث بأربعة توجيهات:

الوجه الأول: أن كلا اللفظين وردَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون الوعد بالجنة وعدًا بعدم دخول النار، وهذا تكريم لصاحب التوحيد، الذي امتلأ قلبه بتوحيد الله وتعظيمه، والخوف منه، والتوكُّل عليه، فهذا القلب مُضِيء بالتوحيد، ولو وقع في معصية، فإن الله يغفر له معصيته؛ إكرامًا للتوحيد، هذا الوجه الأول يتفق مع مُراد المصنِّف؛ فإن المصنف أوْرد هذه الأحاديث ليُبيِّن فضل التوحيد.

الوجه الثاني: أن يكون اللفظ الصحيح، هو الوعد بالجنة، وأن يكون بعض الرواة روَىٰ حديث عدم دخول النار بالمعنىٰ، ففهم من الحديث أنه أُريد به عدم دخول النار، فيُقدَّم الحديث الذي فيه وعد بالجنة؛ لأنه يتفق مع النصوص الأخرىٰ؛ لأنه قد وردَ أن مَن ارتكب الكبيرة، ومات عليها، دخل النار، وورِدَ أنه يُخرَج من النار مَن قال: لا إله إلا الله، ويُخرَج من النار مَن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان؛ لأنه صاحب معصية، ولكنه يُعذَّب بقدر معصيته، ثم يُخرج منها، فهذا الوجه الثاني يتفق مع هذه الأحاديث.

---

(١) سبق تخريجه.

الوجه الثالث: أن يكون قالها، ومات عليها، أي ولم يرتكب بعد قوله لها ذنبًا من الذنوب الكبيرة، وهذا ما رجَّحه البخاري رحمه الله.

الوجه الرابع: أن يكون صاحب التوحيد قد أضاء التوحيد قلبه، ونوَّر التوحيد قلبه، فأحرق من قلبه جميع الشهوات، وجميع الشبهات، فَلَمْ يبقَ في قلبه شبهة ولا شهوة، فإن التوحيد الخالص إذا سكن القلب، خرج من القلب كل شرك، وكل شيء غير التوحيد، وهذا ما ذكره ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله في كلامهما، الذي سيأتي في كلام الشارح.

وبعد ذلك نُورِد أقوال العلماء في هذه الأحاديث[1]:

القول الأول: في معنى دخول الجنة، قال ابن المسيب والزهري رحمهما الله: "إن هذا -أي الوعد بعدم دخول النار- كان قبل نزول الفرائض، والأمر، والنهي"، وهذا مردود؛ لأن الأحاديث التي جاءت في هذا المعنى، قيلت بعد نزول الأوامر والنواهي، فالعلماء ردُّوا هذا المعنى الذي جاء عن ابن المسيب والزهري رحمهما الله.[2]

وقال الحسن البصري رحمه الله : "مَن قال الكلمة، وأدَّى حقها وفَرْضها، فإنه يستحق الوعد الذي جاء في الأحاديث"[3]، فالحسن البصري ربط الاستفادة

---

(١) انظر لكلام بعض الشُرَّاح في عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٠٨)، فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٦٩)، شرح النووي على مسلم (١/ ٢١٩)، شرح السُّنَّة ـ للإمام البغوي متنًا وشرحًا (١/ ١٠٣)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٩٩)، نيل الأوطار (١/ ٣٦٨).

(٢) سُنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمَن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٥/ ٢٣).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٦٩)، شرح النووي على مسلم (١/ ٢١٩).

من قول لا إله إلا الله، بأداء حقها، وسيأتي أن شروطها سبعة، ولا ينجو الإنسان، ولا تفيده، إلا بها.

وقال القاضي عياض رحمه الله : "إن المراد باستحقاق الجنة، أنه لابد من دخولها لكل الموحِّدين، إما مُعجَّلًا مُعافًى، وإما مُؤَخَّرًا بعد عقابه"، فهو رحمه الله يرى أن صاحب الكبيرة، سيُعاقَب على كبيرته، إذا مات مُصِرًّا عليها، ولكنه سينتهي به توحيده يوم القيامة إلى الجنة، وفي عدم دخول النار، وقال: "إن المراد تحريم الخلود في النار، لا دخول النار مُطلقًا"، ولكن هذا لا يساعده لفظ الحديث.(١)

القول الثاني: أنها مُطلَقة مُقيَّدة بمَن قالها تائبًا، ثم مات عليها، قال البخاري رحمه الله : (مَن قالها عند الندم والتوبة، ومات على ذلك)، أي قالها مُخلصًا من قلبه، نادمًا على ما مرَّ منه من معاصٍ، ولم يأتِ بعدها بذنب يجرحها.(٢)

القول الثالث: قال العلماء: (خرج مخرج الغالب)؛ إذ إن الغالب أن الموحِّد يعمل الطاعة، ويجتنب المعصية، وهذا حق، فإن الإنسان إذا عُمِّرَ قلبه بخوف الله، وتعظيمه، والخشية منه، فإن هذا يمنعه من ارتكاب المعاصي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، فإذا كان الإنسان عالِمًا تقيًّا صالحًا، فإنه يجتنب ارتكاب المعاصي.

القول الرابع: أن الوعد بالنار، الذي يُحرَّم عليه نار الكفار، لا نار العصاة، وهذا تحكُّم، فإن اللفظ لا يساعده، فإن اللفظ وعد بعدم دخول النار، والنار كلها تُسمَّى نارًا بكل طبقاتها.

---

(١) ينظر: شرح مسلم للنووي (١/ ٢١٩ – ٢٢٠)، فتح الباري (١/ ٢٢٦).

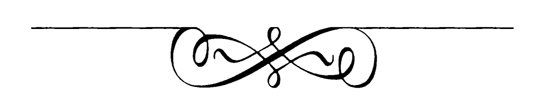
(٢) انظر كلام البخاري في كتاب اللباس، فتح الباري صحيح البخاري (١٠/ ٢٩٥).

القول الخامس: أن الوعد بتحريمه على النار، أي جبهته؛ لأن النار لا تأكل مواطن السجود، وهذا فيه عدم اتفاق المعنىٰ مع اللفظ، وهو غير وارد.

ومنهم مَن يقول: إن النار لا تحرقه، فالموحِّد إذا دخل النار، لا تحرقه، وإنما دخول النار إهانةً له، ولكن في حديث الشفاعة أنه يُخرَج من النار قوم قد أصبحوا حُمَمًا من النار، فهذا لا يتفق مع معنىٰ الحديث، والنصوص التي في القرآن.

والقول الأخير: "مَن قال الكلمة، وأدَّىٰ حقها، أو مات عليها، ولم يرتكب بعد ذلك ذنبًا يستحق به دخول النار"، وهذا هو الصحيح؛ لأنه لابد من دخول بعض الموحِّدين النار؛ لنقص التوحيد، والله أعلم.

والذي يظهر القول الأول، وهو أن النبي ﷺ قال جميع الألفاظ، ولكن المراد بذلك أن صاحب التوحيد، يكرمه الله ﷻ؛ لتوحيده، كما جاء في الحديث القدسي الذي ذكرناه: (مَن لَقِيَني بمثل قراب الأرض خطايا، ولا يشرك بي شيئًا، لقيتُه بقرابها مغفرةً)[1]، فالتوحيد أمره عظيم، نسأل الله أن يغفر ذنوبنا، وأن يستر عيوبنا، إنه سميع مجيب.



(١) سبق تخريجه.



قال المؤلف رحمه الله:

قوله: (فإن الله حرم على النار..) الحديث، اعلم أنه قد وردت أحاديث ظاهرها أنه من أتى بالشهادتين حرم على النار كهذا الحديث، وحديث أنس قال: كان النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرجل فقال: «يا معاذ» قال: لبيك يا رسول وسعديك. قال: «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا حرمه على النار» قال: يا رسول الله ألا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: «إذاً يتكلوا» فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً. أخرجاه.

ولمسلم عن عبادة مرفوعاً: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله حرم الله عليه النار».

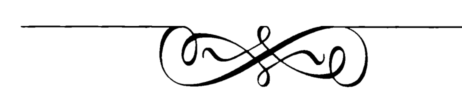


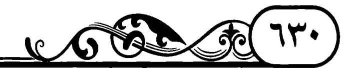
الشَّرْح

قوله: (ظاهرها)، هذا الاصطلاح قد يستعمله بعض المبتدعة؛ لردِّ بعض الأحاديث فيقول: ظاهرها يُوجِب التشبيه، ظاهرها يُوجِب كذا...، ولكن المراد بقول الشارح رحمه الله: (ظاهرها)، أي لمَن لمْ يتأمل المعنى، وإلا فإن العلماء ليس عندهم -ولله الحمد- لَبْس في معاني كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، فالظاهر قد يُطلَق في بعض الكُتُب -وخاصةً كُتُب المبتدعة-، ويُراد به معنى باطل، فإنهم يظنون أن ظاهر كلام الله غير مراده، وهذا لأن أفهامهم قد تكوَّنت بعقل معين، وقد مرضت بمرض بدعة، أو شبهة، أو جَحَد، فيرى أحدهم في بعض الأحاديث الصحيحة، ما لا يتفق مع منهجه، أو مذهبه، أو فهمه.

وقوله هنا: (هل أُخبِر بها الناس، فيستبشروا؟)، فيه حرص الصحابة على أن يبشِّر بعضهم بعضًا بالخير، وبما يحصل لبعضهم من الخير، وهذا من علامات الإيمان، والصلاح أن يفرح الإنسان بالخير لإخوانه، فمُعاذ عرف

هذا الخير، واطمئن قلبه، وارتاحت نفسه، فأراد أن يبشِّر الناس، فالرسول ﷺ أراد أن لا يخبرهم، حتىٰ لا يتَّكِلوا، ولكنه أخبرها رضي الله عنه، تأثُّمًا: أي خشيةَ أن يلحقه إثم كاتم العلم؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]، فمعاذ رضي الله عنه خاف إن كتم هذا الحديث، أن يلحقه الإثم، أو أخبر به، وهو يخشىٰ أن يلحقه إثم بالإخبار به؛ لأنه مُنِع عن أن يُخبِر به، فهذا اللفظ يُحمَل علىٰ أحد هذين المعنيين.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ووردت أحاديث فيها أن من أتىٰ بالشهادتين دخل الجنة، وليس فيها أنه يحرم علىٰ النار، منها حديث عبادة الذي تقدم قبل هذا، وحديث أبي هريرة: (أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك..) الحديث، وفيه (فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقىٰ الله عبد بهما غير شاك فيهما فيُحجب عن الجنة) رواه مسلم.

وحديث أبي ذر في الصحيحين مرفوعًا: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات علىٰ ذلك إلا دخل الجنة» الحديث.

وأحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الإسلام وغيره: إن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة، وقالها خالصًا من قلبه مستيقنًا بها قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلىٰ الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلىٰ الله تعالىٰ، بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات علىٰ تلك الحال نال ذلك.



الشَّرْح

قوله: (وحديث أبي هريرة...)، هناك أحاديث كثيرة جاءت مُقيَّدة بـ(غير شاكٍّ فيهما)، و(مُستَيْقِنًا بها قلبه)، ومعنىٰ القيد في الشهادة، أن تكون مؤثِّرة في حياته؛ لأن هذه الكلمة عظيمة، ولها معنىٰ عظيم، وقلنا: إنه من أجلها خلق الله السماوات والأرض، وخَلَق الخَلْق، وخلق الجنة والنار، فليس المراد بها فقط الألفاظ، ولهذا بقيت قريش أكثر من عشر سنوات، لا تُقاتِل، ولم تقُلْها؛ لأنها تعلم أن هذه الكلمة لها معنىٰ، ولها التزام، وليست لفظًا باللسان، كما قالها

المنافقون، فلم تنفعهم عند الله ﷻ، فالمراد إدراك معناها، واتِّباعه، والالتزام بها، ومعرفتها، والصدق فيها، واليقين في قولها، والعلم بلوازمها، فلابد من معرفة هذه الشروط، ليستفيد الإنسان من قول: (لا إله إلا الله).

قوله: (**وحديث أبي ذَر في الصحيحين مرفوعًا...**)، وهذا الحديث يُبين ما ذهب إليه البخاري رحمه الله، أنه مَن مات بعد هذه الكلمة، ولم يأتِ بما يشقُّ توحيده، ولكن ليس في الأحاديث أنه مات بعد قولها، بل فيها أنه وعد بدخول الجنة، وحُرمته على النار.

قوله: (**وأحسن ما قيل في معناه، ما قاله شيخ الإسلام وغيره...**)، يبيِّن ابن تيمية رحمه الله هنا أن صاحب هذه الكلمة، يكون له انجذاب، وقرب من الله سبحانه وتعالى، ولهذا لا يقع في معصية، ولكن ليس هذا عامًّا؛ فإن الإنسان قد يكون صاحب توحيد، ويقع في المعصية، كما رأينا في عهد النبي ﷺ، من بعض أهل بدر، كما حصل لحاطب رضي الله عنه كما سبق، ولكن مع ذلك قال ﷺ: (**وما يدريك يا عمر، لعل الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**)(١).

فهؤلاء قد عملوا أعمالًا عظيمة، قد أرضت الله عنهم، كما في الحديث: «اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»، أي أن معاصيكم بجانب مواقفكم في بدر، لا تساوي شيئًا، ولو وقع هذا العمل من بعض الناس في أي دولة من الدول، لقُتِلَ؛ لأن هذا الفعل يُسمَّى بالخيانة العُظمَى، فهذا السَبْق العظيم، والمكانة العليا، في هذه الغزوة، يجعلها في حقه صغيرة، لا تساوي شيئًا؛ لأن له عند الله مكانة عظيمة؛ لتوحيده وإخلاصه ويقينه رضي الله عنه، فهذا هو الذي قد يؤكد المعنى الذي مرَّ في الوجه الأول، من الكلام السابق.

---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيراً ممن يقول: لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم علىٰ النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

الشَّرْح

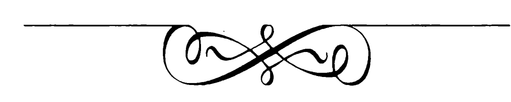
قوله: (فإنه قد تواترت الأحاديث، بأنه يخرج من النار مَن قال لا إله إلا الله...)، هذه موضوعات في حديث الشفاعة، وهذا الحديث يجمع أطراف الكلام الذي قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد وردَ عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان يوم القيامة، أذَّن مؤذِّن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقىٰ أحد كان يعبد غير الله -سبحانه- من الأصنام والأنصاب، إلا يتساقطون في النار)، يعني عُبَّاد الأوثان وعُبَّاد الأصنام، يُؤخَذون من أرض المحشر إلىٰ النار، لا يصلون إلىٰ الصراط، فالصراط لا يصل إليه إلا المؤمنون والفُسَّاق، وحتىٰ المنافقون يُؤخَذون قبل الصراط، ثم قال: (حتىٰ إذا لم يبقَ إلا مَن كان يعبد الله، من بَرٍّ وفاجر)، يعني من المنافقين (أتاهم رب العالمين، قال: فما تنظرون؟ يتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: فارقنا الناس في الدنيا، أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم)، وفي رواية: (فيقولون: هذا مكاننا حتىٰ يأتينا ربنا، فإذا جاء عرفناه، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقىٰ مَن كان يسجد لله من تلقاء نفسه، إلا أُذِنَ له الله

بالسجود، ولا يبقَ مَن كان يسجد اتِّقاءً ورياءً، إلا جعل الله ظهره طبقةً واحدة، كلما أراد أن يسجد، خرَّ علىٰ قفاه)، هذا الذي كان يصلي مع المسلمين نفاقًا، لا يستطيع أن يسجد يوم القيامة، فهنا ينكشف المنافقون، ثم قال: (ثم يُضرَب الجسر علىٰ جهنم)، أي الصراط، (وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلِّم سلِّم، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، والركاب، فناجٍ مسلم، ومخدوش مُرسَل، ومكدوس في نار جهنم، حتىٰ إذا خلص المؤمنونَ من النار، فوالذي نفسي بيده، ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويصلُّون معنا، ويحجُّون، فيُقال لهم: أخرجوا مَن عرفتم، فتُحرَّم صورهم علىٰ النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا ما بَقِيَ فيها أحد مِمَّن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير، فأخرجوه، فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير، فأخرجوه، فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير، فأخرجوه، فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لمْ نذرِ فيها خيرًا، فيقول الله ﷻ: شفعَتْ الملائكة، وشفعَ النبيون، وشفعَ المؤمنون، ولمْ يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا، لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حُمَمًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يُقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرُج الحَبَّة في حَمِيل السيل، فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عُتقاء الرحمن، الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدَّموه، فيُقال لهم: لكم ما رأيتم، ومثله معه)[١]، هذا حديث الشفاعة بأوجز مما وردَ في كتب السُّنَّة، وهذا في

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النساء، باب قوله ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾.

الصحيحين، والصحاح قد اشتملت علىٰ كثير مما يحتاجه المسلم، وهذا الحديث يُبين أن المسلم الموحِّد قد يدخل النار، ونحن نعتقد أن دخوله النار، ليس فقط للمعصية، بل لقلة توحيده؛ لأن أحاديث الوعد للموحِّدين كثيرة، مثل: (**مَن قال لا إله إلا الله، دخل الجنة**)، و(**مَن قالها خالصًا من قلبه، دخل الجنة**)، ومثل: (**فإن الله حرَّم علىٰ النار مَن قال: لا إله إلا الله**)، فهذا رجاؤنا في الله ﷻ، أنه يُكرِم صاحب التوحيد، بأن يغفر ذنوبه يوم القيامة.



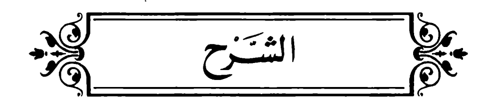
= برقم: (٤٥٨١). وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، برقم: (١٨٣)، (١/ ١٦٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يُخشىٰ عليه أن يفتن عنها عند الموت فيحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء؛ كما في الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته».

وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم أقرب الناس من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف:٢٢].

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث فانه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصراً علىٰ ذنب أصلاً.


الشرح

قوله: (لكن جاءت مُقيَّدة بالقيود الثقال)، أي: يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه ليس المطلوب قولها فقط، بدون إخلاص، ولا صدق، ولا معرفة لمعناها، فإن الإنسان قد يقولها وهو لا يعرف معناها، وليس في قلبه إخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ، ولا صدق في قولها، ولا يقين بمدلولها، ولا عمل بما يلزمه معناها، فلا تفيده، فالمنافقون في المدينة قالوها، ولم تفدهم، ولم يستفيدوا منها؛ لأنهم لم يقولوها بإخلاص ويقين، ولم يقولوها بغير شك، وإنما قالوها غير مخلصين كاذبين، فلم تنفعهم، فلابد أن يكون قولها مُصاحِبًا لقيودها التي ذكرناها.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: إن أكثر مَن يُعذَّب ويُفتَن في قبره، مَن قالها وهو لا يعرف معناها، كما سيأتي في الحديث الذي أوْرده الشارح هنا.

قولـه: (كمـا في الحـديث: «سـمعتُ النـاس يقولـون شـيئًا، فقلتُـه»)، هـذا الحديث طرف من حديث طويل في هذا المعنىٰ، وأولـه: (إن الميـت يصير إلىٰ القبر، فيُجلَس الرجل الصالح في قبره غيـر فَزِع، ولا مَشْعُوف، ثـم يُقـال لـه: فـيم كنت؟ فيقول: كنت في إسلام، فيُقال له: مـا هـذا الرجـل؟ فيقـول: محمـد رسـول الله ﷺ، جاءنا بالبينات من عند الله، فصدَّقناه، فيُقال لـه: هـل رأيـت الله؟ فيقـول: ما ينبغي لأحد أن يرىٰ الله، فيُفرَج له فُرْجَة قِبَلَ النار، فينظر إليهـا، يحطـم بعضـها بعضًا، فيُقال له: انظر إلىٰ ما وقاك الله، ثم يُفرَج له قِبَلَ الجنة، فينظـر إلـىٰ زهرتهـا وما فيها، فيُقال له: هذا مقعدك، ويُقال له: علىٰ اليقين كنـتَ، وعليـه مـتَّ، وعليـه تُبعَث -إن شاء الله-، ويُجلَس الرجل السوء في قبره فَزِعًا مَشْعُوفًا، فيُقال لـه: فـيم كنت؟ فيقول: لا أدري، فيُقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت النـاس يقولـون قولًا، فقلته، فيُفرَج له قِبَلَ الجنة، فينظر إلىٰ زهرتها وما فيها، فيُقال لـه: انظـر إلـىٰ ما صرف الله عنك، ثم يُفرَج له فُرْجَة قِبَلَ النار، فينظر إليها يحطم بعضـها بعضًـا، فيُقال له: هذا مقعدك، علىٰ الشك كنتَ، وعليـه مـتَّ، وعليـه تُبعَـث -إن شـاء الله تعالىٰ-)[1].

وهذا الحديث ذكره البوصيري رحمه الله، مـن روايـة ابـن ماجـه، وقـال: إسـناده صحيح، وكذلك قال ابن حجر رحمه الله، وقال الألباني: إسناده صـحيح علـىٰ شـرط الشيخين، والحديث يدل علىٰ أن بعض مَن يموت، ويُسأل عـن لا إلـه إلا الله، لا يعرفها، ولكن يقـول: سـمعتُ النـاس يقولـون قـولًا، فقلـتُ مـثلهم، فهـذه لا تنفعه لا إله إلا الله، وإنما تنفع مَن قالها عالِمًا بهـا، صـادقًا في قولهـا، غيـر شـاكٍّ فيها، عاملًا بمقتضاها، فهذا كلام ابن تيميـة رحمه الله، وفيـه أن غالـب مَـن يُفـتَن يـوم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سُننه، كتـاب الزهـد، بـاب ذكـر القبـر والبلـىٰ، بـرقم: (٤٢٦٨)، وأخرجـه الإمام أحمد في المسند باختلاف يسير، برقم: (٢٥٠٨٩)، (٤٢/ ١٢)، وصحَّحه الشيخ الألبـاني في تعليقه علىٰ ابن ماجه.

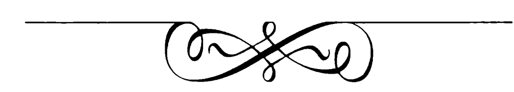
القيامة، ومَن يُفتَن في قبره، مَن كان من هذا النوع.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف:٢٢]، هذه الآية تُبين أن كثيرًا من الناس، إنما يقلِّد أباه، في حق أو في باطل، حتىٰ الذي يُقلِّد أباه في الإيمان، وفي الإسلام، لا ينفعه؛ لأنه لابد من معرفة الحق، يقول العلماء: أنه لابد من علم، ثم نية، ثم عمل، أي ثلاث مراحل، أن يعلم أن هذا واجب، فينوي أن يعمله لله، ثم يعمله، ولكن لو عمل عملًا بدون علم أن هذا واجب، وما أراد به وجه الله، وإنما يُقلِّد أباه، فليس له فيه أجر، فلابد من العلم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، فلابد أن تعلم أن هذا مطلوب، فتعمله، أو أن هذا محرَّم، فتتركه عن علم، لا عن جهل أو تقليد، فالمسلم ينبغي أن يعلم، ثم ينوي أن يعمل لله، ثم يعمل العمل، أما من عمل العمل الصالح، وهو لا يدري أنه قُربة إلىٰ الله، أو لم يبغِ به وجه الله، فإنه لا ينفعه عند الله.

قوله: (**إذا قالها بإخلاص ويقين تامٍّ، لم يكن في هذه الحال مُصِرًّا علىٰ ذنب أصلًا**)، يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ عدم الإصرار، لا إلىٰ عدم الفعل، فإن المسلم قد يعمل المعصية، ولكنه لا يصر عليها، بل ينتبه بعد وقوعها، ثم يستيقظ، بخلاف الفاسق، كما جاء في الحديث: (**إن المسلم إذا أذنب ذنبًا، كأنه في أصل جبل، يخشَىٰ أن يقع عليه، يحس بالندم، والمنافق إذا أذنب ذنبًا، كأنه ذباب وقع عليه، ثم طار**)[(١)]، وكأنه لا يحس به، فإحساس المسلم بأنه أخطأ في حق نفسه،

(١) أخرجه الترمذي في سُننه، بلفظ "**إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه في أصل جبل، يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب وقع علىٰ أنفه، قال به هكذا**"، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٤٩)، برقم: (٢٤٩٧)، وأحمد في مسنده بزيادة "**فطار**" في آخره، برقم: (٣٦٢٧) - (٦/ ١٣١)، وصحَّحه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي.

وفي حق الله، هذا هـو المطلـوب، ولـيس المطلـوب أنـه لا يُـذنِب، فلـيس هنـاك إنسـان لا يُـذنِب، ولـو لـم يـذنبوا لـذهب الله بهـم، ولجـاء بقـوم آخـر يـذنبون، فيستغفرون، فيغفر الله لهم، كما جاء في الحـديث، ففـرَّق بـين الصـالح المـؤمن الموحِّد وبين غيره، إن الموحِّد يحس بذنبه، وغيره لا يحس بـه؛ لأنـه لا يعـرف قدر الله، ولا يعظِّمه، وليس في قلبـه إخـلاص لـه أو يقـين، فقولـه ﷺ : كأنـه إذا قالهـا بـإخلاص ويقـين تـام، لـم يكـن في هـذه الحـال مُصِـرًّا علىٰ ذنـب أصـلًا، فالخطورة تكمُن في الإصرار، وليست في فعل الخطيئة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذاً لا يبقىٰ في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم من النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذه التوبة وهذا الإخلاص وهذه المحبة وهذا اليقين لا يتركون له ذنباً إلا يُمحىٰ كما يمحىٰ الليل بالنهار، فإذا قالها علىٰ وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مصر علىٰ ذنب أصلاً، فيُغفر له ويحرم علىٰ النار، وإن قالها علىٰ وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات.



الشَّرح

لفظة (يتركون)، هذا فعل مضارع، مُسنَد إلىٰ واو الجماعة، وهو ضمير للعقلاء خاصةً، والمراد هنا غير العقلاء، لذا فالصحيح أن يقال (لا تترك).

قوله: (**فإن كمال إخلاصه ويقينه...**)، أي: يقول رَحِمَهُ اللَّهُ : إن مَن قالها علىٰ وجه الكمال، فإنه تمنعه من الشرك الأكبر والشرك الأصغر، ولكن قد يقع في الذنوب، ثم قال: (**ولم يأتِ بعدها بما يناقض ذلك**)، فإن نقض الشيء، هو إبطاله، ولكن قد ينقصها؛ لأن المعاصي تُنقِص الإيمان في القلب؛ لأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقُص بالمعصية، وليس معنىٰ هذا زيادة العلم في القلب، والإيمان يشمل القول والعمل، أي أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال الجوارح، فالإنسان قد يقع في المعصية، فتُنقِص إيمانه بهذا المفهوم، أما إذا نقص يقينه بالله، أو إخلاصه، فإن ذلك نقصٌ في التوحيد، وليس هذا هو الذي يُغفَر، بل الذي يُغفَر هو المعصية.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كما في حديث البطاقة (فيحرم على النار)، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه وهذا بخلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات مصراً على ذلك، فإنه يستوجب النار وإن قال: لا إله إلا الله. وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه في حال قولها كان مخلصًا لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك.

الشَّرح

قوله: (كما في حديث البطاقة...)، الكلام هنا مرتبط بما قبله، وهو قول الشارح: (وإن قالها على وجه خَلُصَ به من الشرك الأكبر، دون الأصغر، ولم يأتِ بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجَح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة)، هذه العبارة مرتبطة بحديث البطاقة، وهو حديث رواه الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وصحَّحه ابن حبان وغيره، ورجال ثقات، وهذا الحديث -الذي سيأتي- جاء فيه أنه قال ﷺ: (إن الله سيخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فيُدعَى، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا، كل سجل مَد البصر، فيُقال: أتُنكِر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب، فيُقال له: أفلك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنك لا تُظلَم، فيُخرَج له بطاقة، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيُقال له: إنك لا تُظلَم، فتوضع السجلات في

كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثَقُلَت البطاقة)[١]، فترجَح بالسجلات تلك البطاقة، التي فيها لا إله إلا الله، وهذا الحديث يعتمد عليه المرُجئة، ويقولون: إن الإيمان يكفي، ولا داعي للعمل، ولا شك أن هذا كلام مردود، فإن الخوارج والمعتزلة أخذوا آيات وأحاديث الوعيد، والمرُجئة أخذوا آيات وأحاديث الوعد، وكلاهما يُردُّ عليه بأدلة الآخر، فآيات وأحاديث الوعيد تُنزَل منزلتها، وآيات وأحاديث الوعد تُنزَل منزلتها، فيُجمَع بينها.

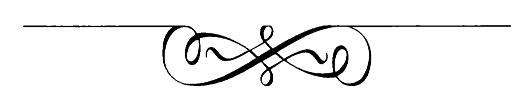
فنخرج من ذلك بأنه مَن أتىٰ بهذه الكلمة، وعمل بمقتضاها، ولم يأتِ شيئًا من الشرك الأكبر الذي ينقضه، ولا شيئًا من الشرك الأصغر الذي يجرحه، ولمْ يُصِر علىٰ الذنوب، ولو جاء بأمثال الجبال من الذنوب، فإنها تُغفَر مع هذه الحسنة، ابن القيم رحمه الله يقول: أنه يُعذَّب، فهناك ثلاثة أشياء: شرك أكبر لا يُغفَر، وكبائر إلىٰ مشيئة الله ورحمته، وشرك أصغر يُعذَّب صاحبه، ثم يخرج من النار، هذا مذهب ابن القيم رحمه الله[٢]؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، أي أن الشرك الأكبر لا يغفره الله، ولكن الأصغر لا يجعل صاحبه مُخلَّدًا في النار، فإذا جاء بشرك أصغر، مع إصرار بالمعاصي، استحق العقاب،

---

(١) أخرجه الترمذي في سُننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمَن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، برقم: (٢٦٣٩)، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وابن ماجه في سُننه، كتاب الزهد، باب ما يُرجَىٰ من رحمة الله، برقم: (٤٣٠٠)، والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، برقم: (٩)، (١/ ٤٤)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٦٩٩٤)، (١١/ ٥٧١)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٤٧٢٥)، (٥/ ٧٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، برقم: (٢٢٥)، (١/ ٤٦٢)، والبيهقي في شُعب الإيمان، باب في حشر الناس بعد ما يبعثون من قبورهم إلىٰ الموقف، برقم: (٢٨٣)، (١/ ٢٦٤)، وصحَّحه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي.

(٢) انظر إعلام الموقعين (٤/ ٣٠٤)، مدارج السالكين (١/ ٣٤٤)، طريق الهجرتين (٣٨٤).

ولكن إذا جاء بمعاص كبائر وصغائر، ولم يَمُت مُصِرًّا عليها، فإن هذا يرجِّح توحيده بسيئاته، فيدخل الجنة، إن عفا عنه الله ﷻ، كما سيأتي من كلام ابن تيمية رحمه الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصراً على سيئة، فإن مات على ذلك دخل الجنة.

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة تضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويُخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك، فيرجح جانب السيئات.



الشَّرح

قوله: (بخلاف المـُخلِص المـُسْتَيْقِن...)، يعني: المـُسْتَيْقِن، وهذا قيد في لا إله إلا الله، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عندما قال له: (اخرجْ مَن وجدته وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مُستَيْقِنًا بها قلبه، فبشِّره بالجنة)[1]، فذكر القيد، وهو اليقين، وسيأتي في أحاديث أخرى (صادقًا)، ومرَّ حديث (غير شاكٍّ فيها)، فهذه كلها قيود، فاليقين في قولها إذا جاء بمعاصٍ تُضعِف هذا المـُستيقن، فإذا ضَعُفَ اليقين، الذي من أجله استحق النجاة يوم القيامة، أصبح في مشيئة الله، قد يُعذَّب، وقد لا يُعذَّب.

قوله: (وإنما يخاف على المخلص...)، أشار إلى الشرك الأصغر، وأنه هو الذي يقوِّي الكبائر، فتُضعِف اليقين؛ لأن الشرك الأصغر مما لا يغفره الله، على قول بعض العلماء، فإذا انضم إليه إصرار على كبائر، فإن هذا يُضعِف إيمانه، ويستحق بذلك الوعيد يوم القيامة، هذا الكلام كله سببه البحث عن

---

(١) سبق تخريجه.

رفع التعارض في ظاهر الأحاديث؛ لأن المعصوم -وهم الأنبياء- كلامهم يصدِّق بعضه بعضًا، ويُفسِّر بعضه بعضًا، ويُقيِّد بعضه بعضًا، ويُخصِّص بعضه بعضًا، فإذا وجدنا نصًّا مُطلقًا في مكان، ونصًّا مُقيَّدًا في مكان، أو نصًّا عامًّا في مكان، ونصًّا خاصًّا في مكان، نجمع بينهما، فلهذا يقول العلماء: لا يُبحَث عن تأويل إلا لكلام معصوم، ولكن لو جاء إنسان مثلنا ليس معصومًا، فقال كلامًا خاطئًا، فلا يُبحَث له عن تأويل؛ لأنه ليس معصومًا، فالعلماء قد يُخطِؤون في كلامهم، وغيرهم أكثر خطأً، ولكن المعصوم لا يُخطِئ، فإذا رأينا نصًّا يظهر منه أنه يتعارض مع نص آخر، فلابد من البحث عن التوفيق بينهما، يقول العلماء: يُعمَل بكلا النصين، وإن لم نستطع العمل بكلا النصين، فنأتي إلى الترجيح، أو التخصيص، أو التخيير؛ لأن النصوص بعضها قد يكون عامًّا، وبعضها قد يكون خاصًّا، فمثلًا حديث: (إذا دخل أحدكم المسجد، فلا يجلس حتى يصلي ركعتين)[1]، وحديث النهي عن الصلاة في أوقات النهي، كبَعْد العصر، وبعد الفجر، فإذا دخل الإنسان المسجد في هذه الأوقات، أصبح أمامه نَصَّان: نص يمنعه من الصلاة، ونص يأمره بالصلاة، فلذلك اختلف العلماء:

فمنهم مَن حمل أحاديث المنع على العموم، وأحاديث الأمر على الخصوص، وقال هؤلاء: محل النهي ما لم يدخل المسجد، ويخصَّص هذا النهي إذا دخل المسجد.

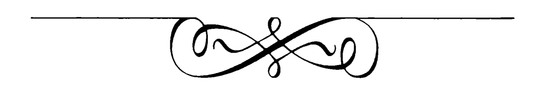
ومنهم مَن عَكَسَ، وقال: العام هو الأمر بالصلاة، ويُخصَّص بأوقات النهي، فإذا دخل المسجد وقت النهي، لا يصلي.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب التهجد، ما جاء في التطوع مَثنى مَثنى، برقم: (١١٦٣). ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استحباب تحية المسجد بركعتين...، برقم: (٧١٤)، (١/ ٤٩٥).

فاختلف العلماء في أيهما أعم، وأيهما أخص، وهكذا قد يأتي نصان يظهر منهما التعارض، وتختلف أنظار العلماء في الجمع بين النصوص، وذلك بحسب إمكانياتهم العلمية، وقدراتهم، واستنباطاتهم، وإدراكهم لمعاني اللغة، ولمعاني الشريعة، وللقواعد العامة من الشريعة، فقد يختلف الرأيان، وقد يكون كلاهما جائزًا، كما مرَّ من كلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قضية السجود، هل يبدأ بيديه أو بركبتيه؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إن كليهما جائز باتفاق العلماء، أيهما فعلت، فهو جائز، واختلفوا في الأفضل المـُختار، فمنهم مَن فضَّل النزول علىٰ اليدين، ومنهم مَن فضَّل النزول علىٰ الركبتين.

وهكذا رفع التعارض إذا وقع في كلام الشارع، لكن لو جاء شخص يقول كلامًا باطلًا في موضع، وكلامًا صحيحًا في موضع آخر، فلا نُكلِّف أنفسنا معرفة الحق في هذين القولين، لنرفع هذا التعارض بينهما؛ لأن هذا ربما يؤدِّي إلىٰ أن يَجرُأ أصحاب الأقوال الباطلة، إلىٰ أن يقولوا ما شاؤوا، ليُبحَث في كلامهم الآخر عن تفسير، ولكن لو عُرِفَ الإنسان باستقامة المـُعتقَد، وسلامة الدين، وسلامة المنهج، فأخطأ، أو جاء بكلام عام في مكان يُفسَّر بالكلام الثاني، الذي جاء في موضع آخر، فنوفِّق بينهما، وأما كلام الشارح، فنعتقد أنه كله صحيح، ليس فيه تعارض إلا في الظاهر، عند نظر الإنسان الذي لم يتأمل النص، وبالتأمل والفحص والدراسة، يتبيَّن -بإذن الله- المعاني الموافقة لنصوص الشارع.

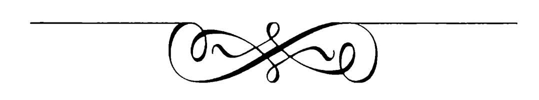


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن السيئات تضعف الإيمان واليقـين، فيضـعف بـذلك قـول: لا الـه إلا الله، فيمتنـع الإخـلاص في القلـب، فيصـير المـتكلم بهـا كالهـاذي، أو النـائم، أو مـن يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعـم ولا حـلاوة، فهـؤلاء لـم يقولوهـا بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين، بل يقولونها من غير يقين وصدق ويموتون علىٰ ذلـك ولهـم سـيئات كثيـرة تمـنعهم من دخول الجنة.

الشَّرح

قوله: (**فإن السيئات تُضـعِف الإيمـان واليقـين...**)، هنـا يـذكر أثـر المعصـية والذنوب علىٰ قلب الإنسان، فإن الذنوب لها تأثير علىٰ القلـب، ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ [المطففين:١٤]، فـالران: هنـا هـو الغطـاء، لكثـرة المعاصـي التـي تُغطـي القلب، فالإنسان إذا كثرت معاصيه، نتج عنها سبعة أشياء، سيذكرها الشـارح رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد يقول هذه الكلمة العظيمة مُخلصًا، ولكـن بعـد ذلـك تـؤثِّر المعاصـي علىٰ يقينه، وصدقه، فيموت وهو علىٰ غير اليقين، الذي قـال بـه الكلمـة، وكـان صادقًا أو مُستَيْقِنًا في قولها، وسيذكر رَحِمَهُ اللَّهُ نتائج المعاصي علىٰ الإنسان.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإذا كثرت الذنوب ثقل علىٰ اللسان قولها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غيره، واطمأن إلىٰ الباطل، واستحلىٰ الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه وبفيه ما لا يصدق عمله كما قال الحسن: (ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصفته الأعمال فمن قال خيراً وعمل خيراً قُبل منه، ومن قال شراً وعمل شراً لم يُقبل منه).



الشَّرح

قوله: (**وإذا كَثُرت الذنوب، ثَقُلَ علىٰ اللسان قولها**)، هذا أول ما ذكره الشارح من آثار الذنوب، فكم من إنسان يدخل المسجد في يوم الجمعة، ويجلس حتىٰ يأتي الإمام، ولا يفتح فمه بالذكر وقراءة القرآن! هذا يدل علىٰ أن في قلبه آثار المعصية، وكم من إنسان من الصباح إلىٰ المساء، لا يذكر الله! وكم من إنسان يدخل بيته، ويخرج منه، ولا يذكر الله! ومثل هذه البيوت تكثُر فيها الخلافات، والأمراض النفسية، وكل ما يظهر علىٰ البيت من المشاكل، آثار لعدم ذكر الله ﷻ، فكثرة المعاصي تُثقِل اللسان، فيحب أن يذكر ربه أحيانًا، ولكن لا يستطيع، ولا يتذكَّر لا إله إلا الله إلا نادرًا، ولكن المسلم لسانه رَطِب بذكر الله ﷻ، فإذا صفا القلب، استحلَّت كلمة (لا إله إلا الله)، ويذكرها بلسانه، فيجد لها لذة في قلبه.

ثانيًا: (**وقسا القلب عن قولها**)، قلوب الناس كلها علىٰ خِلْقة واحدة متقاربة، أي لحمة واحدة، والقساوة ليس معناها القساوة الحسية، وإنما القساوة المعنوية، ولهذا إذا رُئِيَ إنسان شديدًا مع أهله ومع الناس، قيل: فلان قلبه قاسٍ، وليس فيه رحمة ولين، فكثرة المعاصي تُقسِّي القلب، حتىٰ إن



الإنسان لا يرحم، لا أهله، ولا جيرانه، ولا زملاءه، ويحاول أن يستدرَّ منه رحمة، ولا يستطيع؛ ولكن المؤمن قلبه لين رحيم، ليس فيه قساوة، فهذا من آثار المعاصي، وجاء في الحديث: (وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)[1]، ومرَّت قصة الأقرع بن حابس، شيخ أحد قبائل الأعراب، عندما رأى النبي ﷺ يُقبِّل أحد أبناء بناته، قال: يا رسول الله، أتُقبِّلون أولادكم؟ قال: "نعم"، قال: "والله إن لي عشرة من الولد، ما قبَّلتُ أحدًا منهم"[2]، ولهذا قال -تعالى- في الأعراب: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [التوبة:٩٧]؛ لأن الذي يعيش بعيدًا عن ذكر الله، وعن سماعه، وعن الجنة والنار، وعن عقاب الله للظَلَمة والطغاة، قلبه يقسو.

ثالثًا: (وكره العمل الصالح)، فيتباطَأ عن العمل الصالح، فمثلًا إذا جاء وقت الصلاة، ثَقُلَت عليه الصلاة، وإن جاء وقت الصدقات، ثَقُلَت عليه الصدقات، وإن جاء وقت أي عمل خير، يكون ثقيلًا، ولكن -كما سيأتي في الأثر القريب- تراه مع أهل الغفلة، يجلس الساعات الطويلة، وهو مرتاح بلذة واستبشار، ولو تتكلم في دين الله دقائق، لوجدته كارهًا ثقيلًا مُتبرِّمًا؛ لأن في القلب مَرَضًا، -نعوذ بالله من ذلك-.

رابعًا: (وثِقَل عليه سماع القرآن)، والقرآن كلام الله، ولو كانت القلوب صافية، ما شبعت من كلام الله؛ لأن هذا كلام الخالق، الذي خلقنا، وأوجدنا، وخلق الكون كله، فإذا أراد أن يعرف الله، فليقرأ القرآن، وأصحاب المعاصي ومَرْضَى القلوب، يثقُل عليهم سماع القرآن، بخلاف الأغاني وآلات اللهو

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ يعذَّب الميت ببعض بكاء أهله عليه، برقم: (١٢٨٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، برقم: (٩٢٣)، (٢/ ٦٣٥).

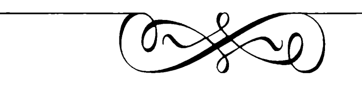
(٢) سبق تخريجه.

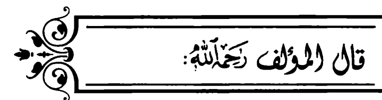
والطرب، فهذا الصنف لا يميل ولا يسكُن إلا مع ما يضاد أو ينقض الإيمان، والمؤمن قلبه مُعلَّق بالقرآن، يسمعه في سيارته، وفي بيته، وعنده المكتبة الصوتية لكلام الله، ويتعلق بكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

خامسًا: (واستبشر بذكر غيره، واطمأن إلىٰ الباطل)، فكثير من الناس إذا ذُكِرَ الله في مجلس، أو في بيت من بيوت الله، يثقُل عليه، ولكن لو جلس مع أصدقائه، أو مع أُناس من الآخرين، يجلس ساعات طويلة، ولا يشعر بالملل، فهذا من آثار المعاصي، والإنسان إذا حسَّ أو شَعَرَ بشيء من هذه الآثار، فعليه أن يراجع قلبه، وأن يراجع نفسه، وأن يحاسبها، فإن حساب الدنيا يسير، ولكن حساب الآخر عسير، أعاذنا الله وإياكم من حسابه العسير.

سادسًا: (واستحلىٰ الرفث، ومخالطة أهل الغفلة)، الإنسان الصالح يخالط الصالحين، وغير الصالحين و إذا جلس في مجلس فيه غير الصالحين، يثقُل عليه كلامهم، ويتبَرَّم، وينتظر متىٰ يخرج، ويقول بعض العلماء: هؤلاء ليسوا رجالًا، بل هم أطفال كبار؛ لأن اهتماماتهم مُنصبَّة علىٰ اهتمامات الأطفال، إما اللعب، وإما الشهوات، وأما الأشياء الكبيرة التي فيها تعظيم الله وتقديره، وفيها الجنة والنار، وفيها الصبر علىٰ الأذىٰ والفتن، فلا تليق به، إنما الذي يليق بهم اللعب، فالإنسان إذا كَثُرت معاصيه، لا يحب إلا أهل الغفلة، فهم في مجالسه، وفي رحلاته، وفي صداقاته، والإنسان الصالح لا يحب ولا يجالس إلا الصالحين، ولا يرتاح إلا معهم؛ لأنه يسمع منهم كلامًا يذكره بالله عَزَّ وَجَلَّ، وينفعه في دينه، وفي آخرته.

سابعًا: (وكره مخالطة أهل الحق)، إذا أحب مخالطة أهل الغفلة، فمن الطبيعي أن يكره مخالطة أهل الحق.




قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال بكر بن عبدالله المزني: (ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه).


الشَّرح

قوله: (**وقال بكر بن عبدالله المزني...**)، بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مشهورًا بالعلم والزهد والورع، وله كلام لطيف وتوجيهات مفيدة، نختار منها ثلاث توجيهات:

التوجيه الأول: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يكون العبد تقيًّا حتىٰ يكون تقي الطمع، تقي الغضب)[1]، فالإنسان قد يظهر منه التقوىٰ في الظاهر، ولكن إذا كانت له مصلحة فيها شيء يجرح إيمانه، ويُنتِج له ثمرة مُعجَّلة، فلا يُقدِّم التقوىٰ علىٰ هذه المصلحة، فإن كان أقدم عليها، وفيها حرام، أو شيء محظور، دلَّ علىٰ أنه ليس تقيًّا، ثم إذا غضب علىٰ شخص، يقول فيه ما ليس فيه، فليس تقيًّا، ولو كان تقيًّا لا يقول إلا ما كان فيه، ويعامله معاملة حسنة، فعند الغضب، تُعرَف هل هو تقي صحيح، أم تقي وقت السعة فقط؟ فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يكون العبد تقيًّا)، يعني: حقيقةً، (حتىٰ يكون تقي الطمع، تقيًّا عند الغضب)، أي إذا غضب، فإنه لا يدفعه غضبه، ليقول ما ليس فيمَن يغضب عليه، ولا يحمله ما لم يقل، ولا يُنقِص حقه، بل يراقب الله في إخوانه المسلمين، ولا يقول فيهم إلا الحق.

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٢٤٩).

التوجيه الثاني: قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (إذا رأيتم الرجل مُوكلًا بعيوب الناس، ناسيًا لعيبه، فاعلموا أنه قد مُكِرَ به)[1]، فبعض الناس أكثر حديثه في الناس، وكأنه مُوكل بالناس، فقال: لو رأيت إنسانًا كهذا، فاعلم أنه قد مُكِرَ به، كما قال تعالىٰ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف:١٨٢، ١٨٣]، فالإنسان قد يعيش وهو يظن أنه علىٰ حق وصواب، ولكن ربما مُكِرَ به، ولهذا يقول أحد العلماء رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا يأتي الناس يوم القيامة بصحائف مملوءة بصلاة وصيام وصدقة، وتأتي وصحيفتك فيها فلان وفلان)، احذر أن تأتي يوم القيامة، والناس خصماؤك، فإن الناس يوم القيامة أَشِحَّاء بحسناتهم، لا يتنازلون عنها، ويوم القيامة سيأخذ حقه كاملًا، كما جاء في حديث المُفلِس الذي يأتي بصلاة وصيام وصدقة، وقد ضَرَبَ هذا، وسَفَكَ دم هذا، وانتهكَ عِرْض هذا، فيعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، حتىٰ إذا فَنِيَت حسناته، أُخِذَ من سيئاتهم، فطُرِحَت عليه، فطُرِحَ في النار.

فالإنسان لا ينبغي أن يكون حديثه عن الآخرين، بل يكون حديثه في النصح، وتعليم الناس الدين، كالصلاة والصيام والحج والصدق والعفاف والورع والتقوىٰ، فللإنسان في أحكام الله وشرعه، ما يُغنيه عن الحديث من الصباح إلىٰ المساء، فينبغي له أن يحرص أن تكون مجالسه ولقاءاته كلها في ذكر الله، وأن يتعلم أشياء في الدين، أو يكون في كلام مباح، لا يعرض لأعراض الآخرين، فإن عِرْض المسلم مُحرَّم بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة، ولا يُباح إلا بأدلة مثلها من كتاب وسُنَّة وإجماع، أما أن يكون قائده الظن والهوىٰ، فهو الخسران، يوم القيامة تأتي بصحيفته، والناس ينازعونه حسناته، فيقول: (إذا

(١) صفة الصفوة (٣/ ٢٤٩).

رأيت الرجل مُوكلًا بعيوب الناس، ناسيًا لعيبه، فاعلموا أنه قد مُكِرَ به).

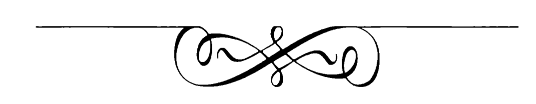
التوجيه الثالث: قال رَحِمَهُ اللهُ : (إيَّاك من الكلام، ما إن أصبت فيه، لم تُؤجَر، وإن أخطأت، أَثِمْتَ، وذلك سوء الظن بأخيك)، فالإنسان عليه أن لا يُسِيء الظن بأخيه، ولو سمع كلمة، قد يكون ظاهرها غير حسن، ولكن عليه أن يحمل أعمال أخيه وأقواله، على المحمل الحسن، ولا يحمله على الظن السيئ، (ما إن أصبت فيه، لم تُؤجَر)، وهذه درجة الورع، فالكلام على ثلاثة مراتب: كلام فيه أجر، وكلام فيه وِزر، وهما متعارضان، وكلام ليس فيه أجر ولا وزر، فهذا هو الكلام الذي إن أصبت فيه لم تُؤجَر، ولكن إن أخطأت فيه، كان عليك وِزر، وهنا خصَّص، فقال: (الظن بأخيك)، قد تظن بأخيك ظنًّا، ويكون حقًّا، ولكنك لا تُؤجَر في هذا الظن، ولكن إن حملته على محمل حسن، فإنك تُؤجَر؛ لأنك برأت عِرْض أخيك، وكان بعض الصالحين يحرص على أن لا يعمل عملًا، يجعل الناس يتكلَّمون فيه، فيكون ذلك سببًا في ارتكابهم الأوزار في حقه، وهذا من كمال التقوى والصلاح.

ويقول بكر بن عبد الله المزني في هذه الكلمة: إن الصدِّيق ما سَبَقَ الصحابة بكثرة صلاة وصيام، ولكن قلبه كان رقيقًا، صادقًا، سليمًا، ولهذا قال بعض العلماء: لو أعلم أن الله تقبَّل مني ركعتين، لتمَنَّيْتُ الموت، قيل: لماذا؟ قال: لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧]، فتقبُّل الله لعملي يدل على أني من أهل التقوى، فأحب أن أموت على التقوى.

فالعبرة بما في القلب، فقد جاء في الحديث: (إن الرجل ليُصلي الصلاة لا يُكتَب له إلا عُشرها، تُسعها، ثُمنها، سُبعها، سُدسها، خُمسها، رُبعها، ثُلثها،

نِصفها)[(١)]، فنقف كلنا في المسجد، والحركة العامة واحدة، ولكن الأجر متفاوت، واحد يخرج ما له شيء، وواحد يخرج وله حسنات كالجبال، فصورة العمل ليست هي مَناط تفاضُل الناس، وارتفاع درجاتهم، وإنما الشأن فيما يرافق ذلك ما يرافقه، من تقوىٰ القلب، وصلاحه، ويقينه.

فهذا معنىٰ كلام المزني رحمه الله: أن العبرة بما في القلب، لا بكثرة العمل، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، أحسن عملًا، أي: أخلصه وأصوبه.



(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (١٨٨٩٤)، (٣١/ ١٨٩)، وأخرج نحوه أبو داود في سُننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة، برقم: (٧٩٠)، والنسائي في السُّنن الكبرىٰ، كتاب الصلاة، باب في نقصان الصلاة، برقم: (٦١٤)، (١/ ٣١٦)، والبيهقي في السُّنن الكبرىٰ، كتاب الصلاة، جماع أبواب الخشوع في الصلاة والإقبال عليها، برقم: (٣٥٢٧)، (٢/ ٣٩٩)، وحسَّنه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فمن قال: لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوبًا وسيئات، وكان صادقًا في قولها موقنًا بها، لكن ذنوبه أضعاف أضعاف صدقه ويقينه، وانضاف إلىٰ ذلك الشرك الأصغر العملي رجحت هذه الأشياء علىٰ هذه الحسنة، ومات مصراً علىٰ الذنوب. بخلاف من يقولها بيقين وصدق تام، فإنه لا يموت مصرًا علىٰ الذنوب، إما أن لا يكون مصراً علىٰ سيئة أصلاً، أو يكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته، والذين يدخلون النار ممن يقولها قد فاتهم أحد هذين الشرطين: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين للسيئات، أو لرجحان السيئات، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت علىٰ حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام؛ لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوىٰ علىٰ محو السيئات بل ترجح سيئاتهم علىٰ حسناتهم. انتهىٰ ملخصًا.



الشَّرح

قوله: (ومات مُصِرًّا علىٰ الذنوب...)، أي الإنسان قد يقول: لا إله إلا الله، ولم يقم بموجبها، وبما تدل عليه، يضيف إلىٰ ذلك الشرك الأصغر، فيستحق العقاب يوم القيامة، ولا ينفعه التوحيد؛ لأن التوحيد الذي جاء به ناقصٌ، فهذا هو مراد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا النقل كله من كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ذكر هنا صنفين مِمَّن يدخل النار:

الصنف الأول: مَن لم يقولوها بصدق ويقين.

والصنف الثاني: مَن قالوها بصدق ويقين، ولكن أتوا بعد هذا القول، بسيئات أضعَفَتْ ذلك الصدق واليقين.

وحديثه هنا عن المسلمين الموحِّدين، وليس عن الكفار، هذا محصل لكلام ابن تيمية رحمه الله، ونحن نلخصه في تسعة أنواع:

◈ **الأول**: مَن قالها ومات عليها، ولم يأتِ بعد قوله لما يناقضها.

◈ **الثاني**: أن قولها بشروطها، يقتضي انجذاب القلب بالتوبة، والابتعاد عن المعاصي.

◈ **الثالث**: أن مَن يقولها ولا يعرف معناها، يُخشَىٰ عليه من الفتنة عند الموت، فقد يعيش الإنسان طوال حياته، ولا يعرف معنىٰ لا إله إلا الله، فهذا يُخشَىٰ عليه الفتنة، بحيث إذا قيل له قل لا إله إلا الله، فلا يذكر إلا التجارة، أو الزراعة، أو الأغاني، أو بعض مألوفاته؛ لأنه قالها ولكن لم يقلها بصدق ويقين.

◈ **الرابع**: أن مَن يقولها بإخلاص ويقين، يجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فلا يبقىٰ في قلبه محبة لغير الله، فالقلب إذا امتلأ بمحبة الله وتعظيمه، لا يسكُن معه غيره.

◈ **الخامس**: أن مَن يقولها بإخلاص، فإن ذلك يمحو عنه الذنوب السابقة، ولهذا قال البخاري رحمه الله: (مَن قالها عند الموت، أو مَن قالها ونَدِمَ علىٰ معاصيه)، هو الموعود بدخول الجنة.

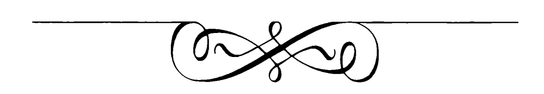
◈ **السادس**: أن مَن سَلِمَ من الشرك الأكبر، يُرجَىٰ أن تُرجَح علىٰ سيئاته، وكذلك الشرك الأصغر علىٰ قول ابن تيمية رحمه الله.

◈ **السابع**: أن مَن قالها وأتىٰ بعدها بسيئات، ورجحَت علىٰ حسناته، يستحق الوعيد، ويكون تحت المشيئة، أي يكون مُتوعَّدًا بالعقاب.

◈ الثامن: مَن كثرت ذنوبه، أثَّرت علىٰ لسانه عند الموت، فيحاول قولها ويتذكرها، فلا يستطيع قولها.

◈ التاسع: أنه ليس العبرة بقولها فقط، بل العبرة بأن تُقال بقيودها، وهو اليقين والصدق، وبقية شروطها، التي سيأتي ذِكْرُها -إن شاء الله-.

وبهذا قد انتهىٰ رَحِمَهُ اللَّهُ من كلام ابن تيمية، وهذا الكلام ذكر معناه ابن القيم وابن رجب، في رسالة صغيرة له اسمها (التوحيد)، كما سيأتي قريبًا عند قوله: (وحاصله).



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد ذكر معناه غيره كابن القيم وابن رجب والمنذري و القاضي عياض وغيرهم، وحاصله أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتض لذلك، ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع.

ولهذا قيل للحسن: إن ناسًا يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة. فقال: من قال (لا إله إلا الله) فأدىٰ حقها وفرضها دخل الجنة.



الشَّرح

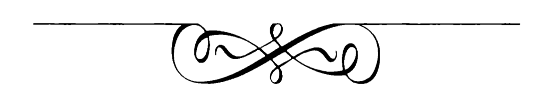
قوله: (فقد يتخلَّف عنه مقتضاه؛ لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع)، هنا أتَىٰ بثلاثة مصطلحات: مقتضي، وشرط، ومانع، وينبغي للدارس أن يعرف معناها، فالمقتضي: هو الذي يكون مُلازمًا لمقتضاه، والمقتضىٰ لا يدل عليه اللفظ، بل المعنىٰ، فلا إله إلا الله مُقتضاها دخول الجنة، ولكن بشرط، وهو الصدق في قولها، وعدم المانع، وهو أن لا يأتي بشرك ينقضها.

ولهذا قال ابن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ : (أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلَىٰ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان، فُتِحَ لك، وإلا لم يُفتَح لك)، ولهذا يُقال: لا يُكفَّر إنسان، ولا يُبدَّع، إلا إذا توفرت فيه الشروط، وانتفَت الموانع.

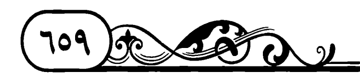
وهذا الكلام ذكر مثله الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث يقول: (قد أطبق أئمة المسلمين من السلف والخَلَف والأشعرية والمعتزلة)، وعطف الأشعرية والمعتزلة علىٰ الخَلَف، من باب عطف الخاص علىٰ العام، لأهميته؛ لأنهم

ولا شك يدخلون في الخَلَف، وإذا قيل: السلف، فهم مَن كان علىٰ مذهب السلف (أن الأحاديث الواردة، بأن مَن قال لا إله إلا الله، دخل الجنة، مُقيَّدة بعدم الإخلال بما أَوْجَب الله من سائر الفرائض، وعدم فعل كبيرة من الكبائر، التي لم يَتُب فاعلها)، يعني بالإصرار عليها، (وأن مُجرَّد الشهادة لا يكون مُوجِبًا لدخول الجنة)، إلىٰ أن قال: (وإنما ذكرنا هذا للتعريض بإجماع المسلمين، علىٰ أن هذه الأحاديث مُقيَّدة بعدم المانع)[1]. فالمعنىٰ العام هو نفس المعنىٰ الذي ذكره ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن المقتضىٰ لا يؤدي أثره إلا بشرطه وانتفاء مانعه، فالإنسان قد يقول: لا إله إلا الله، ومَن قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة، ولكن بشرط، وهو أن يكون صادقًا في قوله، والصدق يظهر علىٰ جوارحه، هذا معنىٰ كلام الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسيأتي ذكر شروطها، وهي سبعة، كما جاءت في منظومة الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (**مَن قال لا إله إلا الله، فأدَّىٰ حقها وفرضها، دخل الجنة**)، بأن يكون أدَّىٰ حقها، يعني قالها بصدق وانقياد، لم يقُلها فقط بلسانه.



(١) نيل الأوطار (١/ ٣٧٦).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلىٰ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك وإلا لم يُفتح.



الشرح

قوله: (وقال وهب بن منبه...)، وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التابعين، وقد توفي في أوائل القرن الثاني، وله توجيهات لطيفة وكلام جميل، اخترنا منه ثلاثة أمثلة؛ لأن سماع الإنسان لأقوال العلماء والصالحين، يفتح له كثيرًا من أبواب الخير، وفي كلامه كثير من الروايات الإسرائيليات؛ لأنه كان من أهل اليمن، وهو قريب من اليهود في اليمن.

يقول: (عن لقمان أنه قال لابنه: "يا بني اعقِل عن الله، فإن أعقل الناس عن الله، أحسنهم عقلًا، وإن الشيطان ليَفِر من العاقل"، فكمال الإنسان في ثلاثة أشياء، وكل الشرائع جاءت لتكمل هذه الأشياء الثلاثة:

◊ الأول: الدين.

◊ والثاني: العلم.

◊ والثالث: العقل.

فالذي عنده دين وعلم، وليس عنده عقل، يفسد، ونرىٰ نماذج كثيرة من هذا النوع، لا نتَّهِمه في دينه، ولا في علمه، ولكن آفته في عقله، فكمال العقل مطلوب، والقرآن الكريم يشير إلىٰ ذلك كثيرًا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة:٧٣]؛ لأن العقل له دور كبير، وهو مناط التكليف، فإذا فقدَ

الإنسان العقل، أصبح مثل البهيمة، وسقط عنه التكليف، ولا يُحاسَب مهما قال وفعل، والعقل درجات، فمنه ما هو فطري، وما هو كسبي، لهذا يقولون: مَن قرأ لعالِم، فكَّر بعقله، ومَن قرأ لعالِمين، فكَّر بعقليهما، ومَن قرأ لعشرة علماء، فكَّر بعقول عشرة علماء، وينبغي أن يكون الذي يقرأ القرآن، ويقرأ السُّنَّة، أحسن الناس عقلًا؛ لأنه يُناجِي الله بقراءة القرآن، ويرَىٰ فيه الأخلاق والآداب، التي بها يكمل الإنسان، ويرَىٰ في كلام رسول الله ﷺ، الأدب الجَم، والأخلاق العظيمة، فلماذا يكون الإنسان المـُتدَيِّن، -وهو يقرأ القرآن، ويقرأ السُّنَّة- أنقص الناس عقلًا؟ لأنه لم يستفد من قراءته، ولم يتجاوز الألفاظ إلىٰ المعاني.

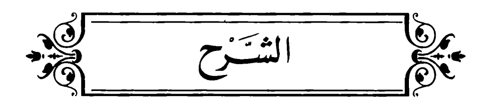
فكمال العقل مطلوب، ولهذا يُمدَح العلماء، مثل الشافعي ومالك، بالعقل.

ثم قال: "قال موسىٰ: يا رب احبس عني كلام الناس، قال: لو فعلت هذا لأحد، لفعلته لنفسي"، ويُروَىٰ ذلك عن عزير، وكان عنده غيرة، وما يحب أن أحدًا من الناس يتكلم فيه، فسأل الله أن يكُف عنه الألسن، قال: يا فلان، هذا ما جعلته لنفسي، فكم قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، وكم قالت النصارىٰ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨١]، فلو كان الله ﷻ يمنع للناس أن يتكلم بعضهم في بعض ما لا يليق، لمنعهم أن يصفوه بما لا يليق، ولكن هذا ابتلاء، والحياة الدنيا ابتلاء.

ومنها -أي من حكم وهب بن منبه-: "إذا سمعت مَن يمدحك بما ليس فيك، فلا تأمنه أن يذُمَّك بما ليس فيك"، فإذا رأيت إنسانًا يمدحك بما ليس فيك، فلا تأمنه أن يذُمَّك بما ليس فيك، وإذا تجرَّأ علىٰ الكذب لك، فسيجرؤ علىٰ الكذب عليك، فهذا من نصائحه رحمه الله.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويدل علىٰ ذلك أن الله رتب دخول الجنة علىٰ الإيمان والأعمال الصالحة؛ وكذلك النبي ﷺ كما في الصحيحين: عن أبي أيوب أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة. فقال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم».



الشَّرح

قوله: (كما في الصحيحين: عن أبي أيوب...)، هذا الحديث له قصة، ذكرها مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه، فقال: (أن أعرابيًّا عَرَضَ لرسول الله ﷺ، وهو في سفر، فأخذ بخِطام ناقته -أو بزمامها-، ثم قال: يا رسول الله -أو يا محمد-، أخبرني بما يقرِّبني من الجنة، وما يباعدني من النار، فكَفَ النبي ﷺ)، أي الناقة، (ثم نظر في أصحابه)؛ لأنه ﷺ أعجبه السؤال، (ثم قال: لقد وُفِّق هذا -أو لقد هُدِيَ-، ثم قال له: كيف قلت؟ فقال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: تعبد الله، لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتَصِل الرحم، دَعْ الناقة)[(١)]، هذا الحديث لم يشتمل علىٰ الأركان الخمسة، ولذا فهو من الأحاديث التي أشكلت علىٰ بعض العلماء، وللجمع بين هذه الأحاديث، والأحاديث المتأخرة التي فيها: (بُني الإسلام علىٰ خمس)[(٢)]، وذكر فيها الأركان الخمسة، قالوا: هذه الأحاديث وردَت في أول الإسلام، وأما حديث معاذ الذي كان في آخر البعثة،

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، وأن مَن تمسَّك بما أُمِرَ به دخل الجنة، برقم: (١٣)، (١/ ٤١)، وأخرجه البخاري في صحيحه مختصرًا، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم: (١٣٩٦).

(٢) سبق تخريجه.

حين بُعِثَ إلىٰ اليمن، ولم يُذكَر فيه الحج، فقال العلماء: إن الصحابة أو من بعدهم من التابعين، قد يَجتزِئ الحديث؛ لأنه لم يكن هدفه إيراد الحديث كله، وإنما أوْرده؛ للاستشهاد به علىٰ قضية، وفي آخر الحديث، لعله أراد أن يُبيِّن خطورة الظلم، فقال: **(وإياك كرائم أموالهم، واتقِ دعوة المظلوم)**[١]، فلعل الراوي اجتزَأ، وهذا صنيع كثير من المحدِّثين، كالبخاري رحمه الله، فإنه يُوزِّع الحديث في كتابه علىٰ أبواب، يستشهد بكل جزء منه علىٰ مسألة.

فليس هناك إشكال، فالرواة إنما يسوقون الروايات، وخاصةً الصحابة رضي الله عنهم، الذين ما كانوا يجلسون المجالس الطويلة للتحديث، وإنما كان أكثر رواياتهم في المناسبات والمواقف، للاستشهاد علىٰ بعض الأحكام، فليس في هذا تعارض أو تناقض، بل كل حديث يُفسَّر بحسبه، فهذا الحديث لم يُورِد إلا ثلاثة أركان من أركان الإسلام:

الأول: الشهادة، بمعنىٰ تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا.

الثاني: وتقيم الصلاة. **الثالث**: وتؤتي الزكاة.

وهذا الحديث فيه فوائد:

أولًا: أبو أيوب هو الصحابي الجليل، الذي قد أضاف رسول الله ﷺ عند هجرته إلىٰ المدينة المنورة، فأسكنه عليه الصلاة والسلام في الدور الأسفل من بيته؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الزوار من المسلمين، ويَشُقُّ عليهم الطلوع إلىٰ الدور الأعلىٰ، وسكن هو في الدور الأعلىٰ، وبعد ذلك قد آثر النبي ﷺ علىٰ نفسه، وأبو أيوب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، وتُرَدُّ إلىٰ الفقراء حيث كانوا، برقم: (١٤٩٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلىٰ الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم: (١٩)، (١/ ٥٠).

هذا هو الذي مات في غزوة القسطنطينية، الغزوة التي بعثها معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لفتح القسطنطينية، وكان يأمل أن يكون هو الفاتح لها، ولم تُفتَح، ومات رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في هذه الغزوة، وزاره يزيد بن معاوية؛ لأنه كان قائد الحملة، فقال: ماذا تريد؟ قال: أريد إذا مِتُّ، أن تحملني وتدفني في أعماق بلاد الكفار، ما استطعت إلىٰ ذلك سبيلًا، وقبر أبي أيوب إلىٰ الآن في تركيا معروف؛ فهو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مات في تلك البلاد، في غزوة أراد فيها أن ينصر الإسلام، فعاش طوال حياته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وما ترك غزوة إلا وشارك فيها.

ثانيًا: وهذا الحديث يدل علىٰ قرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصحابه، وعدم وجود مَن يمنع الناس عنه؛ لأنه لو مُنِعَ الناس، لما استطاع أن يُبلِّغ دين الله، والله عَزَّ وَجَلَّ قد وعده بحفظه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧]، وهذا وعد صادق؛ لأنه وعد الله، وقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحرص علىٰ مَن يحرسه، فعندما أنزل الله هذه الآية؛ أمر الحراس أن ينصرفوا، ولو كان هذا الوعد من غير الله، لما صدقه، ودلَّ علىٰ أن هذا الكتاب كلام الله، و يدلنا أيضًا علىٰ حرص الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ علىٰ معرفة ما يقرِّبهم من الجنة، ويباعدهم من النار، وهكذا كل مسلم، يحرص علىٰ أن ينجو من عذاب الله يوم القيامة، وأن يدخل الجنة، فإن هذا هو الفوز العظيم، مَن خسره، فإنه يكون خاسرًا في الدنيا والآخرة، ومَن فاز به، فإنه يكون فائزًا في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: حُسْن السؤال، وينبغي أن نتعلم حُسْن السؤال، فقد تكون في ذهن الإنسان مسألة، فيسأل بطريقة غير سليمة، وهناك مَن يسأل المُفتي بحيث يجيبه بحسب ما يريد هو، وكأنه يُلقِّن الشيخ الجواب، فنحن بين أمرين: إما أن نكون واثقين في علم هذا الشيخ وعقله وأمانته، وأنه يُدرِك فقه الكتاب والسُّنَّة، وفقه الواقع، فنثق به وبما يفتي، وهذا لا يعني أنه معصوم، وإما أن نكون غير

ذلك، وفيه خطورة على المسلم، إذا اعتقد أن العالم الذي يعيش مع كلام الله، وكلام رسول الله ﷺ، لا يُدرك حقائق الأشياء، وأنه يحتاج إلى أن يُلقَّن الفتوى، فهذا اتهام، كأنه يقول: إن الإنسان لا يكون كاملًا، ولا يدرك حقائق الأشياء، إلا إذا أدخل مع كلام الله، ومع كلام رسوله، عِلمًا آخر، إما علم النفس، أو علم الاجتماع، وهذا خطأ كبير؛ لأن مَن عاش مع كلام الله، وكلام رسول الله ﷺ، فهو أقدر الناس على تقدير الأمور، وعلى معرفة حقائقها، فإذا لم تكن هذه الحقيقة في نفوسنا أمام مشايخنا وعلمائنا، فهذا يعني عدم ثقتنا بهذا الدين؛ لأن العلماء هم أهل الذكر، الذين أمرنا الله ﷻ بسؤالهم، إن كنا لا نعلم، وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣].

رابعًا: الثناء على حُسْن السؤال، فينبغي أن يُثنَى عليه؛ لأن هذا تدريب للأذهان على حسن السؤال.

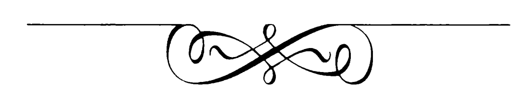
خامسًا: أهمية التوحيد، فإنه بدأ به، (تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا)، وقوله: (تعبد الله)، يدل على المعنى، (ولا تشرك به شيئًا)، تأكيد لذاك المعنى، هذا أسلوب القرآن الكريم في الأمر بالعبادة أحيانًا، وبالنهي عن الشرك أحيانًا، فالأمر بالعبادة، نهيٌ عن الشرك، والنهي عن الشرك، أمرٌ بالعبادة، فإذا جُمِعَتا، كانتا أشد توكيدًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقوله -تعالى- في آية أخرى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

سادسًا: اقتران الصلاة والزكاة بالتوحيد دائمًا.

وسابعًا: أهمية صلة الرحم، وهذا هو أدب الإسلام، فالمسلم عليه حقوق لرَحِمه وأقربائه، يصلهم، ولو كان بالزيارة، وليس شرطًا أن يصلهم بالمال، وإنما يزورهم بنفسه، ويتعاهدهم، ويَبَشّ في وجوهم، ويحرص على قضاء

حوائجهم، فإن له في ذلك أجرين، كما جاء في الحديث، أن الصدقة علىٰ القريب فيها أجران: أجر الصدقة، وأجر القرابة، وجاءت النصوص للتوصية بالجار عمومًا، وبحقوق الأقربين؛ لأنه كلما احتكَّ الإنسان بالإنسان، زادت المشاكل، وازدادت الخلافات بينهما، فإن لم يكن هناك عاصم من دين، أو خُلُق، فإنه يحدث بينهم الفجوة والخلاف والمشاكل.

والشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوْرد هذا الحديث؛ ليستدِل به علىٰ أن مجرد النطق بالشهادتين، ليس هو الذي ينجِّي الإنسان في الآخرة، وإنما هو النطق بها، والإتيان بلوازمها ومُقتضاها، من الصلاة والزكاة والحج والصيام، إلىٰ آخر حقوق الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن قد يقع من الإنسان معاصٍ، لا يصر عليها، وأي قلب يصفو من الشرك؛ لأن الشرك علىٰ درجات: أكبر وأصغر وخفي، ولا يكاد يسلم قلب من الشرك: إما في المحبة، وإما في الخوف، وإما في الرجاء، وإما في التوكُّل، فإذا سَلِمَ القلب من الشرك، فهذا قلب عزيز، فمهما وقع فيه من معاصٍ، فإن الله يكرمه؛ لأنه يعفو عن معاصيه، كما تقدَّم في الحديث.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي المسند عن بشر بن الخصاصية قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه فاشترط علي شهادة أن لا أله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن أقيم الصلاة، وأن أوتي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله أما اثنتان فو الله ما أطيقها، الجهاد والصدقة. فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال: «فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذا؟!» قلت: يا رسول الله أبايعك عليهن كلهن.

ففي الحديث أن الجهاد والصدقة شرط في دخول الجنة مع حصول التوحيد والصلاة والحج والصيام، والأحاديث في هذا الباب كثيرة. وفي الحديث دليل علىٰ أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد، وبالعكس.

وفيه تحريم النار علىٰ أهل التوحيد الكامل وفيه أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصًا لله تعالىٰ.



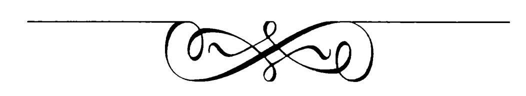
الشَّرح

قوله: (**وفي المسند عن بشر بن الخصاصية...**)، هذا الحديث في سنده راوٍ ضعيف، وهو أبو المثنىٰ، اسمه مؤثر بن عفازة، وهو مجهول العين، ومجهول العين هو الذي لم يروِ عنه إلا واحد، أي غير معروف العين، وهذا الرجل لم يوثقه غير ابن حبان، وابن حبان، والحاكم، والترمذي، كل هؤلاء متساهلون، ولهذا لا يعتمد المحدِّثون علىٰ توثيقهم وتصحيحهم، بل يتوقفون، فابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوثق المجاهيل، فلا يكفي في تعديل الراوي، إن لم يوافقه غيره، فليس كل مَن في كتاب الثقات ثقة، فهذا الراوي الذي علىٰ هذا الحال، روايته ضعيفة، فالحديث ضعيف بهذا السند، وليس له سند غيره، ولكن الحديث يدل علىٰ

المعنىٰ السابق، من أنه لا بد للنجاة من عذاب الله، ودخول الجنة من الأركان الخمسة، ولوازم الشهادتين.

ولكن قول المحقق في حاشية (مجمع الزوائد): (قاله المجمع ورجال أحمد موثقون)، في الأحاديث التي فيها أبو المثنىٰ، وصاحب مجمع الزوائد متساهل، ولا يُؤخَذ بقوله أو بحُكْمه، فهذا الرجل ضعيف مجهول، ولكن قال: (رجاله موثقون)، وهذه كلمة غامضة، يعني أنهم وُثِقُوا، ولو كانوا من أُناس ليسوا من المـُتشدِّدين، أو من المقبولين، ولكنه رَحِمَهُ اللهُ مُحتاط، فمنهجه في غاية الحيطة، لا تكاد تجده يقول: الحديث صحيح، ولكن كل قوله: رجاله ثقات، وفرق بين أن تقول: رجاله ثقات، وحديث صحيح، فالحكم بتوثيق الرجال ليس تصحيحًا للحديث، فلابد أن تنتفي عنه العلل، فقد يقول في الحديث: رجاله ثقات، ولكن فيه علة، ولهذا يكتفي بهذا القول: رجاله ثقات، رجاله موثقون.

وكم نصحِّح من الأحاديث الضعيفة في هذا العصر! ولا شك أن هذا فيه تسرُّع ومجازفة غير مقبولة؛ لأن تصحيح الأحاديث، تحتاج إلىٰ درجة عالية جدًّا من علم الأسانيد، وعلم المصطلح، وتطبيقها علىٰ الأسانيد، قد يكون الحديث مُتصلًا في الظاهر، ورجاله كلهم ثقات، ولكنه يكون مُنقطعًا، وأن بين بعض الرواة وبين الآخر، خمسين سنة أو ستين سنة، هذه فترة زمانية تكاد تجعل الراوي لم يسمع من الذي فوقه، فقضية التصحيح قضية شائكة، وليست سهلة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: (وعن أبي سَعِيدٍ الخدري عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: قالَ مُوسَىٰ يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيئًا أَذْكُرُكَ وأدعُوكَ به. قالَ: قُلْ يا مُوسَىٰ (لا إله إلا الله). قالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هذَا. قالَ: يا مُوسَىٰ لو أنَّ السمَواتِ السَّبْعَ وعَامِرَهُنَّ غَيْرِي والأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ ولاَ إلهَ إلاَ اللهُ في كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لا إلهَ إلا اللهُ. رواه ابن حبان والحاكم وصححه).

أبو سعيد: اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي صحابي جليل، وأبوه أيضًا كذلك، استصغر أبو سعيد بأحد ثم شهد ما بعدها، مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين، وقيل: أربع وسبعين.

قوله: (أذكرك) هو بالرفع خبر مبتدأ محذوف، أي: أنا أذكرك، وقيل: بل هو صفة (وأدعوك) معطوف عليه، أي: أثني عليك وأحمدك به، (وأدعوك) أي: أتوسل به إليك إذا دعوتك.

الشَّرح

قوله: (وعن أبي سعيد الخدري...)، الحديث، هذا الحديث في سنده دراج بن سمعان، وقد أنكر حديثه الإمام أحمد والنسائي، وقالا: في حديثه نكارة، ولكن وثقه ابن معين، وابن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منهجه في التوثيق من المُتشدِّدين، ولهذا بعض مَن درس كتاب التوحيد، رجَّح أن الحديث صحيح، وأن ابن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يوثق إلا مَن كان في درجة التوثيق، فهذا الحديث -إن شاء الله- لا يقل عن درجة الحسن، إما صحيح أو حسن، وحديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي أنه سأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يعطيه ذِكْرًا خاصًّا يميزه عن غيره، وسيأتي هذا من كلام الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ والتعليق عليه.

وفي هذا الحديث أن: نبي الله موسىٰ عليه السلام أراد ذِكْرًا خاصًّا له، يُفرِده عن بقية قومه، فأخبره الله أن هذه الكلمة أعظم كلمة، وهي مبذولة لكل الناس؛ لأن دين الله عز وجل ليست فيه خصوصية لأحد، ولهذا مَن زعم أن الأنبياء يعطون بعض الأسرار التي هي من الدين، لبعض أقربائهم، أو بعض مَن يحبون، ولا يعطونها غيرهم، فهذا -والعياذ لله- اتهام الأنبياء في المحاباة لدين الله، وهذا علي رضي الله عنه (عندما قيل له هل أَوْصَىٰ لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء؟ غَضِبَ، وخَطَبَ في الناس، وقال: ما أَوْصَىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا بشيء، أَكْتَمه عن الناس، ثم قال: ولَمْ يخصنا بشيء، إلا ما في هذه الصحيفة، وفيها أربع: لعن الله مَن ذبح لغير الله، لعن الله مَن لعن والديه، لعن الله مَن غيَّر معالم الأرض، لعن الله مَن آوَىٰ محدثًا)[1]، فهذه كلها مبذولة، فالأنبياء لم يخصوا أحدًا، وكذلك الله عز وجل لا يخص الأنبياء في دينه بشيء، لم يعطه الناس، إلا إذا كانت الخصوصية مما لا يتعلق بحاجة الناس، أما دين الله فهو عام، والبشر كلهم عباد الله، وكذلك حق علىٰ النبي صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الأمة دين الله -تعالىٰ-، ووحيه، وأمره، ونهيه، بدون مُحاباة لأحد، وإن كان قريبًا علىٰ آخر، وإن كان بعيدًا.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه باختلاف يسير، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله -تعالىٰ-، ولعن فاعله، برقم: (١٩٧٨)، (٣/ ١٥٦٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (قل يا موسىٰ: لا إله إلا الله) فيه أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر علىٰ لفظ الجلالة كما يفعله جهال المتصوفة، ولا يقول أيضًا: هو، كما يقوله غلاة جهالهم، فإذا أرادوا الدعاء قالوا: يا هو. فإن ذلك بدعة وضلالة، وقد صنف جهالهم في المسألتين، وصنف ابن عربي كتابًا سماه كتاب (الهو).

الشَّرح

قوله: **(ولا يقتصر علىٰ لفظ الجلالة، كما يفعله جُهَّال المتصوفة...)**، نقف هنا وقفة قصيرة مع إشارة الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ المتصوفة: وهذه طائفة أشبه ما تكون بالماسونية في الوقت الحاضر، وإن كان في بدايتها تُسمَّىٰ بالزُّهَّاد، كما كان الصحابة الذين زهدوا في الدنيا، يُسمُّون القُرَّاء، وكان همهم قراءة القرآن وحفظه، فسُمُّوا بالقُرَّاء، ثم ظهر جيل في التابعين، سُمُّوا بالزُّهَّاد، فهناك كتاب الزهد للإمام أحمد، وكتاب الزهد لوكيع، وكتاب الزهد لابن مبارك، علىٰ هذا النوع، ثم ظهر قوم في جيل آخر، سُمُّوا النُّسَّاك، ثم ظهر التصوُّف، فكانت بدايته قريبة من الفضائل والرقائق، أو من الأخلاق، أو من السلوك الإسلامي، ثم انحرف، فمَن دخل في الإسلام من غير المسلمين، استصحب ما كان يعيش عليه من عقائد، فمَن أسلم من الفُرس، ومن الهنود، ومن المصريين، ومن أهل الشام، استصحبوا عقائدهم، وتولَّد من هذا بدعة التصوف، وقد جُمِعَت عقائد جميع أصحاب المِلَل والنِّحَل، ففي الهند البوذية، وهي طائفة أشبه ما تكون بالمتصوفة، في أخلاقها وعاداتها عند المسلمين، فإذا نظرنا في عقائد البوذيين، وجدنا فيها مصطلحات، هي نفس مصطلحات الصوفية، فإن البوذي يقول: إن هدفه الأعلىٰ أن يسعىٰ، حتىٰ يفنَىٰ في الخالق، وهذا نفس الكلام

الذي عند الصوفية، ومن الطرائف أن رجلًا إنجليزيًّا قبل قَرابة ثلاثين عامًا تقريبًا، كان يعمل ممثلًا وراقصًا، ويعمل كل ما يستطيع؛ لجلب المال، استوقفه يومًا من الأيام سؤال في نفسه، لماذا أتعب؟ أجاب عن نفسه: لأجمع المال، لماذا أجمع المال؟ لأعيش عيشة طيبة، لماذا أعيش عيشة طيبة؟ لماذا لا أموت الآن وأستريح؟ فتوقف عن التمثيل، وتوقف عن الرقص، وذهب يسأل زميلًا له، عنده دكتوراه في الأديان البشرية في المذاهب الإنسانية، فسأله، فقال: أنا لا أستطيع أن أُجِيبُك، ولكن أَدُلُّكَ علىٰ منطقة تذهب إليها، تبحث بنفسك عن الدين الذي ترتضيه، ابقَ في الهند، والهند عدد سكانها يُقارب المليار، وعدد الأديان في الهند يقارب عدد السكان، فكل شيء يُعبد، كل ما خطر ببال الإنسان، ولم يخطر بباله، هناك يُعبَد من دون الله -تعالىٰ-، فذهب هذا إلىٰ الهند، وفي أول ليلة قابله البوذيون، فأخذوه، قالوا له: أنت وصلت للحقيقة، والآن روحك مسجونة، ولابد من تخليصها، قال: كيف؟ قالوا: الآن نحن نعطيك المنهج، فبدأوا به علىٰ الشوك، كل يوم يسحبونه علىٰ الشوك، وفي اليوم الثاني يُكوَىٰ بالنار، وفي اليوم الثالث بدون طعام، وأشياء مُنكَرة من هذا القبيل، قَرابة أسبوع، فقال: سأتوقف، أعطوني مهلة، فقال في نفسه: الذي خلقني هذا الخلق الجميل، وخلق هذا الكون الجميل، لا يمكن أن يكون هذا دينه، فأسرها في نفسه، فبات مهمومًا، فرأىٰ في المنام أُناسًا عليهم ملابس بيضاء، تحت شجرة خضراء، فسألهم: مَن أنتم؟ قالوا: نحن أتباع محمد ﷺ، فكان هذا الفَرَج له، فانتبه، وردَّدَ اسم محمد، فذهب يسأل أين محمد؟ حتىٰ دلُّوه علىٰ المسلمين، وكان هناك شيخ مصري اسمه: عبد الرحمن الشرباصي من الأزهر، جاء لبعض المحاضرات والندوات، فدلُّوه، وأراد الله به خيرًا، فدخل المسجد الذي فيه هذا الشيخ، فعرض عليه الإسلام، فسُرَّ به، وأسلم، وتَسمَّىٰ بعبد الرحمن الأنصاري، ثم قال: أريد أن أذهب إلىٰ منطقة أتعلَّم فيها

الإسلام، ثم أسلم هو وعائلته.

فالشاهد أن هذا الرجل أول ما ذهب هناك قابله البوذيون، فقالوا له قولهم السابق، وأنهم يقولون له إذا لم تتخلَّص الآن ومِتُّ، فرُوحك تُنسَخ في كلب، وإذا لم تصلح، تُنسَخ في خنزير، وفي أفعىٰ، وهكذا التناسخ، وهو موجود كذلك عند الصوفية، يعتقدون أن الله ﷻ يَحلُّ في الإنسان، وأن رُوح الإنسان إذا ما تهذَّبَت، فإنها تُعذَّب عذابًا في خلق آخر، وعندهم أن المريد يكون فقيرًا، فإن بوذا هذا زعميهم، يقول: المريد لابد له أن يمتنع من أربعة أشياء: أن لا يتكسَّب، وأن لا يتزوَّج، وأن لا يسكن أو يبني بيتًا، وأن لا يتعلَّم، وبهذا يستطيع أن يدخل الملكوت، هذه أخلاق الصوفية التي يدعون الناس إليها، وهي الانقطاع والفقر، والذي أسقط الخلافة العثمانية التركية، انتشار هذه البدع في بلاد المسلمين، فإنه في أثناء خلافتها، كانت بلاد المسلمين كلها صوفية، ومَن خرج إلىٰ تلك البلاد، رأىٰ العجب، يرىٰ التصوف بشكل رهيب، جماعات وطوائف منوعة، كنَّا مرة في بعض البلاد الإسلامية، في بداية رمضان، ونحن في السكن، رأينا المتصوفة وهم يذهبون لبعض المساجد؛ لإحياء الليل فيها، أو لإماتة الليل؛ لأن هذا في الحقيقة ليس بإحياء الليل، فإذا بأكثر من أربع مجموعات، لكل مجموعة رايتها وذِكْرها الخاص، فمجموعة يقولون الله الله، وأخرون يقولون هو هو، وأخرون يقولون يا رسول الله يا سندىٰ، ولكل مجموعة أسلوبها في الوِرْد.

فهذه الصوفية من البدع المحدثة، وبعض هذه البدع قد تُخرِج الإنسان من الدين، ولها صور في عباداتها، وفي معاملاتها، وفي اعتقاداتها، وبلغ بهم الضلال أن يعتقدوا أن الإنسان يَحلُّ فيه الله ﷻ، وأن الإنسان يتَّحِد مع الله ﷻ، يقول الحلاج: (أنا أنت علىٰ الله، أنا أنت بلا شك، فسبحانك سبحاني، وتوحيدك

توحيدي، وعصيانك عصياني)، هذا الحلاج قُتِلَ؛ لأنه عندما تكلَّم بهذا الكلام، حكم أهل الشريعة عليه، فقتلوه، وعندهم اصطلاحات كثيرة، منها الفناء، أي أن الإنسان يذوب، ويترك الطعام، والشراب، والنكاح، والتكسُّب، حتىٰ يدخل في فناء، أي يفنَىٰ في الله، فلا يُفرِّق بين نفسه وبين الله ﷻ، وكذلك يصابون بالأحوال، أي أن الإنسان يقول: إنه تأتيه حال يفقد فيها وعيه، وفي الحقيقة أن الكمال أن لا يُفقِد الإنسان وعيه مع الذكر، حتىٰ في قراءة القرآن، والذي يفقد وعيه، ويصاب بالإغماء؛ من شدة الفزع عند سماع القرآن، ناقص، والذي لا يتأثَّر، ناقص، والكمال في خلق النبي ﷺ، أنه يسمع القرآن، ويتأثَّر، ولا يفقد وعيه، هكذا قال العلماء، فمعنىٰ الأحوال عندهم، أن الإنسان يفقد وعيه، حتىٰ يُرفَع عنه القلم، حتىٰ إن بعضهم كان يأتي البهائم أمام الناس، -نعوذ بالله-، فهذه من مصطلحاتهم، وأما الكرامات، فهذا الحلاج كان يحتال في الكرامات، وذكروا في سيرته وترجمته، أنه بعث بإنسان إلىٰ بلدة، أراد أن يذهب إليها، وهذا الإنسان كان مُبصِرًا، فتظاهر أنه أُصيب بالعمَىٰ، وبَقِيَ قَرابة أربعة أشهر مُصابًا بالعمىٰ، ثم ادَّعا رؤيا منامية، قال: رأيت الرسول ﷺ في المنام، فقال: إنك لا تُشفَىٰ إلا علىٰ يد غريب فقير يدخل هذه البلد، فقال للناس: مَن رآه منكم، فليُعطِني خبرًا، دخل الحلاج في صورة غريب، فأخبروه أن في المسجد الفلاني غريبًا، فذهب إليه، ثم بَقِيَ عنده لحظات، ثم فتح عينه، فإذا هو مُبصِر، فجاء الناس بالهدايا، بالنقود والملابس، حتىٰ امتلأ المسجد، ثم خرج الحلاج، ولم يأخذ منها شيئًا، و هو مُتفِق مع هذا الشخص، فذهب أمامه، وأخذ هذه الأشياء، ولحقه بها في الطريق، وكذلك كان يذهب بأطباق الحلوىٰ، تُدفَن في الصحراء، فيذهب بتلاميذه في مكان الدفن، ثم يقول: ماذا تريدون؟ فيقول أحد التلاميذ: نريد حلوىٰ كذا، فيقول: أغمضوا أعينكم، ثم يبحث عن الحلوىٰ، ثم يخرجها من بين أيديهم، فهذه الكرامات كلها حِيَل،

وكذلك الجن قد تخدمهم؛ لأن الشياطين تخدم مَن يشرك بالله ﷻ.

وكذلك الأسرار، فعندهم: أسرار لا يجوز إفشاؤها، فالغزالي يذكر في كلام له، أن أسرار هذا العلم، لا يجوز تسطيره في كتاب، يعني يبقى مثل التلمود عند اليهود، يتناقل مُشافهةً، ولا يُنقَل في كتاب، وإنما يبقى سرًّا تتناقله مشايخ الصوفية، وكذلك يزعمون أن الولي يحيط بعلم الحوادث، يقول الجيلي في كتاب الإنسان الكامل: "وهذا الأمر الذي جعله الله لداود وسليمان -عليهما السلام- غير محصور عليهما، ولا مقصور عليهما"(١)، يعني ليسا هما اللذان فقط يتصرفان في الرياح وفي الجن، قال: "وإلا فكل واحد من الأفراد والأقطاب، له التصرف في جميع المملكة الوجودية"، كل قطب من أقطابهم يتصرف في كل الكون، ويعلم كل ما فيه، وما اختلج في الليل والنهار، فضلًا عن لغة الطيور، وكل حركة في الوجود يعلمها.

قال الشبلي: لو دبَّت نملة سوداء، على صخرة صمَّاء، في ليلة ظلماء، ولم أسمعها، لقلت إني مخدوع، أو ممكور بي، فهذه بسيطة بالنسبة لما بعدها.

وقال غيره: ولم أقل ولم أشعر بها؛ لأنه لا يتهيأ لها أن تَدِبَّ إلا بقدرتي، أنا مُحرِّكها، فكيف أقول لا أشعر بها، وأنا محرِّكها!(٢)

هذه نهاية البدع التي تسري في الأمة، فتدخل بدعًا صغيرة، ثم تنتهي إلى هذا الكفر والإلحاد، الذي لا يقوله إنسان عاقل -نعوذ بالله-، والمشركون لم يدَّعوا مثل هذا، ومع ذلك يعذِّبهم الله بالنار، فكيف بمَن زعم أنه يشارك الله في ملكه ﷻ.

---

(١) الإنسان الكامل للجيلي (ص١٢٢).

(٢) الإنسان الكامل: (١/ ١٢٢).

أما فيما ذكره في الأوراد، فيقول الجوسقي في كلمة (هو): فما الأمر إلا هو، فكل أمر عين الهو، وواقع على هو، وأوله هو، وآخره هو، وظاهره هو، وباطنه هو، وذاته هو، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١][١].

يقول الغزالي في طريقة الذكر: ولقد أردتُ في بداية أمري سلوك هذا الطريق؛ لكثرة الأوراد غير الصوم والصلاة، فلما علم بصدق نيتي، قيَّض لي وليًّا من أوليائه، قال لي: يا بني اقطع من قلبك كل علاقة إلا الله وحده، واخلُ بنفسك، وأجمع همتك، وقل: الله الله، ولا تزد عما فرض الله عليك شيئًا، إلا الرواتب، وقل هذا الاسم بلسانك، وقلبك، وسِرِّك، وأحضر قلبك، وأجمِع خاطرك)[٢].

فهل لفظة (الله) لها معنى؟ لها معنى دال على الذات الإلهية، ولكن لا يكفي، إما أن تقول: لا إله إلا الله، أو سبحان الله، أو الله أكبر، أو الحمد لله.

من الطرائف: إنه كان هناك شيخ يدرس في المدينة، وكان شخص يمر من أمامه، ويقول إذا مرَّ من أمامه: يا محمد، خطابًا للنبي ﷺ، فسأل الشيخ عن اسمه، فقيل: اسمه علي، فلما مرَّ، ابتعد عنه خطوات، قال: يا علي، فالتفت، ولم يكلمه، فسكت، وفي اليوم الثاني، قال: يا محمد، وذاك قال: يا علي، جاء في اليوم الثالث، وقال له يا شيخ: كل يوم تدعوني، وما تكلمني، ماذا تريد مني؟ قال: سبحان الله! وأنت كل يوم تقول: يا محمد، ماذا تطلب من محمد ﷺ؟ أنت إما أن تدعوه، لينفعك، فلابد أن تكمل الكلمة، ما معنى يا محمد؟

فهذه الكلمة (الله) لابد لها من كلمة مرادفة، وليس في دين الله التعبُّد

---

(١) النفحات الأقدسية (ص:٢٨٠).

(٢) الفتوحات الإلهية (ص:٣٣٨).

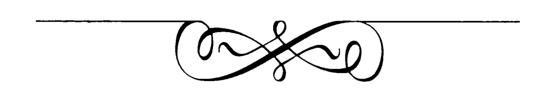
بكلمة (الله) مُفردَة، وإذا قلت سبحان الله: تنزِّه الله، أو الحمد لله: تُثنِي عليه، أو لا إله إلا الله: توحِّده ﷻ، فكلمة الله الله عند الصوفية مرحلة أولىٰ، ثم يأتي ضمير الغائب فقط (هو)، يأخذ الهاء، فالله أصبحت عنده للخاصة، ولكن خاصة الخاصة يجلس من الصباح إلىٰ الليل يقول هو، فهذه أذكارهم، وهذه عقائدهم.

ونحب أن ننبِّه أننا إذا سمعنا أن فلانًا صوفي، فقد لا ينطبق عليه هذا الكلام؛ لأن هذا كلام شديد، وكلام كفر، فقد يكون عند بعضهم شيء من الورع، أو شيء من كثرة الذكر، فلا ينبغي أن نستعجل في إطلاق التصوف علىٰ كل إنسان، إلا إذا رضي به، ثم إذا رضي به، نسأله ما هو مرادك؟ لأن البدع علىٰ درجات، كما قال ابن تيمية ﷺ فالبدع درجات، منها ما هو مثل الصغائر، ومنها ما هو مثل الكبائر، ومنها ما هو شرك، فهكذا التصوف قد يكون فيه صغائر، وقد يكون فيه كبائر، وقد يكون فيه شرك، ولكن ما الحاجة إليه؟ والذي يقرأ كلام التصوف، ثم يقرأ عقائد الأديان الأخرىٰ، كالرَّهبانية عند النصارىٰ، يجد التشابه العجيب، حتىٰ تجد في كلام الصوفية مدحًا للرُّهبان، والأخذ عنهم، فترىٰ شخصًا من الزهاد يذهب إلىٰ الراهب، ويأخذ عنه بعض التوجيهات، فلهم علاقة بالعقائد النصرانية، وبالعقيدة البوذية، وعلاقة بعقائد الفلاسفة القدماء، فالفلاسفة يقولون: إن الكون انبثق علىٰ درجات، فهو الأول، ويسمُّونه الواحد، انبثق عنه العقل، والعقل انبثقت عنه النفس الكلية، والنفس انبثقت منها المادة، وتجد في كلام الصوفية الأول، والعقل، والمادة، والنفس، فهذه أكثرها مُستقاة من عقائد وثنية، أو من عقائد سماوية مُحرَّفة، كالنصرانية التي يزعمون الاتحاد، هو أن عيسىٰ ﵇ اتحد مع الله، ولهذا لا يُفرَّق بينه وبين الله.

هـذا بعـض الكـلام المختصـر عـن التصـوف، وعقائـدهم، وسـلوكهم، وأورادهم، نسأل الله أن يهدي ضال المسلمين.

واليـوم لا تكـاد تـذهب إلـىٰ بلـد إسـلامي، إلا وفيـه التصـوف، فهنـاك الرفاعية، والنقشبندية، والجيلانيـة، والقادريـة، وتعـدد، حتىٰ إنـه في أفريقـا، لا تكاد تجد قرية إلا وفيها القِباب والقبور بشكل رهيب، حتىٰ إن بعض الطوائف يقولون: ليس يدخل الجنة أتباع الطائفة فقط، بـل ولـو وقـع أحـد أفـراد الطائفة علىٰ المرأة، فزنَىٰ بها، دخلت الجنـة بسببه؛ لأن جسـمه لامس جسـمها، فمَـن يطَّلِع علىٰ عقائدهم، وأخلاقهم، وعبادتهم، لا يشـك أنهـا ليسـت مـن الإسـلام، وهذا هو الصحيح، فدين الله ﷻ دين يُهذِّب ويربي الإنسـان، ويجعـل الإنسـان إنسـانًا مُتميِّزًا، ولا يحرمـه الـدنيا، يقـول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢].

فهذا الكون كلـه لـك أيهـا المسـلم، أنـت الـذي خُلِقَ مـن أجلـك، فكيـف يُقال: إنك لا ينبغي أن تتمتع به، وتتركه للكفار، وتعيش أنت في الزوايا؟! كيـف يُنصَـر ديـن الله؟ لـو كـان هـذا هـو الإسـلام، لمـا خـرج الصـحابة، بـل لبَقُـوا في المدينـة، بـل لبَقُـوا في الغيـران في مكـة، ولكـن ديـن الله غيـر هـذا، ومثـل هـذه الضلالات، إنما أتَىٰ بها؛ لهدم أركان هذا الدين، وطَمْس معالمه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (كل عبادك يقولون هذا) هكذا ثبت بخط المصنف (يقولون) بالجمع مراعاة لمعنىٰ (كل) والذي في الأصول (يقول) بالإفراد مراعاة للفظها دون معناها، لكن قد روىٰ الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو هذا الحديث بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف أطول منه.

وفي سنن النسائي والحاكم وشرح السنة بعد قوله: (كل عبادك يقولون هذا إنما أريد أن تخصني به) أي: بذلك الشيء من بين عموم عبادك، فإن من طبع الإنسان أن لا يفرح فرحًا شديداً إلا بشيء يختص به دون غيره، كما إذا كانت عنده جوهرة ليست موجودة عند غيره، مع أن من رحمة الله وسنته المطردة أن ما اشتدت إليه الحاجة والضرورة كان أكثر وجوداً: كالبر والملح والماء ونحو ذلك، دون الياقوت واللؤلؤ، ولما كان بالناس بل بالعالم كله من الضرورة إلىٰ (لا إله إلا الله) ما لا نهاية في الضرورة فوقه كانت أكثر الأذكار وجوداً وأيسرها حصولاً وأعظمها معنىٰ.

الشَّرح

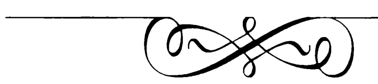
هنا إشارة لغوية، وهي أنه قال: (كل عبادك يقولون)، و(كل) مبتدأ مفرد، و(عبادك) مضاف إليه، فلا تأتي بالخبر للمضاف إليه، وإنما تأتي للمضاف، فكيف يقول: كل عبادك يقولون؛ فالعلماء يقولون: يجوز هذا؛ لأنه راعَىٰ فيه المعنىٰ؛ لأن كل هنا معناه للجمع، ولكن الأفصح أن تأتي بالمفرد، كما وردَ في المسند، فقد قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ : إن الحديث في المسند جاء بالإفراد، مراعاة للفظ، أما هنا ففيه مراعاة للمعنىٰ، وكلاهما جائز، ولكن الأول أفصح.

قوله: (**مع أن من رحمة الله، وسُنَّته المـُطَّرِدة، أن ما اشتدت إليه الحاجة والضرورة، كان أكثر وجودًا**)، هنا ﷺ يشير إلىٰ أن (لا إله إلا الله)، مُيسَّرَة لكل إنسان؛ لأنه لا يستغني عنها، وهي أعظم الكلام، ولكن موسىٰ عليه السلام أراد أن ينفرد بشيء يخصه، وهكذا طَبْع الإنسانٰ يحب الإنفراد بشيء يختص به دون غيره.

قال الشارح: ولكن من رحمة الله أن ما يحتاجه الإنسان حاجة شديدة، يكون أكثر تيسيرًا له من غيره، قال: مثلًا الهواء، كل واحد يحتاج إلىٰ الهواء في كل ثانية، فجعله الله ميسورًا، وكذلك الماء، وهو أقل من الهواء، جعله الله ميسورًا، وكذلك الخبز، جعله الله ميسورًا، ولكن الذهب قليل، والجواهر قليلة، وحِفْظ الإنسان في حياته، والكون من الدمار، يحتاجه في كل لحظة، ولنتأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق:١-٣]، يقول علماء الفلك: الغلاف الجوي للأرض ينطلق عليه من النجوم في الفضاء ملايين الشهب، التي لا تُقدَّر بعدد، وكلها تصطدم بغلاف الأرض، الغلاف الجوي، ثم تذوب وتنتهي، فمَن يحفظ هذا الكون، ومَن يحفظ الأرض؟ ثم قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾ [الطارق:٤]، فالإنسان محفوظ يحفظه الله -تعالىٰ-، وكم يقرأ الإنسان هذه السورة، ولا يفهم معناها! فكم يطرُق هذا الغلاف الجوي من الشهب! لأن النجم ليس هو الكوكب، والكوكب: هو الجِرم الذي لا يُضِيء، وإنما يعكس الضوء، ولكن النجم: هو المشتعِل، الذي تنطلق منه الشهب، فيذكر ﷻ أن الإنسان محفوظ، وأن الكون محفوظ، ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾، يثقب الفضاء كله، وقد يثقب الغلاف الجوي؛ لحكمة أرادها الله ﷻ، ولكن كم ينطلق بعد هذا الغلاف؟ يقول العلماء: هناك ريح شديدة لا تسمح بدخول أي شيء من الخارج، ولهذا فإن

السفن الفضائية أثناء خروجها ودخولها، لابد أن تكون متجهة مع الـريح، وإلا فإنها تحترق وتذوب، فالذي حفظ هذه الأرض هو الله ﷻ، وهو الحافظ، فالإنسان محتاج إلىٰ هذا، فلم يكلِّفه الله حفظ نفسه، ولكن حفظه بهذا النظام العجيب، فكلما اشتدت حاجته إلىٰ شيء، اشتد بَذْله له.

والإنسان يحب التميُّز، وموسىٰ عليه السلام القريب من الله وكليمه، يحب أن يتميَّز بشيء، ولكن الله ﷻ أخبره أن (لا إله إلا الله) أعظم الكلام، ولو كانت السماوات حَلَقَة كروية، لا يصل إليها شيء، فوضعت عليها (لا إله إلا الله)، لقَصَمتها؛ لثقلها، فـ(لا إله إلا الله) عظيمة، والإنسان قد ينطقها، ولا يعرف معناها، فإذا وافق نطقه ولسانه ما في قلبه، كان لها عند الله مكانة تحرق جميع الذنوب، وتزيل من القلب جميع الشهوات، وتبقىٰ أنوارها تضيء القلب.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والعوام والجهال يعدلون عنها إلىٰ الأسماء الغريبة والدعوات المبتدعة التي لا أصل لها في الكتاب والسنة كالأحزاب والأوراد التي ابتدعها جهلة المتصوفة.

قوله: (وعامرهن غيري) هو بالنصب عطف علىٰ السموات، أي: لو أن السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله والأرضين السبع ومن فيهن وضعوا في كفة الميزان و(لا إله إلا الله) في الكفة الأخرىٰ، مالت بهن (لا إله إلا الله).



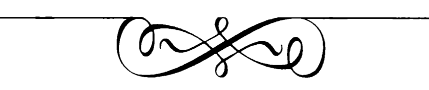
الشَّرح

قوله: **(والعوام والجهال يعدِلون عنها إلىٰ الأسماء الغريبة)**، ويعجب الإنسان مما يراه لهذه البدع والطوائف، من أوراد وأذكار عجيبة، حتىٰ إنه قال بعض زعماء المتصوفة: إن قراءة وِرْده -وتُسمَّىٰ بصلاة الفاتح سطرين، عبارة عن كلام أنشأه- تعدِل قراءة القرآن ستة آلاف مرة، وهكذا انحرفت، فالذكر أعظمه ما جاء في كتاب الله، وما جاء في سُنَّة رسول الله ﷺ، من الدعوات والأذكار، فينبغي أن نحرص أن تكون أورادنا وأذكارنا من كلام الله، وكلام رسول الله ﷺ، وأن لا نحرص علىٰ الغرائب، لأن النفس تتطلع إلىٰ الغريب، والشيء الجديد، وقد تمِلُّ القديم؛ لجهلها به، ولكن لو عرفت معناه، لمَا مَلَّتْ، فلا إله إلا الله، أعظم الذِكْر، وهو الذي ينجي الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، إن عاش ومات عليه.

قوله: **(...مالت بهن (لا إله إلا الله))**، وقد يقول قائل: إنه لا يعرف أنه يُوزَن إلا ما كان جرمًا، ولكن نتحدث عن الوزن في الآخرة، وأدخل بعض

العلماء أنفسهم في أمر فوق طاقة العقـل البشـري، فقـالوا: إن الله يقلِـب الأشـياء المعنوية حِسيَّات، فتُـوزَن، فـلا إلـه إلا الله كيـف تـوزن؟ هـل يجعلهـا الله جِرمًـا متوازنًـا؟ في العصـر الحاضـر، البشـر وصـلوا إلـىٰ مـوازين للحـرارة، ومـوازين للبرودة، وموازين للرطوبة، وموازين بشرية ليس فيهـا كفـة، وهـم بشـر، فكيـف يُقال في الآخرة! فالآخرة أمرها غيبي، والله يزِن الأشياء المعنويات، ولا يحتـاج إلىٰ أن يقلِبها إلىٰ محسوسات، فإن الله ﷻ أعظم مما يتصـوره العقـل البشـري، ولا ينبغي أن نُدخِل العقل البشري في قضايا الآخرة، وقضايا الغيب، والغيبيات مجالها التسليم، فكم يُعذَّب الناس في القبر ويصيحون، ولا نسـمعهم! فكـذلك قضية الوزن في الآخرة أمر غيبي، وكذلك لا نعرف كيف تُـوزَن (لا إلـه إلا الله)! ولكن لها من الثقل المعنوي، وكذلك الحسي الذي في الغيب، مـا يجعلهـا تـزن السماوات السبع، والأرضين السبع يوم القيامة.

وقلـب المعنويـات إلـىٰ محسوسـات لـم يـأتِ فيـه دليـل، وإنمـا الله ﷻ يجعلها تزن، ولا نقول: إن يوم القيامـة لـيس فيـه وزن، والمعتزلـة لهـم كـلام في هذا خطير، قد يؤدي إلىٰ الكفر، يقولون: لا يحتاج الـوزن إلا البقـال[١]، يعنـون أن الله لا يحتـاج إلـىٰ الـوزن، وهـذا صـحيح، ولكـن الله يريـد أن يقـيم الحجـة العملية علىٰ خلقه، فيوم القيامة إنما يقيم الله الحجة، ولـيس المـراد أن الله ﷻ يجهل، ولا يدري، فالله ﷻ يعلم وما هناك ذرة في الكون إلا بعلـم الله وتقـديره، فالوزن ليس لعلم الله، وإنما لإظهاره للإنسان، ولإقامة الحجة عليه عمليًّا.



(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٤٠٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة و(لا إله إلا الله) في كفة رجحت بهن (لا إله إلا الله)، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن (لا إله إلا الله). وفيه دليل على أن الله تعالى فوق السموات.

قوله: (في كفة) بكسر الكاف وتشديد الفاء من كفة الميزان، قال بعضهم: ويُطلق لكل مستدير.



الشَّرح

قوله: (وروى الإمام أحمد...)، لهذا الحديث قصة لا بأس أن نُورِدها، قال الراوي: (أتى النبي ﷺ أعرابي عليه جُبَّة من طيالسة، مكفوفة بالديباج، فقال: إن صاحبكم هذا)، يعني محمدًا ﷺ (يريد رفع كل راع، وابن راع، ويضع كل فارس، وابن فارس، فقام النبي ﷺ مُغْضَبًا، فأخذ بمجامع جُبَّته، فاجتذبه، وقال: لا أرى عليك ثياب مَن لا يعقل، ثم رجع رسول الله ﷺ، فقال: إن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما حضرته الوفاة، دعا ابنيه، فقال: إني قاصر عليكما الوصية، آمركما باثنتين، وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك والكِبْر، وآمركما بلا إله إلا الله، فإن السماوات والأرض، وما فيهما، لو وُضِعَت في كفة الميزان، ووُضِعَت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، كانت أرجح، ولو أن السماوات والأرض، كانتا حَلَقَة، فوُضِعَت لا إله إلا الله عليهما، لفصمتها، أو لقصمتها، وآمركما بسبحان الله

وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرزَق كل شيء)، هذه رواية المسند[١]، زاد البخاري في الأدب المفرد: (فقلت أو قيل: يا رسول الله هذا الشرك، قد عرفناه، فما الكِبْر؟ هو أن يكون لأحدنا حُلَّة حسنة؟ قال: لا، قال: فهو أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان، لهما شريكان حسنان؟ قال: لا، قال: فهو أن يكون له دابة يركبها؟ قال: لا، قال: فهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا، قال: يا رسول الله فما الكِبْر؟ قال: سَفَه الحق وغَمْص الناس، أو غَمْط الناس)[٢]، واختلفت العبارات بين مصادر هذا الحديث.

وهذا الحديث كما قال هنا المحقق: إن إسناده صحيح، ولكن الترمذي رحمه الله لم يصحِّحه، وإنما قال: (هذا حديث غريب)، والحديث -كما ذكر المحقق- صحَّحه الحاكم رحمه الله، وكذلك الشيخ الألباني قال: إنه حديث صحيح، وهو كما قالا.

وهذا الحديث من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما جميعًا، والمحقق قال: قال في المجمع، أي مجمع الزوائد، وفيه محمد بن إسحاق مُدلِّس ثقة، وبقية رجاله رجال الصحيح، وهذا وهم، فإن صاحب مجمع الزوائد، أخرج الحديث بسند آخر، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهذه الرواية تفرَّد بها البزار، وليست هي الرواية التي هنا، فإن هذه الرواية ليس في سندها محمد بن إسحاق، ولو تأمل المحقق لمجمع الزوائد، لرأىٰ هذا الكلام.

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد، برقم: (٧١٠١)، (١١/ ٦٧١)، وأخرجه أيضًا الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، برقم: (١٥٤)، وقال هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٥٦): "ورجال أحمد ثقات".

(٢) الأدب المفرد للبخاري، باب الكبر، برقم: (٥٤٨)، (١/ ٢٨١-٢٨٢)، وروىٰ أحمد أيضًا هذه الزيادة في مسنده، برقم: (٦٥٨٣)، (١١/ ١٥١).

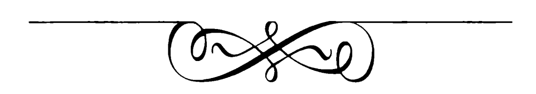
قال الهيثمي في هذا الحديث من رواية عبد الله بن عمر: رواه البزار، وفيه محمد بن إسحاق، إلىٰ آخره، ثم قال: وقد تقدم هذا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في الوصايا، وهذا في المجلد السابق، قال فيه: رواه كله أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد ثقات، فليس في سنده محمد بن إسحاق كما زعم المحقق، وهذا سند آخر، من رواية عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما جميعًا، فهذا من وهم المحقق -غفر الله لنا وله-، وسبق وسيأتي له أوهام أخرىٰ.

فقول: (لا إله إلا الله)، لا تُكتَسَب بها هذه الميزة، إلا إذا وافق ما في القلب قول اللسان، فإذا قال الإنسان: (لا إله إلا الله)، وقد استحضر عظمة الله عز وجل، واستحضر نعمه عليه، وتقصيره في حق خالقه، فانكسر قلبه، وتولَّد عنده خشية الله عز وجل، فعند ذلك يكتسب هذه الميزة، أما مَن قالها بلسانه، ساهيًا عنها، ذاهلًا غافلًا عنها، فلا تكون له هذه الميزة، فكم من إنسان يقول هذه الكلمة، ويدخل النار! فقد قالها المنافقون، ولم تنفعهم عند الله عز وجل، فقوله: (لا إله إلا الله)، يقتضي منه أن يقولها بلسانه، وأن يوافق لسانه ما في قلبه، وأن يستحضر عظمة الله الخالق عز وجل، باستحضار عظمة المخلوقات، فإذا تصوَّر الإنسان هذا الكون العجيب، وما فيه من مخلوقات، واطَّلع علىٰ بعضها لرأىٰ عجبًا، كل شيء في الوجود يدل علىٰ عظمة الخالق تبارك وتعالى، مثل النبات، والحيوان، والجماد، والكواكب، والنجوم، والإنسان، والطيور، ويذكر علماء النبات أن عدد أنواع النبات في الأرض، يساوي -أو يقارب- ثمانمائة ألف نوع، كل نوع له وصف خاص، وشكل خاص، ونظام خاص، وهذا شيء مذهل، مَن اطَّلع علىٰ بعض دقائق النباتات، يرىٰ عجبًا، فبعض الزهور إذا جاءتها جميع أنواع الطيور، والفراشات الصغيرة، لا تُمكِّنها من نفسها، تضع علىٰ رأسها عودًا

صغيرًا، يمنع جميع أنواع الطيور، أو الفراشات، أو الحشرات، من الوصول إليها، فإذا جاءت النحلة فتحت ذلك العود، فالذي يتبع ذلك، ويرىٰ عظمة الله في خلقه، فإنه يزداد إيمانًا ويقينًا، تأمل زهرة صغيرة في ضمن ثمانمائة ألف نوع! وكم من مخلوقات حية في البحار! وكم من مخلوقات حية علىٰ وجه البسيطة! والأرض لا تساوي إلا نقطة صغيرة في الكون، هذا خلق الخالق ﷻ، فإذا رأيت عظمة المخلوق، وما فيه من إحكام الصنع، وإتقانه ونظامه، وقرأت قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلىٰ:١-٣]، وفي هذه الآيات الثلاث، عَمَم وشمولية يدخل تحتها الكون كله، فيما يتعلق بالإيجاد من العدم، وإعطاء كل خلق شكله، وإعطاء كل خلق نظامه، فلكل معدن نظام، ولكل سائل نظام، ولكل حيوان نظام، بل ولكل جزئية في الإنسان نظام، فشعر الحواجب في الإنسان مثلًا، لا يطول أكثر من مليمترات، وشعر الرأس يطول ولا يتوقف، فمن فرَّق بينهما بهذا النظام؟ وهذا معنىٰ قوله ﷻ: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾، فجمع بين المادة والنظام، فإذا اطَّلع الإنسان علىٰ ما في الوجود، وعرف المخلوقات، أو بعضها، وقال: (لا إله إلا الله)، فوافق هذا القول ما في قلبه من تعظيم الله، ومن تقديره وتنزيهه، فإنه بهذه الصورة يستفيد الأجر الذي جاء في الأحاديث، ولكن مَن قالها وقلبه غافل، ولم يقدر الله حق قدره، لا يستفيد إلا أجرًا قليلًا، ولا يحصل علىٰ جميع الوعد الذي وردَت به الأحاديث.

فهذه الكلمة عظمتها في أن تُقال موافِقًا قلبه لسانه، ثم انقادت الجوارح، فإن الجوارح تنقاد للقلب، إذا كان صادقًا في قولها، وتنقاد للسان، إذا كان صادقًا في قولها، ولكن الجوارح إذا قالها بلسانه بدون قلبه، لا تنقاد.

قوله: (في كفة) الكَفَّة: مأخوذ من الكَف، وكف الإنسان فائدته أخذ الأشياء وحملها، فكفة الميزان، أصلها مأخوذ من كف الإنسان، الذي يتناول به الأشياء، والميزان في الآخرة جاءت أحاديث تدل على أن له كفة، ولكن الأعمال يوم القيامة قد تنقلب بعضها إلى محسوسات، وقد لا تنقلب، وليس شرطًا أن تكون الأعمال جميعها في كفة الميزان، فإن الإنسان في العصر الحاضر، اكتشف موازين كثيرة، موازين الحرارة، وموازين البرودة والرطوبة، وأشياء كثيرة من هذا القبيل، وليس لها كفة، هذا من صنع الإنسان، فما بالك بخالق الإنسان! فينبغي أن لا نتصور أن هناك فقط ميزانًا له كفتان، فالله ﷻ قادر على أن يزن الأشياء بحسب ما يريد، وما نطَّلع على كيفيتها، إلا بحسب ما وردَت به النصوص.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (مالت بهن لا إله إلا الله) أي: رجحت عليهن، وذلك لما اشتملت عليه من توحيد الله الذي هو أفضل الأعمال وأساس الملة ورأس الدين، فمن قالها بإخلاص ويقين وعمل بمقتضاها ولوازمها واستقام على ذلك فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ ...﴾ [فصلت:٣٠]، الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ لا زال يؤكِّد، ويُكثِر من الأدلة على أنه لابد في قول: (لا إله إلا الله)، من العمل بمقتضاها، والآية شاهدها واضح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، أي: لم يكتفوا بالقول، وقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، أي: ربنا وإلهنا الذي نعبده، وليس معناه فقط أنهم أرادوا به الرب الذي خلق، فإن الاعتراف بالخالق أمر فطري، حتى عند المشركين، ولكن المراد به هنا ربنا وإلهنا الذي خلقنا، والذي نعبده، ثم استقاموا على هذا القول، والاستقامة خط بين طرفين: طرف الغلو، وطرف التقصير، فلا يُغالي في دين الله، فيخرج عن دين الله، كما فعلت الخوارج، ولا يقصِّر في حق الله، كما فعلت المرجئة، بل يستقيم على الطريق الوسط، الذي نقول فيه كل يوم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

[الفاتحة:٦]، الطريق المستقيم هو الذي لا اعوجاج فيه، وهو الذي علىٰ منهاج رسول الله ﷺ، فمَن أراد أن يبتدع دينًا جديدًا، أو يزيد في دين الله، فهو مخطئ، فإن الدين قد كَمُلَ، فالزيادة في الدين كالنقص منه، سواء، بل ربما تكون الزيادة أشد جُرمًا؛ لأنه يزعم بهذه الزيادة أن الدين ناقص، والله ﷻ قال: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فالذي يزيد في هذا الدين، كأنه يتعقَّب رسول الله ﷺ، فإن الدين وسط، وقوله تعالىٰ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، وتنزُّل الملائكة فيه ثلاثة أقوال:

◊ القول الأول: منهم مَن قال: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، عند الموت، عند فراق الدنيا، فتأتي البشارة، فتطيب النفس وترضىٰ، فتسارع إلىٰ الخروج.

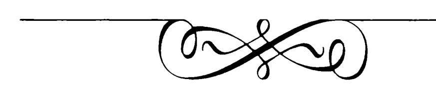
◊ والقول الثاني: أنها تأتيهم في القبر، فتطمئنهم وتبشِّرهم.

◊ والقول الثالث: أنها تأتيهم عند خروجهم من قبورهم.

ولعل الراجح أنها تشمل جميع هذه المواطن، فتأتيهم عند فراق الدنيا، وتطمئنهم في قبورهم، وترافقهم في محشرهم، فإن الذي عاش في الدنيا بالعمل الصالح، تكون معه ملائكة، تسدِّده، وتعينه، وتصبِّره علىٰ العمل الصالح، هذه الملائكة ترافقه، فإذا جاءه ملك الموت، جاءت تبشِّره، تبشِّره ببشارتين ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، الخوف من المستقبل، وهو أهم شيء، وقُدِّم هنا؛ لأن الإنسان إنما يخاف أكثر مما يحزن علىٰ ما فات، ولا تحزنوا: أي علىٰ ما خَلَّفتم من أبناء وذرية، فإن الله سيخلُفكم فيها، فهذه بشارتان.

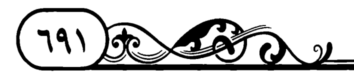
ثم تبشِّرهم بالجنة، التي كانت في السابق وعدًا، والآن أصبحت عِيانًا، فإن الإنسان إذا مات، يرىٰ الجنة من قبره، ويُقال: هذا مقعدك من النار، لو كنت

عاصيًا، أبدَلَك الله به مقعدًا من الجنة، فيرىٰ كلا المقعدين، فهذه الآية في الاستقامة، وفي القول، وفي السلوك، وفي العمل، أي قالوا واستقاموا، ولهذا يُعرِّف السلف الصالح الإيمان بأنه قول، واعتقاد، وعمل، وليس فقط قولًا، ففي الحديث (**الإيمان بضع وستون شُعبة**)، وفي رواية (**وسبعون شُعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق**)[1]، فهذا عمل، (**والحياء شُعبة من الإيمان**)[2]، وهذا عمل القلب، فالحديث اشتمل علىٰ أنواع العمل الثلاثة: القول، والاعتقاد، والعمل، هكذا جاء الإيمان في هذا الحديث، ذا شُعب متعددة، فلم يبقَ بعد ذلك مجال لأصحاب الأهواء والتأويلات الفاسدة، فإن الرسول ﷺ أعرف بما يُبلِّغ، وأعرف بدين الله، عرَّفنا أن الإيمان قول واعتقاد وعمل، وكذلك التوحيد قول واعتقاد وعمل، وليس فقط قولًا باللسان، فهذا قول المرجئة، الذين يزعمون أن القول يكفي، وهو قول باطل تردُّه النصوص الكثيرة من كتاب الله، وسُنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام.



(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شُعب الإيمان، وأفضلها، وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، برقم: (٣٥)، (١/ ٦٣)، وأخرجه البخاري بدون لفظ "**وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق**"، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان. برقم: (٩).



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والحديث يدل على أن (لا إله إلا الله) أفضل الذكر؛ كما في حديث عبدالله بن عمرو مرفوعًا: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» رواه أحمد والترمذي.



الشرح

قوله ﷺ: («خير الدعاء دعاء يوم عرفة...»)، رُوِيَ هذا الحديث بثلاثة أسانيد:

الأول: السند الذي رواه به الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]، وصحَّح فيه راوٍ اسمه حماد بن أبي حميد، قال الترمذي: والصحيح أنه محمد بن حميد، وهذا الراوي قال فيه أحمد: أحاديثه مناكير، وقال البخاري: مُنكَر الحديث، وكذلك قال أبو حاتم، وضعَّف حديثه ابن معين، والجوزجاني، والنسائي، وأبو زرعة، وقال ابن حبان: كان شيخًا مُغفَّلًا، يقلب الأسانيد، ولا يفهم، ويلزق به المتن، ولا يعلم، فلما كَثُرَ ذلك في أخباره، بَطُلَ الاحتجاج بروايته، فهذه رواية الترمذي.

قال المحقق: (حَسُنَ بطُرُقه وشواهده، رواه مالك في الموطأ...)، إلى أن قال: (وأخرجه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده موصولًا، وفيه حماد بن حميد ضعيف)، واسمه: حماد بن أبي حميد، ولكن هذا الاسم خطأ، والصحيح محمد بن أبي حميد، والمحقق لم يُصحِّح، مع أن الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ صحَّح اسم الراوي.

---

(١) انظر: سُنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة، برقم: (٣٥٨٥).



السند الثاني: عن تابعي، اسمه طلحة بن عبيد الله بن قريظ، وهو الذي رواه الإمام مالك في موطئه، وكذلك البيهقي، قال: (**خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك**)(١)، فهذه رواية مُرسَلة، فلم يوصلها التابعي عن طريق الصحابي، وإنما أسندها إلىٰ الرسول ﷺ مباشرة، فهذا يُسمَّىٰ مُرسَلًا ولا يُحتَجُّ به؛ لأن المُرسَل ساقط منه راوٍ، ولا ندري هل الساقط هو الصحابي، أم تابعي آخر مثله؟ لأن التابعي ضعيف، وما دام الحديث لا نعرف مَن رواه، فلا نقبله، وإنما ننظر في الشواهد وفي المتابعات، ليصح بها.

والسند الثالث: عن علي رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (**أفضل ما قلت أنا والنبيون عشية عرفة: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير**)(٢)، وهذا رواه الطبراني وفي إسناده قيس بن الربيع، واختلف فيه العلماء، فمنهم مَن وثَّقه، ومنهم مَن جرحه، ولكنهم قالوا إنه في آخر حياته، صار يُلقَّن، فإذا قال: حدثنا فلان عن فلان، فإذا قال أحد الطلاب الجالسين: وفلان، قال: وفلان، فإذا قال الثاني: وفلان، قال: وفلان، فبهذا أصبح لا يُقبَل حديثه، يُقال في هذا النوع يُلقَّن، أو أنه يتلقَّن.

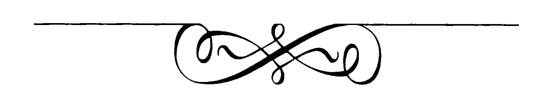
---

(١) أخرجه بلفظ " **أفضل ما قلت**"، الإمام مالك في الموطأ، كتاب الحج، باب جامع الحج، برقم: (١٢٧٠)، (١/ ٥٦٤-٥٦٥)، والبيهقي في السُّنن الكبرىٰ، كتاب الصيام، باب الاختيار للحاج في ترك صوم يوم عرفة، برقم: (٨٣٩١)، (٤/ ٤٧٠)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب المناسك، باب فضل أيام العشر والتعريف في الأمصار، برقم: (٨١٢٥)، (٤/ ٣٧٥)، والحديث مُرسَل كما قاله البيهقي.

(٢) الدعاء للطبراني (ص: ٢٧٣)، باب الدعاء بعرفات برقم (٨٧٤).

هذه الأسانيد كلها لم يخلُ سند منها من مَقال، ومع ذلك فإن الشيخ الألباني رحمه الله أوْرد له عدة طُرُق وشواهد، ثم قال: إن الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد، ولكن كلها لا تَسْلَم من مَقال، بل بعضها لا يصلح حتىٰ للاستشهاد ولا للاعتبار، كما مرَّ من حديث ابن أبي حميد، الذي قال فيه العلماء: إنه مُنكَر الحديث، ولكنه إن كان أقل من ذلك، فلعل روايته تكون مقبولة.

فبهذا يكون الحديث حَسَنًا، علىٰ رأي الشيخ الألباني، أو ضعيفًا مردودًا.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعنه أيضـًا مرفوعـًا: «يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فيُنشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، ثم يُقال: أتنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب. فيُقال: ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا. فيقال: بلىٰ، إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظلم عليك. فيُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم. فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» رواه الترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والحاكم وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم. وقال الذهبي في تلخيصه: صحيح.

الشَّرح

قوله ﷺ: (يُصاح برجل من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق...)[1]، هذا الحديث صحيح، وسنده صحيح، وأقرَّ الشيخ الألباني كذلك تصحيحه، وتصحيح الحاكم والذهبي لهذا الحديث، وقلنا: إن هذا الحديث فيه عدة احتمالات:

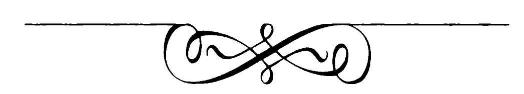
منها: أن قائل هذه الكلمة، قالها بصدق ويقين، ولم يأتِ بعد قوله لها بشرك، لا أكبر، ولا أصغر، ولكن له ذنوب وخطايا كثيرة، وعندما قال هذه الكلمة قالها من قلبه، وتاب إلىٰ الله ﷻ، فعاجلته المَنِيَّة، فمات قبل أن يعمل أعمالًا صالحة، تُضم إلىٰ هذه الكلمة، فيكون قالها، ومات عليها، هذا الذي

---

(١) سبق تخريجه.

يتفق مع بقية الأحاديث والنصوص، أنه قالها في آخر حياته، وقد مرَّ أن هذا هو تخريج البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه الأحاديث، أنه مَن قالها ومات عليها.

ومنها: أن هذا الرجل قالها في حياته، وجاء كذلك بمعاصٍ كثيرة قبلها وبعدها، ولكن لا ترقَىٰ إلىٰ مرتبة الشرك الأكبر أو الأصغر، فتكون هذه الكلمة عندما قالها بقلبه، ولسانه، وأدَّىٰ الفرائض، اجتنب كثيرًا من النواهي، ولكنه وقع في معاصٍ كثيرة، مع قيامه بالفرائض التي أمر الله بها، مثل الصلاة والزكاة والحج، وهذه يكفُر بترك بعضها، فإذا أدَّىٰ الفرائض، ووقع في كثير من المناهي، فإن هذا بجانب هذه الكلمة، يُغفَر له، وسبق: أن (لا إله إلا الله) إذا قالها الإنسان، فإنها تُخرِج من قلبه كل شهوة، وكل شبهة، وتضيء جوانح القلب، حتىٰ لا يستطيع الشيطان أن يقترب من هذا القلب الذي أضاءت جوانحه وجوانبه شهادةُ أن لا إله إلا الله، ولكن الاحتمال الأول هو الراجح، أي أن يكون قالها بعد عمر طويل من المعاصي، ومات عليها، فلَقِيَ الله بهذه الشهادة، ولم يلقَ الله بعمل صالح، ولكنه قالها قولًا صادقًا، من قلب مُستَيْقِن بعظمتها، وعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلَقِيَ الله عليها، فيكون هذا جزاء له علىٰ توحيده وإخلاصه، وتُمسَح وتُمحَىٰ ذنوبه التي توزَن مع هذه الكلمة، والله أعلم.

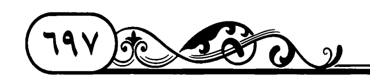




قال ابن القيم: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العمل واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض، قال: تأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يُعذب، ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

الشَّرح

قوله: (**قال ابن القيم: فالأعمال لا تتفاضل...**)، هنا يُبيِّن أنه ليس كل مَن قالها يدخل الجنة ابتداءً، وإن كان سيدخلها انتهاءً، ولكن منهم مَن يقولها، ويموت على معاصٍ أصرَّ عليها، فيدخل النار؛ ليُمَحَّص، ثم يُخرَج بشفاعة الشافعين، أو برحمة الله ﷻ، فيقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العبرة ليست بصور الأعمال، وإنما العبرة بحقائقها، وقد مرَّ قول بكر بن عبد الله المزني: إن أبا بكر لم يسبق الصحابة بكثرة صلاة ولا صيام، ولكنه سبقهم بشيء وقرَ في قلبه، أي من تعظيم الله، وخوفه، والرهبة منه، ومحبته، والتوكل عليه، حتى أصبح قلبه مُضاءً بنور التوحيد، ومرَّ أيضًا أن الناس في الصلاة، منهم مَن يُكتَب له عُشر الصلاة، ومنهم مَن يُكتَب له تُسعها، وسُبعها، ونصفها، وقد تُكتَب له كاملة، وقد يخرج منها بدون أجر، فلهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن العبرة ليست بصور الأعمال، فكم من إنسان يقول هذه الكلمة، ويدخل النار بذنوبه! ولا تثقل عند الوزن؛ لأنه قالها إما بقلب ليس صادقًا في قولها، أو بقلب غافل عنها، ولم يؤدِّه حقها، فاستحق أن يُعاقَب، أو يُحاسَب بحسب ذنوبه، ثم يُخرَج من النار، **ولكن ليس هناك مُوحِّد يُخلَّد في النار**، بل كل إنسان في قلبه توحيد، ولو كان قليلًا، فإن مصيره إلى الجنة، وإن مرَّ على النار، وعُذِّب ببعض الذنوب التي ارتكبها في الدنيا.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن أبي هريرة مرفوعًا: «ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصًا قط إلا فتحت له أبواب السماء حتىٰ تفضي إلىٰ العرش ما اجتنبت الكبائر» رواه الترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم.



الشَّرح

قوله ﷺ: (**ما قال عبد لا إله إلا الله مُخلصًا قط...**)[١]، هذا الحديث ضعيف، وفي سنده راويان ضعيفان: أحدهما يزيد بن كيسان، قال فيه يحيىٰ القطان: ليس هو مِمَّن يُعتمَد عليه، وثانيهما المريد بن القاسم، ضعَّفه ابن معين، ووثَّقه الإمام أحمد، وقال الترمذي: حديث حَسَن غريب من هذا الوجه، والنسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يروِه في السُّنَن، وإنما رواه في كتاب (عمل اليوم والليلة)[٢]، وقد يُفهَم من عبارة النسائي أن الحديث في السُّنَن الصغرىٰ، والحديث فيه قَيْد، (**ما اجتُنِبت الكبائر**)، وهي رواية شاذة، لم تَرِد في جميع الأحاديث الصحيحة السابقة، وإنما صحَّت الروايات بما جاء في قوله ﷺ: (مَن قال: لا إله إلا الله، مُستَيْقِنًا بها قلبه)، (مَن قال: لا إله إلا الله، صادقًا من قلبه)، (مَن قال: لا إله إلا الله، غير شاكٍّ فيها)، أما اجتناب الكبائر، فجاء في زيادة شاذة.

---

(١) انظر: سُنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب دعاء أم سلمة، برقم: (٣٥٩٠)، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وسُنن النسائي الكبرىٰ، كتاب عمل اليوم والليلة، باب، أفضل الذكر وأفضل الدعاء، برقم: (١٠٦٠١)، (٩/ ٣٠٧)، وحسَّنه الشيخ الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي.

(٢) رقم الحديث: (٩٧٧٢) وجاء الحديث ككل في السُّنن الكبرىٰ أيضًا كما سبق.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (رواه ابن حبان والحاكم) ابن حِبان اسمه محمد بن حِبان بكسر المهملة وتشديد الموحدة، ابن أحمد بن حبان أبو حاتم التميمي البستي الحافظ صاحب التصانيف كالصحيح والتاريخ والضعفاء والثقات وغير ذلك.

الشرح

قوله: **(رواه ابن حبان والحاكم)**، تقدَّم أنه من المتساهلين في التصحيح والتضعيف كالحاكم، وهو أشدهم تساهُلًا، وابن حبان أقل تساهُلًا من الحاكم، وابن خزيمة أقل تساهُلًا من ابن حبان، فينبغي التوقف في حكمهم على الأحاديث تصحيحًا وتضعيفًا، فإن مصنفات العلماء جاءت متأخرة، لم يجعلها العلماء في الكتب للأصول الستة المـُعتَمَدة، وابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي عاش في القرن الرابع، قال الحاكم: (كان من أوعية العلم في الفقه، واللغة، والحديث، والوعظ، ومن عقلاء الرجال)، وقد نُسِبَ إليه كلمة، اتُّهِم بسببها بالزندقة، إلى درجة أن رفع العلماء أمره إلى الحاكم في عصره، حتى كاد أن يقتله، هذه الكلمة هي قوله: إن النبوة هي العلم والعمل، ونحن نعلم أن النبوة اصطفاء من الله عَزَّ وَجَلَّ، وإلا فالعلم والعمل يحصل عليهما كل مؤمن عالِم، وكل طالب علم، يتعلَّم ويعمل، فلو كانت النبوة العلم والعمل، لكان العلماء كلهم أنبياء، فهذه كلمة موهمة، ولكن الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ خرَّج هذه الكلمة، فذكر أنه لا ينبغي استعمالها، ولكن مَن استعمل الكلمات الموهمة، فإنه يُحاكَم على ذلك، ولا نبحث له عن تأويلات؛ لأن التأويلات إنما تُبحَث في كلام المعصوم؛ لأننا نعلم أن المعصوم لا يُخطِئ، وهم الأنبياء، ولكن غير المعصوم لو قال كلمة فيها فسق أو ضلال أو كفر، كما ورَدَ عن كثير مِمَّن

زعموا أن الله حلَّ في كل شيء، وأن الله اتَّحدَ في المخلوقات، فإذا قالوا كلامًا كفريًّا نحكم به عليهم، ولا نبحث له عن التأويل؛ لأننا مُتعبِّدون بالألفاظ الصحيحة، ونحن محاسبون على ما نقول، لذا شَنَعَ العلماء على ابن حبان في هذه المقولة، حتى عَظُمَ الخَطْب، فمن اعتذار الذهبي عن هذه المقولة، أنه قال: لعلة أراد أن النبوة هي العلم والعمل، بما أوحَىٰ به الله إلى النبي ﷺ، والمرسلين قبله، مع الجزم بأن هذا الإطلاق لا يصح؛ لما فيه من الإيهام والمحاذير![1].

قال الذهبي رحمه الله: ولكن تختلف بحسب قائلها، مثل هذه المقولة، واستدل على أن قول ابن حبان ليس فيه حصر للنبوة بحديث (**الحج عرفة**)[2]، أي هو أهم أركانه، وليس هو الحج كله، قال: فإن قالها المسلم فلها مخرج، وإن قالها الفيلسوف فلها معنى، وهذا تبرير لكلام ابن حبان رحمه الله.

وابن حبان له تأويلات عدة في كتابه، فإنه أوَّل في هذا الكتاب أحاديث، وخرج عن منهج السلف، مثال ذلك حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (**يُلقَىٰ في النار، فتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الرب جل جلاله قدمه فيها، فتقول: قط**

---

(١) الذهبي: تذكرة (٣/ ٩٢٢- ٩٢١)، وانظر أيضًا ميزان الاعتدال (٣/ ٥٠٨- ٥٠٧)، ففيه تفصيل أكثر في هذه المسألة.

(٢) أخرجه الترمذي في سُننه، كتاب الحج، باب ما جاء فيمَن أدرك الإمام بجمع، فقد أدرك الحج، برقم: (٨٨٩)، وابن ماجه في سُننه، كتاب المناسك، باب مَن أتى العرفة قبل الفجر ليلة الجمع، برقم: (٣٠١٥)، والنسائي في سُننه، كتاب مناسك الحج، باب فرض الوقوف بعرفة، برقم: (٣٠١٦). والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٨٧٧٤). وقال الشيخ الألباني: صحيح.

قط)[١]، قال ابن حبان: "هذا الخبر من الأخبار التي أُطلِقت بتمثيل المجاورة، وذلك أن يوم القيامة يُلقَىٰ في النار من الأمم والأمكنة التي عُصِيَ الله عليها، فلا تزال تستزيد، حتىٰ يضع الرب ﷻ موضعًا من الكفار والأمكنة في النار، فتُمْلَأُ، فتقول النار: قط، تريد حسبي حسبي؛ لأن العرب تُطلَق في لغتها اسم القَدَم علىٰ الموضع، قال ﷻ: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢]، يريد موضع صدق، لا أن الله ﷻ يضع قدمه في النار، -جلَّ ربنا وتعالىٰ- عن مثل هذا وأشباهه"[٢]، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يُنزِّه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوق، وهذه إرادة ونية صحيحة، فكل مسلم يُنزِّه الله سبحانه وتعالى عنها، وإن من القواعد التي قررها القرآن في تعريفنا بخالقنا عز وجل، قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١]، فإذا ذكر سبحانه وتعالى لنفسه صفة ذكرها للمخلوق، فنحن نفهم منها فهمًا عامًّا، ولكننا لا نُشبِّهها بصفات المخلوق، ففي الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، فسمع الإنسان معروف معناه وكيفيته، وهو أُذُن، وفيها تعاريج، وفيها في الداخل الطبلة والصندان والمطرقة، كما في أقوال الأطباء، ولكن سمع الله ليس كذلك، فشتَّان بين سمع الإنسان وسمع الخالق سبحانه وتعالى، ولا ينبغي أن نفهم أنه إذا ذُكِرَ السمع أو البصر لله سبحانه وتعالى، أن نفهم منه ما نفهم في حق الإنسان، فالله نَفَىٰ أن يكون كمثله شيء، فنُثبِت لله المعنىٰ، وننفي الكيفية، فكل لفظ في الأفعال والأسماء له جانبان: جانب المعنىٰ، وجانب الكيفية، فالمعنىٰ معروف في لغة العرب، والكيف مجهول، كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ : (الاستواء معلوم)، أي معناه معلوم في لغة العرب، (والكيف مجهول)، فكل

---

(١) سبق تخريجه.

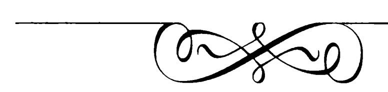
(٢) صحيح ابن حبان (١/ ٥٠٢).

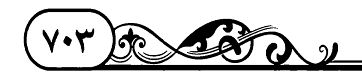
لفظ له جانبان في الأسماء والأفعال والصفات، جانب المعنى، وجانب الكيفية، فنفهم فيما يتعلق بالله ﷻ المعنى، ولكن الكيف مجهول؛ لأن ذات الله ليست كذوات المخلوق، وأفعال الله ليست كأفعال المخلوق، وأسماء الله ليست كأسماء المخلوق، مثلًا لو قيل لنا: إن الدولة الفلانية صنعت صاروخًا، أو طائرة لا تشبه الطائرات، فمهما حاولنا أن ينفك في ذهننا صورة المصنوع الجديد عن صورة المصنوع القديم، ما نستطيع، نحاول أن نتصور شكل الطائرة؛ لأن كُلًّا منًّا أسير مألوفه، فما يستطيع أن يتصور طائرة ليس لها مثال، فكلما سمع شيئًا غائبًا، قاسَه على الشاهد، ولكن هذا ليس صحيحًا على إطلاقه، لا ينبغي أن نتورَّط في التشبيه، فربنا ﷻ خالق عظيم، ليس كمثله شيء، وهذه الآية في غاية الدقة، وفي غاية الروعة في بيانها: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، العرب إذا أرادت أن تنفي الشيء نفيًا مُطلقًا عن شخص، شيخ قبيلة، أو شيخ علم، تقول: يا فلان، مثلك لا يفعل كذا، ولا تقول: أنت، والعقل البشري لا يستطيع أن يحيط بكل شيء، كم في الوجود من مجهولات! كم في نفس الإنسان من مجهولات! فعندما يتصور أنه يستطيع أن يُدرِك كل شيء، ويخوض بعقله في كل شيء، يقع في المحاذير، ولهذا فإن علماء الكلام الكبار، مثل الرازي والغزالي في آخر حياتهم، ندموا، وتابوا، وأوصوا بعدم الخَوْض فيما يتعلق بالغيب؛ لأن العقل البشري طاقته وقدرته محدودة، فلا ينبغي له أن يخوض فيما لا يستطيع، وله دائرة، فلا يتعدَّاها، وهو التسليم لما يتعلق بالغيب، وكان بعض أبناء الولاة في السابق يخوض في هذه القضايا، فاستدعاه أحد العلماء، فقال: يا فلان، سمعت أنك تخوض في قضايا الغيب، قال: نعم، قال: جاء في الحديث أن الرسول ﷺ رأى جبريل، وله ستمائة جناح، أعفيتُك من خمسمائة وسبعة وتسعين جناحًا، ركب لي ثلاث أجنحة،

أين محلها من جبريل؟ فسكت؛ لأن الغيب فوق طاقة الإنسان، فمجال الغيب التسليم، فإذا أراد أن يضع قواعد للتنزيه، فكأنه يقول: إن كلام الله وكلام رسوله لا يصلُحان لتنزيه الله، فأنا أُنزِّه الله بكلامي، وهذا خطأ فاحش، فلم يُنزَّه الله -تعالىٰ- بمثل كلامه وكلام رسوله ﷺ، وعلينا الاتِّباع والتسليم، فما عرفناه، صدقنا به، وما لم نعرفه، صدقنا به، ونكِله إلىٰ الله، مع اعتقادنا أن الله ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

وأما العقل، فكل البشرية متفقون علىٰ أن كل إنسان فيه عقل، ولكن أين عقله؟ وما هو عقله؟ فيجد نفسه لا يعرف جوابًا صحيحًا، وهو يتحدث عن العقل، ويتكلم عنه، ولا يعرفه، فإذا كان فيه ما يجهله، فكيف يريد أن يفهم ما هو أعظم من عقله، ومن الكون كله!

فمدار الغيبيات التسليم، وبهذا يستقر القلب، وتطمئن النفس، أما من أراد أن يُحاكِم الغيبيات إلىٰ المحسوسات، فإنه يكون مخطئًا، ويقع في المحاذير، التي جاء في الشرع النهي عنها.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال، مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بست بالمهملة.

وأما الحاكم فاسمه محمد بن عبد الله بن محمد الضبي النيسابوري أبو عبدالله الحافظ ويعرف بابن البيع، ولد سنة إحدىٰ وعشرين وثلاثمائة، وصنف التصانيف كالمستدرك وتاريخ نيسابور وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة.



الشَّرْح

قوله: (**قال الحاكم...**)، الحاكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ له كتاب، وهو (المستدرك)، وأراد بهذا الكتاب أن يرُدَّ علىٰ بعض المبتدعة، الذين قالوا: أنتم لم يثبت عندكم من الحديث الصحيح إلا ما في الصحيحين، ولا تزيد أحاديثهما عن ألفي حديث، غير المكرر، قال: بلىٰ، صحَّ عندنا كثير، فألَّف هذا الكتاب (المستدرك)؛ ليرُدَّ به علىٰ المبتدعة، كما ذكر هو في مقدمة الكتاب، وقال في شرطه إنه يُورِد الحديث إذا وردَ بمثل سند الصحيحين، ولم يشترط أن يكون من رواة الصحيحين، بل حتىٰ ولو كان في الصحة، أو في الثقة، وفي العدالة، والضبط، والتوثيق، مثل رواة الصحيح، ولكن هذا الكتاب مَلأَه بالأحاديث الضعيفة، والمُنكَرة، والموضوعة، وقد ذمَّ الكتاب بعض العلماء، كالهروي وابن طاهر والمليني، قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في المستدرك شيء كثير علىٰ شرطهما، وشيء كثير علىٰ شرط أحدهما، ولعل مجموع ذلك ثلث الكتاب، بل أقل، يعني قد يكون فقط ربع الكتاب علىٰ شرطه، فإن في ذلك أحاديث هي في الظاهر علىٰ شرط أحدهما، أو كليهما، وفي الباطن لها علل خفية مؤثرة، وقطعة من الكتاب إسنادها صالح وحسن وجيد، وذلك نحو ربع الكتاب، وباقي الكتاب مناكير،

وعجائب، وفي غضون ذلك أحاديث نحو المائة يشهد القلب ببُطلانها، قد أفردت منها جزءًا -هذا قول الذهبي-، وحديث الطير بالنسبة إليها سماع، وبكل حال فهو كتاب يفيد، قد اختصرته، ويعوز عملًا وتحريرًا.

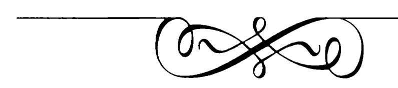
فاختصر الذهبي الكتاب، ولكنه تساهَل كتساهُل الحاكم، وقد اعتذر ابن حجر عن الحاكم، بأنه سوَّد الكتاب؛ لينقِّحه، فعاجلته المَنِيَّة، يقول ابن حجر: وجدت في قريب نص الجزء الثاني من تجزئة ست من المستدرك، قول: إلىٰ هنا انتهىٰ إملاء الحاكم، أي أن الحاكم رحمه الله راجع الكتاب مرة أخرىٰ، ولكنه لم يتمكن من مراجعته كله، بل راجع جزءًا منه قليلًا.

والحاكم أوْرد أحاديث كثيرة مُنكَرة في فضائل آل البيت، حتىٰ اتُّهم بالتشيُّع، ومنها حديث الطير المذكور هنا، وفيه: (**أُهدِيَ إلىٰ النبي ﷺ فَرْخ مشوي، فقال: اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير**)، وكان أنس بن مالك علىٰ الباب، ومعروف أن أنس بن مالك خادم النبي ﷺ، قال: (**فجاء علي بن أبي طالب، فردَّه أنس، كان أنس يريد أن يكون الشخص الذي يأتي من الأنصار، فذهب علي، ورجع مرةً ثانية، فردَّه أنس، ورجع مرةً ثالثة، فردَّه أنس، ولم يأتِ أنصاري، فأخيرًا سمح له بالدخول**)[1]، هذا الحديث حديث مُنكَر سندًا ومتنًا، ولا يليق بأنس بن مالك أن يرُدَّ صهر رسول الله ﷺ، وابن عمه، حتىٰ يأتي شخص من الأنصار، هذا قول باطل، والحاكم كان يُنكِر هذا الحديث، ثم أخيرًا وجدوه في كتابه، ومثله كثير من الأحاديث، التي فيها ما يتعلق بآل البيت، مما لم يصح، وآل بيت رسول الله ﷺ، فيهم أحاديث

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم، وقد رواه مُطولًا، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر إسلام أمير المؤمنين علىٰ رضي الله عنه، برقم: (٤٧١٣)، (٣/ ١٥٢)، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وضعَّفه الذهبي في تعليقه، وقال ابن عياض: "لا أعرفه".

وفضائل صحيحة، ولا نحتاج إلىٰ مثل هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة، فإن آل بيت رسول الله ﷺ لهم علىٰ الأمة حقان: حق الإسلام، وحق القرابة، فنحن نحب مَن كان من آل بيت رسول الله ﷺ محبتين، إحداها لإسلامه، والثانية لقرابته لرسول الله ﷺ، ولكنه لو كان فاسقًا، فيكون عليه عقابان، أو له منَّا كُرهان، نكرهه لأنه فسق، ونكره لأنه خالَف دين جده الذي ينتسب إليه، وكَثُر الانتساب في العصر الحاضر إلىٰ آل البيت، ولكن مَن ثبتت نسبته، فالواجب علىٰ الأمة أن تحترمه وتقدِّره، لمكانة رسول الله ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: (وللترمذي وحسَّنَهُ عن أنسٍ سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقُولُ: قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: يَا ابنَ آدَمَ لوْ أَتَيْتَنِي بِقُرابِ الأرضِ خَطَايا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بي شَيئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً).

الترمذي: اسمه محمد بن عيسىٰ بن سورة بفتح المهملة ابن موسىٰ بن الضحاك السلمي أبو عيسىٰ صاحب الجامع وأحد الأئمة الحفاظ كان ضرير البصر روىٰ عن قتيبة وهناد والبخاري وخلق، ومات سنة تسع وسبعين ومائتين.

الشَّرح

قوله: (قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا...)[1]، هذا الحديث قال المحقق: صحيح بطرقه وشاهده، رواه الترمذي وحسَّنه، والترمذي لم يحسِّن الحديث، بل قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإن كان الترمذي له نسخ، ولكن النسخة المطبوعة المتداولة، ليس فيها التحسين، بل فيها أنه قال: حديث غريب.

وهذا الحديث قد وردَ من طرق أخرىٰ صحيحة كما في مسلم، وسيأتي به الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكنه بهذا السند في إسناده شهر بن حوشب، وفيه ضعف، ولكن الحديث تعددت طرقه.

ومعنىٰ الحديث -كما سبق- أنه مَن لَقِيَ الله بتوحيد خالص، ولقيه مُوحِّدًا، ومعه معاصٍ، ولكن لم يُدنِّس توحيده، لا بإصرار علىٰ معصية، ولا

(١) سبق تخريجه.

بشرك أكبر أو شرك أصغر، فإن الله قد وعده بمغفرة الذنب يوم القيامة.

قوله: (الترمذي: اسمه محمد...)، هذا من منهج الشارح رحمه الله أنه إذا ذكر صاحب المتن الشيخ: محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله، راويًا للحديث، فإنه يُعرِّف به، والترمذي من البلاد الشرقية في بلاد المسلمين، وكما سبق أن الأمة الإسلامية انساحت في الأرض، في خلال نصف قرن، حيث وصلت الفتوحات من الصين إلىٰ الأندلس، وهم بأدواتهم البدائية، وسيوفهم القصيرة، وثيابهم الممزَّقَة، وعدَّتهم القليلة، ولكن في نصف قرن فتحوا الأرض، وما ذلك إلا ببركة الإيمان، وإدراكهم لحقيقة الوجود، فهذا الإيمان يصوغ من الإنسان إنسانًا آخر، والترمذي رحمه الله من ثمار هذه الفتوحات الإسلامية، فإنه كان من خراسان من (ترمذ)، وهو محمد بن عيسىٰ بن سورة، أبو عيسىٰ الترمذي ولد عام مائتين، وتوفي عام مائتين وتسعة وسبعين للهجرة، يعني عمره تسعة وسبعون عامًا، قال ابن الأثير: الحافظ المشهور مُصنِّف الجامع والعلل الكبير، والشمائل، أحد الأئمة الذين يُقتدَىٰ بهم في علم الحديث، وأحد العلماء الحُفَّاظ الأعلام، اسم كتابه (السُّنَن)، وبعضهم يُطلِق عليه الجامع الصحيح، ولكن فيه مبالغة؛ لأنه ليس كل ما فيه صحيحًا، بل فيه الصحيح، والحسن، والضعيف، واختُلِف في الموضوع، هل فيه موضوع أو لا؟ وقال الحاكم: سمعت عمر ابن علَّك، يقول: مات البخاري، فلم يُخلَف بخراسان مثل أبي عيسىٰ في العلم والورع والزهد، بكىٰ حتىٰ عَمِيَ رحمه الله، وبَقِيَ ضريرًا سنين، فليس العَمَىٰ من الولادة، ولكنه كان بسبب بكائه من خوف الله عز وجل، ومن تقواه وورعه رحمه الله، وقال الحافظ ابن كثير: كان يُضرَب به المثل في الحفظ رحمه الله، ولكن ابن حزم -وهو من الأندلس- لم يعرف الترمذي، فقال فيه: مجهول، أي أنكر الترمذي، ولم يعرفه؛ لأنه لم يعرف سُنن الترمذي، فإنها لم تدخل

الأندلس إلا بعد موت ابن حزم، ولكن الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ يتشكك في عدم معرفة ابن حزم للترمذي، ويرىٰ أن هذا من منهجه رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه إذا خالَف عالِمًا، فإنه يصفه بأقبح الأوصاف.

روىٰ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في سير أعلام النبلاء بسنده عن الترمذي، أنه قال: صنَّفتُ هذا الكتاب، فعرضتُه علىٰ علماء الحجاز، فرضوا به، وعرضتُه علىٰ علماء العراق، فرضوا به، وعرضتُه علىٰ علماء خراسان، فرضوا به، ومَن كان في بيته هذا الكتاب، فكأنما في بيته نبي يتكلم؛ لأنه قد جمع الوحي جهده رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب، وكان معاصرًا للبخاري ولمسلم، ولكنه لم يروِ عنهما في كتابه إلا حديثًا واحدًا عن مسلم؛ لأنه شارك الشيخين في شيوخهما، فالبخاري وُلِدَ عام مائة وأربعة وتسعين للهجرة، والترمذي عام مائتين، ومسلم وُلِدَ عام مائتين وستة، والترمذي وُلِدَ قبله، فعدم إخراجه بعض الأحاديث عن طريقهما ليس رغبةً عنهما، بل كان رَحِمَهُ اللَّهُ يستفيد من البخاري في العلل، ويذكره في السُّنَن، فيقول: سألت عنه محمد بن إسماعيل، فقال كذا، فكان في العلل -التي هي من جهد البخاري وعلمه الخاص- يسأله فيها، أما في الرواية فقد شارك البخاري في شيوخه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهو كتاب سهل المأخَذ، جمع في داخله عدة علوم، فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ صنَّف الكتاب علىٰ أبواب الفقه، وذكر علل الحديث، وبيَّن الصحيح من السقيم، والمرفوع من الموقوف، قال أبو بكر بن العربي -وقد شرح السُّنن في كتاب سمَّاه عارضة الأحوذي-: وهو كتاب في غاية الجودة، ولكنه رَحِمَهُ اللَّهُ لم يهتم بدراسة الأسانيد، قال: (وليس في قدر كتاب أبي عيسىٰ مثله حلاوة مَقطَع، ونفاسة مَنزَع، وعذوبة مَشرَق، وفيه أربعة عشر علمًا علىٰ فوائد، صنَّف)، يعني: وزَّع الأحاديث علىٰ أبواب الفقه، وذلك أقرب إلىٰ العمل، (وأسند)،

يعني روَىٰ بالسند، (وصحَّح)، أي ذكر الحديث الصحيح، (وأسقم)، أي ذكر الحديث إذا كان ضعيفًا، و(عدَّد الطُرُق)، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُورِد الحديث الصحيح المشهور في أول الباب، ثم يذكر بعده أحاديث أقل شهرة، وفي نهاية الباب يقول: (وفي الباب عن فلان وفلان وفلان)، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأنه استوعب في كتابه جميع الأحاديث، (وجرَّح)، إذا جاء في نهاية الحديث قال: فيه فلان وفيه فلان فيه ضعف، أو قد اختلط بآخره، فهو يُبين درجة الراوي، (وعدَّل وأسمَىٰ)، يعني إذا جاء في الحديث راوٍ، قال: حدثنا أبو فلان، وفي آخر الحديث يقول: هو فلان، ولا يتركه مُبهمًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (وأكْنَىٰ)، إذا جاء شخص بدون كُنية، قال: هو أبو فلان، يسميه، فإن الرواة قد يتفقون في الأسماء، ويختلفون في الكُنية، فلابد من بيان هذا، (ووصَّل)، يعني قال: هذا الحديث موصول من حديث كذا، (وقطَّع)، قال: هذا الحديث مقطوع من طريق كذا، (وأوضح المعمول به)، يقول: هذا الحديث عمل به فلان من العلماء، أو لم يعمل به إلا فلان، أو أجمع العلماء عليه، وهذا يدل علىٰ فقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (والمتروك)، أي قال في آخر الكتاب: (كل ما أوْردتُه في كتابي هذا قد عمل به، أو أَخَذَ به بعض الفقهاء، إلا حديثين)، فذكر منهما حديث ابن عباس: أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جَمَعَ من غير خوف ولا مطر، وحديثًا آخر، (وبيَّن اختلاف العلماء في الرد والقبول لآثاره، وذكر اختلافهم في تأويلهم، وكل من هذه العلوم أصل في بابه، وفرض في نصابه، فالقارئ له لا يزال في رياض... وعلوم متدفقة)، هذا كلام ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مرتبة الترمذي في التصحيح: الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما مرَّ من المتساهلين، قال الذهبي: (جامعه)، أي جامع كتاب الترمذي، (قاضٍ له بإمامته وحفظه وفقهه،

ولكن يترخَّص في قبول الأحاديث، ولا يُشدِّد، ونَفَسَه في التضعيف رَخْو)[١]، يعني لا يُضعِّف كثيرًا، وقال هذا الكلام في (سير أعلام النبلاء)، وقال في (ميزان الاعتدال)، في ترجمة أحد رواة الترمذي، وهو كثير بن عبد الله المزني، بعد أن أوْرد كلام العلماء في تجريح هذا الراوي، ومنهم الشافعي وأبو داود، قال فيه: (ركن من أركان الكذب)، أي هذا الراوي، وقال الدارقطني: (متروك)، ثم قال الذهبي: (وأما الترمذي فروَىٰ حديثه: الصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحلَّ حرامًا، أو حرَّم حلالًا، وصحَّحه)، ثم قال الذهبي: (ولهذا لا يعتمد العلماء علىٰ تصحيح الترمذي)[٢]، هذا حديث في إسناده رجل قيل فيه: ركن من أركان الكذب، والترمذي قال: حديث صحيح، ولهذا العلماء لمَّا رأوا هذا التساهُل، لا يقبلون تصحيح الترمذي، إلا إذا وافقه غيره، وقد أوْرد ابن الجوزي أربعة وعشرين حديثًا من سُنن الترمذي في الموضوعات، ولكن العلماء ردُّوا عليه، ونفوا أن يكون في السُّنن موضوع، ولكن إذا وردَ حديث مثل هذا، وفي سنده راوٍ، قيل فيه: ركن من أركان الكذب، ولم يَرِد الحديث من غير هذا الرجل، فبماذا نحكم علىٰ الحديث؟ لا يكفي أن يقال: ضعيف، بل يكون هذا في عداد الموضوعات.

والسُّنن شُرِحَت قديمًا، فشرحها ابن العربي، وشُرِحَت حديثًا، فشرحها عالم هندي محدِّث كبير اسمه المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: (عدم الاعتماد علىٰ تصحيح الترمذي وتحسينه، إنما هو إذا انفرد بالتصحيح أو التحسين، وأما إذا وافقه في ذلك غيره من أئمة الحديث، فلا)، فالترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا جاء له مَن يشاركه في التصحيح، يكون تصحيحه مقبولًا.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٧٤-٢٧٦).

(٢) ميزان الاعتدال (٣/ ٤٠٧).

وهذا في التصحيح، أما في التحسين، فقال الذهبي في ترجمة يحيىٰ بن يمان: (بعد ذِكْر حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ دخل قبرًا، فأُسرِجَ له سِراج، حسَّنه الترمذي، مع ضعف ثلاثة فيه، فلا يُعتَدُّ بتحسين الترمذي، فعند المحاققة، غالبها ضعاف)[1]، يعني الأحاديث التي قال فيها الترمذي حسن، يكون غالبها عند المحاققة، يعني عند التحقيق، ضعيفةً، وقال الباركفوري رحمه الله: (واعلم أن أبا عبد الله الحاكم أيضًا متساهل في تصحيح الحديث وتحسينه، كما أن الترمذي متساهل فيهما، ولكنهما ليسا بمتساويين في ذلك، حتىٰ قيل: إن تصحيحه دون تصحح الترمذي والدارقطني، بل تصحيحه كتحسين الترمذي، وأحيانًا يكون دونه، وأما ابن خزيمة وابن حبان فتصحيحهما أرجح من تصحيح الحاكم بلا نزاع)، فهؤلاء الأربعة: الحاكم والترمذي وابن حبان وابن خزيمة، تصحيحهم لا يؤخَذ علىٰ انفراد، إلا إذا شاركهم في التصحيح غيرهم؛ لأنهم عند التدقيق، نجِد أنهم يتسامحون في كثير من التصحيح.

وعدد أحاديث الترمذي اختلفت في النسخ، فنسخة أحمد شاكر أوْرد فيها ثلاثة آلاف وتسعمائة وستة وخمسين حديثًا، وأما نسخة المباركفوري فأوْرد فيها أربعة آلاف ومائتين وخمسة عشر حديثًا، وبعض الأحاديث ساقطة من نسخة أحمد شاكر، وبعضها ساقط من تحفة الأحوذي، وبعض الأحاديث يجعلها المباركفوري حديثًا، وبعضها يجعلها أحمد شاكر ضمن أي رقم، وأما المباركفوري فإنه يجعل لها رقمًا خاصًّا.

والترمذي رحمه الله أول مَن أحدَث اصطلاح: حديث حسن، وكان العلماء قبله يقسِّمون الحديث إلىٰ قسمين: صحيح وضعيف، ولهذا فالعلماء القدماء

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٣/ ٢٧٦).

كابن مهدي وأحمد بن حنبل، حينما يقبلون الحديث الضعيف، لا يريدون به الضعيف عند الترمذي، بل المراد به الحديث الحسن، أي الضعيف الذي ينجبر ضعفه، فيرتقي إلىٰ الحَسَن لغيره في اصطلاح المتأخرين، أما الضعيف عند الترمذي، فلا يقبلونه في فضائل الأعمال، ولا في الأحكام.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وكان الحديث في اصطلاح مَن كان قبل الترمذي، إما صحيح وإما ضعيف، والضعيف نوعان: ضعيف متروك، وضعيف ليس بمتروك، فتكلم أئمة الحديث بذلك الاصطلاح، فجاء مَن لا يعرف اصطلاح الترمذي، فسمع قول بعض أئمة الحديث الضعيف أحب إليَّ من القياس، فظن أنه يُحتَج بالحديث الذي يضعِّفه مثل الترمذي)[1]، وقلنا: هذا خطأ في الفهم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (أما نحن فقولنا: إن الحديث الضعيف خير من الرأي، ليس المراد به الضعيف المتروك، ولكن المراد به الحسن، كحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وحديث إبراهيم الهجري، وأمثالهما مِمَّن يُحسِّن الترمذي حديثه، أو يصحِّحه)، والعلماء في قبول الحديث الضعيف، الذي هو الحسن، في العمل به علىٰ ثلاثة أقوال:

القول الأول: يُنقَل عن الإمام أحمد وابن مهدي، أنهما يقبلانه في فضائل الأعمال، أما إذا جاء في غير فضائل الأعمال، فإنهما لا يقبلانه.

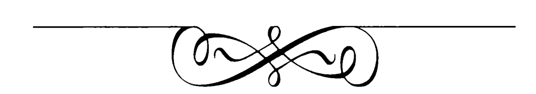
القول الثاني: وقوم منعوا الأخذ به، ومنهم أبو شامة، صاحب كتاب الحوادث والبدع، فإنه أنكر علىٰ ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ روايته أحاديث في فضل رجب، وقال: لا يجوز أن يؤخَذ بالضعيف، حتىٰ في الفضائل.

---

(١) منهاج السُّنة النبوية (٤/ ٣٤١).

والقول الثالث: أننا نأخذ به في الأحكام، إذا لم يوجَد غيره، وهذا يُنقَل عن الإمام أحمد رحمه الله، ولكن المراد بالضعيف هنا، هو الذي على شرط الترمذي في الحسن، وليس المراد ما يقول فيه الترمذي رحمه الله إنه ضعيف.

فهذه نبذة عن الترمذي رحمه الله، وهو أحد أئمة الكتب الستة، التي أطلق عليها العلماء اسم (الصحاح الستة)، تغليبًا لما فيها من الصحاح، وإن كان في بعضها حسن، وفي بعضها ضعيف، ولكن هذا للتغليب، وفي العصر الحاضر، أفرَد الشيخ الألباني رحمه الله الأحاديث الصحيحة على حدة، والأحاديث الضعيفة على حدة، في كل من كتاب الترمذي، وأبي داود، والنسائي، وابن ماجه، وكان الأَوْلَى أن يبقى كل كتاب كما هو، ويُضعِّف، أو يُصحِّح الأحاديث في مواضعها الأصلية من كل كتاب، أما تمزيق الكتاب إلى كتابين فهذا من الأشياء التي لم يوافقه عليها كثير من أهل العلم في العصر الحاضر، وهذا اجتهاد منه، وقد نفع الله بعلومه واجتهاده في السُّنَّة كثيرًا.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأنس: هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين، ودعا له النبي ﷺ قال: «اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة» ومات سنة اثنتين وقيل: ثلاث وتسعين، وقد جاوز المائة.



الشَّرح

قوله ﷺ: (**اللهم أكثر ماله وولده...**)، هـذا الحـديث الـذي ذكـره الشـارح رَحِمَهُ اللَّهُ في فضل أنس بن مالك، وأن النبي ﷺ دعا له بالبركة، ليس فيه زيادة (**وأدخله الجنة**)، وهذه الزيادة لم نجدها في شيء من الكتب المعتمدة[1]، وهذا الحديث في الصحيحين، ولفظ مسلم: (**اللهم أكثر ماله، وولده، وبارك له فيه**)[2]، وعند البخاري (**وبارك له فيما أعطيته**)[3]، وليس فيهما: (**وأدخله الجنة**)، وإلا لو كان دُعِيَ له بذلك، لكان مِمَّن بُشِّر بالجنة؛ لأن الرسول ﷺ إذا دعا لإنسان بالجنة، فدعاؤه مقبول، فلم تأتِ في حديث صحيح، أو حسن، أو ضعيف، هذه الزيادة، ولا ندري من أين أتىٰ بها الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد استجاب الله عَزَّ وَجَلَّ لدعاء الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنس، فقد عاش طويلًا، ووُلِدَ له الولد الكثير، حتىٰ إنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأىٰ من ولده وولد ولده أكثر من مائة ولد، وقد دُفِنَ في حياته، أكثر

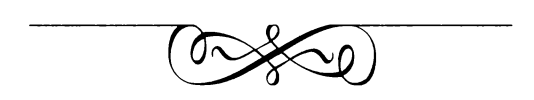
---

(١) يوجد في مسند عبد الحميد، برقم: (١٢٥٥)، (١/ ٣٧٥)، وفيه أن أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال بعد ذلك: "فلقد رأيت اثنتين، وأنا أرجو الثالثة"، ولكن هذه زيادة شاذة.

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك، برقم: (٢٤٨١)، (٤/ ١٩٢٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب قول الله -تعالىٰ-: (وصل عليهم)، برقم: (٦٣٣٤)، و هي موجودة كذلك عند مسلم، برقم: (٢٤٨٠)، (٤/ ١٩٢٨).

من مائة ولد له، وهذا من بركة دعائه ﷺ، وكان له بستان يُثمِر في السنة مرتين، وفي بعض السنوات أصيب هذا البستان بقحط، أي لم ينزل مطر، فجاء خادم البستان إلىٰ أنس بن مالك، فأخبره، فأخذ ملابسه، وصلَّىٰ في الصحراء، وصلَّىٰ صلاة الاستسقاء، فدعا الله ﷻ، فنزل المطر علىٰ بستانه فقط، فأرسل بعض أهله، لينظروا ماذا بلغ الماء، قالوا: لم يتجاوز البستان، وهذه الرواية رواها اللالكائي رحمه الله بثلاثة أسانيد في كتاب الكرامات، وهذا من كرامته رضي الله عنه، وببركة دعائه ﷺ له، بأن يبارك الله له في ماله وولده.



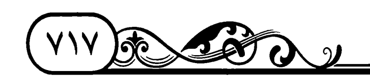
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والحديث قطعة من حديث رواه الترمذي من طريق كثير بن فائد حدثنا سعيد بن عبيد سمعت بكر بن عبد الله المزني يقول حدثنا أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم إنك دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض) الحديث. قال ابن رجب: وإسناده لا بأس به.

وسعيد بن عبيد هو الهنائي ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الدارقطني: تفرد به كثير بن فائد عن سعيد بن عبيد مرفوعًا. قال ابن رجب: وتابعه علىٰ رفعه أبو سعيد مولىٰ بني هاشم فرواه عن سعيد بن عبيد مرفوعًا، وقد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بمعناه، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ.

الشَّرْح

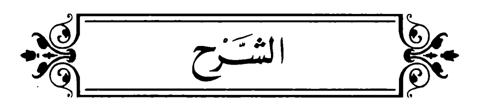
قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند إيراده هذا الحديث: (والحديث قطعة من حديث رواه الترمذي، من طريق كثير بن فائد)، والعلماء إذا أفردوا بالذكر راويًا في السند، فلا بد أن يكون لذلك سبب، وفي هذا السند روايات غير هذا، وهذا الراوي كثير بن فائد، لم يروِ له الترمذي في سُننه إلا هذا الحديث، ولم يروِ له أحد من أصحاب الكتب الستة شيئًا، فهذا الحديث مداره علىٰ رجل واحد، هو كثير هذا، وهذا يدل علىٰ سعة علم الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في علوم الحديث، فإن هذا من النكات، التي لا يدركها إلا أهل الحديث، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يُبيِّن أن هذا الحديث تفرَّد به كثير بن فائد، وقال العلماء: إن هذا الحديث لم يأتِ إلا من طريقه عن أنس، وإلا عن أبي ذر، فقد جاء بسند آخر كما سيأتي في مسلم، ولكنه بلفظ آخر.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروى مسلم من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال: (يقول الله: من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعًا) الحديث، وفيه: (ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بقرابها مغفرة).

قوله: (لو أتيتني بقراب الأرض) قُراب الأرض بضم القاف، وقيل: بكسرها والضم أشهر، وهو ملؤها أو ما يقارب ملءها.



الشَرح

هذا الحديث في مسلم نصه كالآتي: (حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: مَن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومَن جاء بالسيئة، فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر، ومَن تقرَّب مني شِبرًا، تقربتُ منه ذراعًا، ومَن تقرَّب منى ذراعًا، تقربتُ منه باعًا، ومَن أتاني يمشي، أتيتُه هرولة، ومَن لقِيَني بقراب الأرض خطيئة، لا يشرك بي شيئًا، لقيتُه بمثلها مغفرة)[١]، فالحديث يُبيِّن أن فضل الله ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسرع إلى العبد الصالح من عمله، فإذا عمل يسيرًا، أعطاه الله أكثر، وكلما زاد، زاد الله أكثر، فهذا هو مفهوم الحديث، أنه كلما تقرب إلى الله، زاد فضله عليه زيادة عظيمة، فالحديث سِيقَ؛ لبيان سعة رحمة الله وفضله عَزَّ وَجَلَّ على العباد، وأوله هذا النداء اللطيف: (يا ابن آدم)، وهذا خطاب لكل واحد منَّا، يذكِّرك بأبيك آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه قد أخطأ، وتاب، فقبل الله

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله - تعالى-، برقم: (٢٦٨٧)، (٤/ ٢٠٦٨).

توبته، وأنت ابنه، وأنت مُعرَّض للخطأ، ولكن إن فعلت كفعله، عندما تقع في الخطيئة، فإن الله يقبل توبتك، ويغفر ذنبك، وإلا فقد كان بالإمكان أن يقول: يا أيها الناس، أو يا أيها الإنسان، وخطيئة آدم غير خطيئة إبليس، فكلاهما أخطأ، ولكن هذا تاب، فقبل الله توبته، وذاك استكبر، فطرده الله من رحمته، ويقول العلماء: الفرق بين المعصيتين: أن معصية آدم معصية شهوة؛ لأنه كان يشتهي الخلود، ومعصية إبليس معصية كِبْر؛ لأنه امتنع عن الأمر، ففرقٌ بين الامتناع عن الأمر، وبين ارتكاب النهي، ولهذا نرى ابن القيم ﷺ له كلام طويل في كتاب (الفوائد)، يتحدث عن الفرق بين ترك الأمر، وارتكاب النهي، فقال: (الدافع لارتكاب النهي)، المنهيَّات كلها، (شهوات)، فالإنسان يقع فيها شهوةً، (ولكن الأمر غالبًا إنما يمتنع الإنسان عن فعل الأمر استكبارًا، وهذا فعل إبليس، فإبليس أُمِرَ بأن يسجد، فاستكبر)، وإلا فإبليس له خطيئة واحدة، وآدم له خطيئة واحدة، ولكن تلك في الأمر، وهذه في النهي، ففرقٌ بين الوقوع في المناهي، وترك الأوامر، فارتكاب النهي يكون عن شهوة، كما لو قيل: لا تقرب الزنا، فوقعت في الزنا، فهذا وقوع عن شهوة، والأفعال التي سببها الكِبْر يكون إثمها عند الله عظيمًا، وقد جاء في بعض الأعمال التي قد نراها صغيرة، وهي جَرُّ الثوب، أو إسبال الثياب، قوله ﷺ: (**ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا يُزكِّيهم، ولهم عذاب أليم: المُسبِل**)[1]؛ لأن إسبال الثوب يدل على الكِبْر، ولكن لو أسبل واستكبر، لارتكب نهيين، والكبر أخو الكفر -نعوذ بالله-، فالإسبال حرام، والإسبال مع الكِبْر أشد حرمة؛ لأنه يفعله استكبارًا، والكِبْر إذا حَلَّ قلبًا، خرج منه الإيمان، وجاء في الحديث: (**لا يدخل الجنة مَن كان في**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار...، برقم: (١٠٦)، (١/ ١٠٢).

قلبه مثقال ذرة من كِبْر)[١].

فإبليس يأتي الإنسان من حيث يحب، ويجعله يُبالغ ويُغالي في الأوامر وفي النواهي، حتىٰ يخرج عن المحظور، وهكذا فعل بالخوارج، فإن الخوارج بالغوا في تقييم المعصية، حتىٰ جعلوها كُفرًا، فهذا من إبليس -لعنه الله-، يأتي إلىٰ الإنسان من حيث يعلم أنه سيطيعه.

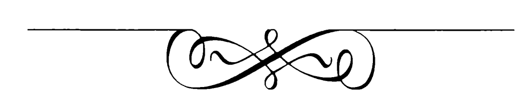
فهنا قال: (يا ابن آدم)، نداءً لكل واحد منَّا؛ فربنا ﷻ يَسكُب في قلوبنا الطمأنينة، فلو كان الله يعاقب سريعًا، ولا يقبل التوبة، ولا يغفر الذنب، لهلكَ الناس جميعًا، ولكن الله رحيم، خلق الإنسان في أعماق الرَّحِم، ورعاه، ويسَّر له الطعام والشراب، وحفظه، وصوَّره فأحسن صورته، ثم عندما اكتمل أخرجه ﷻ ورعاه، وسخَّر الكون كله من أجله، يعطيه الماء والهواء والطعام، حتىٰ أصبح رجلًا، ويخطِئ عليه، ثم إذا استغفر، غفر الله له، وبعض الناس لو أخطأ شخص في حقه خطأً واحدًا، واعتذر إليه، ما قبل عذره، وهذا من اللؤم، فهذا رب العالمين، الذي خلقه وأوجده، إذا عمل معاصي كثيرة، ثم تاب وندم، غفر له، بل قد يقلبها حسنات ﷻ، وهو المالك، وهو الرازق ﷻ، والإنسان لو أخطأ عليه آخر مثله يومًا من الأيام، لظلَّ يطارده بهذا الخطأ، حتىٰ يموت، وهذا من لُؤمه، وبُخله، وقلة علمه، وإلا لو عرف أن التجاوز عن المُسِيء يؤدي إلىٰ تجاوز الله عنه، لتجاوز عن أخيه المسلم إذا أخطأ في حقه، فينبغي للمسلم أن يحرص أن يكون متجاوزًا عن إخوانه، إذا بَدَرَ منهم خطأ، فإذا اعتذروا إليه، فليقبل عذرهم، فإن هذا من فعل الكرماء.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم: (٩١)، (١/ ٩٣).

قوله: (لو أتيتني بقراب الأرض)، الأرض لو امتلأت بخطايا المُوحِّد افتراضًا، وإلا فإن المُوحِّد لا تكثُر خطاياه، فإنه كلما وقع في خطيئة، تاب، فغفر الله خطيئته، ولو أن إنسانًا أسرف على نفسه، ولكن قلبه لم يتعلق بغير الله، وهو يعلم أن هذا ذنب، وأنه مُخطِئ، ولكن يعلم أن الله هو الذي خلق، وهو الذي رزق، وهو الذي يُحيي، وهو الذي يميت، فلا يخاف إلا الله، ولا يحب إلا الله، ولا يعظِّم إلا الله، فلم يلقه بشرك، ولا بنقص في التوحيد، فإن هذا الإنسان يغفر الله له ذنوبه.

فإن التوحيد -كما سيأتي- يحرق الذنوب، بل قد يقلبها إلى حسنات، فإذا اشتد التوحيد في قلب الإنسان، يقلب المعاصي إلى حسنات، كما قال تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان:٧٠]، ولهذا يُنقَل عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أنا أكثركم حسنات، قالوا: وما ذاك؟ قال: كنت في الجاهلية أكثركم سيئات، فعندما أسلمتُ، وحَسُنَ إسلامي، أرجو الله أن يقلب سيئاتي حسنات، وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى، وعمر رضي الله عنه بعد أن أسلم بَقِيَ على إسلامه، وإيمانه، وتقواه، وصلاحه، حتى إن القرآن كان ينزل موافِقًا لرأيه رضي الله عنه؛ لشدة إيمانه وتوحيده.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا) شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة وهو السلامة من الشرك كثيره وقليله، صغيره وكبيره، ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله، وذلك هو القلب السليم كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

الشَّرح

قوله: (شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة)، هذه إشارة إلىٰ القلب، فالقلب هو ملك الجوارح، فإذا عَمَر التوحيد القلب، فإن الجوارح تصبح مثمرة، وثمرة التوحيد هي العمل، ولا يمكن أن يكون قلبه سليمًا من الشرك الأكبر والأصغر، ثم لا تكون الجوارح دالَّة علىٰ هذا، كما يأتي من قول ابن رجب، أن الإنسان إذا كَثُرَ توحيده، أحرق المعاصي، وأحرق الشهوات من القلب، ويبقىٰ القلب سليمًا مُنيرًا مُضيئًا، لا تستطيع الشياطين أن تقترب منه؛ لأنه كلما عَظُمَ إيمان الإنسان، أصبح له أشعة تحرق الشياطين، ولهذا جاء في الحديث أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول له الرسول ﷺ: (يا ابن الخطاب، والله ما سلكتَ فَجًّا، إلا سلك الشيطان فَجًّا غيره)[1]، فهو لا يراه، ولكن نور الإيمان، ونور التوحيد يحرقان الشيطان، ويضرب العلماء مثلًا، وهو: أن السارق لا يأتي إلا لبيت مُظلِم، وما يأتي إلىٰ بيوت مضيئة، ولكن السُّرَّاق في العصر الحاضر، قد يأتون في وضح النهار، ويسرقون والأنوار كاشفة، وهكذا إبليس قد يأتي علىٰ نمط السُّرَّاق في الوقت الحاضر، ويتسلل من منافذ خاصة، فإذا غفل الإنسان، فإنه يؤثِّر عليه بوسوسته.

---

(١) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن رجب: من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله ﷻ، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لا يُخلد في النار، بل يُخرج منها ثم يُدخل الجنة، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالىٰ فيه وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أُخرجت منه كل ما سوىٰ الله محبة وتعظيمًا وإجلالاً ومهابة وخشية وتوكلاً، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها، ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضع منه ذرة علىٰ جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات.

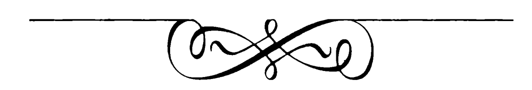


الشَّرح

قوله: (وربما قلبتها حسنات)، هذه كلمة التوحيد إذا رسخت في القلب فإنها تحرق الشهوات، وتحرق الذنوب، بل إذا اشتد نورها وصفاؤها، قد تقلب السيئات إلىٰ حسنات.

قوله: (الإكسير الأعظم)، الإكسير اصطلاح عند القدماء، أظن أنه كان هناك مادة تُجمَع مثل المواد الكيماوية المعاصرة، فيظنون أن هناك مادة تقلب المعادن والأحجار إلىٰ ذهب، فلهذا اشتهر في عباراتهم الإكسير الأعظم، إذا وضع منه شيء علىٰ كوم من التراب، أو علىٰ كوم من الحديد، قلبه إلىٰ ذهب، فلذا استعمله الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا فيقول: (**الإكسير الأعظم لو وضع منه ذرة علىٰ جبال الذنوب والخطايا، لقلبها إلىٰ حسنات**)، كما أن الإكسير القديم يقلب

التراب والمعادن العادية، إلىٰ ذهب، فكذلك التوحيد يقلب المعاصي إلىٰ حسنات، وهناك في اصطلاحهم أيضًا ما يُسمَّىٰ (شراب من ماء الحياة)، يعتقدون أن هناك نهرًا في بعض أماكن الأرض، يُسمَّىٰ نهر الحياة، وأن مَن شرب منه، لا يموت، ويعتقدون أن الخِضْر عليه السلام شرب من هذا النهر، ولهذا فإنه باقٍ إلىٰ اليوم عند كثير من الناس، وهذه دعوَىٰ باطلة، فإن الخِضْر عليه السلام مات، ولو كان حيًّا، لقابل النبي ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ مبعوث إلىٰ كافة الإنس والجن، ويجب علىٰ جميعهم الإيمان به واتِّباعه، فلو كان الخِضْر موجودًا، لرآه النبي ﷺ، ولجاء إليه، وآنس وحشته، ولقد عاش الرسول ﷺ فترة طويلة مُهاجرًا ومُطاردًا، ذهب إلىٰ الطائف، وعاش بمكة، وأُوذِيَ فيها، ثم جاء إلىٰ المدينة، ولم يُسمَع أنه قابله، ولابن تيمية رحمه الله كلام متناقض في المسألة، إحداهما: تقرر وجوده، والثانية : تقرر عدم وجوده، فلعل الأولىٰ كانت في أول حياته، والثانية في آخر حياته، فإن التي يُدلِّل فيها علىٰ عدم وجوده، أكثر أدلة وأطول، فالخِضْر أصبح عند الصوفية شخصية وهمية، ويزعمون أنه قابل الشخص الفلاني، فأصبح وليًّا، وقابل فلانًا، فأصبح صالحًا، وقابل فلانًا، فأصبح كذا، وتَبَدَّىٰ إلىٰ فلان، وأعان فلانًا، ويراه الأولياء في كل مكان يأتي إليهم، فهذه كلها أوهام، ولا ينبغي أن نعتقد وجود أحد، وقد جاء في معنىٰ الحديث الشريف: أنه بعد مائة عام، لا يبقىٰ مما هو علىٰ الأرض اليوم نفس منفوسة، فأخبر أن جميع الناس من ذلك الجيل يموتون، وهناك أدلة كثيرة علىٰ أن الخِضْر عليه السلام مات، وليس حيًّا.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال شيخ الإسلام: الشرك نوعان: أكبر وأصغر، فمن خلص منهما وجبت له الجنة، ومن مات على الأكبر وجبت له النار، ومن خلص من الأكبر وحصل له بعض الأصغر مع حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة، فإن تلك الحسنات توحيد كثير مع يسير من الشرك الأصغر، ومن خلص من الأكبر ولكن كثر الأصغر حتى رجحت به سيئاته دخل النار، فالشرك يؤاخذ به العبد إذا كان أكبر، أو كان كثيراً أصغر، والأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يؤاخذ به.



الشَّرح

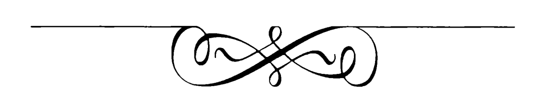
ذكر هنا شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربعة أصناف[1]:

- الصنف الأول: صنف سَلِمَ من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا تَجِب له الجنة.
- الصنف الثاني: صنف لم يَسْلَم من الشرك الأكبر، فهذا تَجِب له النار.
- الصنف الثالث: صنف سَلِمَ من الشرك الأكبر، ولكنه ارتكب شركًا أصغر كثيرًا رجحَ مع معاصٍ أخرى بسيئاته، فهذا يدخل النار، يُمحَّص فيها، ثم يُخرَج منها إلى الجنة.
- الصنف الرابع: صنف سَلِمَ من الشرك الأكبر، ولكنه جاء بأصغر يسير قليل، وحسنات راجحة، فحسناته ترجح، فيدخل الجنة.

---

(١) تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء (١/ ٣٦٤).

فهو يرىٰ أن الشرك الأصغر لا يؤاخَذ به صاحبه، إلا إذا كَثُرَ، أما كلام ابن القيم ﵀ في بعض كُتُبه يُفهَم منه أن الأصغر يُؤخَذ به الإنسان، ولكنه لا يُخلَّد في النار، فمَن جاء بشرك أصغر، فإن صاحبه يُعاقَب يوم القيامة، ولكن الراجح هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه الأحاديث كثرة ثواب التوحيد وسعة كرم الله وجوده ورحمته حيث وعد عباده أن العبد لو أتاه بملء الأرض خطايا وقد مات على التوحيد فإنه يقابله بالمغفرة الواسعة التي تسع ذنوبه، والرد على الخوارج الذين يكفرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة الذين يقولون بالمنزلة بين المنزلتين وهي منزلة الفاسق، فيقولون: ليس بمؤمن ولا كافر، ويخلد في النار. والصواب في ذلك قول أهل السنة: أنه لا يُسلب عنه اسم الإيمان على الإطلاق ولا يعطاه على الإطلاق بل يقال: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.



الشَّرح

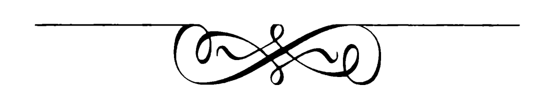
هذه المسألة في الإيمان انقسمت الطوائف فيها إلى أربعة أقسام:

فالخوارج: كفَّروا بالمعصية، وقالوا: مَن مات على الكبيرة، حكمه في الدنيا أنه كافر، ومن مات عليها، دخل النار خالدًا مُخلَّدًا، ولو جاء بأمثال الجبال حسنات وتوحيدًا.

والمعتزلة: وافقت الخوارج في حكم الآخرة، ولكن قالوا: ما نُسمِّيه في الدنيا كافرًا، ولكن نقول بمنزلة بين المنزلتين، لا كافر ولا مؤمن؛ لأن عنده إيمانًا وكُفرًا، والمعصية عند الخوارج كُفر، ولكنه عنده إيمان، فأصبح بينهما، فلا نُسمِّيه بمعصيته مؤمنًا، ولا نُسمِّيه بإيمانه كافرًا، ولكن قالوا إنه في الآخرة كما قالت الخوارج، بأنه يُخلَّد في النار، ولو جاء بأمثال الجبال توحيدًا وطاعات.

والمرجئة: وهم على خلاف ذلك، قالوا: مَن شهد أن لا إله إلا الله، وصدَّق بقلبه، فهو مؤمن، ولو ارتكب جميع المعاصي، وفي الآخرة مصيره إلى الجنة، وهذا قول مرذول مردود، وقول يُبطِل الإسلام بكامله، وإلا فالإسلام كله أحكام وأوامر ونواهٍ، فإذا كان مَن شهد أن لا إله إلا الله، يكفيه ذلك، فلماذا مكث الرسول ﷺ ثلاثة وعشرين عامًا يعلِّم الناس، ويجاهد، ويُقاتل؟ ولِمَ قاتل الصدِّيق رضي الله عنه مَن تركوا الزكاة، واستباح أموالهم ودماءهم؟

وأهل السنة: قالوا: إن العمل رُكن من أركان الإيمان، ولكنه ليس رُكنًا يؤثِّر على وجوده، بل قد ينقُص بحسبه، فأهل السُّنة والجماعة يقولون: إن الإنسان لا يخرج من الإيمان بمعصيته، إلا إذا استحلَّها، أما المعصية فإنها تجرَح الإيمان، ولكنها لا تُخرِج من الإيمان، إلا بالاستحلال، إلا إذا كانت هناك أعمال كُفرية كالاستهزاء بالدين، أو بأهل الدين، أو بالقرآن، أو بالسُّنة، فهذا يكون كُفرًا بحسبه، أما الأعمال التي هي أوامر ونواهٍ، فإن الإخلال بها يُنقِص الإيمان، ولكنه لا يزول بالكلية.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال المصنف: (تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنىٰ قول (لا إله إلا الله) وتبين لك خطأ المغرورين، وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه علىٰ معنىٰ قول (لا إله إلا الله). وفيه التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه، وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان: (إن الله حرم علىٰ النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) إذا ترك الشرك ليس قولها باللسان انتهىٰ ملخصًا.

الشَّرح

قوله: (في حديث عبادة)، حديث عبادة في أول الكتاب، وفيه (مَن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة، علىٰ ما كان من العمل)[1]، فالعمل من مقتضىٰ الشهادتين، فهذا يدل علىٰ أن الإنسان لا يكون مُوحِّدًا إلا بالعمل.

قوله: (حديث عتبان)، كما سبق، وفيه أن: (مَن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، خالصًا من قلبه، دخل الجنة)[2]، فالإخلاص والصدق في بعض الروايات، وعدم الشك في بعض الروايات الأخرىٰ، كلها قيود تؤدي إلىٰ

---

(١) سبق تخريه.

(٢) سبق تخريجه.

الالتزام، فإذا شَهِدَ الإنسان أنه ليس في الكون أحد مُطاع إلا الله، ولا يطيعه، ويطيع الهوىٰ والشهوة والبشر، يكون كاذبًا في شهادته.

وقوله: (إن الأنبياء يحتاجون للتنبيه علىٰ معنىٰ قول: لا إله إلا الله)، يشير إلىٰ حديث موسىٰ عليه السلام الذي سأل الله عز وجل أن يعطيه ذِكْرًا خاصًّا به، فقال له: قل لا إله إلا الله، فقال: كل عبادك يقولونها؛ لأنه ما أدرك معناها كما ينبغي، وهو نبي من أنبياء الله، فقال: إن هذا يدل علىٰ أن الأنبياء يحتاجون إلىٰ أن يُنَبَّهوا علىٰ معنىٰ هذه الكلمة العظيمة، هذا كله كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه المسألة، وملخص المسألة في أربع نقاط:

النقطة الأولىٰ: أن صاحب التوحيد الخالص، لا يُصِرُّ علىٰ كبيرة، وإن وقع فيها وفي الصغيرة، لأنه بشر، فإذا وقع في الذنب، استيقظ، كما جاء في الحديث: (**إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا، كأنه في أصل**)، يعني في قَعر جبل، والجبل مائل، (**يخشىٰ أن يقع عليه الجبل**)، من شدة خوفه من معصيته، (**وإن المنافق إذا أذنب ذنبًا، كأنه ذباب، وقع علىٰ أنفه، ثم طار**)[١]، فالحديث يدل علىٰ أن المؤمن يُذنِب، والمنافق يُذنِب، ولكن الفرق بينهما، أن المؤمن إذا أذنَب، استشعر ثِقَل الذنب، وقد يكون هذا الذنب سببًا في الإسراع إلىٰ التوبة والندم طوال حياته، حتىٰ يدخل الجنة.

والنقطة الثانية: أن صاحب التوحيد الخالص، لا يكاد يرتكب كبيرة، وهذا صحيح، فإذا وَقَرَ الإيمان في القلب، وخَلُصَ القلب بالتوحيد، فإن صاحبه لا يكاد يقع في كبيرة، ولكن لو وقع، -فكما سبق- لا يُصِرُّ عليها.

---

(١) سبق تخريجه.

النقطة الثالثة: أن صاحب التوحيد الخالص، موعود بفضل الله ﷻ ورحمته، ولو كثرت ذنوبه، ولكن التوحيد يشمل القولي والاعتقادي والعملي.

النقطة الرابعة: أن صاحب التوحيد الخالص، الذي قد عَمَرَ التوحيد قلبه، حتىٰ لم يبقَ فيه محبة ولا تعظيم لغير الله، وهؤلاء علىٰ درجات:

الدرجة الأولىٰ: قد يقع في الكبيرة، ولكن لا يُصِرُّ.

والدرجة الأعلىٰ منها: لا يكاد يقع في كبيرة.

والدرجة التي أعلىٰ منها: أنه لم يرتكب كبائر، ولكنه قد يأتي بصغائر كثيرة، فإلىٰ جنب التوحيد تكون مغفورة، ولكن الذي عَمَرَ التوحيد قلبه، فإنه أبعد الناس عن الكبائر والصغائر، وقد يقع في الصغائر، ولكنها تكون قليلة بالنسبة إلىٰ غيرها.

هذا ملخص ما تقدَّم في هذا الباب الذي أوْرده المؤلف ﵀ في فضل التوحيد، وما يُكفِّره من الذنوب.





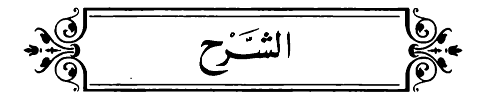
باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

(باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب) أي: ولا عذاب، وتحقيق التوحيد هو معرفته والاطلاع علىٰ حقيقته والقيام بها علمًا وعملاً، وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح إلىٰ الله محبة وخوفًا وإنابة وتوكلاً ودعاءً وإخلاصًا وإجلالاً وهيبة وتعظيمًا وعبادة، وبالجملة فلا يكون في قلبه شيء لغير الله، ولا إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله وذلك هو حقيقة (لا إله إلا الله)، فإن الإله هو المألوه المعبود وما أحسن ما قال ابن القيم:

فلواحد كن واحدا في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان

وذلك هو حقيقة الشهادتين، فمن قام بهما علىٰ هذا الوجه فهو من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.



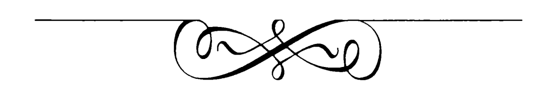
الشَّرْح

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يذكر معنىٰ التوحيد، والتوحيد درجات، أعلاها أن لا يكون في القلب سِوىٰ الله، وأن لا يحب القلب غير ما يحب الله ورسوله ﷺ، وأن لا يكره غير ما يكرهه الله ورسوله ﷺ، فحبه تابع لمحبة الله ورسوله ﷺ، وكُرهه

تابع لكُره الله ورسوله ﷺ، وقلبه مملوء بتعظيم الله، وخشيته، والخوف منه، والتوكل عليه، فهذا القلب قلب مُنير، مُضيء، في أعلىٰ درجات التوحيد، لا خوف عليه في الدنيا، ولا يحزن يوم القيامة، فأعلىٰ درجات التوحيد أن لا يكون في القلب سوىٰ الله، وهذا يأتي بالتدرُّب، والتدرُّج، والنظر، والتأمل، فإذا رأىٰ الإنسان أن الكون العظيم من خلق الله، ولا يحدث فيه شيء إلا بإرادته، وإن فِعْل الناس بقَدَر الله ﷻ، وإرادته، وإذنه، واستيقن قدر الله حق قدره، ووحَّده مخلصًا مُوقِنًا صادقًا، وهذا ما أراده ابن القيم رحمه الله بقوله: (فلواحد)، أي لله ﷻ، (كُن واحدًا)، أي مُوحِّدًا، (في واحد)، أي في طريق واحد، وهو طريق التوحيد، (أعني سبيل الحق والإيمان).

كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وهذا البيت في النونية التي نظم فيها رحمه الله عقائد أهل السُّنة والجماعة، وعقائد الطوائف المختلفة، بنَظْم جميل رائع في غاية القوة والروعة.

(وذلك هو حقيقة الشهادتين، فمَن قام بهما)، أي بحق الشهادتين، (كان من السبعين ألفًا)، الذين وردُوا في الحديث السابق، وقد وردَت أحاديث بأن الله ﷻ قد زاد النبي عليه الصلاة والسلام علىٰ السبعين غيرهم -كما سيأتي-.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠].

مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالىٰ وصف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الآية بهذه الصفات الجليلة التي هي أعلىٰ درجات تحقيق التوحيد ترغيبًا في إتباعه في التوحيد، وتحقيق العبودية بإتباع الأوامر وترك النواهي، فمن اتبعه في ذلك فإنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب كما يدخلها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الشَّرح

قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣]، والقرآن الكريم مملوء بذكر قصص الأنبياء، وقصص الأمم، وقصص الأفراد، وقصص الجماعات، ويكاد القرآن كله أن يكون قصصًا؛ لأن فيها ذِكْر حقائق الإيمان، وحقائق الكفر، مُتمثِّلَة في النفس البشرية، وهذا أقوىٰ في تثبيت المعنىٰ، فإن الله ﷻ يذكر حقائق الإيمان من خلال حركة الأفراد، وحركة الجماعات، ويذكر حقائق الكفر من خلال حركة الأفراد، وحركة الجماعات، فإن رؤية أو سماع حقائق الإيمان، وهي في أفراد، وفي جماعات، أبلغ في تثبيت المعنىٰ، فهذا من ثمار القصص.

ومن فوائد القصص: أن الله ذكر فيها الأنبياء، وما حدث لهم، فالنبي يُبتلَىٰ بأبيه، والنبي يُبتلَىٰ بابنه، والنبي يُبتلَىٰ بزوجه، والنبي يُبتلَىٰ بقومه، والنبي يُبتلَىٰ

في نفسه، فإذا رأىٰ الناس صفوة الناس، عَرَض له البلاء، ورأىٰ تلك القصص، ثم حدث له بعض الأذىٰ، فإنه يتسَلَّىٰ ويصبر ويعلم أن ذلك يرفع الله به درجته يوم القيامة.

فالله يثبت بالقصص قلوب المؤمنين الصالحين، ويرون فيها حقائق الإيمان بصورة عملية.

ومن فوائدها: أن الله ﷻ ذكر مواقف الأنبياء مع الأمم من حيث الإعراض والجحود، فإن المسلم ربما لإخلاصه وصلاحه، إذا رأىٰ مَن يُعادِي الله، ويحارب الدين، قد يُفاجَأ، فيكون سببًا لضعف إيمانه، أو لرِدَّته، ولكن إذا ذكر القرآن أن هذا طبيعة لكثير من البشر، وأن هناك مَن حارَب الإسلام، ومَن حارَب الأنبياء، ومَن عادَىٰ الله ورسله، فإذا رأىٰ نماذج من ذلك في حياته، فلا يُفاجَأ، وهذا تثبيت لقلب المؤمن، وقلوب الدعاة إلىٰ الله ﷻ، فالقصص عظيمة، وثمارها عظيمة، ولهذا ذكر الله في القرآن قصصًا عظيمة، وكل قصة تعالج موضوعًا، أو موضوعات، فإبراهيم عليه السلام جاء ذكره في القرآن الكريم في تسعة وستين موضعًا، في خمسة وعشرين سورة، وفي كل موضع يأتي في السياق طرف من قصة إبراهيم عليه السلام بصورة من الصور، فترىٰ موقفه مع النمرود، أو مع أبيه، أو مع قومه، أو مع ولده إسماعيل -عليهما السلام-، وهكذا... حسب السياق في الآيات القرآنية.

وإبراهيم عليه السلام نموذج لتحقيق التوحيد الخالص الكامل، فقد قام بأعمال عظيمة: منها أنه وقف في وجه النمرود الذي ادَّعىٰ الربوبية، وقال تعالىٰ في قصته: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فإبراهيم انتقل من هذه؛

لأنه سأله كيف تحيىٰ وتميت؟ قال: أحكم علىٰ شخصين بالقتل، فأقتل أحدهما، وأُحيي الآخر، ولما كان فيه تطويل في بيان كذب هذه الدعوىٰ، انتقل إلىٰ أمر لا يستطيع أن يجيب عليه: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا﴾ [البقرة:٢٥٨]، فهذا النمرود ادَّعىٰ الربوبية، وأنه يخلُق، وأنه يحيي ويميت، فإبراهيم عليه السلام واجهه، وواجه قومه، فكان من جراء ذلك، أنهم أرادوا إحراقه بالنار، فجمعوا له الحطب فترة طويلة، ثم قذفوه بالمنجنيق، وهو عندما يُقذَف عليه السلام كان ثابت القلب، رابط الجأش، فقذفوه، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (**كلمة قالها إبراهيم عليه السلام، عندما أُلقِيَ في النار، وقالها محمد عندما قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ١٧٣﴾** [آل عمران:١٧٣])(١).

ففي هذه الكلمة العظيمة غاية التوكُّل، وغاية التوحيد فقوله: (حسبنا الله)، أي الله كافينا، وهو نعم الكافي سبحانه وتعالى، فإبراهيم عليه السلام أُلقِيَ في النار، ولكن الله قال للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء:٦٩]، قال العلماء: لو لَمْ يقل الله (وسلامًا)، لهلك إبراهيم عليه السلام بالبرد، فبقِيَ فيها إبراهيم عليه السلام مدة طويلة، حتىٰ انتهت، وعندما انتهت النار، فُوجِئوا بإبراهيم عليه السلام جالس في النار، فلم تأكل منه إلا القيد الذي قُيِّد به، فإبراهيم عليه السلام واجه النمرود، وواجه أباه، وواجه قومه، وأخيرًا ذهب إلىٰ الشام، فتزوَّج بسارة، ثم ضُيِّق عليه في الشام، فذهب إلىٰ مصر، وفي مصر كان فيها فرعون، رجل طاغٍ كذلك، فأُخبِرَ بأنه

---

(١) سبق تخريجه.

دخل بلدك رجل مع زوجة جميلة، فأمر أن يُؤتَىٰ بها، فجِيء أولًا بإبراهيم، فسأله مَن هذه؟ قال: هذه أختي، وهذه كناية، فلا شك أنها أخته في الإسلام، فقال: ائتني بها، فذهب فأحضرها؛ لأن هذا الطاغية قد طلبها، فذهبوا بها إليه، فدعت الله ﷻ أن يحفظها منه، فعندما ذهبوا بها إليه، مَدَّ يده إليها، فيبِسَت، فقال: ادعي الله لي، ولا أوذيك، فدعت الله، فمدَّ الثانية، فيبِسَت، فدعت الله، فمدَّ الثالثة، فيبِسَت، فقال: أخرجوها عني، فإنما جئتموني بشيطان، فأعطاها خادمة، وهي هاجر عليها السلام، فرجعت إلىٰ إبراهيم عليه السلام، فسألها فقالت: كَفَّ الله يد الفاجر، وأخدمني هاجر[1]، فبقيت هاجر وسارة معه، وهي خادمتها.

وكانت سارة لا تَلِد، فقالت لإبراهيم: تزوجها -أي بهاجر- فتزوجها، فأنجبت إسماعيل عليه السلام، فغارت منها سارة، فأقسَمَت عليه أن يذهب بها إلىٰ مكان بعيد، وقد جاءها -أي هاجر- الوحي، أن ابنها يبني مع إبراهيم بيتًا لله في مكان الكعبة، في مكة المكرمة، في جبال فران، فذهب بها إبراهيم عليه السلام، ومعها صبيها، فوضعها تحت دوحة في مكة المكرمة، وليس فيها أحد، ثم ولَّىٰ فنادته: يا إبراهيم، فلم يجبها، ثلاث مرات، ثم قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت -رضي الله عنها-: إذًا لا يضيعنا الله[2]، فهذا هو الإيمان، فهي وحدها في وادٍ ليس فيه أنيس، وليس فيه أحد، فبقِيَت، وترك عندها شَنًّا من الماء، ووعاءً فيه تمر، فنفذ التمر، ونفذ الماء، فخافت علىٰ ولدها الموت، فذهبت تبحث عن الماء، فذهبت إلىٰ أقرب مكان، وهو الصفا، تتحسَّس، فلم ترَ شيئًا، ثم هبطت

---

(١) أخرج القصة البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالىٰ: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، برقم: (٣٣٥٨).

(٢) أخرج القصة البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالىٰ (يزفون)، برقم: (٣٣٦٤).

تسعىٰ إلىٰ المروة، تتحسَّس، سبع مرات، ثم أخيرًا سمعَت صوتًا، فقالت لنفسها: صه، ثم قالت: أغِثْ إن كان عندك غَوْث، فنظرت فإذا بالماء عند قدم إسماعيل عليه السلام، فذهبت إليه، وأخذت تحوِّطه بيدها، ثم تقول: زُمِّ زُمِّ، أي كُفِّ، ثم أخذت من الماء في السقاء، فقال النبي ﷺ: (**يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت الماء، لكان عينًا مَعِينًا**)[1]، فبقيت في هذا المكان.

ثم جاء إبراهيم عليه السلام بعد فترة، بعد أن كبر إسماعيل عليه السلام، فلم يجده، فوجد زوجته، وكانت امرأة سيئة الخلق، فسألها عن زوجها، قالت: ذهب يبتغي لنا الطعام، ثم سألها هل عندك طعام؟ هل عندكم شراب؟ قالت: ما عندنا شيء، نحن بأسوأ حال، فقال: إذا جاء إسماعيل، فقولي له يُغيِّر عَتَبَة بابه، أي زوجته، ثم ذهب، وجاء إسماعيل، فأخبرته، فقال: هل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، يقول: غَيِّر عَتَبَة بابك، فقال: أنت العَتَبَة، فغيَّرها، ثم تزوج بأخرىٰ، فجاء مرةً أخرىٰ، وكانت امرأة طيبة، فقال: ثَبِّت عَتَبَة بابك[2].

ثم جاء مرة أخرىٰ ليبني الكعبة، وقد رأىٰ الرؤيا في إسماعيل عليه السلام، وهذا ابتلاء في ابنه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٧]، ابتُلِيَ في ابنه إسماعيل عليه السلام، فرأىٰ في المنام -ورؤيا الأنبياء حق- أنه يذبحه، فأخبره، فقال: افعل ما تُؤمَر، إذا كان هذا أمر الله، فرضيت

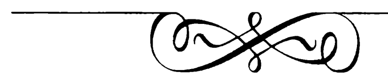
---

(١) انظر: الحديث السابق.

(٢) انظر: الحديث السابق.

بأمر الله وبحُكْمه.

فهـذه هـي الأسـرة المؤمنـة، إبـراهيم ﷺ سـيد الموحِّـدين، وابنـه كـان موحِّدًا، وزوجته كانت موحِّدة، فجعل الله ﷻ آثار هذه الأسرة، مواضع عبادة إلىٰ قيام الساعة، ففي مقام إبراهيم ﷺ،قال الله:﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وهاجر سَعَت بين الصفا والمروة؛ تبحث عن الماء، فجعل الله السعي بينهما شرعًا للمسلمين بعد ذلك، وإسماعيل ﷺ عندما ذهب إبراهيم به؛ يذبحه، قابله إبليس في محل جمرة العقبة الكبرىٰ، فقال له: إلىٰ أين تذهب مع هذا الشيخ المـُخرِّف؟ فإنه سيقتلك، فرماه، ثم ظهر ثانية، فرماه، ثم ظهر ثالثة، فرماه، فبقيت هذه من آثار إسماعيل ﷺ، وكذلك الهَدْي الذي في الحج، بَقِيَ إلىٰ قيام الساعة، فجعل الله آثار هذه الأسرة الموحِّدة تبقىٰ تشريعًا إلىٰ قيام الساعة، وهذا من بركة التوحيد، فإن إبراهيم ﷺ مع أسرته كان نموذجًا للموحِّدين، ولهذا قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣]، فابتداء المؤلف رحمه الله بذكر إبراهيم ﷺ؛ لأن إبراهيم ﷺ حقَّق التوحيد غاية التحقيق، فهذا الذي حطم أصنام قومه، وأبطل الأصنام السماوية، وهي الكواكب، وهو الذي تُبنَىٰ علىٰ يديه الكعبة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الأولىٰ: أنه كان أمة أي قدوة وإمامًا معلِّمًا للخير، وإمامًا يُقتدىٰ به، روي معناه عن ابن مسعود، وما كان كذلك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين بهما تُنال الإمامة في الدين كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

الثانية: أنه كان قانتًا لله أي: خاشعًا مطيعًا دائمًا علىٰ عبادته وطاعته، كما قال شيخ الإسلام: القنوت في اللغة دوام الطاعة، والمصلي إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩] فجعله قانتًا في حال السجود والقيام. (انتهىٰ) فوصفه في هاتين الصفتين بتحقيق العبودية في نفسه:

أولاً علمًا وعملاً. وثانيًا: دعوة وتعليمًا واقتداء به، وما كان يُقتدىٰ به إلا لعمله به في نفسه ووصفه في الثانية بالاستقامة علىٰ ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣] فتضمنت العلم والعمل والاستقامة والدعوة.



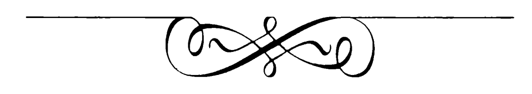
الشرح

قوله: (الأولىٰ: أنه كان أمة)، هذه أول صفة، أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان أمة: أي اجتمعت في إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صفات شتَّىٰ، استحق لذلك أن يوصف بأنه أمة؛ لأن الأمة تُطلَق علىٰ جماعة من الناس، ويُطلَق علىٰ الفرد الذي اجتمعت فيه صفات الخير، فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اجتمعت فيه خصال شتَّىٰ، كان موحِّدًا، وكان صابرًا، وكان داعيًا، وكان كريمًا، وكان حليمًا، اجتمعت فيه صفات الخير،

فاستحق أن يُوصَف بأنه أمة، وقد وعده الله بأن يكون إمامًا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]، فالإمام: هو الذي يُقتدَىٰ به في الخير، ولكن الأمة: هو الذي اجتمعت فيه خصال الخير، وكذلك يكون قدوة لغيره، فهذه أول صفة له عليه الصلاة والسلام.

قوله: (الثانية: أنه كان قانِتًا لله)، الصفة الثانية: أنه كان قانِتًا، والقنوت: دوام الطاعة، الطاعة المستمرة، وقد رأينا من طاعة إبراهيم عليه السلام، أن أمره أن يواجه قومه، فواجههم، أمره الله أن يواجه النمرود، فواجهه، وأمره الله عز وجل أن يذبح ابنه، فكاد أن يذبحه، فهو طائع لله، فسمَّاه الله قانتًا.

قوله: (وثانيًا: دعوةً، وتعليمًا، واقتداءً به)، يشير هنا إلىٰ أن إبراهيم عليه السلام كان عامِلًا بالتوحيد في نفسه، وداعيًا إليه، والآية الكريمة تُبيِّن هذا المعنىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، فمَن فعل ذلك، فقد جمع بين العمل والدعوة إلىٰ الله، فهو يعمل ويدعو، ثم لا يأخذه الغرور، بل يقول: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣]، لست أعلىٰ منهم، ولست أفضلهم، بل أنا منهم، وهذا غاية التواضع، التي ينبغي أن يكون عليها الداعية إلىٰ الله عز وجل، أن يشعر بأنه واحد من المسلمين، وهذا الإحساس يجعله لا يغتَرُّ، ولا يستكبر، ولا يشعر بأنه أفضل من غيره، أما إذا عمل، ودعا، وظن أنه أفضل من غيره، فلم يحقق معنىٰ الآية.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الصفة الثالثة: أنه كان حنيفًا، والحنف: الميل أي مائلاً منحرفًا قصداً عن الشرك كما قال تعالىٰ حكاية عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩]، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

الشرح

قوله: (الصفة الثالثة: أنه كان حنيفًا)، أنه كان حنيفًا، والحنيف في اللغة: كما يقول جمهور علماء اللغة، هو الميْل، ولكن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول خلاف هذا، يقول: الحَنْف: هو الاستقامة، والإقبال علىٰ الشيء، فخالفهم، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مائلًا عن المشركين، أو عن الشرك، إلىٰ عبادة التوحيد، ولهذا يُقال للرجل الذي يمشي برجلين فيهما اعوجاج، بحيث تتجه أطراف أقدامه من الأمام إلىٰ بعضهما البعض، أحنف، قال العلماء الذين خالفوا مَن قال بأنه الميْل، هذا علىٰ وجه التفاؤل، يُقال: أحنف، أي مستقيم القدمين، كما يُقال للديغ: سليم، أي الذي تلدغه العقرب، يُقال له: سليم، تفاؤلًا، وإلا فهو وجيع مريض، وعليه فالأحنف يُقال له أحنف، تفاؤلًا علىٰ الاستقامة، فالأصل في الحَنْف الاستقامة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : الحنيف: المُقبِل علىٰ الله، المُعرِض عن ما سواه[1]، ومَن فسَّره بالمائل، فلم يفسِّره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسَّره بلازم المعنىٰ، فإن الحَنْف هو الإقبال، ومَن أقبل علىٰ شيء، مال عن

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٤).

غيره، يعني تفسيره بأنه الميْل هو اللازم، وجمهور علماء اللغة على خلاف هذا، ولكن وجدت من علماء اللغة مَن وافقه على هذا المعنى، وهما عالمان ذكرهما صاحب اللسان:

الأول: أبو زيد القرشي، قال: الحنيف المستقيم[1]، وهذا هو الذي يتفق مع حقيقة المعنى؛ لأنه تكرر معنى الحنيف في كلام الله كثيرًا، وكذلك في الحديث، فكيف يُقال فيه المائل، أليس هناك لفظ يحل محله بأن يقوم معناه؟ ولكنا إذا قلنا: إن الحنيف هو المستقيم، فإن لازمه الميْل عن غيره، وليس هو المعنى، قال: وأنشد قول الشاعر:

تعلم أن سيهديكم إلينا ... طريق لا يجور بكم حنيف

طريق حنيف: أي مستقيم، فهذا معنى من كلام العرب، يدل على أن قول ابن القيم رحمه الله هو الراجح، وهو أن الحنيف هو المستقيم.

وقال ابن عرفة -وهو أحد علماء اللغة، مغربي-: الحَنْف الاستقامة، وإنما قيل للرجل: أحنف، تفاؤلًا بالاستقامة.

فالحَنْف في اللغة الاستقامة، وليس هو الميل عن الشرك إلى التوحيد، فهذا هو الراجح، وهذا من بدائع كلام ابن القيم رحمه الله في معاني اللغة، ونجد ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله في اللغة مُتمكِّنين، ولهذا يكون لهم دقائق في استنباط المعاني من القرآن والسُّنة؛ لأن القرآن كلام الله أفصح الكلام، وكلام رسول الله ﷺ أفصح كلام البشر، فالذي لا يفهم معاني الألفاظ، فربما لا يُنزلها المنزلة الصحيحة.

---

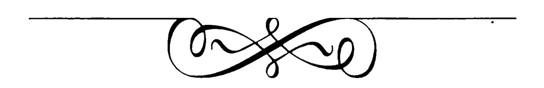
(١) تاج العروس من جواهر القاموس (٢٣/ ١٧٠)، تهذيب اللغة (٥/ ٧١)، غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٦٤)، لسان العرب (٩/ ٥٦).

فذكر الله عن إبراهيم عليه السلام أنه كان حنيفًا، أي: مستقيمًا، فكلما جاء في القرآن حنيف، فمعناه مستقيم، وقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم:٣٠]، أي استقم، حنيفًا يعني مستقيمًا، وهذا هو المعنى الصحيح الذي يبدو، والله أعلم.

وقول إبراهيم عليه السلام: (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ)، جاء تعقيبًا بعد مناظرته لقومه، فإن إبراهيم عليه السلام ناظرهم كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ [الأنعام:٧٥، ٧٦] الآيات، ثم ذكر عن الشمس، إلى أن قال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩]، القصة ذكر فيها نظره في النجوم، واختلف المفسِّرون في أن هذا الموقف من إبراهيم عليه السلام، موقف نظر، أو موقف مناظرة؟ أي هل إبراهيم عليه السلام ما كان يعرف الله، وكان يتكلم ليبحث عنه، أو أنه كان يعرف الله، ولكن تنزَّل مع قومه بهذا الكلام، حتى يُقيم الحُجَّة عليهم؟ فابن كثير رحمه الله يرى أن هذا من إبراهيم عليه السلام موقف مناظرة، وقد قال الله عنه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ [الأنبياء:٥١]، فكان راشدًا وعالِمًا، ولكن أراد أن يتنزَّل مع قومه، أما الطبري رحمه الله فيرى أنه عليه السلام في موقف نظر، أي ما كان يعرف، وإنما نظر؛ ليصل إلى الحقيقة، والصحيح هو ما ذكره ابن كثير رحمه الله أن هذا موقف مناظرة، وليس موقف نظر.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي﴾، ولم يقل: لله؛ لأنه أراد أن يُبيِّن أن الذي خلق هو ربي، فينبغي عليكم أن تتخذوا الخالق لهذا الوجود ربًّا؛ لأن الكواكب تغيب، والخالق لا يغيب عن خلقه، مَن يرعَى خلقه إذا غاب؟

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يغيب، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، فهو عَزَّ وَجَلَّ مُطَّلِع علىٰ خلقه، ولا يغيب عنهم، وإن كنا نقول: إن الله غَيْب بالنسبة لنا، فإن الغَيْب يُطلَق ويُراد به معانٍ، فالملائكة موجودون، ولكنهم بالنسبة لنا غيب؛ لأنا لا نراهم، وهكذا... فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالنسبة إليه، ليس غائبًا عنا، ولكن بالنسبة للمخلوق فهو غيب؛ لأنه لا يراه ولا يسمعه في الحياة الدنيا، ولكن سيراه يوم القيامة في جنات النعيم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الرابعة: أنه ما كان من المشركين، أي: هو موحد خالص من شوائب الشرك مطلقًا، فنفىٰ عنه الشرك علىٰ أبلغ وجوه النفي، بحيث لا يُنسب إليه شرك، وإن قل تكذيبًا لكفار قريش في زعمهم أنهم علىٰ ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقال المصنف في الكلام علىٰ هذه الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠] لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين، ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالاً كفعل العلماء المفتونين، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ خلافًا لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين.

الشرح

قوله: (الرابعة: أنه ما كان من المشركين)، هذا هو موطن الشاهد، أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان محقِّقًا للتوحيد، فلم يكن من المشركين؛ لأن قريشًا تزعم أنها علىٰ مِلَّة إبراهيم، فأنكر الله عليهم ذلك، وكذلك جميع الطوائف تدَّعي أنها علىٰ ملة إبراهيم، فأنكر الله ذلك كله، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٦٧﴾ [آل عمران:٦٧]، ويكثر ذكر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالحنيفية؛ لأنه حقق التوحيد في أعلىٰ صوره.

قوله: (لا للملوك ولا للتجار المترفين)، كل عالم في العادة إذا تحدث عن قضية من القضايا، فإن أول ما يتبادر إلىٰ ذهنه، ما يكون في عصره، فهنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد رأىٰ في عصره كثيرًا من العلماء باعوا دنياهم بدينهم، وتقرَّبوا إلىٰ ملوك

عصرهم، فأفتوهم بما يحبون، وخالفوا الحق الذي أنزله الله ﷻ، فهنا رحمه الله يُفسِّر على هذا النمط، فهو مُستحضِر في ذهنه هذه القضية، فيقول: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾، إبراهيم كان قانتًا، أي مُطيعًا لله، ولم يكن مُطيعًا للملوك، ولا للتجار المُترَفين، والطاعة أعم من ذلك، بل كل عالم إذا عالج قضية، فإنه يطغَىٰ علىٰ كلامه ما في عصره من القضايا، والشوكاني رحمه الله في تفسيره، كلما جاءت آية في التقليد، تقليد الكفار لآبائهم، ومَن كان قبلهم، قال: وهكذا المـُقلِّدة، وهكذا المـُقلِّدون؛ لأنه رحمه الله في عصر كَثُرَ فيه التقليد، فهكذا كل عالم يتحدث عن قضية في عصره، فإنه يستحضر القضية التي تكون في عصره منتشرة، فإنه رحمه الله يُبين أنه كان في عصره هذا النوع من الناس.

(﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالًا كفعل العلماء المفتونين)- هذا كلام الشيخ: محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله، وفي عصره علماء عارضوه في الدعوة، وكانوا يقرِّرون ويبرِّرون الشرك، فلهذا أشار إليهم هنا، فإن العالم إذا مال إلىٰ السلاطين، وأفتَىٰ بما يخالِف الحق، وطَمِعَ فيما في أيدي الزعماء والرؤساء، يكون -نعوذ بالله- فتنة؛ لأنه يُضِل الناس، والناس يقتدون بعلمائهم، فكان في عصره هذا النوع من العلماء، فالشيخ: محمد ابن عبد الوهاب يقول: هذا شرك، وكثير من العلماء في عصره يقولون: لا، هذا ليس شركًا، فإن هذا فيه تبرُّك بالصالحين، وهذا فيه محبة للصالحين، وهذا كلام العلماء الذين فُتنوا بمحبة الدنيا، فإذا فُتِنَ العالم بمحبة الدنيا، سَهُلَ عليه أن يتلمَّس الفتاوَىٰ والأعذار للمخطئين المنحرفين، وهذا حاصل عند كل مَن تعلَّم علمًا، ولم يكن من أهل التقوىٰ، ولا خشية لله -ﷻ-، فإن العلم علمان: علم بالله، وعلم بشرعه. فإن الإنسان قد يعلم الشرع، ولكن لا يعلم الله، ولا يعرف مكانة الله، فلا يعظِّمه، وهذا يسهل عليه أن يقع في معاصيه، وهو يعلم أن هذه معصية،

وأن هذا حرام؛ لأن خشية الله ليست في قلبه، والعلم الذي ينفع صاحبه، هو العلم الذي يكون في القلب، أو هو العلم الذي يكون بالله ﷻ، فلا بد للمسلم أن يحرص علىٰ أن يُنمِّي علمه بالله، كما يحرص علىٰ أن ينمِّي علمه بشرع الله، فكم من إنسان يحفظ القرآن، ويحفظ الأحاديث النبوية الشريفة، وسلوكه سلوك الذئاب؛ لأنه لا يعظِّم الله، والله يقول عن بني إسرائيل: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج:٧٤]، أي نقص من قلوبهم تعظيم الله، وخشيته، وإذا ضعفت مكانة الله في قلب شخص، يكون جريئًا علىٰ ارتكاب الحرام؛ مع علمه بحُرمته، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]؛ لأنهم هم الذين عرفوه، وعظَّموه، وقدَّروه، كما وردَ من كلام بكر بن عبد الله المزني عن الصدِّيق رضي الله عنه، حيث يقول: (إنه ما سبق الصحابة بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وَقَرَ في قلبه)، القلب إذا سكن فيه تعظيم الله، فإنه يحكم الجوارح، ويحكم اللسان، فلا يقول إلا ما يرضي الله ﷻ، ولهذا ألَّف ابن القيم رحمه الله كتابًا بعنوان: (إعلام الموقعين عن رب العالمين): عن المفتي، ويتحدث فيه الذي يُفتي الناس يقول: هذا حكم الله، أو هذا حكم رسول الله ﷺ، وكأنه بذلك يقول هذا توقيعي، وأنا أُبلِّغكم أن هذا حكم الله، فليتقِ الله العالم في هذا التوقيع، فلا يوقِّع إلا علىٰ ما يُرضِي الله، فيوم القيامة سيُسأَل عن هذا التوقيع، سيُسأَل عن هذه الفتوَىٰ، هل هذه فتوَىٰ حقيقية تُرضِي الله، أم أنها فتوَىٰ مصلحة؟ فالعالِم شأنه خطير، فإن اتَّقَىٰ الله كان يوم القيامة في مقام الأنبياء، حيث يأتي الأنبياء ووراءهم مَن صلحوا علىٰ أيديهم، ويأتي العلماء ومَن صلحوا علىٰ أيديهم، ولكن لو جاء العالم يوم القيامة، وخلفه مَن أضلَّه -نعوذ بالله-، فيحمل وِزره، ووِزر مَن أضلَّهم.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: وهو من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية، لكنه ينبه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ. وقوله: (لئلا يستوحش) تنبيه علىٰ بعض معنىٰ الآية وهو المنفرد وحده في الخير.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ كان علىٰ الإسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد علىٰ الإسلام غيره، فلذلك قال الله: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ ولا تنافي بينه وبين كلام ابن مسعود المتقدم.

الشَّرح

قوله: (قلت: وهو من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية)، إذا كان مراده الإشارة إلىٰ تفسير الشارح، فهذا بالعكس؛ لأنه نبَّه بالعلماء، من باب التنبيه بالأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ، فلعل هذا هو الصحيح؛ لأن الأعلىٰ هم العلماء، فإذا ضُرِبَ مثالًا بهم، كان ذلك تنبيهًا عن أن ما سواهم من عامة الناس، له حكمهم.

قوله: (لئلا يستوحش سالك الطريق)، أي: الذي يسير في طاعة الله، ويسلك الطريق، ويكون في مجتمع تكثر فيه المعاصي، وتكثر فيه الانحرافات، إذا عرف أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان وحده في خَضْم هذا الشرك، الذي يموج من كل مكان، وفي خَضْم هذه الفتن، وهذه الانحرافات، فإنه لا يستوحش، أي لا تُصيبه الوحشة، فلستَ وحدك بالذي سار في طريق الإيمان والتوحيد والدعوة، بل تسير في سير الأنبياء والعلماء والمصلحين، فأنت في طريق أهل الخير، فتستحضر في قلبك مَن سار علىٰ هذا الطريق من الأنبياء والرُّسُل والعلماء والمُصلِحين، وبهذا يتثبَّت الإنسان، ويتقوَّىٰ إيمانه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: وقال ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٩].

مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالىٰ وصف المؤمنين السابقين إلىٰ الجنات بصفات أعظمها الثناء عليهم بأنهم بربهم لا يشركون، أي: شيئًا من الشرك في وقت من الأوقات، فإن الإيمان النافع مطلقًا لا يوجد إلا بترك الشرك مطلقًا، ولما كان المؤمن قد يعرض له ما يقدح في إيمانه من شرك جلي أو خفي، نفىٰ عنهم ذلك، ومن كان كذلك فقد بلغ من تحقيق التوحيد النهاية، وفاز بأعظم التجارة ودخل الجنة بلا حساب و لا عذاب.

الشرح

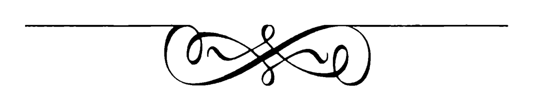
قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١]، فهذه الآيات قد وردَ فيها حديث عن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، أنها سألت النبي ﷺ، قالت: يا رسول الله، قوله تعالىٰ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠]، أهم الذين يسرقون، ويزنون، ويشربون الخمر، ويخافون الله؟ قال: (لا، يا ابنة الصديق، هم الذين يصومون، ويصلُّون، ويخافون أن لا يُقبَل منهم)[1]، هذا

(١) أخرجه الترمذي في سُننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، برقم: (٣١٧٥)، وابن ماجه في سُننه، بلفظ المفرد، كتاب الزهد، باب التوقي في العمل، برقم: (٤١٩٨)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٥٧٠٥)، (٤٢/ ٤٦٥)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الخوف من الله -تعالىٰ-، برقم: (٧٦٢)، (١/ ٤٧٧)، وصحَّحه الشيخ الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي.

الحديث اشتهر مع هذه الآيات، ولكن الصحيح أن هذا الحديث ضعيف، ففيه انقطاع بين التابعي الذي رواه، وبين عائشة -رضي الله عنها-، وهو عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، وهذا توفي عام مائة وتسع للهجرة، وعائشة -رضي الله عنها- توفيت عام سبعة وخمسين للهجرة، أي بينهما اثنتان وخمسون سنة، وهذا مما يعرف به العلماء الانقطاع، فبين الوفاتين نصف قرن، ولكن ذكر العلماء أن عمره كان ثمانين عامًا، فيكون عمره عندما ماتت عائشة -رضي الله عنها- ثماني وعشرين سنة، فيكون فيه احتمال اللقي، ولكن العلماء قالوا: إن هذا الرجل عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، لم يلقَ عائشة، فروايته عنها مُنقطِعَة مُرسَلة، فهناك راوٍ سمع الحديث منه، ولكنه ما ذكره، وهذا يُسمَّىٰ تدليسًا، فسمع الحديث من راوٍ ضعيف، فأسقطه في السند؛ لأن لو ذكره، لما قُبِلَ الحديث، وهو معتقد أن الحديث صحيح، فيسقط الراوي الذي سمعه منه، والحديث أخرجه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه.

فهؤلاء الذين جاء وصفهم في الآيات، هم المؤمنون حقًّا، وهم بربهم لا يشركون؛ لأن توحيدهم قد بلغ القمة، فلا يقعون في الشرك بالله، لا في شرك أكبر، ولا شرك أصغر، فقال الله في صفاتهم في أول الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، "من" هنا سببية، أي بسبب خشيتهم لله، مشفقون: أي خائفون، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾، أي يطيعون، ويصلُّون، ويصومون، ويعملون الطاعات، ولكنهم مع ذلك يخشون أن لا تُقبَل منهم، فهذا المعنىٰ ذكره المفسِّرون هنا، قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١]، فذكر الله أن هؤلاء هم الناجون يوم القيامة،

ونجاتهم بتوحيدهم، فهذا نموذج للمُوحِّدين من الأنبياء والرُّسُل، وهو إبراهيم عليه السلام، ونموذج من المؤمنين الذين لا يشركون بالله شيئًا، فالآيتان في الموحِّدين: الموحِّد من الأنبياء، والموحِّد من أتباع الأنبياء.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

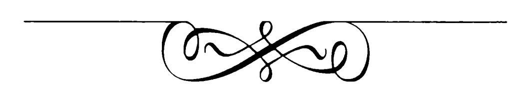
قال ابن كثير: قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون:٥٩] أي: لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحد صمد لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، وأنه لا نظير له.

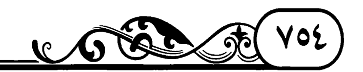
الشَّرح

هذا كلام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية، التي جاءت ضمن آيات عدة، وهي تبدأ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون:٥٧]، فالصفة الأولىٰ أنهم مشفقون: أي لكثرة خشيتهم لله عَزَّ وَجَلَّ يلحقهم الإشفاق، وهو الخوف من عقابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والخوف إما من التقصير في الحقوق والواجبات، وإما من ارتكاب المَنهيَّات، فهم خائفون، إما في عدم إتيانهم لعبادة الله كما أراد، وإما لوقوعهم في المعاصي، والصفة الثانية في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨﴾ [المؤمنون:٥٨]، وآيات الله آيات كونية، وآيات قرآنية، فكلها آيات، والمؤمن يؤمن بجميع هذه الآيات، والصفة الثالثة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون:٥٩]، أي موحِّدون، والوصف بالسلب يعني إثباتًا، والوصف بالإثبات يعني نفي الصفة عن مَن تثبت له الفعل، والصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون:٦٠]، وكما سبق أن أكثر المفسِّرين اتفقوا عن أن المراد بهذه الصفة الأخيرة، أنهم الذين يتصدَّقون، ويصومون، ويعملون الطاعات، ويخشون أن لا يُقبَل منهم، ويخشون أن الفعل قد نقص منه بعض شروطه، أو بعض صفاته، فيخشون أن يُرَدَّ عليهم العمل، بعكس الذين يُفرِطون ويرجُون، لهذا يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ :

(ليس الإيمان بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي)، يعني ليس بالتمني بالآمال، (ولكن ما وَقَرَ في القلب، وصدَّقه العمل)، فالذين يعيشون بالآمال بدون عمل، قد غرَّهم إبليس، وقد تحدث ابن الجوزي رحمه الله في كتاب (تلبيس إبليس)، على جميع أصناف الناس، وكيف يغرُّهم إبليس؟ كيف يغرُّ العلماء؟ وكيف يغرُّ الحكام؟ وكيف يغرُّ الفقراء؟ وكيف يغرُّ التجار؟ وكيف يغرُّ المزارعين؟ وكيف يغرُّ العباد؟ تحدث عن أسلوب إبليس مع جميع الناس، فإبليس لا يأتينا بصورة واضحة، وإنما يوسوس في القلب، ولهذا ينبغي للمسلم أن يحرص على حراسة قلبه، فليس كل ما في القلب من الخواطر من نفس الإنسان، بل لإبليس فيها دور، فليحذر أن يكون إبليس يرافقه في جميع أعماله، وجميع تصرفاته، وجميع خواطره، فكم من خاطر أردى صاحبه.

فالمؤمن يعمل الطاعة، ويخاف أن لا تُقبَل، والصالح يعمل الطاعة، ويخاف أن لا تُقبَل، أما الإنسان الفاسق، فيرتكب المعاصي، ويتمنَّى على الله الأماني، وهذا المعنى الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١].





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: (عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنتُ عندَ سعيدِ بن جبير، فقال: أيُّكُمْ رأىٰ الكَوكبَ الذِي انقضَّ البَارِحَةَ؟ فقلتُ: أنَا، ثم قلتُ: أما إني لَمْ أكُنْ في صلاةٍ ولكني لُدِغْتُ. قال: فما صَنَعْتَ؟ قلت: ارْتَقَيْتُ. قال: فمَا حمَلَكَ علىٰ ذلِكَ؟ قلت: حديثٌ حدثَناه الشعبي. قال: وما حدثَكُم الشعبي؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رُقْيَةَ إلا من عينٍ أو حُمةٍ. فقال: قد أحْسَنَ من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عليَّ الأممُ فرأيتُ النَّبِيَّ ومعه الرهطُ، والنبيُّ ومعه الرجلُ والرجلاَنِ، والنبيُّ وليسَ معَهُ أحَدٌ، إذ رُفِعَ لي سَوادٌ عَظِيمٌ، فظننتُ أنهم أمَّتِي، فقيل لي: هذا مُوسَىٰ وقَومُه. فنظرتُ فإذا سَوادٌ عظِيم فقيل لي: هذِه أمَّتُكَ ومَعَهُمْ سبْعُون ألفًا يدْخلُون الجنة بِلا حِسَابٍ ولا عَذَابٍ. ثم نَهَضَ فدخلَ مَنْزلَه فخاضَ الناسُ في أولئكِ فقال بعضُهم: فلعلَّهم الذينَ صَحِبُوا رسولَ الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلَّهم الذينَ وُلِدُوا في الإسلامِ فلَمْ يُشْرِكُوا باللهِ شيئًا. فخَرجَ علَيهم رسولُ الله ﷺ فأخْبَرُوه فقال: «هم الذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ ولا يَكْتَوُونَ ولاَ يَتطَيَّرُونَ وعلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسولَ الله ادعُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي مِنهُمْ، فقال: «أنْتَ مِنْهُمْ» ثم قامَ رجلٌ آخرُ فقال: ادعُ اللهَ أن يَجْعَلَنِي منهم. فقال: «سَبَقَكَ بهَا عُكَّاشَة».



الشَّرح

قوله: (قال: عن حصين بن عبد الرحمن...)، هذا الحديث[1] وأمثاله، من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب: يدخلون الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، برقم: (٦٥٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم: (٢١٦)، (١/ ١٩٧).

الأحاديث النبوية التي تتحدث عن اليوم الآخر، فإن النبي ﷺ يجعل الصحابة كأنهم يعيشون لليوم الآخر، فإن الإنسان إذا رسخ في قلبه اليوم الآخر، فإنه يحجزه عن المعاصي، ويدفعه للطاعات، ويجعله يزهد في هذه الدنيا، ولكن إذا نَسِيَ اليوم الآخر، فإن أعماله كلها لا تكاد يوجد فيها شيء يتعلق باليوم الآخر، وخاصة إذا فُتِحَت أبواب الشهوات، وأبواب المُغريات، فإن المجتمعات علىٰ قسمين: مجتمع مُترَف، وهذا يُشغَل بشهواته، ومجتمع فقير، وهذا يُشغَل بالبحث عن رزقه، فإذا كان اليوم الآخر في القلب حيًّا مُتمَثِّلًا في القلب، إن أصبح الإنسان ذَكَرَه، وإن أمسَىٰ ذَكَرَه، وإن خرج من بيته ذَكَرَه، وإن جاء عند الطاعة ذَكَرَه، وإن جاء عند المعصية ذَكَرَه، فاليوم الآخر لا يغيب عن باله، وبهذا يكون الإنسان رقيبًا علىٰ نفسه، مُحاسِبًا لنفسه، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام كثيرًا، ما يذكر اليوم الآخر، فهذا أحد الأحاديث في هذا المعنىٰ.

وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم رحمهما الله، والبخاري رواه بعدة روايات، بعضها مختصر، وبعضها مُطوَّل، ولكن اللفظ هنا لمسلم، والنسخ المطبوعة تختلف بعضها عن بعض، والمحقق لبعض النسخ ألحق وزاد ونقص في هذا الحديث، وما كان ذلك ينبغي، وكان ينبغي له أن يذكره كما ذكره صاحب المتن، فإنه زاد هنا لفظة (لا يرقون)، وهذه ليست في مسلم، واللفظ لمسلم، فكان يحسن أن لا يذكر هذه اللفظة، فهذه اللفظة تفرَّد بها مسلم، ولم يذكرها البخاري رحمه الله، فكان ينبغي أن يحافظ علىٰ النص الأصلي، ولا يعزو إلىٰ الراوي شيئًا ليس في كتابه.[١]

(١) وكان هذا في بعض الطبعات القديمة للكتاب.

قال المؤلف رحمه الله:

هكذا أورد المصنف هذا الحديث غير معزو وقد رواه البخاري مختصراً ومطولاً ومسلم واللفظ له والترمذي والنسائي.

قوله: (عن حصين بن عبد الرحمن) هو السلمي أبو الهذيل الكوفي ثقة تغير حفظه في الآخر، مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة.

وسعيد بن جبير: هو الإمام الفقيه من جلة أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة وأبي موسىٰ مرسلة، وهو كوفي مولىٰ لبني أسد، قُتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين.

الشَّرح

قوله: (واللفظ له والترمذي والنسائي)، النسائي رحمه الله ذكره في الكبرىٰ، فإن النسائي له كتابان: السُّنَن الكبرىٰ، وفيه أحاديث كثيرة لم تصح، وقد قال له أحد الولاة: أكل ما في كتابك صحيح؟ قال: لا، قال: جرِّد لي الصحيح، فكتب واختصر منها السُّنَن الصغرىٰ، وهي التي تُسمَّىٰ بالمجتبىٰ، والمراد بسُنن النسائي، هو الصغرىٰ أي المجتبىٰ، وهو أحد الكتب الستة التي هي عمدة الأحاديث لَدَىٰ المسلمين اليوم.

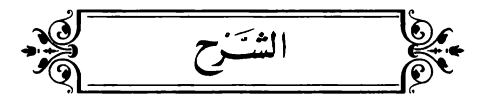
قوله: (وسعيد بن جبير: هو الإمام الفقيه...)، هذا الإمام سعيد بن جبير، وفي عصره وقعت فتنة، لقائد من قواد الجيوش الإسلامية، اسمه عبدالرحمن بن الأشعث، كان الحجاج واليًا للعراق، ومسؤولًا عن البلدان الشرقية، فأرسل عبد الرحمن بن الأشعث بجيش؛ لفتح البلدان الشرقية، والجيش عندما وصل إلىٰ تلك البلدان، كان الوقت وقت شتاء وثلوج، ومعروف أن الذين يعيشون في هذه البلدان -في العراق وفي الشام وفي الجزيرة- لا يعرفون الثلوج غالبًا، فأراد أن ينتظر حتىٰ تنتهي الثلوج، ثم يدخل ليفتح تلك البلدان،

وكان الحجاج لا يحبه، ويريد إهانته، فكتب له رسالة أهانه فيها، ووصفه بالجبن عن الإقدام إلىٰ فتح البلدان، وأمره بالإقدام إليه، فغضب عبد الرحمن بن الأشعث، ففكر، ثم انتهىٰ تفكيره إلىٰ أن يخلع بيعة الحجاج، فخطب في الجيش، وهو قرابة مائة ألف -أو قريبًا من ذلك-، فوافقوه علىٰ خلع الحجاج، فرجع من تلك البلاد ليُقاتِل الحجاج، وفي الطريق قال: ما لنا نخلع الحجاج، بل نخلع الرئيس الأكبر، وهو الوالي عبد الملك بن مروان، الذي وَلَّىٰ الحجاج، فقد خلعنا عبد الملك، وخلعنا الحجاج، فخرج له الحجاج، ووقعت المعركة بينهم، القُرَّاء وهم العلماء، والزُّهَّاد، وطلبة العلم، والحجاج كان إنسانًا ظالمًا سفَّاحًا سفَّاكًا للدماء، ففرحوا بهذه الحادثة، فخرجوا مع ابن الأشعث، وكان منهم سعيد بن جبير والشعبي، إلا أن الحسن البصري لم يخرج، وكان ينهىٰ عن الفتن، ويرىٰ أن هذه فتنة، وأنه لا ينبغي للعلماء أن يشاركوا فيها، ولكنهم لم يسمعوه، ووصفوه بالجُبْن، وخرجوا، فانكسر ابن الأشعث، وهرب الذين كانوا معه، وأقسم الحجاج أنه لن يمسك إنسانًا، مِمَّن كان معه من العلماء أو غيرهم، إلا قتله، ومنهم سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فسعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختفىٰ فترة من الزمن، ثم ملَّ من الاختفاء، فرجع وأظهر نفسه، فأخذه الحجاج فقتله، فسأله: أليس لنا عليك بيعة؟ قال: بلىٰ، ولكن كذلك بايعت ابن الأشعث، قال: كيف تبايعه، وقد بايعتنا؟ فهذا مراد الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله: (قُتِلَ بين يدي الحجاج)، ثم لم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا، لا يذوق طعم النوم والراحة، حتىٰ أخذه الله وأهلكه؛ لأنه قتل هذا العالِم، ولا شك أن العالم قد أخطأ، ولكن خطأه لا يستحق عليه القتل، بل التعزير أو السجن، أما قتله وإراقة دمه، فهذه فتنة، وقعت في ذلك العصر، فلم يعش الحجاج طويلًا، وكان كلما أراد أن ينام، إذا سعيد بن جبير، يأخذ برقبته ويشده، فيستيقظ، ويقول: ما لي وسعيد بن جبير! ثم بقي أربعين يومًا لا يذوق النوم، حتىٰ أهلكه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (انقض) هـو بالقـاف والضـاد المعجمـة، أي: سـقط، (والبارحـة) هـي أقرب ليلة مضت، قال أبو العباس ثعلـب: يُقـال قبـل الـزوال رأيـت الليلـة، وبعـد الزوال رأيت البارحة. وهكذا قال غيره، وهي مشتقة من برح، إذا زال.

قوله: (أما إني لم أكن في صلاة) القائل هو حصين خاف أن يظن الحاضـرون أنه ما رأي النجم إلا لأنه يصلي، فأراد أن ينفي عن نفسه إيهام العبادة، وأنه يصلي مع أنه لم يكن فعل ذلك، وهذا يدل علىٰ فضل السلف الصالح، وحرصـهم علىٰ الإخلاص، وشدة ابتعادهم عن الرياء بخلاف من يقـول: فعلـت وفعلـت. ليـوهم الأغمار أنه من الأولياء، وربما علق السبحة في عنقه، أو أخذها في يـده يمشـي بهـا بين الناس إعلامـًا للناس أنه يسبح عدد ما فيها من الخرز.



الشَّرْح

قوله: (قـال أبـو العبـاس ثعلـب...)، أبـو العبـاس ثعلـب مـن علمـاء اللغـة، وعلمـاء اللغـة أسـماؤهم عجيبـة، أكثرهـا أسـماء حيوانـات، كـابن عصـفور، وثعلب، والأخفش، وابن جني، وما أشبه ذلك، كل هذه الأسماء لعلماء اللغـة، وبعضهم بأسماء المهـن كـالمبرد، فيقـول ﷺ في اصـطلاح لغـوي دقيـق، قـال: العرب تقول قبل الزوال، يعني قبل صلاة الظهر، الليلة، فإذا أرادت أن تتحدث عما حدث في الليلـة السـابقة، تقـول: حـدث الليلـة كـذا، تريـد الليلـة الماضـية، وهذا قبل زوال الشمس، ولكن بعد زوال الشمس تقول: حدث البارحـة، فهـذا اصطلاح دقيق لعلماء اللغة، فقال الشارح: هذا كلام ثعلـب، وغيـره مـن علمـاء اللغة.

قول حصين بن عبد الرحمن، عندما سأله سعيد بن جبير: **(أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟)**، فقال: أنا، ولم يكن هناك أنوار في الليل، فكان الناس يرون السماء، ويتمتعون بجمالها، ويرون نجومها، وكواكبها، وقمرها، وكان سعيد بن جبير في تلك الليلة، لعله كان علىٰ ظهر منزله، أو في فناء منزله، فرأىٰ كوكبًا عظيمًا ينقضُّ في الليل، شهابًا كبيرًا له نور، فقال حصين بن عبد الرحمن عندما سأله: أيكم رأىٰ الكوكب؟ أنا رأيته، ثم أراد أن يدفع عن نفسه، ما لو سكت، لم يؤاخَذ عليه، ولكن هذا من ورعه، فقال: **(أما إني لم أكن في صلاة)**، يعني ما كنت سهرانًا أصلي، وإنما حدث لي أن عقربًا لدغتني، وهذا من ورعهم ﵏، ومراقبتهم لله ﷻ، وحرصهم علىٰ أن لا يُثنَىٰ عليهم بما لم يفعلوا، وهذا خلق الصالحين.

قوله: (وربما علق السبحة في عنقه، أو أخذها في يده يمشي بها بين الناس؛ إعلامًا للناس أنه يسبح عدد ما فيها من الخرز)،

السبحة من الأشياء المحدثة، وليس لها أصل في الشريعة، وما اشتهر بين الناس بأن هناك حديثًا وردَ في هذه المسألة، وأن امرأة كانت تُسبِّح بالحصىٰ وبالنَّوَىٰ لم يصح، فالمسألة قد وردَت فيها ثلاثة أحاديث: حديث رواه الجماعة، إلا البخاري، أي رواه كل من: مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ولكن ليس فيه ذِكْر الحصَىٰ، وقد وردَ ذِكْر الحصىٰ في الحديثين الآخرين، وكلاهما ضعيف، وفيه ذِكْر الحصىٰ، وكلاهما ضعيف، والحديث الأول الذي رواه الجماعة ما عدا البخاري: **(عن ابن عباس عن جويرية أن النبي ﷺ خرج من عندها بُكْرَةً، حين صلَّىٰ الصبح، وهي في مسجدها)**، أي مكان صلاتها، **(ثم رجع بعد أن أضحىٰ، وهي جالسة، فقال: ما زلت علىٰ الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم)**، وكانت تُسبِّح، وليس في

النص ذكر الحصَىٰ ولا النوَىٰ، (قال النبي ﷺ: **لقد قلتُ بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزِنَت بما قلتِ منذ اليوم، لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورِضَىٰ نفسه، وزِنَة عرشه، ومداد كلماته**)[1]، فهذا الحديث صحيح، والذين جعلوا للسبحة أصلًا في الدين، رووا هذا الحديث، وخلطوا بينه وبين الأحاديث الأخرىٰ التي لم تصح، فظن الناس أن السبحة لها أصل، قالوا: إذا جاز أن يُسبَّح بالحصَىٰ والنوَىٰ، جازت السبحة، هذا صحيح، لو وردَ في الشرع هذا الجواز، لكان لهذه المسألة أصلًا، ولكن هذا الحديث الصحيح، ليس فيه ذِكْر الحصىٰ، ولا ذِكْر النوىٰ.

والحديث الثاني الذي فيه ذكر الحصىٰ والنوىٰ، وليس في شيء من الصحاح، ولم يصح: عن عائشة بنت سعيد بن أبي وقاص عن أبيها، أنه دخل مع رسول الله ﷺ علىٰ امرأة، وبين يديها نوىٰ أو حصىٰ، تسبِّح به، فقال: (**أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا، أو أفضل من هذا؟ فقال: سبحان الله عدد ما خلق في السماء، سبحان الله عدد ما خلق في الأرض، سبحان الله عدد ما بين ذلك، سبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا الله مثل ذلك**)، رواه أبو داود والترمذي[2]، هذا الحديث في إسناده راوٍ اسمه خزيمة، ولم يُذكَر اسم أبيه، فهو مجهول العين والحال، ولا يُعرَف عند أهل الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، برقم: (٢٧٢٦).

(٢) انظر: سُنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب التسبيح بالحصىٰ، برقم: (١٥٠٠)، وسُنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ وتعوذه في دُبُر كل صلاة، برقم: (٣٥٦٨)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من حديث سعد، وضعَّفه الألباني.

والحديث الثالث: عن صفية قالت: (**دخل عليَّ رسول الله ﷺ، وبين يدي أربعة آلاف نواة**)، وهذا عجيب (**أُسبِّح بها، فقلتُ: لقد سبَّحتُ بهذه، فقال: ألا أُعلِّمك بأكثر مما سبَّحتِ؟ فقلتُ: علمني، فقال: قولي سبحان الله عدد خلقه**)، رواه الترمذي(١)، وقال: غريب، لا نعرفه من حديث صفية، إلا من هذا الوجه، من حديث هاشم بن سعيد الكوفي، وليس إسناده معروفًا، قلت: فيه هاشم بن سعيد الكوفي، وهاشم بن سعيد الكوفي قال فيه ابن حنبل: لا أعرفه، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث، وقال ابن حجر: ضعيف الحديث، وفيه كنانة مولىٰ صفية، ذكره الأسدي في الضعفاء، وقال: لا يقوم إسناد حديثه، ذكره ابن حجر، وذكره ابن حبان في الثقات، وابن حبان مُتساهِل.

فهذان الحديثان اللذان وردَ فيهما ذكر الحصىٰ والنوىٰ، لم يَصِحَّا، والحديث الأول الذي سبق هو في الصحيح، ولكن ليس فيه ذِكْر الحصىٰ أو النوىٰ.

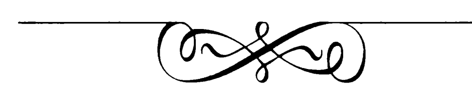
ويرىٰ بعض العلماء، ومن أشهرهم الشيخ الشوكاني رحمه الله في كتابه (نيل الأوطار)، وهو يشرح المنتقىٰ، أن الأحاديث صحيحة، ويرىٰ أن السبحة ليس فيها شيء، ولكن عند التحقيق لا نجد أن الأحاديث صحَّت في هذه المسألة، ودين الله علىٰ الاتِّباع، والمسلم يحرص علىٰ الاتِّباع، وإلا لو فُتِحَ الباب لآراء العقول البشرية، فكم من قضايا وردَ بها الدين، تُخالِف العقل! لأن الذي شرع لنا أعلم منَّا، وهو الله عز وجل، ولا يمكن أن يكون علمنا كعلم الله، أو علم رسوله ﷺ، ولو اطَّلعنا علىٰ جميع أسرار الشريعة، فلابد أن يبقىٰ في التشريع ما يجهله العقل البشري؛ لأن الذي شرع أعلم، فعدم علمنا ببعض الحكم في

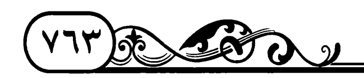
---

(١) سُنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب، برقم: (٣٥٥٤)، وقال الشيخ الألباني: مُنكَر.

التشريع، لا يعني عدم وجود الحكمة، وإنما مجال العقل التسليم.

فالمسلم يبني حياته وعبادته على الاتباع، فيسأل في كل عبادته عما صح فيها عن رسول الله ﷺ؛ لأن الله قد شرع لنا تشريعًا كاملًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فهذه المسألة التي فيها السبحة، لم يَرِد فيها نص في أصلها يُستَأنَس به، فينبغي للمسلم أن يسبِّح الله بيده، وقد تفنَّن الناس في العصر الحاضر في تصنيع آلات وأدوات جديدة للتسبيح، بعضها إلكترونيات، وبعضها مثل المسدس، أي كلما قلت: سبحان الله وضربته، أخرجت صوتًا، وإذا ناقشت البعض في ذلك، أجاب بأنه لا بأس أن يسبِّح بكل وسيلة... ولو كانت المسألة عقلية، لكان الأمر هينًا، ولوضعنا جهازًا آليًّا لضبط عدد الركعات في الصلاة مثلًا، لا سيما وقد ابتلينا بشرود الذهن في الصلاة، فشأن الصلاة أهم وأَوْلَىٰ من شأن السبحة! وهكذا يقال لأصحاب هذه العقليات، والمماحكات الكلامية، التي لا تَمُتُّ إلى الحقائق الشرعية بصلة، فالصناعات والمخترعات لتيسير الأمور الدنيوية، لا لابتداع عبادات جديدة.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد قال الإمام محمد بن وضاح: حدثنا أسد عن جرير بن حازم عن الصلت بن بهرام قال: مر ابن مسعود بامرأة تسبح به فقطعه وألقاها، ثم مر برجل يسبح بحصىٰ فضربه برجله ثم قال: لقد جئتم ببدعة ظلمًا أو لقد غلبتم أصحاب محمد ﷺ علمًا.

قوله: (ولكني لُدِغت) هو بضم أوله وكسر ثانيه مبني لما لم يسم فاعله، أي: لدغته عقرب أو نحوها.

قوله: (قلت: ارتقيت) لفظ مسلم: (استرقيت) أي: طلبت من يرقيني.

قوله: (فما حمله علىٰ ذلك) فيه طلب الحجة علىٰ صحة المذهب.

قوله: (حديث حدثناه الشعبي حملني عليه) حديث حدثناه الشعبي، واسمه عامر بن شرحبيل الهمداني بسكون الميم الشعبي، ولد في خلافة عمر وهو من ثقات التابعين وحفاظهم وفقهائهم، مات سنة ثلاثة ومائة.

قوله: (عن بريدة) بضم أوله وفتح ثانيه تصغير بردة، ابن الحصيب بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين، ابن عبد الله بن الحارث الأسلمي، صحابي شهير مات سنة ثلاث وستين، قاله ابن سعد.



الشَّرْح

قوله: (مرَّ ابن مسعود بامرأة تسبِّح...)، هذا الأثر عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد وردَ آثار أخرىٰ كذلك في البدع لابن وضاح، وفي سُنن الدارمي تُبين لنا أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ما كانوا يرضون بهذه المُحدَثات، ومعنىٰ القصة أنه مرَّ بامرأة تسبِّح بحبل فيه خرز، فقطعه، ثم مرَّ برجل يُسبِّح بحصَىٰ، فضربه برجله،

وقال: (لقد جئتم ببدعة ظلمًا)، أي فهذا الصحابي الجليل يرىٰ أن هذا بدعة، ولو كانت سُنَّة لم تبلغه، لوجد من الصحابة مَن ينبهه عليها، فدلَّ علىٰ أن هذا الفعل من البدع المحدثة.

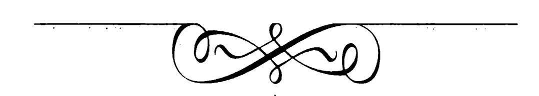
اللَّدْغ: ما يصاب به الإنسان من الحيوانات الزاحفة، كالعقرب والحية.

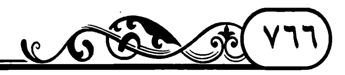
قوله: (هذا لفظ مسلم: استَرْقَيْتُ)، أي طلبت مَن يُرقيني، وكذلك ارتقيت، فقد يكون المراد أني رقيت نفسي، وقد يُراد به أني طلبت مَن يرقيني، ولكن استرقيت، معناها واحد، وهو طلبت مَن يرقيني في هذه اللدغة.

قوله: (فيه طلب الحجة علىٰ صحة المذهب)، وهذا كان واضحًا في حسِّ التابعين، أن الإنسان لا يعمل عملًا إلا إذا جاءه الدليل، وسعيد بن جبير هنا يسأل حصينًا: ما حملك علىٰ ذلك؟ يعني: لماذا فعلت هذا الفعل، وما هو دليلك؟ فقال: (حديث حدثناه الشعبي).

قوله: (حديث حدثناه الشعبي...)، الشعبي اسمه عامر بن شرحبيل الهمداني،كان ممن شارك سعيد بن جبير في الخروج علىٰ الحجاج، ولكنه سَلِمَ بحيلته، فإنه كان أكثر دهاءً من سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والشعبي قد وجهه عبد الملك إلىٰ ملك الروم في مسألة، فرأىٰ من علمه وعقله وذكائه، ما أراد أن ينتقم به منه، فكتب له كتابًا إلىٰ عبد الملك، وقال: عجبت لأهل مِلَّتك، كيف لا يُوَلُّون مثل رسولك عليك؟ يعني رسولك هو أحق بالخلافة منك، فعرف عبد الملك بن مروان، فسأل الشعبي: ماذا أراد هذا الشخص؟ قال: يا أمير المؤمنين عندما رآني رأىٰ عقلًا وعلمًا، ولكن لو رآك لغيَّر كلامه، قال: ليس هذا مراده، بل مراده أن أقتلك، فبلغ ملك الروم هذا الكلام، فقال: نعم، والله هذا أردت، هذا هو المكْر، كتب إلىٰ عبد الملك أن هذا أَوْلَىٰ بالخلافة منك، ليُوغِر صدره علىٰ الشعبي.

قوله: (قاله ابن سعد)، ابن سعد له كتاب في التراجم، اسمه (الطبقات)، وهو من أحسن الكتب وأقدمها، وطريقة تأليفه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يأتي إلىٰ الصحابة، ثم يذكر كل صحابي علىٰ حدة، ويذكر مَن أخذ العلم عن الصحابي من التابعين، ثم يأتي إلىٰ التابعي، ويذكر مَن أخذ العلم عن التابعي، فهو يذكر الطبقات، طبقات الرواة، وهذا فن في غاية الجودة لهذا العالم رَحِمَهُ اللَّهُ.

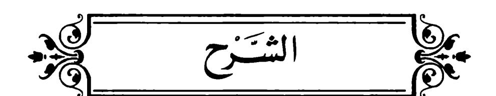




قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (لا رقية إلا من عين أو حمة) هكذا روي هنا موقوفًا.

وقد رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعًا، ورواه أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران بن حصين به مرفوعًا، قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات.



الشَّرْح

قوله: (لا رُقية إلا من عين أو حُمَّة)، هذا الحديث عندما وردَ، لم يسند حصين، أي لم يروه بالتحديث، إنما قال: (عن بريدة بن حصين أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حُمَّة)، وهذا الحديث رُوِيَ بروايتين موقوفًا ومرفوعًا:

فالموقوف: أنه عندما سأل سعيد بن الجبير حصين بن عبد الرحمن، قال: ماذا فعلت؟ قال: ارتقيت أو استرقيت، قال: ما حملك على ذلك؟ قال: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم الشعبي؟ قال: حدثنا عن بريدة بن حصيب أنه قال: (لا رُقية إلا من عين أو حُمَّة)، فهذا موقوف؛ لأن الراوي لم يرفعه إلى النبي ﷺ.

نذكر هنا كلامًا لابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم نُبيِّن المراد منه، يقول ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقع لبعض الرواة)، يعني: البخاري، قال: (حديث الشعبي مُرسَل، والمسند حديث ابن عباس)، فأشار بذلك إلى أنه أوْرد حديث الشعبي استطرادًا، ولم يقصد تصحيحه، ولعل هذا هو السر في حذف الحميدي له في الجمع بين الصحيحين، فإنه لم يذكره أصلًا، ثم وجدت في نسخة الصغاني، قال أبو عبد الله -وهو المصنف-: إنما أردنا بهذا حديث ابن عباس، والشعبي عن عمران

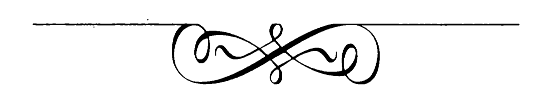
مُرسَل)[1]، وهذه رواية ثانية عن عمران بن الحصين، يعني هذا الحديث في رواية البخاري ليس صحيحًا مُتصِلًا، وإنما هو صحيح موقوف علىٰ بريدة بن الحصين، فرجعنا إلىٰ أسانيد هذا الحديث، فوجدنا أن هذا الحديث اختلف فيه العلماء، ومنهم مَن رواه موقوفًا، ومنهم مَن رواه مرفوعًا، فقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمحفوظ رواية حصين، مع الاختلاف عليه في رفعه ووقفه، والتحقيق أنه عنده عن عمران وعن بريدة جميعًا، هذا في الروايات، فالحديث اختلف فيه الرواة، منهم مَن رفع الحديث في رواية مستقلة، ومنهم مَن أوقفه علىٰ بريدة، فالعلماء في هذه الحال علىٰ مذهبين:

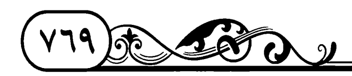
منهم مَن يرىٰ أن الصحيح هو الموقوف، فلا يكون الحكم للرفع، وهذا يحل لنا كثيرًا من الإشكالات؛ لأن الحديث: (لا رقية إلا من عين أو حمة)، حصر الرقية في مرضين فقط: العين واللدغة من العقرب؛ لأن الحمة يراد بها ذوات السموم، مع أن الأحاديث وردَت من أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وتقريراته، أنه رَقَىٰ، واسترقَىٰ، وأقرَّ الرُّقَىٰ في أمراض كثيرة، غير العين وغير الحمة، فإذا كان الأثر موقوفًا، فلا إشكال؛ لأنه قول صحابي، ويكون اجتهادًا منه، وقول الصحابة ليس تشريعًا، وإن كان مرفوعًا، فلابد أن نتكلَّف لتخريج هذا المعنىٰ؛ لأنه يكون معارضًا لأحاديث كثيرة صحيحة، فقال العلماء: المراد به لا رقية كاملة، أو لا رقية نافعة، فلا بد من إضافة كلمة أخرىٰ، حتىٰ تُقيِّد النفي؛ لأن الرقية وردَت من فعله ﷺ، وأقواله، وأمر بها، وأقرَّها، وفعلها الصحابة في كثير من الأمراض بدون قيد.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ١٥٦).

قوله: (**قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات**)، الهيثمي لـه كتـاب اسـمه (مجمع الزوائد)، وهذا الكتاب مشهور، جمع فيه ما زاد عـن الكتـب السـتة، مـن مسـند الإمام أحمد بن حنبل، والدارمي، والموصلي، والبزار، والطبراني، وكل ما زاد عـن الكتب الستة مـن الأحاديث، جاء به في هـذا الكتـاب، وهـو كتـاب كبيـر، ولكـن يعوزه التحقيق، وبيان صحة الأحاديث؛ لأن الهيثمي رحمه الله **لا يُصحِّح** الأحاديث، وإنما يقول: رجاله ثقات، وهذا الحكم ليس كافيًا بتصحيح الحديث.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والعين: هي إصابة العائن غيره بعينه، والحُمة: بضم المهملة وتخفيف الميم سم العقرب وشبهها. قال الخطابي: ومعنىٰ الحديث لا رقية أشفىٰ أو أولىٰ من رقية العين والحمة، وقد رقي النبي ﷺ ورقي.

قلت: وسيأتي ما يتعلق بالرقىٰ إن شاء الله تعالىٰ.

قوله: (قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع) أي: من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن؛ لأنه أدىٰ ما وجب وعمل بما بلغه من العلم، بخلاف من يعمل بجهل أو لا يعمل بما يعلم، فإنه مسيء آثم.



الشَّرْح

قال: (والعين)، أي الإصابة بالعين، والعين حق، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: (العين حق)[1]، وقد وردَت قصص وحوادث في عهده ﷺ، أصيب ناس بالعين، ومنهم قصة سهل بن حنيف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإنه قد عانه عامر بن ربيعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسهل بن حنيف كان في سفر، وكان عادة الصحابة إذا أرادوا الاغتسال أن يأتي أربعة أشخاص بقطع من الأقمشة، فيضعونها حول الشخص، ويرفعونها بأيديهم، فيغتسل ذلك الشخص في داخلها، حتىٰ يُستَر من الكشف، وكان سهل بن حنيف رجلًا شديد البياض، فعندما رآه عامر بن ربيعة، وقع في نفسه حسده، ووقع في نفسه العين، فعانه، فقال: ولا رأيت مثل اليوم ولا جلد مُخْبَأَة، يعني ولا امرأة مستورة لا ترىٰ الشمس، كما وصف الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب العين حق، برقم: (٥٧٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقي، برقم: (٢١٨٧)، (٤/ ١٧١٩).

الحور العين: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات:٤٩]، قال الراوي: فلَبَطَ، فسَقَطَ مكانه، وما انتهىٰ من كلمته حتىٰ سقط، فأخبروا النبي ﷺ، فغضب ﷺ، وقال: (ما لكم يقتل أحد أخاكم، ألا بَرَّكت)[1]، يعني ألا دعوت له بالبركة، فالشخص إذا ذكر الله، لا تصيبه العين، فأمره أن يتوضأ له، ويغسل مداخله، ثم وضعها في إناء، فصبُّوه علىٰ سهل فقام من ساعته، فالعين حق.

والإنسان إذا رأىٰ شيئًا، عليه أن يُبرِّك، ويذكر الله ﷻ، بأن يقول: ما شاء الله، تبارك الله، أو سبحان الله، أو أي كلمة من ذكر الله، فإن هذا يحفظه -بإذن الله-، فالعين فيها خاصية، وهي الوصول إلىٰ الشخص الذي يصيبه الإنسان بعينه، فإذا أصيب الإنسان بالعين، فإنه يجوز أن يُرقَىٰ، وهو أن يتوضأ له الشخص الذي عانه بعينه، ثم يُعطَىٰ هذا الشخص، ليغتسل بمائه، وسيأتي الكلام في ذلك -إن شاء الله-.

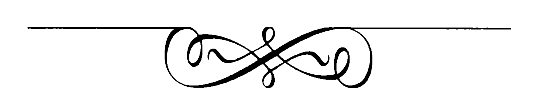
قوله: (قد أحسن مَن انتهىٰ إلىٰ ما سمع)، يعني أن الناس في الأفعال علىٰ ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: يعلم ويعمل، فهذا أحسن، حتىٰ ولو عمل بحديث ضعيف، أو منسوخ، وإنما هذا حدُّ علمه، فقد أحسن مَن انتهىٰ إلىٰ ما سمع.
- القسم الثاني: يعلم ولا يعمل، وهذا -نعوذ بالله- مثل اليهود الذين غضب الله عليهم، فالنوع الأول ممدوح، والنوع الثاني مذموم.
- الثالث: لا يعلم ولا يعمل، وهو شر الطائفتين.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سُننه بلفظ "علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأىٰ أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة"، كتاب الطب، باب العين، برقم: (٣٥٠٩). والإمام أحمد في المسند، بلفظ: "علام يقتل أحدكم أخاه هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت"، برقم: (١٥٩٨٠)، (٢٥/ ٣٨٦).

فالذي يعلم ثم يعمل بما علم، فإنه لا يُلام على ما عمل، ولو كانت حجته ضعيفة، ولكن لا ينبغي للإنسان أن يُفرِّط، ثم يتلمس الرُّخَص، ويعمل بها، بل عليه أن يجتهد في معرفة الحق، حتى إذا سُئِلَ يوم القيامة، يخرج بحجته، وإذا فرَّط في البحث عن الدليل، وتلمَّس الأدلة في الترخيص، يكون آثمًا ببحثه عن الرخص، أو بعدم بحثه عن الدليل.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم وهديهم وتلطفهم في تبليغ العلم، وإرشادهم من أخذ بشيء، وإن كان مشروعًا إلىٰ ما هو أفضل منه، وإن من عمل بما بلغه عن الله وعن رسوله فقد أحسن ولا يتوقف العمل به علىٰ معرفة كلام أهل المذاهب أو غيرهم.

قوله: (ولكن حدثنا ابن عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ابن عم النبي ﷺ، دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فكان كذلك، قال عمر: (لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عشره منا أحد) أي: ما بلغ عشره في العلم، مات بالطائف سنة ثمان وستين.

قال المصنف: (فيه عمق علم السلف)؛ لقوله: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع ولكن كذا وكذا. فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.



الشَّرح

قوله: (وفيه فضيلة علم السلف...)، فالإنسان إذا عرف حديثًا في مسألة من المسائل، ولم يعرف أقوال العلماء في الحديث، وكان العمل وقتيًّا، أي وقته حاضر، فعليه أن يعمل بالحديث، ولا يبحث عن العلماء، هل أخذوا به أو لم يأخذوا به؟ وخاصة إذا صح الحديث، فقد قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا صح الحديث، فهو مذهبي. وآراء العلماء تأتي تبعًا، وبعض الناس لا يعمل بالحديث، إلا إذا عمل به إمامه، وخاصة في المذاهب، فالذي به تعصُّب للمذاهب، إذا لم يجد الحديث في كتب المذهب، لا يعمل به، وهذا خطأ، فإنه إذا صح الحديث، عملنا به، قال به العالم أو لم يقل به؛ لأن الأصل هو حديث رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأما العالم فقد يفوته الحديث، وقد لا يصح عنده الحديث

لأمور كثيرة، كما ذكرها ابن تيمية رحمه الله في كتابه، الذي يبرر فيه أخطاء أصحاب المذاهب، وكان بعنوان (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، يقول: هذا العالم قد يكون له عذر في عدم العمل بالحديث، ولكن المسلم المتأخر لا عذر له؛ لأن في عصر الأئمة الأربعة كانت السُّنَن لم تُجمَع كجمعها اليوم، وفي العصر الحاضر أصبحت السُّنَن مجموعة بجهدهم رحمهم الله، ففي القرن الأول الصحابة توزعوا، فمنهم مَن ذهب إلىٰ الشام، ومنهم مَن ذهب إلىٰ العراق، ومنهم مَن ذهب إلىٰ مصر، ومنهم مَن ذهب إلىٰ اليمن، ومنهم مَن ذهب إلىٰ أفريقا، وتفرَّقوا مع الجيوش الإسلامية في الفتح، وبعض الصحابة كان لديه من الأحاديث ما ليس عند الآخر، ولكن في العصر الحاضر دوَّنت الأحاديث وجُمِعَت، فتهيَّأت، فالمسلم إذا جاءته الأحاديث، وقد فاتت بعض الأئمة القدماء، وصحَّحها المتأخرون، فالواجب العمل بها؛ لأن كل إمام مُتَّبَع، وجد هذا من كلامهم.

قوله: (ولكن حدثنا ابن عباس)، ابن عباس رضي الله عنهما من أفضل الصحابة وأعلمهم، وخاصةً في علم التفسير، وكان في عصر النبي ﷺ صغيرًا، فقد مات الرسول ﷺ وعمره عشر سنوات، أو ثلاثة عشرة سنة تقريبًا، وقد دعا له النبي ﷺ بدعاء اختلفت فيه المصادر، فأما في الصحيحين فليس فيه ذكر (التأويل)[1]، وإنما فيه: (اللهم فقهه في الدين)، وهذا جاء في قصة: أن

(١) روىٰ أحمد والطبراني وابن حبان وابن أبي شيبة وغيرهم بذكر (التأويل)، كما في المتن. انظر: المسند، برقم: (٢٣٩٧)، (٤/ ٢٢٥)، والمعجم الكبير، أحاديث عبد الله بن عباس، برقم: (١٠٦١٤)، (١٠/ ٣٢٠). وصحيح ابن حبان، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب ذكر وصف الفقه والحكمة الذين دعا المصطفىٰ لابن عباس بهما، رقم: (٧٠٥٥)، (١٥/ ٥٣١).

النبي ﷺ دخل الخلاء، فجاء ابن عباس، وأحضر له ماءً، فوضعه بعيدًا عنه، فلما جاء النبي ﷺ، فإذا بالماء موجود، قال: (مَن وضع هذا؟) قالوا: عبد الله بن عباس، فدعا له (اللهم فقهه في الدين)[1]؛ لأن هناك ارتباطًا بين الدعوة وبين فعله رضي الله عنه؛ لأنه بين ثلاثة أعمال:

إما أن يذهب بالماء إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو علىٰ حاجته، وهذا ينافي الأدب.

وإما أن لا يحضر الماء، وهذا تقصير.

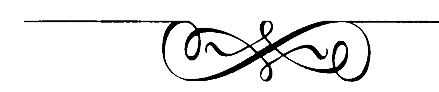
وإما أن يأتي بماء، ويضعه بعيدًا عنه، وهذا هو الفعل الصحيح، فعندما فعل هذا الفعل، دلَّ ذلك علىٰ فقهه رضي الله عنه، فدعا له النبي ﷺ، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُجِلُّه ويحترمه، حتىٰ إنه كان يدخله معه في مجلس الشورىٰ، الذي لا يحضره إلا كبار الصحابة، وهو أصغر الصحابة، فدخل في أنفسهم شيء، قالوا: أليس لنا من الأبناء مثله؟ فعرف عمر رضي الله عنه ذلك، فدعا ابن عباس رضي الله عنهما، فأدخله في يوم من الأيام، ثم سأل الصحابة عن سورة النصر، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر:١]، قال: ماذا تفهمون من هذه السورة؟ قالوا: نفهم أن الرسول ﷺ أمره الله إذا فتح عليه ونصره، أن يسبِّح بحمده، قال: ماذا تفهم منها يا ابن عباس؟ قال: أفهم أن الله نَعَىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ نفسه، وقال: إن هذا علامة قرب أجلك، هذا هو الفقه الدقيق، فقال لهم: لمثل هذا أدخلته بينكم، فرأىٰ من فقهه وعلمه وحُسْن استنباطه، ما جعله يُجِلُّه ويعظِّمه.

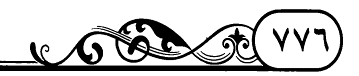
---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، برقم: (١٤٣). وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن عباس، برقم: (٢٤٧٧)، (٤/ ١٩٢٧).

وابن عباس رضي الله عنهما عاش حتىٰ أصيب في آخر حياته بالعَمَىٰ، وتذكُر بعض الروايات، أنه رأىٰ جبريل عليه السلام، وأنه أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه رآه، وقال: رأيت عندك دحية الكلبي، أو مثله، وجبريل في الصورة مثل دحية الكلبي، فقال: هل رأيته؟ قال: نعم، قال: فإنك ستعمَىٰ، أو نحو ذلك، فعاش حتىٰ عَمِيَ رضي الله عنه، وقد كان في مكة، واختلف مع ابن الزبير رضي الله عنهما في مسألة، فأراد ابن الزبير أن يقتله؛ لأنه امتنع عن البيعة، فجاء جيش من العراق فأنقذه من ابن الزبير، فذهب إلىٰ الطائف، وعاش فيها حتىٰ مات، ومن الناس مَن يقول: إن ابن عباس رضي الله عنهما خرج من مكة، بسبب أن الحسنات والسيئات تُضاعَف فيها، وما ثبت هذا، بل خرج لاختلافه مع ابن الزبير؛ لأن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما كان ينادي بالخلافة، وابن عباس رضي الله عنهما لم يبايعه، فأصرَّ علىٰ بيعته، وأصرَّ ابن عباس رضي الله عنهما علىٰ عدم البيعة، فطلع إلىٰ الطائف، وعاش فيها إلىٰ أن مات رضي الله عنه، وله هناك مسجد قريب من قبره، يُسمَّىٰ مسجد ابن عباس.

وقول عمر: (**لو أدرك ابن عباس أسناننا، ما عشره منا أحد**)، يعني لو كان ابن عباس رضي الله عنهما في سنه مثل سن الصحابة، ما بلغ علمه مع ابن عباس، ولا عُشره، وهذه الرواية ذكرها ابن سعد في الطبقات، وكذلك الحاكم، وصحَّحه الأرنؤوط.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (عُرضت عليَّ الأمم) في رواية الترمذي والنسائي من رواية عبثر بن القاسم عن حصين بن عبدالرحمن أن ذلك كان ليلة الإسراء، ولفظه: (لما أُسري بالنبي ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد) قال الحافظ: فإن كان ذلك محفوظًا كانت فيه قوة لمن ذهب إلىٰ تعدد الإسراء وأنه وقع بالمدينة أيضًا غير الذي وقع بمكة كذا قال، وليس بظاهر بل قد يكون رأي ذلك ليلة الإسراء ولم يحدث به إلا في المدينة وليس في الحديث ما يدل علىٰ أنه حدث به قريبًا من العرض عليه.



الشَّرْح

قوله ﷺ: (عُرِضَت عليَّ الأمم)[1]، هذه الرواية للترمذي[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي نموذج من النماذج التي تُسمَّىٰ في علم الحديث بالحديث الشاذ، فإن الحديث قد يصح، ويُسمَّىٰ شاذًّا، وقد يصح، ويُسمَّىٰ مُنكَرًا، فإذا رَوَىٰ ثقة حديثًا، خالَف فيه مَن هو أوثق منه، تُسمَّىٰ روايته شاذة، وإذا رَوَىٰ الراوي الذي ليس بثقة، وخالَف الثقات، تُسمَّىٰ روايته مُنكَرة، ولكن بعض المحدِّثين لا يُفرِّق بينهما.

ويقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ليس الشاذ من الحديث ما ينفرِد به عن غيره، وإنما الشاذ أن يروي الثقة حديثًا يُخالِف الناس، يعني أن رواية الناس -وهم

---

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما، وقد سبق تخريج الجملة الأخيرة منه.
(٢) انظر: سُنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، برقم: (٢٤٤٦)، وصحَّحه الألباني.

المحدِّثون- تكون بمعنىٰ آخر، والثقة تكون روايته بمعنىٰ.

وذهب الحاكم والخليلي رحمهما الله إلىٰ مذهبين، لم يرتضهما أهل العلم، فزعم الحاكم أن الثقة إذا تفرَّد برواية، ولكنه لم يعارض غيره، تُسمَّىٰ شاذةً، وهذا غير صحيح، فإن جميع أحاديث الآحاد تقريبًا أو أكثرها غريبة، ولكنها صحيحة، ومنها أول حديث في صحيح البخاري، فإنه من رواية شخص عن شخص، من رواية ثقة عن ثقة، فلو كانت هذه القاعدة صحيحة، لَرُدَّ كثير من الأحاديث، ولكن هذا المذهب مذهب مردود، وذهب الخليلي: إلىٰ أن الشاذ ما ليس له إلا إسناد واحد، سواءٌ كان ثقة أو ضعيفًا، وهذا أيضًا مذهب غير مُرضِي، فالعلماء قسموا هذا الباب إلىٰ قسمين:

قالوا: إذا خالَف الثقة الثقات سُمِّيَ شاذًّا، وإذا خالَف الضعيفُ الثقة، يعني إذا كانت المخالفة من ضعيف سُمِيَ الحديث مُنكرًا، فمعنىٰ قول المحدثين: هذا حديث مُنكَر، أي أنه رواه ضعيف، وخالَف فيه الثقات، وإذا قيل: هذا حديث شاذ، فمعناه: أنه رواه ثقة، ولكنه خالَف ثقة هو أوثق منه، أو خالف الثقات، وهناك نماذج من هذا المعنىٰ، منها: حديث قضاء رسول الله ﷺ لركعتين بعد العصر، فقد وردَ في الصحيح أنهما ركعتا الظهر البَعْديتان، ووردَ في الصحيح، أنهما ركعتان بعد العصر، وكلاهما في الصحيح، ولكن رواية الثقات أنهما ركعتان بعد الظهر، فتُسمَّىٰ الرواية التي قالت إنهما ركعتان قبل العصر شاذة، وإن كانت في الصحيح، وهي بذلك تكون مردودة.

والنموذج الثاني: حديث الاضطجاع بعد الفجر، قال الإمام أحمد: حدثنا بشر بن معاذ العقدي، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا صلَّىٰ أحدكم

الركعتين قبل صلاة الصبح، فليضطجع علىٰ جنبه الأيمن)[١]، رواه أبو داود والترمذي أيضًا بهذا اللفظ، وهذا الحديث قد حكم العلماء بأنه شاذ، ولكن وردَ عن الإمام أحمد قوله: وليس هذا أمرًا من النبي ﷺ، وإنما هو من فعله ﷺ، وهذا في مسائل الإمام أحمد التي رواها ابن هانئ، وقال ابن عبد الهادي في المحرر: وقد تكلم أحمد والبيهقي وغيرهما في هذا الحديث، وصحَّحوا فعله الاضطجاع، لا الأمر به، وقد أوْرده البيهقي من رواية غير الأعمش من فعل النبي ﷺ، ثم قال: وهذا أَوْلَىٰ أن يكون محفوظًا؛ لموافقته فعل الروايات عن عائشة وابن عباس، ولفظ حديث عائشة: (كان رسول الله ﷺ يصلي ركعتي الفجر، فإن كنت مستيقظة، حدَّثني، وإلا اضطجع حتىٰ يؤذن للصلاة)، وهذا الحديث متفق عليه[٢]، فهذه الرواية من فعله ﷺ، وفي الحديث أنها إذا كانت مستيقظة، حدَّثها ولم يضطجع، ولكنه يضطجع إذا رآها نائمة، حتىٰ يؤذن للصلاة، أو حتىٰ تُقام الصلاة.

قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد: وسمعت ابن تيمية يقول: هذا باطل -أي حديث الأمر بالاضطجاع- وليس بصحيح، وإنما الصحيح عنه الفعل، لا الأمر به، والأمر تفرَّد به عبد الواحد بن زياد، وغلط فيه، وهو ثقة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٩٣٦٨)، (١٥/ ٢١٧)، وأبو داود والترمذي بلفظ: "علىٰ يمينه"، انظر: سُنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الاضطجاع بعد ركعتي الفجر، برقم: (١٢٦١)، سُنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الاضطجاع بعد ركعتي الفجر، برقم: (٤٢٠)، وأخرجه أيضًا ابن حبان في صحيحه، برقم: (٢٤٦٨)، والبيهقي في السُّنن الكبرىٰ، برقم: (٤٨٨٤)، (٣/ ٦٣)، وصحَّحه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي ص١١٤.

(٢) هذا لفظ البخاري، انظر أبواب التهجد، باب مَن تحدث بعد الركعتين، برقم: (١١٦١)، و أخرج مسلم إلىٰ قوله "وإلا اضطجع"، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل وعدد ركعاته. برقم: (٧٤٣)، (١/ ٥١١).

وقال طاهر الجزائري -وقد توفىٰ في القرن الماضي-، في كتاب جمع فيه زبدة مصطلح الحديث، (توجيه النظر إلىٰ أصول الأثر)، وهذا أحسن ما كُتِبَ في مصطلح الحديث، فقد جمع جميع مسائل المصطلح في هذين المجلدين تلخيصًا وتحريرًا.

قال رحمه الله: (مثال الشذوذ)، أي في الحديث، (في المتن ما رواه أبو داود والترمذي من حديث عبد الواحد بن زياد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: إذا صلَّىٰ أحدكم ركعتي الفجر، فليضطجع عن يمينه، قال البيهقي: خالف عبد الواحد العدد الكثير في هذا، فإن الناس إنما رووه من فعل النبي صلى الله عليه وسلم، لا من قوله، وانفرد عبد الواحد من بين ثقات عن الأعمش بهذا اللفظ)، فهذا الحديث يُسمَّىٰ شاذًّا، وإن صح سنده.

والنموذج الثالث: حديث يوم عرفة، قال فيه الراوي: يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق عندنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب، وكذلك رواه الأربعة، إلا ابن ماجه، قال: والمحفوظ من غير زيادة، يوم عرفة ويوم النحر، رواه مسلم عن نبيشة الهذلي، قال: (أيام التشريق أيام أكل وشرب)[١]، وعن كعب بن مالك: (أيام منىٰ أيام أكل وشرب)[٢]، ورواه النسائي في الكبرىٰ)،

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق، برقم: (١١٤١)، (٢/ ٨٠٠).

(٢) أخرجه عن أبي هريرة ابن ماجه في سُننه، كتاب الصيام، باب ما جاء في النهي عن صيام أيام التشريق، برقم: (١٧١٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصيام، فصل في يوم أيام التشريق، برقم: (٣٦٠١)، (٨/ ٣٦٦)، وقال الهيثمي: "إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين"، وقال الألباني: حسن صحيح.

قال طاهر الجزائري: ومن أمثلة الشاذ من الحديث حديث يوم عرفة، وأيام التشريق أيام أكل وشرب، فإن المحفوظ في ذلك إنما هو أيام التشريق أيام أكل وشرب، وقد جاء الحديث من جميع الطرق علىٰ هذا الوجه، وأما زيادة يوم عرفة ويوم النحر، فإنما جاء بها موسىٰ بن علي بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر.

فيحتاج طالب العلم إلىٰ الترجيح، ولكن إذا ضعف الإنسان عن الترجيح، ذهب إلىٰ مثل ما أشار إليه ابن حجر رحمه الله، فهو يقول: إن صح هذا، فإنه يدل علىٰ تعدُّد الإسراء، مع أن الإسراء في جميع الراويات كان واحدًا، فلابد من تحقيق المسألة، والنظر فيها.

قال الشارح: (ولا عذاب)، هكذا لفظ الحديث، والتوحيد أعلىٰ درجات الإيمان، والموحِّدون أعلىٰ درجات المؤمنين، وهم الصفوة المختارة، والفئة الممتازة، التي أدركت الحقيقة علىٰ حقيقتها، فعرفت أن الكون كله بيد الله، وأنه لا يحدث في الكون أمر إلا بقدر الله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلن تتعلق قلوبهم إلا بالله عز وجل في سرَّائهم، وفي ضرَّائهم، وفي صحتهم، وفي مرضهم، وفي فقرهم، وفي غناهم، ولا يستحضرون في قلوبهم إلا الله عز وجل، وعظمته، ومُلكه، وقدرته، فلا يتوكلون إلا علىٰ الله عز وجل، ولا يَتَطَيَّرون أي: لا يعتقدون في الطير أنها تعرف الحقيقة، فتتجه يمينًا أو شمالًا، كما يعتقده الجاهلون، ولا يكتوون، ولا يسترقون أي: إذا أصابهم بلاء، صبروا، ولا يعني ذلك أنهم لا يبحثون عن الأسباب -كما سيأتي-، بل يباشرون الأسباب، ولكنهم يعتقدون أن النتائج بيد الله سبحانه وتعالى، فلا تتعلق قلوبهم إلا بالله، وإن باشروا الأسباب، ولكنهم يعتقدون أن الله هو المُسبِّب.

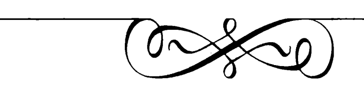
قوله: (وليس في الحديث ما يدل علىٰ أنه حدث به قريبًا من العرض عليه)، هذه الإشارة من الشارح رَحِمَهُ اللهُ فيها موضوع يتعلق بالترجيح بين الأحاديث إذا تعارضت، وهذا فن من أدق الفنون ومن أصعبها؛ لأنه أحيانًا يصح الحديثان، وكل منهما يعارض الآخر، أو يأتي في الحديث لفظ تفرَّد به ثقة، وهذه الرواية إحدىٰ روايات حديث عرض الأمم، فقد رَوَىٰ الحديث عن حصين بن عبد الرحمن ستة أشخاص:

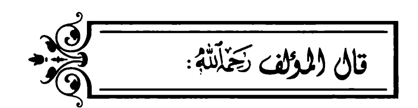
- الأول: محمد بن فضيل.
- والثاني: هشيم.
- والثالث: ابن عيينة.
- والرابع: عبثر بن القاسم.
- والخامس: شعبة بن الحجاج.
- والسادس: مالك بن مغول.

هؤلاء ستة أشخاص كلهم ثقات، وكلهم من رواة الصحيحين، بل من رواة الجماعة، فخمسة أشخاص لم يذكروا الإسراء، وشخص واحد ذكر أن الحديث كان ليلة الإسراء، ولهذا أعرض البخاري ومسلم عن هذه الرواية، فلم يدخلوها في الصحيح، مع أنها صحيحة، وهذا كما سبق يُسمَّىٰ بالحديث الشاذ، أي: رَوَىٰ الثقة لفظًا يخالِف فيه الثقات، أو يخالِف مَن هو أوثق منه، وكذا حديث الإسراء هو في صحيح البخاري، هذا الحديث رواه أنس بن مالك، ورواه عنه أربعة أشخاص من العلماء الثقات، جميعها في الصحيحين أو في أحدهما، هم: ابن شهاب، وثابت البناني، وقتادة، وشريك، وقد خالَف شريك بن عبد الله الثلاثة الآخرين في الحديث، في اثني عشر موضعًا، وهذه

الرواية في صحيح البخاري، أشاروا إلىٰ هـذه المواضـع أوْردهـا ابـن حجـر ﵀ في فتح الباري، منها: أن المعراج كان قبل البعثة، ومنها أن المعـراج كـان منامًـا، ومنهـا أن الكـوثر في السـماء الـدنيا، وكـذلك بقيـة الألفـاظ التـي خـالَف فيهـا الثقات، ولذلك فإن العلماء خَطَّؤوا شريكًا في هـذه الزيـادات المخالِفـة لروايـة الثقات، قال عبـد الحـق الأشـبيلي في الجمـع بـين الصـحيحين: زاد فيـه -يعنـي شـريكًا- زيـادة مجهولـة، وأتَـىٰ فيـه بألفـاظ غيـر معروفـة، وقـد رَوَىٰ الإسـراء جماعة مـن الحُفَّـاظ، فلـم يـأتِ أحـد مـنهم بمـا جـاء بـه شـريك، وهـذه شـواهد لحديثنا، ولهذا قد يقرأ طالب العلم في الكتـب الصـحيحة، كالصـحيحين مثلًا، روايات يعارض بعضها بعضًا، عندئذٍ لابد من التنبُّه إلىٰ أن بعضها يكون شـاذًّا، ولهذا أعرض صاحبا الصحيحين عن هذه الرواية، ولم يُدخلاها في الصـحيح؛ لأنهـا روايـة شـاذة، ويقـول العلمـاء: قـلَّ أن تجـد حـديثًا أعـرض عنـه صـاحبا الصحيحين، إلا وفيه عِلَّة، وهذا يدل علىٰ عمق علمهما ﵏.

فقول الشارح ﵀ : أن هذا كان ليلة الإسراء، من روايـة عبثـر عـن حصـين بن عبدالرحمن، فتكون رواية شاذة، وإن صحَّت.




قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فرأيت النبي ومعه الرهط) الرهط: هو الجماعة دون العشرة، قاله النووي.

قوله: (والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد)، فيه أن الأنبياء متفاوتون في عدد أتباعهم وأن بعضهم لا يتبعه أحد، وفيه الرد علىٰ من احتج بالأكثر، وزعم أن الحق محصور فيهم، وليس كذلك بل الواجب إتباع الكتاب والسنة مع من كان وأين كان.


الشَّرْح

قوله: (وفيه الردُّ علىٰ مَن احتجَّ بالأكثر، وزعم أن الحق محصور فيهم...)، وإنما أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أكثر البشرية لم يؤمنوا، وهم علىٰ ضلال، فلا شك أن ما قاله صحيح، ولكن الأكثر إن كانوا من أهل الإيمان، فلا شك أنهم يكونون مَظنَّة الحق، وقد تقدَّم كلامنا في الحديث الشاذ، فإذا روَىٰ الثقات، وهم عدد كثير، فخالَف الواحد الثقات، يكون الحق مع الأكثر، فإذا كان هذا في المجتمع المسلم، وكان الأكثر من الصالحين الأتقياء، فلا شك أن الحق يكون معهم، لا باليقين، ولكن بالظن الغالب، وليس شرطًا أن يكون معهم، ولكن الظن الغالب يُعمَل به، وأكثر الأحكام الشرعية بالظن، منها مثلًا: وردَ الحديث بأنه إذا شهد شاهدان علىٰ شخص قد قتل إنسانًا، أو أخذ ماله، فإنه يُقتَل، ولكن هذان الشاهدان قد يتواطآن، وقد يكذبان، ولكن شهادتهما أفادَت ظنًّا غالبًا؛ لأن الحقوق لم تُعرَف إلا بهذا الطريق، ولو لم يكن هناك العمل بالظن الراجح؛ لتعطَّلت معظم الأحكام.

والمعرفة علىٰ درجات منها: الوَهْم، وهـو مـا كـان دون خمسين في المائـة (٥٠٪)، يعني دون النصف، فهـذا وَهْـم عنـد الإنسـان، قـد يطـابق الحـق مطابقـة قليلة، ولكن أكثره يكون باطلًا، ومنها: الشـك، وهـو أن يسـتوي طرفـا القضـية، فقد جاء في الحديث: (إذا شك أحدكم في صلاته)[١]، أما إذا ظـنَّ فـلا، فـإذا كـان ظنه أنه صلَّىٰ أربع ركعات، فهذا ليس هو الـذي يُعيـدها، ولكـن إن شـكَّ، يعنـي استوىٰ عنده الطرفان، فالظن أعلىٰ، ثم فوق الظن تأتي درجـة العلـم، الـذي هـو علىٰ درجـات: إمـا أن يكـون علـم اليقـين، وإمـا أن يكـون حـق اليقـين، وهـو أن يكون مائة في المائة (١٠٠٪)، فلو رأيـت شـيئًا بعينـك، فإنـه قـد تخـدعك العـين، ولكن لو كان ذلك حق اليقين، فهذا حق، ولا خداع فيه، فالإنسان قد يرىٰ مـثلًا العود المستقيم في الإناء الزجاجي مكسورًا، فالعين رأت حقيقة أمامهـا، ولكـن حقيقة الأمر أنه ليس مكسـورًا، قـد تـرىٰ العـين مـاءً في الطريـق، وهـو السـراب، فعين اليقين قـد يخـدع، ولكـن حـق اليقـين يكـون أعلـىٰ، فهـو الحقيقـة، وكلهـا علم، فعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، كلها درجات للعلم.

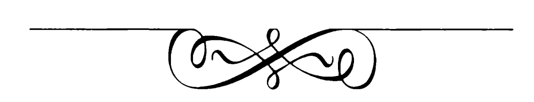
فقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعني أن بعض الناس إذا رأىٰ جماعـةً كثيـرة مُنحرِفـة أو علىٰ بدعة، يقول: لا يمكن أن يجتمعـوا علـىٰ أمـر حـرام، أو أمـر بـدعي، وهـذا خطأ، فإن كانوا صالحين وأتقياء وأهـل علـم، فـلا شـك أن مَظنَّـة الحـق معهـم، وأما إن كانوا جهلة وفُسَّـاقًا ويستبيحون المحـارم، فـلا شـك أن الكثـرة لا تـدل علىٰ الحق.

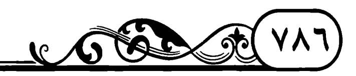
وقوله السابق فيما رآه الرسول -سواء كانت مَنامًا، أو كانت إسـراءً-: رأىٰ بعـض الأنبيـاء لـيس معـه أحـد، وقـد بـذل جهـدًا كبيـرًا، ولكـن لـم يتبعـه أحـد،

---

(١) أخرجه مسلم وغيره، انظر: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، بـاب السـهو في الصلاة والسجود له، برقم: (٥٧١)، (١/ ٤٠٠).

وبعضهم معه الرجلان، وبعضهم معه رجل واحد، وبعضهم معه الرَّهْط، يعني دون عشرة، هذا يدلنا على أن أهل الحق في كل زمان أقلِّيَة، وكذلك الأمة الإسلامية اليوم تعدادها يزيد، ويُقدَّر بمئات الملايين، ولكن الذين يعملون بالدين قليلون جدًّا، ولا شك أن هؤلاء العاملين هم على الحق، فلو كان بينهم الأكثرية على رأي، والأقلية على رأي، وليس هناك ما يدل على أن كليهما على الصواب في الكتاب والسُّنَّة؛ لأخذنا برأي الأكثرية من الصالحين، أو من أهل العلم؛ لأنه لا شك أن كثرتهم تدل على الحق -إن شاء الله-.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (إذا رفع لي سواد عظيم) السواد ضد البياض، والمراد هنا الشخص الذي يرىٰ من بعيد، أي: رفع لي أشخاص كثيرة.

قوله: (فظننت أنهم أمتي) استشكل الإسماعيلي كونه ﷺ لم يعرف أمته حتىٰ ظن أنهم أمة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد ثبت حديث أبي هريرة (كيف تعرف من لم تر من أمتك؟ فقال: إنهم غر محجلون من أثر الوضوء) وأجاب بأن الأشخاص التي رآها في الأفق لا يدرك منها إلا الكثرة من غير تمييز لأعيانهم.

وأما ما في حديث أبي هريرة فمحمول علىٰ ما إذا قربوا منه. ذكره الحافظ.



الشَّرح

قوله: (إذا رُفِعَ لي سواد عظيم)، السواد أحيانًا لا يكون حقيقة كما هنا، فليس هم سُودًا، ولكن بُعد المنظر وكثرة الناس، تجعل الرؤية البعيدة سوادًا، فلا يعني هذا أنهم يأتون سُودًا يوم القيامة، فإنك ترىٰ الشيء البعيد، فلا تكاد تتبيَّن ملامحه أو صورته، فإذا كان هناك ظل لهم، فإنه يغلُب عليه أن تراه أسود من شدة البُعد، فالسواد المراد هنا كثرة الناس، وانتشار الظل، حتىٰ غطَّىٰ بعضهم علىٰ بعض.

قوله: (وقد ثبت حديث أبي هريرة...)، هذا وردَ في حديث كيف تعرف أُمَّتك؟ وهو في الصحيح، (أنه جاء إلىٰ المقبرة، وقال: "السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون"، أخرجاه، ثم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: وَدِدنا أنَّا قد رأينا إخواننا، فقال الصحابة: ألسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، ولكن إخواننا الذين لم يأتوا بعد، قالوا: كيف تعرف مَن لم يأتِ من أمتك يا رسول

الله؟ قال: أرأيت لو أن رجلًا له خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَة بين خَيْلٍ دُهْم بُهْم)، دُهْم: يعني سُودًا، وبُهْم: أي ليس فيها علامة، والغُر المـُحَجَّلة أي: في أيديها وفي رؤوسها وفي وجوهها غُرَّة بياض، (أكان يعرف خيله؟ قالوا: نعم، ثم قال ﷺ: فكذلك، ثم قال: وأنا فَرَطُهم علىٰ الحوض، ألا وإنه لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي، أقول: هَلُمَّ، فيُقال: إنهم قد غَيَّروا بعدك، فأقول: سُحقًا سُحْقًا)[1]، وهذا في مسلم، فهو قد رأىٰ بعض أُمَّته، وعرفهم أنهم مُحجَّلون، فدعاهم، هَلُمُّوا، وهم مُحجَّلُون، يُصلُّون، ويتوضَّؤون، ولكنهم بدَّلُوا، وابتدعوا، فيُقال: إنهم قد غَيَّروا وبَدَّلوا، فيقول: سُحقًا سُحقًا، أي دعاء عليهم بالبُعد والهلاك، مع أنه رآهم وعليهم علامات الوضوء، وعلامات الصلاة، ومع ذلك فإنهم ارتكبوا من البدع والضلالات، ما جعلهم لا يستحقون أن يَرِدُوا علىٰ حوض رسول الله ﷺ يوم القيامة، فهذا الحديث يكون فيه حلٌّ للإشكال الذي ذكره الإسماعيلي، حيث قال: كيف لم يعرفهم وهم غُرٌّ مُحَجَّلُون؟ وهذا واضح لبُعدهم، فإن بُعدهم وكثرتهم لا تتبيَّن معها ملامحهم، ولكن عندما يقتربون، فإنه يرىٰ أُمَّته، وهم عليهم آثار الوضوء، وهذا الحديث أوْرده ليدلنا علىٰ أثر الوضوء، ولهذا كان أبو هريرة رضي الله عنه يطيل وضوءه إلىٰ مَنْكِبه، وإلىٰ ركبته، وقال: مَن أراد أن يطيل غُرَّته، فليفعل، وهذا يُسمَّىٰ المـُدْرَج، فليس في الرواية هذا اللفظ من كلام الرسول ﷺ، وإنما هو من لفظ أبي هريرة رضي الله عنه.

قول الحافظ: (وأما ما في حديث أبي هريرة، فمحمول علىٰ ما إذا قربوا منه)، وهذا هو الصحيح.

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغُرَّة والتحجيل في الوضوء، برقم: (٢٤٩)، (١/ ٢١٨)، وأخرجه البخاري القطعة الأخيرة منه، كتاب الرقاق، باب في الحوض، برقم: (٦٥٨٤).



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (فقيل لي: هذا موسىٰ وقومه) أي: موسىٰ بن عمران كليم الرحمن وقومه الذين اتبعوه، وفيه فضيلة موسىٰ وقومه.

قوله: (فنظرت فإذا سواد عظيم) لفظ مسلم بعد قوله: (هذا موسىٰ وقومه، ولكن انظر إلىٰ الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلىٰ الأفق الآخر فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك).



الشَّرح

قوله: (فقيل لي: هذا موسىٰ وقومه)، هذا يدلنا علىٰ فضل موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ بقية الأنبياء، ولكن بعد بعثة رسولنا ﷺ، انتهت أمم جميع الأنبياء، وأصبحوا أمة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إما أمة إجابة: وهم الذين اتَّبعوه وقبلوا هذا الدين، وإما أمة دعوة: أي أنهم لا يجوز لهم أن يتديَّنوا بغير هذا الدين، فأتباع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في العصر الحاضر لا يُسمُّون أتباعه، فقد انتهت التبعية بعد بعثة نبينا ﷺ لأمة موسىٰ وأمة عيسىٰ -عليهما السلام-، وكذلك أمة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ انتهت بعد بعثة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يبقَ بعد بعثة نبينا ﷺ إلا أن يكونوا من أمة محمد ﷺ، وأما بقية الأنبياء، فلم يعد هناك حق في اتِّباعهم.

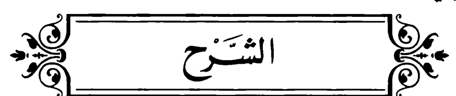
قوله ﷺ: (فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك)، هذا من علامات نبوة نبينا ﷺ، قاله قبل أن يعرف، وقد كانوا في عصره لا يتعدُّون الآلاف، ولكن هذا يدلنا علىٰ أنه أخبر بوحي من الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فدلَّ هذا علىٰ أنه نبي صادق، فقد أخبر بأمر لم يقع، فمن ذلك العصر إلىٰ اليوم اتبعه من الناس من لا يُعدُّون ولا يحصون، فأكثر الأمم يوم القيامة هي أمة محمد ﷺ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب) أي: لتحقيقهم التوحيد، قال الحافظ: المراد بالمعية المعنوية فإن السبعين ألفًا المذكورين من جملة أمته لكن لم يكونوا في الذين عرضوا إذ ذاك فأريد الزيادة في تكثير أمته بإضافة السبعين ألفًا إليهم. قلت: وما قاله ليس بظاهر، فإن في رواية ابن فضيل: (ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفًا).

وقد ورد في حديث أبي هريرة في الصحيحين وصف السبعين ألفًا بأنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر.

وفيهما عنه مرفوعًا: (أول زمرة تدخل الجنة علىٰ صورة القمر والذين علىٰ آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة) وجاء في أحاديث أخر (أن مع السبعين ألفًا زيادة عليهم) فروىٰ أحمد والبيهقي في البعث حديث أبي هريرة في السبعين ألفًا، فذكره وزاد قال: (فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفًا) قال الحافظ: وسنده جيد.



الشَّرْح

قوله: (ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة، بلا حساب ولا عذاب)، هذا هو موطن الشاهد، وهو أن من أمة محمد ﷺ مَن يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهذه هي أعلىٰ درجات الإيمان الذي يأتي يوم القيامة، ولا يُعرَض عليه حساب ولا عذاب، ولكن قد تُعرَض الأعمال، ولا يُحاسَب علىٰ عمله، وقد جاء في الحديث: (مَن نُوقِش الحساب، عُذِّبَ)[1]، وذكر أنه ما من إنسان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب مَن نُوقِش الحساب عُذِّب، برقم: (٦٥٣٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب، برقم: (٢٨٧٦)، (٤/ ٢٢٠٤).

يوم القيامة إلا ولا بد من حسابه، ولكن للمؤمن يكون عَرْضًا، وللكافر يكون حسابًا، وقد اختلف العلماء فمنهم من يقول: هم أسبق الناس، ومنهم من يقول: لا، بل يدخلها غيرهم ممن هو خَفَّ حسابه، ممن هو أعلىٰ منهم وأكثر صلاحًا، ولكن هذا ليس ظاهرًا، فإن الموحِّدين الذين حققوا التوحيد، هم أعلىٰ درجات الأمة، وهم الذين يتوقع أن يكونوا أولها دخولًا إلىٰ الجنة، ولهذا فإن الأغنياء يوم القيامة يتأخرون في دخول الجنة عن الفقراء، وإن كان بعضهم قد يكون أعلىٰ درجة في الجنة، ولكن لِمَا أعطاه الله من المال والجاه، فإنه يحاسبه علىٰ ما أعطاه الله ﷻ، ماذا فعل فيه؟ وإن كان صالحًا وتقيًّا، فلابد أن يحاسب علىٰ ما أُعطِيَ، هل أدَّىٰ حقه أو لا؟ ولا يعني هذا أنه أنقص درجة، فقد يكون أعلىٰ ممن سبقه من الفقراء، ولكن الفقراء ليس لهم من الأموال ما يحاسبون عليه، فدخولهم الجنة إنما هو لقلة ما يحاسبون عليه، وأما الأغنياء فإنهم يحاسبون يوم القيامة علىٰ أموالهم.

قوله: (وقد وردَ في حديث أبي هريرة في الصحيحين وصف السبعين ألفًا...)، هذا وردَ في الحديث في مسلم، أنه قال عليه الصلاة والسلام: **(يدخل الجنة من أمتي زُمْرَة، هم سبعون ألفًا، تُضِيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر، قال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نَمِرَة عليه، فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اجعله منهم، ثم قام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: سَبَقَك بها عكاشة)**[1]، هذا حديث صحيح، وليس فيه ذِكْر عَرْض الأمم وغير ذلك، مما جاء في حديث الباب، وإنما وردَ أن بعض أمته يدخل الجنة علىٰ هذه الصورة.

---

(١) سبق تخريجه.

قوله ﷺ: (أول زُمْرَة تدخل الجنة...)، هذا جزء من الحديث السابق، الذي وصف وجوه المؤمنين الذين يدخلون الجنة، أنهم علىٰ درجات: أعلاها مَن يدخل الجنة ووجهه كالقمر، ثم كالكوكب الدُّرِّي، الدُّرِّي نسبة إلىٰ الدُّر، وهي أحجار لها لمعان، ثم كذلك علىٰ درجات.

وأما هذه الروايات التي سيأتي بها الشارح، فقد ذَكر فيها زيادة علىٰ السبعين ألفًا، قد وردَت في ذلك روايات كثيرة، منها أن الله زاده مع كل ألف سبعين ألفًا[١]، ومنها أنه زاده مع كل ألف سبعين ألفًا، وثلاث حَثَيَات من حَثَيَات ربي[٢]، ومنها أنه زاد مع كل شخص سبعين ألفًا[٣]، ولكن ليس في الصحيحين منها شيء، وإنما هي في المسانيد أو في السُّنَن، فهي وإن كانت أسانيد بعضها جيدة، ولكنها ليست علىٰ الدرجة التي اشترط البخاري ومسلم، أن يُورِداها في كتابيهما.

والحديث الأول ذَكَرَ ابن حجر رحمه الله : أن سنده جيد، كما في الفتح، وليس هذا حُكْمًا بالصحة عند العلماء، فإذا قالوا: إسناده جيد أو إسناده صحيح،

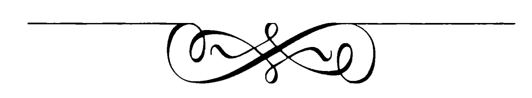
---

(١) أخرج هذه الزيادة بدون "ثلاث حَثَيَات من حَثَيَات ربي" الإمام أحمد في المسند، برقم: (٨٧٠٧)، (١٤/ ٣٢٧)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٤١٣)، (٢/ ٩٢)، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٧/ ٥٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سُننه، كتاب صفة القيامة، والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في الشفاعة، برقم: (٢٤٣٧)، وقال: "هذا حديث حَسَن غريب"، وابن ماجه في سُننه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ ، برقم: (٤٢٨٦)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٢٣٠٣)، (٣٦/ ٦٣٩)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٧٦٦٥)، (٨/ ١٨١)، وابن حبان في صحيحه، برقم: (٧٢٤٧)، (١٦/ ٢٣١)، وصحَّحه الألباني في تعليقه علىٰ ابن ماجه ص٧١٠.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم: (٢٦٨)، (١/ ٢٥١)، وأبو يعلىٰ في المسند، برقم: (٣٧٨٣)، (٦/ ٤١٧)، والبزار في مسنده، برقم: (٢٣٣٦)، (٢/ ٣٠٠)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، برقم: (٢٠٢٨)، (٢/ ٤١٦)، وقال: حديث حسن.

أو رجاله ثقات، فهذا ليس حُكْمًا بصحة الحديث، وصحة الحديث أن يقول: حديث صحيح، فقولهم: رجاله ثقات، إسناده جيد، إسناده حَسَن، كل هذه الاصطلاحات هروب من العلماء أن يحكموا على الحديث بالصحة، أما إذا قال: حديث صحيح، فقد يصح، وإن كان من غير هذا الطريق، فقَدْ حكم بأن هذا المتن صح، سواءٌ كان من هذا الطريق، أو من طريق آخر.



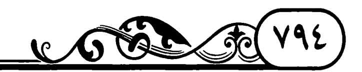
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني، وعن حذيفة عند أحمد، وعن أنس عند البزار، وعن ثوبان عند أبي عاصم، قال: فهذه طرق يقوي بعضها بعضًا.

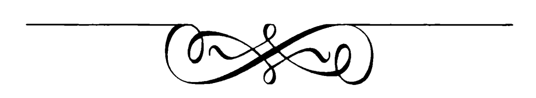
قال: وجاء في أحاديث أخر أكثر من ذلك، فأخرج الترمذي وحسنه والطبراني وابن حبان في صحيحه من حديث أبي أمامة رفعه: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا مع كل ألف سبعين كذا ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب وثلاث حثيات من حثيات ربي» وروى أحمد وأبو يعلى من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عَزَّ وَجَلَّ فزادني مع كل واحد سبعين ألفًا» قال الحافظ: وفي سنده راويان أحدهما ضعيف الحفظ والآخر لم يسم. قلت: وفيه أن كل أمة تُحشر مع نبيها.

الشرح

قوله: (وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني...)، هنا ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ أَوْرد في شرح هذا الحديث أحاديث كثيرة في هذا المعنى، وذكر أنها يقوِّي بعضها بعضًا، أي أن هناك زيادة على السبعين ألفًا، منها ما يكون -كما قلنا- مع كل ألف سبعون ألفًا، ومنها مع كل واحد من الذين يدخلون الجنة سبعون ألفًا، والله أعلم بصحة هذه الروايات.



قوله ﷺ: **(مع كل واحد سبعين ألفًا)**[(١)]، هذا الحديث الذي فيه: **(أن مع كل شخص سبعين ألفًا)**، قال: فيه راويان أحدهما: أحدهما ضعيف، والآخر ولم يُسَمَّ مَن هو، فبعض الرواة يقول: حدثني رجل، أو قال رجل من بني كذا، وهذا مجهول، فإسناد الحديث ضعيف، ولكن فضل الله عظيم جدًّا، نسأل الله أن يحقق ما في هذه الأحاديث من كثرة الداخلين الجنة بغير حساب ولا عذاب، وأن نكون منهم بمِنه وكرمه.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ثم نهض) أي: قام. قوله: (فخاض الناس في أولئك) قال النووي: هو بالخاء والضاد المعجمتين أي تكلموا وتناظروا. قال: وفي هذا إباحة المناظرة في العلم والمباحثة في نصوص الشرع على جهة الاستفادة وإظهار الحق، وفيه عمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعلم، وفيه حرصهم على الخير، ذكره المصنف.

الشَّرح

قوله: (ثم نهض، أي: قام...)، هذا استنباط من المـُصنِّف والشارح، أن الصحابة بعد أن أخبرهم النبي ﷺ بهذا الحديث، ونهض ودخل منزله، ولم يخبرهم مَن هم الذين يستحقون هذا الفضل، فقال بعض: لعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، و قال آخرون: لعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام؛ لأن الذين صحبوا كانوا قبل ذلك بعضهم مُشركين، وخاضوا: يعني تحدثوا في الموضوع، فقال الشارح: هذا يدل على جواز المباحثة في العلم، وليس فيه الحرج، فالبحث عن الحقيقة وعن المراد بالأحاديث ليس فيه حرج، بل هذا الذي ينبغي أن يكون من طالب العلم أن يبحث عن معنى النص، ولكن لا ينبغي له أن يَرُدَّ النص إذا خالف عقله، أو خالف منهجه، أو خالف قاعدة من قواعد العلماء، ولكن البحث عن معنى الدليل مطلوب، فإننا مخاطبون بهذه الألفاظ، والألفاظ لها معان، والمعنى قد يظهر لأول وهلة، وقد لا يظهر إلا بعد البحث والنظر، فالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تأملوا هذا الحديث، ونظروا فيه، وبحثوا عن الذين أرادهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فقال: هم الذين لا يسترقون) هكذا ثبت في الصحيحين، وفي رواية مسلم التي ساقها المصنف هنا زيادة (ولا يرقون) وكأن المصنف اختصرها كغيرها لما قيل: إنها معلولة.

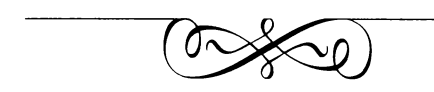
الشَّرح

قوله ﷺ: (لا يسترقون)، هذه الرواية التي في المتن من الطبعات المحقَّقَة، ألحقها المحقق في الحديث، وأشار بما بين قوسين (إلىٰ أنها ليست من النص الذي وردَ في الكتاب)، ولكنها في صحيح مسلم، وهذه اللفظة: (ولا يَسْتَرْقُون) قد تُقرَأ: (ولا يَستَرِقُون)، يعني لا يكونون ممن يسترق أموال الناس، ولكن لم يقل بها أحد من العلماء، ولم تُضبَط بهذا النطق، والحديث في الصحيحين، ووردَ من عدة طرق، وأما البخاري فلم يذكر هذه اللفظة (ولا يرقون)، وإنما ذكر فقط: (لا يسترقون)، وأما مسلم فقد أوْردها في صحيحه، هذا نوع من الشاذ؛ لأن كلا السندين صحيح، سند البخاري وسند مسلم، وسيأتي ترجيح ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الراوي قد غلط؛ لأن الذي يرقىٰ شخصًا قد أباح الشارع له، وقد جاءت الأحاديث بجواز الرقية والحث عليها، ومنها: **(مَن استطاع أن ينفع أخاه، فلينفعه)**[1]، فكيف يقول: لا يرقون، ولذلك هذه اللفظة ليست في صحيح البخاري؛ لأن هنا فعلين: طلب الرقية من الغير، ورُقية الغير، فالذي في البخاري: (ولا يسترقون)، وفي مسلم كلاهما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة، برقم: (٢١٩٩)، (٤/ ١٧٢٦).

(ولا يسترقون) و(ولا يرقون)، فتكون الرواية شاذة، وإن صحَّت في السند؛ لأن الرقية قد وردَ بها الحث عليها، وورد فعلها من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذا من أمهات المؤمنين والصحابة والتابعين والصالحين وعلماء الأمة، فالرقية ليست محظورة، وليست داخلة في هذا الحديث.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

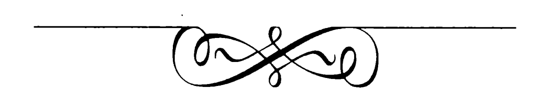
قال شيخ الإسلام: هذه الزيادة وهم من الراوي لم يقل النبي ﷺ: (لا يرقون)؛ لأن الراقي محسن إلىٰ أخيه، وقد قال ﷺ وقد سُئل عن الرقىٰ، قال: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»، وقال: «لا بأس بالرقىٰ ما لم تكن شركًا»، قال: وأيضًا فقد رقىٰ جبريل النبي ﷺ، ورقىٰ النبي ﷺ أصحابه، قال: والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلىٰ غير الله بقلبه، والراقي محسن. قال: وإنما المراد وصف السبعين ألفًا بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون. وكذا قال ابن القيم.

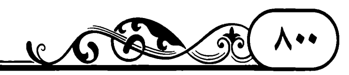
الشَّرح

قوله: (قال شيخ الإسلام... وكذا قال ابن القيم)، قال شيخ الإسلام وابن القيم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: إن هذه الرواية (ولا يرقون)، رواية شاذة؛ لأن الرقية وردَ بها الشارع، وحث عليها من أمره وفعله وإذنه، فلو كانت مما يُكرَه ما فعلها ﷺ، وما حث عليها، وما أمر بها، وما فعلها جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فدلَّ علىٰ أن هذه الرواية مما غلط فيه الراوي، وهذا لا يُرَدُّ إلا إذا كانت هناك روايات لم يُذكَر فيها، ولم يأتِ في البخاري هذه اللفظة، بل انفرد بها مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والفرق بين الراقي والمسترقي: أن الراقي: مُحسِن إلىٰ غيره، وأما المسترقي: فإنه مُلتَفِت إلىٰ غيره، يعني يعلق قلبه بالأسباب، فيطلبها، وهذا يُنقِص التوكل، ولكن لو كان طلب الأسباب بدون أن يتعلق بها، لما كان من هذا النوع.

فالذي يرقي يفعل الخير، ولكن الذي يسترقي يطلب، فينقص توكله بطلبه، ولا يستحق أن يكون من هذا الصنف، وهنا -كما سيذكر الشارح- أوْرد ابن حجر رحمه الله في فتح الباري اعتراضًا على قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فالذي سيذكره الشارح هو من كلام ابن حجر في فتح الباري، وهو قوله: (ولكن اعترضه بعضهم).





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولكن اعترضه بعضهم بأن قال: تغليط الراوي مع إمكان تصحيح الزيادة لا يصار إليه، والمعنىٰ الذي حمله علىٰ التغليط موجود في المرقىٰ؛ لأنه اعتل بأن الذي لا يطلب من غيره أن يرقيه تام التوكل، فكذا يُقال والذي يفعل به غيره ذلك ينبغي أن لا يمكنه منه لأجل تمام التوكل، وليس في وقوع ذلك من جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دلالة علىٰ المدعىٰ، ولا في فعل النبي ﷺ له أيضًا دلالة في مقام التشريع، وتبيين الأحكام، كذا قال هذا القائل. وهو خطأ من وجوه.

الأول: أن هذه الزيادة لا يمكن تصحيحها إلا بحملها علىٰ وجوه لا يصح حملها عليها، كقول بعضهم: المراد لا يرقون بما كان شركًا، أو احتمله، فإنه ليس في الحديث ما يدل علىٰ هذا أصلاً وأيضًا فعلىٰ هذا لا يكون للسبعين مزية علىٰ غيره، فإن جملة المؤمنين لا يرقون بما كان شركًا.

الثاني: قوله: (فكذا يُقال) إلىٰ آخره. لا يصح هذا القياس فإنه من أفسد القياس، وكيف يُقاس من سأل وطلب علىٰ من لم يسأل! مع أنه قياس مع وجود الفارق الشرعي فهو فاسد الاعتبار.



الشَّرْح

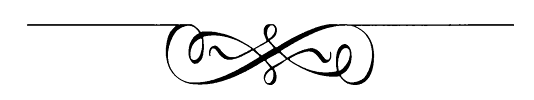
قوله: (ولكن اعترضه بعضهم بأن قال: تغليط الراوي...)، هذا قول ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح، أوْرده اعتراضًا علىٰ قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تضعيف هذه الرواية، وقوله: إنها رواية شاذة، وأن الصحيح يخالفها، واستدل شيخ الإسلام بأحاديث أخرىٰ، فإن ترجيح إحدىٰ الروايتين لا يكون بالهوَىٰ، وإنما يكون بالدليل، فوردَت روايات أخرىٰ تدل علىٰ أن أحد الرواة قد غلط، فتكون الرواية مما وقع فيه الراوي من الغلط، والراوي بشر، قد يخطئ، ولكن

معرفة خطئه إنما تكون عن طريق معرفة الروايات الأخرىٰ لنفس الحديث أو لأحاديث أخرىٰ، فشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أن هناك أحاديث تدل علىٰ أن الراوي قد وَهِمَ، وأنه قد أخطأ في هذه اللفظة، فلم يذكرها بقية الثقات في هذا الحديث، وسيذكر هنا الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاثة أوجه يردُّ بها علىٰ قول ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (**الأول: أن هذه الزيادة لا يمكن...**)، أي: يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ أننا إن لم نغلط الراوي، ولم نعتبرها راوية شاذة، فإننا سنرتكب أشد من ذلك، وهو التأويل، فإن الحديث لم يَرِدْ فيه أنهم لا يسترقون بما كان شركًا، فلابد أن نُأَوِّل ونقول: إن الحديث يدل علىٰ أنهم لا يرقون بما كان شركًا، فمن أين عرفنا هذه اللفظة؟ فقال: لو لم نقل بأن الرواية مرجوحة، وأن الراوي وَهِمَ، فإننا سنلجأ إلىٰ التأويل بما لا يدل عليه النص، فليس في النص ما يدل علىٰ أنهم لا يرقون بما هو شرك، فهذا يفعله كل المؤمنين، فإن هذه أخلاق المؤمنين وعقيدتهم، أن لا يرقون بالشركيات، وليس في هذا مدح يكون لهم به مَزِيَّة علىٰ بقية المؤمنين؛ لأنه لو رَقَىٰ بالشركيات يكون غير مُوحِّد، ويكون إيمانه ناقصًا، والحديث وردَ لبيان فئة ممتازة، وصفوة مختارة من الأمة، وهي أعلىٰ درجات الإيمان، وليس المراد بها بيان أنهم لا يشركون، فهذا لا يفعله أي مؤمن من المؤمنين.

قوله: (**وكيف يُقاس مَن سأل، وطلب علىٰ مَن لم يسأل؟**)، يعني أن الشرع يُفرِّق بين مَن يأتيه الشيء بدون طلب، وبين مَن يطلبه، ولو كان مُباحًا، وهذا جاء في حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (**كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء**)، يعني كان يعطيه من بيت مال المسلمين، (**فأقول: أعطه مَن هو أفقر إليه مني**)، يعني كان يأتيه العطاء فيرُدُّه، ويقول: لست محتاجًا له، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (**خُذْه إذا جاءك

من هذا المال شيء، وأنت غير مُشْرِف، ولا سائل، فخُذْه، وما لا فلا تتبعه نفسك)[1]، ففرق بين السؤال والطلب والاستشراف، وبين فعل الشيء أو أخذه بدون طلب، فالذي يأتيه المال فيأخذه، ليس مثل الذي يسأل حتى يأتيه، وكذلك في الرقية، فالذي يسأل، غير الذي يأتي مَن يرقيه فيقبل، وهذا معروف، فقول ابن حجر رحمه الله : أنه ليس بينهما فرق، قول ضعيف.

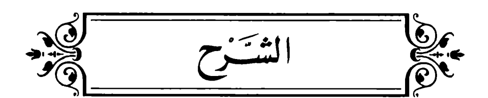


(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب مَن أعطاك شيئًا من غير مسألة، برقم: (١٤٧٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

لأنه تسوية بين ما فرق الشارع بينهما بقوله: «من اكتوىٰ أو استرقىٰ فقد برئ من التوكل» رواه أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم أيضًا.

وكيف يُجعل ترك الإحسان إلىٰ الخلق سببًا للسبق إلىٰ الجنان، وهذا بخلاف من رقىٰ أو رُقي من غير سؤال، فقد رقىٰ جبريل النبي ﷺ، ولا يجوز أن يُقال: إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن متوكلاً في تلك الحال.



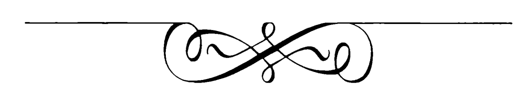
الشَّرح

قوله: (**وكيف يُجعَل ترك الإحسان إلىٰ الخَلْق سببًا للسبق إلىٰ الجنان؟...**)، هذا يَرُدُّ علىٰ قول ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، فإذا كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد كوَىٰ أو رقَىٰ أو غيره، فإن فعله ﷺ يدل علىٰ أنه لا يُنقِص التوكل، بل يدل علىٰ أن الأسباب يجوز أن تُباشر، ومنها الرقية، ولكن يُكرَه التعلق بها وطلبها، فإنه ينقص التوكل، ولكن لو رُقِيَ الإنسان فإنه لا بأس، وهذا خاص في الرُّقَىٰ، وأما التداوي بالأدوية والأسباب المشروعة المباحة من الأشياء الطبيعية، فهذا قد حث عليه الشارع، وقال: (**تداووا، فإن الله ما أنزل داءً إلا وجعل له دواء**)[1]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: "ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء"، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء، برقم: (٥٦٧٨)، ورواه بلفظ: "تداووا فإن الله عَزَّوَجَلَّ لم يضع داءً إلا وضع له دواء"، البخاري في الأدب المفرد، باب حسن الخلق إذا فقهوا، برقم: (٢٩١)، (١/ ١٠٩)، وأبو داود في سُننه، كتاب الطب، باب في الرجل يتداوىٰ، برقم: (٣٨٥٥)، والنسائي في السُّنن الكبرىٰ، كتاب الطب، باب الأمر بالدواء، برقم: (٧٥١١)، (٧/ ٧٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٨٤٥٤)، (٣٠/ ٣٩٥)، والبيهقي في السُّنن الكبرىٰ، =

ولكن لعله ﷺ أراد أن يُقلِّص التداوي بالرُّقَىٰ، حتىٰ لا يصبح الدين بمنزلة العلاجات الجسمية، فهذا الدين أنزله الله تشريعًا، وعقيدةً، وعبادةً؛ لنعمل به ونتَّبعه، لا لنجعله رقية وتعاويذ تُعلَّق في الصدور، وعلىٰ الأعناق، وعلىٰ السواعد، وتُوضَع علىٰ أرفف السيارات، أو في أرفف البيوت؛ للحفظ من العين أو أشباهها، هذا التوسع فيه يغير المقصد من إنزال هذا الكتاب، فلعله أراد ﷺ أن يقلص هذا الجانب، والإنسان ينبغي له أن يبتعد بقدر ما يستطيع عن الرُّقَىٰ، إلا للحاجة الضرورية، ولم نرَ الصحابة يكثر فيهم الرُّقَىٰ، ولا فيمَن بعدهم من التابعين، وإنما تكثر إذا نقص إيمان الناس وزاد جهلهم، فإنه يصبح الدين عبارة عن رُقَىٰ وتعاويذ تُعلَّق في الصدور، كما نراه في دول المسلمين، فلا نكاد نرىٰ إنسانًا إلا وعلىٰ صدره مصحف صغير مُعلَّق، وفي بيته مصحف مُعلَّق، وعلىٰ سيارته مصحف مُعلَّق، ولا يُعمَل بشيء من كتاب الله، فأصبح القرآن عندهم تعاويذ ورُقَىٰ، وهذا ليس المقصد من إنزال كتاب الله ﷻ.



= كتاب الأضاحي، باب ما جاء في إباحة التداوي، برقم: (١٩٥٥٩)، (٩/ ٥٧٧)، والحاكم في المستدرك، كتاب العلم، برقم: (٤١٦)، وغيرهم، وسيأتي بلفظ آخر، وأما اللفظ الذي ساقه الشيخ فلم أجده في دواوين السُّنة، ولعله نقل بالمعنىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الثالث: قوله: (ليس في وقوع ذلك من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ) إلىٰ آخره، كلام غير صحيح بل هما سيدا المتوكلين، فإذا وقع ذلك منهما دل علىٰ أنه لا ينافي التوكل فاعلم ذلك.

قوله: (ولا يكتوون) أي: لا يسألون غيرهم أن يكويهم كما لا يسألون غيرهم أن يرقاهم استسلامًا للقضاء وتلذذاً بالبلاء، أما الكي في نفسه فجائز كما في الصحيح عن جابر بن عبدالله: (أن النبي ﷺ بعث إلىٰ أبي بن كعب طبيبًا فقطع له عرقًا وكواه) وفي صحيح البخاري عن أنس: (أنه كُوِيَ من ذات الجنب، والنبي ﷺ حي) وروىٰ الترمذي وغيره عن أنس: (أن النبي ﷺ كوىٰ أسعد بن زرارة من الشوكة).

الشَّرح

قوله: (فإذا وقع ذلك منهما، دلَّ علىٰ أنه لا ينافي التوكل، فاعلم ذلك...)، كل كلامهم مُنصَب علىٰ جواز الرقية، وأنها لا تُنقِص التوكل لمَن قبلها، بل لمَن طلبها، فقال: أما مَن طلبها، فلا شك أنه لا يحصل له مزية السبعين ألفًا، ولكن مَن رُقِيَ بغير طلب، فهذا يختلف عمَّن رُقِيَ بعد الطلب.

قوله: (كما في الصحيح عن جابر بن عبد الله...)، (وروَىٰ الترمذي وغيره عن أنس...)، هذه كلها حوادث في عهد ﷺ، بعضها بأمره، وبعضها فُعِلَت في عهده ﷺ، ولكن لما كان الكي فيه صفات يختلف فيها عن بقية الأدوية، جاءت الكراهية، فسبب الكراهية -والله أعلم- أن الكي إنما تكون بالنار، وهي مما تَنفُر منه النفس البشرية في الدنيا والآخرة، النار تكرهها النفس ولا تحبها، لا في الدنيا لا في الآخرة.

ثانيًا: أن النار سواء نفعت أو لم تنفع، فإنها تؤذي، وتترك أثرًا في الإنسان، حتىٰ ولو عُفِيَ الإنسان، بخلاف غيرها من الأدوية، مثل الرُّقَىٰ والأدوية الطبيعية، ما تترك أثرًا إلا قليلًا.

ثالثًا: كثيرًا من الذين يقومون لا يجيدونه، ويمارسونه علىٰ أمراض لا يناسبها؛ لأن الكي ليس لكل مرض، بل الكي يكون لأمراض خاصة، إما انسداد بعض العروق، أو لوجود ورم في الإنسان يحتاج إلىٰ كي، وليس كل إنسان يكوي، ولكن إذا تعلقت قلوب الناس بالكي، كَثُر المـُطَبِّبُون، وقد رأينا أُناسًا كثيرين مُشوَّهين من الكي؛ لأن الذي كوَىٰ لا يعرف طريقة الكي، ولا يدرسها إلا متخصصون، فالكي يختلف عن غيره.

فالمسترقي طالب لغيره مما يُنقِص من توكله، فصورة الاسترقاء المكروه هو أن يذهب الشخص إلىٰ الناس، ويبحث عمَّن يرقيه، فيطرق الأبواب، ويتعلق بكثير من الناس، هذا هو المكروه الذي ينقص عن درجة السبعين، ولكن لا يعني هذا أنه حرام، ولكن الذي يترك هذا كله، فإن الله ﷻ يدخله الجنة بلا حساب ولا عذاب، ولا يعني هذا أن مَن اكتوَىٰ، أو استرقَىٰ، أنه يعاقب يوم القيامة، فهذه مباحة، ولكنها مكروهة يحسُن تركها، فمَن أراد أن يكون من السبعين ألفًا، فتركها، فإنه يُرجَىٰ أن يحصل علىٰ ما وعد به رسول الله ﷺ، ولكن القاعدة الأخيرة التي تشمل هذا كله، هي التي ذكرها في الحديث: (وعلىٰ ربهم يتوكلون)، فهي تشمل كل شيء، فالإنسان قد يترك الكي، ويترك الاسترقاء، ولكن لا يتوكل في بقية أموره علىٰ الله، في رزقه، وفي حفظ أولاده، وفي أشياء كثيرة، فليس الهدف ترك هذه الأشياء الثلاثة، ولكن العبرة بعموم التوكل، أو هذه كلها أفراد ونماذج، ولكن القاعدة الكبيرة، هي ما ذكر في آخر الحديث.

قال المؤلف رحمه الله:

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعًا: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار، وأنا أنهى عن الكي»، وفي لفظ: «وما أحب أن أكتوي».
قال ابن القيم: فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع:

أحدها: فعله. والثاني: عدم محبته له.

والثالث: الثناء على من تركه. والرابع: النهي عنه.

ولا تعارض بينهما بحمد الله، فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركيه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهية.

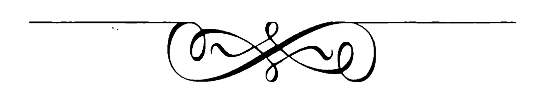

الشَّرح

قوله : (الشفاء في ثلاث...)، هذا الحديث فيه لفظان أحدهما: (وأنا أنهَى عن الكي)[1]، واللفظة الثانية: (وما أحب أن أكتوي)[2]، فلابد من ترجيح أحدهما، فهذه قاعدة عامة مع كل حديثين صحيحين، فنظرنا في الأحاديث، فرأينا أن أكثرها: (ولا أحب أن أكتوي)، ووردَت في أحاديث بأنه فعله ﷺ، وأمر به، وأجازه، وأقرَّه، فدلَّت الأحاديث على أن اللفظة الصحيحة: (وما أُحب أن أكتوي)، فهذا يدل على الكراهية، ولو قال: (وأنا أنهَى عن الكي)، لكان مُحرَّمًا؛ لأن النهي للتحريم، والأمر للإيجاب، حتى يأتي نص آخر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: "وأنهى أمتي عن الكي"، كتاب الطب، باب الشفاء في الثلاث، برقم: (٥٦٨٠)، (٥٦٨١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء في العسل، برقم: (٥٦٨٣).

يُخصِّص، فاللفظ الصحيح -والله أعلم- هو (وما أُحب أن أكتوي).

قال ابن القيم رحمه الله : إن الأحاديث جاء فيها أربعة أمور: أنه فعله، وأقرَّه، وقال: لا يحبه ﷺ، وأثنىٰ علىٰ تاركه، كلها ليس بينها تعارض، وإنما محصلها أن الكي مكروه، وأنه لا ينبغي للإنسان أن لا يلجأ إلىٰ الكي، إلا في آخر لحظة، ويتركه إن استطاع، فإن هذا مما حث عليه ﷺ، كما مرَّ في حديث العرض، وفي غيره من الأحاديث.[1]



(١) ينظر زاد المعاد (٤/ ٦٥-٦٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ولا يتطيرون) أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها وسيأتي بيان الطيرة وما يتعلق بها في بابها إن شاء الله تعالىٰ.

قوله: (وعلىٰ ربهم يتوكلون) ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال، وهو التوكل علىٰ الله، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، الذي هو خلاصة التفريد، ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء والرضىٰ به ربًّا وإلهًا، والرضىٰ بقضائه.



الشَّرح

قوله: **(ولا يتطيَّرون)**، الطَّيْرة: مأخوذة من الطائر، وسيأتي -إن شاء الله- باب مستقل عن التَّطَيُّر.

قوله: **(وعلىٰ ربهم يتوكلون)**، يذكر الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفسيرًا لقوله ﷺ: (وعلىٰ ربهم يتوكلون)، أنها هي القاعدة التي يندرج تحتها ما تقدَّم من قوله ﷺ: (أنهم لا يسترقون، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوون)، فهذه أفراد من التوكل، والقاعدة العامة هي توكل العبد علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، والتوكل: هو ثقة الشخص فيما عند الله، وفي أن الله عَزَّ وَجَلَّ سيصرِّف أمره، وسيجلب الخير إليه، أو سيدفع الشر عنه، والأسباب كلها منه عَزَّ وَجَلَّ.

فقوله: **(ذكر الأصل الجامع)**، أي التوكل، أي أن ميزة هذه الفئة التي ذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، هي صدق التوكل علىٰ الله، وهذا غاية التوحيد، فإن الإنسان في حياته يحتاج إلىٰ جلب منافع، وإلىٰ دفع مَضار، وهذا لابد فيه من مباشرة الأسباب، ولكن إذا ارتقىٰ الإنسان في

التوحيد، فلم يلتفت قلبه إلىٰ غير الله، دلَّ علىٰ أن قلبه قد امتلأ بتوحيد الله ﷻ، فالتوكل هو قمة التوحيد، ولهذا لا يصل إليه إلا أفراد من الناس، وأكثرهم إذا نزل بهم بلاء، أو احتاجوا إلىٰ جلب خير، فإنهم يبحثون عن الأسباب، وهذا مشروع لا شك فيه، ولكن أعلىٰ منه درجة أن يكل الإنسان أمره إلىٰ الله ﷻ، ويُذكر هنا مثال: أن الجدار كان يقول للمسمار: لم تَدُقُّني؟ قال:اسأل مَن يدقني، فالنجار يضرب المسمار بالمطرقة، والمسمار يضرب الجدار، فالجدار يعاتب المسمار، فيقول: لست أنا الذي يدقُّك، الذي يدقك هو المطرقة، والذي يمسك المطرقة هو النجار، فالأصل في دق الجدار هو النجار، والمطرقة والمسمار من الآلات، فالخالق ﷻ هو مُسبِّب الأسباب، والكون كله بيده، خيره وشره، فإذا ارتقَىٰ العبد في التوحيد، فإنه لا يلجأ قلبه، ولا يلتفت قلبه، إلا إلىٰ الله ﷻ، ولكن الذي يباشر الأسباب، ويعتقد أنها من قدر الله هو علىٰ الحق، كما قال عمر رضي الله عنه في قصة عدم دخوله أرض الطاعون الذي وقع في الشام، فاستشار الصحابة رضي الله عنهم، ثم أخيرًا قرر أن لا يدخل المكان الذي فيه الطاعون، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: **(يا أمير المؤمنين، أفرارًا من قدر الله؟ قال: لو قالها غيرك يا أبا عبيدة، نَفِرُّ من قدر الله إلىٰ قدر الله)**[1]، ما هو المكان الذي يستطيع الإنسان أن يخرج إليه من قدر الله؟ قدر الله محيط بالإنسان من كل مكان، فحيثما ذهب فقدر الله محيط به، ولكن يتَّخذ الأسباب، ويعتقد أن الأسباب بيد الله ﷻ، فالتوكل هو قمة التوحيد، ولا يصل إليه إلا بعد أن يكون القلب عامرًا بذكر الله، وبمعرفة الله بأسمائه وصفاته، فإذا عرف الله، وعرف

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، برقم: (٥٧٢٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة وغيرها، برقم: (٢٢١٩)، (٤/ ١٧٤٠).

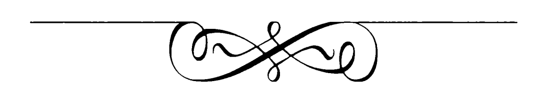
أسماءه، وصفاته، وأفعاله، وعرف أن الخلق كلهم آلات في يد القدر، يكون قلبه مُعلَّقًا بالله وحده.

فقوله: (**الأصل الجامع الذي تفرَّعت عنه هذه الأفعال، وهو التوكل، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، الذي هو خلاصة التفريد**)، التفريد: معناه إفراد الله بالعبادة، (**ونهاية تحقيق التوحيد**)، درجات التوحيد، (**الذي يثمر كل مقام شريف**)، المقام يُطلَق على الدرجة التي يكون فيها العبد، فمن الناس مَن يعبد الله في درجة أقل، ومنهم مَن يعبده في درجة أعلى، ولهذا ينقل النووي رحمه الله عند شرحه لبعض الأحاديث: (الناس في عبادة لله على درج، منهم مَن يعبد الله عبادة العبيد)، أي عبادة الخائفين فقط، (ومنهم مَن يعبد الله عبادة الطامعين، وهذه عبادة التجار، ومنهم مَن يعبد الله؛ لاعتقاده أن الله أهل للعبادة، وهذه عبادة المخلصين)، أي أن يعتقد الإنسان أن الخالق أهل للعبادة عز وجل، من غير التفات إلى خوف ولا رجاء، وليس معناه أن لا يخاف ولا يرجو، ولكن إنما يكون في قلبه اعتقاد أن الذي خلقه هو أَوْلَى بالعبادة، وأحق بها، ولكن لابد للإنسان من دوافع، والدوافع إما أن تكون خوفًا، وإما أن تكون رجاءً، ولكن لا ينبغي أن يكون في قلبه خوف ورجاء فقط، بل يكون في قلبه خوف ورجاء مع اعتقاد أن الله عز وجل أهل لأن يُعبَد، (فيثمر كل مقام شريف).

وقد أَلَّف الهروي -رحمه الله تعالى- كتابًا سَمَّاه "منازل السائرين بين إياك نعبدُ وإياك نستعين"، وشرحه ابن القيم رحمه الله في كتابه "مدارج السالكين"، ويقصد بمنازل السائرين، مقامات السائرين، أي العابدين الذين يعبدون الله، يعني أن هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، الناس فيها على منازل ودرجات، وذكر فيها مائة درجة، منها: درجة الشكر، ودرجة الصبر، ودرجة الخوف، ودرجة الرجاء، ودرجة المحبة، وهكذا، ولكن في الحقيقة،

أنها ليست درجات، بل هذه صفات تكون في القلب علىٰ درجات، منهم مَن يكون الخوف في قلبه زائدًا، فإذا كان الإنسان يعبد الله بالخوف وحده، فإنه يكون حروريًّا، يعني خارجيًّا؛ لأنه يرجِّح جانب الآيات التي فيها الوعيد، ومَن عبد الله بالمحبة وحدها، كان زنديقًا؛ لأنه يرجِّح جانب الرجاء، حتىٰ يخرج من كل الدين، فلا يلتزم لا بالتكاليف، ولا بالأوامر، ولا بالنواهي؛ لأنه يزعم أنه يحب الله، فما دام يحب الله، فالله لا يعاقبه علىٰ ترك أمر، أو فعل نهي، ولكن المسلم يعبد الله بين الخوف والرجاء.

فالمقام الشريف هو كما ذكر الشارح (من المحبة، والخوف، والرجاء، والرضىٰ به ربًّا)، لابد أن يكون العبد في قلبه هذه المعاني، خوف الله، والرجاء فيما عنده، فيعبده علىٰ هذا المنهج، فإذا وصل الإنسان إلىٰ قمة التوكل، فإنه يُوكِل أمره إلىٰ الله ﷻ، ولكن لا يعني ذلك ترك الأسباب، كما سيأتي -إن شاء الله-.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بل ربما أوصل العبد إلىٰ التلذذ بالبلاء وعده من النعماء، فسبحان من يتفضل علىٰ من يشاء بما يشاء والله ذو الفضل العظيم.



الشَّرح

قوله: (بل ربما أوصل العبد إلىٰ التلذُّذ بالبلاء...)، هذه الدرجة لا يبلغها كثير من المُوحِّدين، وهي أن يشعر أن البلاء نعمة، لا يستطيعها الإنسان إلا إذا بلغ قمة التوكل، ولهذا يذكر الله ﷻ في كتابه الكريم نماذج من قصص الأنبياء، وما ابتُلوا به، فمن الأنبياء مَن ابتُلِيَ في نفسه، ومنهم مَن ابتُلِيَ في ولده، ومنهم مَن ابتُلِيَ في أبيه، ومنهم مَن ابتُلِيَ في زوجته، فقد ابتُلِيَ أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في نفسه، فأصابه المرض ثمانية عشر عامًا، والدود يأكل في جسمه، ولم يسأل الله أن يرفع عنه البلاء، بل كان إذا سقطت دودة في الأرض، أعادها، وقال: ارجعي إلىٰ ما كُنتِ عليه، حتىٰ وصل البلاء إلىٰ قلبه، فعندئذٍ لجأ إلىٰ الله ﷻ، فالتلذُّذ بالبلاء لا يطيقه كل إنسان، ويقول العلماء: البلاء للإنسان فيه ثلاث درجات:

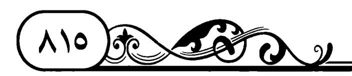
الدرجة الأولىٰ: الجزع: وهو الاضطراب والقلق، وهذه الدرجة مذمومة: ولكن فيه نوعان: إما أن يجزع، ويبحث عن الأسباب، وينسىٰ مُسبِّب الأسباب، وهذا أقل الدرجات وأرذلها، وإما أن يجزع، ولم يصبر، ويبحث عن الأسباب، ويعتقد أن الله هو مُسبِّب الأسباب، فهذا مذموم من جانب؛ لأنه ترك الصبر، وممدوح من جانب؛ لأنه اعتقد أن الأسباب بإذن الله، وبحث عن أسباب العلاج.

ودرجة أعلىٰ منها: وهي الصبر، ونحن مأمورون بالصبر، فقد وردَ الصبر في كتاب الله في أكثر من تسعين موضعًا، مدح الله الصابرين، ووعدهم بأجره

وبالجنة، ووعدهم بمثوبته ﷻ، وأثنىٰ عليهم، وهـو علىٰ نـوعين أيضًـا: إمـا أن يصبر، ويبحث عن الأسباب، وينسىٰ مُسبِّب الأسباب، وبينما هـو يبحث عـن الأسباب، ينسىٰ الله ﷻ، فيظن أن العلاج هو الذي يفيد، وهذا مذموم، وإما أن يصبر، ويبحث عن الأسباب، ويعتقد أن الأسباب بيد الله ﷻ، وهـذا لـيس بمذموم.

والدرجة الأعلىٰ: الرِّضَىٰ، أن ترضىٰ بالبلاء، والله لم يوجب علينا الرضىٰ بالبلاء؛ إذ ليس كل إنسان يطيقه، ولكن أُمِرنا بالصبر، نصبر، وإن كانـت قلوبنـا ليست راضيةً، ولكن هنـاك أنـاس يصلون بمحبتهم لله ﷻ أنهـم إذا أصيبوا ببلاء، رضوا به؛ لأن البلاء مما لا يشاركه في الكون أحد، فلا يقع في الكون أمر إلا بإرادة الله، فإذا كان هذا بإرادة الله ومشيئته، وهو أرحم الراحمين، وهو أعدل العادلين، فعندئذٍ القلب يطمئن ويرضىٰ، وهذا مقام حث عليه الشارع، ولكن لم يأت أمر بالرضىٰ بالقدر؛ لأنه مقام لا يستطيعه كل إنسان.

فيصبر ولا يتخذ سببًا، وهذا هو قمة التوكل أو الرضىٰ بقدر الله ﷻ، وهـذه درجة لسنا بها مأمورين، ولكنها أعلىٰ درجة يصل إليها المتوكل، أن يصبر علىٰ البلاء، وأن لا يبحث عن الأسباب، ولهذا ثبت عند الإمام أحمد ؒ : أن العلاج مُباح، وتركه أفضل، كما سيأتي في أقوال الأئمة، بخلاف الأئمة الآخرين، فيرىٰ أن الدواء مُباح، أباحه الشارع، ولكن تركه أفضل عنده ؒ، ولكن الأحاديث أمرت بالعلاج أو بالدواء، ولعل الصحيح ما ذهب إليه الشافعي ؒ من أنه مُستحَب؛ لأن الأحاديث دلَّت عليه، وأما أبو حنيفة ؒ فإنه يراه قريبًا من الواجب، يعني يراه مُؤكدًا أقرب إلىٰ الواجب منه إلىٰ الاستحباب.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً، كما يظنه الجهلة، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم.



الشرح

قوله: (واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلًا)، أراد الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُبيِّن أن بعض الناس فَهِمَ من هذا الحديث، أن الشارع يحث على ترك الأسباب، والحديث لا يدل على ذلك، ويكون الخطأ في فهم الحديث، أو فهم النص، بأسباب كثيرة، من أهمها: أن الإنسان يأتي إلى حديث واحد، ويكون الحديث يحتمل أكثر من معنى، فينزله على أحد هذه المعاني بدون دليل، وهذا ضعف في الاستنباط.

والسبب الثاني: أن يكون الإنسان قد اعتقد اعتقادًا، أو رجَّح أمرًا، ثم أخذ يبحث عن أدلته من القرآن والسُّنة، فيكون هو قعَّد القاعدة، أو اتخذ القضية، أو رجَّح الحُكْم، ثم يبحث عن أدلته من الكتاب والسُّنة.

والسبب الثالث: أنه لم يستأنس بفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا سبب يلحق أكثر مذاهب الطوائف الإسلامية، أنهم يظنون أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سذج لا يفهمون، ولكن اذا ذكرنا أرسطو الذي يسمُّونه المعلم الأول، والفارابي من المسلمين الذي يسمُّونه المعلم الثاني، لو قلنا لهم : إن طلابهما الذين تعلموا العلم على يديهما، هل أصبحوا علماء؟ يقولون: نعم، فطلاب رسول الله ﷺ سيد البشر في الفصاحة، وسيد البشر في الأخلاق، وسيد البشر في العبادة،

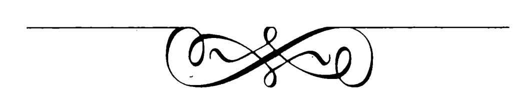
وسيد البشر في التوحيد، ألا يكون طلابه إذا تعلموا على يديه عشر سنوات علماء؟

فالصحابة رضي الله عنهم لايكاد عالم من علماء المسلمين، إلا وهو يستشهد بأقوالهم، ويرضى أقوالهم، ويعجب بها، وعبارات قليلة من كلامهم رحمهم الله تدل على معانٍ كثيرة، ولهذا يقول ابن رجب رحمه الله في رسالة صغيرة، فضل علم السلف على علم الخلف، فالسلف كلامهم قليل، ولكن فيه بركة، وفيه معانٍ، وفيه فصاحة، وفيه إيجاز، وكلام المتأخرين كثير، ولكن بركته قليلة، فالصحابة رضي الله عنهم قد تربوا على يد رسول الله ﷺ، والوحي يتنزَّل من السماء ليلًا ونهارًا، وهم يتلقُّون الوحي غَضًّا طريًّا، وهم أفصح البشر، وأعلم البشر بلغتهم، وفهمهم أصوب؛ لأنهم لم يقرءوا المنطق، ولم يقرؤوا فلسفة الإغريق، التي قد تؤدي إلى الكفر؛ لأن الله عز وجل إنما أنزل إلينا دينًا قرآنًا من السماء، به أنقذنا من الضلالة، وبه رفعنا من الجهالة، وبه علمنا مَرضَاته سبحانه وتعالى، فالذي لا يكون بالقرآن الكريم حكيمًا عليمًا، فبماذا يكون عالِمًا؟ فالذين لا يأخذون بأقوال الصحابة، ولا يرجعون إليهم عند الخلاف، مخدوعون ومغرورون، وقد يؤدي اعتقادهم إلى أمر خطير.

فكل عالم ينبغي أن يستأنس بأقوال الصحابة رضي الله عنهم، فإن القرآن تنزَّل عليهم غَضًّا طريًّا، هم كانوا في الدين قِممًا، حتى كان من باب بعض الإشارات أن يقول بعضهم: كانت مساجدهم صغيرة، ولكن كانوا هم فيها عماليق، ومساجدنا أصبحت كبيرة، ولكنَّا فيها أقزام، فالعبرة ليست بالمظاهر، بل العبرة بالحقائق، والصحابي يقرأ القرآن، ويدرك من معانيه، ما لا يُدركه غيره،

فينبغي أن نحرص على أن نستأنس في فهمنا بكلام الصحابة ﷺ، ولهذا جميع علماء السلف من التابعين وأتباعهم وأئمة المذاهب الأربعة: الإمام أبي حنيفة، الإمام مالك، الإمام الشافعي، الإمام أحمد، كلهم يجلُّون الصحابة، ويحترمونهم، ويقدِّمون آراءهم وأقوالهم على أقوالهم، حتى قيل لأبي حنيفة رحمه الله: إذا جاء الحديث يخالف ما تقول؟ قال: خُذوا بالحديث، قيل: إذا جاء قول الصحابي يخالف ما تقول؟ قال: خُذوا بقول الصحابي، قيل: إذا جاء قول التابعي يخالف قولك؟ قال: نحن رجال وهم رجال. ليس لهم من الفضل ما للصحابة،

فالذين يظنون أن الحديث يدل على عدم مباشرة الأسباب، فهمهم خاطئ؛ لأنه لا يدل عليه الحديث، ولم يفهمه أحد من الصحابة ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] فهو حسبه أي: كافيه، إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً علىٰ الله، كالاسترقاء، والاكتواء، فتركهم له ليس لكونه سببًا، لكن لكونه سببًا مكروهًا، لاسيما والمريض يتشبث بما يظنه سببًا لشفائه بخيط العنكبوت.



الشَّرح

قوله: (بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب)، يذكر الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب تركهم للأسباب، أو سبب تفضيل المُتوكِّل في توكله، قال: لأنه لا يترك الأسباب جملةً، وما يستطيع بشر أن يترك الأسباب، فالصلاة في المسجد لابد لها من خطوات تتحرك إلىٰ المسجد، فهذا سبب، فهم لا يتركون الأسباب، وإنما يتركون ما جاء في الشرع كراهته، فالشرع كَرِهَ الكي، وكَرِهَ الاسترقاء، فإنهم يتركونه اتباعًا وترجيحًا للشرع، وإلا فالأسباب المباحة قد تكون واجبة، فلا يتركونها.

قوله: (والاكتواء، فتركهم له ليس لكونه سببًا)، قلنا: إنهم لا يتركون الأسباب لكونها أسبابًا، بل يتركون الأسباب المكروهة، فتركهم للأسباب ليس جملةَ، وإنما يتركون بعضها، ويشير الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ صفة نفسية تصيب الإنسان في حالين: في حال الشدة، وفي حال المرض، فالإنسان إذا أصيب بشدة، فإنه يفقد قدرته العقلية التي يتمتع بها أثناء الرخاء، فيتصرف تصرفًا خاطئًا، فينبغي للإنسان أن يحذر إذا وقع في مشكلة، أو في أزمة، أو في قضية، أن لا يستعجل في اتخاذ القرار؛ لأن القوىٰ العقلية وقت الشدة تَضعُف،

وكذلك وقت مرضه تَضعُف، والإنسان يتكلم عن التوحيد كثيرًا، وقد يمرض، ويُقال له: إن شفاءك عند الكاهن فلان، ويذهب إليه، وهو ربما في وقت العافية يحاربه، وترىٰ من كثير من الصالحين عَجَبًا وقت المرض والشدائد.

والقرآن الكريم يقص علينا قصة فرعون، عندما جاءه موسىٰ عليه السلام، وأذلَّه الله به عليه السلام، ففرعون الذي كان يقول أنا ربكم الأعلىٰ، يبدأ يترفَّق بأتباعه، ويتكلم كلامًا عجيبًا، يقول: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٢٦]، ذروني: اتركوني، مَن يمسك فرعون، وهو صاحب القوة والبطش والسلطان؟ ولكن وقت الشدة يطيش العقل، ويتصرف تصرفات خالية من الحكمة، ويتعامل تعاملًا غير سليم، فالإنسان وقت الشدة تضعف قواه العقلية، فينبغي له وقت الأزمة أن لا يتخذ قرارًا، إلا بعد استشارة مَن يكون خارج الأزمة، وكذلك المرض إذا أصيب الإنسان بمرض، فلا ينبغي له أن يستعجل في البحث عن العلاجات لدىٰ أشخاص قد يكونون ممن لا يرتضيهم الشرع، ولكن حرصه علىٰ العافية قد يجعله يأخذ كل شيء، وأذكر قبل سنوات عندما ذكروا أنه في مركز (بحرة)[١] تَيْس يوجد فيه حليب، أتىٰ الناس طوابير، وفيه بعض المـُلتحين والمتدينين؛ لأن الإنسان وقت المرض يضعف.

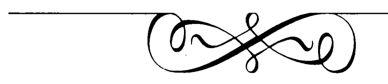
والكهان والمشعوذون يعرفون هذه الناحية النفسية، فيشترطون أحيانًا علىٰ الشخص شروطًا ثقيلة، أذكر شخصًا ذهب بابنه عند أحد الكهان، واشترط عليه مائة ألف ريال، فباع سيارته، واستدان من الناس، وذهب إليه، وقد أصبح يرىٰ من مرض ولده ما يشق عليه، يأكل التراب، يأكل الأذىٰ، يأكل القاذورات، فهذا وعده بالشفاء، وكلَّمه بما يدل علىٰ أن عنده علمًا، وهذا من

---

(١) تقع ما بين مكة وجدة وتبعد عن مكة قرابة الأربعين كليو متر

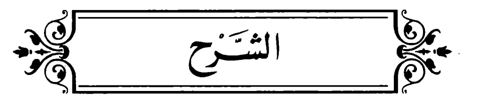
الجن، فأعطاه المبلغ، وعالج ابنه في وقتها، وبعد أيام رجع كما كان، فالمشعوذون يعرفون ضعف نفس المريض، فيستغلون هذا الضعف، ولهذا الشرع يريد أن يرفع عقلية المسلم، فالمرض بيد الله، والشفاء بيد الله، والأسباب بيد الله، فإذا وقع في سبب، فلا يذهب إلى المكروه، فكيف المحرَّم؟ المكروه ينقص من توحيدك، فالأسباب المحرمة من باب أولى.

فينبغي للمسلم أن يحذر إذا عرض له عارض أن لا يستعجل في الاستشفاء بما حرَّم الله سبحانه وتعالى، فإن الله عز وجل لا يرضى له أن يدنِّس كرامته، ولا أن يفقد دينه بسبب طلب الشفاء، وربما يكون موهومًا، كما سيأتي في أنواع الأسباب.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

أما نفس مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهية فيه فغير قادح في التوكل فلا يكون تركه مشروعًا.



الشَّرح

الأسباب على أربعة أنواع:

النوع الأول: أسباب طبيعية، تعرفها حتى الحيوانات، وهي دفع الجوع بالأكل، فالحيوان إذا جاع، بحث عن طعام يأكله، وإذا عطش، بحث عن ماء يشربه، وكذلك الطفل الصغير، إذا وُلِدَ تعطيه الأم ثديها، فيبدأ يلقم الثدي ويمصه، فهو يعرف فطرةً أن هذا مكان الحليب، وأن جوعه لا يدفع إلا بهذا السبب، وحتى أفراخ الدجاج والطيور، إذا خرجت من البيض، أول ما تبحث تلقط الحَب، إذا رأت حبًّا، تلقطه، فهذه أسباب طبيعية.

والنوع الثاني: أسباب تجريبية، الناس جربوها وتوارثوها، وهذا يسمَّى علم الطب، فإن علم الطب علم عالمي ليس له ديانة، فإنه قد يكون بعضه من أمة وثنية، وبعضه من أمة نصرانية، وبعضه من أمة يهودية، بالتجربة، فهذا أسباب تجريبية جُرِّبَت، فنجحت وأثَّرت؛ لأن الله عَجَّلَ قد أودع في الأشجار والنباتات وبعض مخلوقاته أسباب النفع، وهذا لا يُعرَف إلا عن طريق البحث والتجربة.

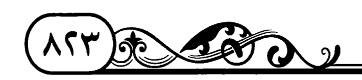
النوع الثالث: سبب عُرِفَ عن طريق الوحي، وهو الرقية بالقرآن، أو الرقية بأسماء الله وصفاته، أو الرقية بما وردَ في الشرع، فهذا نعرفه عن طريق الوحي.

والنوع الرابع: نوع وهمي، الناس يظنونه سببًا، وليس سببًا في الحقيقة،

مثل تعليق الخيط على اليد، ووضع الحلقة على الساعد، هذه يظنها الناس أسبابًا، وليست أسبابًا، بعضهم يضع حافر الفرس على باب بيته، بعضهم يأخذ بعض الأشجار ويضعها عند الباب، وهكذا، والأسباب الوهمية نحن منهيون عنها، بل قد يصل بعضها إلى الشرك.

فهناك أسباب يُدركها المخلوق الحي فطرةً أو طبيعةً أو غريزةً، فالذي يزعم أنه يداوي أو يدفع الجوع بدون الطعام، هذا إنسان مُختلٌّ عقليًا، ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، تزودوا، فقد كان بعض الناس يأتون إلى الحج بدون زاد، كما يزعم بعض المتصوفة، يخرجون إلى الصحاري وإلى الأسفار بدون زاد، ويقولون: نحن نتوكل على الله ﷻ، فهؤلاء يكذبون، نرى أن سيد البشر ﷺ باشر الأسباب، عندما هاجر من مكة إلى المدينة، إن الله قادر على أن ينقله من مكة إلى المدينة، كما فعل في الإسراء والمعراج، أسرَى به في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس، وعرَج به إلى السماء، ورأى فيها ما رأى، وتخطَّى السماوات السبع، ورجع، فالله قادر أن ينقله من مكة إلى المدينة، ولكن الرسول ﷺ خرج مهاجرًا يمشي، واختفى في الغار، وهذا سبب من أسباب النجاة، وكذلك في الحروب، كان يأخذ درعين، ويجمع بينهما، ويضع على رأسه المغْفَر، وفي أُحُد جاء بالرماة، ووضعهم على رأس الجبل، فاتخاذ الأسباب من فَعل الشارع ﷺ.

فالأسباب ليست مكروهة أو ممنوعة، فالمسلم يباشر الأسباب، ولكن يجتنب الأسباب المكروهة والمحرمة، وأما بقية الأسباب، فإن تركها طَعْن في العقل، والاعتماد عليها طعن في الدين، أي شرك، إذا كان يعتمد على الأسباب، وينسى أن هذه من قدرة الله، فإنه يكون بهذا قد أشرك مع الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

كما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعـًا: «ما أنـزل الله مـن داء إلا أنـزل لـه شفاء».



الشَّرح

قوله: (**كما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا...**)، هذه رواية البخـاري، والشارح ذكر أن هذا في الصحيحين، ولكن المحقق لم يعزه إلا إلىٰ البخاري، وإلا فإن الحديث في مسلم أيضًا، ولكن بلفظ: (لكل داء دواء، فإذا أصاب الدواء الداء؛ بَرِأَ بإذن الله)[1]، وأما لفظ البخاري: (ما أنـزل الله مـن داء إلا أنـزل له شفاء)[2].

والحديثان يقرران سُنة الله ﷻ، وأنه ما من داء يؤذي الناس، إلا وقد خلق الله لـه مقابلًا، وهـو الـدواء، ولكـن قـد لا يعرفـه النـاس، وقـد يستخدم الـدواء الواحد لمرض في شخصين، أو في ثلاثـة، فينفـع أحـدهما ولا ينفـع الثـاني؛ لأن الأثر بيد الله ﷻ، فنحن نعتقد أنه سبب، ولكن قـد تتخلـف النتيجـة؛ لأنـه لـيس سببًا مُستقلًّا، بل سبب بإرادة الله ﷻ، فالحديث يقرر سُنة الله ﷻ، بأنه ما خلق مرضًا إلا وخلق له علاجًا، ولكـن قـد تبقـىٰ أمـراضٌ لا يعـرف النـاس علاجهـا؛ لحكمـةٍ، وأذكـر أن شخصًـا أصـيب في ظهـره بمـرض السـرطان -عافانـا الله-، فذهب إلىٰ طبيـب بجـدة، فـأخبره بـالمرض، ثـم ذهـب إليـه للكشـف، فكشـف

---

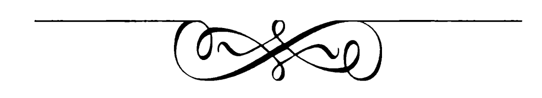
(١) صـحيح مسـلم، كتـاب السـلام، بـاب لكـل داء دواء، واسـتحباب التـداوي، بـرقم: (٢٢٠٤)، (٤/ ١٧٢٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، برقم: (٥٦٧٨).

عليه، وأخيرًا أخبره بأن هذا المرض ليس له علاج، فذهب هذا المريض إلىٰ بعض أهل البادية، فأعطاه وصفة بعض الأشجار، فأخذها، واستخدم هذا العلاج شهرًا واحدًا، فشُفِيَ من مرض السرطان، فذهب إلىٰ الطبيب ليتأكد، فأعجب، قال: ما فيك مرض، والتقارير قبل شهر تقول: فيه مرض، فقال: لقد شُفِيتُ، قال: ماذا فعلت؟ قال: استخدمت شجرة معينة، فطلب منه أن يأتي بها، فذهب الشخص، وبعد أسبوعين رجع ليعطي الطبيب هذه الأشجار، وكان يسكن في الطائف، فذهب إلىٰ الطبيب، فوجده قد مات في حادث، وأراد الله - ﷻ أن لا يكشف هذا العلاج.

فالله أنزل لكل داء دواء، ولكن قد ييسر الله ﷻ كشفه، وقد لا ييسر الله كشفه؛ لحكمةٍ أرادها سبحانه وتعالى.

يخفي الله ﷻ أحيانًا علاج بعض الأمراض؛ لحكمة، ومن ذلك علىٰ سبيل المثال، أن من أمراض الشذوذ الجنسي في العالم، لم يكتشف له علاج بعد في العالم؛ لأن هذا عقاب، ولكن لا يعني ذلك أنه ليس لهذا المرض علاج؛ لأن هذا الحديث يقرر أنه ما من داء إلا وله شفاء، ولكن قد يتخلف النفع والتأثير؛ لحكمة أرادها الله، أو قد لا يعرف الناس بعض العلاجات؛ لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، وهذا الحديث يدلنا علىٰ أن المسلم ينبغي له أن يبحث عن الأسباب التي أباحها الشارع.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله أنتداوىٰ؟ فقال: «نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يضع داءً إلا وضع له شفاء غير داء واحد» قالوا: ما هو؟ قال: «الهرم» رواه أحمد.

قال ابن القيم: فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها والأمر بالتداوي وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها.



الشَّرح

الهِرَم: والهرم الشيخوخة، فهذا الجسم خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ، وجعل فيه من خصائص النماء، ما يجعله يتوقف عند حد معين، إذا وصل في قوته إلىٰ هذا الحد، يتوقف فترة، ثم يرجع ينتكس، وما تستطيع العلاجات أن تعيده كما كان، يعجز البشر أن يعيدوا الشيخ الكبير شخصًا قويًّا، تبدأ العظام والمفاصل تضعف، تبدأ الأجهزة الجسمية تضعف، كالبصر والسمع، فلو ضعف السمع، وتخلخلت طبلة الأذن، لا يستطيع أن يتحمل الصوت، ما يستطيعون أن يعيدوا له شيئًا، فقد يعطونه مُقويًّا للسمع أو للإبصار، ولكن نفس العين والأذن ما يستطيعون أن يعيدوهما كما كانا، فضعف خلايا الجسم ليس لها علاج، ثم يبقىٰ حتىٰ يموت، ولكن بقية الأمراض لها علاجات، فهذا ما يقرره الحديث، والحديث يدل علىٰ أن الأعراب أرادوا أن يتعلموا شيئًا من دينهم، أو شيئًا من أمور دُنياهم، فقالوا يا رسول الله، هذا ممنوع؟ قال: (لا، تداووا

عباد الله، فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل له دواء)[١]، هـذا حث من الشارع على البحث عن الأسباب.

قوله: (**قال ابن القيم: فقد تضمَّنت هذه الأحاديث...**)، يتكلم رحمه الله عن بعض الفئات من المسلمين، فإن الناس انقسموا أمام الأسباب إلى ثلاثة أقسام:

قسم زعموا أن الأسباب تؤدي إلى نتائجها حتمًا، بدون إرادة الله، أي أن الله خلق الأسباب، وأن هذه الأسباب تؤدي إلى النتائج، وأن الله عز وجل لم يعد له أثر في هذه الأسباب، وهذا ضلال.

وقسم يقول: الأسباب لا تنفع أصلًا، وإنما يخلق الله الأثر عندها، فيزعمون أن الأسباب لا تؤثر، وهذا غلط، كيف لا تؤثر والله عز وجل جعلها تؤثر؟ ولكن بإرادة الله سبحانه وتعالى، وقد يوقف الله النتائج، فالنار تُحرِق عادةً، ولكن الله عز وجل قد يُبطِل إحراقها، فإبراهيم عليه السلام رُمِيَ في النار التي تُحرِق، فأوقف الله هذا التأثير.

وقسم يقول: إن الأسباب تؤثر، ولكن ليس استقلالًا، بل بإرادة الله، وهذا هو المذهب الوسط، فليس كما يقول مَن يزعم أن السبب يؤدي إلى مُسبَّب حتمًا، أو أن السبب لا يؤثر، فالإنسان يأكل والطعام يشبعه، والماء يرويه، والنار تُحرق، والسكين تقطع، ولكن إذا أراد الله إيقافها أوقفها، فإبراهيم عليه السلام أراد ذبح ابنه، فأوقف الله السكين، فلم تقطع رقبة ابنه إسماعيل عليه السلام، فأبطل

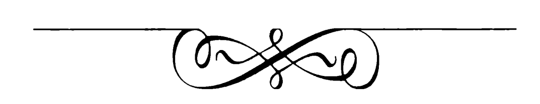
---

(١) سبق تخريجه بتغيير يسير، وأخرجه ابن ماجه برقم: (٣٤٣٨)، والإمام أحمد برقم: (٣٩٢٢) والطبراني في المعجم الكبير برقم: (٤٨٤)، بـ: "ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواءً"، وقال الهيثمي: رجاله ثقات، وصحَّحه الألباني أيضًا في تعليقه على ابن ماجه.

الله لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ تأثير نوعين من الأسباب: النار والسكين.

فهذا هو القول الوسط، وهو اعتقاد أن الأسباب تؤثر بإرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلا فلو كانت الأسباب لا تؤثر، ولا تحصل لها نتائجها، لما عرف الناس في حياتهم كثيرًا من العلوم، فكثير من العلوم تقوم علىٰ معرفة الأسباب والنتائج، وإلا ما استطاع الناس أن يضعوا القواعد، ولا أن يضعوا علومًا، ولا أن يعرفوا خصائص الأشياء.

فالأسباب ينتج عنها آثارها، ولكنا نعتقد أن هذا بإرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد يبطل الله الأثر، وقد يجعل الله السبب مؤثِّرًا.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

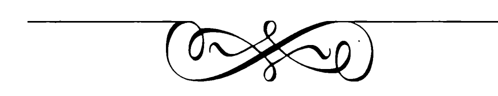
بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح بمباشرته في نفس التوكل كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوىٰ من التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب علىٰ الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً.

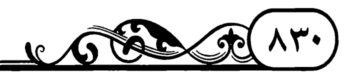
الشرح

قوله: (بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب...)، أشار رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ أن الذي يترك الأسباب مُعطِّل للشرع، أو الأمر والحكمة،، وذكر أن النتائج بأسباب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [الواقعة:٢٤]، فكثيرًا ما يذكر الله عَزَّوَجَلَّ دخول الجنة ودخول النار بأسباب العمل، فدخول الجنة والنار بأسباب، وكذلك في الحياة الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ [الملك:١٥]، فأمر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالبحث واتخاذ الأسباب، ومعرفة العلوم تقوم علىٰ الأسباب والنتائج، وخصوصًا الطب، يقوم علىٰ هذا الجانب، الأطباء يدرسون مؤثرات العلاجات والتركيبات مئويًّا، ويُجرَّب علىٰ بعض الأشخاص؛ ليروا أثره، فإذا جرَّبوه علىٰ أكثر من شخص، وخرجت النتيجة أنه استفاد منه ١٠٠٪ أو ٩٠ ٪ أو أكثر من ٨٠ ٪، أصبح هذا مَظنَّة أنه علاج، ولكن إذا كانت النتيجة ليست مرتبطة بالأسباب أصلًا، ما عرفوا.

فالأسباب مرتبطة بنتائجها، ولكن لا يعني هذا أنها حتمية؛ لأن الله ﷻ هو الذي أرادها، وهو الذي شاءها ﷻ، فقد ينزع الله الأثر والنتيجة، وهذا قليل، وإنما يفعل الله ﷻ ذلك، وليست مؤثرة بطبعها، بل بقدرة الله ﷻ، ونرىٰ مثاله في الولادة، فليس كل الناس يُخلَقون بجسم متكامل، لئلا يُظَن أن هذا طبيعي، فإنسان يُخلَق ناقص اليد، أو ناقص الرجل، أو كفيفًا، حتىٰ يُبين أن هناك إلهًا، وليست الولادة والحمل سببًا لخروج الإنسان كما هو، فوجود الأشياء والنواقص في الكون؛ للدلالة علىٰ أن الأسباب ليست هي المؤثرة، بل الله هو المؤثِّر ﷻ.

فأراد رحمه الله أن يقول: إن تعطيل الأسباب قَدْحٌ في الحكمة، فإن حكمة الله في خلقه أن هناك ارتباطًا بين الأسباب والمُسبَّبات، فلو لم يكن هناك ارتباط بين الأسباب والنتائج؛ لكانت الحياة مضطربة، فمثلًا عرف الأطباء أن الزئبق مثلًا هو السائل الوحيد الذي يمكن أن يُتَّخَذ لقياس الحرارة، ما جعلوا سمنًا ولا زيتًا ولا ماءً، فالزئبق في روسيا هو الزئبق في أمريكا، وهو الزئبق في مكة، خصائصه واحدة، فالمخلوقات لها خصائص، ولها مؤثرات، ولو لم تُعرَف، ولو لم يكن لها مؤثرات مرتبطة بآثارها؛ ما استطاع الناس في تخصصاتهم أن يدركوا العلوم، ولكن وجود المؤثرات والنتائج يجعل العلوم أقرب إلىٰ الصحة، ومعرفة النتائج أقرب إلىٰ المعرفة من غيرها.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد اختلف العلماء في التداوي هل هو مباح وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب، فالمشهور عن أحمد الأول لهذا الحديث وما في معناه، ولكن على ما تقدم لا يتم الاستدلال به على ذلك، والمشهور عند الشافعي الثاني حتى ذكر النووي في شرح مسلم أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف، واختاره الوزير أبو المظفر، قال: ومذهب أبو حنيفة أنه مؤكد حتى يداني به الوجوب، قال: ومذهب مالك أنه يستوي فعله وتركه، فإنه قال: لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه. وقال شيخ الإسلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة، إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد.

قوله: (فقام إليه عُكّاشة بن مِحْصَن) بضم العين و تشديد الكاف ويجوز تخفيفها، ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين ابن حرثان بضم المهملة وسكون الراء وبعدها مثلثة، الأسدي من بني أسد بن خزيمة، ومنه خلفاء بني أمية، كان من السابقين إلى الإسلام، ومن أجمل الرجال، هاجر وشهد بدراً وقاتل فيها، قال ابن إسحاق: وبلغني أن النبي ﷺ قال: «خير فارس في العرب عكاشة» ومناقبه مشهورة استشهد في قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد بيدي طليحة الأسدي سنة اثنتي عشرة ثم أسلم طليحة بعد ذلك.



الشرح

هنا أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوال أئمة المذاهب في التداوي، ولم يرتِّبهم بحسب وجودهم الزمني، فإن أقدم إمام من أئمة المذاهب هو أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن التداوي مؤكَّد، كقوله في سُنة الفجر: إنها مؤكدة حتى يداني بها الوجوب، يعني: حتى تقترب من الوجوب، ليست واجبًا، بل أقرب إلى

الوجوب منها إلىٰ الاستحباب، وأما مالك رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه يقول فعله وتركه سواء، يعني أنه جائز.

وأما الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه يراه مُستحبًّا يعني أنه أقرب من الوجوب منه إلىٰ الإباحة، وهو الاستحباب، فالشخص إذا تعالج يكون له فيه أجر، وإذا تركه ليس عليه فيه وِزر.

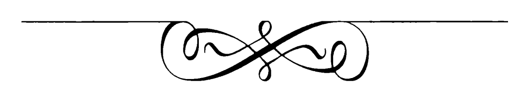
أما الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه يراه مُباحًا، وأن تركه أفضل.

فهذه لعلها مقامات للناس، فالذي يصبر ولا يترتب علىٰ وجود المرض عنده تعطيل لأمر شرعي، يجوز أن يصبر علىٰ المرض؛ لأنه كلما صبر علىٰ المرض كان له أجر، والحياة الدنيا ليست هي المقصد من الوجود، وإنما المقصد هو الآخرة، فكل ما قرب الإنسان من الآخرة، وكل ما نفعه فيها، فإنه يكون مقصدًا، فالذي يصبر علىٰ البلاء، له فيه أجر ينفعه في الآخرة، فإذا كان مرض الإنسان لا يترتب عليه حقوق، أو ضياع عائلة،أو ترك بعض الأحكام والواجبات الشرعية، فلعل هذا لو صبر لكان أفضل، ولكن إذا كان وجود المرض يترتب عليه مفاسد في دينه ودنياه، فقد يصل أحيانًا إلىٰ الوجوب، فهذا علىٰ حسب درجات الناس، والله أعلم.

قوله: (**فقام إليه عُكَّاشة بن مِحْصَن، بضم العين...**)، عُكَّاشة بالتشديد، أو عُكَاشة بالتخفيف، وعكاشة بن محصن قتله طليحة بيده، فإن طليحة الأسدي جاء مع قومه عام الوفود، وكان طليحة يُعَد بألف فارس، كان رجلًا شجاعًا، ادَّعَىٰ النبوة، فأرسل له النبي ﷺ زرار بن الأزور، حتىٰ لم يبقَ بينه وبينه إلا أن يأخذه، فضربه بسيفه، فلم يؤثر فيه، فالناس قالوا: فهذا نبي، إذ لا يضرُّه ضرب السلاح، لأن السلاح لا يؤثِّر في الأنبياء، فتبعه أناس، حتىٰ بعث إليه الصدِّيقُ خالدَ بن الوليد، فأرسل خالد بن الوليد عيونًا له، أو طليعةً له، أي مَن يعرف



أخبار القوم، فبعث اثنين عُكاشة وشخصًا آخر، فقبض عليهما، فقتلهما، وبَقِيَ طليحة، حتىٰ هُزِمَ، ثم ذهب إلىٰ الشام، وبَقِيَ إلىٰ أن انتقلت الخلافة إلىٰ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وجاء بعمرة إلىٰ مكة، ثم ذهب إليه، وأسلم، فحَسُنَ إسلامه، ثم مات شهيدًا في معركة نهاوند. فأخبر النبي ﷺ أن عكاشة من أهل الجنة، وهذا من علامات النبوة، فإنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بَقِيَ مُوحِّدًا مُسلمًا، حتىٰ مات شهيدًا، وهذا من أخبار الغيب، التي لا يعرفها إلا الأنبياء، فأخبر الرسول ﷺ أنه من أهل الجنة، وأنه من السبعين ألفًا، فقُتِلَ علىٰ يد هذا المتنبِّئ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (قال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم) في رواية البخاري (فقال: اللهم اجعله منهم) وكذلك في حديث أبي هريرة عند البخاري مثله، وفي بعض الروايات: (أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: نعم)، قال الحافظ: ويُجمع بأنه سأل الدعاء أولا فدعا له، ثم استفهم هل أجيب فأخبره، وفيه طلب الدعاء من الفاضل.

قوله: (ثم قام إليه رجل آخر) لم نقف على تسميته إلا في طريق واهية ذكرها الخطيب في المبهمات من رواية أبي حذيفة إسحاق بن بشر أحد الضعفاء من طريقين له عن مجاهد: (أن رسول الله ﷺ لما انصرف من غزاة بني المصطلق) فساق قصة طويلة فيها ذلك، قال الحافظ: وهذا مع ضعفه وإرساله يستبعد من جهة جلالة سعد بن عبادة، فإن كان محفوظًا فلعله آخر باسم سيد الخزرج واسم أبيه فإن في الصحابة كذلك آخر له في مسند بقي ابن مخلد، وفي الصحابة سعد بن عمارة فلعل اسم أبيه تحرف.



الشرح

هذه ثلاث روايات وردَت في جواب عكاشة، الأول: (أنت منهم)(١)، يعني سأل: (أنا منهم يا رسول الله؟ قال: أنت منهم)، والثانية: (قال: يا رسول الله، ادعُ الله أن أكون منهم)(٢)، والثالثة: (قال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: نعم)(١)،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم: (٢١٨)، (١/ ١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخلون الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، برقم: (٦٥٤١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم: (٢١٦)، (١/ ١٩٧).

فليست هـذه كمـا يقـول ابـن حجـر رحمه الله: أنـه ربمـا قـال ادعُ الله، ثـم أخـبره بأنـه استجاب، الرواة هم الذين تصرَّفوا في اللفظ، ولكن كلها تؤدي إلىٰ المعنىٰ، أن عكاشة بن محصن من السبعين ألفًا، وأن الـرواة رَوُوا الحـديث بـالمعنىٰ، لعـل بعضها أصح من بعض.

هنا أراد الحافظ رحمه الله أن يبحث عن اسم هذا الرجل الذي قام بعد عكاشـة، والرواة لم يذكروا من هو، وإنما قالوا: قام رجل آخر، وهناك مؤلفات كتبت في المبهمات، يبحث عمَّن هو الرجل المـُبهَم في الحـديث، ولكـن عـادةً أو غالبًا يوجد اسم الشخص المـُبهَم في أسانيد ضعيفة، فلا ينبغي أن يُصار إليه، وهـذا لعله في قصة في بني المصطلق، ولم يذكر ما هي القصة، ولكن لعل فيهـا جرحًا في مكانته، وقال: هذا لا يليق بسعد بـن عبـادة، وغـزوة بني المصـطلق، -وهـي غـزوة المريسيع- وقعـت في العـام السـادس، وقيـل: الخـامس، وقيـل: الرابـع، وفيهـا حـوادث كثيـرة، أولهـا قضـية عبـد الله بـن أُبـي ابـن سـلول، عنـدما تنـازع أنصاري ومهاجري، فصاح الأنصـاري وقـال: يـا للأنصـار، وصـاح المهـاجري وقال: يا للمهاجرين، قال عبد الله بن أُبي المنافق: أوقد فعلوها؟ هـذا مـا فعلـتم بأنفسكم، كما قال القائل: سَمِّن كلبَك، يأكلك، والله لـئن رجعنـا إلـىٰ المدينـة، ليُخـرِجَنَّ الأعـزُّ منهـا الأذلَّ، وكـان زيـد بـن أرقـم رضي الله عنه حاضـرًا لهـذا الكـلام، فذهب إلـىٰ رسـول الله ﷺ وأخـبره، فالرسـول ﷺ أراد أن لا يتحـدث أصـحابه بالحديث، فمشىٰ بهم مشيًا أرهقهم، حتىٰ وصلوا إلىٰ مكان بعد عـدة ليـالٍ، ثـم نزلوا، ثم ناموا، هذا من السياسية الحكميـة للنبي ﷺ؛ لأنـه يعني فتنـة؛ لأن لـه قومًا يغضبون لغضبه، ويرضون لرضاه، فجاء ابنه عبـد الله، قـال: يـا رسـول الله، والله لقد علمت الخزرج أنني من أبرِّ الأولاد بآبـائهم، ولقـد سـمعتُ أنـك تريـد

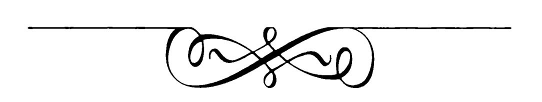
---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب مَن لم يرقَ، برقم: (٥٧٥٢).

أن تقتل أبي، فإن كان ولابد، فدعني أنا أقتله، فإنني لا استطيع أن أرىٰ قاتل أبي يمشي، وأخشىٰ أن أقتله، فقال: (لا، بل نترفق به، ونُحسِن صحبته، ما دام معنا)، فعدم معاقبته، جعل قومه هم الذين يلومونه كلما أحدث حدثًا، حتىٰ مات في العام التاسع عام الوفود، فصلَّىٰ عليه ﷺ، ودفنه في إزاره ﷺ، وهذا كله من ترفُّقه ﷺ بأصحابه، وإلا فهذا كافر في الباطن، وكان الرسول ﷺ يعلم أن إثارة الفتنة ليس من مصلحة الدعوة، ولا من مصلحة الأمة، فترفق به.

والحدث الثاني: زواجه بجويرية بنت الحارث، زعيم بني المصطلق، فعندما أعتقها وتزوجها، أعتق الصحابة مائة بيت بسبب زواجه، فقال الصحابي: ما رأينا امرأة بَرَكَتها علىٰ قومها، كبركة جويرية، ثم أسلم الناس بعد أن أعتقهم الصحابة ﷺ.

الحدث الثالث: قصة الإفك المشهورة، التي في عائشة -رضي الله عنها-.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (سبقك بها عكاشة) قال ابن بطال: معنىٰ قوله: (سبقك) أي: إلىٰ إحراز هذه الصفات، وهي: التوكل وعدم التطير وما ذكر معه، وعدل عن قوله: لست منهم، أو لست علىٰ أخلاقهم، تلطفًا بأصحابه وحسن أدب معهم.

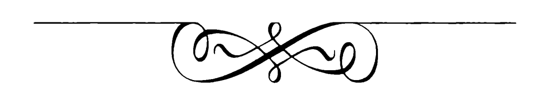
الشَّرْح

قوله: (سبقك بها عكاشة...)، هنا قال: لم يقل الرسول ﷺ: أنت لست منهم، أو لست مثلهم، وإنما قال: (سبقك بها عكاشة)، فهذا ليس فيه بيان أن هذا الرجل ليس من المسلمين، وليس من الصالحين، وليس من السبعين ألفًا، وإنما أراد أن يسدَّ الباب، وهذا الرجل ليس منافقًا؛ لأنه لا يُثبَت أنه منافق إلا بدليل، ثم إن المنافق لا يكون حريصًا علىٰ الخير كحرص هذا الشخص، ولكن الرسول ﷺ أراد أن يسد الباب؛ لأنه لو وافق هذا الثاني، فإنه سيتسلسل الأمر حتىٰ يدخل فيه مَن ليس من المؤمنين، وقد يكون من المنافقين.

هذا هو نهاية الحديث الماضي، حديث عَرْض الأمم، فإنه عندما ذكر النبي ﷺ أن من أمته مَن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم دخل منزله، ولم يُخبِرهم بصفات هؤلاء الأشخاص، فخاض فيهم الناس، قال: (هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوون، وعلىٰ ربهم يتوكلون)، فقام عكاشة بن محصن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان من أبطال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن أكون منهم، قال: (أنت منهم)، فطمع الحاضرون، فقام شخص فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن أكون منهم، فسدَّ رسول الله ﷺ هذا الباب؛ حتىٰ لا يتسلسل فيطلب الدخول فيهم مَن ليس منهم، فبأسلوب مؤدب، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (سبقك بها عكاشة)، يعني انتهىٰ الأمر، وإنما هو بطريق التعريض -كما سيأتي في معنىٰ

التعريض-، فبهذا يكون بقية الحاضرين لم يسألوه؛ لأن الباب قد انتهى، فاختلف العلماء فيمَن هو الذي قال هذا القول؟ كما سيذكر المؤلف رحمه الله.

وكثيرًا ما نجد ابن حجر رحمه الله يقول في فتح الباري: قال ابن بطال، قال الكرماني، قال فلان، هؤلاء شُرَّاح للبخاري، وابن بطال هذا أندلسي، عاش في قرطبة، وتوفي عام أربعمائة وتسعة وأربعين هجرية، أي في منتصف القرن الخامس، فهو من أهل المغرب، وكثيرًا ما ينقل عنه ابن حجر رحمه الله في (فتح الباري).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال القرطبي: لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجب، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضرًا، فيتسلسل الأمر فسد الباب بقوله ذلك.

وهذا أولىٰ من قول من قال: كان منافقًا لوجهين: أحدهما: أن الأصل في الصحابة عدم النفاق، فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح. والثاني: أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح ويقين بتصديق الرسول ﷺ وكيف يصدر ذلك من منافق.

قلت: هذا أولىٰ ما قيل في تأويله وإليه مال شيخ الإسلام، قال المصنف: (وفيه استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ).



الشرح

قوله: (وقال القرطبي: لم يكن عند الثاني...)، قلنا اختلف العلماء في سبب إيقاف النبي ﷺ السؤال، هل هو بسبب أن هذا الرجل ما كان أهلًا، أو أنه كان أهلًا ولكن الرسول ﷺ أراد أن يسدَّ الباب، أو أنه كان منافقًا؟ فالقرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجَّح الأول، أنه كان مسلمًا، وكان مؤمنًا صالحًا، ولكن لم يكن عنده من الصفات الحميدة ما كان عند عكاشة، والاحتمال الثاني: أن يكون عنده صفات حميدة، ولكن الرسول ﷺ أراد أن يسد الباب؛ حتىٰ لا يطلبه مَن لا يستحقه، والاحتمال الثالث: أن بعض العلماء قال: كان منافقًا، وهذا ليس صحيحًا لأمرين:

الأمر الأول: أن الوصف بالنفاق في الصحابة لا يُثبَت إلا بدليل، والأصل في الصحابة عدم النفاق، فلا ينبغي أن يوصف بالنفاق؛ لأن هذا أمر لم ينقل، فافتراض أسوأ الصفات فيهم خطأ.

والأمر الثاني: أن المنافق لا يطمع في الآخرة أصلًا؛ لأن المنافق في الباطن كافر، حتىٰ يسأل هذا السؤال، وعادةً لا يسأل المرافقة في الجنة، أو دخول الجنة، أو المغفرة، إلا مَن كان في قلبه إيمان، ويؤمن بالآخرة والجزاء والحساب والثواب والجزاء.

قوله: (**قلت: هذا أولىٰ ما قيل في تأويله...**)، هنا رجَّح قول ابن تيمية رحمه الله، أن هذا لا يصدر من منافق، وقوله ﷺ: فيه حُسْن أدبه، ويستنبط منه جواز المعاريض، والمعاريض: أن تذكر لفظًا له معنيان، معنىٰ خفي، ومعنىٰ جلي، أي: معنىٰ بعيد ومعنىٰ قريب، وأنت تريد المعنىٰ البعيد، مثال ذلك قول الشاعر:

ومطبخ داود في نظافته ... أشبه شيء بعرش بلقيس

يصف مطبخ زميل له بأنه نظيف، فهذا في الظاهر مدح، وفي الحقيقة ذم له بالبخل؛ لأنه لا يطبخ فيه شيء أصلًا، لو كان يُطبَخ فيه، ما كان نظيفًا، فالمطبخ الذي يُطبَخ فيه يوميًّا، لا يكون نظيفًا مثل عرش بلقيس، لابد أن يكون فيه آثار الدخان، وآثار الطبخ، فهو أراد به أن يصفه بالبخل، ولكن ظاهر البيت مدح، فهذا تعريض، ولهذا عقد البخاري رحمه الله في صحيحه بابًا، قال فيه: (باب المعاريض مندوحة عن الكذب)، ولهذا يُقال في إبراهيم عليه السلام في كذباته الثلاث التي جاءت في الحديث أنها معاريض:

الأولى: عندما قال لقومه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات:٨٩]، وهو أراد به المرض، والإنسان المسلم الصالح إذا رأى المنكرات، يمرض قلبه، لِمَا يرى من منكرات، فلعلَّه أراد هذا.

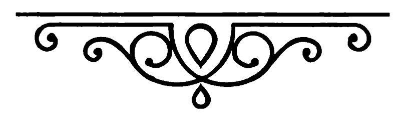
والثانية: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقال بعض العلماء: أراد إبهام الذي شارك في تكسير هذه الأصنام، وبعضهم قال: أراد به التوبيخ.

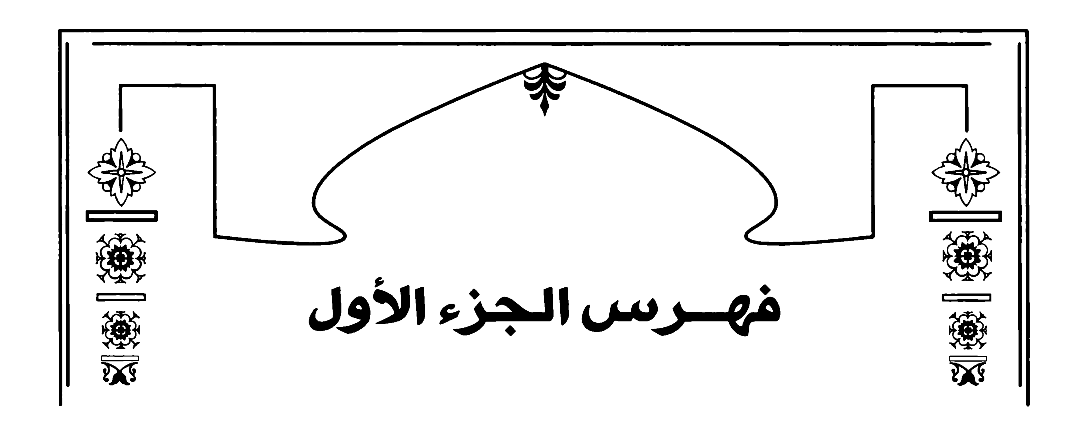
والثالث: قوله في زوجته: إنها أختي، وذلك عندما قَدِمَ إلى مصر، وأراد ملك مصر أن يخطفها عنه، فخاف، وقال: لو قلت إنك زوجتي، قتلني، فقلتُ: إنك أختي، وليس في الأرض مؤمن غيري وغيرك، فهذا تعريض، فذكر لفظًا وأراد به المعنى الأبعد، والمعنى القريب أنها أخته من النسب، وأراد أخته في الإسلام.

وكذلك قوله ﷺ: (**رفقًا يا أنجشه بالقوارير**)(١)، قال العلماء: فيه تعريض، لم يُرِد به القوارير الحقيقية، بل أراد به النساء، أي تشبيه النساء بالقوارير؛ لأن الِجمال إذا سمعت الحداء، تُسرِع السير، والنساء لا يتحمَّلن سرعة السير، فهذا فيه تعريض بأن النساء لا يتحمَّلن سرعة السير، فارفق بهم يا أنجشه، يعني لا تُكثِر من الحداء، فالمعاريض جائزة، بشرط أن لا تأخذ بها حق غيرك، وأن لا تَضُر بها غيرك، وإنما تقولها لتنجو من مَهْلك، أو لتحمي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء...، برقم: (٦١٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمة النبي ﷺ للنساء، برقم: (٢٣٢٣)، (٤/ ١٨١١).

غيرك من هلاك، ولهذا يُقال: إن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان في بيته شخص هارب من الإمام، وهذا الشخص الهارب كان مظلومًا، فسأله أحد الجنود من خارج البيت: يا أبا عبد الله، عندك فلان؟ قال: فلان ليس هنا، ماذا يفعل هنا؟ ووضع إصبعه على يده، وهو صادق؛ لأنه أراد أنه ليس على راحته، ولكن الجندي فهم أنه ليس في المنزل، فقال العلماء: المعاريض إذا كان فيها حماية لحق، أو دفع لباطل، جازت، ولكن لو كان فيها أخذ لحق، أو حصول على باطل، لا تجوز، فلا يجوز التوسُّع في ذكر المعاريض، وإنما تجوز عند الحاجة، بشرط أن لا يتضرر منها إنسان، وأن لا تأخذ بها حق الآخرين.





فهــرس الجزء الأول

المحتويات **الصفحة**

تم بحمد الله الجزء الأول

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الثاني